جان فانييه وسفينته

أديب مصلح

مقدّمة

في عالَمٍ يؤرّقه العنف المستشري، وتمزّقه العداوات المأفونة، وتهدّده الدعوات إلى البغضاء والقتل والتدمير، قد ننزع إلى فقدان الإيمان بالإنسانيّة، إذ ماذا يبقى من الإنسان عندما هو يفقد إنسانيّته ؟ ولكن يكفي أَن تمتدّ يدٌ حنون إلى جسدٍ جريح، فتضمّد جراحه، وأَن تؤاسي كلمة عطف إنساناً يائساً، فتنعشه وتشدّ من عضده، وأَن يقتسم بشرٌ أحزانهم وأَفراحهم، كي تنبعث البشريّة من جديد، وتُشيع فينا الدهشةُ أَشعّتها الخلاصيّة، فنستعيد الرجاء في إنسانيّة حقّة.

و قد تهزّ إيمانَنا الكوارثُ الطبيعيّة، والمآسي التي يُنزلها بشرٌ بإخوانهم، ومشاهد "البؤس البريء " الذي لا نجد له تفسيراً، وقد تُفجّر فينا " لماذا " وجيعاً. ولكن عندما ننتقل من " لماذا " إلى " من أَجل ماذا؟ " قد تتوفّر لدينا الإجابة. فمواجهة البؤس بقلبٍ مؤمن غالباً ما تستنهض التضامن، والتعاطف، وتفجّر ينابيع السخاء، وتهذّب نفوس البشر، وتكسبهم رهافة حسّ، ولا سيّما عندما هي ترسّخ شعورهم بالمسؤوليّة عن إخوتهم المتألّمين، وتدفعهم إلى محبّتهم وإغاثتهم.

لا جَرَم أنّ الشرّ واقعٌ راهن، يستثير غضبنا واستنكارنا، ويدعونا إلى مكافحته؛ ومن المحقّق أنّ الشعور بالنبذ والمرارة والوحدة، يسحق من ترهقهم المصائب، والمرض، والشيخوخة. ولكن، ثمّة نور سنيّ يخترق الظلمات المحيقة بنا. فالبشر الذين يهبّون بحميّة إلى بذل الغوث، ويغدقون العطف، والعطاء، هم في ازدياد. إنّهم يحقّقون المثل الأفريقيّ القائل: " الإنسان هو دواء الإنسان "؛ ومن خلالهم يتجلّى وجه اللّه المحبّة الذي لا يحيط به وصف، مثلما يتجلّى، من خلال المتألّمين والمنبوذين، وجه المصلوب، الذي، بتقبّله الألم والمهانة والنبذ، حبّاً بالبشر، ارتقى بالألم إلى مرتبة سرٍّ قدسيّ.

إنّ الصلبان تملأ أحياء عالمنا، وساحاته، وشوارعه، صلبان أَجساد جريحة أو محطّمة، وبطون جائعة، وكرامات ممتهنة، وإرادات مستلبة؛ غابات من الصلبان المتلاصقة على امتداد كرتنا الأرضيّة؛ وعليها يشعّ نور صليب يسوع، باعثاً أَملاً ورجاء، ومفجّراً ينابيع محبّة لدى كلّ من هزّه، يوماً، صليب البريء، ابن اللّه.

إنّ أَمثال هؤلاء، قدّيسي أَمس واليوم، المعروفين والمُغفلَين، يعكسون وجه يسوع السنيّ، ويغذّون حلماً ما انفكّ يراود البشريّة، حلم عالَمٍ جميع أَفراده متضامنون ومتحابّون، عالَم يغمره حبّ اللّه، الذي قد يرهقنا، أَحياناً، الشعورُ بغيابه عن أَرضنا، حيال استشراء الشرّ وسيادته. غير أَنّ اللّه قائم فيما بيننا، في قلوب أَبطال تخلّوا عن كلّ شيء، عن ممتلكاتهم، ورفاههم، ومستقبلهم المهنيّ؛ وخاطروا بحياتهم، غالباً بعيداً عن مواطنهم، كي

يُغيثوا، ويؤاسوا، ويصالحوا اليائسين مع الحياة، والفرح، والأَمل. إِنّهم يبذلون، ولا يكلّون من البذل، ولا تخمد لهم همّة رغم توفّر أَسباب الإِحباط، وتضخّم أَعداد الأَشرار والمسيئين. ومن خلالهم يلمس البشر أَنّ اللّه قريب منهم، حاضر بين ظهرانيهم، ولكأنّه يحتاج إِلى أَيادي وقلوب بشرٍ متضامنين، متّحدين، منفتحين، جريئين وأَسخياء، كي يتجلّى.

و جان فانييه هو واحد من أولئك الذين تحصّنوا ضدّ شرور العصر، وباتوا منارات على دروب البشر، وجعلوا من ذواتهم سماوات داخليّة.

كان يمتلك كلّ أسباب رغد العيش من يُسر وسكون، ولكنّ نداء تطويبات يسوع كان أَشدّ أَسراً على نفسه من كلّ مُتع الدنيا، فضحّى بهنائه ونجاحه ومستقبله المهنيّ، وارتمى في أَحضان المجهول، وفي بحران الأَلم، و" البؤس البريء "، حيث التقى اللّه، وعاش معه.

سبر عمق الأَزمات النفسيّة والاجتماعيّة والأَخلاقيّة التي تتخبّط في عبابها مجتمعاتنا، فاختار السباحة في عكس تيّارها الجارف، وانتهاج الدرب الوعر الذي يفضي إِلى السلام والحبّ الحقّ. وقد أَوجز، هو نفسه، رؤيته وخياره، بقوله :

" الخطر الذي يُنذر حضارتنا يتمثّل في تشجيع الجميع على تسلّق سلّم النجاح، والسلطة، والامتلاك، ممّا يشجّع العزلة، ويخلق الفرقة بين من يصيبون النجاح ومن يفشلون في إِصابته، فيصبحون محبطين وعدائيّين. أَوَلا يتعيّن قلب التيّار، وتشجيع الجميع على هبوط هذه السلّم عينها من أَجل لقاء القوم الأَكثر فقراً، وعقد علاقات معهم ؟

"علينا اختيار واحدٍ من لونَيْ جنون : جنون الإِنجيل الذي يرى في الفقير علامةً، وسرّاً إِلهيّاً، يعلن سرّ يسوع، ويقودنا نحو تحرّر داخليّ حقّ، عبر حياة اجتماعيّة قائمة على علاقات واحتفالات؛ ومن جهة أُخرى قِيَم العالم، التي تدفع الإِنسان إِلى نشدان الثروات لأَنفسهم، مع ما يجرّه هذا النشدان من ازدراء ونبذ للآخرين، وحماية للذات، وإِقامة الجدران بينهم وبين الآخرين، والتسلّح من أَجل إِحكام الدفاع عن النفس. وتضارب المصالح هذا يفضي إِلى الدمار. لقد قال لنا قسّيس أَنكليكانيّ، يوماً : " إِمّا أَن نستمرّ في السير فوق الفقير، ممّا سيؤدّي إِلى انفجار الأَسلحة الذريّة، وإِمّا أَن نسير مع الفقير ممّا سيُفضي بنا إِلى التجلّي في يسوع المسيح ".

"و هل تتسنّى مقاومة غواية الثروات، والسلطة، والمُتع السطحيّة، وهموم العالم، إِلاّ في الانتماء إِلى جماعة غفران واحتفال مرتكزة على الفقير ؟ ولكن مثل هذه الحياة الجماعيّة تتعذّر في معزل عن وحي الإِنجيل الذي، في مواجهة قِيَم عالمنا الثقافيّة، يرى في الفقير مصدر إِلهام إِيجابيّاً، وفي السلطة خدمةً لا امتيازاً."

إِنّ جان فانييه، بحياته وفعاله، أَثبت حماقة مجتمعٍ إِستهلاكيّ لا يتطلّع إِلاّ إِلى الرفاه والنجاح المادّيّيْن بأَيّ ثمن، وبأسلوبه القائم على التواضع المطلق، والتواصل المحبّ،

والبذل السخيّ، وبساطة القلب، أبرز عقم ما يعظّمه العصر، أي كبرياء الفكر، وشهوة السلطة.

كلّ ما نصَّب منه العصر آلهة يعبدها، تحاربه رسالة جان فانييه، وكلّ ما يرذله العصر، يرتقي، هو، به، إلى أسمى مرتبة. فهو لم يؤمن، قطّ، بمبرّرات الجدوى الاقتصاديّة، ولا بواجب النجاح بأيّ ثمن، وقد اندرجت حياته في الضعة والسخاء، ولكأنّه تكذيب حيّ لحضارة السرعة، والرغبة الجامحة في الغبّ من كلّ امتلاك ومتعة، وفي القبض على مقاليد كلّ سلطة.

و في عهدٍ يزدري الوَهَن، ويداوي الألم بالمخدّرات، أبرز وجه الألم الإلهيّ، المتمثّل في الصليب، وباقتسامه أوهان بني عصره ومخاوفهم، أماط اللثام عن أقنعتهم وثوراتهم الكمينة، وبات قادراً على تلمّس جراحهم، ومؤاساتها.

و قد ارتفع صوته مجلجلاً للإشادة بالقيمة السامية التي يستشفّها في المعاقين عقليّاً، الذين يعدّهم " الطبيعيّون " من أخطاء الطبيعة، ومن نوافل الوجود، وهم الذين آثرهم بحبّه، وعقد معهم أواصر صداقة، ولم يكن هجره مركزه، وعيشه في تواصل حميم معهم، وتأسيسه جماعات " السفينة " التي تستضيفهم، وتستقطب مئات النفوس السخيّة المكرّسة لخدمتهم، سوى الدليل الساطع على رفيع تقديره لهم، واحترامه لوجودهم، وإيمانه الراسخ بقول القدّيس بولس : " إنّ اللّه اختار ما يعتبره العالم حماقة ليخزي الحكماء، وما يعدّه العالم ضعفاً ليخزي الأقوياء، واختار ما يحتقره العالم ويزدريه ويظنّه لا شيء، ليُزيل ما يظنّه العالم شيئاً " (1كور 1 : 27 – 28)

إنّه، بمحبّته الصادقة، وعطفه العذب، وتضامنه مع كلّ البشر، كان أكثر إقناعاً من كلّ تحليلات المنظّرين، وكلّ مواعظ المبشّرين.

لقد ضرب المثل الأروع على المحبّة الصادقة، تلك التي وصفها جان غيتون بأنّها "اتّصال إنسانيّ مع بشرٍ محرومين، اتّصال مطّرد، مثابر، متجدّد ببراعة، مع كرّ الأيّام ". وقد حقّق، واقعيّاً، تعريف الفيلسوف " آلان " للمحبّة بأنّها " أكثر من السعي إلى مساعدة الآخرين، فهي اعتبارهم رائعين، وعدم الارتواء من رؤيتهم ". وجان فانييه لم يقتصر على عدم الارتواء من رؤية أكثر البشر وهناً، بل لم يرتوِ، قطّ، من معايشتهم ليلَ نهار، ومن إنفاق كلّ لحظة من حياته في الإصغاء إلى احتياجاتهم الكمينة، والجهد في تلبيتها، وفي مؤاساة أجسادهم المحطّمة، وبعث الفرح والسلام في حنايا نفوسهم.

لقد انتهج درب الصِّغر، ولم يستصغر أيّ إنسان أو أيّ عمل، بل أضفى، على أوضع المهامّ، شأناً قدسيّاً سامياً.

و في عصرٍ تلتهمه حمّى الإنتاج والجدوى، ذكّر أنّ التأمّل والصلاة هما النبع الــذي يستمدّ منه كلّ امرئ قوّته الحقّة، وأنّ القضايا الإنسانيّة الحادّة لن تجد لهــا حــلاًّ، إن هــي طُرحت، فقط، من ملحظٍ اقتصاديّ أو اجتماعيّ، وإن أُغفل أنّها تنبع، أساساً، من مقاصد اللّه التي يستغلق فهمها، أحياناً، على مداركنا، وفي نهاية المطاف لا يتحقّق حــلٌّ إلاّ فــي قبول محبّة المسيح.

جان فانييه وجه نيّر يتجلّى من خلاله حبّ اللّه للبشر، ونبيّ من أنبياء عصرنا يحمل إليه رسالة اللّه الخلاصيّة. إنّه حَكَمٌ على العصر، ومرشدٌ له، يعكس صورته ويناقضه. إنّه الصرخة التي تعبّر عن مِحَن البشر ومخاوفهم، والصوت الجريء الذي يدلّ إلى أسباب هذه المِحَن والمخاوف، والنموذج الكفيل بتحطيم حلقتها المفرغة.

إنّه من الرسُل الذين يفتقر إلى أمثالهم زماننا، فهم كفيلون بتسريب العافية إلى أوصال البشريّة المعتلّة.

لقد تملّى من روح غاندي في خدمة المنبوذين، وبُهر بأساليب الأمّ تيريزا في العطف على المهجورين، وانتهج درب فرنسيس الأسّيزي في الفقر والتجــرّد والبســاطة والحــبّ الشامل، وعلى غرار الأب بيير كان صوت من لا صوت لهم يستغيثون به؛ وعلى غــرار الأُخت إيمانويل أوجد، من لا شيء، ما يغمر بالسعادة نفوس المحرومين. ومثــل هــؤلاء جميعاً، آثر العيش مع أشدّ المحرومين حرماناً، ونظيرهم، عاش عظة الجبل والتطويبات بكلّ ما تنطوي عليه من مفارقات، وتحدّ، وروعة.

إنّ بروز عباقرة الروح هؤلاء لشهادة صارخة بأنّ الرجاء ما زال خفّاقاً في القلــوب، ومُتاحاً للبشر، وأنّ مبادئ الإيثار والمحبّة والبذل ما زالت تستميل نفوساً كثيرة، وأنّه، رغم الدعوات المحمومة التي يطلقها دعاة الاستهلاك الجامح، والقــوّة، والنجــاح بــأيّ ثمــن، والمتعة، ويرفعون شعاراتها فوق كلّ مُثُل عليا، ما زالت هناك قلوب كبيرة تكتشف جمــالاً في الصغار والمسحوقين، وتتذوّق سعادةً صرفاً في خدمتهم، وتبلغ عظمةً سامية، بازدرائها مُثُل العصر الجذّابة.

في كثافة ظلمات عصرنا تضيء شعلة جان فانييه ونظرائه من عمالقة الحبّ وأبطال العطاء، رمزَ وفاءٍ للروح، وبارقة رجاء للمستقبل.

البابا القدّيس بيوس العاشر كان قد قال : " إنّ ما يحتاج إليه العــالم هــو علمــانيوّن قدّيســـون ". وجـــان فانييـــه واحـــدٌ مـــن أولئـــك القدّيســـين الأفـــذاذ.

الجزء الأوّل

بحّار يبني سفينته

من هو جان فانييه ؟

كنديّ الجنسيّة، وُلد في العاشر من أَيلول سنة 1928، وهو الابن الرابع لجورج فيلياس فانييه الذي كان، يومها، مستشاراً عسكريّاً لدى عصبة الأُمم في جنيف، وأصبح، فيما بعد، الحاكم العامّ التاسع عشر لكندا؛ مربيّة الصبيّ الإسكتلندية استبدلت اسمه "جان" بلقب "جوك"، الذي شاع فترة طويلة على أَلسنة أَفراد الأُسرة والأَصدقاء. تلقّى جان أوّلاً تربية بريطانيّة، إِذ كان والده قد عُيِّن في الثلاثينيّات، سكرتيراً للمندوب السامي الكنديّ في لندن؛ ولكن عام 1939، قُبَيْل نشوب الحرب، كان جورج فانييه قد عُيِّن وزيراً مفوّضاً لكندا في باريس، وآثر أَلاّ يستمرّ أَبناؤه في تلقّي ثقافة بريطانيّة، فاستقدمهم إِلى فرنسا، ليكونوا على مقربة منه. ولكن، إِذ كانت خشية قصف المدافع والطائرات النازيّة تدفع بمن يستطيعون الفرار، إِلى خارج العاصمة الفرنسيّة، أَقامت السيّدة فانييه وأَبناؤها في قصر في محلّة "بايو"، مع أَسَر أُخرى من الدبلوماسيّين، وأُرسل الأَولاد إِلى مدينة مجاورة للدراسة.

و في أَيّار 1940، مع اشتداد القصف على باريس وضواحيها، نزحت الأُسرة نحو جنوب فرنسا، وتريّثت، ردَحاً، في مدينة بوردو حيث لحق بها الوالد، وقرّر العودة بها إِلى بريطانيا. وأَبحرت الأُسرة على متن باخرة شحن، برفقة أُسَرٍ أُخرى من الديبلوماسيّين. وقد حفلت تلك الرحلة، التي استغرقت خمسة أَيّام، بالخبرات البليغة الأَثر؛ ففي كلّ مرفأ كانت جماعات مذعورة تحاول الانضمام إِلى ركّاب الباخرة هرباً من الخطر المداهم، ولكنّ القبطان كان يرفض استقبالهم حرصاً على سلامة سفينته المثقلة بالبضائع، ولا سيّما اللحوم القادمة من الأَرجنتين، وبجماعات النازحين الذين أَقلّهم في "بوردو". وكانت مشاهد الذعر والقنوط لدى الذين سُدّت في وجوههم سُبُل النجاة تنحفر عميقاً في ذاكرة الفتى " جوك " وفي قلبه. كما أَنّ الخوف الدائم من هجمات الطرّادات والغوّاصات العدوّة كانت تُبقي الركّاب في حالة اضطراب وتوتّر دائمين؛ وكان يزيد من إِحباطهم التقشُّف المفروض عليهم، فالطعام مقصور على السردين المعلّب، والخبز، وشرابهم شاي مغليّ بماء البحر؛ وقد أُوكلت إِلى "جوك" مهمّة قرع الجرس، ودعوة الركّاب إِلى الطعام.

ثمّ غادر آل فانييه إِنكلترا إِلى كندا حيث رُقّي عميدهم، جورج فانييه، عام 1942 إِلى رتبة جنرال، وكُلِّف بمهمّةٍ إِداريّة في مقاطعة كيبك، إِذ إِنّ تقدّمه النسبيّ في السنّ، وفقدانه إِحدى ساقيه في الحربّ العالميّة الأولى، قد حالا دون تكليفه بمهمّة أَكثر نشاطاً.

و يجمل جان فانييه انطباعاته عن طفولته بقوله : " في صغري كنت سعيداً داخل أُسرتي، وذكريات حداثتي ذكريات طيّبة. لا ريب أَنّ بعض الخلافات كانت تنشب بيننا،

نحن الإِخوة الخمسة، غير أَنّ صداقة وثيقة العرى كانت تجمعنا. كان والدانا يوفّران لنا الأَمان؛ ولست أَذكر أَنّ خلافاً نشب، يوماً، بينهما "

و فيما كان " جان " يتابع دراسته في مونتريال، خطر له، وهو في الثالثة عشرة من عمره، أَن يواصل مسيرة والده العسكريّة، وأَن يلتحق بالمعهد البحريّ الملكيّ في "دارتموث" بإِنكلترا. وبعد أَن جمع الوثائق المطلوبة، التمس مقابلة أَبيه في مكتبه، وموافقته على وضع رغبته هذه موضع التنفيذ؛ ولم يطل اللقاء، إِذ ما كاد جان يفرغ من عرض رغبته ودوافعه، حتّى اكتفى والده الجنرال بإِجابته: " أَنا أَثق بك ". كان الفتى جادّاً، وكان الوالد شديد التفهّم، وقد كان لموقفه أَبلغ أَثر في نفس " جان " الذي ما انفكّ يردّد أَنّ الثقة التي أولاه إِيّاها والده، بلا تحفّظ، قد رسَّخت ثقته بنفسه، وضاعفت طاقاته. وقد أَثبتت مسيرته كلّها، مع ما واكبها من تحوّلات أَساسيّة، أَنّ لتلك الثقة كان ما يبرّرها. ويعترف جان، في هذا السياق: "إِنّ الأَلم الناشب بكثيرين من المراهقين ناجم عن فقدانهم الثقة بأَنفسهم. ففي حين يبدو البالغون واثقين، وأَقوياء، وأَكفياء، يحتاج المراهقون إِلى دعم.

"أَنا، شخصيّاً، أوتيت حظّاً وفيراً؛ فعندما ابتغيت الانتساب إِلى البحريّة عام 1942 وأَنا في الثالثة عشرة، في حومة احتدام الحرب، كان عليّ، طبعاً، أَن أُفاتح بالأَمر والدي. وكان الوضع شديد الحرج، في حقبة كانت الغوّاصات الأَلمانيّة، فيها، تُغرق للحلفاء باخرة من أَصل ثلاث، ولا سيّما وأَنّنا كنّا نقيم في كندا، في حين أَنّ مدرسة البحريّة الحربيّة البريطانيّة كانت في إِنكلترا، ومن ثمّ كان يتعيّن عليّ اجتياز الأَطلسيّ. واستوضحني والدي عن سبب رغبتي في الانتساب إِلى البحريّة، ولست أَذكر بما أَجبته، ولكنّني أَذكر جوابه : " إِنّني أَثق بك، فإِن كانت تلك هي مشيئتك، فامضِ قُدُماً في تحقيقها."

فترة طويلة انقضت قبل أَن أدرك أَنّ قوله هذا وهبني الحياة. ولكنت رضيت بقوله لو هو قال لي : " تريّث، وبعد بضع سنوات سيكون بمكنتك الانتساب إِلى مدرسة البحريّة الكنديّة"، ولكنّني كنت سأَفقد ثقتي بحدْسي. إِنّ ثقته بي أولتني ثقة بنفسي، وساعدتني على عيش التحدّي بالكامل، ولا سيّما وقد حرصت على أَلاّ أخون ثقته.

موقف والدته كان مغايراً، فجان ما زال طريّ العود، وفي تلك الفترة من عام 1942 كانت عمليّات النسف والقصف الجويّ على أَشدّها في إِنكلترا، ممّا أَثار هواجسها وقلقها. ولكنّ الوالد حسم الأَمر بعبارةٍ اتّضح فيما بعد أَنّها كانت نبويّة إِذ قال : " ينبغي أَلاّ نقصّ جوانح هذا الصبيّ. فنحن لا ندري ما قد يصبح في المستقبل ".

ما الذي حدا بفتى كنديّ فرنسيّ في الثالثة عشرة بالمُضيّ إِلى دارتموث، واعتناق حياة البحريّة في غمرة الحرب العالميّة الثانية ؟ لا ريب أَنّه كان هناك دافع المثال الأَبويّ، والولع بالأَسفار، ولكنّ الدافع الأَقوى كان يكمن في التحدّي الذي يمثّله القبول في مدرسةٍ

تُخرّج "أَفضل ضبّاط البحريّة في العالم". ولم يكن استعار الحرب إِلاّ ليجعل التحـدّي أَشـدّ غواية. ولكنّ جان فانييه نفسه يرفض أَيّ تفسير، أو تحليل لاحق، كي يبرّر انضواءه تحت راية البحريّة، في تلك الظروف العصيبة، ويقول : " ما الذي جعلني أَنتقل مـن موقـف صبيانيّ إِلى ضرب من البطولة الحربيّة، ومن الحلم إِلى خطوات عمليّة ثابتـة فـي سـبيل تحقيقه ؟ لستُ أَملك على هذا السؤال أَيّة إِجابة".

و ربّما كان، وراء قراره هذا، مثال شقيقته الكبرى تيريز، التي كانت، في الثامنـة عشرة من عمرها، قد ضاقت ذرعاً بما يبديه الكنديّون من لا مبالاة حيال الحـرب الشـنيعة الدائرة في أوروبا، فيمّمت شطر إِنكلترا حيث انضمّت إِلـى فريـق إِسـعاف. ورغـم أَنّ الاتّصالات كانت شبه مستحيلة بين كندا وإِنكلترا، أُبلغت أَنّ أَخاها الأَصغر جان سيلتحق بها في غضون خمسة عشر يوماً، فنظّمت، مع رفاقها، دواماً متّصلاً بحيث يوجد، دائماً، فـي الشقّة التي تسكنها، من يستقبل الفتى القادم، ساعة وصوله. ولكن اتّفق، ليلة وصوله، أَن لم يكن في الشقّة أَحد، وعندما قدم بعضهم في التاسعة مساءً وجدوا الفتى مستسلماً لسباتٍ عميق، أَمام الباب، وقد انتثرت أَشياؤه من حوله.

معهد "دارتموث" لم يكن يختلف عن سائر المعاهد الكلاسيكيّة، إِلاّ في تعليمه، فضلاً عن الموادّ الدراسيّة التي تلقّنها جميع المعاهـد، النشـاطات الرياضـيّة، ومبـادئ السـفن الشراعيّة. وكان على الطلاّب انتظار الانتهاء من دراسة المعهد قبـل أَن يلمّـوا باسـتخدام المدافع والطربيد.

في مضمار اللغات اختار جان، فضلاً عن الإِنكليزيّة، الفرنسيّة والإِسبانيّة، ومع أَنّه صُـنّف في فئة الإِثني عشر طالباً مجلّياً، إِلاّ أَنّ رفاق دراسته لا يذكرون تفوّقه الدراسيّ بقدر ما يذكرون بطولاته في ملاعب التنس والركبي، حيث كانت قامته المديدة تؤهّله للظهور على جميع أَترابه، كما يذكرون أَنّ والده الجنرال ووالدته كانا يقدمان، أَحياناً، لتشـجيعه، فـي أَثناء المباريات الرياضيّة.

و قد كُتبت لجان ورفاقه النجاة، عندما قصفت الطائرات الأَلمانيّة معهد دارتموث في شهر ايلول 1942، قُبَيْل بدء الفصل الدراسيّ الثاني، ومن حسن طالع الطلاّب أَنّهم كـانوا، آنذاك، في رحلة خارجه. إِثر ذلك اضطرّوا إِلى الانتقال إِلى أَماكن مرتجلة أُخرى لمواصلة دراستهم.

و لم تكن حياة جان ورفاقه سهلة، فقد كان مفروضاً عليهم، حتّى الفصل الدراسـيّ الثالث، أَن يمضوا إِلى أَيّ مكان يقصدونه، عدواً؛ وكان النظام الذي يخضعون له صـارماً موجّهاً نحو خدمة البحريّة؛ كانوا في شبه عزلة عن العالم؛ وفضلاً عن كلّ ذلك حُرِم جـان من التمتّع بعطلةٍ مع ذويه، إِذ كان يتعذّر عليه المضيّ إِلى كندا، لهـذه الغايـة. غيـر أَنّ

السنوات التي كان ذووه قد قضوها في إنكلترا قد أسهمت في نسج شبكة صداقات؛ وهو كان ميّالاً إلى اكتشاف الوجه الممتع في كلّ شيء. لم يكن ينشد الشهرة؛ ولكنّه كان محبوباً، يتمتّع بسُلطة فطريّة، وبحسّ مرحٍ راسخ.

و من الذكريات التي انحفرت في ذاكرته، والتي تثير لديه الضحك والأسى في آنٍ واحد، حَدَثٌ كان يتكرّر، كلّ صباح، في أثناء التفقّد العامّ، إذ كان يصدر أمر يقول: "فلينفصل الكاثوليكيّون عن الطابور" ! وكان، حينئذٍ، على حفنة من الكاثوليكيّين أن يخطوا خطوة إلى الأمام، وخطوة إلى اليمين، ثمّ يبتعدوا عدواً. ويقول جان، ضاحكاً،: " كنّا، عندئذٍ، نجتمع، وراء سياج، ونتلو : " السلام عليك يا مريم "، في حين كان الآخرون يتلون " أبانا "، ولكأنّه كان من غير المعقول أن نشاركهم هذه التلاوة."

غير أنّ هذا النشاز العارض لم يكن ليعكّر رضا الضابط الشابّ عن مهنته، كما يتّضح من إقراره : " كنّا فخورين بكوننا من البحريّة وكَلِفين بتلك المهمّة، وبعيشنا على متن السفن. وكانت تربط الضبّاط صداقة وأخوّة حقيقيّتان، ويولّد اشتراكهم في الزيّ، والشعارات والتقاليد، روح تضامن متيناً، فيما كانت تُختزل الحياة الشخصيّة إلى حدّها الأدنى، وكان المحيط يوطّد فينا روح الشجاعة، والعمل المتقن، والوفاء، والشرف، والتعاون".

أُسرة فانييه كانت كاثوليكيّة ملتزمة. فوالدة جان كانت مثابرة على الاشتراك اليوميّ بالقدّاس، ووالده، مع أنّه لم يُبدِ مثل هذه المثابرة سنوات طويلة، كان رجلاً يولي القِيَم الروحيّة الأولويّة. وعلى حدّ قول ابنه جان، كانت حياته الروحيّة " أساس نجاحه في ممارسة الشؤون العامّة ". وقد عرّفه أحد الذين عرفوه عن كثب بهذا الوصف:

" كان مثالاً حيّاً لما يدعوه الكتاب المقدّس والأقدمون " بارّاً "، ورجل واجب : واجب حيال أُسرته، وحيال وطنه، وحيال اللّه. ولكأنّ شعاره : " لا أبتغي سوى الخدمة". بيد أنّ مناقب الاستقامة والنزاهة هذه لا تكفي وحدها لتفسير ما كان يشعّ منه من دفء وطيبة..."

الجنرال فانييه وزوجته كانا يوليان اهتماماً بالغاً بتربية أبنائهما الدينيّة، وبمناولتهم الأولى، وبتثبيتهم، وباحترامهم للكهنة والرهبان. وكانت حياتهما كلّها دليلاً ناطقاً على التزامهما الدينيّ، وعلى حرصهما على الاستقامة، وعلى اهتمامهما اليقظ أحدهما بالآخر، واهتمامهما معاً بأبنائهما، وبكلّ من يلتقيانهم على درب حياتهما. ويورد كتاب " وَهَني هو قوّتي " حيث جمع جان فانييه ملاحظات دوّنها والده، تفاصيل قد يعدّها البعض تافهة، في حين كان الجنرال، حتّى بعد أن أصبح حاكماً عامّاً لكندا، يقيم لها أكبر شان؛ فكان، على سبيل المثال، يؤرّقه إغفاله استفسار أحد معارفه عن صحّة حماته، أكثر ممّا يؤرّقه تخلّفه عن حضور القدّاس.

و لا ريب أنّه شقّ على شابّ قادم من مثل هذا الجوّ، ولم يتسنّ له الاختلاط بطوائف أُخرى، أَن يحطّ في عالَم يُطلب فيه من الكاثوليكيّين " مغادرة الطابور ". غير أَنّ المفارقة تمثّلت في أَنّ قناعاته الكاثوليكيّة، التي ميّزته عن معظم أَترابه، في المعهد الحربيّ، قد جعلته أَكثر انفتاحاً على الجميع، فأجمعوا على حبّه، كما أَنّه، من جهته، كان شديد الإِعجاب بمرشد المعهد الأنكليكانيّ، وظلّ يقدّره أَرفع تقدير، ويقيم معه علاقات تعاون وثيقة، سنوات طويلة بعد مغادرته البحريّة.

عام 1945، عندما فرغ جان من دوراته الإِحدى عشرة، ومدّة كلّ منها ثلاثة أَشهر، كانت الحرب العالميّة الثانية قد أَشرفت على نهايتها، فكُلّف، مع طائفة من رفاقه، بقيادةٍ تدريبيّة لطرّادة حربيّة. وكان يتناوب، مع رفاقه، على شتّى المهامّ من تنظيف الطرّادة، وتشغيل الآلات، وإِطلاق المدافع، والإِرساء، والمراقبة، ثمّ عُيّن كلّ ثلاثة منهم للعمل على متن إِحدى السفن. ومن المهامّ التي أوكلت إِليه، آنذاك، مرافقة الأسرة المالكة، على متن الباخرة "فانغوارد "، في رحلة إِلى أَفريقيا الجنوبيّة؛ وفيما كان كبار الضبّاط يتناوبون على تناول العشاء على مائدة الملك جورج السادس والملكة، كان هو واثنان من رفاقه، يتناولون الشاي مع الأَميرتين إِليزابيت ومارغريت، ويشاركانهما أَلعابهما. وما اختيار جان لهذه المهمّة سوى الدليل على ما كان يتمتّع به من تقدير رؤسائه. غير أَنّ تقريراً صادراً، حينذاك، عن البحريّة، مع تأكيده على صفاته الرفيعة كضابط، أَخذ عليه قلّة احترامه لرؤسائه، وقد علّق والده على ذلك بقوله : " طالما هو يحسن معاملة مرؤوسيه، فلا بأس..."

صحيح أَنّ الفترة التي أَمضاها جان في المعهد ثمّ في البحريّة لم تهيّئه للمجاملات الاجتماعيّة التي ما انفكّ يضيق بها ذرعاً، ولكنّه مدين لهذه المرحلة بما اكتسبه من منعة بدنيّة، وقوّة مراس، ولا سيّما عندما يقارن ما اكتسبه، آنذاك، بحال الشبّان الذين يقابلهم اليوم، وهم بين السادسة عشرة والتاسعة عشرة، والذين يجدهم مغرقين في الهشاشة، ويعلّق على ذلك بالقول : " لقد استهدفت، في فترة مراهقتي، غايةً واحدة منزّهة من كلّ طابع مادّيّ. إِنّني أَشهد، اليوم، العديد، من الشبّان الحائرين الذين لا يدركون ما يفعلون بحياتهم، والذين يبدّدون طاقاتهم؛ في حين أَنّنا، في البحريّة، كنّا نستغلّ قوانا وطاقاتنا استغلالاً على جانب كبير من الإِيجابيّة "

في أَعقاب اشتراكه في رحلة الأسرة المالكة إِلى أَفريقيا الجنوبيّة، قرّر الضابط الشابّ الانتساب إِلى بحريّة وطنه الكنديّة، وإِذ به، في العشرين من عمره، ضابط على متن حاملة الطائرات الكنديّة الوحيدة.

و مع ذلك كانت تنضج، في داخله، القناعة بأَنّه لم يُخلَق لكي يقضي حياته بحّاراً أو ضابطاً على متن سفينة حربيّة. وذات يوم أرست سفينته في ميناء نيويورك فقصد، تلقائيّاً،

وبدافع لا يُقاوم، دار الصداقة، التي كانت قد أَسّستها "كاثرين دوهيرتي" لاستقبال المحرومين، والتي كان يختلف إِليها شبّان من كافّة أَرجاء العالم كي يسهموا ببعض الخدمات. ومن المرجّح أَنّ قرار هجر البحريّة قد رأى النور في أَثناء تلك الزيارة، حيث اشترك في الذبيحة الإِلهيّة، في وقتٍ كان يقضيه، عموماً، في مناوبته اليوميّة على متن السفينة. وبغتةً أَشرقت، في ثنايا نفسه، قناعة تؤكّد له أَنّ البحريّة ليست هي المسرح الذي ينبغي أَن تتدرج عليه حياته.

صحيح أَنّه كان يضفي على وظيفته في البحريّة قيمةً أَخلاقيّة وروحيّة سامية وصفها بقوله : " إِنّ الضابط مسؤول، نوعاً ما، عن نفوس رجاله. وقد يكون من اليسير عليه الموت عنهم، في حومة العمل، ولكن من الأَصعب، بما لا يُقاس، أَن يموت لأَجلهم، موتاً بطيئاً، بوقفه كلّ حياته، وكلّ طاقاته، لمصلحتهم. فعليه أَن يحبّهم حبّاً حقّاً".

و مع ذلك كان يتراءى له أَنّ التوفيق بين حياة ضابط بحريّة، وحياةٍ مسيحيّة أَصيلة، أَمرٌ شبه متعذّر، ومحفوف بالمخاطر والغوايات. فآثر الاستقالة من البحريّة عام 1950، وهو غير نادم على انتسابه إِليها في الثالثة عشرة من عمره، فالسنوات الثماني التي أَنفقها فيها كانت ثمينة، وجليلة الفائدة، وهو لم يهجرها بسبب الخدمة فيها، فكفّة إِيجابيّاتها ترجح على كفّة سلبيّاتها؛ وقد أَوضح أَسباب هجرها بقوله : " كان ينتابني شعور بأَنّها ليست هي مكاني الصحيح... فأَثناء تدريبي، شرعت أُدرك أَنّ حياتي تتّجه في منحى آخر، وأَنّ بقائي في البحريّة سيؤدّي إِلى خنق نزعاتي الطبيعيّة والروحيّة... إِنّ لكلّ منّا مكانته ودعوته، ولم تكن البحريّة دعوتي".

من الواضح أَنّ العناية الإِلهيّة كانت تبتغي له درباً آخر. وفي حين بيعت للخردة، بعد حين، حاملة الطائرات التي كان من ربابنتها، ابتنى جان فانييه "سفينةً" تُقِل معذّبي الأرض، وتشقّ طريقها، بتؤدة وثقة، في شتّى بحار الدنيا.

لم تفاجيء استقالته أولئك الذين عرفوه عن كثب، فقد كان ينتابهم إِحساسٌ مُبهَم بأَنّه سيكرّس، يوماً، حياته للربّ، في الكهنوت، وكانت والدته هي أَكثر من تفهّم تحوّله هذا، ولا سيّما وأَنّه في أَثناء عطلة قضاها في باريس حيث كان والده قد عُيّن سفيراً لكندا، أَسرّ لها عن رغبته في التحدّث إِلى كاهن عن مستقبله، فعرّفته بمرشدها الروحيّ الأَب الدومينيكيّ توماس فيليب. واعترف جان، فيما بعد، بأَنّ لقاءه بذلك الكاهن كان بليغ الأَثر جدّاً، بل كان بمثابة " الحدَث الكبير الثاني " في حياته. وقبل تقديمه استقالته عقد الضابط الشابّ علاقات مراسلة مع الأَب توما فيليب وكاهنين آخرين، إِلى أَن تيقّن من دعوته الكهنوتيّة، وهو، بعدُ، لا يعلم أسلوب ممارستها، ومكانها، فعقد العزم على وقف سنة، على الأَقلّ،

على الدراسة، والتمحيص والصلاة، تحت قيادة الأب توما الروحيّة؛ وقــد اعتــرف أنّــه، بفضل ذلك الكاهن القدّيس، قد تلقّى نعمة الصلاة.

أمّا عن علاقاته بإخوته الجسديّين فيقول جان فانييه أنّها كانت "وثيقة ومتباعدة" في آنٍ واحد. الأقرب إليه سنّاً وطباعاً كان أخوه برنارد، ففي صباهما اشــتركا معــاً فــي أدوار "العفرتة". ولكن، فيما بعد، انتهج برنارد دروب الفنّ، واختار العيش في جنوبيّ فرنســا. وأخوه الأصغر، ميشيل، شُغِف بعلم التربية، ونال فيه إجازة، ودرّس في الجامعة، واختار الإقامة في مونتريال. أمّا أخوه الأكبر، بكر العائلة، بينيديكت، فقد اختار التنسّك؛ وقد قال عنه جان : " إنّه على جانب لا يُصدّق من القداسة، ومستغرق في اللّه، ولكنّه غير موهوب في العلاقات الاجتماعيّة ". ولكنّ والدتهم كان تعدّ ابنها الراهب "المحرّك" الذي يساعد جــان على الانطلاق. أمّا أخته تيريز، الطبيبة، فقد شاركته التزامه فــي " السـفينة "، ورغــم إجماعهمـــا علــــى الاعتــــراف بــــأنّ لهمــــا طباعــــاً شــــديدة التبــــاين.

الأَب توما فيليب

إِنّه كاهن دومينيكيّ فذّ، غرس حياته في تربة التطويبات، وإِنسان كان شاهداً لـدين منفتح قائم على اختبار اللّه، أَيّاً كان مذهب المختبر؛ إِنّه فيلسوف عميق التفكير، ولاهـوتيّ مُشبع بفكر القدّيس توما الأكويني، ولديه ميل بارز نحو اللاهوت المريميّ.

وُلد في الثامن عشر من شهر آذار 1905، في قرية تبعد نحو خمسة عشر كيلومتراً عن مدينة ليل، شماليّ فرنسا. والده كان كاتباً بالعدل، أَنجب إِثني عشـر والـداً، سـلك معظمهم درب الحياة المكرّسة، ولم يتزوّج منهم سوى ثلاثة. وربّما كان الفضل في ذلك إِلى خالهم، وهو كاهن دومينيكيّ، رفيع الروحانيّة، ومتوقّد الذكاء، أَشرف على تـربيتهم عـن كثَب.

لقد أَحسّ الفتى توما بميل إِلى الكهنوت منذ نعومة أَظفاره، وإِذ كـان لا يـزال فـي الخامسة من عمره، باح كاهن القرية لوالدته أَنّه أكثر اقتناعاً بدعوته الكهنوتيّة، من دعـوة الكثيرين من الإِكليريكيّين الذين كان يشرف على تثقيفهم في مدينة ليل.

في أَثناء الحرب العالميّة الأولى اضطرّ والد تلك الأُسرة الكبيرة إِلى الالتحاق بالجيش، على مدى أَربع سنوات، فخَبَر أَبناؤه من الحرمان أَلواناً، وكانوا، غالباً، حفـاةً، أو كـانوا ينتعلون أَحذية خَلِقة لا تدرأ رطوبة ولا تقي من برد. ولمّا بلغ توما الثالثة عشرة انتسب إِلى مدرسة لليسوعيّين في " ليل "، وفي غياب وسائل النقل العامّة، كان عليه أَن يجهد على متن درّاجته، كلّ يوم، ساعةً ونصف الساعة ذهاباً ومثلها إِياباً؛ وقد جعله صممٌ جزئيّ وراثيّ، هدفاً لسخرية أَترابه.

عام 1923، وكان توما قد بلغ الثامنة عشرة، عقد العزم على الانتساب للإِكليريكيّـة الأَبرشيّة، ولم يمضِ شهران على انتسابه حتّى ساورته الشكوك في صحّة اختياره، وتيقّن أَنّ الرهبنة الدومينيكيّة هي أَقدر على تلبية تطلّعاته الروحيّة والرسوليّة من الخدمـة الرعويّـة؛ فأُرسل إِلى دير دومينيكيّ في بلجيكا، إِذ كانت الحكومة الفرنسيّة قد أَغلقت كلّ الأَديرة العائدة لتلك الرهبنة، عام 1905، في فرنسا. وسيم كاهناً، عام 1929، في سنٍّ مبكّرة نسبيّاً، إِذ لم يكن قد تعدّى، آنذاك، الرابعة والعشرين من عمره.

و تولّى الأَب توما مهامّ متنوّعة، فدرّس في جامعة الدومينيكيّين في روما، ثمّ، في أَثناء الحرب، أَصبح مرشداً روحيّاً للجنود، ثمّ عُيّن مديراً للدروس فـي ديـر "سولشـوار" الدومينيكيّ، الواقع في ضواحي باريس. وكان مفروضاً على طلاّب ذلك المعهد أَن يتعهّدوا بالانضمام إِلى الرهبنة الدومينيكيّة. غير أَنّه اتّضح للأَب توما أَنّ كثيرين من الراغبين فـي متابعة دروس في الفلسفة واللاهوت لا يؤنسون أَيّة دعوة رهبانيّة، أو يرفضون الالتزام بهـا

لعدم تيقّنهم منها، كما تبيّن له أَنّ دعوات كثيرة تولد في أَثناء الدراسة، فضلاً عن أَنّ دراسةً متبصّرة للفلسفة واللاهوت تؤتي فائدة جليلة لكثيرين من العلمانيّين، ولا سيّما لأولئك القادمين من بلدانٍ تحرّرت حديثاً من الاستعمار، والراغبين في بناء السلام في بلدانهم. وبغية تلبية هذه الاحتياجات أَسّس جماعة، على مقربة من الدير، أَقام أَفرادها في ثلاثة بيوت، دُعي أَحدها "جناح ماريتان"، لأَنّ الفيلسوف جاك ماريتان كان يلقي فيه دروساً، في أَثناء العطلة الصيفيّة.

تلك الجماعة، التي أَطلق عليها اسم "الماء الحيّ"، كانت مشروعاً رائداً جريئاً، ابتدأ بعشرةٍ من الطلاّب، ولكنّه سرعان ما نما، واجتذب شبّاناً من كلّ مذهبٍ، ولونٍ، وصوبٍ، وأَصبح " مركزاً دوليّاً صغيراً، يستقبل طلاّباً تحدوهم الرغبة في تلقّن لاهوت الكنيسة وروحانيّتها، وعلمانيّين راغبين في ترسيخ معارفهم، لكي يضعوها في خدمة إِنماء بلدانهم عندما يعودون إِليها."

لقد ضمّ ذلك المركز بين طلاّبه شبّاناً سوريّين، ولبنانيّين، ومصريّين ومغاربة؛ وقد شهد أَحد رفاق جان فانييه في البحريّة أَنّه زار ذلك المركز عام 1951 فالتقى فيه " فلاسفةً عرباً، وتاجراً فارسيّاً، والعديد من الأَلمانيّين، وامرأة خارجة من معتقل بعد أَن لعبت دوراً نشِطاً في المقاومة ". وبالإِجمال ضمّ ذلك المركز ثمانين طالباً قادمين من نحو عشرين بلداً، كان القاسم المشترك الذي يجمعهم، فضلاً عن الطابع الفكريّ، وحدةٌ إِنجيليّة قائمة على المحبّة والتفاهم، بحيث اشتهر ذلك المركز بكونه موئل سلام ونعمة. إِلاّ أَنّ الحياة فيه كانت على جانبٍ كبير من الزهد، فنزلاؤه كانوا غالباً يرقدون في أَكواخ خشبيّة أو في اصطبلات، ولا يتناولون من الطعام إِلاّ أَكثره تقشّفاً، وهكذا بات بمكنة أَفقر الطلاّب أَن يتابعوا دراستهم فيه.

ولا ريب أَنّ ذلك المشروع المسكونيّ الرائد قد أَلهم، فيما بعد، المجمع المسكونيّ الثاني، فقد زاره، يوماً، الكردينال أَنجيلو رونكالي، يوم كان قاصداً رسوليّاً للفاتيكان في باريس، وقبل أَن يصبح البابا يوحنّا الثالث والعشرين، وتجاذب مع الأَب توما أَحاديث وديّة مستفيضة، وأَعرب له عن إِعجابه بالأُسلوب الذي كان يجمع على التناغم، ويحمل على الصلاة المشتركة، مسلمين، وأَورثوذكسيّين، وكاثوليكيّين، وبروتستانتيّين، فقد كان الأَب توما يحرّض على الصلاة المشتركة، ويشجّع الحوار الخاصّ بين الأَفراد، ولكنّه يعارض المناظرات الدينيّة.

اهتمامات الأَب توما الفكريّة والروحيّة أذهلته عن قضايا الجماعة الماليّة، إِلى أَن لاحت نُذُر الإِفلاس، ممّا دفعه دفعاً إِلى التماس مساعدات. وتنامى إِليه أَنّ زوجة السفير الكنديّ في فرنسا كانت ناشطة في مؤسّسة الصليب الأَحمر في بلدها، وفي مؤسّسات خيريّة

أُخرى، فطرق بابها طالباً منها مساعدتها على إقامة سوق خيريّة كفيلة بدعم مشروع "الماء الحيّ"، ولكنّها صدّت ذلك الزائر المجهول المزعج محتجّة بأنّها إداريّة فاشلة، ولا تمتلك من الوقت فسحة، وسرعان ما نهضت، وكأنّها تشير إليه بالانصراف. غير أنّه كان عنيداً لجوجاً، فما كاد يمضي أسبوعان على هذا اللقاء حتّى طرق بابها، من جديد، طالباً منها، إن هي ما زالت غير مستعدّة لتنظيم سوق خيريّة لدعم مشروعه، الاتّصال بزوجات سفراء آخرين من معارفها، لهذا الغرض.

زوجة السفير الكنديّ تلك لم تكن سوى السيّدة فانييه، والدة جان، التي اعترفت، فيما بعد، أنّها، لا شعوريّاً، اندفعت، في أثناء هذه الزيارة الثانية، إلى تلبية طلب ذلك الراهب الملحاح، وربّما زاد من اندفاعها ما لمسته، عنده، من حدْسٍ ثاقب إذ إنّه أشار، من خلال حديثه معها، إلى أنّها تبحث عمّن يوجّه حياتها الروحيّة، وهي كانت تبحث، فعلاً، عن مرشد، وترغب في زيارة ديرٍ كرمليّ، من أجل الصلاة والتأمّل. وقد دعاها الأب توما إلى دير كرمليّ حيث كان يلقي لراهباته أحاديث روحيّة. حدْس ذلك الكاهن أدهشها، وكان في أساس صداقة روحيّة متينة ترسّخت بينهما. ولا عجب إن هي أرشدت ابنها إلى الأب توما، عندما آنست لديه حاجةً إلى مرشد.

جميع الذين عرفوا الأب توما فيليب عن كَثَب شهدوا بإشعاعٍ روحيّ كثيف كان ينبعث من نفسٍ طالما استغرقت في اللّه. فالكاهن والكاتب الهولنديّ "هنري نوين"، الذي التجأ إليه ملتمساً مساعدته على تجاوز أزمة روحيّة حادّة كان يواجهها اعترف: "... لم يكن يسدي بنصائح حول عيش بعض الحالات، بل كان قد أصبح، هو نفسه، نبعاً، ومنفذاً تعبر منه النعمة. كان من شدّة التجرّد بحيث يشعر من يدنو منه أنّه في حضور اللّه. كنت إزاء واحدٍ من رجال اللّه، يشعّ منه حضور يسوع إشعاعاً من الشدّة بحيث لا يستطيع المرء، سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن، إلاّ تحسُّسه".

لقد كان الأب توما كائناً نيّراً، قادراً على إشعاع النور، وعلى توفير ثقافة تقرن العقليّ بالروحيّ، بحيث بات كثيرون، ومنهم جان فانييه، يرغبون في المكوث أمامه صامتين، لأنّ حضوره كان انعكاساً سرّيّاً لحضور اللّه ومحبّته.

وقد جاءه جان فانييه، إثر هجره البحريّة، ملتمساً، في المقام الأوّل، الإمعان في معرفة اللّه، فدعاه إلى مركز " الماء الحيّ "؛ وقد اجتذبت الضابطَ الباحث عن هدفٍ شخصيّةُ الكاهن وأحاديثه عن الصلاة والصمت، ومعارفه اللاهوتيّة الثرّة. ومنذ الوهلة الأولى، توسّم فيه "أداة اللّه"، واستشفّ، بينهما، ضرباً من المعاهدة.

باشر جان فانييه، في مركز " الماء الحيّ " دروساً في الفلسفة واللاهوت، باللُّغة اللاتينيّة، تأهّباً للكهنوت. كم أمست حياته بعيدة عن الطربيد، والمدافع، والرياضات

البدنيّة، والزيّ العسكريّ، والتماس النجاح المهنيّ ! غير أنّه، في الغرفة الضيّقة التي احتلّها والتي كانت نوافذها تطلّ على الأَشجار والعشب وزقزقة العصافير، كان قد عثر على سلام عميق، وعلى روائع الإِنجيل.

و لكن سرعان ما تعرَّض مركز " الماء الحيّ " لأَزمة مصيريّة، إِذ شكّك مسؤولون كنسيّون محافظون بسلامة التعليم الذي كان يُمارَس فيه، فاستُدعيَ الأَب توما فيليب إِلى روما عام 1952، وفوّض صديقه الجديد، جان فانييه، بالنيابة عنه في إِدارة المركز، مدلّلاً بذلك عمّا كان يكنّه له من مودّة وتقدير، مع أَنّ معرفته به لم تكن ترجع إِلى أَكثر من سنتين. ولكنّ الأَمر لم يرق للرهبنة الدومينيكيّة التي كانت تعدّ ذلك المركز تابعاً لسلطتها، فلا يسوغ أَن يتولّى إِدارته علمانيّ غريب. غير أَنّ جان فانييه اعتبر تفويض الأَب توما له أَمانة لا يسوغ له التخلّي عنها إِلاّ بموافقة موكّله.

و اتّخذ الخلاف صبغة قضيّة أَليمة، إِذ أَغلق الدومينيكيّون أَبواب مدارسهم ومكتبتهم أَمام طلاّب " الماء الحيّ "، فغادر معظم الطلاّب ذلك المركز، واضطرّ الخمسة والعشرون الباقون إِلى متابعة دروسهم في المعهد الكاثوليكيّ في باريس. ورغم هذه الأَزمة استمرّ "الماء الحيّ" أَربعة أَعوام أُخرى، رُشّح في أَثنائها جان فانييه للكهنوت في رعيّة كيبيك، على أَن يتابع دروسه في فرنسا. وعندما همّ بالعودة إِلى كندا لكي يُسام شمّاساً إِنجيليّاً، نشبت أَزمة جديدة بمركز " الماء الحيّ " الذي كان ما زال يديره. فقد تقرّر عام 1956 إِغلاق ذلك المركز، وأُرغم جان فانييه، وسائر المسؤولين، على تقديم استقالتهم، وعلى توقيع تصريح، بين يدي الأُسقف المحلّيّ، يعلنون فيه خضوعهم لسلطة الكنيسة. ويذكر جان فانييه أَنّ الأُسقف كان في حالة من الاضطراب بحيث قدّم له، سهواً، تصريح رفض سلطة الكنيسة. ما أَبعد ذلك الموقف عن ذاك الذي حدَث، بعد سنوات، عندما صعد جان فانييه، بحضور عشرة آلاف مؤمن، إِلى منصّة البابا يوحنّا بولس الثاني، في كاتدرائيّة القدّيس بطرس، حيث تعانقا بحرارة، تعبيراً عن حبٍّ واحترامٍ متبادَلَيْن.

ذلك الحدَث أوقع فانييه في الحيرة، وحال دون متابعته سنة الاستعداد الأَخيرة للكهنوت. غير أَنّ هذه التجربة القاسية، عوضاً عن بعث القنوط في نفسه، رسّخت إِيمانه، على حدّ ما اعترف به لأَحد أَصدقائه كان يعاني من محنة مماثلة، في رسالة أَنفذها له عام 1963: "لقد شعرت دائماً أَنّ تلك الحقبة كانت لنا جميعاً، نحن المقيمين في مركز " الماء الحيّ "، نعمة كبرى أَتاحت لنا أَن نعيش ما تمنّينا دائماً أَن نعيشه : أَي سرّ الصليب، وأولويّة الألم والصلاة على الأَعمال والنشاطات الخارجيّة الصرف. ومع كرّ السنين، أزداد إِدراكاً لتفجّر النعمة من الآلام، وإخصابها لنشاطاتٍ كانت ستظلّ، في معزلٍ عنها، عقيمة".

و في مقطع آخر من الرسالة عينها جاء :

" من كبريات النّعم التي منّ بها عليّ يسوع، عام 1965، وبعدئذٍ، إتاحتـه لـي أَن أُدرك بأَنّه ينبغي أَن يتعايش، في الكنيسة، نمطان من البشر. فإلى جانب مـن أوكـل إليـهم الحفاظ على التقاليد المتوارثة جيلاً فجيلاً، ينبغي أَن يكون هناك آخرون توّاقون، على غرار يسوع، إلى خلاص إخوتهم، وساعون إلى اكتشاف سُبُل جديدة – بشريّة وإلهيّة – لإضـفاء مزيد من الحيويّة على رسالة يسوع. فلولا حرّاس التقليد، لربّما تعـرَّض الرسُـل الجـدُد الغيورون والمفعمون رأفة (ما لم يكن الروح القدس يسكنهم بالكامل) لإغفال بعض أوجـه التقليد الجوهريّة للكنيسة وللنفوس عموماً، وإن هي بدت غير جوهريّة لهم. ومـن ناحيـة أُخرى، ففي معزل عن هؤلاء الرسل الجُدد، يتعرّض الحريصون على التقليد للاقتصار على دين عقيم قائم على الطقوس فحسب، وخاوٍ من الحبّ والرأفة. ويدخل في مقصد يسـوع أَن يتألّم أَحد الطرفين بالآخر. "

و قد أوقع جان فانييه اضطرارُه إلى مغادرة مركز " الماء الحيّ " في حيرة، لم يعهد لها مثيلاً من قبل. فهو لم يجتز أَزمات مراهقة، وفي البحريّة بدا له كلّ شيء واضحاً؛ ثـمّ وافى مركز " الماء الحيّ " بروح منتفح، غير حامل أَيّة معطيات فلسـفيّة سـابقة، فـولج، ببساطة، في ميتافيزيقيّة الأَب توما وروحانيّته، وانفسح أَمامه عالَم العقل. وبفضل الأَب توما كانت له اختبارات روحيّة عميقة.

و فجأة وجد نفسه في " حالة انتظار "؛ وإذ كان، في تلك الأَثناء، قد عـزف عـن الانتساب إلى إكليريكيّة، أَمضى سنة في مضافة منسكٍ كان أَخوه الأَكبر قد انضـوى إليـه. وقد استمالته، هو أَيضاً، في تلك الفترة، حياة الوحدة والصمت والتنسّك؛ ثمّ أَقام، فترةً، في مزرعة، وبعدها يمّم شطر " المكان المبارك "، مدينة فاتيما، في البرتغال، حيـث ابتـاع رقعة أَرض، زهيدة الثمن، وابتنى فيها بيتاً، بإيعاز من العالم النفسيّ البريطـانيّ الـدكتور ثومبسون، الذي كان يعمل في اليونيسكو، والذي كانت قد فتنته أَحداث فاتيما؛ وراودت جان فانييه، آنذاك، فكرةٌ مُبهَمة بتأسيس مركز جديد للماء الحيّ، في أَرض الصلاة تلك، حيـث ظهرت العذراء.

في تلك الفترة التي امتدّت بين 1956 و1962، عاش جان فانييـه، معظـم وقتـه، وحيداً، جاهداً في إسداء نصائح روحيّة لمن كانوا يقصدونه ملتمسين إرشاده.

و قد أَتاحت له تلك الفسحة من الوقت فرصة الاستغراق في وقائع الإنجيل، ووقعـت من نفسه، موقعاً مميّزاً، رواية العشاء الأَخير، وفق ما جاء في إنجيل يوحنّا، وعظة الجبل حسب إنجيل متّى، فاتّضحت له معالم الحياة المسيحيّة، والحياة الروحيّة، حياة المحبّة التي ما انفكّ يسوع يدعو إليها من خلال جميع صفحات الإنجيل؛ وفي تلك الأَثناء كـان يواصـل دراسته اللاهوتيّة والفلسفيّة، ويقصد روما، بين حينٍ وآخر، للاستعانة بالأَب توما وبشقيقه

الأَب ماري دومينيك، وقد حثّاه، كلاهما، على وضع أطروحة دكتورا في الأَخلاق وفقـــاً لفلسفة أرسطو القائمة على الواقع. ودفعه، في هذا المنحى عينه، أستاذٌ في المعهد الكاثوليكيّ بباريس، وصفه جان فانييه بأَنّه " يحاكي الصقر مهابـــة، ولكـــنّ فكـــره يتميّـــز بوضـــوحٍ مضيء..." وفي عام 1962 دافع جان عن أطروحته بنجاح، وهو ما يزال لا يملك أَيّة فكرة عن خطوته التالية.

في عام 1963 كان الأَب توما قد عاد إِلى ضواحي باريس، وباشر الاهتمام بالمعاقين عقليّاً، ودعا صديقه فانييه للانضمام إِليه، ولكنّ هذا الأَخير لم يكن يشعر، بعدُ، بأَنّه مهيّـــأ لهذه المهمّة. ثمّ، في مطلع عام 1964، قبل منصب أستاذ في الفلسفة الأَخلاقيّة في معهـــد القدّيس ميخائيل في تورونتو، بكندا، ولم يكن، آنذاك، على معرفة بقدراته التعليميّـــة؛ لا ريب أَنّه كان قد تابع دروساً، ولكنّ ثقافته كانت، عامّة، أَدنى من ثقافـــة معظـــم الأَســـاتذة الآخرين. غير أَنّه كان يمتاز عنهم جميعاً بخبرة اللّه الكثيفة التي اكتسبها من إِصغائه الطويل واليقظ إِلى الأَب توما، بحيث انحفرت في أَعماقه أَفكارُه وأَقواله، فبات بوسعه عرضها تلقائيّاً وبيُسر؛ هذه الخبرات العميقة والغنيّة برزت نتائجها بجلاء في معهد القدّيس ميخائيل، حيـــث كان جان فانييه يُدعى إِلى إِلقاء محاضرات على جميع الطلاّب، فتكتظّ القاعات والمـــدرّجات بالحضور؛ هذا النجاح المنقطع النظير حمل جان فانييه على قبول إِدارة رياضة روحيّة فـــي تورنتو، كانت الحلقة الأولى في سلسلة مواعظ ورياضات روحيّة ما انفكّت، حتّى اليوم، تمتدّ وتتّسع حلقاتها، بل باتت تمثّل وجهاً بارزاً من نشاطه.

فيما بعد، حلّل جان فانييه عواقب تأثير الأَب توما في حياته فقال: "لكلّ حدَث مغزى، وقد يُخيَّل إِليك أَنّك أَنت من يقرّر، وشيئاً فشيئاً، تكتشف أَنّك اختُرتَ وصُغتَ لكـــي تصـــبح أَداة."

في تلك الأَثناء، كان جان فانييه يشعر، في قرارة نفسه، أَنّ التعليم لن يكون، يوماً، مهنته الدائمة، وكان الأَب توما قد استجاب لدعوة الدكتور بريبو، الذي كان قد افتـــتح فـــي قرية "تروسلي بروي"، في ضواحي باريس، موئلاً ومشغلاً للشبّان المعاقين عقليّاً، وأَطلـــق على ذالك المركز اسم "الوادي المزهر". وعام 1963 دعا الأَب توما إِلى الاستقرار فيه كي يكون لنزلائه والعاملين فيه المرشد الروحيّ. وكان الأَب توما يشعر بميل خاصّ وشديد إِلى الفقراء من كلّ نوع، ويتوسّم لديهم عمل الروح القدس، فلبّى الدعوة. وقُبيل عيد ميلاد عام 1963 استقرّ في " الوادي المزهر"، فقيراً بين الفقراء، فقيراً بالمعنى الحرفيّ، لأَنّـــه اختـــار طوعاً حياة الفقر الإِنجيليّ، فقيراً بالروح من جرّاء معاناته القاسية، في أَعقاب إِقصائه عـــن مركز "الماء الحيّ" الذي أَسّسه، ورآه يُغلق عنوة وافتئاتاً؛ وفقيراً لأَنّه، بتركيز حياته حول اللّه دون سواه، منذ صباه، تعرَّض دائماً لشتّى الآلام؛ وفقيراً، أَخيـــراً، لأَنّ عـــدداً مـــن

الإكليريكيّين السابقين الذين كانوا يقيمون في " الوادي المزهر "، والذين لم يحصلوا على سرّ الكهنوت، أو أَبوا الالتزام به، قد ناصبوا الكاهن القادم إِليهم عداءً وقحاً، فآثر عدم فرض ذاته عليهم، وعثر على منزل مؤلّف من غرفتين جعل إِحداهما مصلّى، ووضع في الأَخرى سريراً ومنضدة، والزهيد من المتاع الضروريّ لمعيشته. لم يكن المكان مزوّداً بالكهرباء، ولا بالتدفئة، وفي الأَيّام الماطرة، كان الماء يتسرَّب من سقفه البالي. هذا الفقر الخالص اجتذب إِليه القرويّين الذي لم يكن معظمهم أَفضل منه حالاً. وسرعان ما انجذب هو إِليهم وإِلى المعاقين العقليّين الذين باشر، في الحال، عمله لصالحهم. وقد أَقرّ، في هذا الشأن : "لقد وُلدوا فقراء، وليس هدفنا إِعتاقهم من فقرهم، بل مساعدتهم على قبوله وعلى اعتباره نعمةً إِلهيّة؛ كان من الواجب إِقناعهم بأَنّ إِعاقتهم لم تكن، بالضرورة، لعنة، بل أَنّ بوسعها أَن تكون دليلاً على حبّ اللّه الخاصّ". وسرعان ما اكتشف أَنّ هؤلاء الأَشخاص الفقراء عقليّاً، أَغنياء القلوب وجذّابون، ويفتقرون إِلى علاقاتٍ صادقة؛ فإِن هم ظفروا بالثقة، والعطف، والحرّيّة، نمت مواهبهم نموّاً رائعاً. ولا بدّ من الإِقرار أَنّ الأَب توما، مع غنى معارفه العقليّة، كان رجل قلب، وقد ساعده عمله مع المعاقين على اكتشاف لاهوتٍ يحمل شعار القلب.

و انصبّ اهتمام الأَب توما أَوّلاً على إِصلاح مسكنه، وبالأَخصّ المصلّى، لكي يكون لائقاً باستضافة القربان المقدّس، فاستعار بعض المعدّات واستعان ببعض الأَصدقاء، وكان أَحدهم جان فانييه الذي، حتّى بعد أَن مارس التدريس في كندا، ظلّ يختلف إِلى صديقه الأَب توما، زائراً، مسترشداً. وكان الأَب يكرّر، برقّة، دعوته له إِلى عمل شيء من أَجل المعاقين. وشيئاً فشيئاً، أَخذ جان يزور المراكز الخاصّة بالمعاقين، وقد أَثّر فيه، تأثيراً خاصّاً، أَحدها، وهو قائم جنوبيّ باريس، حيث شاهد ثمانين معاقاً عقليّاً كانوا يعيشون في قاعَتيْ نوم، وسط جوٍّ مريع من ضجيج وعنف. لا شيء كان يشغلهم في سجنهم الخرسانيّ، فيدورون حول أَنفسهم طيلة النهار. وكان بعضهم مقيّدين دائماً فانقلبوا كالبهائم.

و قد أَجمل جان فانييه انطباعاته بقوله : " كان ذلك المكان مريعاً، وفي الآن عينه، كان ينبعث منه شيء يصعب تحديده، شيء ينطوي على حضور اللّه... في الفظاعة المطلقة، اللّه موجود على نحوٍ لا يمكن وصفه. ثمّة السلام والفوضى معاً، والإِنسان هنا نهبٌ بين الرعب والانجذاب ".

و شرع جان فانييه يشعر أَنّه لا بدّ من عملٍ ما لإِنقاذ أولئك المساكين. صحيح أَنّه، على حدّ اعترافه، لم يكن يعرف سوى البواخر الحربيّة وأرسطو، ولكنّه كان يحسن عيش اللحظة الحاضرة في شيء من السذاجة وكثير من الثقة، وعندما يتيقّن أَنّ إِرادة يسوع هي في انتهاجه دربًا ما، يتوقّف عن طرح الأَسئلة.

و في تلك الحقبة وُلدت في ذهنه، وفي قلبه، فكرة " السفينة " التي ستصبح له مرادفاً، وستمتزج امتزاجاً وثيقاً بشخصيّته، وستكوّن نسيج مستقبله.

و قرّر هجر التعليم الجامعيّ من أَجل المضيّ قُدُماً في تحقيق هدفه هذا، ممّا أَثار ذهول أسرته وأَصدقائه، الذين عجزوا عن تفسير تخلّيه عن مستقبل جامعيّ واعد، في سبيل خيار لا قيمة له. ولكنّ الدعوة التي نادته كانت من الوضوح بحيث لم يتردّد في التضحية بكلّ شيء في سبيل الاستجابة لها. وهكذا انتهى بحثه الذي امتدّ نحو عشر سنوات إِلى خيار كان يبدو باهتاً خالياً من أَيّ أَلق، ومن أَيّ مخطّط أو رؤية واضحة للمستقبل. كان عملاً بسيطاً، ملموساً، ولكنّه كان هو ما يدعوه إِليه الربّ، ففعله ببساطة، وإِقدام، واستسلام للعناية الإِلهيّة. وكان للأَب توما فيليب الفضل الأَكبر في إِنضاج تلك الفكرة، وفي مواكبة تحقيق المشروع وازدهاره. ويعترف جان فانييه، في هذا السياق بقوله :

" تأسّست " السفينة " بوحي الأَب توما. هو الذي دفعني إِلى الخطوة الأَولى، وإِلى استضافة معاقين عقليّاً. حضوره الكهنوتيّ، ومواكبته الروحيّة، مع الإِفخارستيّا اليوميّة، وسرّ المصالحة، ساهمت في نموّ المعاقين، ونموّ المساعدين، وأَصدقاء الجماعة، كلِّهم. كان الاب توما كاهناً ولاهوتيّاً دقيقاً ومنفتحاً، يقرن الترسّخ في تقليد الكنيسة بصوفيّة عميقة، ويوازن، في تناغم، بين قِيَم الماضي، ومخاطرة الحاضر والمستقبل...

" هو الذي دعاني إِلى تروسلي عام 1963، وقد بقي، في قلب "السفينة"، ثماني عشرة سنة. بصفته كاهناً، كان، فيما بيننا، ممثّلاً للّه ممتازاً، وديعاً، ومتواضعاً، يفيض حناناً على جميع أَعضاء الجماعة، ولا سيّما أَكثرهم وهناً وأَلماً، كان قريباً من كلّ واحد، ومرشداً روحيّاً للكثيرين. وهو الذي كان، مدى سنوات طويلة، أُستاذاً في اللاهوت والفلسفة، قد أَدرك صلب حقيقة أَقوال القدّيس بولس : " لقد اختار اللّه الأَحمق في العالم كي يخزي الحكماء، واختار الضعيف كي يخزي الأَقوياء؛ واختار الأَكثر حقارة وتعرّضاً للازدراء..." إِنّ المعاقين عقليّاً، العاجزين، عادة، عن كلّ تجريد ذهني، هم، غالباً، أَكثر أَهليّة لاستقبال حضور الآخر؛ وهم يعيشون التواصل الروحيّ أَكثر من عيشهم المنافسة. وسرعان ما اكتشف فيهم الأَب توما هذه القدرة الخفيّة التي تجعلهم منفتحين على استقبال اللّه الحبّ.

" لم يكن الأَب توما مرشدي الروحيّ فحسب، بل كان لي، أَيضاً، معلّماً على المستوى العقليّ. كان متوغّلاً في فكر القدّيس توما الأَكويني، ولكنّه كان، أَيضاً، شديد الاهتمام بالعلوم الإنسانيّة. وكان طبيبان نفسيّان قد فتحا عينيه على ما ترتديه من أَهميّة خاصّة علاقة الأمّ بطلفها في إِنماء الحياة العاطفيّة لدى الكائن البشريّ. وكان الأَب توما يعدّ

علاقة التواصل الروحيّ هذه أَساساً لكلّ علاقة، وعنصراً جوهريّاً لفهم حياة الإِيمان والحياة الروحيّة. وقد ساعدني على وضع التواصل الروحيّ في صميم نظرتي الإِنسانيّة.

" إنّه للغز ذلك الكاهن، ونسيج متناقضات؛ غير أَنّ تأثيره في ازدهار " السفينة " كان بليغاً.

" دعوته دعوة تأَمّل، وصمت، وفقر، واتّحاد باللّه. وهو، وفق اعتبارات كثيرة، نسيج وحده. ولكنّه ليس ناسكاً ولا متوحّداً. بل إِنّ حضوره، ودماثته، وحبّه لجرحى الحياة، ولمساعديهم، وللربّ يسوع، تتغلغل في كلّ مكان من " السفينة ".

" وفيما " السفينة " تزدهر، يقيم فيها الأَب، بلا ضجيج؛ ربّما لن تلمحه إلاّ إذا وافيت للمشاركة في الذبيحة الإِلهيّة. أو، ربّما، قد تلمحه، على متن درّاجته، في أَزقّة القرية، وقد نفخ الهواء ثيابه الدومينيكيّة، وقد اعتمر قبّعته الفرنسيّة مقلوبة، وأَغفل حلق ذقنه.

" إنّه يتكلّم بتؤدة، وقد يجد البعض مواعظه طويلة، ولكنّهم ينصتون إِلى موسيقى كلماته الداعية إِلى الصمت والصلاة.

" إِنّه قلب جبّار، يخفق بقوّة في قلب الجماعة. "

عاش الأَب توما في قرية تروسلي على مقربة من مشاريع جان فانييه الناشئة، وكان بابه مشرعاً لجميع الراغبين في استشارته أو مجرّد لقائه، في الحجرة الضيّقة التي كان يقيم فيها، بجوار المصلّى، حيث كان يمكث القربان المقدّس. وكان يقف ساعات من يومه على عيادة المرضى والمسنّين، وسرعان ما أَصبحت صورته، وهو على متن درّاجته، أو وهو جاثٍ في المصلّى، من معالم تروسلي الأَساسيّة. وكان، منذ أَوّل عهده بالكهنوت، قد شعر بحاجة المحتضرين إِلى وجود كاهن بقربهم، فبات يلبّي هذه الحاجة كلّما تنامى إِلى علمه وجود محتضر.

كان مؤمناً بأَهمّيّة فكرة الموت، وباحتلالها حيّزاً أَساسيّاً من أَذهان الكثيرين، فحرص على إِظهار الموت، في مظهره الصحيح، وتعريته من مشاعر الرعب أو اللامبالاة التي تواكبه لدى البعض.

و اتّفق، خلال سنة " السفينة " الأولى، أَن توفّي شابّ في ظروف مأساويّة، وكانت تلك فرصة لكي يعالج فكرة الموت أَمام جميع أَفراد "السفينة". ومع أَنّ معظمهم كانوا يرون ميّتاً، للمرّة الأُولى، إِلاّ أَنّهم قدموا، جميعهم، للصلاة أَمام الجثمان.

و كان الأَب توما سعيداً بالرسالة التي حقّقها، وبما برهن عليه المعاقون من نضج، حيال الموت. وكثيرون منهم جاؤوه، فيما بعد، للتحدّث معه عن الموت، وعمّا يكمن وراءه.

بين الصديقَيْن مؤسِّسَيْ "السفينة"، الأَب توما وجان فانييه، كـان، ثمّـة، تبـاين وتكامل أَسهما في نموّ المشروع الوليد وفي إِخصابه. فمنذ البدء حرص الكاهن علـى عـدم الانغماس في المهمّات اليوميّة، وعدم التدخّل في المشكلات الطارئـة، وعلـى الاحتفـاظ باستقلاليّة تمكّنه من الانصراف إِلى الصلاة من أَجل المشروع والمعاقين والعاملين فيه، ومن أَجل العناية الروحيّة بأَهل القرية والمنطقة. كان يكتفي بتناول الغذاء فـي "السـفينة"، مـرَّة بالأسبوع، ويتلقّى منها، أَحياناً، بعض المؤونات الغذائيّة. دوره، في " السفينة "، لم يكن دور مدير، ولا دور أَب، بل دور أَخ، وراعٍ، وخادم للفقراء، ومحامٍ لهم عندما تقتضـي الضرورة. كان عليه أَن يكون فقيراً بين ظهراني فقراء، متواضعاً بين ظهراني متواضعين، وأَن يزوّدهم بالأَسرار، وتلك مهمّة جوهريّة لحياة قلب الفقراء. وقد استقرّ لديه اليقـين بـأَنّ مهمته لا تتمثّل في اتّخاذ قرارات، بل في طرح أَسئلة مثل : " إِلى أَين نحن ماضون ؟ ماهي قِيمَنا الأَساسيّة ؟ "

و على هذا النحو كان مرجعاً لقِيَم القلب، كفيلاً بالتحقّق من سلامة المسيرة، ومـن توجّهات الجماعة.

كلٌّ من الأَب توما وجان فانييه كان قد استسلم لجاذب الفقراء، واعترف بـأَنّهم هـم "المعلّمون" في ميدان القلب، وأَنّهم في حاجة إِلى علاقات حبّ وحرّيّة كي يصيبوا السـعادة. ومنذ البدء أَدركا أَنّ الفرق الجوهريّ بين " السفينة " ومراكز أُخرى تستقبل المتألّمين، هو أَنّ الالتزام حيالَهم حاسم ونهائيّ، لا رجوع عنه، وأَنّ العلاقة التي تُعقد معهم هي أَبديّة.

و لكن، في حين كان الأَب توما معنيّاً بمواكبة الفقير حتّى نهاية حياته، وحتّى ولوجه السماء، وبمساعدته على اجتياز الخطوة الأَخيرة التي تدنيه من الآب، كـان جـان فانييـه، الأَكثر واقعيّة، مع إِيمانه بضرورة مواكبة الفقير حتّى نهاية حياته، مؤمناً بضرورة العـيش معه في كلّ لحظة، والسهر على سعادته: من جانب، توثّبٌ نحو السـماء، ومـن الجانـب الآخر، حرص على إِسباغ السعادة على الحياة الحاضرة. وفي حين كان الأَب توما يؤمن أَنّ الأَبواب ينبغي أَن تظلّ مشرعة لكلّ من يقرعها من الهامشيّين، كان جـان فانييـه يـرفض استضافة من يمثّل وجوده خطراً على الأَكثر هشاشة ووهناً.

كان جان ابن الأب توما الروحيّ، ولكنّه، شيئاً فشيئاً، تيقّن أَنّ عليـه أَن يبلـغ مـن النضج ما يؤهّله لاتّخاذ بعض القرارات بمفرده؛ ولكنّ ذلك لم يزد علاقة الرجلين إِلاّ رسوخاً. تباينهما وتكاملهما كانا ضماناً لهما، وعنصر ازدهار للسفينة.

توفّي الأَب توما في 4 شباط 1993، وهو في السابعة والثمانين من عمره، وكان قد غادر " السفينة "، سنتين قبل ذلك، منهكاً، وعاجزاً عن تلبية طلبات المحتــاجين التــي لا تنقطع. وشقّ هذا الفراق عليه وعلى الجماعة معاً. وسحابة سنتَيْ خلوته ونزاعه لم يكفّ عن تقديم آلامه عن نيّة " السفينة "، وجميع الذين عرفهم، وساندهم، وواكبهم. وقد دُفن، فــي جماعة تروسلي، على بُعد خطوات من المصلّى الذي أَلِف أَن يحتفــل فيــه بالإِفخارســتيّا، يوميّاً، طيلة عشرين عاماً.

ويقول جان فانييه : " إِنّ جسده المدفون في قلب " السفينة "، مثــل حجــر أَســاس، سيظلّ لنا رمزاً. فهو الذي دعاني إِلى العيش مع المعاقين، والذي توسَّم قيمــتهم، وجليــل شأنهم للمجتمع وللكنيسة. لقد افتقدت الجماعة حضوره المشبع بالترحيب والعطف. وستبقى "السفينة" وفيّة لرؤيته وروحانيّته، وهذه الروحانيّة ستظلّ لنا نبعاً ننهل منه".

لقد أَسهم الأَب توما في غرس نبتة " السفينة " وسقايتها، وواكب نموّها، وســتظلّ هذه النبتة تكبر وتزدهر، وتمتدّ أَغصانها الوارفة الظلال، بفضل الصداقة التي توثّقت عراها بينه وبين مؤسّس " السفينة " جان فانييه؛ فهي صداقة من نمط مــا وصــفه القــدّيس تومــا الأَكــــويني بعــــيش كــــلٍّ مــــن الصــــديقين فــــي الآخــــر.

" السفينة " : مدرسة القلب

هكذا يروي جان فانيه قصّة مولد ذلك المشروع :

"بدأت تلك المغامرة عام 1963، عندما دعاني الراهب الدومينيكيّ، الأب توما فيليب، إلى " تروسلي بروي "، القرية الصغيرة القريبة من مدينة كومبييني، والقائمة على مسافة مئة كيلومتر شماليّ باريس، بُغية تعريفي بأصدقائه الجُدد، المعاقين ذهنيّاً، الذين كان يشرف على إرشادهم الروحيّ. وافيتُ، والتقيتُ، في شيءٍ من الضيق، بل في شيءٍ من الجزع، أولئك الرجال الواهنين، الهشّين، الذي جرحهم حادثٌ أو مرض، وجرحهم جرحاً أبلغ، ازدراءُ الآخرين ونبذهم. تلك الزيارة أَخذت من نفسي كلّ مأخذ. فقد بدا لي كلٌّ من أولئك القوم جائعاً إِلى الصداقة والثقة. وكان كلٌّ منهم يتعلّق بي، ويسألني بقوله أو بنظره: "هل تحبّني ؟ هل تودّ أَن تصبح لي صديقاً؟ "

" وكان كلٌّ منهم يسألني، بجسمه المحطّم : " لماذا أَنا على هذا النحو ؟ ولمَ يرفضني والداي ؟ ولمَ لست مثل إِخوتي وأَخواتي ؟ "

" وهكذا ولجتُ عالماً من الأَلم كنتُ أَجهل كلّ شيء عنه. وقد هزّتني تلك الأَسئلة، فطفقت أزور مشافي نفسيّة، ومؤسّسات خاصّة؛ والتقيت، أيضاً، أولياء أَشخاص مصابين بإِعاقات نفسيّة؛ وشيئاً فشيئاً، رحت أَكتشف أَلمهم الإِنسانيّ الجمّ، وجسامة المشكلة؛ ففي قاعات المشافي، في تلك الحقبة، كان مئات الرجال والنساء المعاقين تائهين، حائرين، عاطلين عن أَيّ عمل، وجوههم يغشاها اليأس، ولكنّها تستنير كلّما نُظِر إِليهم على أَنّهم بشر؛ وقد قلب ذلك حياتي رأساً على عقب..."

و قبل أَن يتبيّن كيف سيواجه الأَمر، أَعلم جان فانييه الأَب توما أَنّه سيفتتح بيتاً لاستضافة معاقين، في الرابع من آب 1964، الذي يوافق عيد القدّيس دومينيك (مؤسّس الرهبنة الدومينيكيّة التي ينتسب إِليها الأَب توما فيليب)، وأَيضاً عيد العذراء مريم، سيّدة الرحمة التي تجسّد، في نظره، الوفاء للروح القدس.

و راح يبحث عن مقرّ، فوقع خياره على بيتٍ عتيقٍ خَرِب، على مسيرة بضع دقائق من مركز " الوادي المزهر " ومن المصلّى الذي كان يقيم بجواره الأَب توما. لم يكن مالك البيت عازماً على بيعه، غير أَنّه ارتضى ذلك تعاطفاً مع مشروع ذلك الأَستاذ الكنديّ القادم لخدمة المعاقين. وفي سبيل إِطلاق اسم على مشروعه، كلّف جان فانييه أَصدقاء له بوضع ثبت بالعديد من الأَسماء المستوحاة من الكتاب المقدّس؛ وعندما جاءته قائمة بنحو مئة اسم مختلف، وقع خياره، تلقائيّاً، على اسم " السفينة " (**l' arche**). فهذا الاسم يشير، معاً، إِلى سفينة نوح التي أَنقذت الجنس البشريّ من الهلاك، وإِلى " تابوت العهد " الذي كرّس المعاهدة

بين اللّه والبشر. وربّما كان لماضي جان فانييه في البحريّة يدٌ في إيثاره هذه التسمية. ولكن من المؤكّد أَنّ اختياره هذا لم يكن ثمرة تفكير وتحليل، بل وليد حدْسٍ وعفويّة. وقد اعترف، فيما بعد: "إِنّني من الذين يكتشفون الأَسباب لاحقاً، ولا سيّما ونحن في مضمار الرمزيّ الذي يتعذّر تفسيره، والذي هو أَبعد عمقاً من العقلانيّ".

و لا ريب أَنّ اختياره لهذه التسمية كان نبويّاً، على نحو ما أَوضح الكردينال لوستيجيه، بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس "السفينة" إِذ قال: "ربّما استمدّت "السفينة" اسمها من سفينة نوح التي أَنقذت، من الهلاك، الجنس البشريّ، فقد أَقلّت على متنها الأكثر ضعفاً لأَنّهم الأثمن، ولأَنّهم يرمزون، حقّاً، إِلى الجنس البشريّ. وعلى أَيّة حال، السفينة هي علامة سلام وخلاص، ورجاء. فلولاها لغرق العالم، بل غرقت البشريّة، بمصيرها، وأَهدافها، في لجج العدم"

ثمّ كان لا بدّ لذلك المقرّ من صبغة قانونيّة، فاقترح الدكتور بربيو، مؤسّس "الوادي المزهر"، ربطه بجمعيّة قائمة ومعترف بها رسميّاً وهي : " جمعيّة تعليم وحماية الأَولاد الصمّ، والبكم، والمتخلّفين". ووافق جان فانييه على هذا الاقتراح، غير أَنّه ربط هذه الموافقة بشرطين : أَن يكون هو رئيس مجلس الإِدارة، وأَن يحقّ له تعيين نصف أَعضائه. واعترفت السلطات المحلّيّة بهذا المركز الجديد واعتبرته ذا مصلحة عامّة، ووافقت على تأدية واحد وعشرين فرنكاً، يوميّاً، عن كلّ نزيل يُستضاف فيه.

منذ اليوم الأَوّل استقرّ في خَلَد جان فانييه أَنّه كان يخطو خطوة حاسمة لا رجوع عنها. وقد بدأ باختيار ثلاثة رجال معاقين لكي يكونوا جماعته الجديدة. وفي الرابع من آب جيء إِليه برفائيل، وفيليب، وداني، على أَن يمضوا معه شهر عطلة، يستطيعون، في نهايته، أَن يقرّروا هل سيمكثون معه بشكلٍ دائم.

رافائيل كان نحيلاً، قصير القامة، وكان، في أَعقاب إِصابته بالتهاب السحايا، قد انعقد لسانه، واختلّ توازنه. مجموع المفردات التي كان يستخدمها لم يكن يتجاوز العشرين كلمة، وكانت قدرته على الإِدراك محدودة جدّاً؛ كان يعبّر عمّا يبتغيه بدمدمات مُبهَمة، وكانت الإِعاقة بادية عليه بوضوح.

أَمّا فيليب فكان قادراً على الكلام، غير أَنّ إِحدى ذراعيه وإِحدى ساقيه كانتا قد أصيبتا بالشلل إِثر التهاب دماغيّ، بحيث بات عاجزاً عن السير إِلاّ مستعيناً بعكّاز. كان كثير الكلام، ولكنّه كان يردّد، بلا هوادة، الأَقوال ذاتها، ويعيش في عالمٍ من الأَحلام. وكانا، كلاهما، قد أُودعا ملجأ، في أَعقاب وفاة ذويهما، من غير أَن يُستشارا.

"داني" كان أَصمّ وأَبكم، ويعاني من اضطرابات نفسيّة سحيقة، وكان من الخطأ الجسيم إِخراجه من ملجأ مغلقٍ إِلى جوّ الحرّيّة، فجأة، من غير إِعداد، وإِيكاله، مع معاقَيْن آخرَيْن، إِلى جان فانييه، وهو وحيد لا مساعد له.

البيت الذي اتّخذه جان فانييه مقرّاً كان يفتقر إِلى الكثير من وسائل الراحة. لم يكن فيه متيناً سوى السقف والجدران، أَمّا الداخل فكان يفتقر إِلى كلّ شيء، حتّى إِلى المراحيض التي حلّ محلّها دلوٌ وُضع في فناء الدار. وإِذ لم تكن فيه مصابيح، ظنّ فانييه أَن لا كهرباء فيه، لأَنّه لم يلحظ العدّاد.

و كان، بإِمكانيّاته الماليّة الزهيدة، قد استأجر شاحنة، وابتاع أَثاثاً عتيقاً من أَحد فروع منظّمه عمّاوس التي أَسّسها الأَب بيير؛ واستعار أو وُهب قطعاً أُخرى من الأَثاث الضروريّ الذي لا غنى عنه.

يوم الافتتاح كان الأَثاث يتكوّن من تمثال صغير للسيدّة العذراء، ومن مائدة للطعام، وبعض مقاعد وأَسرّة. وقد جاء أَصدقاء ببعض الطعام، وكان، إِلى جانب جان فانييه، الأَب توما، والدكتور بريبو وقرينته، ورئيسة الجمعيّة التي ارتبطت " السفينة " بها رسميّاً. وما إِن غادر المدعوّون المكان حتّى وجد جان فانييه نفسه وحيداً مع ثلاثة معاقين لا يعرف إِلى معاملتهم طريقة ناجعة.

و قضى ليلته الأولى في العتمة الدامسة والاضطراب المضني، وفي العلّيّة التي نصب فيها سريره، لم يعرف الوسن إِلى جفنيه سبيلاً، إِذ إِنّ "داني"، أَحد المعاقين الثلاثة، الذي كان يمضي ليلته الأُولى، منذ سنوات، في جوٍّ من الحريّة، وقع في اضطراب شديد، وداهمته الهلوسات، وانطلق يزأر ويصبح، ثمّ خرج إِلى شوارع القرية الهادئة وهو يهدّد المارّة القلائل الذين كان يصادفهم. وقد استقرَّت لدى جان القناعة بأَنّه لا يستطيع الاحتفاظ بداني، وفي الآن عينه، الاهتمام برافائيل وفيليب، وهو وحيدٌ بلا معين، فأعاده، من حيث أَتى والحزن يعتصر قلبه. وقد بات أَكثر إِدراكاً لآلام الآخرين، ولحدوده الخاصّة، ولعجزه، وفشله؛ وازداد قناعة بأَنّ عليه أَن يختار، من معذّبي الأَرض، من يقوى على مساعدتهم، فحسبُ.

و اكتفى، بادئ الأمر، بالعيش مع رافائيل وفيليب، وكان يساعده صديقهُ، لويس، القادم من مونتريال؛ لم تكن لديه أَيّة فكرة مسبقة عن طريقة معاملتهما المثلى، ولكنّه كان متيقّناً من أَنّ المهمّ ليس " فعل شيء " من أَجلهما، بقدر ما كان " العيش معهما ". ففي الملجأ الذي جاء بهما منه، كان المشرفون " يفعلون " أَشياء كثيرة لهما، ومع ذلك لم يفلحوا في تسريب السعادة إِلى قلبيهما. كان عليه أَن يصغي بيقظة إِلى احتياجاتهما الكمينة، ويجهد في

تلبية ما، منها، يسعدهما، ويُدخل إلى نفسيهما الطمأنينة، والثقة، والبهجة، ويعيد لهما شعورهما بالكرامة.

يروي جان فانييه : " كنّا نعيش معاً، ونشترك في كلّ شيء، في أعمال المطبخ، والمنزل، والحديقة، وفي النزهات. وتوغّلنا في معرفة بعضنا بعضاً. كنت أعي عمق آلامهما، ولا سيّما من جرّاء شعور ذويهما ومحيطهما بأنّهما يمثّلان فشلاً، ولكونهما لم يُقدَّرا، يوماً، ولم يُعترَف لهما بقيمة إنسانيّة. وأدركت أنّ رغبتهما الكبرى تتمثّل في أن يكون لهما أصدقاء، وأن يعيشا على غرار الآخرين، بقدر ما يستطيعان.

" كانا يواجَهان، في كلّ مكان، بآراء مسبّقة، ويعامَلان بجفاء، وأحياناً بشفقة، وفي أغلب الأحيان، بازدراء. جدار صفيق كان يفصلهما عمّن يُعرَّفون بوصفٍ رهيب : "القوم السويّين". وقد اتّضحت لي، أنا نفسي، الآراء المسبقة، التي ما انفكّت كامنةً فيّ، وتبيّن لي أنّني لم أكن أُصغي إليهما بالقدر الكافي. وشيئاً فشيئاً، أدركت أنّ عليّ أن أُبدي احتراماً أوفر لحرّيتهما واختيارهما.

" وترسّخت صداقتنا، وسعدنا بالعيش معاً، وكانت وجبات طعامنا حافلة بالفرح، وتمثّل فسحات مميّزة، واحتفالات حقّة. وتيرة حياتنا كانت بسيطة، موزّعة على العمل في البيت، وفي الحديقة (وفيما بعد، في المشاغل)، وعلى وجبات الطعام، والفسحات، والصلاة.

و ما عاد رافائيل وفيليب، لي، إنسانين معاقَيْن، بل أمسيا صديقَيْن. كانا يؤتيانني خيراً وأظنّ أنّني كنت، أنا أيضاً، ذا فائدة لهما. ثمّ استطعنا استقبال أشخاصٍ آخرين، مصابين بإعاقات عقليّة؛ وأخذت السفينة تنمو..."

كان رافائيل وفيليب قد أُودعا ملجأً للمعاقين، إثر وفاة والديهما؛ ولكن كُتم عنهما أمر هذه الوفاة؛ وكان فيليب، على نحوٍ خاصّ، شديد التعلّق بوالدته، غير أنّ مديرة الملجأ الذي أُودع فيه حرصت على ألاّ يطلعه أحدٌ على وفاتها، فما انفكّ يسأل عنها، ويعجب لإعراضها عن رؤيته. وسرعان ما تبيّن لجان فانييه خطَل هذا الموقف، فبحث عن أحد أقارب الشابّ كفيل بمصارحته بالواقع؛ وقدم خالٌ له، فطلب منه جان فانييه مرافقته إلى مكان ضريح والدته ومصارحته بالواقع، ومساعدته على تقبّله. " وارتمى فيليب على الضريح وهو يجأر بصيحات وجيعة كان يمكن سماعها عن بعد أميال. وأظنّ أنّ سبب انتحابه لم يكن، فقط، موت والدته، وهي الشخص الوحيد الذي كان يحبّه، بل لأنّ أحداً لم يعامله على أنّه ابنها. وقد شرعتُ أكتشف عالم ألمٍ جمّ ".

هذا الغوص في الألم أحدث في نفس جان فانييه ثورة وئيدة عميقة الغور. كان قد بلغ الخامسة والثلاثين، و" فقد جميع حقائبه"، بتخلّيه عن جميع مكتسباته المهنيّة، والعلميّة،

ومباشرته تجربة جديدة لم يؤهّله لها سوى انفتاح قلبه، ورسوخه في تربة التطويبات الإنجيليّة. وكانت الحياة التي يخوضها مع رفيقيه الجديدين، في بيتٍ كلّ رفاهه موقد عتيق، وصنبور ماء يتيم، مغرقة في الفقر والبساطة، مُشرَعة على عمل الروح القدس.

كان يخامره شعور بعقد معاهدة مع فيليب ورفائيل، على غرار المعاهدة التي عقدها الربّ مع فقراء العالم، وكان يتوخّى منحهما أُسرة يستطيعان النموّ فيها بكلّ أبعاد كيانهما؛ وقد حدّد، فيما بعد، مراحل مسيرته معهما بقوله :

" فكرة العيش معاً كانت موجودة منذ اليوم الأوّل، وتلقائيّاً، وُلدت فكرة الاحتفال، والضحك معاً؛ وفيما بعد، جاءتني فكرة " تثــقّفني " على أيدي الفقراء. ومع أنّ قول القدّيس منصور دي بول: " الفقراء هم معلّمونا " قد واكبني دائماً، إلاّ أنّني لا أستطيع تحديد الفترة التي أضحى لي فيها هذا القول واقعاً ماثلاً "

كان مستسلماً لحدْسه ولنفحات الروح، ومنفتحاً على تعاليم تجاربه، وخلال الأشهر الأولى التي عاش فيها مع رافائيل وفيليب، تعلّم الكثير، فاكتشف الألم الجمّ المختبئ في قلبيهما، مثلما اكتشف جمال نفسيهما، ورقّتهما، وقدراتهما على التواصل والتعاطف. وشيئاً فشيئاً، تبيّن أنّ عيشه معهما يحوّله، هو نفسه، داخليّاً، لا بتنمية قدراته العقليّة والقياديّة فحسب، بل بإيقاظه قدرات قلبه، والطفل الغافي في ثناياه.

كثيراً ما كتب جان فانييه وباح عن بدايات " السفينة "، وبداياته فيها، وممّا قاله في هذا السياق:

"عندما استقبلت رافائيل وفيليب، لم يكن لديّ أيّة خطّة أو فكرة واضحة. لم أكن أفقه شيئاً ممّا يتعلّق بالأشخاص المصابين بإعاقة ذهنيّة، غير أنّ معاناتهم في المآوي والمؤسّسات قد أثّرت فيّ أبلغ أثر. وكانت بُغيتي، باسم يسوع وباسم الإنجيل، أن أُساعدهم على الظفر بحياة أكثر مسيحيّة وإنسانيّة. ولم يكن لديّ أيّ تصوّر عمّا يجب أن تكون عليه جماعة السفينة. ولكن، يوماً إثر يوم، شرعت أتبيّن احتياجات رافائيل وفيليب، وأكتشف معنى الجماعة. وأظنّ أنّه من العسير وجود مؤسّس أقلّ منّي كفاية. كنت أُحاول عيش الأحداث كما تأتي، وكان الأب توما فيليب دائماً إلى جنبي، ناصحاً ومسانداً. كنتُ ساذجاً ولكنّني كنت مثابراً، وراغباً في العمل من أجل يسوع وملكوته، متيقّظاً لإرشادات العناية الإلهيّة، لأنّني لم أكن محيطاً إحاطة كافية بما دُعيت إليه.

اليوم، عندما أرمق البذرة التي غرست في الرابع من آب 1964، والشجرة التي تضمّ كلّ جماعة " السفينة " عبر العالم؛ وعندما أتبيّن الجمال والقداسة اللّذين يميّزان عدداً غفيراً من المعاقين ومن المساعدين الذين قدموا لمشاركتهم حياتهم، أُقرّ بأنّ هذا هو عمل اللّه، عملٌ تمّ أحياناً رغماً عنّي، وقد اقتصر دوري على تقبّل الأحداث، والانقياد للعناية الإلهيّة. وقد

اتّضح لي، فيما بعد، أنّ جهلي وفقري، في مطلع عهد " السفينة "، قد جعلاني أكثر إصغاءً للّه، وأطوع انقياداً له، يوماً فيوماً. فلو كان لي مخطّطي الخاصّ، لربّما كنت أقلّ تأهُّباً لتقبّل مخطّط اللّه. "

كان جان واثقاً، أوّل الأمر، أنّه لن يعيش، أبداً، مع أكثر من أربعة رجال، ممّا يتيح لهم التنقّل معاً، وتحقيق كلّ مهامّهم سويّة. ولكن، لحسن الطالع، كذّب الواقعُ هذه الرؤية، إذ ما لبث أن قدم هنري وتلاه جيري، ثمّ آنّ ماري، للعمل في المصنع، وسرعان ما لحقت بها شقيقتها آنّي. وبفضل هؤلاء المساعدين تسنّى استقبال جاك وبيرو. ثمّ قدم بينوا الطبّاخ لكي يطعم تلك الأُسرة الناشئة. ثمّ طرق باب المركز طلاّب جاؤوا ليروا أو ليعملوا، بعد أن سمعوا عن " السفينة " من جان فانييه، الذي كان يزور كندا، بين فينة وأُخرى، للتحدُّث إلى الشبّان.

و في مقارنة بين حياته السابقة، وتلك التي انغمس فيها بتأسيسه " السفينة " يبوح جان فانييه:

"لقد أذهلني لقاء المعاقين، فكم كان أولئك الأشخاص مختلفين عن تلاميذي في تورونتو، فهؤلاء كانوا يحبّون، إلى حدٍّ ما، ما يخرج من رأسي، إذ كان عليهم الإعداد لامتحاناتهم، ولكنّهم قلّما كانوا يأبهون لشخصي. أمّا أولئك الذين التقيتهم في تروسلي فلم يكن يهمّهم، في شيء، محتوى رأسي، ولكنّهم كانوا شديدي الاهتمام بشخصي، يستوضحون: " ما اسمك ؟ ما هو عملك ؟ متى ستعود لرؤيتنا ؟ " كانوا توّاقين إلى العلاقة؛ كان كلّ كيانهم مفتقراً إلى الصداقة وإلى الحياة العاطفيّة. وقد أثّرت فيّ صيحتهم المتلهّفة إلى الصداقة، وأيقظت فيّ شيئاً عميقاً.

" هؤلاء المعاقون ذهنيّاً كانوا على جانبٍ وافر من البساطة ومن الصدق في صيحتهم... وكانت قِيَم القلب لديهم جليَّة. صحيح أنّني، في إثر استقالتي من البحريّة، لكي أكون تلميذاً ليسوع، كنت قد استشففت تلك القِيَم؛ ولكن كان قلبي، في بعض زواياه، ما انفكّ متمترساً خلف حواجز الجدوى، والعقل، وحتّى الإرادة. ولقد كانت تلك القلوب الجريحة المتعطّشة دعوةً أخذت بشغاف قلبي... من خلال أولئك المعاقين والأب توما استشعرت دعوة اللّه إلى نسج حياتي مع حياة أشخاص معاقين. وعندما أخرجت رفائيل وفيليب من مأواهما الحزين، واستقبلتهما في بيت صغير كان ما يزال خَرِباً، استطعت شراءه في تروسلي بروي، كنت أعلم أنّني أقوم بمبادرة لا رجوع عنها؛ وقد تمّ كلّ شيء ببساطة، فقد كنت أتّصف بشيء من السذاجة، ولا أحسب لشيء حساباً؛ كنت أقفز في الفراغ، وأنقاد لعقد علاقات وروابط، مدركاً، على نحوٍ مُبهم، أنّها ستربطني مدى الحياة؛ كنت أعي أنّني

ماضٍ في مغامرة، غير أَنّني كنت، في الآن عينه، أستشفّ، في ذلك، مشيئة الله ودعوتـــه، وكنت أَثِق؛ ولكأنّ اللّه يقول لي : "لا تخشَ، فأنا معك. "

"باستقبالي رفائيل وفيليب وكثيرين سواهما كانوا منبوذين، وبالإنصات إليهم جميعاً، انزلقتُ نحو عالم كان ما زال لي مجهولاً؛ اكتشفتُ عمق آلامهم، ولهفتهم الكمينة إلى علاقة صادقة، وفرحهم بالعيش معاً".

و ما إن غمر نفسَيْ فيليب ورفائيل الحبّ، والشعور بالأمان، حتّى تفتّحت نزعاتهمـــا الإنسانيّة الحبيسة. فقد لاحظ جان فانييه أنّ فيليب كان يجمع أَفلام التصوير الشمســـيّ لكـــي يتسلّى بها مع رفاقه. أَمّا رفائيل فكان يحتفظ بعيدان الكبريت العديدة التي كان يُشـــعل بهـــا غليونه، ويهديها لطفل في الحيّ كي يعبث بها. وكان يخبئ ما يتلقّاه من حلوى وسواها لكي يقتسمها مع آخرين، وسرعان ما أَمسى صديقاً للكثيرين من سكّان القرية، ولا سيّما الأولاد والشيوخ، الذين لم يروا في عدم قدرته على الكلام عائقاً دون التواصل معه.

إِنّ بعض المعاقين يتخطّون إحباطاتهم، ويعبّرون، بمجرّد نظرة، عن قدرٍ جمّ مـــن الحبّ والعطف لصديق متعب، ويوفّرون له العزاء. إِنّهم يخترقون الواجهات التي يـــواري خلفها كثيرٌ من الناس حقيقة شخصيّاتهم، ويدخلون في علاقة مباشرة مع الأَشخاص، ولهـــم قدرة خاصّة على استشفاف أَلمهم.

لقد اتّضح لجان فانييه أَنّ رفيقَيْه كانا في حاجة إِلى العطاء، وقادرَيْن عليه، وتبـــيّن أَنّه "لو قُيِّض للمعاقين وضعٌ إِنسانيّ سليم حيث يلقون دعماً ممّن يحبّونهم، فهم قادرون على تحقيق تقدُّم مدهش في المجالات النفسيّة والإِنسانيّة والروحيّة"

و يضيف جان فانييه : " وبعيشي مع هؤلاء الرجال والنساء المشـــوّهين، حرصـــت على أَن أُضفي عليهم وجهاً بشريّاً، وبفعلي هذا اكتشفت أَنّهم هم الذين كانوا، فـــي الواقـــع، يهبونني وجهاً بشريّاً؛ لقد ساعدوني على اكتشاف إِنسانيّتي.

"لقد دفعوني، عنوةً، إِلى صميم الحياة الجماعيّة، وإِلى صميم الإِنجيل والتطويبات؛ وأتاحوا لي أَن اكتشف مغزى عقد عهد مع شخص، قائم على عهد مع اللّه.

"و بعيشي اليوميّ مع أَشخاص معاقين ذهنيّاً، شهدت بروز مشاكل جمّة، فقد كانـــت تتفجّر، من قلوبهم الجريحة، أزمات وسورات عنف؛ وقد تفاقمت تلك المشاكل عندما كُلّفـــتُ بمسؤوليّة " الوادي المزهر "، في أَعقاب انسحاب معظم المسؤولين عن إِدارته. كان ذلـــك المركز حافلاً بالاضطراب؛ وكان عليّ أَن أتعلّم كلّ شيء، وكنت أَشعر أَحياناً بعجزي عن مواجهة الواقع.

" أَظنّ أَنّني تعلّمت، من خلال أَخطائي وفشلي، أَكثر ممّا تعلّمت من خلال نجاحـــاتي. ففي ميدان الحياة ليس ثمّة نجاحات حقيقيّة، بل ثمّة نموّ فحسب. كانت رؤيتي للكائن البشريّ

تنطلق من وحي إيماني المسيحيّ، وتربيتي الخاصّة؛ وكنت، في الآن عينه، أحاول الإصغاء إلى احتياجات كلّ فرد وصيحاته...

"إنّ عيشي مع أشخاص معاقين أتاح لي اكتشاف إنسانيّتي من جديد. فعندما كنت ضابطاً في البحريّة كنت قد دُرّبت على أن أكون سريعاً ومجدياً : ففي الحرب يتعيّن تدمير سفينة العدوّ قبل أن يدمّر هو سفينتك، وغالباً ما يحدث ذلك في ثوانٍ. وفيما بعد أعددتُ شهادة دكتورا في الفلسفة ممّا ثقّف عقلي. ولكنّني لم أكتشف كلّ أبعاد قلبي إلاّ بعد أن عشت في جماعة، وتوغّلت في استيعاب إيماني المسيحيّ. وكان المعاقون ذهنيّاً هم أساتذتي في هذا المضمار، فقد حملوني على استجلاء معنى إنسانيّتي، ومعنى الحياة المشتركة، بتفاصيلها اليوميّة وأعيادها، وقيمة "البيت".

كان جان يتعلّم، يوميّاً، من تجارب الواقع. ففي البدء، خُيّل إليه أنّ من الطبيعيّ أن يرافقه رافائيل وفيليب إلى المصلّى من أجل المشاركة في القدّاس، إلى أن استوضحه فيليب، يوماً، لمَ يتعيّن عليه أن يؤمّ المصلّى كلّ يوم. حينئذٍ اتّضح لجان أنّ فيليب كان مستعدّاً لقبول جميع التنازلات، في سبيل البقاء معه. ولكنّ جان كان موقناً أنّ الروح القدس لا يعمل إلاّ في مناخ من الحرّيّة، وأنّه، بمقدار ما تكون حرّيّة الفرد هشّة، ينبغي احترامها ووقايتها. وشيئاً فشيئاً، ترسّخ في يقينه أنّ الحرّيّة، لا القوّة، هي المبدأ الأساسيّ في معاملة المعاقين. وقد ظلّ هذا المبدأ شريعة جماعات " السفينة " في المستقبل.

و كان يستلهم، أيضاً، أمثلة جماعات كثيرة استثارت إعجابه، ولا سيّما مثال أخوات يسوع الصغيرات، وإخوة يسوع الصغار، بما ينطوي عليه من روحانيّة اكتشاف يسوع في الفقراء، ومن بساطة العيش اليوميّ. جماعاتٌ كثيرة أُخرى كانت قد خلّفت في أعماقه أثراً بليغاً، ولا سيّما تلك التي كان فيها علمانيّون يسوقون حياة فقيرة وبسيطة مع الأكثر فقراً، مستهدفين تلطيف الآلام، وبثّ العطف، واستضافة البائسين اليائسين.

أمّا عن مستقبل " السفينة " فكانت تتجاذبه نزعتان متناقضتان، فالخشية المرافقة للبدايات كانت تجعله يتمنّى أن تظلّ جماعته الصغيرة في حجم ما تستطيع سيّارة واحدة استيعابه، بحيث يسافرون جميعهم معاً، إلاّ أنّه، في لا وعيه، كان يستلهم نموذج جماعات أوسع رقعة، متعدّدة ومختلفة.

بدءاً، كان جان قد اعتزم، بموافقة الأب توما، استضافة كلّ من يطرق باب "السفينة"، سواء كان مسنّاً، أو مدمن مخدّرات، أو مجرّد ابن سبيل. ولكن اتّفق له، عشيّة عيد ميلاد عام 1964، إذ كان ماضياً إلى محطّة قطار كومبييني، لاستقبال شقيقته تيريز القادمة من إنكلترا، أن شاهد رجلاً يسير وحيداً على الطريق العامّ. ثمّ شاهده وهو عائد، فدعاه إلى مشاركتهم عشاء العيد. وبعد أن استحمّ الرجل، وأصاب قسطاً من الراحة، تزعّم الاحتفال،

وهو ينفث دخان سيكارته ويمتّع الحضور بفيضٍ من القصص والنكات. واتّضح أنّه كان قد التحق بدير دومينيكيّ ولكنّه لم يمكث فيه سوى أشهر معدودة، وعاد بعدها إلى التشرّد. بعد أيّام قليلة أمضاها في " السفينة " استبدّت به، من جديد، الرغبة في ذرْع الطرقات، ومضى بعد أن وعد بالعودة. وقد عاد فعلاً، ولكن سرعان ما اتّضح أنّه لا يصلح للحياة الجماعيّة؛ فقد كان يغار من فيليب ورافائيل، وكان هذا الأخير لا يطيقه؛ وذات يوم، إذ كان جان فانييه مقبلاً إلى غرفة الطعام رأى الأطباق فيها تتطاير، فلم يجد بدّاً من دعوة غبرئيل إلى المغادرة، حرصاً على سلامة رافائيل وفيليب. ويومها، خلص إلى نتيجتَيْن خطيرتَيْن: أولاهما القرار بأنّ "السفينة" ليست مكاناً لاستقبال جميع المعوزين والمشرّدين، وأنّ عليها حصر اهتمامها بالمعاقين ذهنيّاً دون سواهم. أمّا النتيجة الثانية فهي اقتناعه بضرورة إقصاء أيّ عنصر يمارس تأثيراً وبيلاً على روح الجماعة، ويمثّل لها خطراً، مهما كان إقصاؤه موجعاً. وقد ثبّته في هذه القناعة، فيما بعد، الأخ أندرو الذي اشترك مع الأُمّ تيريزا في تأسيس جمعيّة مرسلي المحبّة، والذي غالباً ما اضطرّ إلى فصل عناصر تتّصف، أحياناً، بالكفاية والاندفاع، غير أنّ لديها نزعات كفيلة بتدمير روح الجماعة.

و سرعان ما شرعت " السفينة " تكبر. فقد وافى، لمساعدة جان فانييه، السيّد هنري وانبرغ. وفي شهر أيلول من عام 1964 طلب منهما الدكتور برييو استضافة معاق ثالث هو "جاك دودوي ". وفي شهر تشرين الثاني قرّرت الراهبة "ماري بينوا" التي كانت تعمل في القرية مع راهبتَيْن أُخريَيْن، أن تأتي بانتظام للعمل في " السفينة ". وفي شهر كانون الأوّل جاءت مساعدة اجتماعيّة بمعاقٍ آخر، اسمه " جان بيير ".

و عهدت " السفينة " قفزتها الكبرى في مطلع عام 1965، إثر نشوب أزمة حادّة بمركز "الوادي المزهر"، أدّت إلى استقالة جميع العاملين فيه دفعةً واحدة، فطُلب من جان فانييه تولّي إدارته. وكان "الوادي المزهر"، آنذاك، يضمّ اثنين وثلاثين نزيلاً، ويديره رجلٌ حسن النوايا، ولكنّه ضيّق الأُفق؛ فقد كان يعامل المعاقين معاملة المساجين، فيحبسهم طيلة النهار، ما عدا فترة استراحة يمضون فيها، في طابور عسكريّ يتقدّمه مراقب، ويغلقه مراقب آخر؛ ولا بدع إن ضجّ المركز، أبداً، بالعنف والصياح. وفضلاً عن ذلك كان مدير "الوادي المزهر" لا يرى بعين الاطمئنان والرضى علاقات الصداقة المميّزة التي تربط جان فانييه، الكنديّ الدخيل، بكلٍّ من الأب توما والدكتور برييو مؤسّس المركز، كما كان يتوجّس خشية من الأسلوب الذي انتهجه في " السفينة ".

هذا الأُسلوب الذي جعل من " السفينة " أسرة، كان جان فانييه شديد الحرص عليه، وكان يجد متعته في إعداد الطعام بنفسه لرفاقه، وفي مساهمته في المهامّ اليوميّة من غسلٍ

وتنظيف. وقد شقّ عليه أَن يدمج أُسرته الصغيرة بمؤسّسة أَكبر، تحظى بعونٍ حكوميّ؛ وقد تذرّع بحجّة عدم قدرته على إِدارة هذه المؤسّسة. غير أَنّ الأَب توما كان حاسماً في تأكيده بأَنّ عليه أَن يضطلع بهذه المهمّة. وقد استسلم، أَخيراً، فقط لأَنّه توسّم في الأَمر إِرادة إِلهيّة، وهو ما برح يرى في قبوله جنوناً، إِذ لم يكن يعرف سبيلاً إِلى التعامل مع اثنين وثلاثين رجلاً ميّالين إِلى العنف والصراخ؛ غير أَنّه، حيال ما كان يستشفّ فيه إِرادةً إِلهيّة، كان يتقبّل الأَمور على علاّتها، ولا يغالي في طرح الأَسئلة. وقد حلّل هو نفسه موقفه بقوله :

" أَظنّ أَنّ لديّ، أَبداً، شيئاً من السذاجة، مقروناً بنزعة إِلى المخاطرة، وبالثقة بالذات، وهي جوانب لها حسناتها ولها سيّئاتها؛ إِنّني، دائماً، أَمضي قُدُماً، وفي ذلك قوّة تنطوي على مكامن ضعف. لقد ارتكبت أَخطاء، ولكنّني، عندما أَنظر إِلى الوراء، أَتبيّن أَنّ حضور يسوع يستخدمني ويستخدم عيوبي، وهشاشتي، مثلما يستخدم خصالي، لكي يُبدع شيئاً ما "

و قد تسلّم مقاليد " الوادي المزهر " في الثاني والعشرين من آذار 1965. غير أَنّ المدير السابق امتنع عن تزويده بأَيّة معلومات حول سير الأَمور في تلك المؤسّسة، بل اكتفى بأَن قذف بين يديه ببعض دفاتر المحاسبة، وحزمة ضخمة من المفاتيح، وأَدار ظهره وانصرف. ولم تمضِ ساعة واحدة حتّى سُرقت حزمة المفاتيح تلك؛ ولم يبقَ، لمساعدة المدير الجديد، سوى مساعدَيْن اثنيْن. وسرعان ما دبّت الفوضى إِلى حديقة المركز، وإِلى المشاغل الحرفيّة. وفي غياب أَيّة ممرّضة، مع وجود نزيلٍ مصاب بالسكّريّ، اضطرّ جان فانييه إِلى التدرّب على أسلوب إِعطاء الحقنة للمريض، بحقنه برتقالة.

غير أَنّ المودّة التي كان جان فانييه قد أَفلح في اكتسابها، فيما بين سكّان تروسلي، قد حملت كثيرين منهم على مدّ يد المساعدة له في مجالات المحاسبة، والطهو، وتنظيم الحديقة.

بُعيْد ذلك، دُعي جان فانييه للاشتراك في مؤتمر ضمّ مسؤولين عن مراكز رعاية المعاقين ذهنيّاً، وكانت له فيه مداخلة أَوضح فيها رؤيته القائمة على العيش مع أولئك المعاقين، عيش أَسرة وجماعة متضامنة متكاملة وربّما بدت رؤيته هذه ساذجة لبعض المتمرّسين في إِدارة مراكز المعاقين، إِلاّ أَنّها اجتذبت له صداقة حفنة من الأَطبّاء النفسيّين الذين باتوا يختلفون إِلى "الوادي المزهر"، ويتعاونون مع العاملين فيه على استجلاء احتياجات المعاقين الحقيقيّة، وعللهم الدفينة، في سبيل معالجتها علاجاً ناجعاً.

و مع أَنّ جان فانييه كان، أَبداً، يدّعي أَنّ لا خبرة له إِلاّ في البحريّة، وفي فلسفة أرسطو، إِلاّ أَنّه كان قد اكتسب من هاتَيْن التجربتَيْن احتراماً للنظام في التفكير والعمل، ومن ثمّ حرص على فرض نظام شديد الدقّة، ولا سيّما في الميدانَيْن اللّذين كان حريصاً عليهما حرصاً خاصّاً، وهما الصلاة والعمل، ممّا مكّنه من مواجهة الفوضى التي كانت سائدة في

المركز، مواجهةً مجدية. ولكي لا يشتّت جهوده، كان يجيد إغفال بعض القضايا الهامّة من أجل حصر اهتمامه بقضايا أجلّ خطراً. وبالإجمال مثّلت له مهّمته الجديدة تحدّياً وطّن عزمه على مواجهته بحزم وكفاية، وقد اعترف، في هذا السياق :

" لا ريب أنّني مررت بفترات عصيبة استفزّت غضبي، ولكنّني صمدت، لأنّني كنت عازماً على الصمود. وربّما توخّيت أن أُثبت كفاءتي، غير أنّ النعمة كانت حاضرة، وقد دعمت هذه النعمة عنادي البشريّ. لقد عهدت، فيما بعد، فترات أليمة كثيرة، غير أنّ تجربتي في "الوادي المزهر " تظلّ، في نظري، غنيّة "

في " الوادي المزهر " كانت مُحتَرَفات، ممّا حمل جان فانييه على التعمّق في قضيّة عمل المعاقين، فهذا العمل كفيل بإنماء مواهبهم، وبتوفير دخلٍ خاصّ، ولو ضئيل، لهم. فاكتشافهم قدراتهم على خلق أشياء جميلة مفيدة كان يفعمهم فرحاً، وكان لا بدّ من إبقاء جذوة هذا الفرح مضطرمة. واتّضح لجان فانييه أنّ من مصلحة المعاقين التفريق بين موئل إقامتهم، أو بيتهم، والمشغَل الذي يعملون فيه، بحيث، إذا ما ساء الأمر في أحدهما، لم يتأثّر الآخر بذلك، حتماً، على أن يقوم بين البيت والمشغل، وبين المشرفين على كلٍّ منهما، تعاون يضمن نموّ المعاقين وازدهارهم؛ وقد شجّع على العمل، في الخارج، كلّ معاق قادر على ذلك، توفيراً لمزيد من الاستقلاليّة له. وقد برهن معاقون كُثُر عن مواهب في ميادين الموزاييك، والخِزافة، والنجارة والنسيج، وتنظيم الحدائق.

و بات جان فانييه يتناول غذاءه في "الوادي المزهر " في قاعة طعام فسيحة، جزّأها، فيما بعد، إلى ثلاث غرف كبيرة. وإلى هذا المركز نُقل مكتبه، غير أنّه غالباً ما كان يعود، ليلاً، إلى " السفينة " لكي ينال قسطاً من الاسترخاء والنوم. ومن جرّاء الاضطراب الذي كان يسود، ليلاً، قلّت، في السنوات الأولى، ساعات نومه، غير أنّه، في ذلك المناخ الصعب، ومع اضطراره، أحياناً، إلى استخدام القوّة من أجل لجم موجات العنف الجامحة، كان يستشفّ، أبداً، حضور اللّه. أجل، في صميم الجنون والألم، كان اللّه حاضراً حضوراً عارماً.

و كان الأب توما فيليب قد اكتشف هذا الحضور منذ أوّل عهده بالوادي المزهر و"السفينة "؛ إذ كان قد تساءل حول ضرورة تزويد المعاقين بمعلومات أوّليّة عن اللّه الذي خلقهم. ولكنّه سرعان ما تبيّن أنّ المعاقين هم الذين كانوا يؤازرون مساعديهم على اجتياز أزمات إيمانهم، وعلى فهمٍ أمثل للأسرار. صحيح أنّهم ما كانوا يملكون، جميعهم، الحوافز الدينيّة عينها، غير أنّ الأب توما لم يلقَ، طيلة عمله الإرشاديّ إلى جانبهم، ملحداً واحداً. وقد تيقّن أنّ الوسيلة المثلى لتقريب الإنجيل والأسرار إلى مداركهم هي انتهاج الدرب الذي

انتهجه يسوع نفسه، وتعليم يسوع لم يتفوّق بعرضه نظاماً فكريّاً متكاملاً مُحكَماً، وإنّما تفوّق ببساطته، وقربه الوثيق من الصغار.

المعاقون أَكثر تأثّراً باسم يسوع وبشخصه، وقلبه، من تأثّرهم بأَسمائه " الوظيفيّة " مثل المسيح أو الربّ؛ وهم أَشدّ تجاوباً مع رواية الصليب من تجاوبهم مع رواية المغارة. وعبر يسوع والصليب يمكن الوصول بهم إِلى الآب، والروح القدس، والعذراء، والأَسرار. ولديهم قدرة على إِبلاغ الآخرين معنى الصليب العميق، ومعنى العبور من الموت إِلى الحياة.

و قد اتّضح للأَب توما، من خبرته مع المعاقين، أَنّ هؤلاء يتحسّسون، بلا عناء، حضور يسوع في الأَسرار ولا سيّما في الإِفخارستيّا، لأَنّهم ينفذون مباشرة إِلى صميم الأَمور، ولا تشتّتهم المظاهر. وقد تبيّن أَنهم أَكثر تأهّباً وتوقاً للمناولة في أَعقاب قدّاس يُقام في جوّ حميم، ويستطيعون، في أَثنائه، الدنوّ من الهيكل، ولمس أَغطيته، ممّا يكونون في أَعقاب قدّاس احتفاليّ، محكم التنظيم، يثير إِعجاب الآخرين، ولكنّه لا يعني لهم الكثير. ومن ثمّ، فهم يؤثرون كاهناً لا يقيم كبير وزن للمظاهر، بل يحتفل بالذبيحة، بإِيمان صادق، وحبّ حيّ.

و ربّما كانت معايشة المعاقين أَبلغ أَثراً في نفس جان فانييه، وفي دفع حياته صوب اكتشاف يسوع، وعيش الإِنجيل، كما يتّضح من اعترافه التالي :

" مخطّطات العناية الإِلهيّة السرّيّة هي التي أوصلتني، عام 1964، إِلى قرية "تروسلي بروي" القائمة على حواشي غابة كومبييني. وهناك اكتشفت عالم المعاقين ذهنيّاً : كهول مجروحين في نفوسهم وفي قدراتهم على التفكير، موسومين بصفات "المتخلّفين" و"اللاطبيعيّين ".

بُعَيْد هذا الاكتشاف، استقررت في تلك القرية الصغيرة مع رفائيل وفيليب وكثيرن آخرين، وسرعان ما تبيّنت، تحت جراحهم وإِعاقتهم، ما تتميّز به شخصيّتهم العميقة من رقّة وعذوبة. اكتشفت أَلمهم حيال نبذ مجتمعنا وازدرائه، وفي آنٍ واحد، اكتشفت انفتاحهم على يسوع وعلى الحبّ.

و بعيشي مع رفائيل ورفاقه، تكوّنت لديّ، رويداً رويداً، رؤية جديدة للعالم، وبفضلهم شرعت أُدرك، حقّاً، أَنّ مسيرة مجتمعنا المعاصر سرعان ما تخنق قدرات العطف والتواصل فينا، لكي ترسّخ قدراتنا على العدوان والصراع والجشع، ونشدان المال والرفاه الماديّ.

كنت قد التقيت يسوع، ولكنّني لم أَكن قد التقيته على هذا النحو إِلاّ في المنبوذين"

و يصف جان فانييه "مائدة الفرح" بقوله :

" لا ريب أَنّ موعد الطعام هو الوقت الذي يعيش فيه كلّ مركز وحدته الخاصّة. قد يخفى ذلك على المشاهد الغريب، بيد أَنّ كلّ من عمل، وسار، وصلّى، مع أولئك القوم المتحلّقين حول المائدة، يكتشف هذا المعنى الأَعمق للوحدة، ويشهد الاندفاع الذي يحمل أَفراد الجماعة في الهند على تبادل البرتقال بعد الطعام؛ وكيف تُعطي آنّي، في مركز "ديبريك"، الكنديّ، الأَولويّة لطبق جورج على طبقها الخاصّ، وكيف يضطلع بييرو، في تروسلي، بتقطيع اللحم لماكسيم العاجز عن تقطيعه بنفسه. وفي "كونياك" يردّ باتريك على تهنئة جاكلين بالطعام اللذيذ الذي أَسهم في إِعداده؛ وليتك ترى نظرة الحنان التي يحطّها رافائيل، عبر المائدة، على رفيقٍ له يُعاني.

ليس من اليسير وصف كلّ ذلك، ولكنّ هذه المشاركة المعاشة لطعامنا وحياتنا، تلتقي، سرّيّاً، بعشاءٍ آخر، حدَث لأَمدٍ بعيد... "

و قد سعى جان فانييه، أَبداً، إِلى إِشاعة جوّ من المرح، في الجماعات، كفيلٍ بتوثيق أَواصر أُسرويّة بين أَعضائها؛ وكانت وجبات الطعام هي المناسبات المثلى للتعبير عن هذه الروابط النابضة بالفرح. ففي المساء، وبعد عشاءٍ حافلٍ بالمرح والضحك، كان الجميع يتراكضون لغسل الأَطباق والتراشق بالماء الحارّ، وغالباً ما يتقدّم جان فانييه الجميع بخطواته الواسعة، ليكون أوّل الواصلين إِلى " المجلى "، ويفتتح مباراة التراشّ بالماء. وبعد أَن يرتّب كلّ شيء، يعود الجميع إِلى غرفة الطعام للمشاركة في صلاة المساء، حيث يُدلي كلٌّ منهم بما لديه من نيّات خاصّة، يصلّي الجميع من أَجلها، ثمّ يتلون بصوت واحد، على ضوء الشموع الخاشع صلاة "السفينة "، وهذا نصّها :

يامريم، نسأَلك أَن تباركي بيتنا،
و أَن تحفظينا في قلبك الطاهر؛
إِجعلي من " السفينة " منزلاً حقّاً،
ملجأً للفقراء بالروح،
لكي يجدوا فيه منبع كلّ حياة،
و ملجأً للمُمتَحنين، لكي يظفروا بعزاء جمّ.
يا مريم، هبينا قلوباً متواضعة ورقيقة،
لكي نستقبل، بحنان وعطف،
جميع الذين ترسلينهم إِلينا.
هبينا قلوباً مفعمة رأفة،
لكي نحبّهم، ونخدمهم، ونطفئ كلّ خلاف،
و لكي نرى، في أَخينا المتأَلّم، حضورَ يسوع الحيّ.

يا ربّ، باركنا بيد فقرائك،

يا ربّ، ابتسم لنا في نظرة فقرائك،

يا ربّ، تقبّلنا، يوماً، في صحبة فقرائك المقدّسة.

آمين.

و إِثر استشفاع بالعذراء ونشيد، يلفّ الجميعَ الصمت والسكون، وسلام عميق. وعندما تشرع الشموع تنوس، يتسابق بعض المعاقين إِلى إِطفائها، وتشعل الأَنوار، ثمّ يصافح جان فانييه كلّ فرد، ويرمقهم بنظرة مفعمة عطفاً وحبّاً، قبل أَن يمضوا للاسترخاء، كلٌّ وفق رغبته، في حين يمضي جان فانييه إِلى مكتبه، حيث يبقى حتّى ساعة متأخّرة من الليل يعالج قضايا إِداريّة، ويستقبل أَعضاء الجماعة الذين يوافونه مستشيرين في قضايا تهمّ الجماعة، أو في شؤونهم الخاصّة.

إِيريك ورفاقه

في مستهلّ فترة تأسيسها كانت السفينة تستقبل أَشخاصاً معاقين يتمتّعون بشيءٍ من الاستقلاليّة وقادرين على العمل في محترفات، وكان بعض هؤلاء قد هجروا مركز "السفينة"، وأَقاموا في شقق خاصّة في مدينة كومبييني المجاورة. ولكن مع تعدّد المراكز والمحترفات باتت " السفينة " أَكثر وعياً لما يتعرّض له، من أَلمٍ ونبذ، أَشخاص مُبتَلون بإِعاقات سحيقة، وعاجزون عن الاندماج في مركز أو في محترف.

كان مشروع استقبال معاقين من هذا النمط غالياً على قلب جان فانييه، ولكنّه كان قد ابتغى، أَصلاً، استقبال ثمانين منهم في ثمانية بيوت مستقلّة قائمة على مدخل قرية تروسلي. غير أَنّ جماعة المساعدين الدائمين عارضت هذا المشروع، وآثرت إِنشاء ثلاثة مراكز، أَحدها في تروسلي وآخران في قريتَيْن أُخريَيْن لتسهيل اندماجها في محيطها.

مركز تروسلي، الذي أُطلق عليه اسم "لافوريستيير"، تأسّس عام 1967 واستضاف عشرة معاقين لا قِبَل لهم على الكلام أو على الحركة، وتكاد استقلاليّتهم تكون معدومة تماماً. وقد التمس جان فانييه الإِذن بقضاء سنة سبتيّة، سنة استجمام وتخشّع، في ذلك المركز، حيث أَمضى " لحظات عذبة " مع كلٍّ من إِيريك ولوسيان وسواهما ممّن حُرموا كلّ قدرة فكريّة أو جسديّة، ولكنّهم كانوا ينعمون بعلاقات عاطفيّة عميقة، وبغنى القلب. وسرعان ما أَدرك جان فانييه أَنّ اكتشاف هذه الثروة الداخليّة يستلزم قلباً مُشرَعاً حقّاً، يقتضي منه التوغّل في الفقر، والسير بخطى وئيدة، ومزيداً من التيقّظ والإِصغاء، والتركيز والتأمّل. إِنّ إِيريك، الذي كانت عزلته تتجلّى من خلال توتّر جسده كلّه، ولم يكن يسترخي إِلاّ عندما يغمره شعورٌ بأَنّه محبوب، قد دفع جان فانييه نحو مزيد من الحبّ. بما أَنّه كان أَصمّ وأَعمى تماماً، وبالتالي عاجزاً عن الكلام، فقد كان يدعوه إِلى إِحلال السلام الداخليّ، في ذاته، وإِلى استقباله في ثنايا صمته. كان المساعدون، عقب العشاء، يؤازرون المعاقين على ارتداء بيجاماتهم، ثمّ يلتئمون، جميعاً، في قاعة الجلوس، حيث ينعمون بفترة سكون ومشاركة. بعض المعاقين كانوا يجلسون في أَحضان المساعدين، وبعضهم يقتعدون الأَرض إِلى جانبهم، ويُنشدون، ويصلّون، أو يكتفون بالمكوث صامتين، سعداء بكونهم معاً.

و لئن كانت سنوات التأسيس وما واكبها من نشاط جامح الوتيرة، قد حرمت جان فانييه من وقف وقتٍ كافٍ على الصلاة، إِلاّ أَنّه بات يستغلّ كلّ سانحة للاختلاء في المصلّى والاستغراق في تأمّل صامت. وقد باغته أَحد رفاقه، يوماً، مستلقياً على الأَرض مستريحاً في اللّه. ولكنّه كان يقضي معظم أوقات استرخائه وتأمّله محتضناً إِيريك، الذي كان جسده، آنذاك، يسترخي، وتطوف على وجهه بسمة رضى.

لطالما تحدّث جان فانييه، في تضاعيف كتبه، وفي سياق محاضراته عن خبرته العميقة مع إِيريك. فهو كان قد اضطلع بتأسيس "السفينة "، تحدوه رغبة في عيش الإِنجيل، وخدمة يسوع على نحوٍ أَفضل. هو نفسه كان رجل صلاة مُشبعاً بصوفيّة الأَب توما، ومتواصلاً معه. وكان يؤمن أَنّ العلاقة بالمعاقين – أولئك الفقراء الذين تمثّل بهم يسوع – هي تجربة دينيّة، وتجربة تواصل. وهو لا يني يذكر فترات سلام عميق الغور قضاها برفقة أَشخاص يعانون إِعاقة سحيقة، مثل "فترة الاستحمام" مع إِيريك، فيقول :

" عندما كنّا نلمس جسده برقّة، واحترام، وحبّ، كان يتحقّق تواصل عميق. كان إِيريك يستعذب الماء الدافئ، ويسترخي فيه، فالماء كان ينعشه وينظّفه. كان يشعر أَنّ دفئاً رقيقاً يغمره. من خلال الماء، ولمس جسده، كان ينشأ تواصل وثيق بين إِيريك وبيني، وكان يستكين أَحدنا للآخر. مثله كنت مسترخياً. كان يستسلم استسلاماً كاملاً، ويكفّ عن الدفاع عن نفسه. وكان شعوره بأَنّه محترم ومحبوب يضفي عليه أَماناً. ترحيبه وثقته كانا يستدعيان ثقتي. وهو كان يدعوني إِلى مزيدٍ من الرقّة، ومزيد من احترام كيانه وجسده. كان ينادي خير ما فيّ. وهنه، وصغَره، وتعطّشه إِلى الحبّ، كانت تمسّ شغاف قلبي، وتوقظ فيّ قوى حنان وحبّ مجهولة. كنت أَهبه الحياة، وهو، أَيضاً، كان يهبني الحياة... لحظات التواصل تلك أَزاحت النقاب عن علاقات عميقة خلقها اللّه فيما بيننا".

غير أَنّ علاقتهما لم تكن دائماً مشرقة وممتعة، فقد كان يتّفق لإِيريك ولسواه من نزلاء " لافوريستيير " أَن يجأروا ببؤسهم، وأَن ينحوا على أَنفسهم بالضرب، وينكفئوا على ذواتهم، ويرفضوا كلّ علاقة. وكانت هذه المواقف الرافضة تستدعي شتّى أَصناف ردود الفعل؛ ويعترف جان فانييه، في هذا الصدد :

" حينئذٍ كان يستحوذ عليّ، أَيضاً، الاضطراب. انكفاؤه على نفسه كان يدفعني إِلى موقف مماثل. عنفه وعدوانيّته كانا يستثيران عنفي وعدوانيّتي. وكان يريعني أَن أَكتشف، في داخلي، ينابيع عنف، وأَنّني، في ظروف معيّنة قد أُلحق، أَنا نفسي، ضرراً بمن هو أَضعف منّي. وفي بعض اللحظات، لمست في ذاتي ينابيع بغضٍ؛ وأَدركت كيف قد يجنح كائن بشريّ إِلى جرح إِنسان آخر أَو تدميره. وتبيّنت أَنّ الضعيف قادر على استدعاء خير ما فيّ وأَسوأه، على السواء. "

لقد ولّد رجال " لافورستيير " ونساؤه، في داخله، حياة جديدة، واستثاروا فيه مزيداً من الحنان، والانفتاح، والصبر. ولكنّهم ساعدوه، أَيضاً، على اكتشاف عالم العُقد، والخوف، والقسوة، بل العنف، الكامن في ذاته : أي كلّ ما يحول دون الثقة المتبادلة. جراحهم كانت تنبئه بجراحه. وكان اختبار ظلماته الذاتيّة، واكتشاف ذلك القطاع من كيانه الذي لا يحبّ رؤيته، يذلّانه. كان يؤلمه أَنّ العلاقة ليست دائماً مصدر حياة، بل هي غالباً

تعرّي المخاوف، وتوقظ أَجهزة الدفاع عن الذات. غير أَنّه كان مؤمناً بأَنّ " الهروب " من العلاقة ليس هو الحلّ، بل أَنّه يتعيّن مواصلة المضيّ قُدُماً، بعون اللّه، ومؤازرة الآخرين. وقد كتب في هذا السياق :

" لكي أَقوى على المضيّ قُدُماً، عليّ الاعتراف بأَنّ الربّ خلق معاهدة بين إِيريك وبيني. وبسبب هذه العلاقة، نحن مسؤولان أَحدنا عن الآخر. وبما أَنّ اللّه قد أَوجد هذه الأواصر، فهو الذي يساعدنا على توثيقها. وسيهبني النعمة والصبر لتقبّل ظلماتي، وبعمق أَكبر، سيساعدني على اليقين بأَنّ هذه الظلمات ستتلاشى في حينها.

" الآن، بتّ قادراً على أن أَعيش طفولتي، طفولة ابن اللّه... والآن وقد بتُّ أَكثر واقعيّة، وآمل أَيضاً أَنّني بتّ أَكثر تواضعاً، غدا بوسعي عقد علاقة أَوفر صدقاً مع الشخص المعاق، علاقة أَخ له مسؤولٍ عن أَخيه".

تلك السنة التي أَنفقها إِلى جانب المعاقين العاجزين فتحت عينيه على غنى الحياة الخفيّة، حياة العائلة المقدّسة في الناصرة، حياة يسوع، قبل مباشرة رسالته العلنيّة، وجعلته يقدّر الطاقات الشفائيّة الكامنة في عيش المهامّ اليوميّة، بروح معاهدة بين المساعدين و"قومهم"، وبحبّ يتقبّل كلّ شيء، ويصدّق كلّ شيء، ويحتمل كلّ شيء.

و إِلى جانب منبوذي العالَم، وحُطام الوجود، تعلّم اكتشاف ينابيع الحياة، كما يتّضح من قوله : " أَلسنا، في أَحشاء الأَرض، وفي حمأة الحياة، نجد الكلمة المتجسّد ؟ أوَلا نجد معيناً سرّيّاً للتواصل، ولمسة اللّه، في كلّ ما يبدو بشعاً، وخاطئاً ومؤلماً. أوَ ليس الكلمة المتجسّد متوارياً في أَجسادنا المحطّمة الجريحة ؟ أَيتعيّن أَن نكون، نحن أَنفسنا، محطّمين لكي يتدفّق نبع الحياة، ومعين الماء الحيّ، من شُرخنا نفسه ؟ "

و بمعايشته محطّمي الحياة أَسفر له الإِنجيل عن كنوزه الكمينة، ومعانيه العميقة. وبلمسه آلام الذين تقف إِعاقتهم السحيقة عائقاً دون الزواج، جدّد العزم على التزام عزوبة مكرّسة، تضامناً معهم، وتخفيفاً من وطأة شعورهم بالحرمان، وحرصاً على إِثبات أَنّ العزوبة ليست ظاهرة سلبيّة، بل أَنّها قد تكون حافلة بالإِيجابيّة والخصب.

انتشار

سرعان ما تبيّن للأَب توما فيليب أَنّه، بعد أَن كان، لسنوات خلت، قد اجتذب إِلى مركز " الماء الحيّ " نخبة من المفكّرين، شرعت "السفينة" تجتذب إِلى تروسلي نخبةً، على مستوى القلب، كان العالم أَشدّ حاجة إِليها.

فقد شرعت تتقاطر إِلى " السفينة " أَعداد متزايدة من المعاقين الباحثين عن مأوى آمن، ومن شبّان قادمين من مختلف الأَقطار، حتّى البعيدة منها، مثل كندا والولايات المتّحدة، مقدّمين خدماتهم في مقابل المأوى، والطعام، والزهيد من المال، بين حينٍ وآخر.

و كان عدم حصولهم على راتب ثابت يدعّم ويُطهّر تطلّعاتهم إِلى حياة جماعيّة قائمة على الخدمة والمشاركة. وكان تدفّقهم من الشدّة بحيث يسدّ احتياجات " السفينة " إِلى العاملين المساعدين، وبحيث غالباً ما بات جان فانييه، منذ خريف عام 1966، يضطرّ إِلى رفض طلبات عديدة، لعدم توفّر الأَمكنة.

في تلك الأَثناء كان جان فانييه يختلف إِلى كندا حيث يُلقي محاضرات، في مواضيع مختلفة؛ وكان آلاف الطلاّب الجامعيّين يتراصّون للاستماع إِلى بعض هذه المحاضرات، التي كانت تستفزّ، أَحياناً، موجات سخاء عارمة، ممّا دعّم قناعته بضرورة إِيجاد أَماكن تتيح لشبّان كثيرين تكريس طاقاتهم لخدمة المحتاجين، عبر العالم. وأَخذت تتبلور في ذهنه فكرة انتشار " السفينة ". وقد اعترف، فيما بعد، أَنّ فكرة توسيع الجماعة لم تخطر له بوضوح، بل كان يخامره، فحسب، شعور بأَنّ عليه المضيّ قدماً. ويضيف : " في أَعماق ذاتي، كان شيء – لست أَدري هل هو كان طبيعيّاً أَم فائق الطبيعة – يؤكّد لي أَنّني قادر على تأسيس جماعة، وهذا ما حَدَث "

احتياجات المعاقين ومواهبهم، وأَمواج القادمين من الشبّان المتدفّقين اندفاعاً وطاقاتٍ تفتقر إِلى توجيه، زوّدت " السفينة " بدفع مذهل. وتُظهر الرسائل الدوريّة التي كان جان فانييه يصدرها، في تلك الحقبة، فورة نشاط مدهشة : فقد كانت مُحترَفات " السفينة " تنتج عشرة آلاف كيس ورقيّ أسبوعيّاً، وقد انتشرت نشاطات ترفيهيّة كثيرة خلاّقة، مثل نوادٍ للتصوير الفوتوغرافيّ، وللرقص الفولكلوريّ، وقيادة الدرّاجات، وصيد السمك، وجمع الطوابع، والرسم، والغناء، واحتفالات ورحلات.

و تزامنت هذه الفورة مع مساعدة ماليّة هامّة قدّمتها السّلطات الصحّيّة الفرنسيّة، مكّنت من استضافة المزيد من المعاقين، واستقبال المزيد من المساعدين، واتّضحت الحاجة إِلى نقل بعض نزلاء " الوادي المزهر " من جوّ البناء الكبير الصاخب إِلى مكان أوفر هدوءاً وحميميّة؛ وفي عام 1966 استضاف الزوجان ستيف وآنّ نيوروث، الكنديّان، ثلاثةً منهم،

في بيت صغير من بيوت القرية أَطلقوا عليه اسم "الشعانين". وميزة هذه الجماعة أَنّ ستيف نيوروث كان يتأهّب ليصبح قسّاً أنكليكانياً، وقد أَمضى سنة في معهد مسكونيّ في محلّة "بوسّي" السويسريّة، بالقرب من جنيف.

و في العام السابق كان قد أُطلق اسم " السنونو " على بيت صغير آخر استضاف جماعة أُخرى.

و مضت " السفينة " تبتاع المزيد من بيوت القرية وضواحيها؛ وهكذا افتُتح "المنسك" عام 1968، و" فالهينوس " (الوادي الصغير) عام 1969، الذي استضاف، للمرّة الأولى، عشراً من النساء المعاقات. فحتّئذٍ كان يُخشى من استقبال المعاقات تجنّباً للاختلاط. وبين عامي 1970 و1977 افتتحت " السفينة " إثني عشر مركزاً آخر في المنطقة، وقد ضمّت مدينة كومبيينّي بعضاً منها؛ وحُوّل مقهى القرية وفندقها موئلاً لاستقبال زائري "السفينة"، وأطلق عليه اسم "النبع الكبير".

و في حين بلغ عدد المعاقين في " السفينة " ثلاثة وسبعين عام 1967، ارتفع هذا العدد إلى مئة واثني عشر، عام 1970، وإلى مئة وستّة وعشرين، عام 1972؛ وما عتّم أن ارتقى مجموع مراكز "السفينة"، في منطقة "تروسلي بروي"، إلى أكثر من عشرين مركزاً.

في تلك الأَثناء، وفي الخامس من آذار 1967، كان والد جان فانييه قد توفّي بهدوء في أوتاوا. وغداة وفاته اكتشف ابنه جان ملاحظات كان قد دوّنها، تتميّز بالبساطة، ولكنّها تنطوي على علاقة حميمة تربطه بيسوع؛ وقد حرص الابن على استخدام هذه الملاحظات لينشئ منها كتابه الأوّل الذي يوضح مسيرة والده، ونبع روحانيّته الذي ساعده على أَن يكون ما كان، وعلى مواجهة مسؤوليّاته محامياً، فجنديّاً، فديبلوماسيّاً، فحاكماً عامّاً لكندا طيلة سبع سنوات.

كان الجنرال فانييه قد قدّم العون للسفينة في بدايتها، ولكن لم تتسّن له، يوماً، زيارة تروسلي. وكان قد أَحبّ الأَب توما، ذلك الكاهن الذي كان ابنه جان يقدّره أَعظم تقدير؛ وقد أولاهما، كليهما، ثقته، مثلما كان قد أولى ابنه المراهق ثقة أتاحت له أَن يصبح ما أَصبح.

أَمّا السيّدة فانييه فكانت قد زارت " السفينة " في أَثناء حياة زوجها، وأَقلقتها "الظروف المريعة" التي كان ابنها يعيش فيها. غير أَنّ والدتها – جدّة جان – كانت قد ابتاعت في "تروسلي" منزلاً، واعتزمت أن تقضي فيه أَيّامها الأَخيرة على مقربة من حفيدها، وكانت قد أَمرت بأَن يرمّم البيت ويؤثّث على نَسَق الشقّة التي كانت تسكنها في باريس، وبخاصّة، أَن يُطلى حمّامه باللونين الزهريّ والأَسود اللّذين طلي بهما حمّام شقّتها الباريسيّة؛ ولكنّ المنيّة وافتها قبل أَن تطأ قدماها بيت تروسلي؛ وورثت والدة جان ذلك البيت، ووافقت على أَن تستخدمه " السفينة ". غير أَنّ أَحد المعاقين قال لها، في أَثناء زيارتها لتروسلي، في عفويّة،

عدّتها قحة، أَنّ عليها أَن تأتي وتستقرّ في هذا البيت لكي تكون علـــى مقربـــة مـــن ابنهـــا وأَصدقائه المعاقين. تلك الفكرة التي رفضتها، للوهلة الأولى، قـــد تفاعلـــت فـــي ذهنهـــا واختمرت؛ وإِذ كانت حائرة في كيفيّة تنظيم ما تبقّى لها من أَيّـــام، عقـــب وفـــاة زوجهـــا، حضرت رياضة روحيّة في دير كرمليّ، كان قد أُذن لها بالولوج إِلى حَرَمـــه؛ وفـــي يـــوم اختتام الرياضة تلي إِنجيل الشاب الغنيّ، الذي أَثّر فيها أَبلغ أَثـــر. فقـــد كانـــت "الســـفينة" تستدعيها، ولكنّها تخشى الاستجابة، وتقاوم، وتخشى الانسلاخ عن حياة الرفاه التي أَلِفتها.

بيد أَنّها قرّرت أَن تمنح ذاتها فرصة اختبار مدّتها ستّة أَشهر، فأوكلت بيتها الجميـــل في مونتريال إِلى خادم أَمين، واستقرّت في منزل والدتها في تروســـلي المحـــاط بأَشـــجار الكستناء. وبعد مضيّ الأَشهر الستّة قرّرت البقاء، فباعت ممتلكاتها في كندا، وكرّست ذاتها ومقتنياتها وباقي حياتها للسفينة. ومع أَنّها كانت تصف نفسها بالبورجوازيّة المدلّلة، إِلاّ أَنّها لعبت دوراً هامّاً في إِرشاد المساعدين، وأَضحت للسفينة جدّة. وعلـــى حـــدّ قـــول ابنهـــا : "الجدّات يستشففنَ أموراً لا يحزرها الآخرون. وثمّة ما لا يمكن البوح به إِلاّ لهـــنّ. إِنّهـــنّ، للجماعات، ضروريّات"

عندما يحلّل جان فانييه، اليوم، نموّ "السفينة"، يتبيّن أَنّه قد تمّ عشوائيّاً. فقد كـــان، حينذاك، لا همّ له سوى تلبية طلبات المعاقين والمساعدين، وكان يواجهها، يومـــاً فيومـــاً، كيفما اتّفق له ذلك. فحالما يقع على بيت خالٍ يبتاعه، ويملؤه بالسكّان، على غيـــر تبصّـــر لصلاحيّته لعيشهم فيه. وقد يكون عدد المساعدين غير متكافئ مع عدد المعاقين؛ فقد حدَث، مرَّة، أَنّ مسؤوليّة عشرين رجلاً معاقاً يعملون في المحتَرَفات قد أوكلت إِلى مساعدٍ واحد.

و قد كتب جان فانييه عام 1965 : " لقد عشنا الأَشهر الأولى في الفقر والبساطة، أَمّا الآن، وقد وضعنا حجر أَساس " السفينة "، فيتعيّن علينا أَن ننظّمها، ونعمل على إِنمائهـــا ". وأَخذ يستعين، أَكثر فأَكثر، بخبراء الصحّة وعلماء النفس، يحدوه إِيمانٌ راسخ بـــأَنّ عـــيش الإِنجيل والتطوبيات لا يتنافى والمعرفة، والكفاءة، والخبرة، فضلاً عن أَنّ السُّلطات التـــي كانت توفّر دعماً مادّيّاً للسفينة الوليدة كانت تفرض عليها شروطاً، وتزوّدها باختصاصـــيّين، وتوفد إِليها مفتّشيها يتفقّدون سير العمل وظروف العيش فيها.

و للسفينة الوليدة قصص طريفة مع المفتّشين. فذات يوم زار أَحدهم مركزاً كان على شيء من الرثاثة، وأوعز العاملون فيه إِلى جان فانييه أَن يجهد فـــي إِبعـــاد المفـــتّش عـــن المراحيض التي كانت في حالة زريّة؛ وعندما أَنهى المفتّش جولته وهمّ بالانصراف، تداركه أَحد المعاقين وقال له فخوراً : " إِنّك لم ترَ مراحيضنا، يا سيّدي، فتعالَ لأُريك إِيّاها ".

و ذات يوم زار " السفينة " ممثّل عن وزارة الصحّة، بغية تقديم مساعدة ماليّة لهـــا. وإِثر تناوله الغذاء، دعي إِلى المشاركة في غسل الأَطباق، فهذه المهمّة ما انفكّـــت، حتّـــى

اليوم، فترة مميّزة يشترك فيها الجميع، فيتراشقون بالماء والصابون، وبالمماسـح المبلّلـة، ويتبادلون النكات، والأَحاديث المسلّية، وغالباً ما يقفز جان فانييه فوق المناضد والمقاعـد، بفضل ساقية الطويلتين، لكي يكون السبّاق إلى " المجلى "، والبادئ برشّ الآخـرين بالمـاء الساخن. ولقد تأثّر ممثّل وزارة الصحّة أَبلغ تأَثّر من جرّاء دعوته إلى تلك المهمّة المنزليّـة، فقد رأى فيها أَنّ القوم يستقبلونه فيما بينهم كإنسان، لا بصفته ممثّلاً حكوميّاً. وبانحنائه فوق الأَطباق المتّسخة توثّقت بينه وبين جان فانييه علاقات صداقة لم تزدها الأَيّام إلاّ متانة.

إنّ أوائل المساعدين الذين انضمّوا إلى " السفينة " في تروسلي ما انفكّوا يحنّون إلـى الأَيّام الأولى حيث كانت علاقاتهم مع المؤسّس حميمة، وثيقة، وديّة، وحيث كانت ضـآلة الإِمكانيّات تدفع المساعدين والمعاقين، معاً، إلى بذل خير ما يكمن في نفوسهم.

و اتّضحت لجان فانييه، آنذاك، ضرورة إِخراج المعاقين من الجوّ الكئيـب الـذي حُشروا فيه حتّئذٍ، وإِشراع أَذهانهم على آفاق مشرقة قشيبة، فراح ينظّم رحلات حـجّ إلـى روما ولورد وفاتيما، في أرتالٍ من السيّارات المقرقعة، التي غالباً ما كانت تتعطّل في أثناء الرحلة. وهو ما زال يحتفظ، في هذا المضمار، بفيضٍ من الذكريات العذبة، التي يرويهـا، مَرِحاً، في ثنايا كتبه، وفي تضاعيف محاضراته. تلك الفسحات كانت توفّر لجرحى الحياة فترات استرخاء، وفرح، ورجاء متجدّد، وكانت لبعضٍ منهم بداية حياة جديدة أَكثر سلاماً، وانفتاحاً على العالم، وعلى الآخرين.

و يصف أَحد المساعدين الأَوائل الذين عملوا في "السفينة" تلك البدايات بقوله : " لقـد كان، ثمّة، الكثير من الجنون. فمن مَلاحظ متعدّدة، كنّا عديمي الكفاية. كنّا شبّاناً، وقد اندفعنا في تيّار تجربة "العيش مع"، غير آبهين بالنوم في ساعة متأخّرة، وببذل طاقاتنا بلا حسـاب، وغير محتفظين بقدر، ولو ضئيل، من الحياة الخاصّة. غير أَنّ ما يبرّر هذا الجنون، وانعدام الكفاية هو كوننا، ربّما، أوّل من قالوا لمعاقين : " إِنّنا نحبّكم كما أَنتم "

و شيئاً فشيئاً، أَخذت الكفاءات المهنيّة تتقاطر إلى تروسلي. وكانت أولاها الـدكتورة "ليونّ ريشيه" التي استمعت إلى محاضرة لجان فانييه وأُخذت بنظرته الإِنسانيّة إلى المعـاق، وإِلى معالجته بالحبّ والثقة والتعاطف. فكانت تُمضي يوماً، كلّ أَسبوع، في " السـفينة "، واضعة طاقاتها ومعارفها في خدمة هذه المعالجة. وعندما اضطرّت إلى مغـادرة المنطقـة التمست من زميلها الدكتور إِيرول فرانكو مساعدة "السفينة" ومساندتها. وقد لعب هذا الطبيب دوراً هامّاً في تثقيف جان فانييه، وفي تطوير أَساليب العلاج في " السفينة ".

في تلك الحقبة كانت " السفينة " تمثّل سباحة في عكس التيّار. فمعظم الأَطبّاء وعلماء النفس كانوا قد تلقّوا تعليماً مبنيّاً على أَساس الأَفكار الفلسفيّة التي سادت في القـرن السـابق، وعلى نظريّات التطوّر، والانتقاء الطبيعيّ، والنسبويّة، والوضـعيّة، وعلـى التفسـيرات

الماركسيّة والفرويديّة التي تعدّ المعاق عثرة من عثرات الطبيعة. ولكن، من حسن الطالع، أنّ قلوباً كثيرة قد رفضت هذه المفاهيم؛ وقد قيّض للسفينة أن تتعاون مع طائفة من الإختصاصيّين النيّري البصيرة، الأسخياء النفوس، المفعمين عطفاً، الذين رأوا في المعاقين بشراً كاملي الحقوق، ووطّنوا العزم على فعل كلّ ما بوسعهم لكي يوفّروا لهم حياة بشريّة كريمة. وقد أسهمت " السفينة " في إضفاء نظرة إنسانيّة جديدة على ممارستهم الطبّيّة.

و في تلك الأثناء كانت تتبلور فلسفة جان فانييه الذي كان يجهد في القرن، على تناغم، بين الطبّيّ والروحيّ، في حياة " السفينة "، والذي شرع يقرأ، في كلّ سلوكٍ غريب وغير طبيعيّ لدى المعاق – مثل العنف، والهذيان، ورفض الطعام، والتذرّع بالصمت – لغةً ينبغي فكّ طلاسمها وفهمها، ونداء استغاثة ينبغي الاستجابة له. في حين أنّ معظم القوم "السويّين"، المندمجين في المجتمع والمؤتلفين مع معاييره، يتوجّسون خشية من الذين يبدو سلوكهم شاذّاً أو مزعجاً، ويرفضون الإصغاء إليهم، أو يعجزون عن هذا الإصغاء؛ فيحاولون قسرهم على انتهاج مسلك " طبيعيّ "، أو ينبذونهم؛ وهؤلاء الذين يعانون من النبذ، ومن اعتبارهم " غير طبيعيّين " و" مرضى عقليّاً"، يجنحون إلى الانغلاق في عالم منزوٍ، فيزداد سلوكهم غرابة، ويزداد محيطهم خوفاً منهم.

هذه الحلقة المفرغة كانت تفضي إلى عزل المعاقين، في حين أنّ سلوكهم " غير الطبيعيّ " لم يكن سوى طريقة فاشلة للقول : " إنّني أتألّم، فساعدوني. إنّني أشعر أنّني وحيد وغير قادر على تلمّس دربي، وسط الفوضى التي تكتنفني ". وغالباً ما يكون ردّ الأصحّاء، النبذ، بدافع الخوف. وبمقدار ما تكون الاستغاثة أشدّ لجاجة وحدّة، يكون الرفض أشدّ عنفاً؛ بحيث يمسي غالباً الأشدّ حاجة إلى تفهّم الآخرين ودعمهم هو الأكثر تعرّضاً للنبذ.

أمّا " السفينة " فكانت تتعلّم الإصغاء، وتتمرّس من اكتشاف قِيَم جديدة وأنوار قشيبة لدى المعاقين. وقد تبيّن للأب توما أنّ المعاقين الذي يضيقون ذرعاً، أحياناً، بالأنظمة، يرتاحون إلى الأشخاص الطيّبين؛ وقد اتّضح له ذلك، بجلاء، أثناء رحلة نُظّمت للمعاقين إلى أسّيزي وروما، حيث استقبلهم الأب الطيّب، البابا يوحنّا بولس الثاني، واستعرض وفدهم، مباركاً كلاًّ منهم، ولمّا دنا من المعاقة المدعوّة أليس، هتفت هذه : " جان بول، جان بول، نحن نحبّك ". فشقّ الحبر الأعظم الصفوف حتّى انتهى إليها وأخذها بين ذراعيه؛ وقد علّق أحد الحاضرين بالقول : " هذه المرأة قالت ما يكنّه كلٌّ منّا في قلبه، ولا يجرؤ على الإفصاح عنه".

قد يفعل المعاقون أيّ شيء في عفويّة مطلقة؛ فهذا الذي كان يخدم القدّاس، بعد أن يأتي الكاهنَ بالماء، يمضي فيسقي زهوراً بما تبقّى لديه منه؛ وذلك الذي حطّ في مطار تلّ أبيب، في فترة توتّر شديد، لم يتورّع من نزع البندقيّة من يد جنديّ، لكي يصافحه.

و قد تبيّن للزوجين جان وآنّ ماري دي لاسيلّ، اللّذين عملا، معاً، مساعدين في "السفينة" أَنّ "الموهبة الجوهريّة التي ينعم بها المعاق هي احتفاظه بقلب طفل، وبقاؤه ذلك الولد الذي لا نقوى نحن على أن نكونه. فحتّى في الأَربعين أو الخمسين من عمره يسعه أَن يتصرّف بعفويّة تامّة، مثل ولد، وأَن يلقي نظرة مختلفة على اللاهوت، والفلسفة، والعالم "

و يروي ذَيْنك الزوجان ما حَدَث في أَعقاب قدّاس احتفاليّ اختتمت به رحلة حجّ، حيث كان كردينال جالساً على عرش مرتفع تحيق به ثلّة من الأَساقفة؛ وعندما حان وقت المناولة، وانحدر الكردينال عن عرشه كي يوزّع القربان على الحضور، دلَف أَحد المعاقين، واستقرّ على عرش الكردينال، وراح يطوف بأَنظاره على الحضور من علُ، وكأَنّه يودّ أَن يختبر المنظر من ذلك المجثم الرفيع. وساد الاضطراب بين الأَساقفة، فبعضهم دعا إِلى طرد الدخيل، فيما ارتأى آخرون تجاهله، ولم يتدخّل أَحد. وعندما فرغ الكردينال من المناولة جاء بكرسيّ منخفض وضعه إِلى جانب العرش، وراح يتجاذب مع المعاق أَطراف الحديث. وكان منظراً طريفاً، منظر الكردينال على كرسيّ منخفض، والمعاق ينظر إِليه من أَعلى عرشه. كان رائعاً تواضع الكردينال الذي وفّر له المعاق فرصة فريدة لكي يُثبت أَنّه، مع مقامه الرفيع، كان يحتفظ، هو أَيضاً، بقلب طفل.

لقد اتّضح لجميع المقيمين في " السفينة "، ولزوّارها، كم يستطيع أولئك الأَشخاص الواهنون المهملون أَن يكونوا حاملي حياة وحبّ. تعطّشهم إِلى الصداقة والتواصل، في منأى عن الأَقنعة التي يختبئ وراءها الأَقوياء والمفكّرون، كان يلفت إِليهم الانتباه، وكان كثيرون يندفعون إِلى علاقة بسيطة معهم قائمة على الثقة، وعلى مبادرات طيّبة صغيرة تجعل الكلمات نافلة. ومع وجود فتراتٍ عصيبة في حياة المراكز، فترات أزمات وعنف، كانت السعادة، عموماً، تخيّم عليها.

و عاشت " السفينة " مفارقة مدهشة : فأولئك الذين عدّهم العالَم نافلين، لا يصلحون إِلاّ للحبس في مؤسّسات خاصّة، الذين كانوا يُعتَبرون أَعباء إِنسانيّة وماليّة باهظة، أَمسوا، في "السفينة"، ينابيع حياة ونور. تلك المفارقة كانت هي مفارقة التطويبات التي أَعلنها يسوع، وكان عيشها مبعث سعادة. ففي الجماعة كان كلّ شيء مبعث ضحك، وكانت وجبات الطعام مناسبات استرخاء، واحتفال، وبهجة. وكلّ حَدَث، مهما ضؤل، كان عيداً. وما أَبعد هذا الفرح العفويّ الصادق عن سهرات المجتمع، حيث الضحكات مصطنعة جوفاء، وحيث الكحول لا بدّ منها لبعث الدفء في القلوب والأَذهان ! وقد عبّر جان فانييه عن هذا الفرح، فيما بعد، بقوله :

"الاحتفال هو تقديم الشكر للّه الذي جمعنا وانتقل بنا من العزلة إِلى شعور بالانتماء. إِنّني أَعلم أَنّكم قبلتموني، وأَنّني قبلتكم، وأُدرك ما لديكم من مواهب، وما فيكم من ظُلُمات،

إلاّ أنّني أَتقبّلكم كما أَنتم، غير متوقّع منكم شيئاً آخر، وغير متحسّر لأَنّكم لستم كما كنت أَودّ أَن تكونوا. الاحتفال هو تقديم الشكر لما أَنتم عليه، ولما نحن، معاً، عليه".

في نهاية الستّينات، كانت الشهادة التي أَدّاها معاقو "السفينة"، عبر حياتهم اليوميّة، قد استفزّت اهتمام أَعداد غفيرة من الشبّان والتزامهم؛ وفي تلك الفترة التي أَعقبت المجمع المسكونيّ، كانت ريح التحرّر تهبّ في كلّ مكان، في الكنيسة، وفي مختلف المؤسّسات، وقد التهبت لدى الجميع رغبة عارمة في حياةٍ خلاّقة، وفي بذل الذات في سبيل مثَلٍ أَسمى، طاهر، وجديد. وكثيرون كانوا يأَخذون على الرهبانيّات ابتعادها عن إِلهام مؤسّسيها الأَصيل؛ وفي كلّ مكان باتت تُرفَض كلّ تسوية مع المجتمع، وعالم المال والسُّلطة.

و كان الشبّان القادمون إِلى "السفينة " غالباً ما تابعوا دروساً جامعيّة، وترسّخوا في مُثُلٍ وقناعات يصعب عليهم الانعتاق منها، من أَجل خلق مجالهم الخلاّق الخاصّ. وكان العيش في فقر مع معاقين ذهنيّاً يوفّر نمط حياة مختلفاً، وأَنظمة جديدة أَكثر شفافيّة، تمكّن من العيش جماعيّاً في تناغم. وكانوا يتبيّنون البونْ الشاسع بين ما يختبرونه في " السفينة "، وما عاشوه في " العالم الخارجيّ ".

غير أَنّ جان فانييه وسائر المسؤولين عن " السفينة "، في غمرة التوسّع والاندفاع، قد أَغفلوا مشاعر جيرانهم، سكّان قرية " تروسلي "، ممّا خلق توتّرات خطيرة. فأولئك القرويّون كانوا، بادئ الأمر، قد تقبّلوا، ولو في شيء من الانزعاج، ظهور معاقين أخذوا، فجأة، يجوبون أزقّة قريتهم. غير أَنّ مجيء مساعدين قدموا من جهات العالم الأَربع، يرتدون، غالباً، أزياء مستهجنة، ويسلكون سلوكاً لا يستسيغه شيوخ القرية وقدماؤها، شرع يقلقهم، ولا سيّما عندما كانوا يشهدون أولئك الأجانب يقتعدون الأرصفة، ويلقون بدرّاجاتهم في عرض الشارع، ويتحادثون بلغات غريبة، فيعجبون كيف يرتضي جان فانييه الاستعانة بأَمثالهم للاهتمام بالمعاقين. وبقدر ما هو كان يبتاع المزيد من البيوت، كان التوتّر يتفاقم. فأولئك القرويّون لم يعرفوا، قطّ، سوى قريتهم التي توارثوا بيوتها وعاداتها، جيلاً إِثر جيل، وقرناً إِثر قرن، وهي كلّ تاريخهم وكلّ إِرثهم الجماعيّ، وإِذا بها تنتقل إِلى غرباء يبدون وكأَنّهم يمتلكون موارد لا حدود لها، يستطيعون بها شراء كلّ شيء، والازدراء بكلّ التقاليد الموروثة، تلك التقاليد التي لم يعرف عنها شيئاً جان فانييه ومساعدوه، ولا حتّى الأب توما. فهؤلاء جميعاً لم يقطنوا، قطّ، قرية. لقد كان جان فانييه، إِذ ما احتاج أمراً من دائرة حكوميّة، يراجع تلقائيّاً مدير الشرطة، في حين كان لتروسلي، كما لكلّ قرية، عمدة ومجلس بلديّ، وكان من الأجدر به إطلاعهم على ما ينوي عمله، ولا سيّما وأَنّهم يقطنون في البيت أو في الحيّ المجاورَيْن.

لقد اعترف جان فانييه، فيما بعد، أنّه، في اندفاعه إلى مساعدة المعاقين، لم يـراعِ مشاعر جيرانه، ولم يحسن التواصل والتحاور معهم. وأخيراً، عـام 1972، أدركـت "السفينة" أنّ عليها الحدّ من توسّعها في قرية تروسلي، وبعث الطمأنينة في نفوس أهل القرية؛ وقد تمّ الاتّفاق بينها وبينهم على ألاّ يتجاوز عدد المعاقين في القرية خمسة وستّين، وعلى ألاّ تبتاع " السفينة " أيّ بيت آخر إلاّ بموافقة المجلس البلديّ. وتبيّن أنّ هذا الاتّفاق كان مفيـداً للسفينة نفسها؛ فمركزها الأمّ في تروسلي انقلب مشتلاً لتثقيف الشبّان المتطوّعين، وتدريبهم على العناية بالمعاقين، ومن ثمّ إيفادهم للاندماج في جماعات أُخرى، أو لافتتـاح مراكـز جديدة، في أماكن أُخرى من فرنسا، أو في الخارج.

و قد استمدّت " السفينة " من ذلك الحدَث، درساً قيّماً، فتعلّمـت أنّ علـى مراكـز المعاقين ألاّ تكون محاجر معزولة عن الجوار، بينها وبينه نفور، وربّما كراهية وعداء، بل عليها أن تندمج في محيطها على تفاهم وانسجام. واتّفق، فيما بعد، أن اعتزمت "السـفينة" إنشاء مركز في مدينة كانساس الأميركيّة، وعرض المسؤول عن ذلك المشروع الأمر علـى المجلس البلديّ، الذي رفضه، بحجّة أنّ أهل الحيّ يرفضون العيش إلى جـوار أشـخاص معاقين. وقد اقتضى إقناعهم بتغيير موقفهم أربع سنوات من الحوار الصبور

" السفينة " في " ديبريك " بكندا

كان جان فانييه ما انفكّ يُدعى، باطّراد، لإِلقاء مواعظ رياضات روحيّة في كندا والولايات المتّحدة الأَميركيّة، وإِنكلترا، فيتحدَّث عمّا اختبره من معايشته المعاقين، وكثيراً ما كانت أَقواله الصادقة، الدافئة، تشعل، في نفوس بعض مستمعيه، جذوة غيرة تماثل غيرته، وسخاءً يحاكي سخاءه، فتولد، تلقائيّاً فروع للسفينة في أَماكن شتّى من البسيطة.

و من أَكثر من تأثّروا تأثُّراً بليغاً ودائماً بأَحاديث جان فانييه، الراهبة الطالبة في جامعة تورنتو، " سيو موستيلّر "، التي أَخذ من نفسها كلّ مأخذ حديثه عن "دائرة الفقر". ثمّ اشتركت في رياضة روحيّة أُخرى أَدارها في مدينة هيريليك الكنديّة عام 1968، وقد باحت، في أعقابها:

" في مسيرة حياتي الرهبانيّة، كنت قد انتهيت إِلى مرحلة أَبحث فيها ولا أَعثر على شيء، وقد دعانا جان فانييه إِلى الصلاة والصمت، وللمرَّة الأولى، في أَثناء حياتي الرهبانيّة، اكتشفت أَنّ الصمت ليس فراغاً، بل هو حافل بحضور اللّه، وأَنّ اللّه يعمل في فراغي. كان فيّ فراغ، وقد أَتت تلك الكلمة فملأته، فأردت أَن أَكون أَكثر وفاءً، وأَصالة".

ثلاث سنين، إِثر ذلك، كانت سيوموستيلّر من أَساطين جماعة "السفينة " الأَولى التي تأسَّست في كندا، في مدينة ديبريك.

و كانت قد اشتركت في رياضة ميريليك عام 1968، أَيضاً، الأُخت روزميري دونوفان، رئيسة مرسلات السيّدة العذراء، وشعرت بدعوة إِلى تقديم بيت ورقعة أرض في منطقة ريشموندهيل، بضواحي تورنتو، إِلى " السفينة "؛ وقد تزامن ذلك، على نحوٍ مدهش، مع عودة الزوجين ستيف وآنّ نيوروث إِلى كندا، وهما اللّذان كانا أَسّسا في تروسلي جماعة " الشعانين "، ثمّ قفلا إِلى موطنهما الأَصليّ لنقل تجربة "السفينة" إِليها.

و قد تضافرت هذه العوامل الثلاثة المتزامنة : عودة الزوجين نيوروث الكنديّين الديناميكيَّين، إِلى كندا، وثمار الرياضة التي أَلقى مواعظها جان فانييه في ميريليك، وهبة مرسلات السيّدة العذراء، على إِنجاح جماعة "السفينة" في ديبريك، التي افتتحت أَبوابها، في شهر تشرين الأوّل من عام 1969، بعد أَن أَضافت إِلى البيت ورقعة الأَرض التي وُهبتها رقعتين أُخريَيْن، بحيث بات بإمكانها أَن تمتلك، لا قرية كاملة، بل مؤسّسة تتمتّع بشبه كفاية ذاتيّة. وفضلاً عن ذلك، كان ستيف، وهو سليل أُسرة مزارعين، يهوى العمل في المزارع، ويعدّه مفيداً ومصدر عافية وشفاء. وسرعان ما أَلحق بـ " البيت الكبير " الذي كان مركز الجماعة الأَصليّ، " البيت الجديد " وهو مزرعة كان يعمل فيها بعض المعاقين

حيث يهتمّون بالدواجن، والخراف، والأَحصنة، ولفترةٍ ما، ببقرة حلوب، في حين كـان معاقون آخرون يعملون في مشغلٍ محميّ في الحيّ.

غير أَنّ توسّع العمران الذي قضى على معظم المزارع القائمة في ضواحي المـدن، والروح الأَميركيّ السائد في كندا، والذي لا يؤمن بالانعزال، حتّى للمعاقين، بل يدعو إِلـى "تطبيعهم"، وإِلى ضرورة إِسكانهم في شارع عاديّ، مثل سائر البشر، بحيـث يسـتيطعون المضيّ، سيراً على الأَقدام، إِلى الحوانيت، وإِلى الطبيب، وإِلى الصيدليّة، والمخبز، بل إِلى المدرسة، والمصنع، هذه العوامل أَدّت، بعد بضع سنوات، إِلى هجر الرؤية الأَساسيّة، وإِلى إِغلاق المزرعة، وإِلى سكن الأَكثر أَهليّة من المعاقين في منازل خاصّة، خارج بنـاء الجماعة.

و ربّما دفعت هذه النظرة الأَميركيّة " السفينة " نحو إِعادة النظرفي أَساليبها ورؤاهـا، والحدّ من حماية المعاقين المفرطة، ونحو مزيد من السعي إِلى تأهيلهم، وتوفير حياة أَكثـر "طبيعيّة" لهم.

و هكذا، في عام 1974 افتتحت جماعة ديبريك أوّل مركز لها في قلب مدينة تورنتو، وسرعان ما أَظهرت التجربة أَنّ كثيرين من المعاقين قادرون على تعلّـم اسـتخدام المتـرو ووسائل النقل الجماعيّ، وعلى اختيار العمل الذي يستهويهم.

و لكن اتّضح، من زاوية أُخرى، أَنّ الجماعات، في العالم الجديد، لا يمكنها الاعتماد على مثل الموارد الروحيّة التي تنعم بها جماعات تروسلي، وفرنسا عامّة. فالبلدان الأَميركيّة التي تقدّس المتعة تفتقر إِلى الكثافة الروحيّة، وتجنح أَكثر إِلى البراغماتيّة الدينيّة التي تعبّـر عنها بالمشاريع الخيريّة؛ أَمّا من احتاج، فيها، إِلى غذاءٍ روحيٍّ دسم، وإِلى الانغماس فـي معرفة اللّه الصوفيّة، فقلّما يجد لنفسه مرجعاً.

وحدها الرياضات الروحيّة كانت كفيلة بسدّ هذا الفراغ، وبالتذكير الدائم أَنّـه، مـع التسليم بضرورة توفير الوسائل التي تمكّن المعاقين من اكتسـاب الاسـتقلاليّة، والمعـارف والمهارات، وتؤهّلهم للاندماج في المجتمع، إِلاّ أَنّ " السفينة " قائمة على الإِنجيـل قبـل أَن تكون مؤسّسة مختصّة بمعالجة المعاقين، وهي تؤمن بأَنّ دعوة المعاقين، ودعوة كلّ إِنسان، هي النموّ في الحبّ، واستضافة الآخرين، والقداسة.

و قد ترتّب على جماعة ديبريك التصدّي لتحدٍّ من نوع آخر؛ فبعد أَن أَقـرّت مبـدأ تعميق الحياة الروحيّة، كان لا بدّ من بلورة الأسلوب الذي يحسن انتهاجه فـي منـاخ مـن التعدّديّة الطائفيّة. فالمؤسّس أَنكليكانيّ المذهب، ومعظم المساعدين كاثوليكيّون، والمعـاقون ينتمون إِلى مذاهب مختلفة؛ ومثل هذا الوضع لم تعهده جماعات " السفينة " في فرنسا.

وضع مماثل كان على جماعة بنغالور، في الهند، التي تأسّســت عــام 1970، أَن تواجهه، هي أَيضاً.

" السفينة " في الهند

الهند موطن المهاتما غاندي، ولطالما افتُتن جان فانييه بغاندي الذي كان يعدّه هديّة اللّه للإِنسانيّة، وأَخذ برؤيته النبويّة للـ "هاريان" (أبناء الله، ويعني بهم المنبوذين) وللاعنف (أهيمسا)، وبعمق روحانيّته، واتّحاده باللّه، وقد وصفه بأَنّه " رجل صلاة، يسكنه حضور اللّه الدائم في قلبه، وجسده، وكلّ كيانه... إِنّ شعوره الحادّ بصغره وفقره قد انطبع فيّ، ووفّر لي قناعات جديدة، ووسّع آفاق خيمتي. لقد أَدركت أَنّ اللاعنف يعني، في الواقع، التأهّب للعُطوبيّة "

و قد كان لغاندي وللهند تأثير بليغ على روحانيّة جان فانييه. فلدى كلّ زيارة له إِلى الهند كان يكتب إِلى أَصدقائه المنتشرين في العالم، أَنّه بات يكتشف، أَكثر فأَكثر، فقره الذاتيّ.

زيارته الأولى تمّت في غروب عام 1969، بغية تأسيس الفرع الأوّل للسفينة على مقربة من مدينة بنغالور. ومع أَنّه، بفضل معرفته الوثيقة لغاندي، كان قد اطّلع على الكثير من أمور الهند، إِلاّ أَنّ ذلك لم يخفّف من وقع تجربته المباشرة الأولى، ومن تأثّره بالثقافة الهنديّة، وبالشعب الهنديّ العميق التديّن، البعيد عن الدوافع المادّيّة السائدة في العالم الغربيّ، وبالتلاؤم المحكم بين تعاليم غاندي والواقع الهنديّ، وبآلام الفقراء.

و يضيف جان فانييه : " أَيّة نعمة في أَن أكون هنا! إِنّني أشعر بتحوّل يتحقّق فيّ، فأتمنّى أَن أَزداد فقراً، وتتضاءل عدوانيّتي، وأُصبح أَشدّ وداعة، ونأياً عن العنف، وانفتاحاً على الاستضافة. صلّوا لكي أَكون وفيّاً".

و في غروب عام 1971 التقى الأُمّ تيريزا في الولايات المتّحدة، ومعها تلقّى جائزة مؤسّسة كنيدي، فدعته الأُمّ إِلى زيارة المدينة التي فيها دُعيت إِلى العيش مع الفقراء ومثلهم. فتفقّد، برفقتها، مخيّمات اللاجئين، في أَعقاب حرب البنغلاديش، كما زار مراكز المحتضرين التي كان يديرها مرسلو ومرسلات المحبّة، وشاهد قوماً سحقهم الفقر طيلة حياتهم، ينفقون جوعاً ومرضاً، على أَرصفة كلكتّا القذرة. هذا اللقاء مع الأَلم السحيق حدّ من اندفاع بدايات "السفينة" في الهند، وجعلها أَكثر وعياً لحدودها الذاتيّة، وأَشدّ رغبة في عيش الفقر، والانقياد للروح القدس.

أَمّا تأسيس فرع " السفينة " الأَوّل في الهند فكان نتيجة تشابك صُدَف حاكتها بمهارة العناية الإِلهيّة. فقد كانت من أَولى المساعدات القادمات للعمل في " السفينة "، في تروسلي، فتاة هنديّة كاثوليكيّة من مدينة مدراس، أُمّها هندوسيّة، وأبوها مسلم. كان يحدوها دافع لا يُقاوَم إِلى عيش التطويبات. وكان لحضورها أَثر بليغ على تفكير جان فانييه بالهند.

و كاشف جان فانييه بالأَمر المساعدة الأَلمانيّة غابرييلاّ التي كانت تدير فرعاً للسفينة في مونتريال، بكندا، وتحلم بالعمل في الهند. وفي الآن عينه، كان على اتّصال بالنقيب راما شاندرا، وهو من تلاميذ غاندي، وكان يسعى إِلى إِيجاد مدارس للمعاقين في الهند. وفي تلك الأَثناء التقى جان فانييه، بمحض الصدفة، بالجنرال سبيرس، مدير الوكالة الكنديّة للإِنماء الدوليّ، المكلّفة بتوزيع إِعانات حكوميّة لمنظّمات خيريّة، واتّفق أَنّه كان لدى تلك الوكالة فائض تودّ التبرّع به لمشروع إِنسانيّ، فوعد الجنرال سبيرس بتأمين ثلث نفقات فرع للسفينة في الهند، إِن استطاع جان فانييه أَن يوافيه، ضمن فترة قصيرة، ببيان مفصّلٍ عن المشروع، وبميزانيّة تقديرية له. ويعترف جان فانييه : " عكفنا، أَنا وغابرييلاّ، على وضع ميزانيّة، ونحن لا نمتلك أَيّة فكرة عن مثل هذا العمل، وسرعان ما تبلورت لدينا ميزانيّة بمبلغ مئة أَلف دولار، وفي غضون بضعة أَسابيع كان في حسابنا المصرفيّ ثلاثة وثلاثون أَلف دولار". وانقلب المشروع "المجنون"، مشروع "السفينة" في الهند، واقعاً ماثلاً.

وفي الثلاثين من تشرين الأَوّل 1969 يمّمت غابرييلاّ، برفقة زميلتها ميرا، شطر الهند، وما لبث أَن لحق بهما جان فانييه، يحدوه اليقين بأَنّ دور " السفينة " لن يقتصر على مساعدة المعاقين، بل عليه التمثّل بالشعب الهنديّ، وتجنّب جرحه بأَيّ موقف فوقيّ.

لم يكد يمضي أُسبوع على وصول جان فانييه إِلى بنغالور حتّى تمكّنت "السفينة" من ابتياع بناء قائم على هيكتارين، فيه بئرا ماء، بفضل مؤازرة النقيب راما شندرا ومعاونيه، وسرعان ما تأَلّف مجلس إِدارة ضمّ قوماً يناصرون آراء "السفينة" وتطلّعاتها، وضمّ، في الآن عينه، ذوي باع في الأَعمال والعلاقات العامّة، استطاعوا الحصول على الموافقات الرسميّة. وقبل انتهاء عام 1970 افتتح مركز "أَشانيكيتان" أَو "بيت الرجاء" أَبوابه لاستقبال بشر جريحين في روحهم وفي نفوسهم، ولمنحهم الرجاء. هؤلاء المساكين كانوا قابعين في مشافي الأَمراض النفسيّة الهنديّة؛ كانوا، رجالاً ونساءً، مسجونين، عراة، في أَقفاص بنيت لأَكثر من مئة سنة خلت، لا مراحيض فيها ولا أَسرّة، بل قضبان صدئة، وحضيض عارٍ رطب. وكان بعضهم مسجونين في قاعات مغلقة معتمة، لا يُخرجون منها إِلاّ من أَجل التعرّض لجلسات صدمات كهربائيّة.

و بدا أَنّ يداً عطوفاً كانت تقود، بحنان ورعاية، مركز بنغالور الوليد؛ ففي مهلة شديدة القصر تمكّنت غابرييلاّ من تمديد الكهرباء والمرافق الصحيّة، والماء، وكانت البساتين قد شرعت تؤتي ثماراً، وكان مصنع، في الجوار، يوفّر عملاً بدائيّاً لثلاثة من المعاقين لقاء راتب شهريّ قدره أَلف روبيّة.

و لم يخفَ على جان فانييه ما انطوى عليه تأَسيس " آشانيكيتان " من "جنون"، فلا هو ولا مساعدوه كانوا يلمّون بشيء من لغة البلاد وتقاليدها؛ جُلّ ما كان مطلوباً منهم هو التحلّي

بقدرٍ كافٍ من الفقر والثقة، لكي يفسحوا مجال النموّ لجماعة من نمطٍ جديد، جماعة لا تتطلّع إِلاّ إِلى العيش مع أَشخاص معاقين عقليّاً، سواء كانوا مسلمين أو هندوسـيّين أو مسـيحيّين، ومشاركتهم الصلاة، والطعام، والسير معهم طيلة حياتهم. وكان هاديهم، في ذلك، غاندي، الذي أَدرك أَنّ عليه مواصلة مسيرته ولا دليل له سوى اللّه، والذي اعترف أنّه، مع ما لاقاه من آلام وخيبات أَمل، كفيلة بإِفقاده رشده، لو لم يواكبه، دائماً، شعور بحضور اللّه معه.

و قد أَقرّ جان فانييه، فيما بعد: "وفق اعتبارات عديدة، يبدو هذا التأسيس في الهنـد مضحكاً... فما معنى مثولنا إِلى آخر الدنيا، إِلى آسيا، من أَجل افتتاح مركز، فـي حـين تستدعينا مهامّ جمّة هنا في فرنسا وفي كندا ؟ وأيّ معنى لمثل هذا التأسيس في بلاد غريبـة، نجهل لغتها، ونفتقر فيها إِلى وسائل العمل ؟

" في معايير الفطنة البشريّة يبدو هذا المركز الحديث حماقة. ومع ذلك، في غضون فترة وجيزة، أَفلحنا، غابربيلاّ، وميرا، وأَنا، في عقـد علاقـات صـداقات متينـة مـع شخصيّات هامّة وقديرة؛ وبمساعدتها، افتتحنا "آشانيكيتان" الأَوّل. السرعة التي بها تمّ كـلّ شيء جعلتني أُدرك حماقة الفطنة البشريّة، وأَكتشف حكمة الجرأة التي ينيرها الروح، عندما تسعى إِلى اجتياز التخوم، للوصول إِلى من يتأَلّمون، في كلّ موضعٍ من العالم.

أَحد أوائل نزلاء "أَشانيكيتان"، المدعوّ "شرينيفازان" كان قد قدم من مصحّة عقليّـة، وهو ما زال ضحيّة سورات غضب، يعضّ ويخمش؛ وشيئاً فشيئاً، غمره الفـرح، وسـكَن فؤاده، وبات له أَصدقاء، واكتشف لنفسه أُسرة.

نزيلٌ آخر، يدعي "جان"، كان جريح العقل والقلب، ولكنّه كـان يهـب الآخـرين بسمته، وأسلوبه في إِشعاع السلام. وذات يوم، إِذ كان عائداً من زيارةٍ لأمّه، في عطلـة نهاية الأسبوع، استقلّ حافلة تقصد جهة أُخرى، وضلّ طريقه. ومع أَنّه لم يكـن يخـامر مسؤولي المركز أيّ أَمل في العثور عليه، غير أَنّهم مضوا في البحث عنه بلهفة، وصـلّوا، ونشروا صورته في الصحف، عسى أَن يُرشد إِليه أَحد. وذات مساء، اتّصل مجهول مؤكّداً أَنّه شاهد الشابّ المفقود، على مسيرة ثلاثين ميلاً؛ وفي منتصف الليل، انطلق اثنـان مـن المشرفين للبحث عنه، رغم العتمة الدامسة، وجهلهم للمكان، وازدحام الأَرصفة بالمشرّدين الراقدين عليها في اختلاطٍ لزيز. وظلاّ يبحثان إِلى أَن وقعت أَبصـارهما عليـه، شـاحباً، منهكاً، بالغ الهزال، وسأَلاه: "هل ترغب في البقاء هنا أَم تؤثر العودة إِلى البيت؟"، فأجاب :

- "أَجل، البيت"

و قد احتفل الجميع بعودته، وعكفوا على ترميم صحّته، وإِكسابه ما فقد مـن وزن، في أَثناء تيهه.

كثيرون من المساعدين المتطوّعين للعمل في مركز بنغالور كانوا غربيّين، يلقون في التأقلم مع ظروف العيش والعمل، ألواناً من العنت؛ ومع ذلك، كانوا يستمدّون من هذه التجربة خبرة تغني، وفرحاً يشيع في نفوسهم السلام؛ فهذه، على سبيل المثال، "دودي"، القادمة من كندا، حيث كانت قد تطوّعت للعمل، سنةً، في " السفينة "، وإثر ظفرها بإجازة في التمريض، قدمت إلى الهند وانضمّت إلى الفريق العامل في "أشانيكيتان " بنغالور. وكان عليها أن تتكيّف مع مصاعب اللغة، والطعام، ونمط العمل، والتغلّب على مزعجات البراغيث، والحرارة، والرطوبة. وتعلّمت التقتير في الإنفاق، والسفر في مقطورات الدرجة الثالثة التي يتخطّى إزعاجها كلّ وصف. وقد باحت حول حياتها في "أشانيكيتان" بالقول:

" صحيح أنّني أحنّ إلى أُسرتي، لأنّني بعيدة عنها جدّاً. ولكنّني بتُّ الآن أعرف أنّني حيثُ عليّ أن أكون. إنّ العمل، في ذاته، منهك، غير أنّ الفتيان النزلاء رائعون، ويغمرني سلام جمّ لمجرّد كوني إلى جانبهم. إنّني أتخبّط في مصاعبي، ولكنّني أسعى إلى اتّباع يسوع".

أمّا غابرييلاّ التي كانت من مؤسّسي " أشانيكيتان " بنغالور، فقد وضعت، للعاملين في ذلك المركز، الصلاة التالية:

" إحمِنا، ياربّ، في كلّ خطوة،
من الاستكانة إلى الاستقرار،
ومن إيصاد قلوبنا، والدفاع عن مواقفنا...
إحمِنا من المشاريع الصغيرة الجميلة،
التي يُخيّل لنا، معها، القدرة على حلّ عدد من القضايا
التي اخترنا، نحن، معالجتها،
إن كان من شأنها حملنا على عدم المبالاة بأخٍ آخر،
سواء كان غنيّاً أو فقيراً،
كفيلٍ بإقلاق طمأنينتنا، من جرّاء التماسه المفاجئ
طعاماً، أو استقبالاً،
أو عدلاً، أو صداقة، أو محبّة ".

مركز بنغالور كان الحلقة الأولى من سلسلة مراكز أُخرى افتتحتها "السفينة" في الهند. ففي عام 1972، أنشأ زوج من الأميركيّين مركزاً آخر على قمّة جبل كوتا جيري، على ارتفاع ألفي متر. ولكنّ كلّ شيء تمّ في عجلة، بعيداً عن كلّ تنسيق مع مجلس الإدارة

الوطنيّ. ولم تمضِ تسعة أشهر حتّى اضطرّ المركز إِلى إِغـلاق أَبوابـه وجـيء بنزلائـه المعاقين إِلى مركز بنغالور.

ثمّ، في عام 1973، قدّم المطران بيكاشي، رئيس أساقفة كلكتّا، للسفينة، بناء مـن طابقين يقع بين محطّة سكّة حديد سيلداه الدائمة الازدحام، وكنيسة القدّيس يوحنّا، التي حُوِّل قبوها إِلى مشغل للمعاقين؛ وتمّ التعاقد مع شركة فيليبس على توفير عمـلٍ بسـيط لهـؤلاء المعاقين، لقاء راتب يتيح للمركز القيام بأَوَد نزلائه.

و تلت هذه مراكز أُخرى في مدراس عام 1975، وفي كاليكوت، بمنطقة كيرالا، عام 1978؛ وقد وُلدت هذه المراكز من تشابك ظروف تدعو إِلى الدهشة، وتشير بوضـوح إِلـى تدخّل العناية الإِلهيّة. وخير مثال على ذلك مركز كاليكوت. فذات يوم، كان رجل هنـديّ، يدعى "براما نند"، مسافراً بالقطار بين كاليكوت وبنغالور، فطالع، في صحيفة، مقالاً عـن "أشانيكيتان" ومؤسّساتها في الهند، فيمّم شطر مركز بنغـالور، وروى أَنّ والـده الهندوسـيّ الوَرِع كان يمتلك مصنعاً للصابون في جنوبيّ الهند، أغلقه العسـكريّون، وبعـد أَن تقبّـل حرمانه هذا المصنع، عثر، صدفة، عل بناءٍ جميل في كاليكوت، على مقربة من البحـر، فبادر إِلى ابتياعه بمبلغ خمس مئة روبيّة، وهو لا يملك، من ذلك المبلغ، فلساً. ولكن، في اليوم المحدّد لأَداء الثمن، جاءه البريد بمبلغ خمس مئة وخمس وعشرين روبيّة، يُمثّل ثمـن البناء المطلوب، ونفقات السفر، ورافقت ذلك المبلغ رسالة من مجهول أَكّد أَنّه تلقّـى، فـي الحلم، إِيعازاً بإِرسال هذا المال؛ وفي الحال بادر والد السيّد برامانند إِلى بناء معمل شمع في ذلك الموقع. ولكن عندما تولّت السلطة في كيرالا حكومة شيوعيّة، أَسرعت إِلى الاسـتيلاء على ذلك المصنع، غير مبالية بحجج مالكه الذي بيّن أَنّ المكان هو هبة إِلهيّة، وأَنّ الاستيلاء عليه يعني دفعه إِلى الإِفلاس في غضون ثلاثة أَسابيع؛ وهذا ما حدث فعلاً. وتبـيّن، فيمـا بعد، أَنّ ذلك الهندوسيّ الورع قد دوّن وصيّة جاء فيها أَنّ قسماً من ذلك المكان ينبغـي أَن يوقف على استقبال البرص والمعاقين، على أَن يُحظر فيه تناول الشاي والقهوة، وهذا مـا يحدث فعلاً في "أشانيكيتان" الذي قام في ذلك المكان عينه. وقد جاء ابن ذلك الرجل كي ينفّذ وصيّة والده، وقدّم للسفينة أَربعين أو خمسين فدّاناً من ذلك المكان الذي كان يعدّه عطيّة اللّه. غير أَنّ مسؤولي السفينة عدّوا هذه المساحة المقدّمة أَكبر من احتياجاتهم فاكتفوا بقبول خمسة فدادين. ولكن، من جرّاء افتقار " السفينة "، آنئذٍ، إِلى مدير كفء، ظلّ المكان مقفراً، إِلى أَن شعرت السيّدة البريطانيّة كريس سادلير، التي كانت تعمل في غوث المنبوذين في جنوبيّ الهند، بدعوةٍ إِلى إِنشاء جماعة من جماعات " آشانيكيتان " هناك، وقد غدا ذلك المركز الذي أُطلق عليه اسم " ناندي بازار " رائع الجمال، رائعاً بمحيطه، فهو قائم على شـاطئ رمـال ذهبيّة، ورائعاً بصمته الملهم، وببراءة المعاقين المقيمين فيه، نظير "ميتران" الذي كان يدعو

الجميع إلى التعجّب حيال ضفدعة كان يدعوها دجاجة، وحرباءة التي يدعوها نمساً، وحيال الموزة التي كان يراها تضحك.

و بالإجمال كانت تجربة "السفينة" في الهند شديدة الاختلاف عمّا خبرته، حتّئذٍ، في الغرب، وفريدة بغناها الروحيّ والمسكونيّ. ففي الهند كانت قرون من العلاقات الوثيقة بين الدين والحياة قد أوجدت كنوزاً روحيّة جديرة بالاستغلال. فهناك لكلّ شيء معنى دينيّ، والصلاة تتدفّق، تلقائيّاً. فرغم التأثير المادّيّ الغربيّ، ما انفكّ الحسّ القدسيّ راسخاً بعمق، ولا سيّما في المناطق الريفيّة حيث الناس يعيشون على تجاوب وثيق مع إيقاع الطبيعة، ويكتشفون للحياة معنى كميناً. فبساطة العيش اليوميّ، والاعتماد على الأَرض والسماء، وعلى الشمس والمطر، لمواجهة الاحتياجات الأساسيّة، يدفع القوم إلى تمتين وشائجهم مع الواقع والحياة.

ففي الهند لم يكن العاملون في "أشانيكيتان" يتذمّرون، كما كان يفعل بعض العاملين في الغرب، من واجب الصلاة مرّتين كلّ يوم، مع أَنّ قلّة من أولئك العاملين كانوا مسيحيّين، في حين كان معظمهم من الهندوسيّين والمسلمين. ومن المسيحيّين أَنفسهم، كان، ثمّة، إلى جانب الكاثوليكيّين، بروتستانتيّون، وسريان أورثوذكسيّون؛ وكان الإِجماع على نصّ صلاة جماعيّة مشكلة عسيرة الحلّ.

في مركز بنغالور اتّفقت الجماعة، تلقائيّاً، على تخصيص غرفة للصلاة، وفيها وضعت غابرييلاّ صورة للسيّدة العذراء، ووضع مسيحيّ آخر صليباً صنعه بنفسه، ثمّ جاء هندوسيّ بتمثال لجانيش، الإِله الفيل. وغدا الهندوسيّون الذين يمضون عطلة نهاية الأسبوع مع ذويهم يعودون بصُوَر لشتّى الآلهة، ويزيّنون بها غرفة الصلاة، وكان كلٌّ من الموجودين يحترم معتقدات الآخرين.

و فضلاً عن تعدّد الديانات والمذاهب، كان على " السفينة " مواجهة تعدّد الثقافات، وتعدّد التقاليد وتباينها بين منطقة هنديّة وأُخرى. وسط كلّ تلك الفسيفساء، وقع خيار "السفينة" على الفقراء، وقد اعترف جان فانييه : " كلكتّا ليست هي الهند. بل الهند هي القرى. الهند هي الأُسَر المتّحدة، وهي وجوه الفقراء وبسماتهم التي تشعّ السلام ".

وفوق كلّ شيء كان يسيطر على جماعات " أشانيكيتان " شعور مرهق بالوضاعة. فبضعة من هذه المراكز التي يضمّ كلٌّ منها عشراً أو اثني عشر فرداً، ليست سوى قطرة تكاد لا تُرى في خضمّ الشقاء السائد.

و مع ذلك كانت مراكز "آشانيكيتان" صغيرة، بليغة الدلالة، ترشد إلى ما بوسع العالم أَن يصبح، لو جهد كلّ إِنسان في العيش على أَنّه ابن للّه، ومنفتح على نفحات الروح.

فروع في شتّى الأَقطار

تحدّيات مماثلة لتلك التي واجهت " السفينة "، في الهند، واجهتها، أَيضاً، في مختلف البلدان، ولا سيّما بلدان العالم الثالث حيث افتتحت فروعاً.

ففي شاطئ العاج، وفي بلدان أفريقيّة كثيرة، كانت التقاليد تنظر نظـرة تطيُّـر إِلـى المعاقين، وترى فيهم مبعث شؤم، بحيث تؤمن الأُسر التي تضـمّ فـرداً معاقـاً أَنّ عليهـا التخلّص منه لمصلحة الجماعة، فتوكله إِلى ساحر يرميه في الغابة، مدّعياً أَنّه انقلـب حيّـة. وعلى المرأة الحامل أَلاّ تتناول الطعام على مائدة يتناول معاقٌ طعامه عليها لئلاّ تنتقل عـدواه إِلى جنينها؛ فكيف السبيل، والحالة هذه، إِلى إِبلاغ القوم ما ينطوي عليه أَبناؤهم المعـاقون والمرذولون من قيمة سرّيّة سامية، وإِشراكهم في القِيَم التي بشّرت بها " السفينة " ؟

و لكن، من جانب آخر، كانت تلك الأَقوام تتّصف بسخاءٍ يتضارب وفقرها المادّيّ، ويتجلّى من خلال الضيافة الحارّة التي يكرّمون بها الغرباء.

وسط هذه الأَجواء، افتتحت " السفينة " مركزين في شاطئ العاج، ثمّ أَلحقتهما بمراكز في هاييتي وهوندوراس، وبلدان عديدة أُخرى، حيث الفقر المدقع يسبّب، بلا شكّ، المعاناة، ولكنّه لا يولّد لا مرارة ولا ضغينة. وغالباً ما كانت تلك المراكز تنبثق إِثر محاضرات يُدعى جان فانييه إِلى إِلقائها في تلك الأَماكن التي ما يكاد يطؤها حتّى يسبر خصائصها الجوهريّـة، سياسيّاً، وثقافيّاً ودينيّاً. وغالباً ما كان ينبعث نداءٌ إِلى " السفينة " عبر شخص معاق، كـلّ كيانه يتوسّل المحبّة والحنان.

ففي أَحد أَسفاره إِلى هاييتي، كان جان فانييه قد اصطحب "روبـي لاروش"، وهـو، مثله، أستاذ فلسفة سابق في كندا، كانت تستهويه الإِقامة في هاييتي للعناية بالمعاقين. وقـد وطّن العزم، أوّلاً، على المكوث مدّة ثلاثة أَشهر في حيّ فقير مـن ضـواحي "بـورت أو برانس"؛ وسرعان ما تبيّن أَنّ المعاقين، هناك، لا يُنظر إِليهم فقط على أَنّهم عـبءٌ، ويـتمّ الانعتاق منهم بإِيداعهم في مؤسّسات مختصّة، بل غالباً ما يُلاحَقـون بـالهزء والسـخرية، وينقلبون مهرّجين ومتسوّلين، وبالتسوّل يصبحون لذويهم مصدر رزق، ولكن بعد أَن يكونوا قد فقدوا كلّ إِحساسٍ بالكرامة.

و في إِحدى مصحّات هاييتي النفسيّة التقى روبير لاروش إيفلين، الفتاة ذات العشـر سنوات التي كانت تعاني اضطرابات عاطفيّة، وتلاحق المارّة في الطرقات، مغنّية بصـوتٍ حادّ، إِلى أَن أُلقي القبض عليها، وأودعت المصحّة، ولم يُعثر لذويها على أَثـر. وإِذ إِنّهـا كانت الفتاة الصغيرة الوحيدة في تلك المصحّة، اقترح مديرها نقلها إِلى "السفينة". ولم تكـن السفينة، حتّئذٍ، قد استقبلت أطفالاً في مثل سنّها. وترسّخت لدى روبير القناعـة بضـرورة

إِحداث مركز للسفينة، وتبرّع، لمساعدته، أَطبّاء وآخرون، سرعان ما أَلّفوا مجلس إِدارة لدعم أسرة "السفينة " الوليدة. وفيما بعد، أُنشئت ثلاث أُسَر أُخرى، ومدرسة لأَبناء الجماعة وأَبناء الجوار، ومشغلٌ ينتج، بين ما ينتج، زبدة فستق عبيد ممتازة.

و في عام 1977 بعث روبير لاروش بهذه الرسالة إِلى إِخوانه المساعدين في مراكز "السفينة " في فرنسا، فقال :

" عندما أحاول تبيّن ما دعاني إِليه يسوع عندما أَعماني وجاء بي إِلى " السفينة "، وما يدعوني إِليه اليوم، أرى، خاصّة، أولئك الذين أُوكلهم لرعايتنا في مركز "كي سان جوزيف" في بورت أو برانس، أَي إيفلين، وجوليبوا، وبيرناديت، وبول، وجان روبير. إِنّهم الفقراء الذين، عبرهم، دُعيت، أصلاً، وحيالهم التزمت. الفقراء هم رسالة يسوع، ومن خلالهم، من خلال أَقوالهم، وآلامهم، وفرحهم، وصبرهم، وكلّ كيانهم تجلّى يسوع في صليبه وكلامه. لقد جئت إِلى " السفينة " لكي أَمكث مع الفقير القريب من يسوع...

" كلّ يوم يسألني إِيفلين وجوليبوا والآخرون هل أُحبّهم، ويستوضحون كثافة التزامي حيالهم. واتّباع يسوع يقتضي منّي أَن أُجيبهم، كلّ يوم... ما أودّ أَن أَقوله لهم هو أَنّني أَرغب في أَن أعمل على نحوٍ أَفضل، وأَن أضع كلّ كياني، بمواهبي وحدودي، في خدمتهم، مدى حياتي كلّها.

" إِنّ الإِجابة على سؤال إِيفلين، وبرناديت، وراوول، وجان روبير، وجوليبوا، الإِجابة على سؤال الفقير، هي الإِجابة على سؤال يسوع. وأَنا في حاجة إِلى يسوع لكي أَظلّ أُجيب كلّ يوم، وكلّ يوم بمزيد من الوفاء.

" وهناك أَيضاً نداء الشعب المسكين المحيق بنا، شعب مدقع الفقر، دعانا إِليه يسوع لأَنّه يحبّه حبّاً جمّاً، ولأَنّه يريد استخدامنا لكي يبلّغهم البشرى. ولهذا الشعب المسكين أودّ أَن أؤكّد أَنّني أُريد توظيف كلّ موارد كياني من أَجل فهمه، وحبّه، طالما أَبقاني يسوع بين ظهرانيه "

أَمّا "نادين توكار"، مؤسّسة جماعة "السفينة" الأولى في هندوراس، فكانت قد وافت تلك البلاد كي تُعدّ لرياضة روحيّة كان على جان فانييه أَن يحييها هناك؛ وسرعان ما فتنها السكّان بفقرهم، وبساطتهم، ودأبهم على كسب رزقهم، وتقواهم؛ ورغبت في معرفة المزيد عنهم فاستقلّت حافلة نقلتها إِلى سوييابا، وهي ضاحية فقيرة جاثمة على كتف هضبة مطلّة على العاصمة، تحضن كنيسة مهيبة أُنشئت تكريماً للعذراء سيّدة هندوراس، وباتت محجّاً.

يوم وصلت نادين توكار إِلى سوييابا، كان قد غزا المكان فقراء شرّدهم إِعصار مدمّر، فابتنوا على حواشي الهضبة أكواخاً من ورق مقوّى، وألواح خشبيّة، ومن كلّ ما

وقعت عليه أَيديهم من موادّ البناء؛ وكانت سويبابا ما زالت تفتقر إِلى الماء والكهرباء والطرق المزفّتة.

و في أَثناء زيارة تالية إِلى هندوراس من أَجل الإِعداد لرياضة أُخرى كان على جان فانييه أَن يحييها للشبّان، الذين كان يزيّن لهم فقرهم المدقع حلم الهجرة إِلى الولايات المتّحدة بحثاً عن مستوى حياة أَفضل، زارت نادين مستشفيات، ومصحّات نفسيّة، وهالها ما رأت في بعضها من وقائع مريعة: "أناس من كلّ نمط، لاهمّ لهم سوى انتظار فرج الموت: مرضى عقليّون، ومسنّون، وبشر مهجورون، منبوذون". وهناك التقت مارشيا التي كانت قد هُجرت وهي ما برحت في الثالثة من عمرها، بين تلك الجدران حيث قضت عشرين سنة من عمرها قبل أَن تستضيفها " سفينة " سويبابا.

و في أَحد مشافي الأَطفال، رغبت نادين في رؤية أولاد معاقين، فاقتيدت إِلى غرفة منعزلة بعد أَن أُنذرت بأَنّ نزيلها خطر. تلك الغرفة الفارغة لم تكن تحتوي سوى قفص حديدي انتثرت من حوله بقايا طعام، وفي القفص كان رافائيل عارياً تماماً. كان معاقاً إِعاقة سحيقة ومصاباً بالصرع؛ كان قد وُلد في ذلك المشفى، وهُجر فيه، وترعرع بين جدرانه، وفي قفصه، ولم يُقم، يوماً، علاقة مع أَيّ كائن. كان عنيفاً جدّاً، لا يطيق أَن يمسّ أَحداً أو أَن يمسّه أَحد، ولكن كان له وجه ملاك؛ لقد قضت نادين نصف ساعة إِلى جانبه، تداعبه، فوُلدت لديها القناعة بأَنّ ذلك الفتى في حاجة إِلى أُسرة، وأَنّه كان يبعث بنداء إِلى "السفينة ". وكان لا بدّ من إنشاء أُسرة " سفينة " له ولأَمثاله.

نادين فرنسيّة الجنسيّة، وكانت سعيدة بالعمل في أَحد مراكز "السفينة" في تروسلي؛ غير أَنّها، حيال ما رأت، وما طرق باب قلبها من نداء، قرّرت أَن تستجيب له، مزرية بكلّ اعتبار آخر. وفي سبيل ذلك كان عليها أَن تندمج في القوم، وتتعلّم لغتهم، وتستوعب واقعهم اليوميّ. فعاشت سنة كاملة مع دونا ماريا وعائلتها في غرفة كانت تحتوي على سريرين وموقد ومنضدة؛ وواجهت، بادئ الأَمر، مصاعب جمّة، إِذ كانت كلّما دخلت المنزل أو أَيّ مكان آخر، يغادره الرجال والزائرون، لأَنّهم، من جرّاء ما عانوا من الاستعمار، كانوا يشعرون بعقدة نقص حيال الأَجانب، ويعدّونهم، جميعهم، أَوفر ثقافة، وذكاءً، وغنى ونفوذاً، ويجهدون في التعويض عن هذا النقص بالإسراف في الكحول والعنف. ولكن سرعان ما أَدرك سكّان البيوت المزدحمة في سويبابا أَنّ تلك الأَجنبيّة لم تكن تملك ما تعطيهم، بل هي كانت في حاجة إِلى أَن يعلّموها لغتهم، وطريقتهم في الاغتسال، وغسل ثيابها في الساقية، وابتياع طعامها من السوق.

طيلة سنة تلقّنت العيش على غرار أَيّ فقير في هندوراس، ووثّقت علاقات مع أُسَر كثيرة في الحيّ، وزارت العديد من المعاقين الذين كان عددهم يتعاظم من جرّاء سوء التغذية،

والافتقار إِلى العناية الصحيّة. لقد جهدت، كلّ وسعها، في تبديل صورة الغنى والقدرة التي تكوّنت عنها، تلقائيّاً، لكونها أوروبيّة؛ ومع ذلك ما انفكّ يشقّ عليها أَن ترى الأنظار مثبتة عليها وهي تسير وحيدة على الدروب المغبّرة؛ ولكنّها، بذلك، تبيّنت ما يخامر أولئك الفقراء من مشاعر النبذ وإِثارة الفضول.

و هكذا، نتيجة اندفاع نادين توكار، وإِثر تبيّنها احتياجات أَهل البلاد، تأَسّست جماعة "السفينة" في " نيلوسيكالبا "عاصمة الهندوراس، أُطلق عليها اسم " بيت الناصرة "، واحتلّت بناءً خشبيّاً مطليّاً باللونين الأَزرق والأَخضر، كان قد استخدم سابقاً لإِيواء إكليريكيّة، ثمّ مدرسة. ذلك المكان لم يكن يختلف عن سائر الأَبنية المجاورة إِلاّ بكونه أَرحب منها، ولكنّه غدا موئل رجاء وخلاص للكثيرين.

و سرعان ما انضمّت إِلى نادين ريجين القادمة هي أَيضاً من "سفينة تروسلي بروي" تحدوها رغبة في العمل في هندوراس. وقد انتظرتا، طويلاً، الظفر بالاعتراف الرسميّ الذي يتيح لهما استقبال أولاد معاقين. وبدا لهما ذلك الانتظار دهراً. وفي تلك الأَثناء، التهمت النار بيتاً مجاوراً، وقسماً من " بيت الناصرة ". حينئذٍ تبيّنتا أَنّ عدم السماح، حتّئذٍ، بوجود أَولاد في ذلك المركز كان تدبيراً ربّانيّاً. وفيما كان عمل الإِصلاح قائماً، مُنح مركز " بيت الناصرة " ترخيصاً باستقبال الأَولاد المعاقين الذين كانت نادين وريجين تعودانهم، باطّراد، في المستشفى. وقد غرست نادين في فناء المركز القاحل بذرة " أفوكادو"، رمزاً لحياة جديدة.

بادئ الأَمر استقطب رفائيل، الفتى الذي من أَجله أُنشئ "بيت الناصرة"، كلّ اهتمام نادين وريجين، فقد كان أَعمى ومنكفئاً على ذاته، ولا يكفّ عن الصياح ليل نهار؛ ومن ثمّ لم تستطع الفتاتان تحقيق رغبتهما في توثيق علاقاتهما مع الجوار وقاطني الحيّ. ثمّ اعتلّ، يوماً، رفائيل، وساءت حاله، وقضى نحبه. وكانت مراسم دفنه مناسبة تواصل مدهش بين " السفينة " وجيرانها الذين دعموها في محنتها، وفرصة مشاركة فذّة بين الأَغنياء والفقراء، قلّما كان لها مثيل في تلك المدينة الحافلة بالتناقضات؛ ولكأنّ وفاة رفائيل كانت خميرة وحدة وتوادّ.

فيما بعد نمت شجرة الأفوكادو وازدهرت. وبات المركزان اللّذان أنشأتهما " السفينة " في " نويفا سويبابا "، وكذلك المدرسة والمُحتَرَف الملحقان بهما، تدوّي جميعها بنشاط دائب؛ وتجلّى بوضوح أنّ سرّ الموت والقيامة يمرّ دائماً عبر الدعوة إِلى ارتشاف كأس الأَلم.

المركز الثاني في هندوراس أَسّسته، في محلّة شولوتيكا، المكسيكيّة بيلار هيرنانديز، وأُطلق عليه اسم " لاكازا سان خوسية " أي بيت القدّيس يوسف. وقد بادرت إِلى تخصيص مكان يرقد فيه القربان المقدّس، ويؤمّه من يشعر بحاجة إِلى الصلاة، وهي واثقة من أَنّ

القوم من حولها سيدركون، شيئاً فشيئاً، معنى حضور القربان، في قلب المركز، كبؤرة نور وعزيمة. لم تفرض على أحد الصلاة، ولكنّها كانت تبدأ نهارها باكراً، بتقديمه للربّ، ملتمسة العون والهداية، وتختلف إلى المصلّى كلّما دفعتها إليه حاجة. وذات يوم، فاجأها أحد المعاقين، واسمه سانتوس، وهي مستغرقة في صلاتها الصباحيّة، فعاتبها لأنّها لم تدعُه إلى مشاركتها. يومها عقدت اجتماعاً وعرضت الأمر على جميع نزلاء المركز. فأجمعوا على المثول، معاً، كلّ صباح، إلى المصلّى، كي يقدّموا نهارهم ليسوع، ويشتركوا في قدّاس، يستطيعون، في أثنائه، التناول. وهي تروي، في هذا المجال : " لم يكن فيليبب يعلم شيئاً عن يسوع قبل مجيئه إلى هنا، ولكنّه، شيئاً فشيئاً، أدرك أنّ في الهيكل كائناً يحبّه. كان مشلول الساقين فيضطرّ إلى التسحّب على الأرض القاسية مستعيناً بيديه؛ وكثيراً ما كان ينتابه الغضب فيشخص إلى المصلّى لكي يخبر يسوع بأنّه حانقٌ عليّ أو على شخص آخر. وفي المساء، عندما كانت الجماعة تلتئم للصلاة كان يشرع يتمتم : " أبانا الذي في السماوات، أبانا الذي في السماوات، أبانا الذي في السماوات... " وأحياناً، في ثنايا الليل، كان يجأر ليسوع بألمه.

ومن جهتها كانت سليمى التي ألِفت أن تضرب رأسها حتّى تجرحه، هي أيضاً، تشعر بالارتياح، عندما تمثل إلى المصلّى. وإذا ما استولى عليها الغضب، كانت تقصده وتعود منه وقد غمرها السلام، على نحوٍ مدهش.

" إنّني أشعر أنّ يسوع، هو، حقّاً، فيما بينهم. "

و قد آمنت بيلار، منذ اللحظة الأولى، أنّ المعاقين كنز ينبغي مساعدة الجيران على اكتشافه من أجل الاغتناء به. وكان فقراء الرعيّة أوائل من حرصوا على الإسهام في مساعدة "السفينة" التي اتّخذت لها مقرّاً بين ظهرانيهم، فوضعوا عند أقدام الهيكل الذي كان كاهن يأتي ليحتفل عليه بالذبيحة، مرّةً في الشهر، سلّة فيها ورقة كتب عليها "من أجل السفينة ". ومع أنّ القوم هناك كانوا على فقرٍ مدقع، إلاّ أنّهم حرصوا على المشاركة. وهكذا، بمجموع النقود الصغيرة التي تبرّع بها الفقراء، في غضون الأشهر الأولى، تمكّنت سفينة "لاكازا سان خوسيه " من شراء أحذية لفيليبي، وكان أولئك الفقراء فخورين بهذا الإنجاز.

و قد أكّد فيليبي نفسه، وهو يشرب الماء بواسطة صدفة : " علينا ألاّ نبدّل أبداً أسلوب عيشنا، وإلا كففنا عن أن نكون جزءاً من الحيّ. إنّنا نستفيد من ضيافة الجيران الذين يقاسموننا، بسخاء، الزهيد الذي يمتلكونه. بادئ الأمر راقبوا، بدقّة وبشيء من التحفّظ، سلوك الجماعة. وأخيراً قاموا بزيارتنا فتبيّنوا أنّ في حياة أُسرتنا ما هو جدير بإلهام أُسَرهم "

و بغية العيش على غرار جيرانهم دأب قاطنو " لاكازا سان خوسيه" على إعداد معجّناتهم بأنفسهم، وطهوها على مواقد حطبيّة، كما يفعل جميع فقراء الحيّ، عوضاً عن

شرائها جاهزة. ورغم الحرّ الخانق، لم يبتاعوا برّاداً لكي يتيحوا لجارٍ محظيّ دعوتهم إِلى استخدام برّاده. ومع أَنّه كان بوسعهم، بمساعدة مجلس الإِدارة، تملّك سيّارة صغيرة، إِلاّ أَنّهم امتنعوا عن ذلك. وهكذا عندما كان سانتوس، وسليمى، وفيلما، وفيليبي يستقلّون الحافلة، ويمضون بها إِلى المدينة المجاورة، كان بوسعهم التقاء أَشخاص آخرين والتحدّث إِليهم، ممّا يتيح لهؤلاء تبيّن أَنّ بوسع أَبنائهم المعاقين العيش على غرار معاقي "لاكازا سان خوسيه "، ذلك المركز الذي غدا مثالاً يدعو إِلى الاقتداء به مجتمعاً مؤلّفاً من أُسرٍ محطّمة، حيث لكلّ رجل عدد من الزوجات وطائفة من الأولاد، كثيرون منهم معاقون. وكانت "السفينة" لهم نموذجاً لما يجب أَن تكون عليه الأُسرة، ودليلاً للمكانة التي ينبغي أَن يتبوّأها المعاقون.

و توالت ولادات مراكز جديدة للسفينة، ولكلّ منها وجهه وجذوره، وتوجّهاته الخاصّة. ومعظم المراكز التي أَنشئت في أَميركا الشماليّة رأت النور في أعقاب رياضات أَحياها جان فانييه لجماعات "إِيمان ونور " أَو تبنّتها " سفينة " ديبريك الكنديّة؛ ونهج معظم الجماعات السبع عشرة التي قامت هناك بين 1972 و1977 نهج ديبريك وتروسلي، فتوخّت أَن تكون جماعات مسيحيّة يحتلّ الفقير فيها المكانة الأولى. كانت تتلقّى تمويلاً ودعماً من الحكومة وتخضع لرقابتها، ولا تهمل الكفاءات المتوفّرة، وتعتمد على مجلس إِدارة منيع. ولكن كانت، ثمّة، جماعاتٌ أُخرى راغبة في أَن تكون أَوثق قرباً من الفقراء، تقتسم لأَمانهم، وترفض دعم الدولة ورقابتها. وكانت تندمج في أَحياء المدن الكبرى المعدمة، أَو في الريف على مقربة من الأَرض، وتستقبل، غالباً، أَشخاصاً هامشيّين إِلى جانب المعاقين. وكان عبء بعض هذه الجماعات مرهقاً.

و في فرنسا استلهمت معظم الجماعات الجديدة مثال تروسلي؛ غير أَنّ جماعات جديدة زهدت في دعم الدولة، وآثرت الاكتفاء بنتاجها الزراعيّ، وبرواتب المساعدين الذين كانوا يعملون خارج الجماعة. وفي أعقاب رحلات الحجّ التي كانت تقوم بها جماعات "إِيمان ونور" نشأت جماعتا " سفينة " في سكنديناقيا، وواحدة في بلجيكا، وأُخرى في لورد. وفي بواكي، بساحل العاج، أبدى رئيس دير بنيديكتيّ من الاندفاع والإِصرار بشأن تأسيس جماعةٍ للسفينة هناك، بحيث تبرّع بالمال اللازم لذلك.

و تميّزت الجماعات التي نشأت في العالم الثالث بالرغبة في الاندماج بالأَحياء الفقيرة، وفي استقبال الأَشخاص المهملين تماماً. وبما أَنّ الأَنظمة في تلك البلدان أَقلّ صرامة ممّا هي في الغرب، فقد كان أَيسر على تلك الجماعات استضافة معاقين بالغين، وأَحداث، معاً، ممّا أَضفى عليها طابعاً مميّزاً.

"السفينة" في انكلترا

عام 1971، كانت تيريز فانييه، شقيقة جان، طبيبة عاملة في مستشفى القدّيس توما في لندن، وقد ساهمت في الحجّ الذي نظّمته مؤسّسة " إيمان ونور " إلى لورد. وإثر قضائها عطلة عيد الميلاد مع أخيها في تروسلي، شرعت تلتزم بالسفينة، ولكن بالكتمان، ومن خلف الكواليس. عطفها الفطريّ وإلمامها بالقضايا وبالأشخاص، وخبراتها الطبيّة، كانت، كلّها، مجتمعة، تدفعها نحو " السفينة " دفعاً. غير أنّ تربيتها الطبّيّة حملتها على التحفّظ حيال افتقار " السفينة " إلى الكفاية المهنيّة.

كانت قد انضمّت للرحلة إلى لورد بصفتها طبيبة، مواكبة فئة ضئيلة من المرضى كانت مسؤولة عنهم، وقد اهتمّت، على نحوٍ خاصّ، برجل في نحو الخمسين من العمر يدعى بيلّ، وبأُمّه البالغة الثمانين. وزنهما، معاً، كان يناهز مئتي كيلوغرام. بيلّ كان يعاني ربواً مريعاً، فيما كانت والدته تعاني مرض قلبٍ مزمناً، وكانا، كلاهما يتنقّلان على كرسيَّين بعجلات. وما لبثت أن تبيّنت أنّ بيلّ كان يصلّي لكيلا يعود إلى المستشفى، وأنّ أُمّه كانت تتوسّل أن يموت ابنها قبلها، وإلاّ لما اهتمّ به أحد من بعدها.

في أعقاب الحجّ استغرقت تيريز في مشاغلها الطبّيّة في المستشفى، بحيث غاب عن بالها بيلّ وأُمّه. وبعد أسابيع قليلة تنامى إلى علمها أنّ بيلّ قد لقي وجه ربّه، يوم عودته من لورد، فقد كان الوقت متأخّراً، ولم يعد إلى المستشفى، مؤثراً قضاء تلك الليلة في بيته حيث داهمته هجمة ربو قاتلة. وبدا موته وكأنّه استجابة لصلاته وصلاة والدته. ذلك الحدث هزّ تيريز فانييه، فعقدت العزم على الالتزام بالعمل في "السفينة "، وقد فسّرت ذلك بقولها :

" عزمت على الالتزام التزاماً أكمل. وكما يحدث غالباً، في مثل هذه الحال، لم يكن قراري ينطوي على أيّ عنصر عقلانيّ. بل كنت أرى، فحسب، أنّ هذا الالتزام يتطابق تماماً مع ما كنت عزمت عليه من التزام في المستشفى، حيال معاقين عقليّاً".

و شرعت تيريز فانييه تتعاون مع آنّ وجوفروا مورغان اللّذين، بعد أن عاشا ردحاً من الزمن في " سفينة " ديبريك في كندا، كانا يتأهّبان لافتتاح مركز للسفينة في إنكلترا؛ وكانت تيريز عازمة على تقسيم وقتها بين العمل في مستشفى القدّيس كريستوف الذي قرّرت أن تقف له يومين في الأسبوع، والعمل في " سفينة " إنكلترا الوليدة. وقد اتّضح أن ذيْنك العملين كانا متكاملين، وقد صرّحت، في هذا السياق :

" لقد كشفت لي تجربتي في كلٍّ من " السفينة " والمستشفى أنّ الضعفاء والصغار يسبّبون الكثير من الشقاق والألم لمحيطهم، غير أنّهم، في الآن عينه، مصادر وحدة مدهشة، شرط أن يحرص المرء على الاستجابة لحاجتهم، ويدرك ما يمثّلونه من قيمة. إنّ تلبية

احتياجاتهم وتقدير قيمتهم متلازمان، فإنّه لمن العسير جدّاً الاعتراف بقيمة من هـو غريـب عنك تماماً، سواء كان محتضراً أو معاقاً عقليّاً، طالما لم تقابله وجهـاً لوجـه. علينـا أن نستطيع العطاء إن ابتغينا القدرة على التلقّي."

و الهديّة الكبرى التي كان من شأن المحتضر أو المعاق تقديمها لتيريز فانييه، مع ما كانت تتمتّع به من أهليّة مهنيّة، كانت تتمثّل في الكشف لها عن عجزها الخاصّ. وفي الآن عينه، كان من شأن عملها في المستشفى أن يوفّر لها عزاءً ودعماً لعملها في " السفينة " حيث كان، غالباً، يساورها شعور بالتيه.

لقد كانت تيريز فانييه كاثوليكيّة، وكذلك كان جوفروا مورغان، فـي حـين كانـت زوجته آنّ أنكليكانيّة. ومن غريب الصدف أن ينشأ أوّل فرع للسفينة في إنكلترا فـي معقـل الأنكليكانيّة. ففي الأوّل من كانون الثاني من عام 1972، تحت الثلج المتساقط، شخص جان وتيريز فانييه إلى مقرّ الأسقف ميكائيل رمسي، رئيس الكنيسة الأنكليكانيّة، وأحاطاه علماً بما كانا ينويان عمله. وأبدى الأسقف رغبة عارمة في مساعدتهما، ويسّر اتّصالهما بمسـؤولي الكنيسة الأنكليكانيّة. وتمّ الاتّفاق مع هؤلاء على أن يحيطوهما علماً بأيّ عرض بيـع لأحـد أملاك الكنيسة؛ وهكذا ابتاعت " السفينة " المقرّ السابق لرعيّة " بارفريستون "، التـي تبعـد نحو خمسة عشر كيلومتراً عن كانتربري؛ وفي هذا المقرّ وفي الكنيسة الجميلة الملحقة بـه، وُلدت " سفينة " ليتل إيويل"، التي سرعان ما عقدت علاقات وديّة مـع مسـؤولي الكنيسـة الأنكليكانيّة، ولا سيّما وأنّ المعاقين الذين تقاطروا إليهـا، الواحـد تلـو الآخـر، كـانو أنكليكانيّين.

و قد اكتشفت تلك " السفينة " الوليدة، باكراً، رسالتها المسكونيّة، إذ إنّ معظم الذين تطوّعوا للعمل فيها كانوا كاثوليكيّين، وأنّ كاهناً كاثوليكيّاً تطوّع للعمل فيها ورعاية شؤونها الروحيّة، مدّة سنة كاملة. وسرعان ما طُرحت قضيّة المشاركة الإفخارستيّة التي لـم تكـن تسمح بها الكنيسة الأنكليكانيّة، في حين لم تكن الكنيسة الكاثوليكيّة تعارضها. وأخيراً اتُّفـق على أن يشخص، أيّام الآحاد، كلٌّ من الأنكليكانيّين والكاثوليكيّين إلى كنائسـهم الخاصّـة، على أن يُحتَفل، مرّة في الأسبوع، في مصلّى الجماعة، بقدّاس أنكليكانيّ وقدّاس كـاثوليكيّ، يدعى إليهما كلّ من يشاء، ولكن في منأى عن الإفخارستيا المشتركة. أمّا في جماعات أُخرى متعدّدة الطوائف فقد برزت مشاكل أُخرى، وأوجدت لها حلول أُخرى.

عام 1973 قُدّم للسفينة بيت في قرية انغرنيس الاسكتلنديّة، واتّضح، منـذ الوهلـة الأولى، أنّ من المخاطرة إنشاء جماعة على مسافة ألف وخمس مئة كيلومتر من " المركـز الرئيسيّ ". وقد تصدّت لذلك التحدّي أميركيّة كاثوليكيّة كانت تعمل في " سفينة " تروسـلي، فإذا بها، فجأة، في مركزٍ كلّ نزلائه ينتمون إلى كنيسة اسكتلندا الإصلاحيّة الكلفينيّة المذهب.

وكان عليها أَن تجد الصيغة المُرضية للتعايش مع هذا الوضع، والتي اقتضت منهــا تعــديل صلاة " السفينة " المعهودة، وإِحلال الروح المقدّس المحلّ الذي كانت تتبوّؤه السيّدة العذراء.

ثمّ أُنشئت فروع للسفينة في ليفربول عام 1976، وفي لنــدن عــام 1977، وفــي بونيور ريجيس عام 1978. وكان على كلّ فرع أَن يجد حلوله الخاصّة للتعايش والمسكونيّة. ومنذ عام 1985 شاع، في أَثناء القداديس المشتركة، أَن يتقدّم للمناولة المنتمون إِلى الطائفة المحتفلة بالذبيحة، في حين يتقدّم المنتمون إِلى الطائفة أو الطوائف الأُخرى لتقبّــل البركــة. وقد أَدّى ذلك، أَحياناً، إِلى أَحداثٍ مؤثّرة، تروي تيريز فانييه أَحدها، فتقول:

" أذكر مدى تأثّر أسقف دوفر لدى رؤيته لا علمانيّين فحســب، بــل أَيضــاً كهنــة كاثوليكيّين يوافون لنيل البركة. وأَذكر، أَيضاً، حدثاً جرى للمدعوّ روبير من سفينة ليفربول. إِنّه أنكليكانيّ ويعرف ذلك، ويؤمّ بانتظام كنيسته المحلّيّة. وهو، أَيضاً، معتاد على اللقــاءات المشتركة، ويعلم أَنّ بوسعه طلب البركة في إِحداها، والمناولة في الأُخرى. ولكنّه، في تلك النوبة، وفي أَثناء الإِفخارستيّا التي ترأسّها رئيس أساقفة كنتربري، تقدّم وهو حائر بين طلب البركة أو تقبّل المناولة. وتريّث الأسقف برهة، وعندما خيّل إِليه أَنّ روبير يلتمس البركــة، مدّ روبير يده بغتة، وتلقّى القربانة، وحدّق فيها، ثمّ كسرها، وأَعــاد للأســقف نصــفها، وتناول النصف الآخر..."

و بعد الذبيحة جيء بروبير لمقابلة الأسقف، فمدّ له يداً صغيرة مرتجفة، وقدّم نفسه: "أَنا روبير، من ليفربول". وأَحنى الأسقف قامته المديدة البالغة مئة وخمسة وتسعين سنتمتراً نحو روبير الذي لا يتعدّى طوله مئة وخمسين سنتمتراً، وقال : " أَحقّاً ؟ أَنا أَيضــاً أُدعــى روبير، وأَنا أَيضاً من ليفربول، ونحن اليوم أَخوان ". فــي تلــك الأَثنــاء، كانــت الآلام والمصالحات بين الكنائس تتشابك.

و قد أكبّ كثيرون على تلك القضيّة بحثاً وتحليلاً، واستوحى بعضهم إِنجيــل يوحنّــا الذي لم يروِ حدث الإِفخارستيا، في ليلة يسوع الوداعيّة مع تلاميــذه، بــل حــادث غســله أرجلهم، وخلصوا إِلى الاعتقاد بأَنّ مبادرات مثل هذه قد تصلح للمشاركة، طالما ظلّت تحول دون المشاركة الإِفخارستيّة عوامل خارجيّة.

و شيئاً فشيئاً أَدركت الكنائس ضرورة أَن يكون في أَحضانها معــاقون. ففــي عــام 1974 حجّ إِلى كاتدرائيّة كانتربري معاقون من الولايات المتحدة وكندا، فخلّف مرورهم أَثراً باقياً، وغيّر الكثير من مواقف كنائس إنكلترا من المعاقين.

و في مناسبة أُخرى تجاوز المعاق بول، من جماعة "سفينة" لندن، التعليمــات التــي كانت تحظر، مؤقّتاً، تحيّة السلام في أَثناء الاحتفالات الأَنكليكانيّة، وجال بين الحاضــرين

يبلّغهم تحيّة السلام، وكان لفعله الحافل بالبراءة والرقّة من الأَثر ماحمل الأنكليكان هناك على تبنّي هذه العادة في احتفالاتهم.

و بأَساليب متعدّدة، كان الضعفاء والمنبوذين يذكّرون الكنائس المعرّضـــة، أَحيانـــاً، لإِغفال إِنجيل الفقراء والصغار، أَنّ بوسعهم أَن يكونوا خمائر وحدة ومحبّة، وشمول إِنسانـيّ. وقد سعت " السفينة "، دائماً، إِلى عيش الوحدة والتواصل، في المهامّ اليوميّة، يعاضـــدها، في هذا المسعى، صدق المعاقين وبراءتهم. ففي هندوراس، على سبيل المثال، كانت سليمى مصرَّة على وضع يدها فوق يد جارها، بحيث يتعذّر، معها، رفــض التواصـــل والصـــفح.

"السفينة" في بيت عنيا

من جماعات " السفينة "، في الشرق الأوسط، جماعة بيت عنيا التي تعني لجان فانييه ولمعاونيه الكثير؛ ذلك المركز افتتح أبوابه، إثر مخاض طويل، عام 1968، وقد اتّخذ مقرّاً له في الطابق الأرضيّ والقبو من بناء يمتلكه عليّ وزوجته فاطمة، اللّذان يسكنان مع أبنائهما الستّة في الطابق الأوّل من البناء عينه. عليّ رجل فاضل وحكيم، وصموت، وقد اعتبر بركة إلهيّة أن يقطن معاقون في جواره، وفي بنائه. ومنذ اليوم الأوّل وفّر لجماعة السفينة الأمان والكثير من المساعدة. كان سروره بالغاً يوم استقبلت "السفينة" المعاقة الأولى رُلا، وكأنّه كان هو يستقبلها، وما انفكّ يراقب ما تحرزه من تقدّم وازدهار. وقد حضر وجميع أفراد عائلته الاحتفال بذكرى ميلادها، وبما أنّ رُلا مسلمة فقد طُلب من عليّ افتتاح الاحتفال بالصلاة، وكانت لحظات حافلة بالوقار، والتواصل، والتوادّ، عندما تلا الفاتحة بصوت خفيض.

بعد رُلا، استقبلت جماعة بيت عنيا غدير وسهام، وأربع معاقين آخرين يأتون نهاراً فقط للعمل في المشغل الصغير. حيث يعمل أربعة مساعدين، منهم فتاة فلسطينيّة.

رُلا معاقة إعاقة سحيقة وعاجزة عن القيام باحتياجاتها بنفسها، ولا بدّ من مرافقتها مدى ساعات إلى المرحاض، وإلاّ وسّخت كلّ شيء.

أمّا سهام التي استقبلتها " السفينة " وهي في نحو الثلاثين من عمرها، فهي تنعم بشيءٍ من الاستقلاليّة، وهي، أبداً، في إثر المساعدين، تؤازرهم في بعض مهامّ النظافة.

غدير وافت سفينة بيت عنيا وهي في الخامسة عشرة، ومصابة إصابة سحيقة، مشوّهة الجسم، وعاجزة عن فعل أيّ شيء بنفسها. وتستلزم وقتاً طويلاً لتنظفيها، وإلباسها ثيابها، وحملها ونقلها؛ ولكنْ لها محيّا جميل، وعينان رائعتان، وابتسامة ساحرة، ولكأنّها قد خلقت لكي تبتسم، وتهدي ابتسامتها.

و مذ لقّنتها مساعدة إيرلندية التقبيل، باتت تستدعي الجميع، طيلة النهار، لكي تقبّلهم، والجميع سعيدون بذلك، ولو أنّ ذلك يؤدّي إلى إبطاء العمل.

مجيء غدير أثار غيرة رُلا، القادمة الأولى، فقد استحوذت غدير على الكثير من اهتمام المساعدين. ولكن يوم احتُفل بمرور سنة على وصول رُلا إلى " السفنية "، دُعي كلٌّ من الموجودين إلى توجيه كلمة رقيقة لها، وجاء دور غدير ولكنّ رُلا، بعد أن التهمت الكثير من الطعام، راحت تضجّ وتحدث الصّخب، فحدّقت فيها غدير باسمة، وانتظرت إلى أن هدأت، وقالت لها برقّة : "إنّني أُحبّك"، معبّرة عن سعادتها بوجودهما معاً.

جماعة بيت عنيا تعني للسفينة الكثير، ولكنّ كثيرين لم يستطيعوا إدراك المبرّر الذي يدفع " السفينة " إلى إنفاق مالٍ وفير، ويحمل أشخاصاً مثقّفين وذوي كفاءة إلى هدر حياتهم في خدمة حفنة من المعاقين، لن ينعتقوا أبداً من إعاقتهم، مع أنّ ثمّة جمّاً من الاحتياجات الأُخرى التي تستدعي الاهتمام.

عسير على العالم استيعاب دعوة " السفينة " إلى العيش مع حفنة من المعاقين، وتوثيق علاقات تواصل معهم؛ فالعالم لا يفقه معنى لهذه الحياة الخفيّة، المهدورة في الظلّ والتضحية، وللأموال التي تنفق بلا طائل، ولا نتائج منظورة، على عدد ضئيل ممّن لا يؤمل لهم شفاء.

و لكنّ " السفينة " تستلهم الحياة الخفيّة التي قضاها يسوع ومريم ويوسف في الناصرة، حياة فقيرة لم يلحظها أحد، ولكن منها وُلد خلاص العالم.

و قد كان هذا المركز، لجان فانييه، وسط ما يسود تلك المنطقة المنكوبة من توتّرات وقلقٍ مصيريّ، مثار تأمّل وحيرة، وقد كتب في هذا الشأن :

" لنا جماعة صغيرة في بيت عنيا، في الضفّة الغربيّة. في تلك القرية وفي جوارها ألم جمّ، فالشعب الفلسطينيّ يصارع من أجل البقاء، والاسرائيليّون يحاولون قمع الانتفاضات، غالباً بقسوة مفرطة. إنّه لمن العسير والمزعج العيش هناك ببساطة مع رُلا وسهام، ومساعدتهما على تناول طعامهما، وارتداء ثيابهما، والاضطلاع بكلّ الأعمال الصغيرة اليوميّة، في حين تدور من حولنا أحداث كثيرة. فإن نحن أولينا اهتمامنا لما يجري في انتفاضة الشعب الفلسطينيّ، لما استطعنا أن نظلّ حاضرين روحيّاً ونفسيّاً لمن يحتاجون إلى حضورنا واهتمامنا بالحياة. ومع ذلك يستحوذ علينا الشعور بالتمزّق والذنب، إن نحن اقتصرنا على المهامّ الصغيرة، في حين تدور من حولنا أمور خطيرة، ستغيّر مجرى تاريخ كثيرين. ليس سهلاً أن نؤمن بأهمّيّة الأمور الصغيرة عندما يعصف الصراع السياسيّ".

جان فانييه المدير

لجان فانييه قدرة على إيقاظ المواهب والمسؤوليّات لدى الآخرين، ومنحهم قدراً كافياً من الثقة من أجل اتّباع دعوة اللّه في أماكن ما كانوا ليخاطروا بالشخوص إليها. ومفهومه للسلطة مستوحى من أوصاف الراعي الصالح كما أوردها الإنجيل. إنّه يعرف كلاًّ من خرافه باسمه، أي يتبيّن دعوته الخاصّة ورسالته، ويساعده على ازدهار مواهبه واستثمارها. يعقد مع كلٍّ منهم علاقات شخصيّة، ويكتشف جراحهم فيوفّر لهم العزاء، والعطف، والتشجيع، ولا سيّما عندما يلمّ بهم الألم، ولا يتوانى عن التضحية بمصالحه في سبيلهم.

منذ تأسيس " السفينة "، كان فانييه، المؤسّس، قد أفسح للآخرين مكاناً في إدارة الجماعة،وأحاط نفسه بمجلس جماعيّ شاركه في مهمّات عديدة؛ كما أقام مجلس إدارة استعان به على حلّ القضايا الماليّة والإداريّة، وتعلّم الكثير من آراء أعضائه، واقتبس من رؤاهم. وقد أقنعه ذلك بتزويد كلّ جماعة جديدة بمجلس إدارة حصين، يتمتّع بالكفاية، وقادر على ممارسة سُلطة سليمة، في احترام لدعوة " السفينة " الخاصّة. وفي الواقع، أسهمت هذه المجالس في مساعدة الجماعات على تخطّي أزماتها، وعلى تحديد الهيكليّات الضروريّة، وعلى الالتزام بالأهداف المحدّدة. كما أنّها لعبت، بنجاح، دور " العين الخارجيّة " حيال مسؤولي الجماعة، في سبيل تثبيتهم، ومساندتهم، ونصحهم، ومساءلتهم عند الاقتضاء.

و قد اعتمد جان فانييه، منذ البدء، سُلطة ثلاثيّة هي سُلطة روحيّة يضطلع بها الكاهن أو المرشد الروحيّ، والسُّلطة المهنيّة التي ينهض بها الطبيب والعالم النفسيّ، وأخيراً سُلطة المسؤول أو المدير. لكلٍّ مجاله ومسؤوليّاته، ولا ينفرد أحدهم بالحكم، بل يكمّل أحدهم الآخر ويضمن تعاونُهم سلامةَ مسيرة الجماعة.

و قد اتّضح لجان فانييه أنّ على كلّ مسؤول أن يكون خادماً للجماعة، بل خادماً لمشروع التواصل فيها. وفي هذا السياق كان له، في الجماعة، تأثير بليغ، فحتّى عندما كان مديراً لجماعة " تروسلي بروي "، حيث أحاط نفسه بمجلس جماعيّ، كان الجميع يؤثرون الرجوع إليه، ويلتمسون لديه السند والقوّة؛ ومع أنّه ألِف في الستّينات والسبعينات، أن يغيب ستّة أشهر، في السنة، متفقّداً الجماعات المنشأة حديثاً في شتّى أصقاع المسكونة، كانوا ينتظرون رجوعه لحلّ مشاكلهم القائمة، وكانت تتشكّل، في بعض الأيّام، طوابير متمادية الطول أمام مكتبه حتّى ساعات الفجر، بحيث بات يرقد في إحدى زوايا مكتبه.

و في إثر وعكة ألمّت بالأب توما وأخرى بجان فانييه وألزمته الفراش مدى أشهر، أدرك الجميع أن لا بدّ للمديرمن معاون، ومن توسيع صلاحيّات المجلس الجماعيّ. وفي مطلع عام 1975 عُدّل قانون الجماعة بحيث بات المجلس يضمّ خمسة عشر عضواً، عوضاً

عن ستّة أَعضاء، وأَن ينتخب مجلس المساعدين الدائمين هؤلاء الأَعضاء الخمسة عشر، في حين احتفظ جان فانييه لنفسه بحقّ تعيين نصف أَعضاء المجلس؛ ومع أَنّ تعديلات طـرأت على هذا القانون، فيما بعد، إِلاّ أَنّ المبادئ الأَساسيّة التي أُقرّت عام 1975 أَدّت إِلى التحوّل من نظام شاقوليّ إِلى نظام أفقيّ، تُتّخذ، بموجبه، القرارات جماعيّاً من قِبَل المجلس الموسّع المنتخب.

تطوّر مماثل تحقّق على النطاق الدوليّ. ففي اجتماع الاتّحاد العامّ لجماعات السـفينة الذي انعقد عام 1973 وضمّ خمسة وثلاثين ممثّلاً عن اثنتي عشرة جماعة، أُقرّت شـرعتان للسفينة: الشرعة المسيحيّة وهي شرعة الاتّحاد الأولى التي أُقرّت فـي البلـدان المسـيحيّة، والشرعة الهنديّة التي فرضها تعايش أَفراد متعدّدي المذاهب والطوائف. وفي هذا الاجتمـاع تقرّر وضع صيغة تضمن الوحدة بين الجماعات التي كانت أَعدادها ماضية في تزايد. فشـكّل مجلس صغير حول جان فانييه الذي كُـلِّف بالتنسيق الدوليّ، غير أَنّ هذا المجلس لم يستطع، يوماً، الاجتماع، وحوفظ على وحدة الاتّحاد بفضل زيارات جان فانييه المطّردة إِلى جماعات أمريكا وأوروبا والهند وعلاقاته الشخصيّة مع كلٍّ منها.

و عُقد لقاء الاتّحاد الثالث في شادوليك بكندا، عام 1975، ضامّاً زهاء مئة منـدوب من ثلاثين جماعة؛ وفي هذا اللقاء أَعلن جان فانييه عن عزمه الاستقالة من منصب المنسّـق الدوليّ، وتقرّر تقسيم الاتّحاد إِلى ثمانية أَقطار، ينتخب كلٌّ منها منسّقاً لمدّة ثلاث سنوات. وقد عُدّل هذا التنظيم، فيما بعد أَيضاً، غير أَنّ الاتّجاه ترسّخ نحو نظام حيث تعتمـد القـرارات والرؤية العامّة، والتعاون، والمساندة المتبادلة على جماعة عوضاً عن اعتمادها على شخص واحد.

و في لقاء الاتّحاد السادس الذي انعقد عام 1987 في روما، وضمّ ثلاث مئة وخمسين مندوباً يمثّلون اثنتين وثمانين جماعة، والذي ميّزه كلٌّ من زيارة الأُمّ تيريزا، ولقاء مع البابا يوحنّا بولس الثاني، تُبنّي نظام جديد جمع الأَقطار في ثلاث مناطق، ثمّ زيد عدد المنـاطق، من بعد، بغية دعمٍ أَفضل للمناطق، وعبرها، للجماعات ذاتها.

هذا النظام الجديد لقي مشقّة في الانطلاق، إِذ لم يكن من اليسير العثور على خليفـة لجان فانييه في منصب المنسّق الدوليّ العامّ، وقد دعيت إِلى الاضطلاع بهذه المهمّة، أوّلاً، سيوموستلّر، التي كانت تدير جماعة ديبريك الكنديّة، والتي اعترفت : " في ديبريك، كنـت سعيدة بتولّي المسؤوليّة، فأنا خبيرة بإِدارة جماعة، وأعرف كيف أستدعي القـوم وأصـغي إِليهم، ولكنّني قليلة الخبرة في ميدان التنظيم، ولا أفقه شيئاً في ميدان القضايا الماليّة، وكنت في حاجة إِلى مساعدة. لقد كبرتُ مع الجماعة، غير أَنّ تكليفي بمهمّة دوليّة كان لي امتحاناً

شاقّاً. فقلّما سافرت، إِذ كنت راهبة في دير؛ وكانت مطالعاتي محدودة، ولا أَفقه شيئاً عن الثقافات الأُخرى، وكنت أتوجّس من ركوب الطائرة خشية".

و هكذا اضطرّ جان فانييه، خلال سنوات تكليف سيو موستلّر الأولى، إِلى مواصلة الاهتمام بالتنسيق الدوليّ من وراء الكواليس. وتعترف سيو، في هذا السياق : " لم يكفّ عن دفعي إِلى الأَمام؛ لم أَكن أجيد التحدّث بالفرنسيّة، ولكنّه كان يطلب منّي إِلقاء محاضرات في فرنسا، ممّا يجعلني أَبكي. وقد قال لي أَيضاً أَنّ المهمّة الأَكثر إِلحاحاً هي وضع الدستور الدوليّ، فعملنا معاً في سبيله، وقد أوعز إِليّ بلقاء بعض الأَشخاص، وبزيارة بعض الأَماكن فامتثلت لرغبته".

إِنّ جان فانييه يتمتّع بشخصيّة قويّة جدّاً وحارّة، ولديه عن الجماعة فكرة واضحة، وقدرة على اجتذاب الآخرين في إِثره، وقد أكسبه الزمن والممارسة العمليّة صبراً جمّاً، وكان صبره قائماً على قدرته على تقبّل الآخر على علاّته، وعلى يقينه بأَنّ الأَشخاص والأوضاع قابلة للتغيير. وكان لديه، في كلّ مجال، كفاءة وجدوى، وكان يوحي للمحيقين به انطباعاً بامتلاكه الحلول، وبمعرفته من يتعيّن التوجّه إِليه من أَجل الوقوف على هذه الحلول.

و قد أدرك، باكراً، أَنّ إِحدى أَقسى الصعاب التي قد تتعرّض لها جماعة، هي قدرة البقاء على قيد الحياة، عقب غياب مؤسّس كاريسماتيّ. وعلى غرار يسوع الذي أَعلن لتلاميذه أَنّ من صالحهم أَن يغادرهم لكي يبعث إِليهم روحه المدبّر، تخلّى عن مسؤوليّاته لكي يمارسها سواه.

عام 1976 عُيّنت أوديل سيراك معاونة له في إِدارة جماعة تروسلي بروي، وكانت قد عملت في " السفينة " منذ عام 1969 وتولّت إِدارة " الوادي المزهر "؛ وفي يوم تعيينها لهذه الوظيفة، سافر جان فانييه إِلى الهند؛ ولدى عودته شخصت إِلى المطار، آملة أن تظفر منه بإِرشادات وقرارات. ولكنّه ما إِن استقلّ السيّارة حتّى استغرق في النوم، فقد كان معتلاً وقد أمضى شهرين في المشفى وشهرين آخرين في النقاهة؛ واجتازت الجماعة، في تلك الفترة، مرحلة عصيبة، إِذ كانت ما زالت كثيرة الاعتماد عليه، ولكنّها تعلّمت من مرضه، ومن مرض الآب توما، من قبل، أَنّ عليها تدبّر أمورها بنفسها.

و من دلائل الصحّة أَنّ اللقاء الدوليّ لاتّحاد جماعات " السفينة " الذي كان قد قُرّر التئامه في أَفريقيا لم يُلغَ من جرّاء مرض جان فانييه، بل انعقد كما قُرّر له، وتمّ في جوٍّ مُرضٍ، مع أَنّ جان فانييه كان هو الوحيد المطّلع على أوضاع الجماعات الأَفريقيّة، ولا يلمّ أَحد سواه بشيءٍ منها. وفجأة أدركت خليفته، سيو موستلّر، أَنّ رسالتها لا تتمثّل في أَن تصبح نسخة عنه، بل أَن تكون هي ذاتها، وأن تعمل وفقاً لإِلهاماتها الخاصّة، واثقة من أَنّ

الجميع سيتقبّلونها كما هي. وعلى غرارها، وعلى شتّى المستويات، اضطرّ الكثيرون إلى مواجهة الواقع، وتحمّل مسؤوليّاتهم، متحرّرين من مخاوفهم وهواجسهم، وكان سلوكهم هذا يوحي بالرجاء في المستقبل.

و لئن عاد جان فانييه إلى تولّي إدارة جماعة تروسلي، عقب إبلاله من مرضه، إلاّ أنّه استقال عام 1980، والتمس من خليفته، أوديل سيراك، إذناً بالتفرّغ من كلّ مسؤوليّة طيلة سنة كاملة؛ ومنذئذٍ، لم يتولّ أيّ منصب إداريّ. وقد اعترف، فيما بعد : " لقد تجرّدت من أشياء كثيرة، في الجماعة، وما عدت اضطلع بأيّ دور محدّد. وكذلك في المضمار الدوليّ، وأظنّ أنّ ذلك حسن. فالربّ يهبني شيئاً آخر، ويدفعني في اتّجاه جديد، ويزوّدني بنوره".

و مع ذلك لا يزال جان فانييه يتمتّع في " السفينة " بتأثير بالغ. وما انفكّ الجميع يستنيرون بهديه، ويتبنّون رؤاه، ويستخدمون مفرداته؛ وهو قد وثق في الذين تولّوا المسؤوليّة من بعده، ونهج درباً آخر جديراً بتحرير قلبه وفكره.

و لئن هو ما انفكّ يتفقّد مختلف مراكز " السفينة " في العالم، إلاّ إنّه ما عاد يلعب دور رئيس أو مدير، بل دور صديق، ومشير، ومرشِد ملهِم.

مرضٌ وتقييم

العلّة التي ألمّت بجان فانييه في خريف عام 1976 حملته على إِعادة النظر في النشاط الجامح الذي وسم سنواته الأَخيرة، على غير اهتمام بجسده. فقد كانت حياته أسفاراً متلاحقة، وليالي قضاها على مقاعد المطارات الخشبيّة، واتّصالاً بالأَلم في جميع أَشكاله، ألم يحملــه باستمرار في جسده ونفسه، وجاهزيّة دائمة لتلبية نداءات الغير، وسعياً إِلى حمل احتياجات الفقراء إِلى أَغنياء غالباً منغلقين، وتعباً نابعاً من النوم كلّ يومٍ في سرير مختلف، وفي مناخٍ مختلف. وأَخيراً طالب الجسد بحقّه. " لم أَكن أُصغي، بقدرٍ كافٍ، إِلى يسوع الحاضر في جسدي، وبالتالي حان وقتٌ صاح فيه جسدي : " كفى " !

من جرّاء الإِرهاق وإهمال الوقاية الصحيّة التي يوجبها تغيّر المناخات، مُني جــان فانييه بالتهابٍ في الكبد، وبالتهاب آخر لم يستطع الأطبّاء تحديده؛ وقد امتدّت إِقامتــه فــي المستشفى شهرين كاملين، اختبر، في أثنائهما، بنفسه، العبور من المــوت إِلــى القيامــة. وربّما، للمرَّة الأولى في حياته، اختبر معنى أَن يكون المرء مساعَداً لا مساعِداً. وتدرّب على الصبر إِذ كان الأَطبّاء عاجزين عن تحديد مدّة بقائه ملازماً سريره، وتبيّن هو بنفســه أَنّــه يحتاج إِلى وقتٍ طويل قبل التمكّن من السير على قدميه، وإِلى وقت أَطــول للــتمكّن مــن استقلال الطائرات من جديد.

و مع ذلك لم يكن تحمّل المرض أَقسى عليه من " تمزّقــات " أُخــرى فــي حياتــه. ويمضي جان فانييه في الإِيضاح فيقول : " هذا لا يعني أَنّه لم تكن، هناك، فترات عصيبة، وسورات غضب. ولكن من الخطأ الادّعاء أَنّني عانيت كثيراً. يبدو لي أَنّني نضجت، ولكن لا يسعني القول أَنّني تحمّلت الكثير. وأَظنّ أَنّ فيّ ما يساعدني على المضيّ قُــدُماً بســلام". وهو، عندما يشاهد المتألّمين يدرك حدوده الذاتيّة، وهو يصرّح في هذا السياق : " إِنّ طاقتي على احتمال الأَلم الداخليّ والقلق، هي، بلا شكّ دون طاقة الكثيرين. ولذلك يشــفق الــربّ عليّ، ويخفّف حملي. لا ريب أَنّه قادر على امتحاني بمزيدٍ من القسوة، ولكــن لكــلٍّ منّــا حدوده الطبيعيّة التي لا يقوى على تخطّيها، وقد رفق بي الربّ دائماً ".

على سريره في المشفى لم يفقد جان فانييه قدرته على هتاف " هلليولويا " الذي يُطلق في " السفينة " ترحيباً وشكراً لكلّ حادثٍ سارّ، ولم تفارقه طاقتــه علــى اكتشــاف دواعــي الضحك، في كلّ مناسبة. فإِثر انخفاض حرارته أخيراً، بعد أَن كاد ميزان الحرارة ينفجر، بدا جذلاً؛ واستولى عليه المرح عندما خُصّص له، بسبب طول قامته، سرير يتميّز بطوله، كان قد رقد عليه الجنرال ديغول عندما أجريت له عمليّة جراحيّة في المشفى عينه. ولا ريب أَنّ واجب الالتزام بالراحة والسكون قد شقّ عليه، بيد أَنّ وجود الأَب توما، بانتظام، إِلــى

جانبه، كان يوفّر له ما يحتاج إِليه من مساندة ودعم. وكانت تلك هي المناسبة الأولى، منذ تأسيس "السفينة"، التي أتيح لهما فيها قضاء وقت طويل معاً؛ وقد اعترف جان فانييه: "لقد ساعدني الأب توما على الاستسلام، وعلى إحلال المزيد من الصمت في داخلي". وقد التمس، من خلال رسائل أنفذها إِلى مختلف جماعات "السفينة"، صلاة إخوته لكي يظلّ وفيّاً، ويستخدم فترة الركود القسريّ، لاكتشاف نمط آخر من النشاط، ولا سيّما حضور يسوع الذي " يقطن قلوبنا ويطلب منّا، فقط، أَن نقيم في حبّه". وفي ليالي سهاده، كان يفكّر بالسجناء المحشورين في زنزاناتهم، وبجميع الذين يعانون الوحدة، في حين هو ينعم بحبّ العديد من الإخوة والأَخوات.

و بالإجمال خرج جان فانييه من محنة مرضه بتوازن أكبر، وقد تعلّم ألاّ يمضي إلى أَقصى تخوم طاقاته، وألاّ يقضي ليالي بيضاء، غير حافل بالتعب، وأَن يتّجه نحو دور أَكثر تعقّلاً، لا يحول، مع ذلك، دون جَوْبه العالم.

شهادة في "السفينة"

في 1989/12/9 احتُفل، في مبنى الأونيسكو في باريس، بالذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس " السفينة "، تحت رعاية وزير التضامن والصحّة والحماية الاجتماعيّة في فرنسا، وبحضور شخصيّات سياسيّة وديبلوماسيّة، وعلميّة، رفيعة.

و كان من الخطباء الذين تداخلوا حول هذا الموضوع المفتّش العامّ للشؤون الاجتماعيّة في فرنسا، السيّد " بيير موسيني – لومبري ". وممّا جاء في خطابه :

" تبدو لي السفينة سلسلة من التحدّيات والمفارقات، بالقياس إِلى مجتمعنا، وأيضاً من التبعيّات حيال هذا المجتمع.

آ – **تحدّيات " السفينة "** :

– حيال " المال " تنهج السفينة نهجاً مختلفاً لأنّها تسير في عكس تيّار كلّ ما سعى إِليه المجتمع منذ خمسين سنة : أي القضاء على الهواية، والتأكيد على القيمة الاقتصاديّة، والارتياب بكلّ من يؤكّدون أنّهم يقدمون على العمل في هذا المضمار بدافع " الدعوة ". ففي "السفينة" عمل تطوّعي لمدّة سنتين، وفي أعقابهما لا يتقاضى العاملون سوى الحدّ الأدنى للأجور الذي تقرّره الحكومة، ويتساوى في ذلك المسؤولون مع سائر العاملين. ولا يبقى المسؤولون في مناصبهم سوى فترة محدَّدة.

و معنى هذا الموقف العميق هو أنّ العامل " المساعد " لا يتفوّق على المعاق، بل عليه أن يتعلّم منه بقدر ما يعطيه، أي أنّ ثمّة تبادلاً يتطلّب، من كلّ جانب، تعلّماً طويل الأمد، ومساءلةً ذاتيّة مستمرّة؛ وذلك هو أساس " الجماعة ".

– حيال " ظروف العمل وشروطه " : ففي عالمنا المُحكم التنظيم، وحيث الكمّيّة هي المعيار، تؤكّد "السفينة" أنّ المهمّ ليس كميّة العمل بل نوعيّته، وليس هو " فعل شيء من أجل المعاق "، بل " فعل شيء معه ". وكلّنا نعلم أنّ وتيرة وجود المعاق عقليّاً، تختلف عن وتيرة وجود سواه؛ وهذا يستلزم صبراً وجاهزيّة في كلّ لحظة، ممّا يقتضي حضوراً دائماً، ومزيداً من العمل، ونظام دوام سلساً لا يمتّ بصلة إِلى قانون العمل... ومع ذلك تحاول "السفينة" أن تكون شديدة الاحترام لقوانين كلّ بلد توجد فيه جماعاتها. وفي فرنسا أَجْبرتنا على القبول بتسويات، بعد أن وضعتنا أمام تحدٍّ، اتّضح لنا معه أنّ قانوننا ليس دائماً في صالح جماعات المعاقين، وأنّه بالتالي، لا بدّ من تكييفه مع مقتضياتها.

– تحدّي " التقنية " : ليست "السفينة" موصدة دون مكتسبات علم النفس الحديث، بل للمعالجين النفسيّين مكانهم فيها. غير أنّ، ثمّة، حدْساً جوهريّاً يجب أن يواكب كلّ عمل علاجيّ، وهو توفير الأمان العاطفيّ، وتهدئة ما يواكب المعاق من قلقٍ واضطراب، ففي

معزل عنهما ما من علاج باقي الأَثر. وقلّما يعثر المعاق على هذه " التهدئة " في إِطار علاقة " ثنائيّة " : فإِن هي كانت متحفّظة، لما أَفادته في شيء، وإِن هي كانت شديدة القرب، لغدت مهيمنة، وبالتالي ضارّة؛ وهذا ينطبق أَيضاً على العلاقات الأُسـروِيّة. " النظـام الممكـن الوحيد، في هذه الحال، يتمثّل في الجماعة، وهي فريق حياة، مرجعه النهائيّ ليس وثيقـة، أو بنية، أو رئيساً، بل ما يُقدَّم من عناية واهتمام لشخصٍ معاق، ولماضيه، ومسـلتزماته، وأَيضاً لموارده الكمينة.

– تحدٍّ آخر يتمثّل في حقّ المعاق بحياةٍ جنسيّة. ففي حضارة تاهت سبُلها، يتلاقى، غالباً، حول هذا الموضوع، موقفان شائعان : إِمّا إِنكار هذه المشـكلة، إنكـاراً تامّـاً، أو التراخي المطلق من كلّ قيد لدى بعض المعالجين أو "المربّين"

وفي "السفينة" يحاولون تجنّب هاتين العقبَتَيْن كلتيهما، وغالباً مـا ينجحـون. فهـم يدركون أَنّ الجنس بُعْدٌ لا مناص منه من أَبعاد الشخص المعاق، ممّـا يوجـب الاعتـراف بحاجاته العميقة التي يعبّرعنها بنزعاته الجنسيّة، وهي حاجات حنان، وحميميّـة جسـديّة، وخصب. إِنّ جماعات "السفينة" الدافئة، حيث لا بَوْن يفصل بين المعاق وغيـر المعـاق، وحيث كلّ شيء يتيح لروح الخلق لدى كلّ فرد أَن يعبّر عن ذاته، هذه الجماعـات تؤهّـل المعاقين والمهتميّن بهم لعيش عزوبتهم على نحوٍ إِيجـابيّ، ولا يتخلّـون عنهـا إِلاّ عنـدما يصبحون قادرين على الارتباط "بعهد " حقيقيّ.

– مفهوم جديد للعلمانيّة : في "السفينة"، يعيش كلٌّ من المسؤولين –والجماعة نفسها– وفقاً لِقيَم روحيّة، واحتفالات طقسيّة؛ ومع ذلك لا يُقتضى أَيّ التزام بهـذه القِـيَم لا عنـد الانتساب ولا بعده.

ب – "السفينة" وتبعيّاتها

ليست "السفينة" بدعةً، أو مذهباً، ولاهي عفويّة يسيّرها إِلهام اللحظة الراهنة، بـل هي تاريخٌ يُبنى، كلّ يوم، في استمراريّة مع الماضي، وتتطوّر وفقاً لمستقبل لا يضمن لهـا الخلود. إِنّها، مثل كلّ كائن حيّ، تتنافذ مع محيطها وترتبط به ارتباطاً وثيقاً :

– ارتباط تجاه سلطة خارجيّة :

في البلدان التي لديها أَنظمة تتعلّق بالمعاقين، تقف "السفينة" أَمام خيارين : فإِمّـا أَن تظلّ خارج الأَنظمة، أَو أَن تقبل بالعمل في إِطار النظام، على أَن تؤثّر عليه فتطوّره. وقد كان قرار مؤسّس "السفينة" واضحاً منذ البدء إِذ أَعلن : " من الخطأ الاعتقاد أَنّ على الجماعة أَن تتهمّش كي تحسن وفادة المهمّشين ".

- **التبعيّة الماليّة**

المعنى العميق لروح الفقر يتمثّل في عدم التحرّج من قبول المساعدة. و"السفينة"، بحرصها على ألاّ تتهمّش، تقبل بل تطلب الإفادة من إعانة يوميّة أو من منحةٍ إجماليّة لكلٍّ من مؤسّساتها. أمّا في بلدان العالم الثالث فهي لا تظفر بأيّ عونٍ حكوميّ، وهكذا تتجلّى حرّيّتها الحقيقيّة.

غير أنّ ممارسة هذه الحريّة ليست بالأمر السهل : فذات يوم، اقترح مفتّش مكلَّف بتقدير تكاليف جماعات قرية تروسلي اليوميّة، إيجاد مطبخ مركزيّ لمختلف الجماعات بحجّة الجدوى الاقتصاديّة، في حين أنّ إحدى ميزات أسلوب "السفينة" الأساسيّة هي تكوين وحدات صغيرة، و" أُسَر " يضمّ كلٌّ منها ثمانية أشخاص إلى اثني عشر شخصاً، عدد المساعدين، منهم، يناهز تقريباً عدد المعاقين. وفي هذه الوحدات يمثّل الاشتراك في إعداد وجبات الطعام، لحظةً مميّزة يحاولون جعلها على أرفع قدر من الإدهاش. وأخيراً، استسلم المفتّش، مرغماً.

قد لا يكون لمثل هذا النقاش، اليوم، من داعٍ، بعد أن استقرّت لدى الجميع القناعة بأنّ الوحدات الصغيرة أجدى، ولكن، آنذاك، كانت "السفينة" سبّاقة لزمانها، واضطرّت إلى النضال لكي تفرض وجهة نظرها.

- **تبعيّة حيال المعاق نفسه :**

لقد حملت "السفينة" على محمل الجدّ ما يمثّل، بلا ريب، واحداً من أكثر إبداعات الإنجيل جوهريّة، أي غنى الفقير القُدْسيّ، وتعاملت بموجبه مع المعاق، الذي ما عاد سجين إعاقته، بل أمسى يُعدّ إنساناً بكلّ ما ينطوي عليه من إمكانيّات، قد تكون مدهشة. وهو، على أيّة حال، عضو كامل في الجماعة، يدلي برأيه في قراراتها، وتُطلب مساهمته في شؤونها. والازدهار الذي يصيب معظم المعاقين، من جرّاء ذلك، يدفع "السفينة" إلى "عهد" يتّسم بجدّيّة صارمة، والتزاماً، "للحياة وللموت ". وهذا الالتزام المطلق اللامحدود بأَجَل، ليس سهلاً، ولا يُصبح نهائيّاً أبداً، بل ينبغي التفاوض، من أجله، مع المعاق، كلّ يوم، وهو يفرض كفاحاً يوميّاً لكيلا تقوم، من جديد، مسافة بين من يظنّ أنّه يعطي ومن يُفترض أنّه يتلقّى. وحدَها، جماعة دافئة وحيّة قادرة أن تتيح لكلّ فرد تخطّي التناقض القائم على تكريس ذاته لخدمة المعاقين، وفي الآن عينه، وضعهم على قدم المساواة مع الذات.

خلاصة :

"السفينة" كائن حيّ، وتاريخ، ممّا يفرض عليها، مثل كلّ مؤسّسة، تطوّراً مطّرداً؛ فقد قال القدّيس أوغوسطينس : " عندما تقول " كفى "، تقضي نحبــك ". و"الســفينة"، فــي الوقت الراهن، تتدفّق حياةً على جميع من يعيشون، معها وبها، تحدّياتها وتطلّعاتها، وكــلّ يوم على نحوٍ مختلف.

ثلاثون عاماً من عمر " السفينة "

لقد أوجز جان فانييه ثلاثين سنة من مسيرة " السفينة " بقوله :

" إنّ تاريخ "السفينة" جميل وأَليم، في آنٍ واحد.

أَليمة هي الأَزمات والخلافات في جماعاتنا، وأَليم التعب، والضغط النفسي، وعودة بعض المعاقين إلى المستشفى، ونقص المساعدين، أو كثرة تبدّلاتهم، ومغادرة بعضهم، خائبين، غاضبين، ممّا جرحنا جميعاً، وجرح، خاصّة، المعاقين. فإِنّه لقاسٍ على قلبٍ رقيقٍ، محبّ، متعطّش إلى التواصل، أن يشهد هجر مساعدين شرع يعقد معهم صداقة واثقة.

و مع ذلك، تاريخ " السفينة " جميل، فهو قصّة الكثيرين من الرجال والنساء الذين وافوا من ملاجئ، ومشافٍ نفسيّة، في حالات من الإهمال والأَلم، والذين حقّقوا العبور من الموت إلى القيامة، ومن الاضطراب إلى الثقة، ومن العزلة إلى الجماعة، ومن القنوط إلى الرجاء، واكتشفوا بُشرى يسوع، بشرى اللّه. وقد تحقّق هذا العبور بفضل وجود الكثيرين من المساعدين الرائعين.

و هو، أيضاً، قصّة العديدين من المساعدين والأَصدقاء، الذين عثروا على الحياة، واكتشفوا الإنجيل من خلال معاهدة مع أَشخاص مجروحين وضعفاء، وبفضل التقائهم الفقير، اختاروا السير في إِثر يسوع على درب السلام والتطويبات.

قد نعجب من كثرة ما نلقى من متاعب، ولكن علينا أن نذكر أَنّ "السفينة " قائمة على الأَلم، فغايتنا هي أن نستضيف ونواكب، مدى الحياة، رجالاً ونساءً يعانون الإعاقة، لن يكتب لهم الشفاء، ولن يغادرونا. ومهمّتنا هي مواكبتهم في أَلمهم وقلقهم مدى الحياة، حتّى الممات. من المؤكّد أَنّ بعضهم عندما يكتشفون أَنّهم محبوبون، وأَنّهم وجدوا مكانهم في أَحضان أُسرة، وفي جماعة، وتبلّغوا بشرى يسوع، سيعيشون قيامةً حقّة.

و لكنّ ذلك لا يلغي آلامهم ومشاعرهم بالحرمان، المتراكمة منذ سنوات. وستظلّ "السفينة "، أَبداً، علامة للتناقض، مكاناً يختلط فيه الفرح والحزن، الأَزمات والسلام؛ إنّ تاريخنا نسيج نجاح وإِخفاق، صليب وقيامة، خطيئة ونعمة، خوف وثقة؛ جميعها متداخلة تداخلاً وثيقاً.

في بعض جماعاتنا، اليوم، رجال ونساء معاقون، مقيمون منذ عشر سنوات، بل منذ خمس عشرة أو عشرين سنة، يخيّم عليهم السلام والسعادة، ولبعضهم عمل يفخرون به. لقد اكتسبوا شيئاً من النضوج، وهم على علمٍ وثيقٍ بما يريدون، وخياراتهم واضحة؛ يريدون المكوث في " السفينة "، واستقبال أَشخاص آخرين في الجماعة؛ يرغبون في العيش

مع مساعدين مقيمين؛ ويشعرون بدعوة إلى عيش بشرى يسوع. في حين أنّ المساعدين القادمين لا يعلمون جيّداً ما يريدون، وما انفكّوا يبحثون. ثمّة تفاوت في النضوج متعاظم بين هؤلاء المساعدين والمعاقين.

يشعر المعاقون أنّ " السفينة " بيتهم وأسرتهم، وهم يحتلّون منها موقع القلب، ولكن لكي يعيشوا دعوتهم، يحتاجون إلى مساعدين يمكثون معهم.

الآن، وقد استقرّ عدد من المعاقين الذين باتوا ينعمون بالاستقلاليّة، ويتحمّلون المسؤوليّات، شرعت تتجلى دعوتهم العميقة، فهم قادرون على تقبّل عطيّة اللّه، وعقد علاقة حميمة معه؛ إنّهم مدعوّون ليكونوا قدّيسين، وغالباً ما ننسى أنّهم مدعوّون لأن يكونوا لنا معلّمين روحيّين.

إنّهم يشقّون لنا درب حبّ على جانب كبير من البساطة، ويقودوننا نحو الثقة الروحيّة، ويذكّروننا بأنّنا، إن لم نعد كالأطفال، لن ندخل ملكوت السماوات.

إنّني شديد التأثّر وأنا أرقب "السفينة" إثر ثلاثين سنة من بداياتها الممعنة في الفقر... لقد سقطت البذرة في التربة، ونمت، وآتت ثماراً، بفضل الروح القدس الذي يقود كلّ شيء بحكمة وحبّ. وقد أماطت هذه السنوات الثلاثون القناع عمّا كانت تنطوي عليه البذرة الأولى، وأظهرت أنّ، لدى المعاقين عقليّاً، رسالةً إلى الكنيسة وإلى العالم؛ فهم، جوهريّاً، قلبٌ، ودعوة إلى التواصل الحميم، والعيش الجماعيّ، ومن هذا الملحظ، هو نبويّون، ومثل كلّ نبيّ، هم مزعجون، يدعون إلى التغيير، وإلى التحوّل النفسيّ، وإلى ألاّ نستغرق فقط في العمل، والنشاط المفرط، والتماس النجاح والثروة، والشهرة، بل إلى السعي لأن نكون أكثر محبّة، وإنسانيّة، من أجل عيش التواصل والعيش الجماعيّ. غير أنّ هؤلاء الأنبياء صامتون، ولا يحدثون الكثير من الضجيج، ومن السهل ألاّ ننظر إليهم، وأن نُقصيهم، وأن نعدّهم عديمي الجدوى، بل أن نحكم عليهم بالموت.

و على الروح النبويّ أن يبحث دائماً عن الحقيقة؛ وعلى "السفينة" ألاّ تقتصر، في عيشها، على العاطفيّ والروحيّ فحسب، وألاّ تنغلق على ذاتها، بل ينبغي أن تأخذ بالحسبان معطيات العلوم الإنسانيّة الحديثة حول الكائن البشريّ ونموّه. وعليها، أيضاً، أن تتّكئ على لاهوت ينغرس في كلمة اللّه وعمل الروح القدس، عبر القرون وحتّى اليوم، داعية جميع البشر إلى التحوّل، وإلى العودة إلى دروب التواضع والحبّ.

منذ أكثر من ثلاثين عاماً، تشهد جماعات " السفينة " و" إيمان ونور " البالغ عددها مئة وجماعتين، على قدرات المعاقين السرّيّة، التي أدّت إلى تحوّلي النفسيّ، وتحوّل العديدين من المساعدين العاملين في جماعاتنا. يبدو أنّ اللّه يستخدم هؤلاء المعاقين وقلوبهم لكي يوقظ قلوبنا، ويوحّدنا من الداخل، ويعيد لنا إنسانيّتنا كاملة... لقد استخدمهم اللّه لكي يدخلني في

تواصل أَكبر مع الآب. إِنّ " السفينة " مكان تُعلن فيه البشرى للفقراء وبواسطة الفقراء، وهي تكتشف، أَكثر فأكثر، دعوتها إِلى خدمة الكنيسة جمعاء، والمجتمع بأَسره.

كثيرون من المساعدين الذين عاشوا هذا التواصل وهذا العهد مع الفقير اكتشفوا سرّ اللّه الكامن في الضعف، وفي ضعفهم الخاصّ، وكان هذا الاكتشاف أَداة تحوّل، ومنبع دعوات كثيرة، في داخل " السفينة" وخارجها.

عندما بدأت عملي في " السفينة " لم أكن لأَجرؤ على القول، كما أَقول اليوم، أَنّ الشخص المعاق عقليّاً نبويّ، إِنّما اتّضح لنا ذلك عبر السنين التي تلمّسنا فيها دربنا، وهيكليّتنا، وهويّتنا. وقد كشف لي المعاقون النقاب عن ماهيّة الجماعة. إِنّه من العسير على مجتمعنا فهم الهيكليّات الجماعيّة، فهو متّجه بالأَحرى نحو النقابات، والاتّفاقات الجماعيّة، والامتيازات المكتسبة؛ ولكنّني أَزداد قناعة بأَنّ منظّمات كثيرة تسعى نحو هيكليّات تنطوي على قدرٍ أَكبر من المشاركة والحقيقة، والتواصل، ونحو عملٍ أوفر خصباً لا يحتمل المنافسة، ولا الصراع على السلطة، ولا نظام الأَجور الظالمة. إِنّ الفقير يهيدنا إِلى اكتشاف الجماعة، مثلما يهدينا إِلى طريق الوحدة : وحدة بين الفقير والغنيّ، بين المسيحيّين والمنتمين إِلى ديانات وتقاليد أُخرى، ووحدة بين الثقافات؛ صِغَره وإِنسانيّتنا المشتركة يجتذباننا نحوه، ويرشداننا إِلى طريق السلام.

بعد ثلاثين عاماً أَتمنّى أَن نظلّ نبويّين. وأَن يستمرّ المعاقون، أولئك الموجودون، في جماعاتنا، والذين ينتظرون، في قلق، أَن تفتتح، لاستقبالهم، جماعات جديدة، في إِزعاجنا، ودعوتنا إِلى مزيد من إِيمان، وشجاعة، وحكمة، وحقيقة. إِنّني أُصلّي لكيلا ننغلق على مكتسبات هذه السنوات الثلاثين، ولا على التماس الأَمان. ولكي نظلّ نبويّين، علينا أَن نحافظ على وهننا وصِغَرنا؛ فما زال لدينا الكثير الذي يتعيّن علينا تلقّيه، واكتشافه، وتعلّمه. ينبغي أَن تستمرّ قدرة اللّه وحكمته في التجلّي، من خلال ضعفنا، لكي يظلّ الضعفاء و"المجانين "، ومحتقرو هذا العالم، يُخزون الأَقوياء، والحكماء، وأَصحاب السلطان، ويرشدون إِلى طريق جديد صوب الحبّ.

إِنّ " السفينة " علامة، وليست حلاً لجميع مشاكل البشر؛ إِنّها علامة على أَنّ الحبّ ممكن، وعلى أَنّ الضعفاء، أَيّاً كان نمط ضعفهم، يحملون رسالة. إِنّها علامة على أَنّ الإِيمان والكفاءة يمكن أَن يتّحدا من أَجل رفاه الكائن البشريّ وازدهاره إِنسانيّاً وروحيّاً؛ إِنّها علامة على أَنّ المؤسّسات بمكنتها أَن تصبح جماعات تتعاون وتتّحد في إِخاءٍ حقّ.

و لئن كانت سنوات " السفينة " الثلاثون نهاية البداية، فهي، خاصّة، بداية مرحلة جديدة، مرحلة تعميق وإِشعاع في المجتمع.

فلسفة "السفينة" وروحانيّتها

للسفينة فلسفة خاصَّة مبنيّة على روحانيّة راسخة ومتميّزة. فهي مكان نموّ روحيّ ونفسيّ للمعاقين وللمتطوّعين الذين عقدوا العزم على العيش معهم، لتزويدهم بما ينقصهم من قدرات، وبما يحتاجون إليه من اعترافٍ وحبّ.

ففي داخل كلّ كائن بشريّ ينشب صراع بين القوى الأنانيّة التي تجتذب إليها كلّ شيء من أجل ملء الفراغ، من جانب، ومن جانب آخر، الانفتاح على الغير في تواصل حميم، وحوار، ومشاركة، وخدمة. وليس المعاق ذهنيّاً في معزلٍ عن هذا الصراع، فهو، نظير كلّ إنسان سويّ، قد ينساق لغواية العالم، وإلى أحلام الوهم، أو قد يرتضي العيش في الواقع البشريّ، وهو تواصل، ومسؤوليّة عن خدمة الآخرين، وبذلٌ يقتضي آلاماً وجهوداً. ولن يقوى المعاق على المضيّ قُدُماً في هذا المسار إلاّ إذا تلقّى دعماً، وتثبيتاً، ومساعدة، وإلاّ إذا تسنّى له العيش في جماعةٍ بشريّة تعترف بجمال كيانه العميق، وبطاقاته على الحبّ.

المصابون بإعاقات سحيقة يتعذّر عليهم مواجهة وضعهم بمفردهم، وهم في حاجة إلى من يقف إلى جانبهم، ويوفّر لهم دعماً خاصّاً؛ يحتاجون إلى عقد علاقات، وإلى العيش مع آخرين عيشة تسودها روح العائلة. لا يكفيهم اهتمام مهنيّين يقتصرون، مع ما يتحلّون به من كفاية وعطف، على العيش أربعين ساعة في الأسبوع لقاء أجر، بل يؤثرون أن يعيشوا مع آخرين علاقات صداقة حقيقيّة، وهذه يعثرون عليها في "السفينة "، فهي، على غرار سفينة نوح، رمز إلى الملجأ، والجماعة المتنوّعة، والرجاء.

إنّ جماعات السفينة تقوم على حاجات أشخاص أكثر منها على مبدأ حياة مقرّر سلفاً. فانطلاقاً من الأشخاص الذين تستقبلهم تؤسّس الجماعة وتُبنى، وتتجذّر، ومن ثمّ تستمدّ الجماعة شكلها، وشخصيّتها، وأصالتها، وفقاً للأشخاص الذين يؤلّفونها. وحاجات المعاقين هي التي تملي، إلى حدٍّ ما، أسلوب العيش، ونهج الجماعة.

و عندما يعثر المعاق على معنىً لحياته، وتقديرٍ لشخصه، في أحضان جماعةٍ محبّة، حقّاً، يصبح " خصباً "، ولا يعود، بعدُ، معاقاً، بل يمسي إنساناً مثل الآخرين، في الجماعة، يتميّز بموهبةٍ خاصّة لا يملك آخرون مثلها. وحينئذٍ ينتفي الحسد، إذ إنّ لكلّ فرد مكانه، ولا يعود التباين بين الأشخاص تهديداً أو موضع منافسة، بل منبع إثراء، وتكوّن الجماعة " جسداً " منفتحاً، متكاملاً، متضامن الأعضاء، يسع كلّ فرد فيه أن يحقّق ذاته.

روح "السفينة" المتميّز هذا، روح الفرح والبساطة لا يخفى على من يشهده؛ ففي كلّ مكان تقصده رحلات الحجّ والترفيه عن المعاقين التي تُنظّم باطّراد، يسمع المسؤولون عن "السفينة" مثل هذا التعليق: " لدى جماعتكم شيء بسيط وحارّ يدفىء قلوبنا ويدهشها ".

و في هذا السياق يروي جان فانييه أَنّ مصوّراً تيليفزيونيّاً، طرح، في أَثناء حجّ جماعة كبيرة من المعاقين إِلى لورد، هذا التساؤل : "كيف تفسّر أَنّني، مع عملي الذي أَهواه، والمال الذي أمتلكه، ليس لديّ ما لديهم من فرح ؟ "فأجابه فانييه: " إِنّ الحجر الذي رذله البنّاؤون، قد أَصبح رأساً للزاوية ".

و في هذا الجوّ، كم من التحوّلات المدهشة قد تحقّقت وأَغنت حياة معاقين ومساعدين! فكلوديا، مثلاً، التي جاءت السفينة طفلة تبدو مجنونة، قد عاشت، بفضل ما أُحيطت به من حبّ، قيامة حقيقيّة، وها هي قد أَمست فتاة هادئة، آمنة، سعيدة، قادرة على صنع أَشياء كثيرة رائعة؛ وعلى غرارها ظفر كثيرون من الرجال والنساء، في مختلف مراكز "السفينة"، تدريجيّاً، بالسلام الداخليّ، وبالهويّة، وانفتحوا على الآخرين.

و المساعدون، بدورهم، يصيبون نموّاً مذهلاً، إِذ يعثرون لحياتهم على معنى، وأَمل، وتكسبهم المسؤوليّات منعة، فلا يعودون يخشون الانفتاح على الآخرين، ولا سيّما المختلفين، وكثيرون منهم يجدون أَرضاً تستطيع حياتهم العميقة الازدهار عليها وإِيتاء الثمار.

أَحد المساعدين اعترف بأَنّ جرح حياته الأَكبر كان ازدراء أَبيه له. فقد كان على تباين كبير مع إِخوته الذين نجحوا في عالم الأَعمال وتبوّأوا مراكز مرموقة، في حين لم يُصِب، هو، أَيّ نجاح. وكان يتألّم أَلماً بليغاً من نظرة أَبيه الحافلة بالازدراء؛ فالولد الذي يخيّب توقّعات والديه يُمنى بأَلم بالغ. وانتهى ذلك الشابّ إِلى " السفينة "، لا عن دافعٍ حقّ، وتصميم، بل افتقاراً إِلى سبيل آخر لمستقبله. وشيئاً فشيئاً، اكتشف غنى الحياة الجماعيّة، ورؤيا "السفينة" الإِنسانيّة والمسيحيّة، مثلما اكتشف قدراته على العمل، وعلى تحمّل المسؤوليّات، والإِيمان، وحبّ يسوع. واتّضح له أَنّ إِخوته، وإِن هم أَصابوا نجاحاً ظاهريّاً، كانوا، ربّما، يفتقرون إِلى فسحة فرح وإِيمان، وإِلى دوافع عميقة. وقد تحوّل أَساه إِلى بهجة.

كثيرة هي المؤسّسات التي حاولت مساعدة المعاقين، ولكنّ بعضها قصرت جهدها على مراقبتهم، ومحاولة الحؤول دون إِيذائهم لأَنفسهم، فحشرتهم في مشافٍ نفسيّة هي أَشبه بالسجون، ولم تفلح في تقويض جدران عزلتهم، ولا التخفيف من شعورهم بالنبذ والازدراء، وزادت آلامهم أَلماً. وعلى نقيض ذلك عمدت الدول السكندينافيّة إِلى إِيواء المعاقين في غُرَفٍ أَو شُقق فرديّة، وتزويد كلّ منهم بتيليفزيون خاصّ، وبالعديد من زجاجات البيرة. ومع أَنّ تلك الخطوة تبدو تطوّراً إِيجابيّاً بالقياس إِلى المشافي النفسيّة، ومع أَنّ السلطات في تلك البلدان عدّتها قمّة في التطبيع والاندماج، إِلاّ أَنّها لم تفلح في إِزاحة الحزن عن نفوس المعاقين، ولا هي حرّرتهم من قوقعة الانطواء على ذواتهم.

و في الولايات المتّحدة الأميركيّة وكندا ارتأوا أنّ " تطبيع " المعاقين يكمن في تـوفير عملٍ مأجور لهم، وسكنٍ خاصّ، وحملهم على تدبّر أمـورهم بأنفسـهم، غيـر عـابئين باحتياجاتهم الأَساسيّة إِلى الشعور بأَنّ ثمّة من يحبّهم بصدق، ويقدّرهم ويحترم إِنسانيّتهم.

أَمّا جان فانييه فكانت له نظرة مختلفة عن تلك الاتّجاهـات كلّهـا، نظـرة نبويّـة، إِنسانيّة، مسيحيّة. وقد اتّضح له، مذ بدأ يعايش رفائيل وفيليب، أَنّ حاجتهما الجوهريّة ليست العيش المستقلّ والاكتفاء الذاتيّ التامّ، الذي يظلّ دون منال معظم المعاقين، من جرّاء إِعاقتهم نفسها؛ وقد أَيقن أَنّ المعاقين إِنّما يحتاجون إِلى الاندماج في حياةٍ أُسرويّة، مـع أَشـخاصٍ يلتزمون معهم، وفيما بينهم، مدى العمر، لا بدافع كسب مـادّيّ، بـل بـروح المجّانيّـة والمحبّة، وفي أَحضان مثل هذه الحياة الأُسرويّة يتسنّى للمعاقين تنميـة طاقـاتهم الإِنسـانيّة والروحيّة إِلى أَقصى مدى، في جوٍّ من الحرّيّة والانفتاح.

إِنّ الإِنسان الوحيد ينزع إِلى التواري عن الأَنظار، والانغلاق على ذاته خلف جدران نفسيّة، فيكفّ عن التواصل، وينقطع سريان الحياة فيه. والبشر، جميعاً، في حاجة إِلـى أَصدقاء يوفّرون الأَمان والدعم؛ معهم يمكن التبادل، وتتاح مخاطرة الحياة.

و لكنّ عالم اليوم لا يوفّر الشروط المؤاتية لمثل هذه الصداقة، فسكّان المدن يعيشـون في مناخ عدائيّ يدفعهم إِلى الدفاع عن أَنفسهم، ويظلّ الخوف مسيطراً عليهم، ويتّسم عملهم، نفسه بالمنافسة الضارية التي تفرض عليهم تخطّي الآخرين كفاءةً، لكي يحتفظوا بمراكـزهم ويظفروا بالترقية. وسرعان ما يُمنون بالإِرهاق من جرّاء الصراعات الدائمة، ووتيرة الحياة المرهقة، فلا يبقى لديهم من القوى ما يوظّفونه في العلاقات الإِنسانيّة. ويفزعون إِلى التسلّي بالتيليفزيون، وهو عامل العزلة القصوى، ممّا يزيد وحدتهم حـدّة، ويضـاعف صـعوبة التواصل لديهم، ويحدّ من انفتاحهم على الغير.

إِنّ عالم المنافسة يقود إِلى الحكم على الناس وفقاً لما يفعلـون، لا وفقـاً لمـا هـم. والسعي إِلى النجاح قد يولّد أَشياء عظيمة، ولكنّه لا يمنح، دائماً، الإِنسانَ شعوراً بكرامته، فضلاً عن عزله عن الآخرين، فالنجاح يتحقّق، غالباً، على حساب الغير.

ليس لدى المعاقين إِحساس بالمنافسة، بل هم يؤثرون مشاركة الآخرين، عوضاً عن مجابهتهم، وهم كفيلون بدفعنا إِلى حياةٍ من المشاركة حيث يُقدَّر الإِنسان لذاته، ولما هو فريد فيه.

و لقد ضرب جان فانييه أروع مثالٍ على المشاركة بين إِنسانٍ غنيّ بإِنسانيّته، وفقراء على كلّ صعيد، ممّا يولّد حدثاً مدهشاً. لقد ضحّى بحياة يُسر، ونجاح، ومركز، في سبيل حياةٍ تتّسم باللاأَمان الإِنسانيّ. وقد قادته تلك المغامرة إِلى اكتشاف ضربٍ من الأَمان الأَرسخ: أَمان ينبع من الإِيمان بالآخرين، وباللّه، ويقود إِلى التقاء يسوع، كما يتّضـح مـن قولـه:

"بعيشي مع رفائيل وفيليب، وآخرين كثيرين صاروا لي إخوة وأخوات، شرعت أتعلّم، على نحوٍ أفضل، رسالة يسوع، والحبّ الذي خصّ به الفقراء بالروح، وبائسي عالمنا وضعفاءه. لقد علّموني الكثير، وأنا مدين لهم بالكثير. علّموني العيش ببساطة، والحبّ برقّة، وقول الحقّ، والصفح، والاستقبال، والتواضع في الضعف، والثقة في المصاعب، وتقبّل الإعاقات والمِحَن بحبّ. وبحبّهم، أعلنوا لي، إعلاناً سرّيّاً، عن يسوع".

إنّ استجابته لنداءٍ جاءه عبر شخصيْن معاقيْن، كانت بداية جماعة استمرّت في الانفتاح على جماعة البشر الكبرى. فالجماعة تتكوّن عندما يلتزم المرء بإشراع حياته على الآخر، بانياً سفينةً كفيلة بعبور البحار التي تفصل البشر. وبقدر ما يترسّخ هذا الالتزام حيال الأكثر نبذاً، تستطيع " السفينة " استقبال المزيد من البشر. والتحدّي الذي يواجه كلّ جماعة، أيّة كانت، هو احترام الطابع الفريد لكلٍّ من أعضائها.

و قد نمت " السفينة " في المخاطرة، منفتحة على رياح التطوّر، مُعرِضةً عن الاحتماء بالضمانات الزائفة التي يوفّرها الامتلاك، والشعبيّة، والسلطة، مستسلمة للروح الحقيقة، والحبّ، الذي يمثّل الضمانة الوحيدة للبقاء والنموّ.

و قد آمنت " السفنية " دائماً أنّ أعضاءها الأشدّ وهناً هم الأثمن، وأنّ هشاشتها وضعفها هما امتياز، ففي حين تجنح القوّة إلى تفريق الأشخاص والجماعات، يدعو الضعف إلى التساند والمشاركة، والتواصل.

و " السفنية " ليست مُعتَزلاً تحتمي فيه فئة من الناس من الآخرين، بل هي مكان لقاء، يلتئم فيه أقوام مختلفون على الإخاء والتضامن. وهي شهادة حيّة بأنّ الإخاء الشامل ممكن، وأنّه، حتّى في عالمنا المقسّم، ثمّة مكان للفرح.

و قد أوجز جان فانييه تميّز " السفينة " هذا ودورها الخطير في إعادة الروح إلى المجتمع بقوله : " ألحظ أحياناً كم الناس ينظرون إلينا على أنّنا حمقى. فأولئك الذين يعدّهم المجتمع عديمي القيمة الإنسانيّة، نرى، نحن، فيهم، موقظين لأثمن ما في الكائن البشريّ: القلب، والمجّانيّة، وزخم الحبّ، ودعوةً إلى وضع الذكاء في خدمة القلب. إنّهم يشفون الكائن البشريّ بدعوته إلى توحيد عاطفته العميقة، وطاقات حبّه وعقله، في ذاته، وهم، بذلك يصبحون ينابيع حياة.

" إنّ مجتمعاً يُقصي غير المنتجين والضعفاء ينمّي نموّاً مفرطاً العقل، والتنظيم، والعدوانيّة، والرغبة في السيطرة. ومن ثمّ يصبح مجتمعاً لا قلب فيه ولا مجّانيّة، مجتمعاً عقلانيّاً حزيناً، لا يعرف الاحتفال، ومحكوماً عليه بالشقاقات الداخليّة، وبالتنافس والعنف ".

أمّا مفهوم التربية في " السفينة " فهو السعي إلى مساعدة كلّ فرد على تقبّل الآخر كما هو، وتقديره، واستشفاف جماله، وتلبية احتياجاته في سبيل نموٍّ حقيقيّ. وإنّ للمعاق طاقة

على مثل هذا الحبّ، وربّما هو، بسبب هزال زاده، أكثر قدرة على الحبّ من الأَغنياء، مع قدرتهم على المعرفة والسلطة والامتلاك.

و فضلاً عن كلّ ذلك يقود العيش مع المعاقين إِلى قلب يسوع، لأَنّهم هم، سرّ يسوع المتألّم والمصلوب، سرّه المقدّس. ومن يدنو منهم إِنّما يدنو من الخلاص. بيد أَنّ التواصل التامّ معهم، بلا توانٍ وحتّى نهاية الشوط، لا يتحقّق إِلاّ بموتٍ عن الذات؛ ووحدها نعمة يسوع تمكّن من هذا الموت المحيي على حدّ قول جان فانييه : " لكي نسير مع الفقير، علينا اكتشاف قوّة جديدة تأتي مباشرة من اللّه. لن نقوى على العيش مع أَشخاص عالمنا المحطّمين، ومحاولة لمّ شمل جسد البشريّة المحطّم، واستيعاب ظلُماتنا الذاتيّة، ما لم نتلقّ بذور روح يسوع ".

و شيئاً فشيئاً اتّضح لجان فانييه أَنّ الجماعات الإِنسانيّة المبنيّة على نمط الأُسرة هي الوسيط المثاليّ بين الفرد والمجتمع، المكان الذي يستطيع كلّ فرد فيه أَنّ يحقّق ذاته، ويُسقط الحواجز التي تقي هشاشته، وتتيح له الانفتاح على الآخرين، ولا سيّما المختلفين عنه. إِنّها التربة التي يحتاج إِليها كلّ فرد لكي ينمو إِنسانيّاً.

و من هذه الرؤية وُلدت " السفينة "، فهي مختلفة عن الجماعات الدينيّة، وعن المؤسّسات المهنيّة القائمة على الكفاءة، بل هي أَشبه بأُسرة كبيرة قائمة على روح جماعيّ يربط أَعضاءها إِخاءٌ حقّ.

إِنّ جماعات " السفينة " تسير في عكس تيّار الثقافة السائدة. ففي عالَم اليوم غالباً ما تتبوّأ قِيَم الجدوى، والسلطة، والمال، والمتعة، المكانة الوحيدة، ساحقةً قيَم الحبّ، والتواضع، والحضور للأَشخاص الضعفاء. ووسائل الإِعلام هي، غالباً، في خدمة رؤية مبنيّة على القوّة، حيث الخارجيّ والظاهر يفوقان شأناً الداخليّ والكيان.

و في المقابل، تدعو " السفينة " إِلى العيش الدائم في تواصل حميم، وصداقة صادقة مع الضعفاء والمعاقين الذين يعدّهم المجتمع نافلين، عديمي الجدوى، مذكّرة، باستمرار، بمكان الحياة الحقّة، والحرّيّة الأَصيلة، والسلام الثابت. إِنّها دعوة إِلى انتهاج درب التطوبيات، واعتناق موقف فقر، من أَجل العيش في مزيدٍ من ملء الحبّ، والسلام الداخليّ، وفي الصمت والكتمان. تلك هي روحانيّة " السفينة " الفريدة، المترسّخة في جنون الإِنجيل، إِنّها متناهية الصغر مثل بذرة تحمل سرّ الحياة؛ إِنّها درب بساطة وفقر.

إِنّ " السفينة " تقتضي من العاملين فيها التحلّي بأوفى قدر من المعرفة والتأهيل المهنيّ، في شتّى المجالات، لكي تؤتي خدماتهم للمعاقين أَفضل النتائج؛ ولكنّها، في الآن عينه، تدعوهم إِلى التغذّي الدائم بخبز الإِنجيل لكيلا تتحوّل، سريعاً، إِلى مؤسّسة ذات جدوى، تضمحلّ منها الحياة الجماعيّة القائمة على المشاركة، والحنان، والاهتمام المتبادل،

وتحلّ محلّها الجدوى المؤسّساتيّة. وإذن، على الكفاءة المهنيّة، في السفينة، أن تستمدّ إلهامها، أبداً، من مجّانيّة العلاقة الشخصيّة، ومن حياة روحيّة تغذّيها الصلاة.

وفي هذا السياق يقول جان فانييه : " مدهشة هي جماعاتنا، فهي تضمّ مجموعات على جانب كبير من التباين. فنحن نستقبل أشخاصاً يعانون من إعاقات مختلفة. والمساعدون، أيضاً، مختلفون جدّاً، فبعضهم متزوّجون (وليس، ثمّة، أسرتان متشابهتان)؛ وبعضهم عازبون، وآخرون يتلمّسون طريقهم. وما أبعد جماعاتنا عن أن تكون مجموعات متجانسة يعتنق جميع أفرادها إيماناً واحداً.

"هناك، دائماً، نزعة إلى توخّي جماعات قويّة، متجانسة، توفّر الأمان، ولكن يُنسى، أحياناً، أنّ الأولويّة هي لكلّ فرد. إنّ جماعات " السفينة "، مع كلّ ذلك التباين الواسع بين أعضائها، في التعبير عن إيمانهم، وفي دعوتهم، تتّسم بهشاشة فعليّة. وفي الآن عينه، تقتضي هذه الهشاشة احتراماً وحبّاً لكلّ فرد، وفقاً لدعوته، وموهبته؛ وتلزمنا، أيضاً، بتوضيح أقطاب الوحدة وتدعيمها، وإلاّ تفتّتت الجماعات. وأقطاب الوحدة هذه تدور، دائماً، حول وجه الأشدّ فقراً، ووجه اللّه، وعلى التواصل الحميم مع الأصغر والأضعف، ومع اللّه. على قطبي الوحدة هذين تنهض جماعاتنا، ولكي يتحقّق ذلك، على كلّ فرد أن يسير على درب التحرّر والشفاء الداخليّ، أي على درب القداسة.

و فضلاً عن كونها جماعات إيمان، يتعيّن على جماعاتنا أن تكون مراكز خدمة للمعاقين، تقدّم لهم الدعم الطبّيّ والنفسيّ، من أجل مساعدتهم على النموّ نحو مزيدٍ من الاستقلاليّة، وعلى اكتشاف مواقعهم، وعلى العيش في ثقة. ومن جانبٍ آخر، هي في حاجة إلى مرشدين روحيّين يذكّرونها بدعوتها الأساسيّة، ولا سيما عندما تنذر حرفيّة القوانين بخنق نفحة الحبّ، والمخاطرة، والثقة بالله". ويوضّح جان فانييه الشروط الثلاثة التي يتعيّن على "السفينة" الالتزام بها، لكي تظلّ وفيّة لمهمّتها النبويّة المتميّزة. وهذه الشروط هي:

1- أن نظلّ نصْغي، عن كثب، إلى المعاقين.

فيوم ستعجز جماعاتنا عن تحمّل العَنت والإزعاج لكي تكون في خدمة الأشخاص المجروحين، ويوم ستدفع هؤلاء الأشخاص على الانتظام في قالب مؤسّسة صارمة قانونيّة، سنكون في خطر.

و يوم ستصبح جماعاتنا مجرّد أمكنة تعليم وعمل، لا موائل تواصل، واحتفال وصلاة، سنكون في خطر،

و يوم سننسى أنّ الإنسان الأضعف والأكثر محدوديّة ذهنيّاً، ينعم بحبّ اللّه، ويحتلّ من قلبه مكانة أثيرة، وأنّ دعوته الجوهريّة تتمثّل في التواصل مع اللّه، سنكون في خطر.

2- أن نظلّ جماعات تحيا البساطة، والتواصل، والمشاركة، وحسن التبصّر الجماعيّ؛ وألاّ نقع في شرك أَمان تراتبيّة ترتبط فيها الرواتب بمستوى الوظيفة.

3 - أن نبقى ساهرين على الحياة الروحيّة، وعلى تعميق روحانيّة "السفينة": والحياة الروحيّة هي أسلوب عيش، وصفات حبّ تسم كلّ أعمالنا وعلاقاتنا.

و لروحانيّة " السفينة " إذن قطبان : التواصل مع الآب عبر الصلاة، والتواصل مع الفقير الذي يعلن لنا حضور اللّه الخفيّ؛ وهي روحانيّة قائمة على التواضع، والبساطة، والثقة. وعلى كلّ جماعة، وكلّ فرد، النهل من إِيمانه وتقاليده الخاصّة، من أَجل تغذية هذه الروحانيّة وإِغنائها.

محور جماعات " السفينة " إذن، هو الإِنسان المعاق المعتبر كائناً بشريّاً كاملاً قادراً، ليس فقط على تقبّل عطاء الآخرين، بل، أَيضاً، على إِعطائهم".

فللمعاقين دور خطير في شفاء من يعايشونهم ويساعدونهم، وفي شفاء المجتمع من كثير من أَوصابه. وهذا ما يؤكّده جان فانييه بقوله :

" إِنّ المعاقين ذهنيّاً محدودون جدّاً، عقليّاً ويدويّاً، ولكنّهم، غالباً موهوبون أَكثر من سواهم في مجال القلب والعلاقة، إِذ يُعوّض عن إِعاقاتهم الذهنيّة مزيد من السذاجة والثقة في الآخرين... هؤلاء القوم يعيشون على علاقة وثقى بالجوهريّ. في مجتمعاتنا القائمة على التنافس التي تؤكّد على القوّة والقيمة، يجدون مشقّة قصوى في العثور على مكان لهم، ويعودود خاسرين في جميع المنافسات. ولكن، بالمقابل، بوسع حاجتهم إِلى الصداقة، وكَلَفهم بها، وتوقهم إِلى تواصل القلوب، وميلهم إِلى الأَشخاص الضعفاء، التأثير في الأَقوياء وتغيير مسرى حياتهم، إِن رضي هؤلاء الإِنصات إِلى ذلك الصوت القادم من الأَدنى. في مجتمعاتنا التي تتجزّأ وأَحياناً تنهار، في مدن الصُّلب والزجاج والوحدة، يقوم هؤلاء المعاقون مقام ملاط قادر على جمع شمل البشر. وحينئذٍ تتّضح، مكانتهم، ويتأكّد دورهم في شفاء القلوب، وتحطيم الحواجز التي تفرّق البشر، وتحول دون سعادة عيشهم.

و لكن ينبغي تجنّب إِضفاء صبغة مثاليّة على المعاقين عقليّاً، والاعتقاد أَنّ حياتهم في " السفينة " بسيطة وهيّنة. فلطالما كانوا، في أَثناء حياتهم، ضحايا الكثير من الازدراء، والعنف اللّذين خُزّنا فيهم، وقد يتفجّران يوماً، ولا سيّما في مستهلّ حياتهم الجماعيّة في "السفينة". وتظلّ أَلوانٌ من الاضطراب والانحطاط عالقة بهم، فثمّة دائماً عناصر أَلم مرتبطة بالإِعاقة. ولئن هم عهدوا فترات انشراح، غير أَنّهم يجتازون، أَيضاً، أوقاتاً عصيبة.

و لهذه المصاعب جانبها الإِيجابيّ، فهي تكشف، وقد كشفت لي ولآخرين سواي، عن حدودنا، وهشاشتنا، وحاجاتنا إِلى النجاح واعتراف الآخرين بنا، وكبريائنا، وعُقَدنا، وكلّ ما أخفيناه عن ذواتنا وعن الآخرين قبل مجيئنا إِلى "السفينة ". فعندما يعيش المرء وسط

جماعة، ويعهد حياة علاقة كثيفة، سرعان ما يكتشف حقيقة ذاته، ولا يعود قادراً على إخفاء شيء. فإن كان يثوي، في قلب كلّ إمرئٍ، عطش إلى التواصل الروحيّ والصداقة، إلاّ أنّ فيه، أيضاً، جروحاً عميقة، ومخاوف، وعالماً كاملاً من الظلمات التي تحكمنا على نحوٍ خفيّ. إنّ الاطّلاع على زاوية الظلمة هذه، ثمّ قبولها، يمثّلان، في اعتقادي، الخطوة الأولى نحو معرفة الذات ".

و قد اكتشف جان فانييه، مثلما اكتشف الكثيرون من المساعدين الذين انضمّوا إليه في " السفينة "، أنّ معايشة المعاقين والالتزام بمساعدتهم يفجّران حاجة إنسانيّة كامنة إلىالتواصل، والخدمة والمجّانيّة، كفيلة بإغناء الإنسان وازدهاره.

و في حين يوشك عالم التقنيّات، بقيَمه القائمة على المنافسة والنجاح، التردّي في مستنقعات القنوط، تنبّهنا جماعات " السفينة " إلى أنّه ما زال، في عالمنا، مكان للفرح، وتدلّنا إلى طريقة اكتشافه.

تبدو " السفينة "، في عالم اليوم، مفارقة تستثير التساؤلات. فالغربيّون، ولا سيّما الأميركيّين، يدهشون من وتيرة الحياة البطيئة فيها، التي تتيح الاستمتاع بالحياة على نحوٍ أمثل، ويتبيّنون، باستغراب، أنّ الاهتمام ينصبّ على الأشخاص الذي يضطلعون بالعمل، أكثر من انصبابه على العمل نفسه.

هنا تُعاش اللحظة الراهنة، على غير اكتراث بالمستقبل، ويُتعلّم تقدير كلّ ما يصنع هذه اللحظة الحاضرة.

هنا التعبير عن العواطف محرّر من القيود، ويتمّ باللمس، والحضن، والتقبيل بلا حرَج، كما يتمّ، أحياناً، عبر صمتٍ مفعم بالتفاهم والأُلفة، وعبر ابتسامة تنبع من القلب.

هنا كثيرون يعتبرون يسوع صديقاً شخصيّاً حميماً، وعلاقتهم باللّه بسيطة ومباشرة، وإيمانهم، غالباً، مُعدٍ، يدعو إلى الارتداد. وهذا ما عبّر عنه زائر للسفينة بقوله : " كنت، إلى حدٍّ ما، قد نسيت اللّه. وهنا، على غير علمٍ منّي تقريباً، غمرني حضوره، وحدث لي ما يشبه العودة إلى الحظيرة... إنّ اللّه، هنا، شخصٌ حقيقيّ جدّاً، وحضوره الغامر أنعش فكري الجافّ ".

و يمكن إيجاز صفات أعضاء " السفينة " كما يلي : بساطة الروح، المودّة، وحرّيّة التعبير عنها، البراءة، الانفتاح على الحياة، وعلى الناس، وعلى اللّه؛ القدرة على استقبال الآخرين؛ جنوح إلى حصر الاهتمام بالجوهريّ من حياة الناس؛ الفرح وتعطّش إلى منح هذا الفرح إلى آخرين؛ السخاء؛ القدرة على عيش اللحظة الحاضرة؛ الحسّ بالدهشة؛ إحساس مرهف، إيمان أعمى. وكلّ هذه الصفات، لديهم، مشعّة ومعدية.

و سرعان ما تبيّن جان فانييه هذه المزايا، وتطوّر فكره من التأمّل في ما يستطيع المجتمع تقديمه للمعاقين، إلى الاهتمام بما يسع المعاقين تقديمه للمجتمع. واكتشف، أيضاً، البُعد الإيمانيّ الكامن في العمل مع المعاقين. وهذا ما أكّده بقوله:

" لقد أدركت بوضوح أنّ العيش مع المعاقين يقتضي التوغّل في قِيَم الإنجيل، أي احترام الكائن البشريّ، وبخاصّة الأكثر هشاشة، وأولويّة الرأفة على الجدوى الإنتاجيّة... لجماعتنا وجهان : عنصر إيمان، وهو مركزيّ، وعنصر أكثر بشريّة قائم على التقدّم النفسيّ، والثقافة، والعمل، الخ... وكلّ هذا يتحقّق في الحبّ العميق الذي يجمعنا، ويجعلنا سعداء بالعيش معاً، في احترام متبادل، ولو لم نمارس الإيمان الواحد، ويجعلنا فرحين برؤية كلٍّ منّا الآخر يكبر على دروب الروح القدس".

و فيما بعد، عندما بات جان فانييه يولي الوعظ جلّ اهتمامه، استوحى من خبرته في " السفينة " جوهر فكره، مؤكّداً أنّ عمل خلاص يسوع تحقّق بموته وسط مجرمين عاديّين، مثل أحد منبوذي المجتمع، وكان أكثر مقاطع الكتاب المقدّس إلهاماً له قول يسوع : " الحجر الذي رذله البنّاؤون صار رأس الزاوية " وقول القدّيس بولس : " اختار اللّه ما هو جنون في العالم، لكي يخزي الحكماء ".

و لا ريب أنّ مايحدث في " السفينة " ينهض تأكيداً دائماً على أنّ الخلاص يأتي من خلال الصغار، والجرحى، ومنبوذي العالم. وهو يمثّل مفارقة مدهشة، وتحدّياً يلحظهما الزائر منذ الوهلة الأولى. فبعد قضائه بضع ساعات في " السفينة "، صرّح صحفيّ فرنسيّ: "هذا رائع لكنّ عيشه مستحيل ". وجان فانييه نفسه لا يتردّد في وصف العيش في "السفينة" بالجنون، مضيفاً : " هذا الجنون هو أساس جماعاتنا : أي ارتضاؤنا العيش مع المعاقين، وتماهينا بهم، من غير أن نتخلّى عن مسؤوليّاتنا ".

بادئ الأمر، لم يستوعب جميع المساعدين رؤيته هذه، ولكن، شيئاً فشيئاً، أخذ بعضهم يشاركونه هذه الرؤية، وساد الجميع شعورٌ بأنّهم يعيشون مغامرة فريدة، وأسلوباً جديداً في التعاطي مع المعاقين، وقد شهدوا، جميعهم، ولادة نمط جديد من الجماعة المسيحيّة، لا نموذج سابق لها. وكان حسّ المغامرة، وعنصر البحث يزدادان حدّةً كلّما باشر مبادرةً جديدة، سواء كان افتتاح مركز جديد في الهند، أو مشغل تجريبيّ في تروسلي.

أمّا هيكليّات " السفينة "، فقد تبلورت من خلال مقتضيات العمل المعاشة، والحياة الجماعيّة، ولم تتبوّأ المقام الأوّل، بل ظلّت في خدمة العلاقات الشخصيّة. وهي في تطوّر دائم من خلال لقاءٍ سنويّ عامّ، تُقيَّم فيه منجزات السنة المنصرمة، وتُتّخذ الخطوات الكفيلة بتأمين مستقبل أفضل.

مرونة في البنى، ومشاركة في المسؤوليّة تولي المساعدين شعوراً بالإسهام في المغامرة. مرونة ومشاركة تجعلان " السفينة " أكثر هشاشة، ولكن، بما لا يُقاس، أوفر إنسانيّة ودفئاً. من المؤسّسات ذات البنى الثابتة، الجامدة، كالمشافي. وهذه الهشاشة تقتضي اعتماداً كبيراً على العناية الإلهيّة، وانفتاحاً كلّيّاً على نفحات الروح.

و تبقى مهمّة " السفينة " الأولى هي مساعدة من يعيشون فيها، من معاقين ومساعديهم، على التقدّم إلى أبعد مدى ممكن، على الصعيدين الإنسانيّ والروحيّ.

ليست "السفينة" مكاناً، بل هي أسلوب عيش... إنّها فريق أشخاص عاديّين يعيشون، بكثافة، علاقات شخصيّة. إنّها اعتراف بما لديّ ولدى كلٍّ ممّن يحيقون بي من فرادة، والتزامنا بتخطّي الحواجز التي تفصلنا لكي نستطيع، معاً، الاحتفال بالحياة. إنّها تبرز ما في حياة الجماعة من واقعيّة وصدق يتعارضان مع ما في المجتمع من مصطنع وزائف.

إنّ الحياة الجماعيّة في " السفينة " قائمة على المحبّة، والإصغاء، والمشاركة، والتواصل، وهي مدرسة حقيقيّة للنموّ في الحبّ والمسؤوليّة. إنّها ثقافة مختلفة مبنيّة على الإنجيل والتطويبات، وتتعارض مع الثقافة المحيطة، والدعاوة التجاريّة.

إنّ جماعات " السفينة " تتفرّد، ليس فقط في طريقة معالجتها لمشاكل المعاقين عقليّاً، بل، أيضاً، في طريقة ردّها على التساؤلات الملحّة التي تطال الكثيرين في عالمنا اليوم، أفراداً وأسراً، وجماعات من كلّ نوع. " السفينة " رسالة يحتاج إليها عالمنا أشدّ حاجة.

هذه الجماعات تنتشر في شتّى أصقاع العالم، وبأسلوبها الهادئ، تدعو إلى الحرّيّة سجناء عالم الفرديّة والمنافسة وضحاياه.

إنّها " ثورة حبّ وعطف " كفيلة بدرء مدّ العنف والفرقة المتدفّق على عالمنا.

و قد اعترف جان فانييه: " إنّني، أكثر فأكثر قناعة بأنّ الربّ قد استفزّ "السفينة" وقادها، عبر السنين، كي تعلن، للمجتمع والكنيسة، مكانة الشخص المعاق عقليّاً، وقيمته، ولاسيّما في هذه الحقبة من التاريخ حيث حياة المعاقين مهدّدة، وموضع تساؤل"

و يضيف جان فانييه : " علينا أن نسلم للربّ قيادنا. إنّه يسير معنا، ويواكبنا على الدرب. في " السفينة " شيءٌ من المستحيل، ألا وهو الاستمرار في العيش مع أشخاص ضعفاء، وفقراء، وقبول إزعاجهم، وتكوين جماعة معهم. إنّه لأمر لا يُطاق، ويناقض أنانيّتنا الراسخة. إنّ الحبّ لمستحيل، ولكنّ اللّه يعلن مجده بجعله المستحيل ممكناً. وفي هذا المستحيل يتجلّى الربّ، ونحن شهود لقيامته، ولحبّه الأبويّ للصغار والفقراء"

و قد أوجز قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني رسالة " السفينة " عندما خاطب، في شباط عام 1984 فريقاً من أعضاء " السفينة " قائلاً: "بوسع جماعتكم التي تحمل شعار "السفينة" أن تكون، أكثر فأكثر، دليلاً هادياً ومنيعاً للاحترام القدسيّ، والتيقّظ الصبور، والتقدّم

الإِنسانيّ، المتاحة لأولاد، ومراهقين، وكهول حدّت طاقاتِهم، منذ مطلع وجودهم، إِعاقاتٌ متنوّعة. إِنّكم تسهمون، بلا ضجيج، في "**حضارة الحبّ** "

للسفينة دعوة مسكونيّة

لا جَرَم أَنّ فكر جان فانييه وعمله متجذّران بعمق في إِيمانه المسيحيّ. ولقد حرص أبداً على أَن تكون حياته استجابة لدعوة يسوع إِلى اتّباعه، وعلى غراره، إِلى تبليغ الفقراء بشرى الخلاص. يسوع هو، لجان فانييه، الإِعلان الكامل، والذي يتعذّر تجاوزه، في تاريخ البشر، لحبّ اللّه وخلاصه.

و منذ تأسيسه للسفينة تمنّى لها جان فانييه أَن تكون جماعة مسيحيّة. وقد حرص، عند تأسيس كلّ جماعة، على التشاور مع أسقف المحلّة، وعلى الاستعانة بكاهن أَو أَكثر من أَجل تولّي خدمة الجماعة روحيّاً. وقد صرّح، في هذا السياق : " إِنّ عيش دعوة "السفينة" يقتضي تبنّي القِيَم الإِنجيليّة. وهذا يتطلّب تحوّلاً من العمق بحيث لا يكتفي بمعرفة المسيح، بل يأخذ برؤيته. وهذه الدعوة من التباين مع دعوة العالم بحيث، وحده، الروح القدس يستطيع تحقيقها فينا. ودور الكاهن، بصفته إِنساناً قريباً من كلّ فرد، وموزّعاً للأَسرار، هو التذكير الدائم ببعد حياتنا الروحيّ. وعندما يدرك الكاهن، حقّاً، موهبة الفقراء هذه، وهي معرفة تلقّي رسالة المسيح ببساطة تامّة، تصبح لديه رسالة مدهشة عليه إِبلاغها "

و شيئاً فشيئاً، تعمّقت، وترسّخت، واتّضحت مهمّة الكاهن في "السفينة "، وسيم كهنة مهمّتهم العمل في " السفينة "، وهم يلعبون في توجّهات جماعاتها دوراً جوهريّاً؛ وقد يحتلّ بعضهم مقاعد في مجالسها، ولكنّ مهمّة معظمهم خفيّة، وتتمثّل في توفير الخدمة الروحيّة للأَفراد وللجماعة.

و لكن، منذ الأَيّام الأولى، تبيّن جان فانييه ضرورة الامتناع عن فرض أَيّ التزام بدينٍ معيّن، أو بممارسة طقوس. إِذ سرعان ما اتّضح له أَنّ تلك ليست أولويّة رفائيل وفيليب، اللّذين كانا يحتاجان، في المقام الأوّل، إِلى الصداقة والشعور بالأَمان، وبالتالي لم يكن العنصر الدينيّ في أَساس الجماعات كلّها، وقد افتقر العديد منها إِلى مرشد روحيّ.

إِلاّ أَنّ معايشة المعاقين لا تتيسّر إِلاّ لمن أَفعمت نفسه روح التطويبات، وسانده الروح، فالمقيمون في " السفنية " يستجيبون لنداء المعاقين، ولتعطّشهم إِلى التواصل، القريب جدّاً من "أمور اللّه"، سواء وعوا ذلك أَم لم يعوه. وقد يعيش التطويبات غير مسيحيّين، من أَمثال غاندي، خيراً ممّا يعيشها عموم المسيحيّين.

و بدا، أَيضاً، أَنّ الاتّصال بالمعاقين يُشرع القلوب على الصلاة، التي بدت ضرورة جوهريّة. وسرعان ما اتّضح، حتّى للجماعات التي كانت تولي الكفاءة المهنيّة والجدوى العلاجيّة الأولويّة، أَنّها لن تقوى على الاستمرار في مهمّتها إِلاّ بالنهل المطّرد من ينابيع الروح، فأفردت أَماكن للصلاة، وفسحات للتأمّل.

و كان الحبّ الذي يحدو جان فانييه شموليّاً، لا تفرقة فيه ولا تمييز؛ وهو الذي أعلن: "إِنّ ثقتي تزداد، أكثر فأكثر، في النور الذي يتألّق في كلّ كائن بشريّ، مؤمناً كان أو غير مؤمن. أَجل، في هذا الولد المحطّم يتألّق نور؛ وفي هذا السجين قلبٌ يخفق؛ وفي هذه المرأة التي وقعت ضحيّة الدعارة، ثمّة عطش إِلى الحياة؛ وفي هذا الرجل الغنيّ الجشع، المتعطّش إِلى السلطة، يكمن طهر طفل؛ وفي هذا الشابّ الذي يحتضر من جرّاء داء السيدا، يتوهّج نور اللّه. في كلّ إِنسان، سواء كان محطّماً، أو قاسياً، أو متجبّراً، أو، ظاهريّاً، مغلقاً دون اللّه، وخاطئاً، ثمّة نبع حياة خفيّ متأهّب للتفجّر ".

و من جهة أُخرى، لأَنّ " السفينة " تبتغي، في المقام الأَوّل، "العيش مع" الفقير، فهي تبرز شمول نعمة اللّه الفاعلة في كلّ إِنسان، أَيّةً كانت انتماءاته الدينيّة، والثقافيّة، وإِعاقاته الجسديّة، والفكريّة، والاجتماعيّة.

على غرار سفينة نوح التي مثّلت عهداً أَبديّاً بين اللّه وكلّ كائن حيّ، اكتشفت "السفينة"، وهي تنمو، رسالة الفقير العالميّة. نشأت كاثوليكيّة، ولكنّها سرعان ما استقبلت، في أَحضانها، غير مؤمنين. ثمّ أَسّست جماعات مسكونيّة يشترك فيها كاثوليكيّون وبروتستانتيّون؛ ثمّ إِنّها ضمّت، في الهند، وفي أفريقيا، وفي الشرق الأوسط، جنباً إِلى جنب، مسيحيّين، وهندوسيّين، ومسلمين، تعلّموا العيش المشترك مع المعاق والفقير. لم تستهدف " السفينة " هذه الرسالة المتعدّدة المذاهب، أَصلاً، ولكنّها مُنحتها، كهبة، بفضل المعاقين الذين خدمتهم.

و اتّضح أَنّ الفقير – بالمعنى الواسع للكلمة – هو مصدر شفاءٍ، ونموّ، وخلاص لكلّ إِنسان، سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن، وذلك لأَنّ اللّه حاضر في قلب كلّ إِنسان، وإِن لم يؤمن البعض بهذا الحضور.

و للخلاص وجهان : أوّلهما اكتشاف الجمال، والطيبة، والنور، الكامنة في كلّ إِنسان؛ وثانيهما الاندماج في حبّ جراح الأَجساد، والقلوب المحطّمة، لدى كلّ إِنسان، والتي تعجز عن إِخفاء جمال خالقها. وفي هذا الصدد يقول جان فانييه : " لدى كلّ كائن بشريّ شيء رائع ومضيء... وجماعات " السفينة " حريصة على أَن تكون المكان الذي يتفجّر فيه كلّ ما هو ثمين وجميل في الكائن البشريّ... البشريّة واحدة، وجميعنا أَعضاء الجنس البشريّ الواحد. ومهما تباينت ثقافاتنا، وأَجناسنا، ومعوّقاتنا، إِلاّ أَنّنا، جميعاً، بشر، وإِخوة وأَخوات. والبشريّة تعني، أوّلاً، أَنّ في كلّ كائن بشريّ، ولو جهل ذلك، نبعاً ينتظر أَن يتحرّر كي يروي عالماً يئنّ من الجفاف، وأَنّ وراء الكثير من الخوف، يخفق قلب، ويكمن الكائن العميق، حيث يقيم حضوراللّه". هذه الرؤية، لدى جان فانييه، مرتبطة ارتباطاً جوهريّاً بالتجسّد؛ فعلى حدّ قوله :

" مذ تجسّد الكلمة ليصير واحداً منّا، ارتبط كلّ كائن بشريّ ارتباطاً وثيقاً بيسوع. فيسوع هو واحدٌ منّا، إنّه من لحمنا، ومن جنسنا؛ إنّه أخونا البكر، أخٌ لأَصغر إنسان، وأَضعف إنسان، وحتّى لأولئك الذين يجهلون اسمه. إنّه يحبّ كلّ إنسان لأَنّه صنعة يديه، ويعيش في كلّ إنسان... هذا الإيمان هو دعوة إلى إيلاء كلّ كائن بشريّ احتراماً مطلقاً".

و حضور اللّه في كلّ إنسان لا يتجلّى فقط من خلال ما هو نيّر في كلّ إنسان، بل أيضاً، من خلال كلّ ظلّ يحجب هذا النور، أي، كلّ ضروب الجراح، والآلام، والشروخ. وفي ذلك يكمن سرّ التجسّد الأَعظم، فالكلمة، بارتدائه جسداً بشريّاً، وبارتضائه حتّى الموت على الصليب، تمثّل بكلّ فقرٍ بشريّ، لكي يجعل منه طريق خلاص :

" باتّضاعه وأَلمه، بجراحه وموته، خلّصنا يسوع، منتصراً على الخطيئة، والموت، وسلطان إبليس. لقد انتصر على العنف، لا بالفرار منه، أو بتجاهله، بل بتحويله إلى رقّة وغفران. بآلامه، وموته، وقيامته، أعلن يسوع للعالم معنىً جديداً للأَلم، والوهن، والعطوبيّة، فباتت هذه كلّها، لنا، درباً يقود إلى المجد، والتحرير، والمكان الذي نكتشف فيه اللّه... "

و لاريب أَنّ التعمّق في مفهوم التجسّد، يساعد المسيحيّين على المضيّ قُدُماً في خدمة الفقراء والمعاقين؛ وخدمة هؤلاء كفيلة بأَن تصبح عامل وحدة، وحدة الذات، ووحدة الكنائس، ووحدة المؤمنين من كلّ الأَديان، والوحدة بين المؤمنين، وغير المؤمنين، فلدى الفقير قدرة على أَن يعلن لنا فقرنا الخاصّ، وأَن يجعلنا نكبر في التواضع، وقبول الآخر المختلف والغريب، في معزلٍ عن أَيّ شعور بالتفوّق، أو أَيّة نزعة إلى المنافسة.

إنّ تجربة التواصل مع أَشخاص معاقين هي عامل وحدةٍ عميقة، ففي كلّ الجماعات المبنيّة على التطوبيات ثمّة وحدة تجمع كلّ من اجتذبتهم أَقوال العظة على الجبل. ولدى المعاقين قدرة خاصّة على تجاهل الحواجز التي قد يقيمها تعدّد الانتماءات المذهبيّة. وهم قلّما يتحسّسون من كون الكنيسة كاثوليكيّة أو أنكليكانيّة، ولكنّهم شديدو التحسّس لما يلمسونه فيها من إيمان وحبّ. فهم عندما كانوا يستمعون إلى مواعظ الأَب توما، كانت نبرة صوته أَبلغ أَثراً فيهم من معارفه اللاهوتيّة. وربّما كانوا تأثّروا الأَثر عينه بأَيّ صوت مماثل، أَيّة كانت اللغة التي يتحدّث بها.

و في هذا السياق قال جان فانييه: "إنّ ما يعلنه لاهوت المسكونيّة رائع، ولكنّنا لسنا، في " السفينة " لكي نعلن مبادئ لاهوتيّة، بل لكي نترجم الأَفكار إلى أَفعال". وقد جهدت "السفينة" في عيش الوحدة والتواصل، عبر المشاغل اليوميّة، وبمساعدة المعاقين أَنفسهم.

الجميع في " السفينة " يعدّون امتيازاً عيشهم مع الفقراء، ويتوسّمون في هؤلاء سبيلاً نحو الوحدة. ومن اليسير على كلّ من أَشرع قلبه وفكره تبيُّن العلاقة السرّيّة الماثلة، أَبداً،

بين جسد المسيح المكسور على الهيكل، وأَجساد المعاقين المحطّمة. وقد صرّحت كريسي سادلير في هذا السياق : " بعيشي في نانديي بازار، اكتشفتُ، مع كرّ الأَيّام، أَنّني كنت أَحمل في أَعماق قلبي، مع عطشي إِلى اللّه، عطش كلٍّ منّا، وبقدر ما كنّا نوغل في صيرورتنا جسداً واحداً، كنت أَسمع، في داخلي، " أَنّة الوجود الكبرى "

فلا بدعَ، بالتالي، إِن ضمّت " السفينة " جماعات شديدة التباين، لا يتّصف أَفرادها بنمط واحد من الروحانيّة، بل هم رجالٌ ونساء قادمون من كلّ أُفق، منهم الأَتقياء وغير الأَتقياء، منهم التقدّميّون والتقليديّون، ولكنّهم، جميعهم، موسومون، في أغوار كيانهم، وبأشكال مختلفة، بالإِعاقات. بعضهم يؤمنون بعمق، وبعضهم يتلمّسون دربهم في عتمة الليل. بعضهم جاؤوا بدافع اجتماعيّ، وبعضهم يبتغون مجرّد الصلاة، ولكنّهم يلتقون، جميعهم، في اندفاع جمّ، يحملهم نحو حبٍّ أكبر، ونحو مزيدٍ من الاهتمام بالآخرين. وفي تلك الأَثناء، يقودهم الروح، برفق، من خلال الدموع والضحكات.

و تتجلّى الوحدة، في التعدّديّة، من خلال تعدّد الصلوات، فقبل الغذاء في مركز كونياك، وبعد العشاء في تروسلي، وقبل العشاء في المركز الرئيسيّ في كندا، وفي الصباح الباكر، أو عند الغروب في قاعة الصلاة في الهند، تلتئم جماعات " السفينة " للصلاة. وقد تكون الصلاة تلاوة أو ترتيلاً، وهي، في الغالب، دعاء تلقائيّ، أو صلاة تقليديّة، أو صمت، في معزلٍ عن أَيّة صيغة مقرّرة. ولكنّها غير مفروضة على أَحد، ولا يشترك فيها من لا يرغب في الاشتراك، لأَنّ الجميع ينعمون بحرّيّة أبناء اللّه، وهذا أَمرٌ رائع حقّاً. وقد يشترك فيها مسيحيّون من كنائس مختلفة، ومسيحيّون مع غير مسيحيّين.

ففي " السفينة " كلّ فرد مدعوّ إِلى العثور على دربه الخاصّ، في ما يتعلّق بالصلاة، والتواصل مع الربّ. وكلّ فرد يُشجَّع على الانفتاح على الآخرين في حياة أَخويّة، قوامها المشاركة والاستقبال، والطيبة، والصفح.

و في هذا السياق يقول جان فانييه : " إِنّ التنوّع ثروة، والمهمّ هو خلق مجال حياة، حيث يستطيع كلّ فرد النموّ وفقاً لوتيرته الخاصّة في الحبّ والسلام الداخليّ. لقد استقبلنا، في مختلف أَرجاء المسكونة، معاقين عقليّاً، لأَنّهم كانوا يعانون النبذ، لا لأَنّهم كانوا ينتمون إِلى مذهبٍ دينيّ معيّن. وقد دفعنا ذلك على درب المسكونيّة والمشاركة بين الأَديان. وبما أَنّ "السفينة" تأبى أَن تكون معزولة، فهي تدعو كلاًّ من أَعضائها إِلى الاندماج، وفقاً لرغباته وطاقاته، في كنيسته، أو في تقاليده الدينيّة الخاصّة.

" وبمحاولتها الاهتمام باحتياجات كلٍّ من أعضائها، الإِنسانيّة والروحيّة، ولجت "السفينة"، تدريجيّاً، في مخطّط اللّه الوحدويّ : وحدة البشريّة جمعاء، ووحدة جميع المسيحيّين. إِنّ يسوع في عطشٍ إِلى أَن يكون الجميع واحداً، مثلما هو والآب واحد.

فالانقسامات التي تنقلب سحقاً، وضغينة وحروباً، تجرح قلب الربّ. والمعاقون يرشــدوننا إلى درب الوحدة، التي هي استضافة، ومصالحة، وصفح.

" وعندما وُلدت جماعات " السفينة " في بلدان إسلاميّة أو هندوسيّة، تبيّنتُ أَنّ دموع أمٍّ وآلامها، أمام ابنها المعاق، هي، هي، أَيّة كانت ديانة الأَمّ. إنّنا ننتمي، جميعنا، إلــى إنسانيّة مشتركة، ولنا قلب قادر على منح الحبّ وتلقّيه، وبوسعنا، جميعاً، النموّ في الحبّ، بانعتاقنا، تدريجيّاً، من السجون التي نزجّ فيها ذواتنا "

" دعوة الوحدة هذه كثيرة الاقتضاء، وتفترض قلباً ناضجاً كفيلاً باســتقبال الآخــر، واحترامه في إيمانه الخاصّ، وباكتشاف كلّ ما يجمعنا، في ما يتخطّى خلافاتنا؛ ولا يمسي ذلك ممكناً إلاّ عندما نكون راسخين، بعمق، في حبّ اللّه، وإلاّ إذ قابلنا قلب الآخر باحترام وحبّ ".

و يوجز جان فانييه تقييمه لمسكونيّة " السفينة "، بقوله :

" لقد كان تأسيس جماعات مسكونيّة متعدّدة المذاهب، إغناءً عظيماً للســفينة. فقــد اكتشفنا كيف يعمل روح اللّه في قلوب العديد من رجالٍ ونساءٍ ينتمون إلى ثقافات متنوّعــة. واكتشفنا كم يستطيع أَن يكون الإنسان الفقير، البائس، منبع وحدة ".

و لكنّ الوحدة لا تلغي التباين، ولا هي الاقتصار على القاسم المشترك الأَدنى، بــل هي دعوة إلى كلّ فرد لكي يُعمّق تميّزه، ويحبّ ما هو مختلف. وستتعذّر معرفة ما يجمــع وما يميّز ما لم يدرك كلّ فرد هويّته.

و لئن كانت، ثمّة، أَسباب عقائديّة تحول دون وحدة الكنائس والأَديان، فلــيس مــا يحـــول دون وحـــدتها علـــى حـــبّ المعـــاق، وخدمـــة المحـــروم.

ومضات من " السفينة " : نموّ المعاقين وازدهارهم

يتحدّث جان فانييه عن جرحَيْن لدى المتخلّفين عقليّاً : جرح عضـــويّ، جينـــيّ، أو ناجم عن خلَل ولاديّ، وجرح آخر أشدّ خطورة، وأَبلغ إِيلاماً: النبذ. وأَحد وجوه هذا النبذ عجز المعاق عن الظفر بعمل.

و لكن على نقيض الكثيرين من المعاقين الراسفين في بطالة مريعة، والذين يظلّـــون منتحين جانباً قصيّاً، قابعين أو متأرجحين، يعمل نزلاء " السفينة " لقاء راتب ضئيل، وتُعهد إِليهم مهامّ بسيطة في ميدان البناء، والتزيين، وأعمال الحديـــد، والســـيراميك، والتجليـــد، والطهو، والأعمال المنزليّة.

أَحد أَقسى العوائق التي تعترضهم، بادئ الأمـــر، افتقـــارهم إِلـــى الثقـــة بأَنفســـهم وبالآخرين. فلطالما قيل لهم، بصيَغٍ مختلفة : " إِنّك عاجز، وهذا العمل عسير عليك ".

و شيئاً فشيئاً، بفضل العمل، وبفضل ثقة المساعدين في قدرتهم على النموّ، تتفـــتّح الوردة ويتحقّق الازدهار.

جان كلود

و يضيف جان فانييه : " أعتقد أَنّ لكلِّ إِنسان موهبة ســـامية خاصّـــة، حتّـــى لـــدى المعاقين إِعاقة سحيقة، فهم قادرون على أَفعال رائعة. وتقتصر مهمّتنا على أَن نبـــيّن لهـــم الأُمور المدهشة التي يقوون على أَدائها، ويضرب مثالاً " جان كلود "، فيقول :

" جان كلود رائع؛ وينبغي أَلاّ نتوقّع منه النهوض إِلاّ بمهامّ طفيفة مع أَنّه في الثلاثين من عمره. بيد أَنّ له، في ميدان التسلية، مهمّة خطيرة الشأن، فهو الذي ينهض في أَثنـــاء الطعام، ويتلفّظ بخطابات تشيع المرح في الجميع.

و هذا يستأهل أَن نساعده على تبيّن قدره، لعلّه يعي رسالته في الجماعة. فنقول له : " إِنّك، حقّاً، إِنسان طيّب، ونحن في حاجة إِليك في الجماعة، فأنت تُضحك الجميع. قلّمـــا يتمتّع آخرون بمثل بشاشتك. وعندما تحزن، يحزن الجميع ".

و شيئاً فشيئاً، يعي موهبته الخاصّة، ويشرع يدرك أَنّه ضروريّ حقّـــاً، وأَنّ عليـــه لعب دور توفير الرجاء والفرح للناس. وهذا الدور لا نستطيع دائماً اكتشـــافه منـــذ الوهلـــة الأولى، بل قد تمرّ سنتان أو ثلاث سنوات، قبل أَن نكتشف مواهب بعضهم، داخل الجماعة "

ثورة نوربير

يوم ثار نوربير، في مركز " النبع الصغير "، كان يوم فرحٍ للمساعدين العاملين معه. فقد كان نوربير خجولاً إلى حدٍّ بعيد. وُلد متخلّفاً، وعامله ذووه دائماً على أنّه صغيرٌ، واهٍ، عاجز عن أيّ عمل. وكان التحاقه بالسفينة شاقّاً، إذ أَلِف أن ينتحي زاوية، ووجهه إلى الحائط، أو كان يتوغّل في الغابة، على درّاجته، كي ينعم بالوحدة. وبما أنّ لكلّ فردٍ في "السفينة" مهمّته الخاصّة، علّموه إعداد المائدة، وعدّ الأطباق والشوك، وقد اضطلع بهذه المهمّة، طوال ثلاث سنوات، بأمانة، وعلى خير وجه، ولم يتذمّر، ولم يتقاعس، يوماً. ولكنّه، ذات مساء، لم يظهر في موعد العشاء، وبعد انتظار طويل، قصدت المساعدة اليزابيت غرفته، فأجابها: "لا، لن أقوم إلى الأبد بهذه المهمّة!". وأوضحت له اليزابيت كيف أنّ لكلّ فردٍ مسؤوليّاته. وإن هو لم يكن راضياً عن إعداد المائدة، فما عليه سوى إبلاغ المسؤولة، كي تقوم بالتعديل اللازم.

و هذا ما قام به، فعلاً، في اليوم التالي. وقد بات سعيداً بغسل الأطباق كلّ مساء. وابتهج المساعدون، فللمرّة الأولى أكّد نوربير ذاته، وكانت تلك مرحلةً في حياته.

نزهة

يوم عيد الفصح، هذه السنة، دفع بعض أعضاء " السفينة "، بمناكبهم، حافلة الجماعة كي يساعدوها على الانطلاق؛ ومضينا في نزهة. وقد احتفلنا، وألقينا الخطابات، وغنّينا، ورقصنا في الهواء الطلق، ثمّ التأمنا للاحتفال بالقدّاس.

و لمّا حان موعد المناولة، شرع معظم الموجودين ينتظمون في صفٍّ أمام الهيكل. ولمّا اتّخذ كلّ فرد مكانه، صاح "جان ميشيل"، بحيث سمعه الجميع: "قابليّة طيّبة، وهنيئاً لكم بالله! "

ثمّ في الساعة العاشرة والنصف، ليلاً، وقُبيل وصولنا، عائدين إلى المركز، تعطّلت الحافلة في قلب غابة كومبيني. كان الليل دامس السواد، ووقعنا في حرجٍ كثيف، عندما انحدرنا من الحافلة، وشرعنا نتسلّق الهضاب، بعيداً عن مدى مصابيح السيّارة. وتضاعفت المتعة، إذ راح البعض يجرون، ويتوارون عند جانب الطريق، ثمّ يقفزون من

داخل الغابة، ويخيفوننا حتّى الموت. ووسط الصيحات سمعنا نداءً يدعونا إِلى دفع الحافلة إِلى أَعلى المنحدر، وفي غضون لحظات استعدنا أَماكننا، وانطلقنا إِلى بيتنا فرحين.

ميشيل

ميشيل، المقيم في مركز " الفال "، يعاني قصوراً عقليّاً، غير أَنّ معاناته الكبرى ناجمة عن تشوّه جسديّ، ولطالما تألّم من نبذ الآخرين له.

و لكنّه والأَب توما صديقان حميمان، وقد أسدى له الأَب مؤازرة كبرى على تخطّي عاقاته. وذات يوم أَحد، قاطع الصلاة الجماعيّة، بصوت متردّد، هاتفاً : " ساعدني، يارب، على أَن أَقبل ذاتي، كما أَنا ".

خبرة جان فانييه مع الصغار والمتألّمين

اللّه يتجلّى في الصغار

يروي جان فانييه:

"استطاع أعضاء من جماعتنا المثول إِلى لورد برفقة حجّ رعويّ؛ وذات يوم، التقينا بالأُسقف وببعض أَفراد الرعيّة، في مُصلّى صغير. وعندما همّ الأُسقف بالمشـــاركة معنـــا، نهض جان كلود، وهو، وفق التعبير العلميّ، موغوليّ؛ وطيلة ربع ساعة حدّثنا عن يسوع وعن فقر برناديت وعن الصلاة. كان الروح يتجلّى، حقّاً، من خلاله، تجلّياً مؤثّراً جـداً. وقد أصغى إِليه، بصمتٍ سحيق، كثيرون من أَفراد الرعيّة، الذين لم يكن لهم علم بجماعتنـــا، والذين ظنّوا، دائماً، أَنّ أَشخاصاً من أَمثال جان كلود جديرون بالرثاء، أو بأَن تُغدَق عليهم الحلوى فحسب. وقد تبيّنوا، فجأة، أَنّ جان كلود، عندما كان يحدّثهم عـــن يســـوع وعـــن الصليب، كان يمتلك شيئاً يفتقرون هم إِليه.

و تخطر ببالي امرأة سوداء في الثمانين من عمرها كانت تعيش وحيدة في أَحد أَحياء كليفلاند (في أميركا)، وعِدْتُها، إِذ كانت معتلّة وتتقيّأ طيلة النهار، فقالت لي : " يا بنـــيّ، إِنّني أَسير معه منذ أَربعين عاماً؛ وما انفككت أَسير معه". وقد اتّضحت صحّة قولهـــا مـــن عينيها المتأَلّقتين، ومن شيء كان يُشعّ من محيّاها. وفيما كنت أَتأمّلها، وقد أَدهشني جمالها، أغرقتْ في الضحك قائلةً : " لا ريب أَنّه يرى اللّه فيّ ". وكان ذلك صحيحاً، فقد كان اللّـــه يقيم في تلك العجوز الضئيلة الملتوية، والتي كانت معتلّة طيلة النهار.

إِنّ اللّه يعتلن للصغار، وللمجروجين، ولكـــلٍّ منّـــا، بقـــدر مـــا نتقبّـــل الصـــغار والمجروحين، وهو يحرّرنا من سجن أَنانيّاتنا، ورفاهنا، ومن التقاليد التي تحول دون عيشنا أَحراراً، وبالأَحرى، أَبناءً للّه.

ثمّة تواضع مدهش لدى الكثيرين من الأَشخاص المجروحين، سواء كـــانوا معـــاقين عقليّاً أَو جسديّاً، ولدى رجال ونساء مسجونين قد يقصدوننا طالبين أَن نصلّي لكي يزول كلّ حقد من قلوبهم. وهذا يذكّرني بأَبريل، وهي امرأة سوداء جميلة جدّاً قابلتها في أَحد ســـجون كليفلاند. وقد جاءتني ملتمسةً الصلاة لكيلا ترسل إِلى سجنٍ معيّن، مشهور بالقسوة البالغـــة السائدة بين السجينات أَنفسهنّ، وبينهنّ وبين الإِدارة. وأَجبتها بأَنّه قد يكون عسيراً علـــيّ أَن أُصلّي لكيلا ترسل إِلى ذلك السجن، وأَنّ كلّ ما كنت أَستطيع طلبه هو أَن تتلقّى من القـــوّة، والنور، والحبّ، ما يمكّنها من إِشعاع الحبّ حيثما وُجدتْ. وحينئذٍ، إِذا ما أرسلت إِلى ذلك السجن، سيكون بوسعها تزويد النساء الموجودات فيه، والمحتاجات إِليها، بالعزاء والقـــوّة.

وأوضحت لها : " إِن لم يشخص إِلى هناك أَمثالك، فمن سيضفي السلام والقوّة على أولئـك النسوة ؟ " وسألتها هل أستطيع الصلاة لكي تمضي إِلى حيث يريد لهـا يسـوع أَن تمضـي، ولكي تكون منبع رجاء للآخرين حيثما حلّت، فأجابت : " أجل ". قالتهـا بحرّيّـة كبـرى، وشعرت أَنّها ستكون نبع سلام رائع في ذلك السجن، إِن هي أُرسلت إِليه. كان، ثمّة، شيءٌ بـالغ الجمـال فيهـا : تواضـعها المغـرق فـي البسـاطة.

المساعدون

منذ البدء أَكّد جان فانييه على ضرورة " العيش مع " المعاقين، وكلّ ما ينجم عنه من تضحيات صغيرة وخفيّة، ولكنّها كثيرة الإزعاج، كحال مساعد قرّر الإيواء إِلى فراشه في ساعة متأخّرة من الليل، عقب نهار حافل بالتعب، وإِذا بأَحد المعاقين، بعد أَن تجاهله طيلة النهار، يأتي ويقرع بابه، ويجلس إِلى جانب سريره، ولا تخامره أَيّة رغبة بالانصراف.

المساعدون يقدمون بدوافع شديدة التباين. فربّما اجتذبتهم فكرة الجماعة، والرغبة في مدّ يد العون إِلى المعاقين، أو تأثّروا بشخصيّة جان فانييه أو الأَب توما؛ أو طالعوا كتباً عن "السفينة"، واعتزموا أَن يختبروا بأَنفسهم. وربّما حطّوا الرحال مصادفة، اعتراضاً على أمور، أو بحثاً عن أمورٍ أُخرى لا يقوون على تحديدها بوضوح. والبعض جاؤوا يلتمسون في "السفينة " شيئاً من الأمان بعد أَن أخفقوا في العثور على عمل يضمن لهم وسائل العيش. وآخرون جاؤوا بأفكار محدّدة عمّا ينوون عيشه في " السفينة "، وهم يجهلون ما سيسفر عنه الواقع. جاؤوا لقضاء أسبوع فمكثوا العمر كلّه؛ أو جاؤوا بغية المكوث إِلى الأَبد، ورحلوا قبل مضيّ شهر واحد. بعضهم من أَبناء البلد، وبعضهم قدموا من أَقاصي المسكونة، وتعرّضوا، في بلدان مثل الهند، للحمّيات، والإِسهالات، والمضايقات المتعدّدة، فهم لا يمتلكون، للاستحمام، سوى دلو أو دلوين من الماء، وللطعام، سوى ثلاث وجبات من الفاصولياء.

لقد لوحظ، منذ أوّل عهد " السفينة " كم هو عسير على العديد من المساعدين الشبّان الالتزام بحياة جماعيّة، تختلف كثيراً عن إِقامةٍ تجريبيّة مؤقّتة لبضعة أَشهر أو بضع سنوات. فالتجاسر على الارتباط الدائم بجماعة يقتضي تربية إِنسانيّة كثيفة، وأَن يكون المساعد قد التقى، في حياته، من يمثّلون نماذج التزامات دائمة موفّقة ومزدهرة، وظفر بتوازن إِنسانيّ وروحيّ في أَحضان الجماعة، وشعر أَنّه نما داخليّاً، وأُحبِّ، وقُدِّر.

منذ البدء كانت " السفينة " تحدّياً عندما ابتغت أَن تكون، معاً، مؤسّسة، وجماعة إِنسانيّة :

مؤسّسة تتوخّى أَن تتّصف بالكفاءة المهنيّة في أسلوب معالجتها ومساعدتها المعاقين على إِصابة توازن إِنسانيّ، وتنمية كلّ طاقاتهم؛ وجماعة إِنسانيّة حيث الجميع، من معاقين ومساعدين، يرتطبون بعلاقات صداقة، ويعيشون، فيما بينهم، تواصلاً حميماً.

عموماً تقوم المؤسّسة على أَساسٍ تراتبيّ، فينعم المسؤولون الرفيعون برواتب رفيعة؛ وثمّة معاهدات جماعيّة تحدّد المسؤوليّات والامتيازات وسلّم الرواتب، وحيث النقابات وقوانين

العمل تحمي كلّ فرد. كلّ ذلك جيّد ومفيد، ولكنّه لا يشجّع الحياة الجماعيّة، ولا العلاقات الدائمة بين الأَشخاص.

أَمّا " السفينة "، فبإعلانها عن رؤية جماعيّة، هي مضطرّة إِلى العثور على وسيلة أُخرى في تحديد الرواتب، ومن ثمّ يتلقّى الجميع الراتب عينه، ما عدا الأَشخاص المتزوّجين الذين يتعيّن عليهم بناء أَماكن سكنهم أو استئجارها. ومن جهة أُخرى يُعيَّن المسؤولون لمدَدٍ محدودة، لا تتعدّى، عامّة، أربع سنوات؛ وبعد ذلك قد يُدعون للعمل على اتّصال مباشر بالمعاقين. وإِنّ، في ذلك، منطقاً يرتضيه الجميع طوعاً. فوفقاً لرؤية "السفينة"، ثمّة قسطٌ أَوفر من إِنسانيّة في العمل إِلى جانب المستضعفين، وفي العيش على تواصل حميم معهم، من العمل في الإِدارة بسمؤوليّات أوسع، ورواتب أَرفع. وكلّ فرد مدعوّ إِلى خدمة الجماعة وفقاً لمواهبه وطاقاته. وكلّ فرد يختار الجماعة التي يودّ العمل فيها مع كلّ ما توفّره من مكاسب وحرمان، مؤثراً ذلك على عمل في مؤسّسة تراتبيّة ينطوي على امتيازات ومحاذير.

كثيرون يقدمون إِلى " السفنة " بحثاً عن دربهم، وهم، على غرار الكثيرين من شبّان حقبتنا، يعانون هشاشة عاطفيّة، وتحدوهم رغبة في الالتزام بكفاحٍ من أَجل عالم أَفضل، فالهشاشة تتماشى، غالباً، مع نوعٍ من المثاليّة، ولكنّهم عندما يعيشون في جماعة يُلهمها إِيمانٌ مسيحيّ، مع أَشخاص معاقين، تتأثّر قلوبهم، فيتقوّون داخليّاً، ويعثرون على دافع قويّ لحياتهم، فاتّصالهم بكائن معاقٍ ذهنيّاً، وبفقره، وثقته، والتماسه الحبّ، يوقظ قلوبهم، ويدعوهم إِلى معاهدة معه تقتضي بذل حياتهم في الوفاء.

كثيرون من المساعدين يقدمون إِلى " السفينة "، تجتذبهم حياتنا الجماعيّة التي تلهمها التطويبات، وعلاقتنا بالمعاقين ذهنيّاً. وتكون فترة إِقامتهم الأولى معنا فترة ازدهار، إِذ يكتشفون إِخاءً حقيقيّاً، ويتبيّنون، في داخلهم، جمّاً من الطاقات التي كانت كمينة؛ ثمّ يلمسون محدوديّتهم ومحدوديّة الجماعة، ويعهدون، آنذاك، فترة الامتحان. وغالباً ما يكتشفون، حينذاك، حجم الصلاة، ويعثرون، في أَعماق ذواتهم، على حضور اللّه، وعلى دعوة العيش مع يسوع في الفقير؛ ويعيشون خبرة إِيمان تُحدث فيهم تبدّلاً عميقاً، إِذ يتجلّى لهم أَنّهم، من أَجل عيش معاهدة مع الفقير، يحتاجون حاجة مطلقة إِلى يسوع، وإِلى الصلاة، وإِلى التغذّي بكلمة اللّه وجسد يسوع، وإِلى مواكبة كاهن، أو أَحد شهود اللّه، على دروب الحقّ.

إِنّ مأساة العديدين من الشبّان تثوي في هشاشتهم العاطفيّة. فقلوبهم حافلة بطاقات الحبّ، وحدسُهم ثاقب، فهم يرون بوضوح ما يعجّ به عالمنا، والعديد من الحركات السياسيّة والمنظّمات الاجتماعيّة، فيودّون أَن يسبغوا على حياتهم قيمة أَكيدة؛ ويودّون الالتزام، ولكنّهم يتساءلون أَين يلتزمون ؟ يستشعرون هشاشتهم حيال القوى التي تقود المجتمع والعالم،

وحاجتهم إلى شهودٍ يشدّون من عضدهم، ويساعدونهم على التمكّن من القوّة التي تؤهّلهم لالتزام دائم، وقلّما يعثرون على مثل هؤلاء الشهود. وعندما يسبرون البون بين هشاشتهم ومُثُلهم يهوون إلى الإحباط، بل إلى اليأس أحياناً. وقد يوافي شبّان " السفينة " التماساً لملجأ، أو بحثاً عن مهرب في عالم الروح. وقد يحتاج بعضهم إلى سندٍ نفسيّ حقيقيّ لكي يستطيعوا التجذّر. أمّا الذين يجدون رجاءً في "السفينة "، فعليهم أن يمرّوا عبر مراحل، قد تكون موجعة، قبل أن يضربوا فيها جذوراً

المطلوب من المساعد أن يكون لديه شعور فعليّ بكرامة الشخص البشريّ، وقسطٌ كافٍ من العمق الداخليّ، بحيث يسمع " موسيقى الآخر "، ويقدّر فيه كلّ ما يمتاز به، ويحاول فهمه، ويحبّه لأَجل ذلك. غير أنّ مهمّة المساعدين الأَساسيّة هي مساعدة المعاقين بخلقهم معهم جماعة قائمة على الاحترام المتبادل، والصداقة الصاداقة.

حتّى المساعدون المهنيّون لا يقوون على الاستمرار في العمل في "السفينة"، في معزلٍ عن المجّانيّة، وعن بذلٍ للذات يتخطّى واجب الخدمة أو الكفاءات المهنيّة. فالمعاقون الذين يعيشون على مستوى عاطفيّ يقتضون ممّن يعيشون معهم مثل هذا البذل.

القادمون إلى " السفينة " يبتغون الخدمة، ولكنّهم لا يستطيعون البقاء إلاّ عندما يكتشفون فقرهم الذاتيّ. وحينئذٍ يبدأون مرحلة ثانية، فبعد فرح الخدمة، والعطاء والأَخذ، الذي قد يستمرّ أَسابيع أو أَشهراً، يعهدون بدءَ نموّهم الروحيّ. فالمعاق الذي كشف لهم "ينبوع الحبّ " الكامن فيهم، يكشف لهم، أَيضاً، وبعمقٍ لم يعهدوه حتّئذٍ، "قسوة قلبهم"، و"مخاوفهم". إنّ المعاقين يملكون قدرة رهيبة، ولكنّها رائعة، على أَن يكشفوا للمساعدين جراحهم. فالمعاقون، بما ينتابهم من سورات غضب متعاقبة، وعنف واضطراب، يبيّنون للمساعدين حدودهم، وما يثوي في أعماقهم، هم أَيضاً، من غضبٍ، واضطراب، وعنف. وقد تحدو بهم هذه التجربة المرهقة إلى التفكير بالهروب. غير أنّ قبولهم بواقعهم، واعترافهم بهشاشتهم، يضعانهم على طريق الشفاء، ويدفعانهم إلى الارتماء في أَحضان اللّه، ويكسبانهم واقعيّة وتواضعاً.

المرحلة الثانية من مسيرة المساعدين هي، إذن، اعترافهم بحدودهم، وبظلماتهم الداخليّة، وتقبّلهم عطف اللّه والآخرين، وهذا يلزمهم بأَن يكتشفوا، كلّ يوم، الفقير الثاوي في أَعماقهم، وأَنّهم يحملون، هم، أَيضاً، إعاقات نفسيّة، وروحيّة، وأَنّهم، هم، والمعاقون الذي يخدمونهم، شعب واحد.

إثر هذا الاكتشاف يدخلون في مرحلة ثالثة، هي مرحلة التجذّر التدريجيّ في التربة الجماعيّة، واعترافهم بأَنّ اللّه قد أَقام بينهم وبين يسوع والمعاقين علاقات تواصل، أي معاهدة، ويتبيّنون أَنّهم أَداة اللّه، مهمّتها الإعلان للمتألّمين عن أَنّهم محبوبون حبّاً مجّانيّاً.

ومن ثمّ يتعيّن عليهم أَلاّ يكفّوا يهبطون السلّم، ويكتشفوا حضور اللّه من خلال وَهنَ أَصدقائه، واضعين أَنفسهم في مدرسة من جاء لكي يخدم الضعيف، عـــاملين معـــه، لا مـــن أَجلـــه، ومدركين صوفيّة حياة الناصرة، عبر الوفاء للرتابة اليوميّة، في منـــأى عـــن الإِنجـــازات العظيمة، والتأَلّق.

المثال الأَسمى لهذه الحياة الخفيّة، هو العذراء التي عُنيتْ بيسوع عندما كـــان هشّـــاً عطوباً، وغسلته وأَطعمته. وعلى غرارها يلمس المساعد جسد المعاق، بحبٍّ يقرّبه من اللّه؛ وعلى غرار يوسف يسهر على ازدهار الضعيف ونموّه، في ثقةٍ ورجاء، ويسوع نفسه عاش في الخفاء، ثلاثين سنة، بعيداً عن كلّ مجدٍ ظاهر.

لن يجعل المساعد صيحة المعاق صيحته إِلاّ بمقدار اتّحاده بذاك الذي أَفرغ ذاته بحمله كلّ لا أَمان، وكلّ هشاشة، لكي يحوّلها إِلى ينابيع حياة.

الوفاء لليوميّ يغذّي ويرسّخ شعوراً بالانتماء إِلى " من هم مدوّنون في جسدي مثلما أَنا مدوّن في جسدهم؛ أَحملهم ويحملونني؛ صُنعنا أَحدنا للآخر، من التربـــة عينهـــا، ونحـــن أَعضاء جسد واحد ".

المعاهدة مع المعاق تسبق المعاهدة مع يسوع. وهكذا يصبح المعاق هو الطريق إِلى قلب يسوع، وقلب الإِنجيل، وقلب الكنيسة.

و المعاهدة تقتضي خيار نمط حياة، وانتماءً دائماً. والاختيار يقتضي حداداً وموتـــاً. ولكن عندما يهب المرءُ يسوعَ كلّ شيء، يستعيد كلّ شيء مئات أَضعاف.

اختيار يسوع هو اختيار الصليب والتجرّد. وليس السخاء البشريّ، في سبيل ذلـــك، كافياً، بل لا بدّ من دعم من أَحبّ حتّى بذل ذاته. هذا الدعم متوفّر جوهريّاً في الإِفخارستيّا. أَمّا في الجماعات المتعدّدة الطوائف، التي تتعذّر فيها الإِفخارستيّا، فيُستعاض عنهـــا بغســـل الأَرجل المتبادل.

إِنّ المساعد الذي يختار وهب حياته للسفينة يمرّ عبر عدّة مراحل "مـــوت". ولكـــن بمقدار منحه ذاته، في إِثر يسوع المصلوب، سينعم بفرح القيامة. وهذا يفضـــي بـــه إِلـــى الاحتفال.

" الاحتفال هو عمل الجماعة المتميّز، به يبتهج الأَفراد، ويشكرون للآَب أَنّه جمعهم معاً، وسهر عليهم، وأَحبّهم، فما عادوا معزولين ومسجونين في عزلتهم واستقلاليّتهم، بل باتوا جسداً واحداً، حيث لكلٍّ مكانه. الاحتفال هو هتاف الفرح المنبعث مـــن جميـــع الـــذين تعاهدوا معاً، لأَنّهم اقتيدوا من العزلة إِلى المعاهدة، ومن القنوط إِلى الرجاء".

الفرح المنبعث من الجماعة ومن أَعضائها هو فرح روح الآب والابن. والـــــ"نعـــم" الذي يُعلَن للتواصل، يتّصل بالــ" نَعَم " الأَبديّ الذي لا يكفّ يتبادله أَقانيم الثالوث.

و المساعد الذي يُسقط دفاعاته الأَخيرة لكي يلتزم بخدمة الجماعة، يتيح لحياة الروح أَن تنساب بحرّيّة من خلال أَفعاله وأَقواله. وعليه أَن يشهد بفرح القيامة أَمام العالم أَجمع.

و بالإِجمال يغمر حياة "السفينة" نور الإِنجيل، وتلهمها التطويبات.

في صفوف المساعدين طلاّب، وإكليريكيّون، وعلماء لغات، وأساتذة سابقون، ومجازون في الحقوق، وممرّضات، ومدراء مصارف، وشتّى أَنماط البشر الذين كان بوسعهم تبوّء مراكز هامّة، خارج " السفينة ". بعضهم قدموا بموافقةٍ ودعمٍ من ذويهم، وآخرون تلبيةً لنزوة كانوا واثقين من أَنّها سرعان ما ستتلاشى. قليلون قادرون على تفسيرٍ مقنع لحياة في جماعات لا صفة دينيّة لها، ولا هي مؤسّسات مختصّة بمعالجة المعاقين، ولا توفّر لهم راتباً جيّداً، ولا عملاً مضموناً. وكثيرون يعانون التناقض بين ما يعيشونه في "السفينة"، وما عهدوه من عيش من قبل.

و منذ وصولهم، عليهم تقبّل عماد النار، وعمل ما لم يألفوا قطّ مثله؛ كثيرون منهم لم تكن لهم، من قبل، أَيّة صلة بأَشخاص معاقين، فيستحوذ عليهم الخوف من جرحهم، والعجز عن فهمهم، وعدم الاستجابة لتوقّعاتهم. فضلاً عن مواجهة طائفة من التحدّيات.

حاليّاً، في معظم الجماعات، فترات اختبار، يمتحن، في أَثنائها، القادم الجديد والجماعة قدرتهما على التآلف. وهناك أَيضاً نظام مواكبة ومساندة، يُكلّف، بموجبه، مساعدٌ قديم بالإِصغاء إِلى قادم جديد وبإِرشاده. وقد بات، اليوم، في جماعات " السفينة "، ثلاثة أَنواع من المواكبة: المواكبة الوظيفيّة، بغية مساعدة القادم على حسن النهوض بالمهمّة الموكلة إِليه؛ والمواكبة الجماعيّة، التي تؤازره على التجذّر والتقدّم على درب الحبّ وعطاء الذات؛ والمواكبة الروحيّة التي يضطلّع بها كاهن أو قسّ وتساعد على اكتشاف دعوة اللّه، وتعميق حياة الصلاة والتواصل بالآب.

لم يكن الأَمر دائماً على هذا النحو، بل كان، في البدء، يُرحَّب بكلّ قادم، على غير تمييز، ويتعيّن على هذا القادم، إِلى حدٍّ بعيد، تدبّر أَموره بنفسه. ويتّفق أَن يأتي، للمساعدة، قوم يحملون جراحاً بليغةً، آتون من عالم محطّم؛ وقد تعلّمت الجماعات أَلاّ تستقبل، من هؤلاء، إِلاّ من تملك القدرة على استيعابهم ومؤاساتهم.

على المساعد أَن يكون قد تجاوز الثامنة عشرة، ولم يتخطَّ الأَربعين، إِذ إِنّه بعد هذه السنّ، يفقد المرونة والطاقة على التكيّف مع جماعة كثيرة الاقتضاء.

البعض يباشرون العمل بشيء من الغبطة والاندفاع، ثمّ يهوون إِلى التخاذل واللحظات القاتمة، ويغادرون وهم يجترّون خيبة أَملهم. وآخرون يسحرهم المعاقون

ببساطتهم، وهشاشتهم، وغناهم الروحيّ، فترتدي، في نظرهم، أوضع مهامّ الخدمة اليوميّة، مثل غسل الأطباق، متعةً فريدة.

التعب هو المشكلة الكبرى، والأكثر شيوعاً، التي تواجه المساعدين في "السفينة"، من جرّاء كثافة متطلّبات المعاقين الماديّة والعاطفيّة؛ ويزيد من التعب، في بعض الأماكن، الافتقار إلى فسحة من الخلوة، من جرّاء الازدحام، والرغبة في عدم ردع المعاقين الذين يقدمون ملتمسين نجوى في وقت يكون فيه المعاقون في أشدّ حاجة إلى الراحة والخلوة.

و قد يكون حضور الاجتماعات النظاميّة – على ضرورتها وغناها – سبب توتّر لطاقاتٍ مرهَقة. وتمثّل مسؤوليّة السُّلطة، ولا سيّما إذا كلّف بها شبّان حديثو العهد، مصدر توتّر وإرهاق. ولتفادي ذلك وُضع نظام استشاريّ، وكُلّف فريق يضمّ رئيس مجلس الإدارة، والمنسّق القطريّ، وثلاثة مساعدين تنتخبهم الجماعة، بتعيين المسؤولين. هذا الفريق يستشير المعنيّين: المعاقين، وقدامى المساعدين وجدُدهم، وقد يُستشار أسقف المنطقة، وبعدئذٍ يكلّف مجلس الإدارة المسؤول لمدّة ثلاث سنوات، وعند الضرورة يُلفَت نظره إلى مواطن ضعفه، وإلى ما يتوجّب أن يغيّر من سلوكه.

المبدأ العامّ الذي يقوم عليه نظام " السفينة " هو أنّ الفقير سيّد الموقف، وكلّ شيء يُقرَّر وفقاً لاحتياجاته. لا مكان، إذن، للتفكير الشائع، وليس الأكثر كفاءة هو دائماً الأوفر جدارة بإدارة جماعة.

إنّ العيش مع المعاقين، والإصغاء إلى احتياجاتهم، هما اللّذان يلهمان المساعدين والمسؤولين ويسهمان في حلّ ما قد ينشأ بينهم من توتّرات وخلافات.

و قد أصبحت جماعات " السفينة " مدرسة يقصدها إكليريكيّون أصابوا من علوم الفلسفة واللاهوت الكثير، ولكنّهم ما زالوا جهلة في أمور الحياة، وفي صميم الإنجيل. فيتعلّمون التواصل الصادق، ويدركون، على نحوٍ ملموس، معنى الصليب.

قد يختلف المساعدون في نواحٍ كثيرة، ولكنّ القاسم المشترك الذي يجمعهم هو قناعاتهم بنظام لا يُنبذ منه المعاقون والضعفاء، بل يستعيدون كرامتهم، ورغبتهم في الحياة.

و ليس من اليسير الاستمرار في العيش مع المعاقين على من لم يستشفّ غنى نفوسهم من خلال الأجساد المهلهلة، وغنى الحبّ من خلال وهن العقل. كثيرون من المساعدين متعطّشون إلى التواصل والمشاركة. والمعاقون، في دورهم، يصرخون بآلامهم، وهواجسهم، وبعطشهم إلى المشاركة، ممّا يؤدّي، سرّيّاً، إلى شفاءٍ متبادَل، وممّا يحمل المساعدين على المكوث في "السفينة"؛ ويثبّتهم في قصدهم هذا، يقينُهم بأنّ اللّه يحبّهم، كما هم، بجروحهم وشروخهم، مثلما يحبّ المعاقين.

يقول جان فانييه أنّه وُجد، دائماً، رجال ونساء مستعدّون للعيش ببطولة، وللرقاد على الحضيض، وللعمل ساعات طويلة، والاكتفاء بتجهيزات بدائية. ولكنّ المشاكل كانت تشرع بالبروز حالما يتعيّن العيش مع إخوة وأخوات مفروضين فرضاً، والوفاء للمهامّ الصغيرة اليوميّة. وهكذا، إثر بدايات رعتها العناية الإلهيّة، كادت بعض الجماعات تغلق أبوابها، وعهد الكثير منها توتّراتٍ ومِحَناً.

و طُرحت قضيّة اندماج " السفينة " في بلدانٍ وثقافات متباينة، وحار المسؤولون حول مواجهة قضايا عمليّة شائكة. غير أنّ القضيّة الأشدّ استعصاءً تمثّلت في تغذية روح التواصل بين أشخاصٍ متحدّرين من أوساطٍ شديدة التباين، ومدعوّين إلى العيش والنموّ معاً، وإلى تأليف جماعة.

معظم الجماعات الأولى وُلد من اتّصالٍ وثيق بين مؤسّسيها وجان فانييه. ولم تكن تلك الجماعات تتعارف، ولم يكن ما يضمن، فيما بينها، رؤيةً مشتركة، إلى أن انعقد عام 1972 اجتماعٌ ضمّ جميع مؤسّسي الجماعات، مستهدفاً توفير مزيدٍ من التعارف والوحدة فيما بينها.

و قد أرسى المجتمعون أسس ما سيُصبح اتّحاد جماعات " السفينة "، وسجّلوا رؤية "السفينة" العامّة. هذا المشروع، الذي أعيدت صياغته باطّراد، وخضع لتعديلات متعاقبة، أصبح، فيما بعد، "شريعة السفينة الدوليّة ". وشيئاً فشيئاً، تكوّن مجلس دوليّ، تولّى، فيه، جان فانيه، سنوات طويلة، دورالمنسّق المكلّف بالسهر على المؤسّسات الجديدة وإرشادها.

و على جميع المستويات الدوليّة، والقطريّة، والجماعيّة، ووسط كلّ تلك الجماعات الصغيرة من الناس الذين هجروا أوساطاً مختلفة لكي يعيشوا مع آخرين تحت سقف واحد، ويعملوا وفق رؤية جديدة للبشر، ولعلاقاتهم معهم ومع اللّه، اتّضح أنّ الهدف المنشود كان أعمق وأرهف وأبقى من مجرّد تعاون، وهو ما دعاه جان فانييه، فيما بعد، التواصل. "التواصل يقتضي وحدةً أبعد عمقاً من وحدة العمل المشترك، وتتناول الكيان ذاته، وحدة تدمّر جدران العزلة وتهب القوم شعوراً بالحرّيّة. التواصل يقتضي احتراماً عميقاً للاختلاف، وهو شديد القرب من "أشياء اللّه".

و جدير بالتنويه أنّ كثيرين من المساعدين قد بدأوا مشوارهم من تروسلي، ممّا أسهم في خلق علاقات مودّة بين مختلف الجماعات. وهذه المودّة تعزّزها وتوثّقها الزيارات المتبادلة بين الجماعات المختلفة، ورحلات الحجّ التي تنظّمها حركة " إيمان ونور " سنويّاً، وتضمّ عناصر من مختلف الجماعات، وتتمّ في جوّ احتفال فرح، يعبث فيه الجميع معاً، ويغنّون، ويرقصون، ويصلّون، في فرح الصداقة والوحدة، ولا يقف تباين اللغات حاجزاً دون تفاهمهم، إذ إنّهم ينطقون جميعهم بلغة الطفولة.

قوّة روحيّة موحِّدة تحلّ محلّ البنى المنيعة، وحضور يسوع هو الذي يهيمن على كلّ شيء.

و قد باتت جماعات " السفينة " المتعدّدة توفّر مناخات تتلاءم مع احتياجات شتّى فئات المساعدين، المتزوّجين منهم، والعازبين، والميّالين إِلى التنسّك، والذين يؤثرون الانـدماج في جماعات صغيرة، والذين يرغبون في مواصلة تحصيلهم الدراسيّ.

و لا بدّ للمساعد من دعوة إِلهيّة تمنحه القوّة على الانتقال من مجتمع قائم علـى قِـيَم السلطة، والنجاح الاجتماعيّ، والمال، وينظر إِلى الضعفاء والذين لا حَوْل لهم علـى أَنّهـم نافلون ومزعجون، إِلى جماعة قِيَمها هي قِيَم الحبّ، حيثُ الضعفاء والمحطَّمون يُسـتقبلون كأصدقاء. والصعوبة، التي تواجه المساعد، بعد تلقّيه دعوة يسوع إِلى المساهمة في عمـل حبّه، في تواصلٍ حميمٍ معه، تكمن في أن يحتفظ في قلبه بمغزى هذه الـدعوة، والرسـالة التي يتعيّن عليه أَداؤها، وألاّ يدع المهامّ اليوميّة المتعدّدة، ورغبته فـي إنجـاح "مشـروعه" الخاصّ، أو حاجته إِلى إِثبات أَمرٍ ما، تستحوذ عليه وتستأثر باهتمامه. والمشكلة تتمثّل في تحويل نشاطاتٍ يوميّة عاديّة إِلى أَمرٍ غير عاديّ، وفي التذكّر بالقدرة الدائمة على الالتفـات إِلى الآب، من خلال العمل، والأَلم، والشروخ. ولكن، على حدّ قول جان فانييه: "الالتفات نحو الآب، عندما نكون محطَّمين وجريحين، يقتضي نوعاً من النضج الإِيمانيّ..."

و في سبيل العودة إِلى النبع، وتجديد الطاقات، يُفسح لكلّ مساعد قضى أَكثـر مـن خمس سنوات في جماعات "السفينة"، ستّة أَسابيع صلاة، وتفكير، وحوار حول مواضيع مثل صرخة الفقراء، والنموّ الإِنسانيّ، وعلامات الرجاء، والسـلام فـي العـالم، والأسـرة والجماعة، ورؤية " السفينة " ودعوتها.

و قد شعر كثيرون من المساعدين الملتزمين بحاجة إِلى إِعلان التزامهم هذا. وفـي ختام رياضة روحيّة أَدارها الأب ماري دومينيك فيليب، شقيق الأَب توما، في نيسان 1978، واشترك فيها زهاء ثلاثين من المساعدين، أعربوا عن رغبتهم في ارتباطٍ رسميّ يعبّر عـن التزامهم حيال المعاقين واعتزام الوفاء له، وقد أجمعوا على الالتزام بما سـمّوه "معاهـدة"؛ وبعد أَن اشتركوا جميعهم بالإفخارستيّا، تقدّموا، واحداً فواحداً، من الكاهن، الذي كان يدعو كلاًّ باسمه ويقول له: " أَنت مدعوّ إِلى عيش معاهدة، في "السفينة"، مع يسوع، ومع إِخوتك وأخواتك، وبخاصّة الأَشدّ فقراً وضعفاً؛ فهل أَنت راغب في ذلك ؟ "

إِعلان المعاهدة هذا هو، في المقام الأَوّل، إِعلان دعوة وروحانيّة؛ وهو اعتـراف بأَنّ الفقير هو، للمساعدين، الطريق الأَمثل للولوج إِلى قلب يسوع، وقلب الإِنجيل، وبالتالي قلب الكنيسة.

ليس إعلان المعاهدة تجمّعاً على غرار الرهبانيّات والجمعيّات الدينيّة، بل هو مجرّد إعلان دعوة من يسوع لتقديم الذات له وللفقراء، من خلال الجماعة، وقول " نَعَم " لهذه الدعوة.

و قد فسّر الأَب توما إعلان المعاهدة بقوله : " إنّه لا يقتضي نذوراً، بل هو تقدمة حبّ. به يضع كلُّ فرد ذاتَه في تصرّف إله الحبّ، وإخوته الفقراء، من موقعه الخاصّ، ووفقاً لدعوته، ومواهبه، وإمكانيّاته. هذه التقدمة هي صلاة، والتماس تكريس اللّه للمساعد، وقبوله، ومدّه بالقوّة، وتطهيره من الداخل، وتقديسه عبر الاتّحاد بالحكمة الإلهيّة".

إثر إعلان المعاهدة الأوّل، رغب كثيرون من المساعدين في الالتزام به، وبات يتمّ في نهاية رياضات روحيّة، تدعى "رياضات المعاهدة "، وتعقد ثلاث أو أربع منها، كلّ سنة، في مختلف البلدان التي تضمّ مراكز للسفينة.

كثيرون من المساعدين، اليوم، يعيشون هذه المعاهدة مع الفقراء، في " السفينة "، معاهدة توثّق علاقاتهم المتبادلة، وتجعل منهم جميعاً، شعباً واحداً، "شعب المعاهدة" الموسوم بنفس الالتزام، وكثافة العلاقات، بحيث يتعارف المساعدون في جميع مراكز "السفينة" أينما وجدت، وفي ما يتخطّى الثقافات واللغات، والبلدان، والحضارات المختلفة.

و المعضلة التي تواجهها " السفينة " اليوم، هي تناقص عدد المساعدين الدائمين، ولا سيّما في البلدان الغربيّة. والقادمون الجُدد يقدمون، عموماً، لفترة لا تتعدّى السنتين، ممّا يؤدّي إلى تغييرات مطّردة تُلحق الاضطراب بالمعاقين، الذين لا يكادون يوثّقون علاقاتهم ببعض المساعدين حتّى يفقدوهم، ويضطرّوا إلى التآلف مع مساعدين جُدد. غير أَنّ العناية الإلهيّة التي جاءت دائماً إلى " السفينة " بمساعدين، لن تبخل بأَمثالهم، طالما ظلّت " السفينة " وفيّة لرسالتها ولفقرها، وفي هذا السياق يقول جان فانييه :

" برأيي، كلّ القضيّة تتمثّل في أَن نظلّ منفتحين... والوسيلة الوحيدة للكائن البشريّ أو للجماعة، كي يظلاّ منفتحين، هي الاستمرار في المضيّ قدماً، وفي اختبار اللّه، وفي اليقين بأَنّه يحبّنا مع كلّ صغرنا، وكلّ ما هو محطّم فينا".

و يعترف جان فانييه في هذا السياق : " إنّ الناس من الهشاشة بحيث أَقلع كثيرون عن المجيء إلى " السفينة ". إنّهم يحتاجون إلى مزيد من الأَمان قبل اجتياز المرحلة التالية. ربّما ما زالوا غير قادرين على عيش جنون رسالة الإنجيل، في منأى عن أَمانٍ بشريّ".

شهادات مساعدين

لا جَرم أَنّ حياة " السفينة " العميقة تتمحور حول التطويبات، فالعيش مع المعاقين ذهنيّاً، وهم الأَغنياء في ملكوت القلب، يوقظ فهماً عميقاً للقول : " طوبى للفقراء بالروح ".

و غالباً ما يكتشف المساعد الذي يُعنى بالمعاق أَنّه معاق هو نفسه، وأَنّه في حاجةٍ إِلى آخر، في حاجةٍ إِلى تأثير الحبّ السرّيّ لتحطيم قيود الأَنانيّة التي بترت قدراته على الحبّ والمشاركة، والإِنصات والاستقبال.

و في كلّ جماعة من جماعات " السفينة " يندمج المساعدون بالمعاقين، ويدعو أَحدهم الآخر، كلٌّ بما لديه من خصال وحدود، ويقبل أَحدهم الآخر، ومعاً يتقدّمون.

و ما أَكثر الشهادات التي أدلى بها مساعدون عمّا خبروه من تحوّل داخليّ!

فهذه " بام " تعترف :

" يوم انتهيت إِلى تروسلي، كنت عازمة على تحقيق أمور عظيمة. كنت أودّ بذل الكثير من الجهد، والمساعدة، والتدليل على قدراتي. وسرعان ما اكتشفت أَنّني، في الواقع، لن أقوى إِلاّ على القليل، وأَنّه لا سبيل إِلى استخدام جميع معارفي. إِذ لم يكن المعاقون يلحظون حتّى مدى مهارتي.

" وشقّ عليّ ذلك إِلى أَن تبيّنت أَنّهم مسرورون بوجودي معهم، وبمجرّد مكوثنا معاً. ما كانوا يحبّونه ليست معرفتي، بل أَنا فحسب ".

أَمّا " ميري " فهي ممرّضة. وكانت قد مكثت، حقبةً، في "السفينة "، ثمّ قصدت الولايات المتّحدة حيث اقترنت بموريس المختصّ في التربيّة، ومعه عادت إِلى فرنسا من أَجل افتتاح مركز للمصابين بإِعاقة ذهنيّة سحيقة. وهما عازمان على الشخوص إِلى أوتاوا، في كندا، من أَجل إِدارة جماعة، وقد اعترفت :

" نودّ، موريس وأَنا، اقتسام حبّنا مع آخرين، فما أروع أَن يسهم المرء في إِنماء هؤلاء القوم تدريجيّاً! فعندما هم يبتسمون، يتولاّك الشعور بأَنّهم يبعثون بك إِلى حياة جديدة. وعندما يبهظنا العمل نتضافر عليه معاً. وكلّ مساء، عندما نأوي إِلى سريرنا، نجدّد التزام زواجنا، ونصلّي معاً ".

و سئل موريس : "علامَ يبقى بعض المساعدين رغم المصاعب، ولمَ لا يغادرون ؟" فأجاب : " قد يغادر بعضهم، فالبقاء دعوة من يتطلّعون إِلى حياةٍ جماعيّة، في البساطة. وقد يحين وقت يرتضي فيه المرء بالالتزام عندما يستولي عليه نداء الحبّ ".

"ميريام" فتاة في ريعان الشباب، تجمّعت لديها كلّ مزايا الجمال والذكاء، والاندفاع، تقف قسطاً من يومها على ملاعبة "ديني" المنفّر المنظر، المهلهل السلوك، المفعم خوفاً واضطراباً، وعنفاً. إنّها تجهد في استيعاب قلقه، وفي ترويض عنفه بالعطف والمحبّة، وتدعوه إلى ملء الحياة. وهو، في حاجته إليها وإلى حبّها، يدعوها، بدوره، إلى ملء الحياة. إنّه أعزل، بلا دفاع، ومن ثمّ تستطيع، إزاءه، التخلّي عن نظام دفاعها، وأن تكون أكثر انفتاحاً، وشفافيّة، بل أن تكون هي نفسها. علاقتها معه، مثل كلّ علاقة بشريّة، قد تكون دعوة إلى الحياة، أو دفعاً نحو الموت والعزلة، والاضطراب. هذه العلاقة تحملها على الاستغراق في حياة داخليّة تعمّق ينابيع السلام في داخلها كي تكون للآخرين معين سلام، وعلى الاندفاع إلى الخارج، لمواجهة عالمٍ مُشبَع بالعنف، يحتاج أشدّ حاجة إلى من يشيعون السلام، أفراداً وجماعات.

و قد اعترف أحد المساعدين:

" من الجليّ أنّ جماعات " السفينة " قائمة على علاقة قلب وثقة بين أشخاصٍ معاقين، وآخرين اختاروا العيش معهم. إنّ وجهَيْ مارك وألبير المشرقَيْن الباسمَيْن، يؤثّران فيّ تأثيراً بليغاً. إنّ ثقتهما تجتذبني وتوقظ في قلبي طاقات جديدة؛ فلا أُريد ولا أستطيع تخييب أملهما. إنّهما مثل مرساةٍ لي، يدعواني إلى الأمانة لنفسي، والمثابرة، وإلى ألاّ أستسلم لغواية السلطة، والشهرة والطموح؛ إنّنا نعيش معاهدةً هي هبةٌ من اللّه؛ وأظنّ أنّ كلّ مساعد يأتي إلى " السفينة " يعيش التجربة عينها، فالشخص الضعيف يقودنا إلى أعمق ما فينا.

"وقد تعلّمت، أيضاً، في " السفينة " الفرح والثقة المتبادَلين بين المساعدين؛ فما أطيب العيش، سنين طويلة، بين العديد من الإخوة والأخوات ! إنّنا نعلم، جميعنا، أنّ أساس جماعتنا ووحدتنا هو المعاقون، فلولاهم لما كنّا معاً، ومعهم نكتشف خصبنا. إنّ وجوههم المشرقة، وأجسادهم المسترخية، تكشف لنا عن هويّتنا. إنّ هؤلاء الأشخاص لا يمتلكوننا، ولا يتشبّثون بنا؛ يثقون بنا مثل ثقتنا بأنفسنا؛ يعرفون أنّ لنا همومنا ومشاغلنا، ويدَعوننا نمضي للعمل حيث يتوجّب علينا العمل، لأنّهم واثقون من العلاقات التي تربطنا".

إنّ قوى الحبّ هي التي تدفع المساعدين إلى بذل الكثير من التضحيات، وإلى جاهزيّة مطلقة، فيهجرون أُسَرهم، وأوطانهم أحياناً، ويرتضون براتب ضئيل، ويعيشون في اللاأمان. أحدهم قال: "المجيء إلى " السفينة " يحاكي، نوعاً ما، الضرب في الصحراء، فنحن نخلّف وراءنا كلّ شخصيّتنا الاجتماعيّة، وتاريخنا، وشهاداتنا، وغالباً ثقافتنا، بل حتّى لغتنا... غير أنّنا نلج هذه الصحراء بفرح عميق، إذ يستولي علينا الشعور بأنّنا نكتشف جوهرة جزيلة الثمن "

و ثمّة شهادات عديدة تعني، في اقتضابها، الكثير؛ منها :

– " أظنّ أنّهم أعطوني كثيراً أكثر ممّا توقّعت ".

– " كنت أتوجّس خشية من قدرتي على قبول هذا النمط من الأشخاص، ولكن تبـــيّن لي أنّهم رائعون، ويجعلوننا أكثر إنسانيّة "

– " السفينة مكان صدق، يسع الإنسان فيه أن يكون ذاته، أيّاً كان في الماضي، وأيّاً كان المكان الذي جاء منه، وأيّة كانت شهاداته. المهمّ هو نوع العلاقات التي نستطيع عقدها معهم، ومدى صدقنا... "

إِيمان ونور

اسم جان فانييه مرتبط بجمعيّة " إِيمان ونور "، ارتباطَه بمؤسّسة " السفينة "، فقد عكفت " السفينة "، منذ تأسيسها، على تنظيم رحلات حجّ إِلى الفاتيكان. تمّ حجّها الأوّل عام 1965، وكان للحجّاج المعاقين ومرافقيهم لقاء خاصّ مع قداسة البابا الذي قال لهم: " أَنتم، أَيضاً، مدعوّون لأن تكونوا قدّيسين ". وجرى الحجّ الثاني عام 1969 حيث كان المعاقون وسط عشرة ألاف حاجّ آخر، ومع ذلك خاطبهم الأب الأقدس شخصيّاً، قائلاً: " إِنّنا نبتهج بمراقبة ما يتمّ من عمل في "السفينة"، تحت إدارة جان فانييه، ونهنّئ جميع العاملين فيها بتفانٍ وبروحٍ عائليّ تامّ. بودّنا أن نقيم اتّصالاً شخصيّاً بكلٍّ منكم. ونرجو أَن يكون لكم، في هذه الأَسرة المسيحيّة الكبرى، منزلة مميّزة..."

و دُعي جان فانييه إِلى المنصّة حيث كان يجلس الأَب الأَقدس الذي رحّب به أجمل ترحيب، وقبّله بحرارة، ولدى خروجه من الكاتدرائيّة توجّه الأَب الأَقدس نحو وفد "السفينة" وصافح كلّ الأَيادي التي استطاع الوصول إِليها.

ثمّ وُلدت " إِيمان ونور " من اشتراك جماعات " السفينة " والسيّدة ماري هيلين ماتيو، الأمينة العامّة للمكتب المسيحيّ للمعاقين في باريس، في تنظيم حجّ دوليّ إِلى لورد، عام 1971، ضمّ معاقين عقليّاً، وذويهم، وأَصدقاءهم.

و كانت السيّدة ماتيو قد تعاطفت مع والدي فتيَيْن معاقَيْن إِعاقة سحيقة، كانا يودّان اصطحاب ابنيهما هذين، في حجٍّ إِلى لورد، ولكنّهما كانا يخشيان ما قد يسبّبه ذلك لهما من ملاحظات جارحة. وبالمقابل كانت رحلات الحجّ التي قامت بها " السفينة " إِلى كلٍّ من لورد، وفاتيما، ولاساليت، وسواها من الأَماكن المقدّسة، قد أَسهمت في إِدخال تحوّلات عميقة على نفوس المعاقين، التي أَثارتها مشاهد المياه، والأَنوار، والتطوافات، وشتّى الإِشارات التي كانت تحدّث قلوبهم، بقوّة.

و في أَثناء لقاء بين جان فانييه والسيّدة ماتيو وُلدت فكرة تنظيم حجّ مشترك، بمناسبة عيد فصح 1971، إِحتشد فيه إِثنا عشر أَلف حاجّ، قادمين من أَربعة عشر بلداً، ثلثهم من المعاقين، والآخرون أَهلٌ لهم وأَصدقاء. وكان ذلك الحجّ احتفالاً فريداً، فجّر ينابيع الفرح، وفرصةً لوالدين عديدين كي يكتشفوا أَنّهم ليسوا، في محنتهم، وحيدين، وأَنّ ابنهم المعاق ليس مصدر عارٍ، وأَنّ بوسع الجميع أَن يبتهجوا معاً. وكانت تلك المناسبة دعوة للكثيرين من الشبّان الحاضرين إِلى الالتزام بخدمة المعاقين، وكانت للمعاقين أَنفسهم مصدر فرحٍ جمّ، ولقاءٍ مشرق مع الربّ.

أَيّام الحجّ الخمسة تلك، إِلى لورد، أَيقظت من الآمال، ما اتّضح معه أَنّ التجربة ينبغي أَن تستمرّ، وتتعمّق، وتتعمّم. وقد خاطب جان فانييه منظّمي الحجّ قائلاً : "إفعلوا كلّ ما سيلهمكم به الروح القدس، لكي تبنوا عالَماً من الحبّ، حول الأَشخاص المعاقين ". وكانت تلك الدعوة البذرة التي نبتت منها حركة "إيمان ونور"، وكأنّها صنو للسفينة ورافد لها. وسرعان ما انتشرت في معظم أَرجاء العالم، بحيث غدا، لها، اليوم، أَكثر من أَلف وثلاث مئة جماعة، في نحو 70 بلداً، ومنها بعض بلدان الشرق الأوسط. وكلٌّ من هذه الجماعات يضمّ نحو ثلاثين شخصاً، منهم أولاد وشبّان، وكهول، معاقون، وذووهم وأَصدقاؤهم، ولا سيّما من الشبّان الذين يجتمعون، باطّراد، للمشاركة والصلاة، والاحتفال، تحدوهم الرغبة في التوغّل في خفايا السرّ الكامن في المعاق، القريب، غالباً، من روح التطويبات، والذي تسهم رقّته، وتواضعه، وهشاشته في تحطيم حواجز القلوب.

إِنّ جماعات " إِيمان ونور " تولي أهمّيّة كبرى للألم الجمّ الذي تسبّبه للأسرة ولادة ولد معاق، وللحرَج الذي كان، وما يزال، يحمل الكثير من الأُسَر على إخفاء الأَبناء المعاقين. وغالباً ما ينزع الوالدون الجريحون إِلى الانعزال مع أَلمهم. ولذلك دأبت جماعات "إِيمان ونور" على انتشالهم من هذه العزلة، والتعاون مع والدي المعاقين، ورعاية أَبنائهم في أوقات انشغالهم، وتنظيم مخيّمات صيفيّة لهم، أو مجرّد الحفاظ على اتّصال هاتفيّ معهم.

و من خلال " إيمان ونور "، اكتشف كثيرون دعوتهم إِلى العيش مع أشخاص معاقين، أو الانتماء إِلى جماعة " سفينة " قائمة، أو إِلى تأسيس جماعة جديدة. ويؤكّد جان فانييه، من جانب آخر، أنّ كثيرين من الآباء والأُمّهات شرعوا يرقصون ويمرحون مع أَبنائهم المعاقين، ويورد قول أمّ لثلاثة معاقين من أبنائها الأَربعة، أنّها شرعت تكتشف، يوماً فيوماً، جمال أَبنائها. وفي حالات عديدة حدثت تحوّلات داخليّة عميقة.

و تحتفل جماعات "إِيمان ونور" احتفالاً خاصّاً بعيد تقدمة مريم ويوسف ابنهما يسوع إِلى الهيكل. إِذ، يومها، قال رئيس الكهنة، سمعان، لمريم أَنّ سيفاً سيخترق قلبها. وكثيرون من الآباء الذين لهم ولد معاق تحطّم قلبهم، واخترقه الأَلم؛ غير أَنّ ابنهم المعاق أو ابنتهم المعاقة مدعوّان، دعوةً سرّيّة، إِلى تجديد الكنيسة والمجتمع. بيد أَنّ هذه الدعوة لن تتحقّق إلاّ بمقدار ما يصغي إِلى المعاقين مسيحيّون آخرون، يعيشون في تواصل معهم، ويتخطّون عقبات جراحهم ووهنهم.

إِنّ المشاركة في القدّاس الجماعيّ الذي يقام بمناسبة رحلات الحجّ مبنيّة على الرجاء، وهي مصدر رجاء في تخطّي ما يعانيه كلّ فرد من أَلم، ووحدة ومحدوديّة، وفيها تتلاشى الفوارق بين المعاقين ومساعديهم.

لقد أمسى الحجّ السنويّ عنصراً هامّاً من احتفالات " السفينة "، مع ما يحيق به من مخاطر المغامرة، والاعتماد على الرعاية الإلهيّة، وتلاقي مختلف الجماعات، والاسترخاء. وأكثر أماكن الحجّ المقصودة، بعد روما، هي لورد، وفاتيما، ولاساليت، حيث، في جميعها، ظهرت العذراء لأولاد فقراء وبسطاء.

مشاهد المرضى في تلك الأماكن تنفذ إلى أعماق المعاقين، وغالباً ما يذهلون عن مشاكلهم الخاصّة أمام من هم أقلّ منهم حظّاً.

و يتّفق، غالباً، في أثناء هذه الرحلات، أن ينضمّ جان فانييه إلى حلقات الرقص، وكأنّه مراهق لا يعرف الهمّ إلى قلبه سبيلاً.

أَلم وفرح

من التجارب الفذّة التي تخوضها " السفينة "، عيشها الأَلم الجمّ، في فرح غامر؛ فمع أَنّ كتلة الأَلم المواكب للحياة اليوميّة فيها جسيمة، إلاّ أَنّ مظاهر الفرح فيها بارزة، سائدة. إِنّ " السفينة " تعيش، بكثافة، مفارقة الأَلم والفرح، وسرّ الموت والقيامة.

آلام المعاقين تنبع، غالباً، من النبذ الذي عانوه في صغرهم، ومن شعورهم المضني بالعجز عن الاستقلاليّة، وعدم القدرة على تأسيس أسرة كسائر البشر. غير أَنّ هذا الفقر بالروح يؤهّلهم لبشرى الخلاص.

و حيال هؤلاء القوم الذين يسحقهم الاضطراب، يخوض المساعدون تجربةً مذلّة، تؤكّد لهم، غالباً، عجزهم عن توفير أَيّة إجابة على ذلك الاضطراب. وغالباً ما يذلّهم، أَيضاً، اكتشافهم أَنّ أولئك الذين نبذهم المجتمع يمتلكون خصالاً إِنسانيّة أغنى من التي يمتلكونها هم أَنفسهم. ولا بدّ لهم من الاعتراف، يوماً، أَنّهم، هم أَيضاً، معاقون في جانبٍ ما من شخصيّتهم وحياتهم.

هذا الأَلم المشترك يولّد وحدة روحيّة، والتعبير عنه لا يتمّ، دائماً، عبر الكلمات، بل بنظرة أو بلمسةٍ زاخرتين بالعواطف والمعاني.

في مجتمعاتنا، الموادّ الاستهلاكيّة هي التي تلتهم الإِنسان؛ وحياتنا تندرج خارجاً عنّا في الثروات والخيرات المحيطة بنا، ونحن نلهث في سبيل اقتناصها. نتوهّم أَنّنا سنجد فيها الأَمان، ولكنّه أَمان من الضآلة بحيث يقود إِلى موتٍ أدهى من الموت الذي نحاول الفرار منه، بدليل أَنّ الخوف يتولاّنا من الاستجابة إِلى الفقير الذي ينادينا، خشية أَن ينتزع منّا أَماننا. ولكنّنا عندما لا نستجيب لنداء الحياة، فهذا يعني أَنّنا نحتضر.

قد يوفّر الاستهلاك بعض المُتَع، ولكنّه عاجز عن توفير الفرح العميق؛ ومُتعه قصيرة الأَمد، سرعان ما تؤول إِلى سأم. وعندما نكون سجناء حاجات زائفة، يعسر علينا تبيّن الحاجات الإِنسانيّة الجوهريّة، ويصبح معنى الوجود العميق لدينا أَكثر فأكثر إبهاماً وغموضاً.

أَمّا في " السفينة " فالفرح ينبع من عامليْن على طرفيْ نقيض من الاستهلاك والرفاه: البساطة وتقبّل واقع الأَلم. بساطة المعاقين تحصر احتياجاتهم في الجوهريّ : الحاجة إِلى قبول الذات والآخرين، الحاجة إِلى الحبّ، والحاجة إِلى وجود معنىً للحياة. والسعي إِلى تلبية هذه الحاجات الجوهريّة يؤدّي إِلى اكتشاف معنى الكائن البشريّ. فالعلاقات بين البشر لا ترتكز، أَساساً، على تبادل أَشياء وخدمات، وعلى نشدان المتعة التي يمكن استمدادها من هذه العلاقات. والعلاقات بين بشر يعيشون ببساطة تصبح، بالضرورة، شخصيّة، وتتحوّل

إلى تبادل حبّ ومودّة، وتأكيد لذات الآخر، واعتراف به على أنّه إنسان. ومثل هذه العلاقات خصبة وتولّد الحياة؛ وفي إطارها لا يعود العمل مجرّد وسيلة للظفر بالرفاه، بل تغدو غايته الازدهار الإنسانيّ. وعلى نقيض الفراغ الذي يخلقه تشتّت العالم المادّيّ، ينصت أعضاء "السفينة" إلى نداءٍ داخليّ، نداء إلى السكون حيث يلتقون ذواتهم، في أغوار كيانهم، حيث يتسنّى لهم النهل من نبع وجودهم الداخليّ.

إنّ نبذ الآخر هو، دائماً، نبذ جزء من الذات، في حين أنّ ما يقودنا إلى مزيد من البساطة يُفضي إلى مزيد من الامتلاء. عندما نقترب من الأشدّ فقراً في مجتمعنا وفي العالم، ونتمثّل بهم، نزداد تحرّراً من الخوف الذي يسجن الناس في ثرواتهم. والتقاء المعاقين، في "السفينة "، لم يكن للكثيرين مجرّد القبول بفقر الآخر، بل قبولاً بفقرهم الخاصّ، وبذلك اكتسبوا حرّيّة متزايدة في أن يكونوا ما هم.

عندما يصبح نشدان الرفاه هو المطلب المطلق، يغدو الألم هو الشرّ الأعظم الذي يتعيّن تجنّبه بأيّ ثمن. ومن يفرّ من الألم والموت، يفرّ، في الآن عينه، من الواقع، فالألم والموت جزء جوهريّ من واقع الوجود البشريّ. وكلّما ارتكز مجتمعٌ على اللذّة والرفاه، توجّب عليه إخفاء مرضاه، وشيوخه، ومحتضريه. وكلّما فقد مجتمعٌ صلته بواقع الألم والموت، أمسى لا واقعيّاً ولا إنسانيّاً.

هذا العجزعن مواجهة الألم يقيم حواجز منيعة بين البشر، في حين أنّه، عندما يستطيع شخصان أن يحدّق أحدهما في الآخر، ويشهدا معاً الألم القائم من غير أن يزْوَرّا عنه، تنشأ بينهما وحدة عميقة. وهذه القدرة على مواجهة الألم تخلق، بين البشر، تواصلاً عميقاً، وتؤدّي إلى احتفال حقّ بالحياة، وإلى فرحٍ حقّ. أمّا إذا اعتُبر الرفاه والمتعة المعيارين الوحيدين لحياة مثلى، فمن شأن ذلك النأي عمّا هو الأكثر إنسانيّة. وحينئذٍ، إذا ما اشتدّ الألم، فقد يدفع إلى الهروب نحو الكحول، والمخدّرات، والجنس، والعنف؛ في حين أنّ قبول واقع الألم والموت، بصدق وبساطة، يفضي إلى حرّيّة كبرى في أن يكون المرء ذاته، وفي أن يتقبّل الآخرين.

وفي هذا السياق يقول جان فانييه : " إنّني أومن بوجودٍ خصب سرّيّ كامن في تضاعيف الألم. إنّه واقعٌ أستشعره فقط بإيماني، وأعبّر عنه بالتشبيه : فما يلفظه البشر ويلقون به جانباً، قد يُصبح سماداً مخصباً، وما هو متعفّن يغذّي الأرض ويساعدها على حمل ثمار، ومنح حياة. وقد لا يُدرك الإنسان المتألّم خصوبة محنته. غير أنّ الجماعة التي تعيش معه، ومع صيحاته، قد تستطيع تقديم آلامه للآب الذي سيفيض فيها الخصب، بالاتّحاد مع آلام ابنه".

و غالباً ما يكون الأَلم دعوة إِلى الصمت، والخلوة الداخليّة، والصلاة. والصلاة والأَسرار المقدّسة هي للكثيرين ضرورة حيويّة، ضرورة بقاء.

و ترتكز صلاة المعاقين ومساعديهم، أَساساً، على الإفخارستيّا، وعلى اللقاء المتميّز بيسوع من خلال الخبز والخمر المكرّسين. إِنّ رموز الإِفخارستيّا التي يمكن رؤيتها، ولمسها، وأكلها، تخاطب، بقوّة، أَناساً مغرقين في البساطة، يعيشون على مستوى العاطفة، وقوماً يعانون، من التعب والاضطراب، ما يمنعهم من الإِمعان في التفكير. المساعدون والمعاقون يُدفَعون إِلى الصلاة، من جرّاء شعورهم بفقرهم الخاصّ، وحاجتهم، وعطشهم إِلى اللّه. وفي المناولة، تتحقّق المساواة التامّة بين المساعدين والمعاقين؛ ومن خلالها يدرك المساعدون أَنّ عليهم بلوغ مستوى بساطة الأَطفال المتجلّية في المعاقين.

المعاقون يواجهون الإِنجيل بحرّيّة، ويدركون جوهره، من غير أَن تشتّتهم النقاشات العقليّة؛ فالروح القدس يحسن التحدُّث إِلى قلوب من يفتقرون إِلى طاقات ذهنيّة.

قد يكون المعاقون محدودين جدّاً في عقلهم، وجهازهم العصبيّ والنفسيّ، وفي قدرتهم على العمل، ولكن، على مستوى وجودهم الأَكثر جوهريّة، هم مدعوّون إِلى النبوّة الإِلهيّة، حيث لا تمثّل حدودهم البشريّة عائقاً دون ازدهارهم، لا بل تبدو أَنّها تشجّعه. وعندما يدرك المساعدون ذلك، تترسّخ قناعتهم بأَنّ أولئك الذين نبذهم العالم يُحلّهم الربّ مكانة رفيعة وأثيرة، وأَنّهم، هم، لهم، أَتراب وإِخوة وأَخوات، وعبرَهم، يصبح كلّ العالَم المتألّم عالم إِخوة وأَخوات.

و تغدو هذه العلاقات الشخصيّة المتبادلة، في عمقها، من مظاهر "السفينة " الأَكثر إِدهاشاً. فهي تعبير عن مشاركة وثيقة تمكّن القوم، هناك، من عيش كتلة الآلام التي يحملونها. ومن جانب آخر، فإِنّ مواجهة هذه الآلام وتقبّلها هما، ربّما، القوّة التي تولّد هذه المشاركة العميقة.

و " السفينة " تسعى إِلى توفير عمل لمن يقوى، من المعاقين، على عمل يتقاضى عنه أَجراً، ولو ضئيلاً. وليست الإِنتاجيّة هي المتوخّاة من عمل المعاقين، بل إِشعارهم بقدرهم، وباستقلاليّتهم. والمعاقون سعداء بذلك، فقد بات لهم أَصدقاء، وغدوا ينعمون بالحرّيّة، ويستطيعون الرواح والمجيء كما يحلو لهم؛ إِنّهم في بيتهم، وينتمون إِلى جماعة ومكان يخصّانهم، ولطالما افتقدوهما. لقد تحرّروا من البطالة التي كانوا يُقسرون عليها، ولبعضهم يعني الراتب الكثير، إِذ به يستطيعون ابتياع ما يرغبون فيه، بفضل جهدهم. وقد أَعلن أحدهم : " للمرّة الأولى في حياتي، أستطيع أَن أؤدّي خدمة ".

و بالإِجمال يواكب الفرحُ الأَلَمَ، في " السفنية "، ويضفي عليها طابعاً مميّزاً، وهــو يتفجّر، على نحوٍ خاصّ، في الاحتفالات، والأَعياد، والمناســبات، التــي يســبغ عليهــا المعاقون، بتلقائيّتهم، وعفويّتهم، وسذاجتهم، طعماً مُستَساغاً.

ميثاق جماعات السفينة

"وُلدت السفينة عام 1964، عندما استقدم جان فانييه والأَب توما فيليب، استجابة لدعوةٍ إلهيّة، كلاًّ من رفائيل سيمي، وفيليب سو، وهما معاقان ذهنيّاً، لاقتسام العيش معهما بروح الإنجيل، والتطويبات التي أَعلنها يسوع.

و انطلاقاً من هذه الجماعة الأولى التي وُلدت في فرنسا، في أَحضان التقاليد الكاثوليكيّة، أُوجدت جماعات أُخرى كثيرة في أُطر دينيّة وثقافيّة مختلفة.

هذه الجماعات التي تأسّست بدعوة من اللّه، تجمعها رؤية مشتركة في روحٍ من الاستقبال، والمشاركة، والبساطة.

آ- أهدافها

1ً - تستهدف "السفينة"، من وراء تأسيسها جماعات تستقبل المعاقين عقليّاً، الاستجابة لنداء استغاثة المنبوذين، وإِعادتهم إِلى مكانتهم في المجتمع.

2ً - تبرز "السفينة" ما يتمتّع به المعاقون ذهنيّاً من مواهب؛ فالمعاقون هم قلب الجماعات، ويدعون آخرين إِلى مشاركتهم حياتهم.

3ً - تعلم " السفينة " أَنّها غير قادرة على استقبال جميع المعاقين عقليّاً؛ وأَنّها ليست حلاًّ، بل هي إِشارة تدلّ على أَنّ مجتمعاً إِنسانيّاً حقّاً ينبغي أَن يقوم على الترحيب بالأَكثر صغراً وضعفاً، وعل احترامهم.

4ً _ في عالمٍ ممزّق، تتوخّى " السفنية " أَن تكون إِشارة رجاء. فجماعاتها المبنيّة على علاقات معاهدة بين أَشخاص مختلفي المستوى العقليّ، والاجتماعيّ، والدينيّ والثقافيّ، تنهض علامة وحدةٍ، ووفاء، ومصالحة.

ب - مبادئ مؤسِّسة

1ً - كلّ إِنسان، أَيّة كانت مواهبه وحدوده، جزء من بشريّة مشتركة، يتمتّع بقيمة فريدةٍ مقدّسة، وبكرامة وحقوق على قدم المساواة مع الآخرين. وحقوقه الأَساسيّة هي : الحقّ في الحياة، وفي العناية الصحيّة، وفي مسكن، وفي التربية، والعمل. وبما أَنّ الحاجة القصوى لدى الكائن البشريّ هي أَن يُحِبّ ويُحَبّ، فله أَيضاً الحقّ في الصداقة، والتواصل، والحياة الروحيّة.

2ً – لكي ينمّي طاقاته ومواهبه، ويحقّق ذاته، يحتاج كلّ إِنسان إِلى بيئة تمكّنه من الازدهار كما يحتاج إِلى نسج علاقات مع آخرين في حضن أُسرة أو جماعة، وإِلى العيش في ثقة، وأَمان، ومودّة متبادَلة. إِنّه يحتاج إِلى اعتراف الآخرين، وقبولهم، ودعمهم عبر علاقات حارَّة وصادقة.

3ً – يتمتّع المعاقون، غالباً، بصفات استقبال، وإِعجاب، وعفويّة، وصدق. وفي تجرّدهم وهشاشتهم، يملكون موهبة مسّ القلوب والدعوة إِلى الوحدة. وهم، بالتالي، دعوة حيّة للمجتمع إِلى قِيَم القلب الجوهريّة، التي، في معزل عنها، تفقد المعرفة، والسلطة، والعمل معناها.

4ً – ضعف الكائن البشريّ وهشاشته قد لا يكونان عقبة دون اتّحاده باللّه، بل قد يشجّعان هذا الاتّحاد؛ فغالباً ما يعتلن حبّ اللّه المحرِّر، عبر الضعف المُعتَرَف به، والمقبول.

5ً – من أَجل تنمية الحرّيّة الداخليّة التي دُعي إِليها كلّ إِنسان، ومن أَجل نموّه في الاتّحاد باللّه، لا بدّ له من القدرة على التجذّر في تقليد دينيّ يغذّيه.

ج – الجماعات

1 – جماعات إِيمان

1–1ً– كلّ جماعة هي جماعة إِيمان، مترسّخة في الصلاة والثقة باللّه، وتتوخّى أَن تستسلم لقيادة الربّ، وقيادة الإِنسان الأَضعف الذي يعلن حضور اللّه. وكلّ عضو في الجماعة مدعوّ بحرارة إِلى اكتشاف حياته الروحيّة وتعميقها وعيشها وفقاً لإِيمانه وتقليده الخاصّين. وحتّى الذين ليس لهم إِيمان واضح يُرحّب بهم ويُحتَرمون في حرّيّة ضميرهم.

1–2ً– ثمّة جماعات متجذّرة في دين معيّن، وأُخرى متعدّدة الأَديان. والجماعات المسيحيّة هي إِمّا متجذّرة في كنيسة معيّنة، أو متعدّدة الطوائف. وكلّ جماعة على تواصل مع السلطات الدينيّة، وأَعضاؤها مندمجون في الكنائس وأَماكن العبادة المحلّيّة.

1–3ً– تقرّ الجماعات بأَنّ لها رسالة مسكونيّة، ورسالة وحدويّة.

2 – مدعوّة إِلى الوحدة

2–1ً– الوحدة مبنيّة على معاهدة حبّ نسجها اللّه بين مختلف أَعضاء الجماعات، وهي تفترض الترحيب بكلّ آخر مختلفٍ واحترامه. والوحدة تفترض، أَيضاً، أَنّ المعاق

يحتلّ مركز حياة الجماعة. إنّ الوحدة تبنى على المدّة والأمانة، وتلتزم الجماعات بمواكبة أعضائها مدى حياتهم كلّها، إن كانت تلك هي رغبتهم.

2-2ً- عيش عيشة الأُسرة هو من صميم حياة جماعة "السفينة". وبما أنّ أعضاءها المختلفين مدعوّون إلى تشكيل جسد واحد، فهم يعيشون، ويعملون، ويصلّون، ويحتفلون معاً، مقتسمين الأفراح والآلام، ومتبادلين الصفح، على غرار أُسرة. ونمط حياتهم البسيطة يولي الأولويّة لعلاقات المودّة.

2-3ً- علاقات التواصل هذه عينها تجمع مختلف الجماعات عبر العالم، التي، بالتزام كلٍّ منها تجاه الجماعات الأُخرى، وبتضامنها ومسؤوليّتها، تكوّن أُسرة دوليّة كبرى.

3- مدعوّة إلى النموّ

3-1ً- الجماعات أماكن رجاء. وكلّ جماعة منها مدعوّة، بإلحاح، وفقاً لدعوتها الخاصّة، إلى النموّ في الحبّ، وعطاء الذات، والوحدة الداخليّة، وكذلك في الاستقلاليّة، والقدرة على الاختيار، والكفاءة.

3-2ً- تبتغي الجماعات أن توفّر لأعضائها تربية، وعملاً، ونشاطات علاجيّة تكون منبع كرامة، ونموّ وازدهار.

3-3ً- تتوخّى الجماعات أن تعطي كلّ فرد وسائل تنمية حياته الروحيّة لكي يمضي قدُماً نحو مزيد من اتّحادٍ باللّه وحبٍّ له وللآخرين.

3-4ً- كلّ فرد، حسب إمكانيّاته، مدعوّ للإسهام في القرارات التي تتعلّق به.

4 - مندمجة في المجتمع

4-1ً- الجماعات منفتحة على الاستقبال، وعلى العالم المحيط بها، وهي جزء جوهريّ من الحياة المحلّيّة. وتسعى إلى ترسيخ علاقاتها مع الجيران والأصدقاء.

4-2ً- تبتغي الجماعات تنفيذ كلّ مهمّاتها بكفاءة

4-3ً- تشجّع الجماعات عمل المعاقين عقليّاً، عادّة إيّاه وسيلة مثلى للاندماج بالمجتمع.

4-4ً- تسعى الجماعات إلى العمل في علاقة وثيقة مع :

- الأُسَر، وأولياء أمور المعاق عقليّاً.
- مهنيّين محترفين

- السلطات الحكوميّة
- ومع كلّ العاملين بروح العدل والسلام لصالح المعاقين.

خلاصة

قلق " السفينة " كبير حيال أَلم الأَشخاص، الذين، بسبب إِعاقتهم، يعانون المظـــالم والنبذ. هذا القلق يجب أَن يدفع جماعات " السفينة " إِلى عمل كلّ ما يسعها فعله للدفاع عــن حقوق المعاق ذهنيّاً، في سبيل استحداث أَماكن استقبال، ودعوة المجتمع إِلى مزيد من العدل والاحترام تجاهه.

تبتغي جماعات " السفنية " أَن تكون متضامنة مع فقراء العالم، ومع كلّ من يكافحون في سبيل العدالة.

الجماعة

لقد كَلِف جان فانييه كلَفاً شديداً بالعيش الجماعيّ، وأَحاط إِحاطة واسعة بشتّى مشكلاته، وعقباته، وأَيضاً بغناه الثرّ، وقدراته على التنمية والازدهار. وقد قال في هذا السياق :

" الرائع في يسوع أَنّه لا يدعونا بمفردنا... وهكذا الأَمر عندما ينفحنا روحه، فهو، في طرفة عين، يخلق أُسرة، ويهبنا إِخوة وأَخوات، مع روح الإِخاء والحبّ. ويجمع كياننا. وهذا يعني أَنّ قلوبنا تنبض مؤتلفة، تحدوها الرغبات، والآمال، والتطلّعات عينها... "

يسكنه أَبداً هوَس رؤية جماعات سلام صغيرة، جماعات مشاركة وخدمة، تنهض في كلّ مكان من العالم، وتسهم في تغيير قلب المجتمع. وقد صرّح، في هذا السياق :

" في "السفينة" نسعى إِلى تأسيس مراكز صغيرة يضمّ كلّ منها ثمانية معاقين، رجالاً وفتياناً، يواكبهم مساعد أو مساعدان، بغية خلق مُناخ يتيح لمتخلّفين ذهنيّاً، رجالٍ ونساءٍ، أَن يعيشوا بأوفر قدر من السعادة ممكن، وأَن يعملوا، وأَن يفيدوا أعظم فائدة من أوقات فراغهم، وأَن يزدهروا وفقاً لتطلّعاتهم العميقة.

" هدفنا إِيجاد جماعة إِنسانيّة، حقّاً، تنعم بقدرٍ وافٍ من الأَمان، يؤهّل أَفرادها للتقدّم في جميع الميادين الإِنسانيّة والروحيّة. هدفنا، خاصّة، إِيجاد جماعة تتمكّن فيها القلوب من الازدهار بحرّيّة في حبّ الإِخوة وحبّ اللّه، مكان يتسنّى لهم فيه تذوّق أفراح أَبديّة، هي غالباً صامتة، ساجية، في حياة أَخويّة معاشة في حضور يسوع ".

" وحدها قدرة الروح القدس العميقة والمحوّلة كفيلة بخلق جماعة، وبتغذيتها وتقويتها. أمّا بشريّاً فالجماعة مستحيلة".

و هو مؤمنٌ بأَنّ الجماعة هي المكان الذي يتيح لكلّ فرد أَن يحيا، حقّاً، حياة إِنسان، ويسير نحو الشفاء الداخليّ، ويكبر في الحبّ والحقيقة، ويمضي قُدُماً في دروب الوحدة، والمصالحة، والتحرّر الداخليّ. ففي مناخ الجماعة تتلاشى المخاوف، والأحكام المسبقة، وتتعاظم الثقة في اللّه وفي الآخرين، فتقوى الجماعة على الإِشعاع، وعلى الشهادة لنمط عيش، وأسلوب حياة، كفيلين بالقضاء على اضطرابات عالمنا وتمزّقاته.

و لم يخفَ عليه أَنّ الجماعة التي قد تكون موئل علاقات مفيدة، قد تكون أَيضاً مكان صراع وأَلم داخليّ. فعندما يعيش المرء وحيداً، يسهل عليه تخيّل أَنّه قدّيس، ولكنّه عندما يعيش مع آخرين يكتشف، في داخله، فسحات كراهية واضطراب، وحسد وخوف، وعُقَد، ورغبة في السيطرة وإِثبات الذات. ومن ثمّ لن تستطيع الجماعة أَن تكون مكان شفاءٍ ونموّ،

إلاّ إذا حافظت على زخم الحبّ والرجاء، وإلاّ إذا تزوّدت، باطّراد، بالحيويّة المتجدّدة، وإلاّ تعرّضت للانغلاق.

و يقول جان فانييه في هذا الصدد :

" قد نمكث معاً، ولا نتلاقى.

قد نقطن منزلاً واحداً، يوماً إثر يوم، ونجلس على المائدة نفسها، ونجثو على المركع عينه، ونطالع الكتب ذاتها، من غير أن نتلاقى.

لا بل نستطيع أن نتبادل القُبل، إشارات الحبّ، وتعابير الودّ، من غير أن نتلاقى. إنّ التلاقي شيء نادر، رائع، إنّه حضور شخص لآخر، وحياة تنساب من الواحد إلى الآخر".

الحياة الجماعيّة هي صراع ضدّ قوى القنوط، وتقتضي انفتاحاً، وترحيباً، وروحاً خلاّقاً، وهذه الصفات تجمّعت بوفرة لدى جان فانييه، ومعظم معاونيه في " السفينة "

و يستفيض جان فانييه في التحدّث عن الجماعة فيقول أنّ هناك أنماطاً مختلفة من الجماعات التي تجمع قلوب أعضائها على هدفٍ واحد أسمى من الكسب المادّيّ؛ في أحضان هذه الجماعات تتحطّم عزلة الأشخاص، وتعمّ المشاركة والإخاء؛ ولا يعود أحد في حاجة إلى إثبات الذات، فيُسقط جهاز دفاعه الخاصّ، ويسعى إلى أن يكون ذاته، ويستطيع الانفتاح على الآخرين في تواصل حميم، وتوثيق ارتباطه بهم.

و تتعمّق صفة الجماعة، عندما تتنكّب تلك التجمّعات عن الانكماش على ذاتها في موقف من التميّز والتفوّق، بل تنفتح على الآخرين بلا تمييز، وتعي مهمّتها المتمثّلة في منح الآخرين الحياة، ولا سيّما الأشخاص الوحيدين والمعانين، وفي التعاون مع جماعات وتجمّعات بشريّة أُخرى، لصالح المجتمع بأكمله.

و من المحقّق أنّ جماعات مثل " السفنية "، التي يعيش أعضاؤها تحت سقفٍ واحد، تستحقّ، بنوعٍ خاصّ، تسمية الجماعة، غير أنّها، في مجتمعاتنا، استثناء يُدعى إليه بعض أفرادٍ، مهمّتهم أن يكونوا شهوداً للحبّ الكامن في قلوب المستضعفين، ولقيمة كلّ كائن بشريّ. ولئن تعذّر على البعض عيش حياة جماعيّة دائمة، إلاّ أنّه من الممكن أن يكون المرء عضواً في جماعة من غير حاجة إلى عيشٍ مشتركٍ دائم، كما هو حال جماعة " إيمان ونور " التي تسهم في نشوء مثل هذه الجماعات التي لا تقتضي عيشاً مشتركاً دائماً، بل هي جماعات مساندة، حيث يلتقي نحو ثلاثين شخصاً من معاقين وذويهم وأصدقائهم، مرّة أو مرّتين كلّ شهر، أو في أوقات أُخرى، لقضاء عطلةٍ معاً. مثل هذه الجماعات هي أَماكن مشاركة حميمة، وتواصل، واحتفال وصلاة، وقد أسهمت في إحداث تبدّل جوهريّ في أَعضائها؛ وكانت، حقّاً، مكان شفاءٍ داخليّ ونموّ إنسانيّ.

و الأسرة هي أكثر الجماعات شيوعاً، وتتمثّل في التزام متبادل بين الرجل والمـرأة، وفي التزامهما حيال أبنائهما، وفيها يلتقي عنصرا كلّ جماعة : لقاء القلوب حول هدف حياة مشتركة؛ فإن قام الزواج على مجرّد الرغبة في علاقة حميمة من أجل كسر طوق الوحـدة، في معزل عن مُثُل المشاركة والقِيَم المشتركة، لكان في خطرٍ.

و من خصائص الجماعة، أيّاً كان نمطها، هي أن تصبح، تدريجيّاً، جسماً واحداً، فلا تعود تراتبيّة قائمة على التنافس، حيث يتبوّأ الأقوياء القمّة، ويقبـع الضـعفاء والقليلـو الجدوى في الحضيض؛ وتنتفي منها الصداقة السطحيّة الخالية من المسؤوليّة؛ بل فيها لكـلّ فرد مكانه، الضعيف والقويّ على حدّ سواء، ولكلٍّ موهبته، ولا يمتاز أحد عـن الآخـر، على غرار أعضاء الجسم الواحد. والأعضاء، كلٌّ بهويّتـه الخاصّـة، مرتبطـون معـاً، ويخصّون بعضهم بعضاً، وما بينهم مسؤوليّة والتزام مشتركان.

و يكاد لا يخلو حديث من أحاديث جان فانييه أو كتاب من كتبه من ذكـر الجماعـة والحياة الجماعيّة، ولطالما أشاد بهما، ولا سيّما في كتابه " الجسد المحطّم "، ثمّ أفرد لهمـا واحداً من أهمّ مؤلّفاته وهو "الجماعة مكان صفح واحتفال"، الذي ما انفكّ يغنيه بحصاد خبراته الثرّة في هذا المضمار.

إنّ الجماعة، بصفتها مكان تلاقي الأشخاص، هي مكان شفاء القلوب. والتزامنـا، بعضنا تجاه بعض، يمكّننا من اكتشاف جميع مصـاعبنا وجراحنـا الناتجـة عـن علاقاتنـا بالآخرين. وتكمن الحكمة في تبيّن من نحن، بحدودنا وأوهاننا الخفيّة، وفي التماسنا العـون والسند. وهكذا يتحقّق التحوّل من المثاليّة، إلى التشاؤم، فإلى الواقعيّة.

الوحدة في الأُسرة أو الجماعة البشريّة ليست اندماجيّة تنفي كلّ تباين، كما لو أنّ على الجميع أن يكونوا متشابهين، ويفكّروا بأسلوب واحد. بل الوحدة المنشودة هي على غـرار وحدة الجسم حيث كلّ عضو، وكلّ جزء، مختلف، ويأتي بموهبة مختلفة. ولكـنّ الجميـع متّحدون حول الغاية عينها، ويجمعهم حبّ متبادل. وهذا يقتضي أن يتطهّر كلّ فـرد مـن نزعته إلى التفوّق وإثبات امتيازه، ويسعى إلى الانفتاح، وإلى استقبال مواهـب الآخـرين، وإلى مشاركتهم معاناتهم. إنّ الوحدة الحقيقيّة ينبغي الجهاد في سبيلها باستمرار.

الحياة الجماعيّة هي، جوهريّاً حياة علاقات، وتواصل حميم، وحنان، وإصـغاء، وصداقة. وهي، كما أسلفنا القول، مدرسةٌ للقلب، وإن هي توخّت نشدان التواصل مع اللّه، استطاعت الاستجابة للكثير ممّا في القلب البشريّ من رغبة عميقة في التواصل؛ وتغدو قادرة على تحويل الشخص تحويلاً جوهريّاً.

أَمّا في غياب حياةٍ جماعيّة حقيقيّة، مُحِبّة، وبهِجة، فالكائن البشريّ معرّض للتردّي إِلى التشتّت الداخليّ، إِذ إِنّ عجزه عن العثور على علاقات تواصل حقيقيّة داخل الجماعة، يدفعه إِلى نشدان التواصل، أو صُوَر مشهوّهة عنه، في مكان آخر.

و للعلاقات العاطفيّة والجماعيّة تأثير بالغ على حياة الفرد الجنسيّة، التي إِذا ما افتقرت إِلى تواصل قلب وفكر دائم غدت معين تمزّق، في حين أنّ تواصل القلب والفكر الدائم والعميق هو منبع وحدة وتوازن، وترويض للرغبات والنزوات الجنسيّة.

و الجماعة هي دائماً مكان احتفالٍ وفرح، فالإِنسانيّة في حاجة إِلى أعياد واحتفال. وتنهض مؤسّستا " السفينة " و" إِيمان ونور" مثالاً ساطعاً في هذا المجال. الاحتفال يولّد وحدة الجماعة، مثلما هو ثمرتها. إِنّه ينبع من وحدة القلوب ومن الثقة المتبادلة. والاحتفال يتجلّى في البسمة والضحك، والمشاركة البسيطة السعيدة، وفي عناية البعض بالبعض الآخر عناية رقيقة، في جوّ الانشراح الذي يخيّم على الاجتماعات؛ ويتجسّد الاحتفال خاصّة في وجبات الطعام المشتركة.

الاحتفال هو، في المقام الأوّل، نشيد عرفان بالجميل وشكران. فالإِنسان لم يعد وحيداً، بل بات جزءاً من جسد، وانتفى التنافس، وربطت الجميعَ وحدةُ المحبّة. إِنّ ثروة البشريّة الرئيسة ليست المال أو الامتلاك، بل وحدة قلوب متحابّة، حيث الأَقوياء يهرعون إِلى نجدة الضعفاء، والضعفاء يحافظون على إِنسانيّة الأَقوياء بمنعهم من النزوع إِلى الحرب. وحينئذٍ يغدو الاحتفال صلاةً تنبع من وحدة الأَشخاص، ودليلاً على الوحدة داخل كلّ فرد ووحدته مع اللّه، وعلّة هذه الوحدة.

جدران

من أَقسى ما اصطدم به جان فانييه، عندما باشر معايشة المعاقين، جدران عديدة، جدران صفيقة قاتلة، جدران ماديّة، وجدران نفسيّة، وجدران اجتماعيّة، كان لا بدّ من اقتحامها وتقويضها، في سبيل القضاء على العزلة، والفرقة، والقسوة. وهو يروي، في هذا السياق :

"عندما التقيت، للمرَّة الأولى، أَشخاصاً مصابين بإِعاقة عقليّة، اكتشفت واقع الجدران، جدران تسجن، جدران تحول دون اللقاء والحوار.

اكتشفت، أوّلاً، جدران مشافي الأَمراض النفسيّة، والمؤسّسات التي زرتها. وكان كلٌّ من رفائيل وفيليب متوارياً خلف جدران صفيقة. وقد دعوتهما إِلى العيش معي في هذا البيت الصغير الذي دعيته "السفينة " في قرية تروسلي، والذي كان مطلاًّ، مباشرة، على الشارع. كان فيليب ورفائيل يخيفان بعض سكّان القرية، أو كانا يوحيان لبعض الزائرين بشفقة وبيلة.

أحياناً كنت أُعَدّ " رائعاً " من جرّاء اهتمامي بأَشخاص " من هذا النمط ". وبقدر ما كانت صداقتي مع ذيْنك الرجلَيْن تكبر، كان يزداد تألّمي من مثل تلك المواقف والملاحظات. وشيئاً فشيئاً، اكتشفت كيف كان مجتمعنا يرذل هؤلاء الرجال والنساء المعاقين عقليّاً، ويعدّهم من سقط الطبيعة، وأَدنى مستوى من البشر. جدار نفسيّ كان يحول دون اعتبارهم بشراً. وكنت، أَحياناً، أتلمّس في داخلي مثل هذه الجدران، عندما كنت أَعجز عن الإِصغاء إِلى رافائيل وفيليب.

عام 1964، في أوّل عهد " السفينة "، كان ما زال كثيرون من المعاقين عقليّاً يخفيهم والدوهم في بيوتهم، ويجهل الجيران حتّى وجودهم. وقد عثرت على يافع في مزرعة، وقد قُيِّد بسلاسل، في مرآب. وكان كثيرون منهم يُسجنون في مآوٍ، أو مستشفيات أَمراضٍ نفسيّة، أو مؤسّسات زريّة. وفي بعض المشافي، كانت، ثمّة، غرف كئيبة يتكدّس فيها من كانوا يُعتَبرون وكأنّهم نباتات.

و كانت الجدران تخفي أَيضاً والدين يلازمهم شعور بالذنب، ولكأنّهم ينفذّون عقاباً ربّانيّاً. ويعتري كثيرين منهم الشعور بأَنّهم قد أُقصوا عن الكنيسة بسبب ابنهم المعاق، بعد أَن باتوا عاجزين عن المشاركة بالقدّاس، إِذ من شأن حضور أبنائهم إِشاعة الضجيج والإِزعاج. وفي تلك الحقبة كان المعاقون محرومين من المناولة الإِفخارستيّة، من جرّاء إِعاقتهم، وغالباً ما كانوا يوصفون بالتخلّف، ويصنّفون في عالَم آخر، عالم لا قيمة بشريّة له، عالم أناس غير طبيعيّين.

ذات يوم جاء والدٌ ليزور ابنه في مركزي. وفي أَثناء الطعام، لاحظ أحد الموجودين، مخاطباً ذلك الوالد : " لكما نفس العينين ". وفي الحال ردّ الوالد، وكان صناعيّاً، بلهجة عدائيّة : " كلاّ، بل إِنّ له عينيْ أُمّه "، ولكأنّه أَراد أَن يقول : " ما من شيء مشترك بيني وبينه ". لقد كان ردّه فظّاً، تلقائيّاً، وسريعاً، ونفذ نفاذ سهم إِلى قلب ابنه الذي سارع إِلى مغادرة القاعة فور الفراغ من وجبة الطعام. واستوضح الوالد عن مكان وجوده، ولكنّه لم يتبيّن كم آلمه. إِنّني واثق من أنّه قد أَحسن قبوله، ولكّنه ما فتئ، في أَعماقه، جريحاً لكون ابنه معاقاً عقليّاً. لم يكن قادراً على تقبّل ذلك الواقع الذي كان يشعر به وكأنّه عار شخصيّ.

و في يوم آخر زارني رجل حزين، طبيعيّ جدّاً، وفيما كان جالساً في مكتبي يسرد عليّ خيبات أَمله، ومصاعبه العائليّة، والمهنيّة، والماليّة، قُرع الباب، وقبل أَن يتسنّى لي الردّ، دخل جان كلود. البعض يقولون أَنّ جان كلود مُغُليّ وآخرون يسمّونه تريسوميك 21. أَمّا لنا، فهو جان كلود فحسب. إِنّه رجل مسترخٍ، سعيد، ضحوك، (ولكنّ العمل لا يستهويه). وقد صافحني متمنيّاً لي يوماً سعيداً ثمّ صافح " السيّد الطبيعيّ "، وتمنّى له، أَيضاً، يوماً سعيداً، ومضى ضاحكاً. وحينئذٍ التفت نحوي " السيّد الطبيعيّ " وقال: " ما أحزن وجود أولادٍ نظراء هذا ! ". في الواقع كان المحزن عمى " السيّد الطبيعيّ " الناجم عن أَحكامه المسبقة، وأحزانه الشخصيّة، التي تجعله عاجزاً عن رؤية جمال جان كلود، وضحكته، وفرحه. بينهما كان ينتصب ضرب من الجدار النفسيّ.

هناك بيئات كثيرة تزدري الضعيف، وتسخر منه، وتنبذه، وتستغلّه وتهينه، وقد يهرب منه القوم أو يدعونه يموت. لقد شاهدت مآوي مريعة تعيث فيها الجرذان فساداً؛ وشاهدت رجالاً ونساء نصف عراة، شاردين، وقد طغى على أنظارهم حزن الموت؛ ومراكز مخفيّة بعيداً عن المدينة، يعسر على الأُسر الاقتراب منها؛ وجدراناً يوارى خلفها غير المرغوب فيهم. وشاهدت في مراكز أَمراض نفسيّة قاعات موصدة حيث نحو ثلاثين رجلاً عراة تماماً ينتظرون الموت.

إِنّ المعاقين عقليّاً، وبخاصّة أولئك الذين يعانون إِصابات خطيرة، هم الأَكثر نبذاً في مجتمعاتنا... صحيح أَنّ بعض البلدان قد أنشأت مدارس خاصّة، ومشاغل للمعاقين عقليّاً، في محاولة لإِفراغ مشافي الأَمراض النفسيّة. غير أَنّ أولئك الأَشخاص الذين يقال أَنّه " أُعيد دمجهم "، يجدون ذواتهم غالباً وحيدين، تائهين في المدن الكبرى، مسجونين في حزنهم، محرومين من الجماعة الإِنسانيّة. لقد أزيلت دونهم الجدران الماديّة، بيد أَنّ الجدران النفسيّة ما زالت قائمة.

و ما هذه الجدران المقامة حول الأَشخاص المعاقين سوى الأبرز ظهوراً من الجدران التي لا ننفكّ نقيمها لكي نفصل بعضنا عن بعض.

و يتحدّث جان فانييه، أَيضاً، **عن الجدار القائم بين الأَقوياء والضعفاء**، والذي يزداد، في أَيّامنا، صفاقة، فيقول: " إِنّ الضعيف مخيف. أليست هذه مأساة الكثيرين من الشيوخ الذين يرون قواهم تنهار، فتعتمل فيهم مشاعر الغضب، والثورة والانحطاط ؟ فهم ما عادوا يجتذبون أَحداً بسحرهم وبفرح عيشهم، بل بات معشرهم صعباً؛ ويقلع أَبناؤهم عن زيارتهم لأَنّهم ينتقدون كلّ شيء، ويقابلونهم أَحياناً بعنف. وقد يتبيّن المسنّون ما انتهوا إِليه من عدائيّة، وافتقار إِلى الفرح، ممّا يضاعف من انهيارهم، فيقرّون بأسى : " لقد أَصبحت عبئاً على أَبنائي "، ويفتقدون مبرّرات العيش، وينزعون إِلى الانغلاق على أَحزانهم، ويتّسم سلوكهم بالفظاظة.

إِنّ العبور من القوّة والطاقات النشيطة إِلى الضعف والعجز لأَمر عسير، وهو يستلزم تحوّلات هامّة، على المستوى الإِنسانيّ، تزيدها صعوبةً الرغبة التي استمرّت مدى الحياة في الظهور بمظهر القوّة، وفي تبوُّء مركز نشيط ومثير للاهتمام، وفي اعتراف الآخرين، وفي ارتقاء السلّم الاجتماعيّ، وحينئذٍ يبدو الضعف انحطاطاً. ويحفر فقدان المركز والنشاط المعترف بهما فراغاً في صميم الكيان، ومن هذا الفراغ يولد الاضطراب وانعدام الثقة بالذات وشعور بالذنب، وبعدم الجدوى. ولكأنّ الإِنسان قد هوى من عرش مجده ونجاحه إِلى الهوّة، ومن النشوة والعُجْب بالذات إِلى أَهوال الانحطاط، والثورة، والقنوط، والصورة الداخليّة الجريحة.

أوَ ليس هذا هو السبب الذي يحدو مجتمعاتنا، حيث غالباً ما تُعدّ القوّة والنجاح قِيَماً سامية، إِلى إِنشاء أَعداد وفيرة من المراكز المعدّة للمسنّين ؟ إِذ غدا متعذّراً استبقاؤهم في المنزل لأَنّهم مصدر إِزعاج. فغالباً ما تفتقر الأُسر إِلى المجال الضروريّ أو هي تأبى توفيره. وبعض مراكز المسنّين تلك كئيبة، هامدة الحركة، يكاد يموت نزلاؤها سأماً، فلا نشاطات منظّمة لهم، ولا زيارات.

و في حين أَنّ المسنّين في الدول الفقيرة يُعدّون شيوخاً يملكون التاريخ، بل هم التاريخ، ومن ثمّ يتمتّعون بكرامة خاصّة تستدعي الاحترام، إِلاّ أَنّهم، في الدول المصنّعة، فقدوا هذه الكرامة وهذا الدور، وباتوا مصدر إِزعاج لأَنّهم ما عادوا منتجين للثروات المادّيّة.

في مجتمعاتنا الغنيّة ينتصب جدار بين الضعفاء والأَقوياء، ويُنظر إِلى جميع المحتاجين، أوّلاً، من زاوية اقتصاديّة؛ ويوكل أَمرهم إِلى ممتهنين، ومساعدين اجتماعيّين، ومربّين إِلخ... وبالتالي يفقد المواطنون، فرديّاً وجماعيّاً، الشعور بالمسؤوليّة عن الأَشخاص الضعفاء ضمن أُسرهم ومحيطهم، ويتنازلون للدولة عن هذه المسؤوليّة... غير أَنّ العناية بالضعفاء كثيرة الكلفة، ويحين وقتٌ، في حقب الأَزمات، يبدو فيه أولئك الضعفاء عبئاً لا يُحتمل تتعيّن إِزالته، لأَنّه يعيق تحقيق مشاريع أُخرى أَشدّ استئهالاً للاهتمام.

و هناك، أَيضاً، **جدران السجون**، وقد أفردنا فصلاً خاصّاً لعلاقة جان فانييه بالسجناء.

و من أخطر الجدران في عصرنا، وأَكثرها شيوعاً، **جدران المنافسة**، التي تمعن في شقّ البشر، ورذل الضعيف، وعنها يقول جان فانييه : " في المدرسة، وفي كلّ مكان، حُرّضتُ على أَن أكون الأَوّل، والأَفضل في الدروس كما في الرياضة. وفي أَثناء عملي في البحريّة، كان عليّ أَن أَجتهد لكي أتميّز، وأَظفر بتقدير رؤسائي، وأَكون دائماً الفائز الناجح، وأَتلقّى الإِعجاب والترقية التي تؤتي امتيازات وراتباً أَرفع. فعلى كلّ فرد أَن يكون المسؤول عن نجاحه الخاصّ.

لاريب أَنّ للمنافسة امتيازات : فالرغبة (أو الحاجة) إلى تبوّء المركز الأَوّل تدفع إِلى بذل الجهود، وإِلى استنفاد الطاقات، ممّا يتيح مكافحة التواني والتخاذل. التنافس يوقظ الطاقات، ويشجّع إِمكانيّات الازدهار في الكائن البشريّ، ومن ثمّ إِمكانيّات الازدهار في المجتمع بأكمله، وفي البشريّة جمعاء. ولكن إِن كان النجاح نصيب البعض، فالفشل نصيب العدد الأَكبر. والشائع، حينذاك، هو ازدراء من لا يصيبون نجاحاً، أو يعجزون عنه، ومن ثمّ نبذهم. وتمسي القوّة، والقدرة، والامتياز هي القِيَم الوحيدة، بحيث يُقصى من لا ينجح، إِذ لا قيمة له، فتتكوّن لديه صورة عن ذاته جريحة، ويُمنى بالإِحباط، ويعتريه شعور بالوهن والعجز، والتفاهة.

يقول أرسطو أَنّ المرء الذي يشعر أَنّه غير محبوب يحتاج إِلى استثارة إعجاب الآخرين. وإِن لم يحظَ لا بالحبّ، ولا بالإِعجاب فهو كمن يموت. إِنّ الكائن البشريّ يحتاج إِلى عيون الآخرين، عيون من يقدّرونه، ويحبّونه، ويُعجبون به، ويؤكّدون مكانته. وإِن هو افتقر إِلى هذه العيون، أو إن هي حدّقت فيه بازدراء، أو بخوف، وانصرفت عنه وكأن لا وجود له، وُلد فيه الفراغ، والقلق والانحطاط، وبات متأهّباً لكلّ شيء في سبيل التقاء نظرة تعترف به، وتقيم له وزناً.

لقد حدّثني صديق كاهن كان مرشداً روحيّاً في السجون، عن سجين سأله، يوماً: "هل تحبّ إِقامة القدّاس، وهل تحسن إِقامته ؟ وهل تحبّ الوعظ، وتجيده ؟ " وأَجابه صديقي بالإِيجاب، وقد انتابه، من كلّ تلك الأَسئلة، بعض الضيق. حينئذٍ قال له السجين : " أَلا فاعلم، إِذن، أَنّني أمهر سارق سيّارات في كليفلاند، وأَنّني أُحبّ عملي ". فمن لم يُحَبّ ويظفر بالإِعجاب من أَجل خصاله الخيّرة، التمس الإِعجاب عن قدراته على الدمار والبغض. ما أَقوى الرغبة الثاوية في قلب الإِنسان في أَن يكون هو الأَقوى والأَفضل ! إِنّها قضيّة حياة أو موت.

ثمّة رغبة في الظفر، شخصيّاً، بجائزة، وثمّة رغبة في أَن يفوز الفريق الذي ينتمي الفرد له. ولا أَدلّ على ذلك من الاندفاع الذي يتابع به البعض، على شاشة التيليفزيون، مباراة كرة قدم : إِنّهم يصيحون، ويصفّقون، ويبكون، ويخبرون ألوف الانفعالات وهم يشهدون فريقهم ينقضّ على تلك الكتلة الجلديّة المسكينة المملوءة بالهواء!

و بقدر ما يفتقر المرء إِلى الهويّة الشخصيّة، وإِلى النجاح الشخصيّ، ويتوغّل في الفشل، بنفس القدر يحتاج إِلى الانتماء إِلى جماعة، وطبقة اجتماعيّة، ووطن، وجنس، أو دين، كفيلة بالانتصار. وإِنّ حبّ الوطن، والجنس، والدين، قد يمسي قوّة جبّارة من شأنها إِيقاظ طاقات الأَفراد، ودفعها إِلى النضال، وحثّها على استخدام كلّ القوى لكي تنتصر جماعة الانتماء وتفوز على الآخرين.

و قد تكون الحاجة إِلى الفوز والنجاح مرتبطة بالرغبة في الحصول على وظيفة تؤتي امتيازات، وفي ممارسة السلطة، وفرض الإِرادة على الغير. وهكذا يمارس البعض السلطة تحدوهم فقط الرغبة في إِبراز تفوّقهم، فهم لا يشعرون أَنّهم يعيشون إِلاّ إِذا عبّروا بجلاء عن قدرتهم، ومن ثمّ يمارسون سلطتهم وهم يجأرون، ولا يمارسونها في سبيل خير الآخرين، وازدهارهم، بل في سبيل مجدهم الذاتيّ فحسب. وهنا يكمن أَحد المخاطر الذي يتربّص بمن يريدون العمل مع الضعفاء : ألا وهو الرغبة في التفوّق، وفرض الإِرادة والرؤية والحرّيّة الذاتيّة.

و الحاجة إِلى الفوز، عموماً، من الشدّة، بحيث قد تُفضي خلافات طفيفة إِلى صدامات حادّة، لا مبرّر لها. فكم من النقاشات الصاخبة حول مواضيع تافهة كي يثبت كلّ طرفٍ أَنّه هو مالك الحقّ. وكم من شجارات بين الأزواج كي يستطيع كلّ واحد منهم أَن يقول: " أَنا على صواب، وأَنت على خطأ ! " إِنّ الشعور بالعجز، والخطأ، والفشل، يُسبغ شعوراً بالموت. وقد يلجأ البعض إِلى الغشّ، والكذب، وإِلى استخدام كلّ الذرائع الظالمة واللامشروعة، في سبيل ممارسة النفوذ، والظفر بالسلطة والاعتراف والتقدير. وقد يسعون إِلى خداع الجميع، وإِلى التظاهر بالمظهر المؤهّل للقبض على السلطة والحفاظ عليها، ولذلك يصبح الاتّصال بأَصحاب السلطة أَمراً عسيراً؛ فهم يتوارون خلف أمناء سرّهم، ومدراء مكاتبهم، وحرّاسهم، الذين قد يسهمون في إِخفاء ضحالة كفاآتهم، وفقرهم الإِنسانيّ، وعجزهم عن الإِصغاء، وعن استخدام السلطة في سبيل خدمة الآخرين، وفق هدَفٍ محدّد.

و التعطّش إِلى السلطة، لدى البعض، لاقرار له، تواكبه إِرادة بسط النفوذ وتوسيع آفاقه. وأوضح شاهد على هؤلاء هو الطغاة، وزعماء المافيا، وما يحدوهم من رغبة جامحة في إِصدار الأوامر، ومضاهاة اللّه، وعدم الخضوع لأَيٍّ كان. لدى الكثيرين من البشر يكمن ديكتاتور صغير؛ وقد لا يمارسون سلطانهم إِلاّ على عدد ضئيل من الناس، مثل

موظّفيهم، أو الزوج، أو الزوجة، أو الأولاد. ومع ذلك فالدكتاتور كامن متحفّز للانقضاض كي يحكم، ويراقب، ويثبت تفوّقه.

جدار صفيق يفصل بين من نجحوا ومن أخفقوا، بين الغنيّ ولعازار، ففي جانبٍ، الحياة، وفي الجانب الآخر الموت. ولا بدّ من الحياة، بأيّ ثمن، حتّى إن كان الثمن هو الحقيقة والعدل، والرأفة، ولا بأس، في سبيل القضاء على المنافس، من إظهاره شرّيراً، وإثارة الشبهات حول أخلاقه، وحياته الخاصّة، والحطّ من قدره، في سبيل الفوز.

غير أنّ عدد الثاوين في الجانب البائس من الجدار لا يني يتعاظم، وهم ينزعون إلى التكاتف. ويتصاعد غضبهم حيال الظلم بحيث ينفجر العنف يوماً، ويستولي المسحوقون على السلطة، ولكنّهم سرعان ما يسحقون، بدورهم، أولئك الذين كانوا قد سحقوهم من قبل، حتّى يأذن يومٌ يثور فيه المسحوقون الجُدُد؛ وعلى هذا النحو لاتني البشريّة تتمخّض أبداً عن ضروبٍ جديدة من العنف.

ثمّة، في عالمنا، الأعلى والأدنى، الشمس والحمأة، الجميل والقبيح. وسرعان ما يُفرز القوم إلى طاهرين ونجسين، أخيار وأشرار، فاضلين وخطأة، قادرين وعاجزين. وبين أولئك وهؤلاء ينتصب جدار. فعلى أبناء الصالحين ألاّ يلعبوا مع أبناء الأشرار؛ وينمو، في جانب الطاهرين، شعور بالتفوّق والكبرياء؛ وفي جانب النجسين، مدمني الكحول، والمخدّرات، والمضطربين جنسيّاً، يتعاظم شعور بالذنب، والارتباك، والقنوط والانهيار، ويرون، عن ذواتهم، صورة مهشّمة.

نعرف جميعنا القصّة التالية : مدير مؤسّسة أنّب، اعتباطاً، أحد موظّفيه؛ فانتابه شعور بالمهانة والجرح، ولكنّه لم يجرؤ على الردّ، وعاد إلى منزله ثائراً، ولم يكن الطعام جاهزاً، فصاح في وجه زوجته، وصبّ عليها جام اضطرابه وغضبه؛ وهي، بدورها، لم تجرؤ على الردّ، ولكنّها شاهدت ابنها يتناول شيئاً من الثلاّجة، فنهرته بعنف؛ وظلّ صامتاً، ولكنّه مضى إلى الشارع ورفس كلباً. وهكذا تنتقل العدوانيّة من شخص إلى شخص، ومن مجموعة إلى مجموعة، ومن جيل إلى جيل، وتثير الخوف الذي، بدوره، يثير الرغبة في التدمير؛ وثمّة دائماً الضحيّة الأخيرة العاجزة عن الردّ، التي تتلقّى اعتداء الآخرين، صامتة، مهانة؛ وتلك هي، غالباً حال المعاقين عقليّاً ".

و هناك، أخيراً، **جدار التباين**، فالبشريّة جماعات، وكلّ جماعة تضمّ قوماً متشابهين، يشتركون في قِيَم وقناعاتٍ محدّدة، وكلّ جماعة وطنيّة، أو عرقيّة، أو سياسيّة، أو دينيّة، أو مناهضة للأديان، تعدّ ذاتها هي الفضلى، وتنزع إلى نبذ الآخرين على أنّهم ضالّون، وتقيم دونهم جداراً. ويصبح من اليسير على كلّ فرد إدانة الآخر المختلف، ويعسر عليه الحكم على ذاته، وعلى الجماعة التي ينتمي إليها، حكماً موضوعيّاً.

إنّ الإنسان المختلف عنّا، أو الغريب، يزعجنا، وأُسلوب عيشه، وقناعاته، وتقييمه للواقع، ونمط تعامله معه، وعاداته وتقاليده، ولغته، وقِيَمه الدينيّة من الغرابة عنّا بحيث يشقّ علينا الإصغاء إليها، واحترامها، وخاصّة تمثّلها. فقناعات الآخرين المختلفين عنّا كفيلة بحملنا على إعادة النظر في قناعاتنا، وبزرع الشكّ فينا، ويمضي الغريب المختلف عنّا قُدُماً في إزعاجنا، بقدر تخيّلنا العثور على جوهر الحياة في شعورنا بتفوّقنا الخاصّ، وتعلّلنا بالأوهام حول طيبتنا الخاصّة، وفهمنا للحقيقية، وبقدْر رفضنا رؤية ذاتنا على حقيقتها. إنّنا نأبى الإصغاء إلى الغريب المختلف بقلبٍ منفتح، وإذا ما أَصغينا، فبحذَر وتوجّس، وننزع إلى تأويل أقواله وفق معايير مسبقة.

و مثل هذه الهواجس الناجمة عن التباين قد تنشأ بين الرجل والمرأة، وبين الأَجيال. فالوالدون يعرفون ما هو خيرٌ لبنيهم، ولكنّ المراهقين ميّالون إلى إدانة آبائهم، ويرفضون الأَخذ برأيهم في ما هو لصالحهم، ويؤثرون التصرّف على هواهم.

و تتكاثر الجدران بين الأَفراد، وأَعضاء الأُسرة الواحدة، والجماعات.

إنّ كلّ جماعة، وكلّ ديانة، وكلّ عرق، وكلّ أمّة، في حاجةٍ إلى تأكيد تميّزها، على أنّها المثلى، وهي النخبة، وهي الفريدة، وهي، وحدها، تمتلك الحقيقة، ولكأنّ عالمنا محكوم فقط بقانون المنافسة والخصام. وكذلك هو شأن كلّ فرد، فكلٌّ يودّ أن يؤمن، ويؤكّد، ويثبت أنّه الأوّل، ويتسلّح، في سبيل ذلك، بالحجج، وأَحياناً بالبنادق الرشّاشة والقنابل.

هذه الجدران من كلّ نمط، عمل جان فانييه على تقويضها، وقد أَسهم المعاقون أنفسهم الذين أُزيحت دونهم الجدران، في نسفها. وفي هذا السياق يروي جان فانييه أَنّ رجلاً شرس الطباع كان يقطن في قرية فيها إحدى جماعات "السفينة"، وكان يُظهر مقتاً للمعاقين وللجماعة كلّها، ولا يني يهدّدهم ويشتمهم، ويثير خوفهم بهجومه عليهم بجرّاره. وذات يوم، عزم على السفر، في عطلة صيفيّة، فوافاه نيقولا، المعاق، والتمس منه العناية بأَرنبه، في أَثناء غيابه، فرضي، ونشأت بينهما مودّة؛ وشيئاً فشيئاً، تغيّر الرجل، وبات يزور جماعة المعاقين بين فينة وأُخرى، ويشاركهم الطعام، وانقلبت عدوانيّته وتهديداته إلى تعابير صادقة، وترحيب، وانهارت جدران البغضاء، وقام، مكانها، تيّار ثقة.

و قد جهدت " السفينة " في تقويض هذه الجدران بفضل الحياة الجماعيّة التي تعيشها، والتي تقتضي إخاءً حقّاً، حيث يصغي الأَشخاص بعضهم لبعض، ويحبّ بعضُهم بعضاً، وهي تتطلّب الحدّ، ما أَمكن، من الجدران التي قد تنتصب بين المعاقين ومن قدموا للعيش معهم، والتي تُستخدم، أحياناً، لحماية المساعدين، وصوْن سلطتهم. هذه الجدران لا يمكن هدمها إلاّ بالحبّ والثقة المتبادلَيْن. وحينئذٍ يدخل المساعدون في علاقة تواصل مع المعاقين، وفي مقابل بذلهم وخدمتهم يتلقّون ويكتشفون إنسانيّتهم الخاصّة، ويُقدمون على مجازفة الحبّ.

و المحاولة الصادقة لقبول المعاق، كما هو، تكشف، لكلّ من يقوم بها، الحـــواجز التي يحيط بها نفسه، ومدى أَنانيّته ومخاوفه، وتساعده على تخطّيها. ولئن عجزت الحواجز التي نحيط بها نفسنا عن منع الآخرين من اقتحامنا، إِلاّ أَنّها تمنعنا، نحن، من الخروج مـــن ذواتنا، التي تصبح لنا سجوناً وتوابيت.

جان فانييه والسجناء

كثيراً ما دُعي جان فانييه للتحدّث إِلى قاطني السجون، وحتّى الخطرين منهم. وغالباً ما اتّضح له أَنّه، بتحدّثه عن آلام المعاقين، كان يذكّر المساجين بآلامهم، فنفوس معظمهم كانت جريحة، وكان ماضيهم حافلاً بالمعاناة. ويعترف جان فانييه بأَنّ عالم السجون كان له اكتشافاً مدهشاً، علّمه الكثير، وحرّره من سذاجته. وهو ما زال يذكر سجيناً دنا موعد الإِفراج عنه؛ وقد استغرق في التحدّث إِليه، فطلب منه السجين بعض عناوين أَشخاص بوسعهم مساعدته، عقب إِطلاق سراحه، فبادر جان فانييه إِلى تزويده بعناوين أَصدقاء له. وبعد فترة وجيزة، انهمرت عليه رسائل من كلّ صوب، من أَشخاص أفادوا أَنّ غريباً جاءهم من قِبَله، ومكث لديهم أَيّاماً قليلة ومضى مصطحباً ما خفّ وزنه وغلا ثمنه. وقد علّمه ذلك، أَيضاً، ألاّ يستقبل، في جماعات السفينة، أُناساً خارجين مباشرة من السجن، قبل أَن يمضوا فترة في الخارج، لأَنّ للجماعات قواعد قد لا ينسجم معها، فوراً، من لا يزال محكوماً بسلوك السجون. غير أَنّه رأى وجه محاكاة كبيراً بين جوّ "السفينة"، وجوّ السجن، وأَجواء بلدان العالم الثالث، وما يعانونه، جميعاً، من النبذ، وقد جهد في تحطيم الحواجز القائمة بين الأَشخاص الطبيعيّين والمعاقين، بين الجرحى المسجونين والجرحى الطلقاء، بين العالم المتقدّم والعالم الثالث.

و قد نظّم، يوماً، في أوتّاوا، لقاءً فريداً، في سجن مهجور، بين سجناء، وسجناء سابقين، ورجال أمن، وحرّاس، ومدراء سجون، وعلماء نفس، وموظّفين، قضوا معاً يومين وليلتين، من غير أَن يعرف أَحدهم شيئاً عن صفة الآخر ووظيفته، وهويّته، وقد رقدوا في أَسرّة متجاورة، وربّما رقد في أَحدها مدير سجن وإِلى جانبه سجين محكوم مدى الحياة؛ وكانت تجربة ثمينة، ولكن من المؤسف أَنّها لم تتكرّر.

أَمّا التجربة الأُخرى التي قام بها، فهي تنظيمه رحلات شهريّة يشترك فيها سجناء ومعاقون، وكان ما أظهره السجناء من رقّة وطيب، حيال المعاقين، والتناغم الرائع بين هامشيّي المجتمع، مشهداً يتعذّر نسيانه.

غير أَنّ جان فانييه الذي التزم دائماً، وبكلّ كيانه، تجاه جرحى الحياة، قد شقّ عليه أَبداً، أَن يشرع في إِقامة علاقة مع سجين ويضطرّ إِلى هجره؛ مثلما شقّ عليه دائماً أَن يأخذ بين ذراعيه ولداً معاقاً ملقى على سرير مصحّة، وأَن يضطرّ إِلى إعادته إِلى سريره بعد دقائق، ويعترف، في هذا الشأن : " عندما تلمس ولداً لم يلمسه أَحد، قطّ، إِلاّ بدافعٍ وظيفيّ صرف، وعندما تشدّه إِلى صدرك، وتعبث معه، فيشرع فوراً ينفتح ويزدهر، ثمّ تضطرّ إِلى إِعادته إِلى سريره... فتلك تجربة أَليمة ".

و لجان فانييه، عن السجون، ذكريات وشجون، وخبرة غنيّة. فقد نظّم، يوماً، رياضة روحيّة في أَحد سجون غربيّ كندا، ومكث في إِحدى زنزاناته. وفي المساء، راح يحدّق في سحر الليل ونجومه من خلال القضبان، فغمره شعور عارم بالتضامن مع عدد جمٍّ من الرجال والنساء المسجونين، عبر العالم. وفي أَثناء تلك الرياضة، دُعي إِلى قضاء سهرة في "نادي 21 "، وهو منتدى الرجال المحكومين بجرائم لمدّة إِحدى وعشرين سنة أَو أَكثر. واستمع إِلى نجواهم واعترافاتهم، وإِلى الظروف التي أَفضت بهم إِلى ذلك المصير البائس، فأَيقن أَنّه لو وُلد في أُسرة أُخرى، أو أُنشئ نشأة مختلفة، ووُضع في مثل ظروفهم، لربّما انتهى إِلى ما انتهوا إليه. فهم قد عاشوا في عالَمٍ خلا من الحنان، عالم يبعث على القلق، والعنف، مسوّر بجدار صفيق يفصل بين المدانين، من جانب، وفي الجانب الآخر، الصالحين الذين غالباً ما يدينون السجناء. كثيرون منهم حُكم عليهم منذ طراوة عودهم، وهم متحدّرون من أُسَرٍ مفكّكة، عنيفة، تعاني الفاقة والبطالة...

و يروي جان فانييه : " في سجنٍ كنديّ آخر، عقدت محاضرة حول الأَشخاص الذين نستقبلهم في " السفينة "، والذين كابدوا من النبذ، وباتت صورتهم لذاتهم مشوّهة وجريحة. وكنت أُدرك أَنّني، بتحدُّثي عن أولئك الأَشخاص، إِنّما كنت أروي قصّة العديدين من المسجونين أَنفسهم. وفي ختام المحاضرة، هبّ رجلٌ واقفاً، وندّد بي صائحاً : "أَنت قد سقتَ عيشة هنيّةً، ولا تعلم شيئاً عن ظروف عيشنا. أَنا، كنت في الرابعة عندما شاهدتُ أُمّي تُغتَصب أمامي. وفي السابعة باعني والدي للوّاط كي يظفر بمال ينفقه على السُّكر. وفي الثالثة عشرة، قبض عليّ رجال الشرطة ". وأَنهى خطابه وهو يجأر : " إِنّ دخل رجلٌ آخر إِلى السجن، وحدّثنا عن الحبّ، لرفستُه على رأسه ".

و يضيف جان فانييه : " ما زلت أَدهش لوجوه المحاكاة بين المسجونين والمعاقين عقليّاً. فهم، غالباً، يثوون في مؤسّسات، خلف جدران وأَبواب موصدة بالمزلاج، وتُراقَب تحرّكاتهم. معظمهم لم يعهدوا حياة الأُسرة المتناغمة، الدافئة، الآمنة. وسحابة حياتهم حملوا سمات وضعهم هذا. وهكذا نشأت، في قلوبهم، جروح عميقة جعلت بعضهم عدائيّين وعنيفين، وجعلت آخرين منهارين، منكمشين على ذواتهم، نزّاعين إِلى تدمير ذواتهم، وقد انقلب عنفهم عليهم ".

مسيرة

عندما يستعيد جان فانييه قصّة مسيرته مع "السفينة"، تتجمّع لديه كلّ أَسباب الابتهاج والرضى؛ فهذه القصّة هي قصّة مئات الرجال والنساء والأَولاد الذين قدموا من ملاجئ، ومشافٍ نفسيّة، ومن مختلف مطارح النبذ والهجر، وعبروا من الموت إِلى الحياة، ومن الاضطراب إِلى الاطمئنان، ومن العزلة إِلى الجماعة، ومن القنوط إِلى الرجاء. وقد قُيّض لهم ذلك بفضل المساعدين الكُثُر الذين واكبوهم. وهي أَيضاً قصّة هؤلاء المساعدين، والأَصدقاء الذين عهدوا حياة جديدة، بعقدهم معاهدة محبّة مع الضعفاء والفقراء.

و من جرّاء كلّ ذلك تحوّلت حياة جان فانييه، وتحوّل قلبه. صحيح أَنّه تصرَّف، أَحياناً، بسذاجة، وافتقر إِلى الحكمة، وارتكب أَخطاء، وخَبَر أَزمات؛ ولكنّه، من كلّ ذلك، تعلّم، وتلقّى نِعَماً يدعم بها الربّ كلّ هشّ.

بعض المراكز، التي لم تُشبع كفاية بروحانيّة " السفينة "، أُغلقت أَبوابها، وبعضها أُغلق لأَسباب مختلفة، ولا ريب أَنّ إِغلاقها كان مصدر أَلم، ولكنّ الأَلم من عوامل نموّ "السفينة " الجوهريّة، وهي التي بنيت على الأَلم والضيق.

غير أَنّ مراكز أُخرى كثيرة رأت النور، في شتّى أَرجاء العالم، حيث كانت تدعو إِليها ضرورة ملحّة. و"إِيمان ونور"، مع هشاشة نشأتها، انتشرت في جميع بقاع المسكونة.

و مثل كلّ مؤسّسة تسير في عكس التيّار، تعرَّضت " السفينة " لانتقادات متنوّعة، غير أَنّها، في مضامير كثيرة، أَثبتت نبويّتها، وسَبْقَها لزمانها، ولا سيّما في ميدان شفاء أَلم المعاق بالعيش معه عيش أُسرة، والإِصغاء إِلى احتياجاته الكمينة، والجهد في الاستجابة لها بحبّ. وقد أَثبتت أَنّ ما يدعو إِليه بعض المختصّين من وجوب توفير حياة "طبيعيّة " للمعاقين لن يصيب هدفاً إِن كان " التطبيع " يعني قسر المعاقين على العيش وفقاً لمعايير المجتمع الشائعة، فازدهار المعاقين لن يتحقّق إِلاّ من خلال علاقات محبّة، وصداقة، وحسن جوار؛ وفقط بالنهل من هذه الينابيع، وبالإِسهام في شبكة العلاقات هذه، يستطيع كلّ فرد إِنماء قدراته على الخدمة، والعمل، والخلق، واكتشاف التواصل مع اللّه.

و لا عجب إِن أَصبحت " السفينة " دريئة للنقد، بعد أَن شكّكت في قناعاتٍ كثيرة، وأَزعجت أَشخاصاً عديدين، لأَنّها تعكس جنون مرامي اللّه، وصورة " يسوع يُجرّ في شوارع أورشليم، ويُدان لأَنّه تجرّأ على نقض قناعات عهده السياسيّة والدينيّة، ويُعذَّب، ويُمات. ومع ذلك، هو شافي المحطّم، والجريح، الذي يشفي جراحنا. هو، الحمَل، راعينا". وهذا الجنون مستمرّ، إِذ إِنّ يسوع اختار الاختباء في الفقراء، في من هم محطّمون، معاقون، عاجزون، هامشيّون، مرضى، عراة، مسجونون وغرباء.

منذ نشأتها، لم يكن من الممكن إِدخال " السفينة " ضمن تحديد واضح، فلا هي مجرّد مؤسّسة ذات اختصاص، ولا هي مجرّد جماعة مسيحيّة، بل هي تتوخّى أَن تكون، في آنٍ واحد، موئل استقبال تعترف به الدولة، وجماعة مسيحيّة قائمة على قِيَم الإِنجيل، وغالباً ما هي حيّرت الدولة والكنيسة معاً. فالدولة تعترض أَحياناً على ضآلة رواتب المساعدين، وعلى نفقاتٍ تعدّها نافلة، في حين تراها " السفينة " ضروريّة لحياة الجماعة، ولازدهار المعاقين.

و " السفينة " تخصّص للكاهن دوراً هامّاً في الحياة الجماعيّة، على أَن يقوم بينه وبين الإِدارة العلمانيّة تواصل حقّ، ولا يتعدّى أَحد الجانبين على دور الآخر. ولكنّ جان فانييه، مع وفائه للكنيسة، وتقديره الجمّ للحبر الأَعظم، يأخذ على الكنيسة تأثّرها بالثقافة الشائعة، واعتمادها تراتبيّة قائمة، غالباً، على السلطة والثروة، ذاهلة عن أَنّ يسوع قد قلب، رأساً على عقب، النظام القائم، وأَعلن أَنّ شفاءنا لا يتحقّق إِلاّ بهبوطنا، بتواضع، درجات السلّم الاجتماعيّ، وبتقرّبنا من الفقراء والمنبوذين. فعلى الكنيسة أَن تكتشف أَنّها جسد فيه أَعضاء ضعيفة وهشّة تحتاج إِلى اعتراف وتكريم... " من أَجل استعادة معنى التواصل وجسد الكنيسة، ثمّة ضرورة جوهريّة في أَن تقوم علاقة صحيحة بين الكاهن والعلمانيّ، وفي أَن يُعتبر الفقراء لا كمادّة للإِحسان، بل بمثابة كنز للكنيسة". ويضيف :

" إِنّ المعاقين مدهشون لأَنّهم في حاجة ملحّة إِلى التواصل. لم يوجدوا لكي يُعلِّموا إِنجاز أَشياء، ويُبشِّروا بالإِنجيل. بل غاية وجودهم عيش التواصل. وهم يوفّرون لنا رؤية لسرّ الثالوث، الذي لا يتمثّل في الاضطلاع بأَعمال، بل في التواصل. إِنّهم يحتلّون، حقّاً، قلب الجماعة والكنيسة، لأَنّ حاجتهم الوحيدة هي التواصل، ولأَنّ الكنيسة، ليست، ليسوع، سوى مكان تواصل ".

من البيّن أَنّ اللّه لم يدعُ جان فانييه إِلى الكهنوت. و" السفينة " قد نهضت على دعوتين متكاملتين : دعوة الكاهن ودعوة العلمانيّ. إِنّ جان فانييه، بصفته علمانيّاً، انتهج دروباً، ونطق بعبارات ربّما كانت حُظرت عليه لو كان كاهناً. ومن جهة أُخرى عقد أوثق العلاقات مع رجال الكنيسة، وكانت له صداقة حميمة مع دون هيلدر كامارا والأُمّ تيريزا؛ وقد بذل جهوداً حميدة لكي يوضح صورة " السفينة " في الفاتيكان. ولكنّه لم يتوانَ عن التحذير من مخاطر مسكونيّة مبنيّة على مجرّد تعاون، في حين يتعيّن أَنّ تكون تواصلاً وعلاقة وثيقة بين جسد المسيح المحطّم، وأَجساد البشريّة المحطّمة ". سيكون أَمراً مريعاً أَن تستعيد الكنائس وحدتها في قدرة اللّه وعظمته، في معزل عن معنى التجسّد الجوهريّ، وهو حضور يسوع في الفقير ".

في شهر تشرين الأَوّل من عام 1987 دعاه البابا يوحنّا بولس الثاني للمشاركة في السينودس حول دعوة العلمانيّين ورسالتهم، وقد رأى جان فانييه، في هذه البادرة، عملاً نبويّاً. ولكنّه أَخذ على السينودس إِغفاله استعادة الفقراء وصغار هذا العالم إِلى قلب الكنيسة، وإِهماله كنزاً لا يُثمّن، تمثّله، للكنيسة، قدرة الفقراء على منح الحياة، وتوليد الحبّ.

لقد اعترف جان فانييه بقوله : " كلّ ما هو خيّر ومقدّس في حياتي ينبع من المعاهدة مع يسوع، في الكنيسة ". ولكنّه يأسف أَن تظلّ الكنيسة أَسيرة أساليب العالم، خائفة من النبويّة، متشبّثة بالبُنى القائمة، متردّدة في رؤية يسوع مختفياً في الفقير الذي يزعج ويشفي.

و للعالم، ضرب جان فانييه، عبر " السفينة "، مثالاً على إِمكانيّة التعايش المحبّ بين أَشخاص مختلفين؛ وأَعلن أَنّ المعاقين لا يملكون فقط حقّ الكرامة، بل أَنّ لديهم ما يقدّمونه للعالم، وأَنّهم يدعون إِلى إِعادة النظر في قِيَم السلطة، والتنافس، والاستهلاك، والفرديّة.

" السفينة " رائعة لأَنّها تثير من الأَسئلة أَكثر ممّا تقدّم من الإِجابات. والمهمّ هو المضيّ قدُماً بأَسئلة جيّدة، وبإِيقاظ الوعي حولها، مع اليقين بأَنّ لدى الربّ وحده الإِجابة. ومن دواعي الاطمئنان أَن نكتشف أَنّ مهمّتنا لا تتمثّل في إيجاد الحلّ، بل في ترك يسوع يعمل فينا وبنا".

عموماً، تطوّر المعاقون تطوّراً جيّداً، واكتسبت جماعات "السفينة" حكمة. والتحدّي الذي تواجهه، اليوم، هو أَن تتيح للمعاقين الذين استقبلتهم شيخوخة كريمة، وأَن توفّر سنداً منيعاً للمساعدين الذين كرّسوا لها حياتهم بعد أَن اختاروا العزوبة.

و يخشى جان فانييه من نزعتين : أَن يتجمّع المساعدون في ما يشبه جمعيّة رهبانيّة تضمن لهم بعض الأَمان، ولكنّها تنأى بهم عن المعاقين، أو أَن تتحوّل " السفينة " إِلى مركز تختنق فيه القِيَم الدينيّة، تحت ضغط الكفاءات المهنيّة. وفي كلا الحالتين، ستضيع الفكرة الجوهريّة المتمثّلة في العيش حياة أسرة مع المعاقين.

و لكنّه واثق من أَنّ لدى " السفينة " من المرونة ما يتيح لها الحفاظ على روح الأسرة.

" إِحدى روائع "السفينة" أَنّ نحو خمسين من المساعدين الرجال هجروا الجماعات ليصحبوا كهنة، وأَنّ أَكثر من ثمانين أمرأة من المساعدات انضوين إِلى رهبانيّات تأمّلية. وجميع هؤلاء يوفّرون للسفينة دعم صلاتهم المتين. وفي هذا السياق تروي راهبة بنيدكتيّة أَنّها كانت فتاة شديدة الاهتمام بالقضايا الاجتماعيّة، وذات يوم، زارت "السفينة "، فالتقت رجلاً كنديّاً برفقة جان فانييه، كان قد قضى أسبوعين في غابة يصلّي. فأعربت عن استنكارها لتركه أَلم الآخرين للاستغراق في الصلاة، في حين أَنّ الصلاة، في نظرها، هي،

أوّلاً، العمل. ولكنّ جان فانييه ردّ عليها : " وما رأيك بمريم ومرتا ؟" وكانت تلك خطوتها الأولى نحو الرهبنة.

و كانت "مارت روبان" المعاقة جسديّاً، قد تبنّت " السفينة " في صلاتها، منذ نشأتها.

إنّ ضمان بقاء " السفينة " هو وفاؤها للفقراء. "قوّتنا الكبرى هي حضورنا إلى جانب الفقراء. إنّ ذلك يبدو موغلاً في الصغر، ولكنّ قدرة اللّه تتجلّى في الصِّغر".

" السفينة " ماضية تمخر عباب عالم مصطخب؛ في العقد الأخير افتتحت مراكز جديدة في كلٍّ من أوغاندا، واليابان، والولايات المتّحدة، وهنغاريا وبولونيا. ومذ شرع الستار الحديدي ينحسر عن الدول التي كانت خاضعة للحكم الشيوعيّ، استمالت تلك البلدان جان فانييه، فبات يختلف باطّراد إلى روسيا، وليتوانيا، ورومانيا، وهنغاريا، وبولونيا، وسلوفينيا، لكي يصغي إلى احتياجات فقرائها، ويوقظ وعيهم على مكانة المعاقين في مخطّطات الربّ. وسرعان ما شعر بضرورة غرس نبتات " السفينة " و" إيمان ونور " في تلك البلدان.

حجّ " إيمان ونور " إلى لورد عام 1991، بمناسبة ذكرى تأسيسها الخامسة والعشرين، تمّ تحت شعار " الوحدة "، وحدة بين البلدان، والطبقات الاجتماعيّة، والثقافات، بين المعاقين وأصدقائهم، وبين المسيحيّين من شتّى الطوائف. وقد ضمّ ذلك الحجّ ثلاثة عشر ألف حاجّ من القارّات الخمس، كثيرون منهم أتوا من بولونيا، وهنغاريا، ورومانيا. ومنذ عام 1992 كان لحركة " إيمان ونور " خمس جماعات في مدينة موسكو وحدها. وفي ذلك العام نفسه ألقى جان فانييه، في معهد لاهوت بوخارست، مواعظ رياضة كانت مفتوحة للبروتستانتيّن والكاثوليكيّين، وللأورثوذكسيّين. وقد أثلج صدره سماح البطريرك الأورثوذكسيّ بالاحتفال بإفخارستيّا مشتركة، مرّة كلّ يومين، في كنيسة أورثوذكسيّة، وكان ذلك حدَثاً بكراً.

و في عام 1993 ألقى جان فانييه مواعظ رياضة مسكونيّة في أوكرانيا استقطبت كاثوليكيّين رومانيّين، وملكيّين، وأورثوذكسيّين خاضعين لبطريركيّة موسكو، وكذلك معمدانيّين، وعَنصَريّين.

و لكن في كلّ تلك البلدان كان اندفاع الشعب لاستعادة شيءٍ من الاستقرار الاقتصاديّ والحريّات العامّة، يخنق صيحات المعاقين. وراح يذكّر الجميع بأنّ الإنصات إلى الضعفاء والسريعي العطب، وحده، يقود إلى اكتشاف جمال القلب البشريّ، الذي يقف السعيُ المحموم إلى المال والسلطة والتنافس، عائقاً دون استشفافه.

عام 1993، أَثبتت " السفينة " نضوجها، بتبيّنها ميثاقاً يكرّس الوحدة بين جماعـــات "السفينة " التي ترتدي طابعاً مسيحيّاً واضحاً، وتلك التي لا طابع دينيّاً معيّناً لها.

و حلّ شبّان يتميّزون بالكفاءة والاندفاع محـــلّ المؤسّســـين والـــروّاد، واعترفـــت الحكومات والمنظّمات الاجتماعيّة بمكانة " السفينة " ودورها.

غير أَنّ جان فانييه لا يكفّ يؤكّد على ضرورة التقيّد بالجوهريّ، ويذكّر بأَنّ الفقراء والصغار هم حَمَلة الرجاء للعالم. وهو، وسط الفوضى العامّة، والمشـــاكل المعقّـــدة التـــي تتحدّى عالمنا، أَشدّ قناعة، من أَيّ وقت مضى، برسالة " السفينة " التـــي يوجزهـــا بقولـــه: "جميعنا مدعوّون إِلى نشدان النور والحياة لا في الكواكب، بل في الحمأة، والظلمة الظاهرة، والوهن، والهشاشة"

جان فانييه الواعظ

عام 1968 دعت جماعة من الكهنة الكاثوليكيّين جان فانييه إِلى إِدارة رياضة روحيّة في مدينة ميريليك الكنديّة التابعة لرعيّة تورنتو، وقد باغتته هذه الدعوة وهو العلمانيّ، وكاد يرفضها. ولكن بعد أَن أعمل الفكر وصلّى، انتهى إِلى قناعة بأَنّ هذه الرياضة، إن هي تمّت، ينبغي أَلاّ تكون مقصورة على الكهنة، بل ينبغي أن تكون مشرعة على جميع الراغبين من أَبناء اللّه. ومن ثمّ اقترح أَن يتأَلّف ثلث الحضور من الكهنة، وثلث آخر من رهبان وراهبات، والثلث الأخير من علمانيّين. مدّة الرياضة كانت قد حُدّدت بثمانية أيّام، على أَن يندرج معظمها في الصمت. كانت تلك هي المرّة الأَولى التي يلقي فيها جان فانييه مواعظ رياضة روحيّة، ولا عجب إِن تولّته الرهبة وهو يلج مكتب " مدير الرياضة ". غير أَنّه اعترف : " في تلك اللحظة أوتيت نعمة مدهشة، نعمة قويّة جدّاً ". وفيما بعد، عزا طلاقة حديثه إِلى أَنّه لم يتورّط، يوماً، في منازعات الكنيسة الداخليّة، وعيشه، من جديد، خبرته كأستاذ : " شيء كان يتدفّق منّي بقوّة، ويبدو أَنّه كان يؤثِّر في الحضور". كان يمتلك سرّ الكلام الذي ينفذ إِلى القلوب، ويحوّلها، أَكثر من نفاذه إِلى العقول، وهو يلاحظ في هذا الشأن: "غريب أَنّ القوم يقولون لي دائماً: " إِنّك لا تقول شيئاً لم نكن نعرفه من قبل "، وكأَنّ الكلام كان ينفذ إِلى أَعماقهم، ويضع كلمات على ما كانوا يدركونه من قبل. في الواقع، نحن لا نلقّن أَحداً شيئاً، إِنّما نجعل الناس يعون ما يعرفون ".

تلك الرياضة وكثيرات من اللواتي تلت، جعلته يكتشف قدرة كلام اللّه، كلام هو "البشرى الطيّبة المعلنة للفقراء، والوعد بحضور يسوع، وصفحه، ودعمه؛ كلام يوقظ فينا طاقات حبّ جديدة، يطهّر ويحرّر، ويعلن لكلّ فرد هويّته الحقيقيّة، بصفته ابناً للّه محبوباً أو ابنة محبوبة ".

و غالباً ماكان يشعر، وهو يعظ، أَنّه أوّل الموعوظين، وأَنّ البُشرى كانت تؤتيه خيراً جزيلاً. وللآخرين كان يبلّغ رسالة الإِنجيل المتعلّقة بالفقراء، والمرضى، والمعاقين، الذين تمثّل يسوع بهم، وذلك انطلاقاً من خبرته مع الأَشدّ حرماناً. وكلامه، النابع من تأمّلاته واختبار عيشه، كان يرتدي قوّة خاصّة، ويظهر قدرة الكلمة المتجسّد، فاعلة بقوّة في حاضر حياتنا.

و إِلى جانب مداخلاته، نظّم جان فانييه فترات عبادة صامتة، وحلقات يشترك في كلٍّ منها ثمانية أَشخاص يتبادلون فيها خبرات إِيمانهم، في منأى عن أَيّ نقاش، فضلاً عن المشاركة الجماعيّة في الذبيحة الإِلهيّة. وتقرّر تنظيم رياضتين في العام التالي، يقدّم مواعظ إِحداها جان فانييه، في حين يتولّى أَحد المشاركين إِدارة مواعظ الأخرى. وهكذا نشأت

حركة "إيمان ومشاركة"، التي تولّت تنظيم رياضات روحيّة على غرار هذه الرياضة الأولى. فحيثما كان يدعى جان فانييه، كانت تشكّل، في نهاية الرياضة، جماعة مهمّتها الإِعداد لرياضة السنة التالية. وسرعان ما تألّفت جماعات صغيرة من أَشخاص راغبين في التلاقي من أَجل المشاركة في الصلاة والتبادل، وارتضى كهنة، ورهبان، وعلمانيّون إِلقاء مواعظ رياضات؛ وتحقّقت رغبة جان فانييه الأَصيلة، بإِقامة رياضات يشترك فيها كلّ شعب اللّه وتضمّ علمانيّين، وكهنة، ورهباناً، متزوّجين وعازبين، شبّاناً وشيوخاً، من كلّ الفئات الاجتماعيّة، ومعاقين، وهامشيّين، ومسنّين متقاعدين. هذه الجماعات نشأت في كندا، والولايات المتّحدة الأَميركيّة، وإِنكلترا؛ وغالباً ما كان يتكرّر مثَل الإِنجيل، فكثيرون من المدعوّين إِلى الوليمة كانت مشاغلهم تحبسهم عن الحضور، في حين كان يتقاطر، بلهفة، المتعطّشون إِلى الكلمة الخلاصيّة، وكان حضورهم جزيل الجدوى.

و في أَعقاب تخفّف جان فانييه من مسؤوليّاته الإِداريّة في "السفينة"، بات الوعظ وإِلقاء المحاضرات شاغله الأَهمّ؛ وهو لا يني يجوب مشارق الأَرض ومغاربها، ملبّياً الدعوات التي ترده لهذا الغرض. وموضوعاه الأَثيران هما يسوع، وتطويباته، وحبّه المدهش من جانب، ومن جانب آخر جرحى الحياة وصيحاتهم التي يساعد الإِصغاء إِليها، والسعي إِلى تلبيتها، على اكتشاف يسوع، واكتشاف الذات بأنوارها وظلماتها، بأوهانها ونِعَم الربّ المنسكبة عليها. إِنّ يسوع يدفع نحو الصغار والمسحوقين، وهؤلاء، بدورهم، يقودون إِلى يسوع.

مواعظ جان فانييه، إِذن، تتدفّق من نبعين : خبرته الثرَّة مع المعاقين، وتوغّله في معرفة يسوع وعيش تطويباته.

و ربّما كان جان فانييه أقلّ الوعّاظ اهتماماً بنصّ مواعظه وأسلوبها، بل هو يدع قلبه يتكلّم على سجيّته، في بساطة أَخّاذة، وتلقائيّة سائغة، منقاداً لمنطقٍ داخليّ صارم، ولنفحات الروح. وحتّى تكراره لعبارات، ومواضيع، وأَحداثٍ، باتت نسيج حياته وكيانه، يظلّ مستعذباً، فهو كمياه نبع، لا تتغيّر، يوماً إِثر يوم، ولكنّ تدفّقها هو، أَبداً، نديٌّ، حيٌّ، مدهش، متجدّد.

ملامح مارد متواضع

إِنّه ماردٌ يخفق في صدره قلب طفل؛ ماردٌ في قامته المديدة، في تواضعه السحيق، في امّحائه، مع كلّ ما حقّق وأَنجز، في مؤسّساته الفريدة التي انتشرت في كـلّ القـارّات. ولكنّه، مع كلّ ما يحمل من هموم " الفقراء " – وهو يعني بهذا التعريف جميـع المتـألّمين، والمسحوقين، والمنبوذين، والمحرومين من الصحّة، والقوّة، والمال، والحبّ، والكرامة– مغرق في البساطة والطفولة.

مثل طفل يحبّ أَن يعبث، ويضحك، ويُضحك الآخرين، ولضـحكته رنّـة شـفّافة مميّزة، وقد صرّح، يوماً : " أَنا، شخصيّاً، لم أَضحك، قطّ، بقدر ما ضحكتُ مذ أَقمـت في " السفنية ". مفارقة مذهلة : لقد تعلّم الفرح، في معقل البؤس، والوهن، والأَلم !

و قد احتفظ من الطفولة بذرّةٍ من جنون، وهو ما انفكّ يتمتّع بشنّ حملات التراشـق بالماء، في أَثناء غسل الأَطباق، عقب الطعام، أو بالتظاهر باستئثار علبة حلوى لنفسه، أو بتخطّي الطوابير وغرس قامته البالغة مئة وتسعين سنتمتراً في مقدّمتها، كلّ ذلك بغية إِشاعة الفرح والمرح لدى المحيطين به.

في قامته المديدة انحناء، لشدّة ما انحنى، حدَباً، على من هم أَصغر منـه. ورأسـه دائماً مائل، في حالة إِنصات.

حضوره كاريسماتيّ، آسر، تضيئه شفافية كيانه، وجاذب سلوكه، وثقته في اللّـه وفي البشر أَجمعين، وموهبته في استخدام الكلمات الملائمـة لوصـف تجربتـه، ولحمـل الآخرين، برقّة، ولكن بحزم اليقين، على تقبّل نداء يسوع، ونداء الفقراء. كلماتـه التـي تعكس تجربة معاشة، غنيّة، تتدفّق بهدوء ويُسر، وتواكبها إِيماءات من كلتيْ يديه، وتتكرّر فيها مفردات تعبّر عمّا يعيشه، كلّ يوم، مـع أَصـدقائه "الفقـراء": الجـراح، الهشاشـة، العطوبيّة، القلق، الخوف، المشاركة، الشفاء، الحبّ، يسوع...

يروق له التحدُّث عن الحقائق الروحيّة التي تتداخل فتؤلّف مزيجاً يزداد رهافةً وعمقاً. ويتحدّث عن الآخرين، مؤثراً تجنّب التحدُّث عن ذاته، إِلاّ من خلال الصراع الناشب داخل كلٍّ منّا، بين صوت الفقير فينا الداعي إِلى الصِّـغر، وصـوت الغنـيّ المطالـب بـالقوَّة، والسُّلطة، وتحقيق المطامع الشخصيّة. ويأبى أَن يُتحدَّث أَو يُكتب عنه، إِلاّ من أَجل إِظهار أَنّ يسوع اختاره، رغم أَخطائه، وأوهانه، وجراحه، لكي يكون جـزءاً مـن " جنـون " المخطّط الإِلهيّ. وهكذا يكتشف الآخرون أَنّهم، هم أَيضاً، مدعوّون إِلى عمل المحبّة.

جوبه العالم، في سبيل خدمة المعاقين، يضعه على احتكاك بالكثيرين مـن عظمـاء العالم، ولكنّه لا ينأى به، لحظةً، عن إِمعانه في تواضع لا تصنّع فيـه ولا ريـاء، وفـي

بساطة لا تعبأ بمظهر أو هندام. وهذا الازدراء بالمظهر سبّب له، يوماً، أزمة، فقد دعته الملكة إليزابيت إلى قصر باكنغهام، ووقعت جماعة تروسلي، التي كان يقيم فيها، في حيرة شديدة، وهي تجهد كي توفّر له لباساً يليق بهذه المناسبة، فلم تعثر، بين ثيابه، على ما يفي بالغرض. وأخيراً اضطرّوا إلى إصلاح بزّة كانت تخصّ والده، بحيث تمكّن من الشخوص، بها، إلى القصر الملكيّ.

اتّصف بالجدّ، منذ مطلع مراهقته، واختار مهنته المستقبليّة وهو ما برح في الثالثة عشرة من عمره، تحدوه مُثُل العصر المبنيّة على التنافس والنجاح. وقد اعترف، في هذا الشأن : " كانت مراهقتي مغلّفة بقراري أن أكون بحّاراً، الذي مثّل اختياري مهنةً، وأتاح لي هجر أسرتي في ظروفٍ حميدة، ووفّر لي دافعاً، قويّاً وواضحاً، ومهنة ومستقبلاً مضمونين، ودعاني إلى المضيّ إلى نهاية شوط قواي الجسديّة، وطاقاتي الإنسانيّة، عبر عالم من التنافس، والترقّي، والسخاء. وهكذا صاغ اختياري ذاك جسدي وفكري، ولكنّه أفقرني في مجال العلاقات. فقد كانت طاقاتي موجّهة صوب الجدوى والنجاح توجُّهاً من الإحكام بحيث لم يبقَ لديّ متّسع للنموّ عاطفيّاً، وفي ميدان العلاقات، ما خلا علاقات الصداقة التي كانت تربطني بإخواني الضبّاط.

"من خلال تحدّثي إلى طلاّب طبّ، أو طلاّبٍ متّجهين نحو مهنٍ أُخرى كلاسيكيّة كنت أكتشف أنّ دراساتهم كانت تدفعهم وتستويهم، وبالتالي تصوغ بنية حياتهم، وتهبهم هويّة مهنتهم المستقبليّة، وكان ذلك يتمّ، أحياناً، على حساب علاقاتهم بالآخرين. وبالمقابل كان الشبّان الذين لا تجتذبهم اهتمامات محدّدة، لا بالرياضة، ولا بالفنّ، ولا بالدراسة، يبدون وكأنّهم تائهون، مشتّتو الطاقات، يميلون إلى الأصدقاء والفُسَح واللهو، غير أنّهم يمتلكون، أحياناً، خبرة ثقافيّة وعاطفيّة أوفر غنى، من أولئك، وتجعلهم أكثر منهم انفتاحاً على الآخرين"

و يكمل جان فانييه هذه الصورة فيقول : " في أثناء عملي في البحريّة كنت كَلِفاً بالنجاح، باعتراف رؤسائي، وكنت أحبّ ما يلائم هذه الحياة من مثلٍ أعلى وقوّة، ولم يكن اهتمامي الأوّل بالناس. وكذلك، لمّا هجرت البحريّة، أردت أن أقف ذاتي على خدمة مثلٍ أسمى في السلام، والحياة المسيحيّة؛ وابتغيتُ تعلّم الفلسفة واللاهوت، ولكن لم يكن البشَر هم الذين يثيرون اهتمامي، في المقام الأوّل. من المؤكّد أنّني كنت أرغب في اتّباع يسوع، ومعرفته، وحبّه، ولكن بدافع مَثَلي الأسمى في الحياة، أكثر ممّا هو بدافع عيش التواصل. وقد استلزمني وقت لكي أكتشف جميع الجراح الفعليّة في داخلي، وكلّ مخاوفي من الآخرين. كنت أرضى بأن أكون آمراً، أو معلّماً، أو طائعاً، أو طالب علم، ولكنّي كنت أجد مشقّة كبرى في التواصل مع الآخرين، إذ كان ذلك يعرّضني للعطب. وبالتالي، كنتُ، مبدئيّاً،

أَهرب من الأَشخاص، وكان لا بدّ لي من فترة تثقيفٍ روحيّ وفكريّ، لكي أُعــزّز قــوّتي الداخليّة، وأَحطّ على أَرض الأَحياء والأَشخاص، وأَتعلّم الإِصغاء إِليهم، وحبّهم، وأُصبح ما أَنا، حقّاً. وما زلت أَلقى عنتاً في التواصل، وفي مقاومة الميل إِلــى الاختفــاء وراء مثــلٍ أَعلى... "

كانت تستعِر بين ضلوعه، منذ صباه، رغبة عارمة في اقتفاء آثار يسوع، ولكنّه لم يكن قد اكتشف، إِلى ذلك الاقتفاء، الدرب الصحيح. غير أَنّ النعمة كانــت تعمــل بتــؤدة، ورفقٍ، وثبات في أَغوار نفسه، وتحوّله، بأَناةٍ وحزم، صوب الغاية التي ستصــبح نســيج حياته، وتُحدث فيه من التطوّر ما يجعله أَهلاً للدعوة التي دعاه إِليها الربّ.

و يرسم جان فانييه صورة لمسيرة هذا التطوّر، فيقول :

"بعد الطفولة مرَّت حياتي بثلاث مراحل متباينة. ففي الثالثة عشرة انضــممت إِلــى البحريّة حيث قضيت ثماني سنوات في عالم عسكريّ، حيث يتعــيّن علــيّ انتبــاذ الــوهن، وإِثبات الجدوى، والسرعة، والانتقال من مرتبةٍ إِلى أُخرى. ثمّ هجرت هذا العالم، وانفتح أَمامي عالَم آخر، هو عالم الفكر، فدرست الفلسفة سحابة سنوات طويلــة، ونلــت شــهادة دكتورا في علم الأَخلاق وفق تعليم أَرسطو، وشرعت أُدرّس. وهنا، أَيضاً، كان لا بدّ مــن نبذ الوهن، والجهل، وعدم الكفاءة : فثمّة، أَيضاً، كان يسود عالم الجدوى.

ثمّ، في مرحلة ثالثة، اكتشفت الأَشخاص الضعفاء، المعاقين عقليّاً. وقلبني، فــي أَعماقي، هذا العالم الفسيح، عالم الفقر، والوهن والهشاشة، وانزلقت حياتي إِلى دنيا الأَلــم هذه، وتخلّيت عن آرائي حول الكائن البشري، كي اكتشف هذا الكائن عينه.

و قد نال منّي التأَثّر حيال هؤلاء الرجال، وآلامهم، وندائهم الوجيع إِلى أَن يُقام لهم وزن، ويُحترموا، ويُحبّوا. وباستقبالي رفائيل وفيليب اكتشفت ما هو التواصــل الروحــيّ. فرفائيل وفيليب ما كانا راغبين في العيش مع ضابط بحريّة يأَمر الجميع ويؤمن بتفوّقه، ولا مع أَستاذ فلسفة سابق يظنّ أَنّه يعرف شيئاً. بل كانا يبتغيان صديقاً، وما الصــديق ســوى إِنسان لا يدينني، ولا يتخلّى عنّي عندما يشهد هشاشتي، وحدودي، وجروحي، وعجــزي، وكلّ ذلك العالم المحطّم في داخلي. الصديق هو من يرى مواردي وطاقاتي، ويودّ مساعدتي على تنميتها. الصديق، ببساطة، هو من يسعد بالعيش معي، ويستمدّ فرحه منّي.

بعيشي مع رفائيل وفيليب المغرقَيْن في الهشاشة والوهن، واللّذين طالما عانيا النبــذ، اكتشفت مدى عطش الكائن البشريّ إِلى المشاركة الروحيّة. فخير ماكان بوسعي تقديمه لهما، لم يكن، في المقام الأَوّل، علم التربية، والتقنيات التربويّة الكفيلة بمساعدتهما على الظفــر بالاستقلاليّة والقدرة على العمل، بل نمط تعــاملي معهمــا، وأَســلوب الإِصــغاء إِليهمــا، ورَمْــقهما باحترام ومحبّة، وطريقة لمسي جسديهما، وتلبية رغباتهمــا، ونمــط فرحــي،

واحتفالي، ومشاركتهما الضحك، ممّا يمكّنهما، شيئاً فشيئاً، من اكتشاف جمالهما، ومـدى كونهما ثمينين، وأنّ لحياتهما معنى وقدراً. فسحابة سنوات طوال، كان ذووهما ومجتمعهما قد قابلوهما بالإشفاق، وأفهموهما أنّ آمالهم قد خابت فيهما، وأنّ لا قيمة بشريّة لهما، فهما من سقط الطبيعة. ولكنّهما، بعيشي معهما، واستمدادي فرحـي منهمـا، اسـتطاعا تبـيّن فرادتهما، وجمالهما الجوهريّ، واستعادة ثقتهما في ذواتهما، كما هما. فهما لا يحتاجان إلى أن يكونا غير ما هما لكي يحظيا بالتقدير. وكان ذلك لهما تغييراً جوهريّاً، وولادة جديـدة، وكذلك كان الأمر لي، فأنا، بنشأتي وتربيتي، كنت رجل منافسة، لا رجل شراكة روحيّـة، واحتجت إلى إحداث تحوّلٍ جوهريّ؛ ومثل كلّ تحوّل، لم ينتهِ تحوّلي بعد".

و هكذا غدا ذاك الذي كان يلهبه الصبوّ إلى النجاح، ثمّ تحوّل إلى كَلَـفٍ بالمعرفـة، إلى إنسانٍ يعشق البشر، ولا سيّما المحتقَرين والمنبوذين، ويستمدّ قسطاً هامّاً من إلهامه ممّن اختار اقتسام حياتهم. فهو، مذ التقى المعاقين، سمع نداءهم إلى نسج علاقة صداقةٍ معهـم، وقد أيقظ فيه هذا النداء مشاعر دفينة. قلوبهم الجريحة الظمأى كانت دعوةً هزّت قلبه الـذي كان يتحرّر، شيئاً فشيئاً، من مفاهيم الجدوى، والعقل، والإرادة، ودعوة إلى عقد علاقات كان يشعر أنّها سترتبطه مدى الحياة.

كان يودّ أن يعيد إلى أولئك الذين شوّههم المرض، ونبذُ الآخرين لهم، وجهاً إنسانيّاً كريماً، ولكنّه سرعان ما تبيّن أنّهم، هم، في الواقع، الذين كانوا يهبونه وجهـاً إنسـانيّاً، ويحوّلون الضابط البحّار، وأستاذ الفلسفة، إلى إنسان عطف وتواصل، ويسـاعدونه علـى استبيان إنسانيّته الحقّة، وهم الذين اجتذبوه إلى قلب الحياة الجماعيّة، وإلى صميم التطويبات.

و في هذه المرحلة الثالثة من حياته، لم يرمِ جان فانييه بكلّ تجاربه السابقة، أرضاً، ولكنّه أفاد منها لخدمة مهمّته الجديدة، وطوّرها لكي تتلاءم مع هذه المهمّة. وهو يعتـرف، في هذا السياق :

" في المرحلة الثالثة من حياتي، وعندما بلغت السادسة والثلاثين، وأصبحت مسؤولاً عن أشخاصٍ في " السفينة "، وبلغتُ، حقّاً، سنّ الرشد. وكانت البحريّة قد صاغت قدراتي العمليّة، كما صاغت بعض ملامح جسدي، وطاقاتي النفسيّة والجسديّة، وساعدتني، أيضاً، على استيعاب القانون (وللبحريّة قوانين عديدة). ثمّ إنّ الروحانيّة التـي اسـتطعت تلقّنهـا وعيشها بالقرب من الأب توما، والمعارف الفلسفيّة، واللاهوتيّة التي تلقّيتها، قـد صـاغت فكري ودعّمته. وقد أعدّني كلّ ذلك إلى تحمّل مسؤوليّاتي الدائمة حيال الغير، وإلى العثـور على أرضيّة أستطيع، منها، إعطاء الآخرين الحياة، وعيش التواصل الحميم، عيشاً أكثـر امتلاءً....

و لا ريب أنّ دراسته للفلسفة قد أَسهمت في إنارة ذهنه، وتثقيف حكمه، ولكنّه لم يكن، في ذلك المضمار، مجرّد متلقٍّ، بل كان يناقش ويرفض، من الآراء، ما لا يتماشى مع رؤاه ومُثُله، وقد صرّح، في هذا السياق :

" إنّ تربيتي الفلسفيّة، في مدرسة أَرسطو، قد ساعدتني كثيراً على تنظيم أفكاري، وعلى التمييز بين الجوهريّ والعرضيّ أو الثانويّ. لقد كان أَرسطو كَلِفاً بكلّ ما له بالإنسانيّة علاقة، وقد أَيقظني، أوّلاً، على الواقع والتجربة، قبل الأفكار، غير أنّني أنفصل عن أَرسطوا في بعض عناصر أَبحاثه الإنسانيّة، ولا سيّما عندما هو يعرّف الكائن البشريّ بأَنّه "حيوان مفكّر"، ممّا يعزل عن الإنسانيّة أَفراداً معاقين عقليّاً. وإنّني أوثر تعريف الكائن البشريّ بأَنّه "كائن قادر على الحبّ".

لم يعِشْ مع المعاقين عن تخطيطٍ مسبق، بل العناية الإلهيّة هي التي قادته إليهم بتؤدة، ولكن بتدبير محكم، وهو يعترف، في هذا السياق :

"بهجري البحريّة عام 1950، من أَجل اتّباع يسوع، اكتشفت عالم الحياة الروحيّة، وتلقّيت ثقافة فلسفيّة ولاهوتيّة. بيد أنّني كنت، حينئذٍ، أَعيش في الجماعة التي أَسّسها الأَب توما فيليب، على مقربةٍ من باريس، عيشة المنعزل، أَكثر ممّا أَعيش عيشة عضو الجماعة. وكنت سعيداً باكتشافي حياة صلاة، وحياةً فكريّةً يسودها شيء من التقشّف. وكنت ما زلت أَختبئ وراء قوّة شخصيّة أكسبتني إيّاها الحياة العسكريّة، وأنزع إلى التحاشي عن العلاقات كي أُكرّس ذاتي، لحياة الروح، فحسبُ. عام 1964، مع تأسيس "السفينة"، اكتشفتُ الحياة الجماعيّة، وقد عشتُها، أوّلاً، نوعاً ما، من الخارج، بصفتي مؤسّساً ومسؤولاً. ولكنّني، مع كرّ السنين، شرعت أكتشف معناها العميق، بل ضرورتها للنموّ الإنسانيّ...."

" لقد أَمضيت وقتاً طويلاً قبل اكتشافي الموقع الذي سأتمكّن فيه من النموّ في الحبّ، وترسيخ هويّتي، وعيش مواهبي وخصبي، والانفتاح على الآخرين "

استقال من البحريّة، تلبية لدعوة يسوع إلى هجر كلّ شيء واتّباعه، وهو جاهل إلى أين سيقوده المشوار، ومضى، مسلساً القياد لمن دعاه. وهو يوضح، في هذا الشأن : " مُذّاك، جهدت في السير معه، موكلاً إليه تعليمي، شيئاً فشيئاً، أسرار الوجود، بل أَسرار اللّه ". ويسوع هو الذي قاده صوب أكثر البشر حرماناً، وهو يفسّر هذا المآل بقوله : " إنّ العطش إلى يسوع هو عطش حبٍّ للبشر كما هم، بفقرهم وشروخهم، بأقنعتهم وأَجهزة دفاعهم، وبكلّ جمالهم ".

و المعاقون هم الذين ساعدوه على معرفة ذاته، وعلى التوغّل في معرفة يسوع. ونسمعه يعترف : " إنّني أُقرّ بأنّني فقط عندما لمست وهني ومواطن البغض فيّ، مسّتني رحمة اللّه، واكتشفت سرّ يسوع الذي يأتي لشفاء القلوب وخلاصنا، وحنيئذٍ، فقط، لمست

بؤس الآخرين، بقلبٍ مفعم عطفاً " و" كلّما تقدّمتُ في العمر، وربّما في الحكمة، وكلّما أَصغيت إِلى قومٍ محطّمين متألّمين، وإِلى أَشخاصٍ يخطون نحو الحرّيّة، كلّما توطّد إِيماني بيسوع المسيح "

لا بل إِنّ جان فانييه يمضي إِلى أَبعد من ذلك، فيؤكّد أَنّ وقف حياته وجهوده على خدمة المعاقين لم يصرفه عن التأمّل في الإِنجيل وعن الاتّصال بيسوع، بل أَتاح له التوغّل في هذا المنحى : " مع كرّ السنين، اكتشفت أن لا تناقض بين عيشي مع الفقراء، وحياة الصلاة والاتّحاد باللّه. لا ريب أَنّ يسوع يتجلّى في الإفخارستيّا، وأَنّني في حاجة إِلى قضاء بعض الوقت معه، في صلاةٍ صامتة، ولكنّه يتجلّى لي، أَيضاً، في عيشي مع إِخوتي وأَخواتي. إِنّ وفائي ليسوع يتحقّق في وفائي لإِخوتي وأخواتي في " السفينة "، وبخاصّة الفقراء منهم ".

فلا بدعَ إِن هو صرّح : " حياتي في السفينة كانت لي تجربة إِنسانيّة وروحيّة عميقة، وقد جعلتني أَكتشف كيف يكون الإِنجيل بشرى للفقراء، حقّاً "

أستاذ الفلسفة آثر التعلّم في مدرسة الإِنجيل، وكان المعاقون هم خير معلّميه، وكانت الكنيسة هي مرجعه، كما يتّضح من قوله : " إِنّني تلميذ يسوع، وأَسعى إِلى وضع حياتي تحت نور الإِنجيل. لقد وُلدت في حضن الكنيسة الكاثوليكيّة، منها تغذّيت، وفيها ترسّخت، وإِنّي أحبّها. إِنّي، بالطبع، أَعترف بحدودها التي هي حدود الأَشخاص البشريّين. فنحن جميعنا نلقى مشقّة في اتّباع يسوع، على نحوٍ صحيح ".

لقد فتنه يسوع، وفي إِثر يسوع وحبّاً به، فعل كلّ ما فعل. ولكي يكون ليسوع تلميذاً حقّاً، توغّل في معرفته، واستقصاء تعاليمه، وكتب فيه صفحات مُشرقات.

و من اقتفاء آثار يسوع، ومن عيشه معه في " السفينة " كما في الإِنجيل والإِفخارستيّا، تعلّم الكثير.

تعلّم، خاصّة، التسامح، ففي أوّل عهده بمعايشة المعاقين كان يدفعه أحياناً حبّه لهم، وعطفه عليهم، إِلى إِدانة الذين تخلّوا عنهم، أَي ذويهم والمسؤولين عنهم. وغالباً ما كانت تلك الإِدانة تضاعف آلامهم وتعمّق جراحهم. ولكنّ الأَيّام علّمته استقراء أوضاعهم قبل المسارعة إِلى إِدانتهم، ومدّ العون لهم قبل لومهم.

و قد ساعد ازدهار " السفينة " ونموّها الرحب إِلى توسيع آفاق رؤيته، وإِشراع قلبه على حبٍّ شامل يلفّ مختلف الجماعات؛ وقد قيّض له الاطّلاع على حضارات عديدة، وديانات مختلفة، وتبيّن جمال كلٍّ منها، واكتشف قيمة كلّ إِنسان، أَيّاً كان لونه وجنسه ومشربه، ومعنى الإِنسانيّة المشتركة. عيشه في جماعات مكرّسة للخدمة، ومعايشته لأَكثر الناس هشاشة وحرماناً، وأَسفاره المتواصلة، كانت له خير مدرسة، وقد حصد منها خبرة

ثرّة، حرص، بعد أن انعتق من مهامّ الإدارة، على أن يشرك بها كلّ من يستطيع إشــراكه. كما أنّ دأبه على الإصغاء إلى بوح المسحوقين، وصيحات استغاثتهم، علّمه الكثيـر عـن الكائن البشريّ وأسراره، وكشف له الجراح الدفينة في قلوب الكثيرين من الأسوياء، صــحيّاً وعقليّاً، جراحاً غالباً ما تكون أبلغ وأوجع وأخطر، عندما هي تلجأ إلى التخفّي. وقد حـرص على إفادة الجماعات المدينة له بوجودها، والعاملين فيها، وجميع الراغبين في تنمية الروح في ذواتهم، ممّا تعلّمه على مدى مشواره الطويل. وهو يعترف، في هذا السياق :

" منذ عام 1980 لم أعد مسؤولاً عن الجماعة، ولعبت دوراً آخر. إنّني مـا زلـت أعيش في مقرٍّ مع معاقين عقليّاً، غير أنّني أُنفق وقتاً طويلاً في مواكبة المساعدين، أي فـي الإصغاء إليهم، وفي مساعدتهم على اكتشاف معنًى لتجربتهم. وإن كنت لم أطالع العديد من كتب علم النفس، إلاّ أنّني تعلّمت الإصغاء إلى الآخرين. ومن خلال هذا الإصغاء، صيغت معرفتي للكائن البشريّ، ولتوقه إلى النموّ كي "يصبح ذاته "، ويتخطّى مخاوفه ".

و إنّي أكرّس بعض الوقت لمساعدة جماعات " السفينة "، و"إيمـان ونـور"، علـى النشوء والترسّخ، في شتّى البلدان، ولا سيّما أشدّها فقراً. وقد بات كثيرون ينظـرون إلـى هذه الجماعات نظرة جديدة. وقد بلغ التأثّر كلّ مبلغ من آباء اكتشفوا أنّ لحياة ابنهم أو ابنتهم معنى، وأنّ لهم مكانتهم في المجتمع، وأنّ بمكنتهم تقديم شيءٍ للآخرين ".

هذا النمط الجديد من الخدمة، مقترناً بحياة الصلاة الكثيفة التي توغّل فيهـا، يضـفي على غروب حياته – التي نرجوها له مديدة وخصبة – سكوناً يغمره الإيمان والمحبّة؛ وقـد أقرّ هو نفسه، في سياق كلامه عن فواجع الشيخوخة : "لقد مررت، أنا نفسي، عبر فواجع، بيد أنّ زمن الفراغ لم يطُل كثيراً، إذ إنّني لم أقف كلّ قواي على مهمّة وحيدة، ولم يمثّـل، قطّ، إنشاء الجماعة وقيادتها اهتمامي الفرد، بل احتفظت دائماً باهتمامات فكريّة؛ ومع تولّيّ السلطة، كنت أعيش أفراح التواصل مع أعضاء الجماعة، ومع أصدقاء من الخارج؛ ومنذ عام 1968، أعقد رياضات روحيّة، وأُبشّر بالإنجيل، بشرى يسوع، لا لجماعات "السفينة" و"إيمان ونور"، فحسب، بل لأشخاص آخرين راغبين في إخضاع حياتهم لنور يسوع، وفي التحرّر من الأنانيّة والمخاوف التي تشلّهم، وفي التوفيق بين حياتهم الإيمانيّـة، وسـلوكهم اليوميّ. وقد حافظت، دائماً، على حياة صلاة وتواصل مع يسوع؛ وإنّنـي سـعيد، الآن، في ما أعيشه من حياة أقلّ انشغالاً بالمشاريع والمهامّ؛ وقد بتّ أقلّ حاجة إلى إثبات قيمتـي، وبسلام وسكون أدع الآخرين ينظّمون ويتابعون".

و بالإجمال، يتجلّى جان فانييه واحداً من أبلغ أنبياء عصرنا أثراً، وأوفرهم جـرأة، وأكثرهم تحدّياً للمفاهيم الزائفة السائدة. فقد أعرض، غير هيّاب ولا نادم، عـن مغريـات النجاح الاجتماعيّ، والمجد، والشهرة، التي أشرعت له أبوابها، مؤثراً إنفاق حياته، خفيّاً،

متواضعاً، مع من تردّى بهم مصيرهم القاسي إِلى أَقصى دركات الحرمـــان، وتعرّضـــوا، فوق ذلك، إِلى أوجع نبذٍ من مجتمعهم

و في صمته وامّحائه، وبحبّه المستوحى من إله الحبّ، استنبط، من أَكثـــر البشـــر عجزاً، روائع مدهشة.

الجزئ الثاني
مقتطفات من أقوال جان فانييه

تمهيد

جان فانييه الكاتب

جان فانييه المؤسّس زهد، باكراً، في السلطة، إذ ما كادت مؤسّساته تقف على قدميها حتّى تخلّى عن كلّ مسؤوليّة مباشرة فيها، ضامناً لها، بذلك، نموّاً مستقلاًّ، واستمراراً مطّرداً، ومجنّباً إيّاها، ما استطاع الهزّات والأزمات، ولكنّه، وإن عاش في واحدة من جماعاتها عيش أيّ عامل فيها، فقد ظلّ هو روحها وملهمها . بيد أنّه تفرّغ لمهمّة الوعظ، وإيقاظ الضمائر على مآسي المعاقين واحتياجاتهم، واستنهاض الهمم في سبيل المبادرة إلى معايشتهم بحبّ، واكتشاف جمال عيش التطويبات ومعهم ومن خلالهم .

منذ سنوات وقف وقته على التأمّل، والصلاة، والتوغّل في استكشاف حبّ يسوع الفذّ، واستنباط الوسائل المثلى لخدمة المعاقين، وتدعيم الجماعات المكرّسة لهذه الخدمة .

هذه التأمّلات هي التي ألهمت عظّاته ومحاضراته، ومن هذه العظات والمحاضرات وُلدت كتُبه العديدة التي أودعها زبدة تجاربه وتأمّلاته، ومنها يتّضح أنّ الكاتب والمحاضر، فيه، لا يقلّ شأناً عن المؤسّس، مع أنّ معظم هذه الكتب قد وضعها جان فانييه، وهو في غمرة الأسفار والكفاح، ضانّاً بوقته أن ينفقه على صقل أسلوبه، وتشذيب عباراته، مؤثراً التلقائيّة، والبساطة، والصدق الصرف .

مواضيع محدّدة هي التي تجول في فكره وتلهب قلبه، وتتردّد في كلّ كتبه ومحاضراته، في تكرار عذب، يتدفّق بالحياة، ويتفجّر من قلبٍ مضطرم حبّاً، ويُدهش، أبداً بجدّته وعمقه وطلاوته .

و نظراً لكثرة هذه الكتب، حرصنا على انتقاء مقاطعها الأكثر تعبيراً عن خواطره وتطلّعاته، وترجمناها، عساها، تسهم في إلهام كلّ من يتوخّى معرفة وثيقة لجان فانييه، وإيغالاً في فهمه ليسوع، وفي حبّه للمعاقين والمحرومين .

لا تَـخَفْ

ne crains pas bellarmin fleurus

1981

هذا الكتاب

بمعايشته الحميمة للمعاقين عقليّاً، ولج جان فانييه إِلى صميم الإِنجيل، وإِلى محـراب حبّ يسوع، وإِيثاره "الصغار" والبسطاء؛ وعلى غراره أولى هؤلاء من الثقة أكثر ممّا أولـى عظماء هذا العالم، وبخومه، وأَبطاله ومتفوّقيه .

و بفضل هذه المعايشة تمكّن من تشخيص أوباء عصرنا الذي، بنأيه عن حبّ يسـوع المحيي، استسلم إِلى الأَنانيّة، واللامبالاة بمآسي الآخرين، وحمّى الاستهلاك، فغرق في بحران الحزن، والانهيار، والكبت، والعدائيّة .

لقد تبيّن أَنّ جرحى الحياة والمعاقين الذين لا يمتلكون إِلاّ النزر اليسير من الطاقـات الذهنيّة، هم الأَكثر انفتاحاً على رسالة يسوع . فمنهم نتلقّى الإِنجيل، ومن خلالهـم نكتشـف إِعاقتنا الشخصيّة، وأوهاننا، ونتحسّس حاجتنا الحيويّة إِلى حبّ يسوع الشافي .

و من معايشة المعاقين تعلّم جان فانييه الحبّ الحقّ المبنيّ على الثقـة والمشـاركة، والتمثّل بيسوع الذي يعني اسمه الحبّ، حبٍّ تجلّى، أروع تجلٍّ، في صلبه وقيامته .

فجان فانييه في علاقته مع المعاقين، لم يكتفِ بإِسداء خدمة، تصدُّقاً أو إِحساناً، بل بذل في سبيلهم، ومعهم، حياته كلّها .

و من خلال تصفّح هذه المقتطفات من كتاب " لا تخف " نستطيع أَن نستقري كم هـو استفرق في حياة اللّه الحميمة، في غنى ثالوثه الأَقدس، بمواهبه ونعمه، ومفاعليه الخلاصـيّة المحوّلة .

لقد باتت أَقواله صدى أَميناً لأَقوال يسوع لأَنّه، بعيشه الحميم مع إِخوته الصغار، عاش مع يسوع وفيه، فاكتسبت حياته خصباً وكثافة، واكتسى فكره سموّاً وتألّقاً .

لقد استسلم لنظرة يسوع الحانية، و" عندما نستسلم لنظرة يسوع، نعرف أَنّنا لا نملـك شيئاً، ولأَنّنا لا نملك شيئاً، نملك كلّ شيء، ونستطيع، بالتالي، إِعطاء كلّ شيء " .

ومنذ هذا الكتاب، شرع جان فانييه يشيد بحياة "الجماعة" التي احتلّت مركزاً مميّزاً من إِيمانه وفكره . فالجماعة هي موئل نموٍّ في الحبّ، والتقاء حول يسوع، وعيش تطويباته .

و من موقع مسؤوليّته في مؤسّسة " السفينة " استمدّ نظرة واقعيّة وسـامية لواجبـات الرعاة، وحلّق شاهقاً في وصف هذه الواجبات .

حبّ يسوع دفع كيان جان فانييه، وأسبغ عليه سكينة وثباتاً، ومن أَحبّ يسوع لم ترهبه مغامرة، ولم يعرف الخوف إِلى نفسه سبيلاً، ولا بدْعَ إِن هو أَطلق على هذا الكتاب عنوان "لا تخف" .

خبرتي مع يسوع

رسالة يسوع أبديّة؛ هي نبع حياة، وتلبّي حاجة عميقة ثاوية في القلب البشريّ .

خبرتي في " السفينة "، وما خَبَرتُه مع أَشخاص جريحين، – رجال ونساء قابعين في السجون، وشباب بائسين، تائهين، قد رسّخت لديّ القناعة، أَكثر فأَكثر،بأنّنا، جميعنا، عطاشٌ إِلى الحبّ . ففي عالمنا، وجميع قِيَمه الزائفة، لا نرى، غالباً، سوى الأَنانيّة، واللامبالاة، والسعي إلى الخيرات الماديّة . إنّنا جميعنا عطاش إلى الحبّ، ومع ذلك يبدو لنا الحبّ محالاً . ومن ثمّ، عالمنا غارق في الحزن، والكثيرون يشرفون على الانهيار، والكبت، والعدائيّة؛ وهذا ما يدفع العديدين نحو الإغراق في النشاط، والسعي المسعور إلى المتعة، والثروة، والسلطة؛ وكثيرون يقيمون حواجز يتمترسون خلفها؛ فيبدو الحبّ متعذّر المنال، ويُمنى الناس بالخوف .

غير أنّ القوم حالما يشعرون بأنّ الحبّ ممكن، يستيقظون ويتحرّكون . وقد أثّر فيّ أنّ المجروحين والمعاقين، الذين لا يمتلكون سوى القليل من الطاقات الذهنيّة، هم الأَكثر انفتاحاً على رسالة يسوع، ذاك الذي هو حبّ . وربّما لأنّهم يعلمون بأن لاحظّ لهم في النجاح في مجتمعنا يضطرّون إلى البحث عمّا هو جوهريّ وأَبديّ . ويسوع يمكّنهم من قبول عاقاتهم، ومن أن يصبحوا ينابيع حياة وحبّ . ومن شأن بسمتهم، والسلام الذي يغمرهم، الإزراء بمن يكتنزون الخيرات الماديّة، ويستغرقون في العمل .

إنّ المعاقين والهامشيّين، المسحوقين والمجروحين، قد لقّنوني، عن الإنجيل، أَكثر من الحكماء والفِطنين، بنموّهم، ورضاهم، واستسلامهم، علّموني أن أَقبل وهني، وألاّ أَدّعي القوّة والكفاءة، وقد بيّن لي المعاقون، أنّني، أنا نفسي، معاق، وأنّنا جميعنا كذلك، وذكّروني أنّنا، جميعنا، ضعفاء، وجميعنا محكومٌ علينا بالموت، وأنّ هاتين الحقيقتين هما أشدّ ما نخشاه . لقد أوضحوا لي كم أنا في حاجة إلى أن يشفيني يسوع، وأنّنا، فقط بتسليمنا بهذا الواقع، نستطيع الانفتاح على روح الحبّ الذي وعدنا به يسوع .

فقد جاء يسوع ليهبنا الحياة، ويهبناها بوفرة، إنّه يدعونا إلى العبور من الموت إلى الحياة، لأنّه، هو حمل اللّه، قد تولّى الموت وغلبه، لقد جاء بالبشرى الطيّبة للفقراء، وبإعلان عتق للمسجونين، وحرّيّةٍ للمسحوقين . بعضنا سجناء بؤسنا ووحدتنا، وبعضنا سجناء القِيَم الزائفة والثروات؛ وجميعنا سجناء مخاوفنا؛ وقد جاء يسوع كي يحرّرنا بموهبة روحه، ودعانا إلى حياةٍ جديدة، حياة التطويبات والمشاركة .

إنّ عالمنا ماضٍ نحو صراعٍ شامل، بدافع الحسد والبغض اللّذين يولّدهما الخوف .

و قد جاء يسوع ليدمّر الكراهية، ويقود جميع الناس نحو الإخاء، والحبّ الشامل، والسلام .

غير أَنّ ذلك يقتضي منّا التنكّب عن الأَنانيّة الفرديّة والجماعيّة، وتعلّم التضحية بذواتنا لكي نعيش مجدّداً في الروح، من أَجل إِخوتنا واللّه أَبينا . إِنّني أَعتقد أَنّ العالم لن يتغيّـر إِلاّ عندما يتغيّر قلب البشر، فينفتحون على الحبّ والحنان.

إِنّ بنانا السياسيّة والاقتصاديّة انعكاس لمخاوفنا الداخليّة، ولن تتغيّر إِلاّ بتغيّر قلوبنا . ومن ثمّ علينا، في المقام الأوّل، أَن نصبح ينـابيع حـبّ للآخـرين؛ وأَن نُعنـى بالصـغار والمجروحين، والقوم الهشّين الوحيدين . وعندما يزداد تيّار الحياة هذا منعةً، ستتغيّر البنى .

إِنّنا ندنو، جميعنا، من الفصح، أَي من العبور . وما جاء يسوع إِلاّ ليقول لنا : " تعالَ معي، فأَنا معك، وسنعبُر معاً " . عبورمن العالم إِلى الآب . ولكنّنا، غالباً، مفتونون بـالثروة والسلطة، والمجد، وتدفعنا هموم العالم إِلى الضياع . ويسوع قد أَوضح لنا أَنّ الافتتان بالثروة، وهمّ العالم، هما اللّذان يمنعان البذرة الطيّبة من النموّ .

ينبغي أَن تكون حياتنا كلّها تحوّلاً تدريجيّاً لوجداننا، لكي نلج، شيئاً فشيئاً، إِلى وجدان الآب . وجدان العالم يحملني على تحويل كلّ شيء إِلى ذاتي، فـلا أَرى الآخـرين إِلاّ مـن خلالي، وأَنزع إِلى استخدامهم، وأَبني، من حولي، حواجز خشية وخوف . لقد جاء يسوع لكي يساعدنا على هذا العبور من سلوك يدفعني إِلى البحث عـن ذاتـي، وثرواتـي، ومجـدي، وسُلطتي، حيث أَسعى إِلى تأكيد شيء، وحيث أَعجز عن النظر في عينيْ أَخي الجريح، لأَنّني أُرجع كلّ شيء إِلى أَنانيّتي، إِلى سلوك جديد يهبني الثقة بأَنّ يد أَبي تحملني؛ فلا أَعـود فـي حاجة إِلى إِثبات شيء، ولا أَعود أَخشى الوحدة، والموت وأَوهاني الخاصّة .

فخوفنا الأَكبر هو اعتلال ضعفنا، وفقرنا الجوهريّ، وعالم الكذب والوهم الثاوي فـي داخلنا، والذي يجعلنا عاجزين عن النظر إِلى الآخرين . خوفنا الأَكبر قابع في داخلنا، فـنحن نخاف خوفاً شديداً من ذواتنا، لا ممّا يكمن في أَعماق أَعماقنا، بل في قطاع عميق من كياننـا حيث يقيم الشرّ، والخوف، والبغض . وهذه كلّها نعرفها، ونأبى مشاهدتها، ولكنّها موجودة .

لقد جاء يسوع لكي يصطحب كلاًّ منّا في هذا العبور من العالم إِلى الآب . جاء ليغيّر جذور كياني الأَبعد عمقاً، وليهبني وجداناً جديداً يجعلني في غاية السعادة والانشـراح، فـي فقري، وحتّى في الفراغ الذي يسود فيّ؛ فأَفقد عدوانيّتي، إِذ لا يبقى لي ما أُدافـع عنـه؛ ولا أَعود في حاجة إِلى الصراع ليقيني بأَنّني محبوب؛ أَعرف أَنّني لا أَملك شـيئاً؛ وأَعـرف أَنّ مصيري الموت؛ وأَنّه ما برح فيّ الكثير من البغض، والسعي إِلى السلطة والمجد، والافتتـان بالثروة، وهموم العالم. أَعرف كلّ ذلك، ولكنّني لا أَكترث، فأنا محبوب، ومن ثمّ بوسـعي أَن أَنشرح .

لقد صفح عنّي الآب وحملني في يده؛ إنّني محمول في قلب إلهي وكيانه . إنّه المدافع عنّي؛ يسوع هو محاميّ، ويرسل لي محامياً آخر، هو روحه، روح الحقّ . وهذا المحامي هو الذي يجيب على صرخة استغاثتي، والذي يعزّيني عندما أنتحب .

إنّ يسوع يشهد فقري، ويحبّني كما أنا، في فقر كياني الجوهريّ، ويهبني قلباً جديداً. لقد تبدّد خوفي من الآخرين، فقد بات لي مدافع، محامٍ . بات لي من أومن به ومن يحملني، فليس ما يقلقني بعد، ولا ما يخيفني؛ وبزوال خوفي، أدخل في شعور جديد، شعور حرّيّة أبناء اللّه .

لقد أحبّني، وهو يحبّني، وما عدت في حاجة إلى الاهتمام بأشياء تغويني. ما عدت في حاجة إلى ادّعاء أنّني كائن ما؛ فهو يؤتيني حريّة تجعل قلبي يُنشد، حرّيّة تمكّنني من التحديق في عيني الآخر، والإعلان، بدوري : " إنّني أُحبّك ".

" كما أحبّني الآب، أنا أيضاً أحببتكم ... هذه وصيّتي : أن يحبّ بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا "

إنّ يسوع يهبني هذا الشعور الجديد، فأكتشف مَنْ بفضله أنا محبوب وحرّ، في أعمق كياني . يسوع يعدنا بحرّيّة القلوب الجوهريّة هذه، ولكنّه يعدنا، أيضاً، بأنّ العالم سيُبغضنا، يعدنا بطوبى الاضطهاد . إنّه وعد يسوع المسيح الجوهريّ . فروح الشرّ لا يُطيق الاتّحاد. والوحدة والحبّ المتبادل هما ما يميّز تلاميذ المسيح.

إنّ يسوع يعدنا بأنّنا، في زمنٍ ما، سنُضطَهد، ونُرذل، وسنعرف التخلّي، مثلما عرفه هو .

غير أنّنا، بهذا الشعور الجديد الذي يهبناه، نسير معه نحو إحلال الملكوت، ملكوت الآب، ملكوت الحبّ . وليس هذا الحبّ وهماً، بل هو التزام، ووفاء، وبذل حياتنا ...

و كلّ ما يطلبه منّا هو أن نبقى على قدرٍ كافٍ من الفقر والصغر، بحيث نبقي عيوننا محدّقة في عيني يسوع .

بقولنا لإنسان ما " أُحبّك " نعرّض أنفسنا للعطب . ولذلك لغة الحبّ هشّة؛ والتقدّم في ميدانه يتمّ خطوة خطوة، بتأنٍّ، لئلاّ يُصاب الآخر بالخوف . الحبّ هو ترويض بطيء؛ غير أنّ يسوع يضع نفسه، للحال، في وضع المعطوبيّة هذا . فعندما يحبّ المرء يصبح مفرط الصغر والفقر، فقد يُجرَح إن رفض الآخر هذا التواصل المعروض عليه . وهذا ما فعله يسوع : فقد قدّم شيئاً ثميناً : حميميّةً من الشدّة بحيث تُغني عن كلّ ما سواها . غير أنّ الشابّ الغنيّ قد ازورّ عن نظرة يسوع الذي كان يقدّم له كنزاً .

لقد خاف الشابّ الغنيّ من نظرة يسوع، ولم يثق به، وآثر التشبّث بممتلكاته وأمانه . أَبى المجازفة، أَبى أن يُحمَل، ولم يؤمن بنظرة يسوع الفذّة تلك التي كانت تقول : " أُحبّك "،

ولم يستسلم . عندما نستسلم لنظرة يسوع، حينئذٍ نعرف أَنّنا لا نملك شيئاً، ولأَنّنا لا نملك شيئاً، نملك كلّ شيء . ولأنّني أَملك نظرة يسوع هذه التي تحملني ولأَنّني، بذلك، أَملك كلّ شـــيء، أَستطيع إِعطاء كلّ شيء . يسوع هو المدافع عنّي ولأَنّه فيّ، بوسع الآب أَن يرسلني مثل ابنه الوحيد المحبوب، لكي أحمل، أَنا أَيضاً، السماء والأَرض، لكي أَحمل الحبّ . فبما أَنّ الحـــبّ يحملني أَستطيع حمل الحبّ إِلى الآخرين . ولأنّني نلت الغفران أستطيع أَن أغفر؛ أُعطيت كلّ شيء، ولذلك أستطيع، بلا خوف، إِعطاء كلّ شيء . وبإِعطائي كلّ شيء، سيتفجّر قلبي شكراً .

و حينئذٍ أستطيع الاشتراك في جوهرك : العطاء التامّ . ولأَنّني بك أستطيع منح كـــلّ شيء، يتفجّر قلب الطفل فيّ شكراً، في لعثمة الطفل وصيحة فرحه القائلة: شكراً .

يسوع يشفي

" مزّق القناع الذي يحول دون لقائنا العذب "

بوسع كلٍّ منّا تبنّي هذه الصرخة التي أَطلقها القدّيس يوحنّا الصليبي . فجميعنا نحسّ، أَحياناً، بهذا القناع الذي يحجب عنّا الاتّصال الصافي باللّه، ومعرفتنا لذواتنا ولقاءنا بالآخرين .

كثيرون منّا يعيشون في وهم حول ذواتهم، وفي عجز عن رؤية حقيقة ما؛ ولا بدّ من أَن يُمزَّق القناع في أَحد جوانبه، في أَعمق أَعماق كياننا، لكي نتمكّن من اكتشاف من نحن، ونقبل ذواتنا على علاّتها، ونلتقي يسوع كما هو . مثلما تفجّر الماء عندما مسَّت عصا موسى الصخرة، كذلك يجب أَن تُمَسّ صخرة قلبنا لكي تتفجّر منه مياهٌ حيّة فنسكبها عبر تفهّمنا، وحبّنا والتزامنا .

إِنّ يسوع يشفي : هو الذي يأتي كي يهبني الحياة ويحرّرني من ذاتي، يأتي ليشفيني من أَنانيّتي وعدوانيّتي، ومن قلقي واضطرابي .

إِنّه لشيء رائع مقابلة أُناس عهدوا أَعتى مشاعر الاضطراب، وباتوا يعلنون أَنّهم شرعوا يستعيدون السلام . كانوا قد خَبَروا الموت، وها هم يكتشفون أَنّ يسوع يشفيهم، شيئاً فشيئاً، من حرمانهم، ومن كراهيّتهم ومخاوفهم . لقد خبروا كلّ عالم البغض والظلمات الذي قد يختبئ في قلوب البشر، وها هم يعبرون من عالم الظلمات هذا إِلى عالم السلام والنور . وباتوا يعرفون معنى العبور من الموت إِلى الحياة، وعذوبة شفاء الروح وقدرته .

عندما صُعِق القدّيس بولس على طريق دمشق، وأُسقط عن صهوة جواده، سمع صوتاً يخاطبه : " شاول، شاول، لمَ تضطهدني ؟ " وختم العمى باصريه، ومرّ عبر اختبار موت سرعان ما تلاه اختبار حياة ونور . وهو المضطهِد أَصبح مضطهَداً؛ وكان انبعاثه سريعاً ! انبعاث معظمنا، في يسوع، لا يتمّ سريعاً، بل هو نموّ يحاكي نموّ طفل في أَحشاء أُمّه، وعقب ولادته : نموّ تدريجي في المعرفة، والمودّة، والقوّة الجسديّة، والإِدراك . إِنّ قدرة شفاء الروح قدرة ساكنة رقيقة .

إِنّها تقضي، فينا، على المخاوف، ورغبة الامتلاك والتدمير، والجراح والإِحباطات، وكلّ تلك القدرات الساعية إِلى السيطرة . إِنّها نموّ في طاقتنا على الإِصغاء، والتعاطف، والصبر، وانتظار ساعة اللّه . بها نتعلّم الاستسلام لقدرة الروح وقدرة اللّه، والإِقلاع عن الاضطراب، وترك المقود بين يدي الربّ، والاستسلام لمن يشفينا .

أَثناء عبوره بأَراضي اليهوديَّة، تجلّى يسوع بمنح البصر للعميان، والسمع للصمّ، وبجعل المقعدين يسيرون . وكلّ ذلك رمز لشيءٍ أَبعد عمقاً . إِنّه يفتح عيون قلبنا، كي نشرع نرى الواقع كما هو، ولكي نرى إِخوتنا المجروحين مع كلّ ما يعانون . وهو يفتح آذاننا،

فمثلما نحن نبصر، ولكنّنا نعمى عن الواقع، كذلك نسمع ولكنّنا لا نصغي . إنّ شفاءً جوهريّــاً يجب أَن يتمّ قبل أَن نستطيع، فعلاً، سماع موسيقى الواقع، وقبل أَن نستطيع الإِصــغاء إِلــى الآخرين بلا وَجَل، قبل أَن نستطيع الإِنصات إِلى الروح .

يسوع يوافينا عندما نعي حاجتنا إِلى الشفاء، عندما نعي أَنانيّتنا، وفوضى رغباتنا وكلّ مخاوفنا، وكلّ جبننا ووهننا، وحاجتنا إِلى الأَمان البشريّ الذي يدفعنا إِلى الامتلاك .

فقط عندما نعي وهننا ومخاوفنا نستطيع أَن نشرع ننمو في الروح .

من وجهة نظرٍ إِنسانيّة، رسالةُ يسوع جنون . وكلّ من يتكلّم اليوم مثلما تكلّم يســوع يُعدّ مأفوناً، في حاجة إِلى طبيب نفسيّ . ليست رسالته موجّهة للحكماء؛ وأولئك الذين يدّعون امتلاك السُلطة، والقوّة والعلم، ممّا يمكّنهم من تغيير العالم، لن يُدركوا أَنّ جنون دعوته هــو عطيّة الروح الكفيلة بتحويل قلوبهم . هذه الرسالة موجّهة للمحرومين، للصغار والفقراء، للذين ينتظرون المخلّص والبشرى السعيدة. الإِنسان الجريح في أَعماقه يتعرَّف دائماً محــرّره لأَنّ حضور يسوع يحرّره، ويهبه السلام والقوّة والجرأة، ولئن تعذّرعليــه إِدراك مغــزى الخبــز والخمر، فهو يعلم أَنّه يحتاج إِليهما لكي يتحوّل .

نحن لا نجسر على الإِصغاء لهمسة الروح الرقيقة التي تدعونا إِلى الإِنطلاق إِلى مــا يتخطّى ذواتنا عسى أَن تتأَثّر قلوبنا الحجريّة وتتحوّل شيئاً فشيئاً إِلى قلوبٍ من لحــم؛ والتــي تهيب بنا أَن ننفتح على جميع المجروحين في العالم، قريبين أوبعيدين، وأَن نتعلّم الحبّ علــى نحو ما أَحبّنا اللّه .

تلك هي خبرة شفاء يسوع : لن نظفر بالشفاء إِلاّ عندما نعي أَنّنــا زنــاة، ومفعمــون أَنانيّة، وأَنّنا لم نستجب لندائه .

يسوع يشفي لأَنّه يحبّ، ولأَنّه، في ملء عطف كيانه، يرغب في المجيء إِلينا . إِنّه لا يريد أَن نخاف منه . فلا أَحد يخشى طفل بيت لحم، هذا المولود من الفتاة مريم، فــي مــلء جمال الحبّ .

لا أَحد يخشى ذلك الرجل الذي قال، في نزاعه : " أَبتاه، إِن أَمكن، فلتبتعد عنّي هــذه الكأس، ولكن لا تكن مشيئتي بل مشيئتك" . لا أحد يخشى هذا الرجل الذي أَخذ على عاتقــه كلّ عدوانيّة العالم وكراهيته، ذاك الذي سمّاه يوحنّا المعمدان حمل اللّه . لم يدعهُ أسد يهــوذا، ولا قائداً عسكريّاً عظيماً، ولا حتّى أستاذاً كبيراً، وعالماً في ما وراء الطبيعة، بل حَمَل اللّــه، فحسب .

إِنّه فقير، فمن يخشاه ؟ وهو لا يريد أَن نخاف . لقد أَبى التظاهر بالعظمة ساعة موته، ولم يتظاهر بعدم التألّم على غرار بعض الشهداء . فمنهم من مات وهو يكاد يضحك، ويسوع لم يضحك وهو يموت، بل مات وهو يبكي .

كم من الفقر في موت يسوع . علينا أَلاّ نخاف منه، فقد أَخذ كلّ شيء علـــى عاتقــه، وجلّ ما ابتغاه هو أَن يتحوّل كلٌّ منّا، ويتأثّر، فيواصل عمله، وينشر أَكثر فأكثر رسالة حبّــه، ورسالة سلامه .

قلب يسوع قلب مُحبّ . وهو عندما يهيب ببشر إِلى اتّباعه، لا يفعل ذلك لأَنّ لهم لديه مهمّة، بل لأَنّه يحبّهم . وعندما يدعو بشراً ليكونوا له تلاميذ، لا تعني دعوته أَنّه يكلّفهم بعمل، بل يدعوهم في سبيل هدف أَعمق بكثير . إِنّه نداء من يحبّ ويقول : " سرْ معي، فأَنا أُحبّــك، وأَنت ثمين في عينيّ، لا تخفْ . تعالَ ودعني أَمسّ أَعمق أَعماق كيانك، وأَشفي جميع ندبات قسوتك، وأَنانيّتك، وجبنك، وأَبعثك إِلى الحياة، وأحرّرك . "

من أَجل هذا جاء يسوع : لكي يحوّلنا، ويعيش فينا، لكي نصبح مثله، فلا نعود خدمةً مرتعدين ينفّذون الشريعة، بل نكون بشراً أَحراراً، حرَّرهم الروح، وحوّلهم بقوّته، حوّلهم إِليه .

أن نكون رعاة

لا يأتي يسوع ليشفينا ثمّ يهجرنا بعد ذلك . فهذا الطبيب هــو أيضـــاً، راعٍ، الراعــي الصالح الذي يعلّمنا السير على درب التطويبات؛ وعلى نحو ما يدعونا الطبيب إِلى الشــفاء، يدعونا الراعي إِلى أَن نصير رعاة .

كلٌّ منّا، بطريقة أَو بأُخرى، هو راعٍ . فالأَهل رعاة أبنائهم، والأُستاذ راعي تلاميذه، والكاهن راعي رعيّته . وقد يكون الصديق، غالباً، راعياً لصديقه، لأَنّهما يتعاونــان معــاً . ونحن، جميعنا، مدعوّون إِلى أَن نكون رعاة، لأَنّنا، جميعنا، مسؤولون بعضنا عن بعض .

و من الأَهمّيّة بمكان أَن نرى أَيّ راعٍ كان يسوع، لكي نكتشف كيف ينبغي أَن نكون رعاة . فأحد أَسباب شيوع الفوضى في عالمنا، هو وجود عدد ضئيل من الرعاة الملتــزمين التزاماً راسخاً حيال قطيعهم، وحيال الآخرين . فالراعي هو من يلتزم تجاه أَشخاص، مهمــا حدث، وسواء كانوا أَصحّاء، أو معتلّين فهم في حاجة إِليّ لكي يكبروا في الحــبّ، والســلام، وبذل الذات . إِنّهم قطيعي، وإِن هم جُرحوا جرحتُ، أَنا .

نحن، جميعنا، مدعوّون إِلى الوفاء، والالتزام، حتّى لو كان مجرّد التزام بين أَصدقاء . والصديق يشعر بالتزام صديقه، فهناك أَصدقاء كذبة يشاركوننا الضحك، ولا يشاركوننا البكاء . إِنّهم أَصدقاء كاذبون يُفيدون من عقلنا أو من خيراتنا، ولكنّهم يتوارون عندما نمــرض، أو نُهمَل، أو نُنبَذ ....

قال يسوع لبطرس : " إِرعَ نعاجي، إِرعَ حملاني " . ورعاية القطيع تستلزم الوقوف على احتياجاته . فإِن لم يكن الراعي بصيراً بالقطيع لأَعطاه غذاء يتقــيّؤه ويأباه . ولطالمــا أتخم رعاةُ قومَهم بعقائد، في حين كانوا يفتقرون إِلى شيءٍ آخر، أَتخموهم بشرائع في حــين كانوا يفتقرون إِلى التزام وحنان وتفهّم .

يجب أَن يظفر القطيع بالطعام الذي يلزمه لكي ينمو، ويجتذب الروح القدّوس . إِنّه في حاجة إِلى من يراعي حاجاته العميقة .

و لمعرفة احتياجات القطيع يجب المكوث على مقربة منه، والعيش معه، والإِصــغاء إِليه، وفهمه . يجب الإِنصات إِلى تطلّعاته وآماله، وتعرّف نوع الغذاء الكفيل بإِنماء كيانه وقلبه .

حبّ القطيع ليس إِتخامه بالحلوى، بل التأهّب للتضحية بالسّمعة، وبالذات، في سبيله . هو الالتزام نحوه، وعدم التواري خلف شريعة أو ذريعة للهروب من الالتزام .

سرعان ما يشعر القطيع أَنّ أَحداً يهبه ذاته، وأَنّه منفتح عليه، ومتأهّب دائماً للإِصغاء إِليه .

إنّ الراعي الذي لا يسمح لنعاجه أن تطرق بابه إلاّ بين الساعة الثانية والرابعة من يوم الثلاثاء حتّى يوم الجمعة، ليس راعياً صالحاً . فالقوم لن يأتوا في هذه المواعيد، بل يأتون بين منتصف الليل والساعة الواحدة من فجر يوم السبت . يأتون دائماً عندما يكونون غير مرغوب فيهم، عندما نكون مشغولين، يأتون في منتصف الليل لأنّهم يتألّمون؛ وسيأتون إن هم شعروا أنّ الراعي معنيّ بهم وباحتياجاتهم .

الراعي الصالح متأهّب دائماً لاستقبالهم، وبابه دائماً مشرع، لأنّه معنيّ بنعاجه، ومتأهّب لبذل حياته في سبيلها . الراعي الصالح لا عطلةَ له، وفي فترة راحته يحمل شعبه معه .

عندما تُجرَح إحدى النعاج، أو تواجه خطر الانتحار، أو لا تنمو، أو عندما تتعرّض لوضعٍ حرج، لا يذهب الراعي لقضاء عطلته . والنعاج تتبيّن الفرق بين راعٍ يراوده هاجسها، والأجير الذي يتوارى حالما تبرز مشكلة . وإذا ما ضحّى والدون بترقية معاشيّة كي يتسنّى للوالد قضاء وقت أطول في المنزل، يشعر الأولاد بذلك . والنعاج تميّز بين اهتمام الراعي بجميع االقطيع أو اهتمامه فقط بنعجةٍ أونعجتين تبدوان أكثر جدارة بالاهتمام، على نحو ما يفعل بعض المعلّمين الذين يولون اهتماماً أكبر بطالبين أو ثلاثة يبدون أوفر ذكاء، ويهملون الصغار، والعُرْج، والمجروحين، والمتألّمين، في حين أنّ هؤلاء، هم في الواقع أشدّ حاجة إلى الاهتمام من سواهم .

بعض الرعاة لا يسعدون إلاّ عندما يكون القطيع منتظماً، لا يحدث أيّ ضجيج، ويسير في خطّ مستقيم .

و لكنّ ذلك ليس في صالح النعاج؛ بل الراعي الصالح هو الذي يدعو قطيعه إلى الحريّة، بحيث يكتشف كلّ فرد طبعه الفريد، وطاقاته الخلاّقة، والتزامه . وقد يُفضي ذلك إلى ضربٍ من الفوضى، لأنّ القوم عندما يُدعَون إلى مزيد من الحريّة يمضون في كلّ صوب، ولأنّهم، بالفطرة، غير منتظمين، ومتعطّشون إلى الإبداع والحريّة ... إن القطيع يدرك هل يقتضي الراعي النظام لأنّه خائف من النعاج، أو لأنّه يبتغي قدرته ومجده الشخصيّين .

الراعي الصالح يرضى بالتورّط في سبيل قطيعه، لأنّه يحبّه؛ وهو ملتزم تجاه كلّ نعجة من القطيع أيّاً كان ذكاؤها، أو جمالها، أو عمرها . ومن الضروريّ أن يكون حاضراً لكلّ فردٍ من القطيع حضوراً خاصّاً، بحيث يخاطبه خطاباً شخصيّاً. وبالتالي عليه أن يعرف كلاًّ باسمه، بقدر ما يمثّل الاسم أعمق ما في الشخص واحتياجاته العميقة .

الراعي الصالح يتحدّث بلغة القطيع، وإن لم يفعل بعض الرعيان ذلك فلأنّهم يجهلون بعض لهجات القطيع .

و على الراعي أَن يكون دائماً خلاّقاً، نتيجة لالتزامه نحو قطيعه . فمن يحبّ يخلق، ويعيد الخلق . ومن يكون على تواصل عميق مع إِنسان محتاج يبتدع وسائل لتلبية احتياجاته .

ذلكم هو دور الراعي الفذّ : الإِنصات، بلا وَجَل، إِلى النعاج، وفهم لغتها، وتلبية احتياجات كلٍّ منها؛ وأَن يُجرَح عندما تُجرَح إِحداها، ويقلق عندما ينتاب إِحداها القلق، ويبحث عن الضالّة لإِعادتها، ويتمرّس بالحزم عند المقتضى .

و لا يتحقّق ذلك في معزل عن نفحة الروح ونعمته . ومن ثمّ يتعيّن أَن نكون في عطشٍ إِلى أن يحلّ علينا روح اللّه، ويحوّل كياننا، لكي نصبح رعاة جيّدين مستعدّين لبذل حياتهم عن القطيع .

اليوم أَكثر من أَيّ يوم مضى يتبيّن القطيع صدق الراعي، ويأبى اتّباعه إِن لم يكن صادقاً .

و سرعان ما تشعر النعاج بالبوْن بين أَقواله، وسلوكه، وأَفعاله، وتكتشف أَنّ أَقواله لا تنبع من أَحشائه .

ينبغي أَن نتعلّم النموّ في فنّ الرعاية . وتبدأ الولادة في الحبّ والروح بلقاء راعٍ حقّ، تلميذٍ ليسوع، ينضحُ الحبّ والرجاء والإِيمان، ويدعو إِلى الحياة بأقواله ومواقفه وكلّ كيانه ....

إِن لم نعلّم القوم الصلاة والولوج في رحاب الصوفيّة المسيحيّة، وإِن لم ندعُهم إِلى اختبار الحبّ الحقيقيّ، فهم سيلتفتون إِلى مراعٍ أُخرى لا توفّر الغذاء الحقّ . سيزوْرَوْن، لأَنّ الراعي لم يلقّنهم الاتّصال باللّه، والإِصغاء إِلى الروح، والتمييز بين ما هو من اللّه وما ليس منه . لم يتلقّوا ما هو جوهريّ لإِرواء عطشهم إِلى الأَبديّ الكفيل بتحريرهم، ولم يتلقّوا روح اللّه الذي يُعتق من الخوف ومن الشريعة . ومن ثمّ هم يجهلون كيف سيلقّنهم الروح الحريّة، لكي يكبروا في الحبّ والالتزام، محبّين الحقيقة، رافضين التنازلات التي تحجب النور وتشيع الظلام .

و إِن لم يؤنس القوم قوّة النور هذه لدى الراعي، مضوا يبحثون عن مراعٍ أخرى سواء في المخدّرات، أو في عالم العنف والثورة، أو يلتمسون علاقات جنسيّة صرف .

و عندما هم لا يعثرون على مراعٍ حقّة يقضون نحبهم إِحباطاً، وجوعاً، وظمأً .

الراعي الصالح يبذل حياته عن نعاجه .

الأخت ماريا كارولينا يسوع، التي عاشت في أَكواخ ساوباولو، كانت تدوّن يوميّاتها . وقد كتبت : " اليوم، يوم أَحد . وقد جاء الكاهن وأَلقى موعظة قال فيها: " إِنّ اللّه يحبّ الفقراء حبّاً جمّاً" . ولكنّني أَتساءل لمَ لا يخصّص لهم ممثّله سوى نصف ساعة في الأُسبوع ! " الراعي الحقّ مستعدّ للعيش مع قطيعه، وللبكاء والتألّم معه .

أَذكر امرأة كان لها ولدٌ في الخامسة عشرة من عمره مبتلى بإِعاقة سحيقة . وقد دأبت، طيلة حياته، على تنظيفه، وإِطعامه، والعناية به . وقد زارها كاهن الرعيّة وقال لها : " عليك أَن تحملي هذا الصليب؛ سأُصلّي من أَجلك" . ولكنّه لم يأتِ يوماً عارضاً عليها مساعدته كي تصيب فترة راحة، لمرّة واحدة، في غضون خمسة عشر عاماً . وكان أولى به ألاّ يقول شيئاً، أو أَن يقتصر على مشاركة الأُمّ البكاء، فتستشعر تعاطفه، وتؤنس أَنّ ثمّة من يفهمها . وما أَسهل التلفّظ بكلمات هي حواجز أَكثر منها تواصلاً، وعطيّة حبّ !

وحده يسوع قادر على شفائنا من أَنانيّتنا، ومنحنا القوّة، والحبّ، والصبر والحنان، والتفهّم، والقدرة على الإِنصات للقوم المجروحين؛ هو وحده كفيل بتعليمنا كيف نكون رعاةً صالحين . هو وحده قادر على تحويل قلوبنا لكيلا نخشى القول : " أَنتم شعبي، وأَنا أُحبّكم، والتزم تجاهكم" .

مشاركة

لكي نساعد الأَشخاص المجروحين على النموّ، علينا أَن نلتزم حيالهم، وأَن نحيا معهم حياة جماعة . إِنّني أومن إيماناً راسخاً بالجماعة، تلك التي أَلهمها يسوع وروحه، جماعات الحبّ التي ستؤتي حياة جديدة، وستساعد الناس على هدم حواجز خوفهم .

يسوع يدعونا إِلى حبّ بعضنا بعضاً وإِلى بناء جماعة؛ وبواسطة الجماعة سيتجلّى حبّه، وسنشرع نكتشف أَنّ الحبّ ممكن بقدرة روحه، وباتّحادنا فيما بيننا. وعطشنا إِلى الحبّ سيرتوي ويعظم، فقد وُلد الرجاء وعلينا المضيّ قُدُماً، سائرين بخطى ثابتة، ولكن بتواضع، نحو العرس الذي وُعِدت به البشريّة جمعاء .

إِنّ يسوع يشفي الناس، ثمّ يدعوهم إِلى العيش معاً ... إِنّه يرغب في أَن يكون من دعاهم ووهبهم روحه واحداً، كما الآب والابن واحد، وأَن يكون حبّهم المتبادل من التميّز بحيث يتعرّف الناس، من خلاله، أَنّهم تلاميذه .

يسوع يُهيب بأَصدقائه أَن يؤلّفوا جماعة حيث يتعايشون ويقتسمون معاً، ويشهدون، بوحدتهم وحبّهم المتبادل، للحياة، وللولادة الجديدة في الروح، وللإِنجيل .

نحن في حاجة إِلى إِخوة وأَخوات كي نكبر في الروح . إِنّهم يساعدوننا بأسلوب عيشهم، ويشجّعوننا ويقوّوننا . وغالباً ما تغدو الصلاة أَسهل، عندما نكون معاً، ممّا هي عندما نكون فرادى .

و لئن كانت جماعة إِخوة وأَخوات متحابّين يعيشون معاً هي من أَجمل الوقائع إِلاّ أَنّها أَيضاً من أَعسرها ...

يلزم وقت طويل لتكوين جماعة، ريثما تنهار الحواجز، وتتنامى الثقة المتبادلة ويصبح الاتّصال غير الكلاميّ أَجلّ شأناً من الكلمات . ولا تصبح الجماعة جماعة حقَّة إِلاّ بعد أَن ينتقل معظم أَعضائها من مرحلة " الجماعة من أَجلي " إِلى مرحلة: " أَنا من أَجل الجماعة "، ويحاولون، صادقين، السعي إِلى ازدهار جميع الآخرين، وسلامهم، وسعادتهم، أَيّة كانت أَلوان التباين فيما بينهم .

السبيل المؤدّي إِلى الجماعة يمرّ عبر الموت عن الذات إِلى الحبّ، وهو درب متمادي الطول، ويقتضي الانتقال من مصالحنا الخاصّة إِلى مصالح الجماعة؛ من اختياري من أَجلي، إِلى اختياري من أَجل الآخرين . إِنّه عبور – فصح – من الأَنانيّة إِلى الحبّ، من الأَثَرة إِلى الإِيثار؛ وهو عبور مؤلم وعسير، وعامل توتّر وعدوانيّة، فنحن، جميعنا، نخشى الموت، ممّا يقتضي منّا الكفاح إِلى أَن يحوّلنا روح اللّه، شيئاً فشيئاً، ويجعلنا نحبّ جميع أَفراد الجماعة .

و علينا أَن نشرع بتعلّم أَوجه التباين فيما بيننا، وبمعرفة أَحدنا الآخر، فما الذي يسكب السلام في قلب عضو الجماعة هذا ؟ وما الذي يجرحه ؟ ما الذي يجعله يزدهر أو يغوص في الاكتئاب ؟ ما الذي يُشيع فيه السكون، وما الذي يُثيره ؟ ينبغي أَن نعرف كلّ ذلك عندما نعيش مع إِنسانٍ آخر، ونقف على ما يساعده على العيش في روح الحبّ .

و لا تتسنّى معرفة احتياجات الآخر إِلاّ بعد العيش معه بعض الوقت، والإِطّلاع على تطلّعاته، وعطشه، والإِلمام بالأمور الصغيرة التي تجرحه . فكثيرون لا يدركون أَنّ من شأن كلّ كلمة إِمّا إِشاعة السلام، وبعث الحياة، أوإِشراع جرح، وإِقامة حواجز . فإِن لم نقضِ وقتاً أَطول في الإِصغاء ممّا نقضي في التحدّث، وإِن لم نحدّق في الوجوه لنتبيّن ما يُشيع السلام وما يُثير الاضطراب، لجَرحنا الآخرين ،لا محالة .

علينا أَن نتحسّس احتياجات من يعيشون معنا؛ فمن هنا تنشأ الجماعة . ومن الأَهميّة بمكان معرفة ما سيساعدهم على العبور من " الجماعة من أَجلي " إِلى " أَنا من أَجل الجماعة "، وعلى تفجّر الحياة الذي يهب من يحيقون بنا السلام والحبّ.

أَمور طفيفة هي، غالباً، التي تقنع الآخرين بأَنّهم مهمّون في نظرنا : مثل تذكّرنا تاريخ أعيادهم، وذكرى وفاة أَحد ذويهم؛ وتتوفّر كلّ يوم أَلف وسيلة ووسيلة للتعبير عن اهتمامنا الذي يتجلّى من خلال كلّ ما نفعل، بدءاً بطريقة تقديم الطعام، والتكنيس، بل حتّى طريقة تنسيق الزهور، وقرع الباب . بوسع كلّ شيء أَن يتحوّل من شريعة إِلى تواصل وبذل، بما أَنّ الجماعة تبدأ بأَشياء ماديّة .

الطعام أَمرٌ هامّ، وينبغي أَن يكون جيّداً . فعلى الوجبات أَلاّ تكون مجرّد أَطعمة موضوعة على منضدة، بل يجب أَن تكون فترات تواصل، وطقساً يبدأ بالحساء وينتهي بغسل الأَطباق . وغسل الأَطباق فترة هامّة إِذ إِنّ القوم أَثناءه يعملون معاً مثلما اقتسموا وتواصلوا أَثناء الطعام .

و ينبغي أَلاّ تكون فترة الطعام فترة جادّة، بل فترة ضحك، لأَنّ الضحك يفتح قلوب الناس؛ والجماعة التي تضحك هي جماعة منشرحة، وعندما يكون القوم منشرحين يتمكّنون من النموّ معاً . إِنّ الاسترخاء يحاكي أَرضاً طيّبة توفّر للحبّ فرصة كي يشرع في النموّ .

على الجماعة، إِذن، أن تتعلّم محاولة اللجوء إِلى أَلعاب حمقاء والتمثّل بالأَولاد، والاسترخاء، واستقبال الناس، وقبولهم في معزلٍ عن إِدانتهم، أو عن الرغبة في أَن يكونوا غير ماهم، واكتشاف موسيقى كيانهم، شيئاً فشيئاً .

قد تكون الحياة في الجماعة شاقّة، عندما يكون للقانون الأَولويّة على الأَشخاص، ويكون القانون من القسوة بحيث يشعر كلّ فرد بنقصه . ولن نقوى على تدمير حواجزنا إِلاّ

عندما نقبل الآخرين كما هم، وحينئذٍ لا نعود في حاجةٍ إلى إدّعاء الذكاء، والطيبة، والحنكة، إذ يعلم الجميع أنّنا مجرّد قوم يحاولون النموّ معاً.

و عندما تسقط الحواجز نبدأ نشعر بالوحدة، وهي ميزة من يكبرون معاً في الحبّ ويقتسمون بعمقٍ وبلا وَجَل . وعندما ندرك أنّ الآخرين يقبلوننا ويحبّوننا لا نعود في حاجة إلى إخفاء ضعفنا، أو ادّعاء أنّنا أفضل من الآخرين وأوفر حكمة منهم . وهذا يولّد سلاماً وحرارة، واسترخاء الكيان كلّه، وفرحاً تلقائيّاً بالعيش معاً . وحينئذٍ لا نعود نعيش لذواتنا بل لأجل مجد اللّه، والمجروحين الذين نرحّب بهم في جماعتنا . فهذه هي الجماعة : استقبال أشخاصٍ مجروحين محتاجين إلى علاج الحبّ، والسلام، والفرح، من أجل شفاء جروحهم، ودعوتهم إلى حبٍّ أكبر .

... وإن كان من شأن خطأ ارتكبه الرئيس النيلُ من سلطته، ففي ذلك الدليل على خَلَل في النظام، إذ إنّ ذلك يعني أنّ سائر أفراد الجماعة يضعون المسؤول موضع من يجب أن يكون مصيباً دائماً، وهذا محال . علينا، إذن، أن نكون معاً، مثل أبناء اللّه، بكلّ فقرنا، وكلّ جهلنا، وكلّ عجزنا، وعندما تهوي الحواجز، يتلاشى الخوف، وتبدأ الثقة تُؤتي عمل اللّه في كلٍّ منّا، وفي ذلك يكمن العيش من أجل المخلّص الذي يهب الحياة .

ففقط بالروح الذي يحلّ فينا نستطيع، حقّاً، الولوج في الجماعة، سواء كانت فريقاً ممّن يلتقون بين حينٍ وآخر من أجل الصلاة والمشاركة، أو قوماً يعيشون معاً .

و فقط عندما يبدّل الروح قلوبنا نستطيع حبّ جميع أعضاء الجماعة، أيّة كانت أعمارهم ونشأتهم، وطباعهم، لأنّ يسوع يدعونا إلى أن نكون معاً، ولأنّ الآخر هو عطيّة اللّه لنا، اليوم . ذلكم هو جمال من يعيشون معاً، ويحبّون معاً، عندما يشرعون يكبرون، ويقتسمون، وينفتحون، معاً، لنفحة الروح . وذلكم هو جمال الإنسانيّة عندما يستولي روح اللّه على قلوب إخوة وأخوات، كي يحوّلها من قلوب حجر إلى قلوب لحم ودم، فيعيشون في وحدة الحبّ والالتزام .

أَحبب قريبك

عندما سئل يسوع : " من هو قريبي ؟ " أَجاب بمثَل السامريّ العطوف . وإِذا ما نحن سئلنا من هو قريبنا لأَجاب معظمنا بأَنّه الشخص المقيم على مقربة منّا . غير أَنّ إِجابة يسوع على سؤال الفرّيسيّ تُشرع آفاقاً غير متوقّعة، وتقول أَنّ جميع البشر إِخوتي ولا سيّما الجريح الذي أَلتقيه على دربي .

لمَ لم يتوقّف الكاهن واللاوي ؟

ربّما كانا مشغولَيْن، ومُلتزمَـيْن بمواعيد اجتماعات هي في مثل أَهميّة مواعيدنا . فنحن جميعنا قوم مشغولون، وقلّما نملك الوقت لمواجهة الجوهريّ؛ وقد تتصرّم حياتنا من غير أَن نعيش؛ إِنّنا مشغولون جدّاً بالمشاريع، والتنظيم، بحيث، عندما نلتقي شخصاً ملقىً على الأَرض، لا يتوفّر لدينا وقت للعناية به .

و علينا أَن نتساءَل، نحن القوم المشغولين، أَليس انشغالنا هرباً من الآخر وذريعة لكيلا نلتقي الناس الذين نخشاهم، ونخشى أَن يزعجنا منهم غير المتوقّع الذي غالباً ما يتجلّى الربّ من خلاله ؟ قد يكون انشغالنا، بل هو، غالباً، هروب من الرحمة .

هناك احتياجات بسيطة لها بداية ونهاية، ولكن هناك احتياجات تتكرّر باستمرار، ومتى شرع المرء يلبّيها لا يعلم إِلى أَين قد تقوده، إِذ لا نهاية لها .

و قد يسبّب ذلك الضيق، ويولّد الخوف . ولكن عندما يقيم المرء علاقات مع أُناس يعانون، يُصبح من الخطير تجاهلهم فيما بعد، وكأَنّهم غير موجودين .

و ما أَكثر المجروحين المفتقرين إِلى راعٍ، إِلى صديق، إِلى أخ، إِلى من يشدّ إِزرهم، ويساعدهم ويصغي إِليهم؛ ولكن ما الذي سيحدث لنا عندما نوثّق علاقاتنا مع المحتاجين، ونحطّم بيننا وبينهم الحواجز ؟ ما الذي سيحدث لأسلوب عيشنا، لأولادنا، ولأسرتنا، ولالتزاماتنا السابقة ؟

إِنّنا نميل إِلى اتّخاذ موقف دفاعيّ، ونشيح بأبصارنا وأَسماعنا عن أَصحاب الحاجة، لأَنّنا أَكثر انغراساً في قِيَم مجتمعنا ممّا نحن منغرسون في الإِنجيل .

كلّما افتقرنا إِلى الحرّيّة الداخليّة تعيّن علينا تكديس مزيد من الثروة، والتظاهر بمظهر الفضيلة، والتمكّن من مواكبة النظام القائم . ولكن لا شأن لكلّ ذلك، بل الشأن للنموّ في الحرّيّة الداخليّة، في حرّيّة مقابلة الأَشخاص، واستقبالهم، وتبيُّن مدى قدرتنا على تلبيتهم، وتعلّم التحديق فيهم بلا وَجَل، والتوقّف أَمام الشخص الجريح .

لم يتوقّف الكاهن واللاوي أمام الجريح لأنّهما تساءلا عمّا سيحلّ بهما إن هما توقّفا، أمّا السامريّ فتوقّف لأنّه تساءل عمّا سيحلّ بالجريح إن هو لم يتوقّف لإسعافه .

عندما نشرع ذواتنا على من هم مجروحون ينبغي أن " نأتي ونرى " .

البعض يتوقّفون، ولكنّهم يأبون أن يروا؛ في حين أنّ الخطوة الصحيحة الأولى هي التحديق في عيون الآخرين بلا وَجَل، والخطوة الثانية هي العطاء، ولكنّ العطاء، إن لم يكن ملائماً، قد يغدو إهانةً . ولذلك ينبغي ألاّ نعطي قبل أن ننظر ونسمع، وحينئذٍ فقط يصبح العطاء تواصلاً، وعلاقةً، وفهماً .

و البعض يقتصرون على التوقّف والنظر، وهم، في الواقع، يكتفون بالتفرّج .

ذات يوم تحدّثت إلى نحو ثلاث مئة سجين، وعندما فرغت من خطابي، نهض بغتة رجل وطفق يشتمني بألفاظ عَسُر عليّ فهمها رغم إنفاقي ثماني سنوات في البحريّة . كان شديد التوتّر، صاخباً، عنيفاً، يقول: "أنت تهرف بما لا تعرف؛ إنّك تجهل ما تعرّضنا له من آلام، والجراح التي أُثخنّا بها" . وروى كيف شاهد أمّه تُغتَصَب، وهو في السابعة من عمره، وكيف بيع للوّاطين في العاشرة، كي يستطيع والده معاقرة الخمرة . وقد زرته، فيما بعد، فحدّثني عن زوجته القابعة على كرسيّ متحرّك .

و البعض يتوقّفون، وينظرون، ويشرعون يعظون، وقد تصبح كلماتهم حواجز . إنّهم يقولون لمدمن أنّ عليه الإقلاع عن الشرب، لأنّ الكحول تؤذي صحّته. ولكنّه ليس في حاجة إلى هذا القول كي يدرك أذى المشروب، وهو الذي قضى نهاره يتقيّأ ! وليس في حاجة إلى من يشرح له القانون فهو به عليم، إنّما هو راغب في التقاء من يهبه القوّة، وأسباب العيش، وعطشاً إلى الحياة . ليس قولك لشخصٍ ما أنّ عليه الامتناع عن السرقة كافياً كي يمتنع عنها، بل هو يحتاج إلى القوّة، وإلى الارتباط بمن يهبه الحياة والشجاعة، والسلام والحبّ الكفيلة بمؤازرته على تجنّب السرقة، والمخدّرات، والسكر، والانهيار العصبيّ .

يمكن التوقّف، والنظر، والإنصات .

و ليس الإنصات فهم الألفاظ فحسب، بل هو اكتناه معنى الأقوال والأفعال . فالولد لا يسرق للظفر ببعض مال فحسب، بل إنّ لإقدامه على السرقة سبباً آخر . وعندما هو يغضب فلغضبه سبب . وعلينا أيضاً أن ندرك سبب اعتصام شخصٍ ما بالصمت، واكتشاف حاجاته . وبالإجمال، علينا أن ننصت لا بآذاننا فحسب، بل بكلّ جسدنا، وبعيوننا، وبكلّ كياننا، ومحاولة الفهم .

و علينا ألاّ نتوقّف عند الكلمات، فالناس غالباً ما يقولون أشياء كثيرة لا تعبّر عن احتياجاتهم الحقيقيّة . ولذلك عندما نحن نواجه أشخاصاً مصابين بجراح عميقة، نحتاج إلى تجربة، وحنكة، وتفهّم، وإلى تمييز الروح القدس . فالمتسوّل عندما يستجدي مالاً، إنّما يطلب

الاعتراف . إنّني أذكر امرأة كانت تتسوّل على باب كنيسة في بولونيا . ولم نكن نملك من العملة البولونيّة ما نعطيها، غير أنّ أحدنا جثا أمامها وأمسك بيديها، فأشرق وجهها، إذ عثرت على ما كانت تنشده : لقد اعترِف بها كائناً جديراً بالحبّ، لا مجرّد سلّة نلقي فيها وجع ضميرنا .

فقط بإنصاتك إلى الناس تعترف بحقّهم في الكلام، والتعبير عن ذواتهم . أمّا مقاطعتك لكلامهم فيعني أنّهم غير جديرين بالاهتمام، ولا يستأهلون أن يُستمَع إليهم، وهذا هو ما يؤلم الأشخاص الجريحين أعمق ألم .

علينا أن نقابل الإنسان الجريح باحترام جمّ، لا بمحاولتنا الارتقاء به إلى المرتبة التي نظنّ أنّنا بلغناها، أو بجعله جديراً بالاحترام، بل بإفهامنا إيّاه أنّنا نحترمه كما هو، بكلّ ما ينطوي عليه كيانه من اضطراب، وأيضاً من قدرة على النموّ .

ليس مطلوباً منّا القيام بأعمال من أجل المجروحين، بل إفساح الفرصة لهم للإضطلاع بأعمال من أجلهم ومن أجل الآخرين، وتعليمهم القيام بأفعال جميلة، وسيقتضي ذلك منّا المزيد من الوقت من أجل التحدّث إليهم، ومشاركتهم، والاجتماع بهم، وقد لا يفعلون بمثل أسلوبنا، ولكنّهم سيفعلون خيراً منّا، إذ إنّهم سيفعلون بأسلوبهم الخاص .

ينبغي أن نساعد الآخرين على اكتشاف ثقافتهم الخاصّة، وقوّتهم، وكلّ ما قد يكون، فيهم، مختلفاً عنّا، ولكنّه جميل . وينبغي أن نتعلّم التحديق، بإعجاب، في ثقافة الآخر، ونموّه، وموسيقى كيانه . علينا أن نتعلّم الإصغاء إليه، والإعجاب به ودعوته إلى الحياة، ومساعدته على الخلق وفقاً لطاقته على الخلق، وجماله الخاصّ .

قال لي هنديٌّ، يوماً : " أنتم، في الغرب تمتلكون كلّ شيء، المال، والثقافة، والقدرة، ولكنّكم فقدتم الجوهريّ، معنى الحياة " .

إنّ حبّ اللّه حبّ شامل لا يزدري إنساناً، فيسوع مات من أجل الجميع، وجميع البشر إخوة؛ وإن نحن أبينا الإنفتاح على فئة من الناس بسبب لون جلدتهم، أو سوابقهم، أو تربيتهم، أو مرضٍ وراثيّ فيهم، فإنّ حبّ اللّه لا يقيم فينا .

و الذين لا ينفتحون على جميع جرحى القلوب، وعلى الصغار، سرعان ما يفقدون معنى الصلاة، لأنّ حبّ اللّه لا يقيم في قلوبهم، فينقطعون عن الصلاة، أمّا الذين يتوجّهون إلى الجرحى، بروح مُشرَع على الاستقبال، أيّاً كان انتماؤهم الدينيّ، فسيشهدون قلوبهم تزداد تفتّحاً على حبّ اللّه وعندما نمضي إلى شعوبٍ ذات ثقافة مختلفة، فما علينا أن نمضي بغية الإحسان إليهم، بل لكي ننصت، ونلمس، ونُعجَب، ونراهم، باهتمام، يكبرون بكلّ جمال كيانهم، ويزدهرون في لغتهم الخاصّة، ونكتشف تنوّع البشريّة . إنّ بستاناً لا ينبت فيه سوى الزنبق، بستان حزين .

بوسعي أَن أَعيش حياتي، ولكن عليّ أَن أَنفتح على الآخر وعلى أُسلوب عيشه إِلى أَن يتكوّن لديه من الثقة ما يجعله ينفتح على أسلوب عيشي . ومن تلاقي الشعوب سيأتي، شيئاً فشيئاً، خلاص البشريّة، عندما يشرع الغرب يفهم ثقافة الشرق، ويشرع الشرق يفهم ثقافة الغرب .

و لكن ليس التفاهم المتبادل وحده هو المهمّ، بل إِنّ لدى تلميذ يسوع عطشاً متلظّياً إِلى إِبلاغ الشخص الجريح القلب ليس فقط أَملاً بشريّاً، بل ما يفوق ذلك كثيراً: روح يسوع، وسلامه، وتطويباته .

فهو واثق أَنّ الخلاص لن يأتي إِلاّ بفضل حبّ حقّ، وتعاطف صادق، وولادة جديدة بالروح، ولكنّه لا يقوى على فرض رسالة حبّه عنوة، بل كلّ ما يستطيع فعله هو إِيقاظ هذه الرغبة في الحبّ والسلام في قلب الإِنسان الجريح . إِنّ تلميذ يسوع يمسي، للجريح، حضور يسوع نفسه، بفضل حضوره ذاته الصامت والمؤاسي . " لست أَنا من يعيش بعد، بل يسوع يعيش فيّ " . ومن خلال هذا الحبّ وهذا العطف يكتشف الإِنسان الجريح أَنّ اللّه يحبّه .

و من ثمّ يتعيّن البدء ***بالعيش*** مع الأَشخاص الجريحين

إِنّنا، في عهدنا، نسعى إِلى المزيد من التخصّص، ونميل إِلى نسيان أَنّ أَساس الحياة هو الثقة والاحترام المتبادلان، حبّ عميق وقبول للآخر .

إِنّ لقاء يسوع في الإِنسان الجريح يتطلّب المضيّ إِليه باحترام عميق، ولا يكفي المضيّ إِليه بدافع الواجب لأَنّ الربّ يدعونا إِلى زيارة الفقراء، بل علينا أَن نحبّه حقّاً .

علينا أَن نرى، وننصت ونلمس، نلمس الإِنسان الجريح، نلمس يده، نبلّغه أَنّنا قريبون منه . إِنّ الروح يقودنا من التوقّف أمام الجريح إِلى التحديق فيه، فالإِنصات إِليه، فإِلى لمسه، عندما يخرجنا من ثقافتنا، وأسلوب عيشنا، وتفكيرنا، ومن الشأن الذي نقيمه لنَمَط مُعيّن من الثقافة .

إِنّه، شيئاً فشيئاً، يدمّر كلّ ذلك ويؤهّلنا للإِصغاء إِلى الآخرين وللنظر إِليهم بلا وَجَل .

من المحقّق أَنّه لن يكون بوسعنا استقبال كلّ إِنسان والعناية بالجميع . عندما التقى بطرس ويوحنّا متسوّلاً أَعرج يطلب مالاً، قال له بطرس : " لا أَملك فضّة ولا ذهباً، ولكنّني أعطيك ما أَملك : باسم يسوع الناصريّ امشِ . "

و ربّما هذا ما نستطيع نحن قوله : " لست أَملك مالاً، ولا كثيراً من الوقت، ولكنّني أَهبك سلامي وأُحبّك . لست أَستطيع المكوث معك، ولكن تيقّن أَنّني أَثق بك، وأومن بقدرتك على النهوض بأَفعال رائعة؛ أومن أَنّ يسوع يحبّك؛ أومن أَنّ بوسعك النموّ نموّ أَبناء اللّه، ممتلئاً بالروح، فثق به، وضع فيه رجاءك، وانهض وسر على درب الحياة ... "

هذا ما يحدث عندما يُسقط الروح حواجز كياننا، ونمط حياتنا، وثقافتنا، ويقرّبنا مــن الآخرين . عندما نقيم في الروح القدس، وفي قلب يسوع، نصبح قادرين على شــفاء البشــر، بمنحهم الثقة والرجاء، واليقين بأنّ العالم ليس جحيماً، بل هو مكانٌ نتأهّب فيــه للفــردوس، وللعرس الذي دُعينا إِليه، وهكذا نمسي أَدوات حقيقــيّة ليسوع ولحبّه، وسنهب يسوع الــذي، وحده، يشفي جراح البشريّة .

" أمكثوا في حبّي "

أَحياناً يبدو لنا أَنّ الإِنجيل نفسه لا يعدو كونه حلماً، جميلاً بلا ريب، ولكنّه حلم على أيّة حال .

جميلٌ هو سماع التطويبات، وشاعريّة جدّاً هي فكرة العيش مثل طيور السماء، وزهور الحقول، وفكرة محبّة عدوّنا. وحميدٌ جدّاً أَن نحبّ على غرار حبّ يسوع . ولكنّ كلّ ذلك يستعصي على التطبيق استعصاءً تامّاً. إنّه حلم مستحيل.

عندما نجيل النظر في التاريخ، وفي مشاكل عالم اليوم، قد ننزع إِلى الإِحباط، إِذ يبدو أَنّ لا مكان للإِنجيل في عالم غارق في قضايا التلوّث، والتفجّر السكانيّ، والفقر والجفاف، في عالم يسبر آفاق علم النفس البشريّة وأَغواره، عالم تتطاول حاجاته إِلى البرّاد والسيّارة .

الإِنجيل قصيدة حلوة، ولكنّ واقع عالمنا هو مدنٌ من ثمانية ملايين نفس، مع كلّ ما يطرحه ذلك من مشاكل . الواقع هو الاحتيالات، والجرائم، والإِنسان الذي يتعيّن اتّقاء شرّه، ببناء السجون .

و مع ذلك يدعونا يسوع إِلى التطويبات، وإِلى حبّ الأَعداء، وإِلى الفقر . وثمّة فترات نشعر فيها أَنّ استمرار العالم يقتضي تحوّلاً في قلوب البشر . وكلّما توغّلنا في شعاب التاريخ، من خلال الاعتداءات، والحروب، والقلق الدائم، ازدادت أَسباب اضطرابنا، بل أَسباب خوفنا على المستقبل .

و لكنّني أستذكر المرأة العجوز التي كانت تقول : " منذ أَربعين سنة أَسير معه " . وجان كلود الذي حدّثنا عن يسوع، في لورد؛ ومارك، الذي أودى بحياته سرطان الدم وهو في السادسة عشرة، والذي بعد أَن خيّل إِليه أَنّه شُفي، أُخطر بأَنّه لن يعيش أَكثر من بضعة أسابيع، وكان يقول: "من وقت إِلى آخر أَفقد السلام".كان يقولها بأَسلوب يعني أَنّه كان، معظم الوقت، في سلام . لقد كان قريباً، بل شديد القرب من يسوع .

و أَستذكر جون، التي كانت تنظّم، في فرنسا، حجّ إِخوتنا وأَخواتنا المعاقين من العالم أَجمع إِلى لورد . كان لها ولزوجها ولدان معاقان إِعاقة سحيقة، وكان يربطهما حبّ جمّ . وبغتة، أَثناء وجودها في باريس، أُخطرت أَنّ زوجها المزارع الذي كان يتمتّع، حتّئذٍ، بصحّة ممتازة، معتلّ . وعندما عادت كانت قد أودت به نوبة قلبيّة، فجثت أَمام سريره وقالت : " الربّ أَعطانيه والربّ أَخذه" . ولمّا جئنا به إِلى البيت، وأَلبسناه، ورتّبنا الغرفة التي سجّي فيها جثمانه، أَعلنت جون ببساطة : " فلنرتّل معاً تسبيحة العذراء "

و حينئذٍ، إِذ نجيل النظر في العالم، وفي التيّارات السياسيّة والاقتصاديّة التي تتجاذبه، نكتشف أَنّ اللّه، رغم كلّ شيء، حاضر، وحضوره واقع ماثل في قلب البشر المجروحين،

والصغار، والذين يحقّقون أَفعالاً لا يقوون عليها بمفردهم. ونشهد حلم يسوع يتحوّل إِلى واقع في قلب الصغار .

و عندما تتاح لنا فرصة الإِصغاء إِلى الناس، فهم يبيّنون كيف يعمل اللّه في قلوبهم، وكيف يدعوهم ويحوّلهم . إِنّه، دائماً، أَمر فريد ومختلف لكلٍّ منهم، غير أَنّ ثمّة تشابهاً في أسلوب عمل اللّه في قلب كلٍّ منّا .

إِنّنا نشرع نعي فقرنا عندما نشرع نتبيّن بُعدنا عن ربّ التطويبات، وضآلة حبّنا لأَعدائنا، وعدوانيّتنا، وفشلنا في أَن نكون رعاة صالحين، وعدم عيشنا، بالقدر الكافي، في جماعة، وبأَنّنا نبذل جهداً كافياً لنكون جسراً في عالم منقسم ومشتّت . وإِنّنا نشرع نشعر بحاجتنا إِلى الشفاء والتحوّل، لأَنّ اللّه يدعونا إِلى ما يتخطّانا، عندما نشرع نتبيّن مدى أَمان حياتنا الذي يمنعنا من الانفتاح على الروح، ونتحقّق مدى استقرارنا، ونشداننا للرفاه الذي نؤثره على العطف والمحبّة . وحينئذٍ ننهج درب التحوّل .

إِن لم ينقلب حلمنا تصميماً، والتزاماً وعطشاً، فقد نُلحق أَذى ذريعاً بأَنفسنا، وبإِخوتنا وأَخواتنا . فكلام يسوع يقتضي التزاماً لا يتمثّل فقط في النهوض بأَعمال، بل يفترض ردّاً على دعوة، ويقتضي قول " نَعَم "؛ وعلينا التنبّه لما يعنيه هذا القول .

فاللّه يأَبى أَن نسخر منه، والعبث بمثل هذه الأمور ما هو إِلاّ لعب بالنار ... إِنّ واقع الإنجيل واقع حقّ، ونداءه نداء حقّ، ورغبته حقيقيّة . ومن الخطورة بمكان أَن تتوافق استجابتنا مع مشيئة اللّه .

و سيكون قولنا " نَعَم " مدخلاً في دروب الصلاة، التي ليست تكرار أَلفاظ، وليست بالضرورة، خبرة كاريسماتيّة، بل هي اتّحاد باللّه واتّحاد بيسوع . إِنّها إِشراع كياننا على الحبّ، وعلى الروح الذي يحلّ فينا، وولوج إِلى أَغوار كياننا، يوثّق اتّحادنا بيسوع، في صلاةٍ مُحِبّةٍ وصامتة . ومن شأن هذه الصلاة دفعنا إِلى تعاطف عميق مع الجميع، وخاصّة مع جرحى القلوب . الصلاة تدخلنا إِلى رحاب صمت الحبّ، فيسوع يكلّمنا في صمت كياننا العميق .

" الإِقامة " في يسوع هي الصلاة . وعلينا إِشراع كأس كياننا لحضور اللّه والولوج في صمته .

علينا الاستكانة إِلى ذلك السلام الذي يغمرنا عندما يمسّ شغاف قلبنا . وعلينا أَن ندرك أَنّ هذا السلام هو حضور اللّه، والأسلوب الذي به يحدّثنا الربّ .

مسيرة الشفاء والتحوّل تبدأ وتكتمل عندما نقيم في يسوع، بالصلاة . وبقدر ما نقيم فيه نتحوّل شيئاً فشيئاً، ولا يعود أعداؤنا أَعداء لنا، بل نتمكّن من حبّهم . وبقدر ما نقيم في يسوع نصبح صانعي سلام، وبالتالي أَبناءً للّه، حسب وعده . ووفقاً لهذا الوعد سنقوى على فعل ما

نعجز عنه بمفردنا، وسنحبّ مثلما أَحبّ يسوع، سننهج درب التطويبات، وسنمسي فقراء ومحبّين، وُدَعاء ومسالمين، أَقوياء ومدافعين عن العدل في كلّ وقت ... هذا الوعد يجعل منّا تلاميذ حقيقيّين ليسوع، الحَمَل، والراعي الصالح، وسنشرع نقتفي أَثره، وسيهبنا الجرأة على التحديق في المستقبل، وقبول الحاضر، والجرأة على الصفح، فغالباً ما نحمل ندوب الضغينة؛ وعلينا أَن نتعلّم الصفح، ومحبّة من جرحونا، كي نبلغ الحرّيّة الداخليّة .

و لكي نلج تيّار الشفاء هذا ينبغي أَن نتعلّم الإِخلاد إِلى الصمت . فمن السهل، إِثر سماعنا كلمة اللّه، أَن ننطلق لإِعلانها . وقد يكون ذلك هروباً لكيلا ندعها تتغلغل في ثنايا قلوبنا، حيث يكمن شعورنا بالذنب، وقلّة إِيماننا وسخائنا . وقد نسارع إِلى التنكّب عن واقع كياننا عوضاً عن مواجهة قلّة إِيماننا، وتقديمه للروح قائلين : " إِرحمني، وتعالَ، إِشفِني، وحوّلني . "

ليس عالم التحوّل سهلاً، فلطالما اعتدنا المشروبات والوجبات السريعة الإِعداد، بحيث ننسى أنّ الأمور الخطيرة تقتضي جهداً . ولا شيء أَجدر بالجهد من تلك الدعوة إِلى أَرض الحرّيّة، أَرض الفرح والسلام التي نرغب فيها جميعنا .

المهمّ هو النموّ في الالتزام والحبّ، في عالم يسود فيه الصراع والموت، عالمٍ لم يكن قطّ في مثل حاجته اليوم إِلى تلاميذ يسوع الحقيقيّين، وإِلى الرعاة الحقيقيّين، وإِلى " أَطبّاء " حقيقيّين في الروح . وقولنا " نَعَم " ليسوع هو الالتزام؛ وحينئذٍ نستطيع استخدام الوسائل التي يعطيناها للسير معه ...

علينا تعلّم الوفاء في الحبّ، فالحبّ ليس مجرّد التهاب مشاعر عابراً، ولحظة فرح . بل هو وفاء للمحبوب، وتعلّم الانتظار والنموّ معاً . الحبّ هو الغصْن المقيم في الكرمة . وعلينا أَن نتعلّم الوفاء، والوفاء يقتضي التصميم، وتخطّي الانتقادات، والهزء، والإِغراآت التي قد تجابهنا . علينا أَن نتعلّم الوفاء لمن هو الحبّ، ولمن يدعونا إِلى السير معه في النور والسلام . الحبّ ينفي الخوف .

بوعينا نداء يسوع، نعي فقرنا، وخطيئتنا، وكلّ ما نُحجم عن فعله لأَنّنا سجناء أَنانيّتنا .
و نداء الروح هو قيامتنا، فهو يخرجنا من قبر كياننا .

كم من الناس يشكون الجفاف الداخليّ، فقد فقدوا الرجاء، وهم يعيشون في اكتئاب، وانحطاط، منغلقين على ذواتهم ! كثيرون هجرتهم الحياة، ولم يبقَ فيهم سوى الفراغ والفوضى والظلمات، وبدا لهم أَنّ كلّ رجاء قد تبدّد؛ ولا حيلة لهم سوى الغرق في عالم المخدّرات، والكحول، والجنس .

سرعان ما تجفّ حياة الروح . فبعض الذين يتبعون يسوع منذ سنوات، يستذكرون أَيّام شبابهم، عندما كان قلبهم ممتلئاً سخاءً، ومتعطّشاً إِلى الصلاة ومحبّة يسوع . وقد باتوا يكادون لا يصلّون، وما عادت صلاتهم سوى ترداد عبارات جامدة، وتحوّل سخاؤهم إِلى لعثمات داخليّة .

لقد فقدوا النور والرجاء . كثيرون منهم يكتشفون أَنّهم جفّوا داخليّاً، عقب انقضاء عشر أو عشرين أو ثلاثين سنة على تكريس ذواتهم ليسوع . وهم حينئذٍ إِمّا يقيمون في حزنٍ كئيب، أو ينشدون تعويضاً في التماس السُّلطة، وفي النزاعات الداخليّة، أو في المماحكات السخيفة .

كذلك يحدث في الزواج، وفي مسيرة الشباب نحو النضوج . وحينئذٍ نمسي قساة، ونشرع نحكم وندين الآخرين، ونفقد روح الانفتاح، والليونة، وننبذ الأَفكار الجديدة، وننزلق إِلى تهكّمٍ وقح، ونبتغي قتل كلّ ما يبدو حيّاً، لأَنّ بذور موت قد زرعت فينا، وشرعت تنبت .
و لا يتيح لنا الروح اكتشاف ظلمات كياننا إِلاّ عندما يدنو منّا النور؛ وعندما تُغرَس فينا بذرة الروح، تسود فترة سلام عظيم، ويقدم يسوع كي يحوّلنا، ويهبنا روحاً جديداً، روح الآب . وهذا الروح يشفينا من مخاوفنا، وأَنانيّتنا، ويعلّمنا أَن نحبّ بكل عذوبة الراعي الصالح والتزامه . ويعلّمنا محبّة المختلفين عنّا لا بفرض كياننا عليهم، ولا بإِبلاغهم كم يتعيّن عليهم أَن يتلقّنوا منّا، بل بإِبراز طاقاتهم الخلاّقة، وجمالهم الخاصّ وبدعوتهم إِلى الحبّ .

الروح يشفي القلوب، ويزيل منها المرارة والاستهتار، ويحملنا على محبّة أَعدائنا . وبقدر ما يمسّنا، نشرع نشعر بجمال ملكوت اللّه، هذا الملكوت الذي يحاكي كنزاً مخبأً في حقل، أو جوهرة جزيلة الثمن .

و إِذ نحن نشعر بتحوّل الروح هذا، وبما يواكبه من سجوٍ وسكون، ورجاء، وسلام، ندرك أَنّ الممتلكات التي كنّا نقدّرها أَرفع تقدير، حتّئذٍ، إِنّما هي عبء ينبغي أَن نتحرّر منه .

ويقلّ شأن الثروات المادّيّة، بعد أن بتنا نملك شيئاً آخر، السلام والحرّيّة، والسكون، وغنى القلب .

و نشرع ندرك ما يعنيه يسوع عندما تكلّم عن الفقر، وأنّ كنزنا يثوي في قلبنا، فعلينا التجرّد من كلّ ما يحول دون ازدهاره، وكلّ ما يعيق نموّ هذا القطاع الأعمق من كياننا، ففي أغوار كياننا الحميم يقيم اللّه .

و يشرع الحبّ يثير رغبتنا في الصلاة والتواصل الحميم مع الآخرين والإصغاء إليهم ويحرّرنا من القلق والخوف .

و لكنّ الروح ليس عطاء فحسب . فمسيرة حياتنا هي نموّ، وحياة الروح ليست حدثاً باهراً . بل هي بذرة في حاجة إلى تغذية، وبعض ما يطالبنا به الربّ هو تبيّن الغذاء الذي نحتاج إليه لكي يكبر الحبّ فينا، فبذرته هشّة، وقد تخنقها سريعاً الأعشاب الضّارة .

إنّنا مدعوّون، جميعاً، إلى إنماء البشريّة، وتغذيتها وشفائها بفضل بذرة الروح هذه المفرطة الصغر . مسؤوليّتنا هي المضيّ إلى البشر أجمعين . فالثمر ليس من أجلنا ومن أجل فرحنا وازدهارنا فحسب، بل من أجل البشريّة كلّها، وكلّ شعب اللّه . وشيئاً فشيئاً علينا اكتشاف هذه المقدرة التي أعطيناها والتي لا تخصّنا لأنّها الروح، ولأنّها يسوع الحيّ فينا .

لسنا نحن المدعوّين إلى فعل الخير، بل روح اللّه فينا . إنّه يأتي فيقيم فينا إقامته في هيكل، ومنه ينسكب على قلوب الآخرين لكي يوقظ فيهم الروح، فيعون جمالهم، ويكتشفون، في ما يتخطّى مرارتهم وقنوطهم، حضور اللّه الحيّ فيهم، والذي ينتظر أن يوقَظ . علينا مسؤوليّة استقبال روح يسوع في كياننا، على نحو ما تحمّلت مريم هذه المسؤوليّة عندما استقبلت حضوره المادّيّ في أحشائها .

عندما يحلّ الروح فينا، غالباً ما نكتشف حضوره من ثماره، وهي ثلاث . أولاها *النور* الذي يحلّ، شيئاً فشيئاً، محلّ الظلمة والفوضى . وهذا النور هو رجاء وديناميكيّة وقوّة .

و نشعر، أحياناً، بهذا النور فينا يدفعنا إلى الاستمتاع بالحقيقة، حقيقة كياننا، وحقيقة كلام اللّه، وحقيقة الواقع والبشر . وهذا النور يحدونا إلى انتباذ كلّ ما ليس حقّاً، كلّ ما هو ظلام، وأكاذيب وأوهام، لأنّنا نشعر بأنّ الحقّ هو الذي يحرّرنا .

و نشرع نحبّ الكون، هذا الكون المدهش، بنجومه، وقمره، وشمسه، ورياحه، وفصوله، وبلدانه، وحيواناته، وبشره؛ نشرع نكتشف جمال كلام اللّه ونحبّه؛ وشيئاً فشيئاً ننعتق من ثِقَلِنا، وننمو في الرجاء . فتنتشر أجنحة كياننا، وينشب بنا نفاد الصبر والعطش، فقد وُلدنا، من جديد، في الرجاء .

هذا النور الذي ينمو فينا، والذي يحدونا إلى إدراكٍ أعمق لجمال البشر والكون يولّد فينا الدهشة والتأمّل، ونشرع نرى العالم ويسوع بعيون أطفال .

ثمرة الروح الثانية هي جعلنا نتنكّب عن عدوانيّتنا وخوفنا من الآخرين، بتعليمنا **محبّة أعدائنا**، أولئك الذين يمثّلون لنا تهديداً، فنتحرّر من الرغبة في جرح الآخرين، وفي التكتّم، والتدمير، والنقد، والهزء بالآخرين عوضاً عن مشاركتهم الضحك . وشيئاً فشيئاً يزيل الروح كلّ قوى الفرقة هذه القابعة فيّ، ويهبني قوّة فهم ومصالحة، ويجعلني أعي ما يقيم فيّ من جدران وحواجز،ومخاوف ومرارة، ورفض التحدّث إلى الآخرين، ورفض الصفح عنهم، ومن نفاد صبر وغضب . إنّه يحرّرني لكي أُحبّ . ذاك هو عمل الروح الذي لا نقوى على القيام به بأنفسنا، فنحن لا نقوى على تحويل ظلمات كياننا إلى نور، ولا البغض إلى حبّ .

و أخيراً يأتينا الروح ***بالسلام***، وهو وحدة النور والحبّ، وموت العدوانيّة، ومولد الرجاء . وهذا السلام ليس مجرّد انتفاء للحرب؛ بل هو ينبع منّي ومن اتّحادي بيسوع وبالبشر . هذا السلام كان في صميم الجماعة المسيحيّة الأولى حيث كان يسوع ومريم ويوسف يعيشون . إنّه دليل وحدة الآب والابن والروح القدس، وهو الذي كان في قلب الجماعات المسيحيّة الأولى إثر حلول الروح القدس على الاثني عشر، في العنصرة . إنّه هذه الوحدة بين البشر التي لا يحيط بها كلام، فبقدر ما يتغلغل فيهم روح يسوع ينسج فيما بينهم عرى وحدة، لا تغلقهم بعضهم على بعض،بل تغدو انفتاحاً واستقبالاً لكلّ البشر، وخاصّة الفقراء، والجرحى، إخوتي وأخواتي .

في قلب الإِنسان عطش إِلى حبّ الآخرين . إِنّنا في حاجة لا إِلى إِعجابهم، بل إِلى أَن يكون لنا لديهم شأن ويكون لهم لدينا شأن، إِلى من يفهمنا حقّاً، ويعزّينا، ويحتاج إِلينا، ويقتسم معنا .

إِنّ الحبّ، في آنٍ واحد، مدهش ورائع، وحافل بالتناقضات . إِنّه، على نحوٍ سرّيٍّ، يتخطّى الزمن، إِنّه تواصل حميم وحضور راسخان في الأَبديّة . ومع ذلك هو، أَيضاً، راسخ بثبات في الزمن، لأَنّه إِشراع أَبواب كياننا، وأَمانه يوميّة. إِنّه صفح متبادل، وتعاون متبادل في فترات الأَلم والضيق . إِنّه أَمانة للأَشخاص مع كلّ ما ينجم عن ذلك من مصاعب، ولا سيّما عندما يتعيّن على الاندفاع الأَوّل مواجهة الواقع اليوميّ

الحبّ هو، أَيضاً، نشدان اللامحدود؛ وهو، بالتالي، جمال الإِنسان ومأساته، إِنّنا نصبو دائماً إِلى ما هو أَبعد، وأَسمى، وأَعمق، سواء في انطلاقتنا إِلى النجوم، أو في توغّلنا في المعرفة، وامتلاك الثروات، وتجربة اللانهائيّ : وفي ذلك منشأ الكثير من اختبارات المخدّرات والكحول، وكلّ نشاط إِنسانيّ . هذا البحث عن اللانهائيّ هو الدافع العميق لروح السيطرة المتمثّل في امتلاك المزيد فالمزيد من السلطة . وكذلك هو أَمر الحبّ، فنحن نرغب في الحبّ على نحوٍ لا نهائيّ، حبّ أَبديٍّ وبلا حدود . هذا المطلب يحتلّ مكان القلب من كلّ صوفيّة في جميع الحضارات والديانات .

غير أَنّنا ملتصقون بالأَرض، ومحدودون جدّاً بحاجتنا إِلى الطعام والنوم، وخضوعنا للتعب والمرض، نحن محدودون بجسدنا البشريّ كما أَنّنا محدودون بروحنا وقلبنا . وصراعنا هذا مع حدود كياننا هو من أَخطر أَسباب اضطرابنا . فنحن مفطورون من أَجل اللامحدود، ولكنّنا محدودون حدّاً رهيباً .

في عطشنا إِلى الحبّ، نسارع إِلى إِضفاء المثاليّة على من نحبّ، راغبين في أَن يكون كاملاً .

و مع أَنّنا ما نلبث أَن ندرك أَنّ الرجل الكامل أو المرأة الكاملة لا وجود لهما، إِلاّ أَنّ تعطّشنا إِلى كمال لقاءٍ يحملنا إِلى ما وراء الزمن، في لمسة أَبديّة، لقاءٍ قائم أَبداً . وعندما يفشل المرء في العثور على هذا الحبّ الكامل، يقيم الحواجز، وبقدر ما تتعالى هذه الحواجز ينتهي إِلى استنتاج أَنْ لا وجود للحبّ .

إِنّ حقيقة الحبّ تثوي في صراع البشر مع قوى الموت والفساد، وفي محاولة استخدام بعضهم بعضاً من أَجل خلق شعور بالحياة .

لا مراء أَنّ الذين جُرحوا يسارعون إِلى إِعادة بناء الحواجز، ويلتمسون الإِعجاب أَكثر من الحبّ، فهم يخشون الحبّ، لأَنّ الحبّ يعرّضنا، حتماً، للعطب . فنحن نُجرَح إِن لم يستجب لنا المحبوب كما نرغب، وإِن لم يتحقّق اتّحادنا به كما نتوخّى . إِنّ من يحبّ يقدّم ذاته، بــلا حواجز، في اندفاع حبّ . وإِن لقي هذا العرض رفضاً أَو ازدراءً، فهو، حينئذٍ يتألّم بعمق أَكثر من أَيّ إِنسان آخر . إِنّ الولد الذي هجره والدوه، والعاشق الذي هجرتــه حبيبتــه، يصــابان بجراح قد لا تندمل أَبداً.

الحبّ يخيف لأَنّه ينطوي على مخاطرة، فهو يستلزم احترام حرّيّة الآخر، على غيــر علم بكيفيّة تطوّر هذه التجربة . فقد أَظلّ، أَنا، وفيّاً حتّى الموت، في حين لا يلتزم الآخر بهذا الوفاء، أو قد أُخفق، أَنا، في الوفاء، وأَنا عالم بوهني . تلك هي مخاطر الحبّ .

و ليس الحبّ تجربة تشرعنا على اللانهائيّ، فحسب، بل هو، أَيضاً، رباط يشدّنا إِلــى الزمن . إِنّه زواج الزمن والأَبديّة، ويتمثّل جماله في واقع الوفاء، والمودّة المتبادلة والالتــزام الدائم، التزام الواحد تجاه الآخر .

الحبّ سرّ، وهذا ما يخيفنا . فنحن نتبيّن كم قد يفقد الحبّ طهره سريعاً، حتّى حبّ أمّ لابنها – الذي رمز دائماً إِلى أطهر حبّ – قد ينقلب تعبيراً عن حاجة الأُمّ إِلى السيطرة على ابنها، ومنعه من النموّ في الحرّيّة . كذلك في مجال الحبّ بين الرجل والمرأة، غالباً ما تبــرز الغيرة، وتنقلب الشاعريّة، والرقّة، ورهافة الإحساس خوفاً من فقدان الآخــر، وانعــدام ثقــة يرفض الحرّيّة .

و هكذا حتّى في أَكثر صيغ الحبّ بساطة وطهراً تكمن بذور بشاعة وأَنانيّة. ومع ذلك ما انفكّت البشريّة، عبر الزمان، تنشد الحبّ الكامل، وتصبو إِليه .

و مع كلّ ما يحمل يسوع من أَسماء وصفات، إِلاّ أَنّه يحمل أَيضاً اسماً ســرّيّاً، هــو الحبّ، وهو أَعمق ما في شخص يسوع وكيانه .

إِنّ يسوع الحبيب يوقظ اللانهائيّ في قلوبنا، ويوقظ طاقات الحبّ العميقة الكامنة فينا . وعندما يرسل لنا الروح، فهو إِنّما يبتغي أَن يوقظ فينا الدعوة إِلى أَن نُحِبّ ونُحَبّ . ولــذلك، الروح هو أَعذب الكائنات وأَكثرها سجوّاً ورقّة، ويمسّنا في أَعمق أَعماقنا، حيث نعاني مــن الخوف، والهشاشة .

لم يشأ اللّه أَن تكون علاقته بالإِنسان، علاقة الكلّيّ القدرة بخليقته، ولا الاكتفاء بعلاقة أَبٍ مع ابنه وفق المفهوم البشريّ، بل ابتغى أَن تكون له معنا العلاقة نفسها التي كانت تربطه بابنه الحبيب المساوي له في كلّ شيء .

إنّ اللّه يدعونا، نوعاً ما، إلى أن نكون مساوين له، وإلى أن نكون علـــى قـــدرٍ مـــن الاتّحاد بيسوع بحيث نصبح، على غرار اللّه نفسه، مشاركين في طبيعته الإلهيّة . ذلـــك هـــو العهد الجديد .

إنّ يسوع يحيا في حبّ الآب وبه، وهذا الحبّ هو الذي يسكبه في قلوبنـــا، بموهبـــة روحه . وهذا هو الحبّ الذي يحوّلنا، ويفتح نفوسنا، ويدعونا إلى المحبّة.

و هذا، جوهريّاً، ما نختبره في الصلاة، عندما يقول يسوع: "سلامي أعطيكم، سلامي أودعكم"، فهو يهبنا كنز اللّه، قبلة اللّه، ومثل استكانة الحبيب في حبيبته . وخبرة هذا الاتّحـــاد باللّه تتغلغل إلى أعماق كياننا، وهي، منذ الآن، دعوة إلى اللانهائيّ .

على الأَرض، فترات يدعونا فيها الروح، في أَعماق كياننا، لكـــي نتذوّقـــه، بســـلام، ونستريح في الحبّ، مقيمين فيه . وفي ذلك صورة مسبقة للأَعراس الأَبديّـــة، وبـــدء الحيـــاة الأَبديّة المتمثّلة في معرفة الآب، والاستكانة فيه .

لحظات الحبّ الخاطفة هذه التي من شأنها إلهام حياتنـــا كلّهـــا وتوجيههـــا ســـتزدهر ازدهاراً تامّاً، عندما سنعاين الآب وجهاً لوجه، في قبلة متبادلة . هناك، في الحيـــاة المقبلـــة، عندما ستموت أَجسادنا، وخاصّة عندما ستنبعث إلى حياة جديدة، سندخل إلى فرح العرس، في عيدٍ أَبديّ . ولكن، ما دمنا على هذه الأَرض، علينا مواصلة السير مثل حجّاج رجاء، يسيرون أَحياناً في ظلمة الليل . وعلينا أَن نهتف باستمرار : " تعالَ "، على حدّ ما جاء في " الرؤيا " : " الروح والعروس يقولان : "هلمّ ! "، ومن سمع فليقل أَيضاً : " هلمّ ! " . من كان عطشـــاناً فلْيأتِ، ومن شاء فليأخذ ماء الحياة، مجّاناً ".

نحن لسنا مدعوّين، في المقام الأَوّل، إلى العمل النشيط . ولا تقوم حياتنا فقـــط علـــى تحويل العالم، ولو كان الأَمر كذلك لانخرطنا في دوّامة لا نهاية لها . وإن شئنا تحويل العالم، فلكي نستطيع، جميعنا، أَن نحبّ . ولذلك، قبل أَن نحوّل العالم، فلنشرع بالحـــبّ، وبإشـــراع ذواتنا لتجربة المحبّة، واللانهائيّ، تلك التجربة الهشّة، التي تبدأ بهمسة سلام . هنـــاك، فـــي لحظات الصلاة تلك، أو بعد تقبّل جسد يسوع ودمه، نتلقّى أولى دعوات الروح هذه إلى مأدبة العرس، وإلى لقاء العريس، وإلى الاتّحاد بالحمل .

و إن نحن كنّا أوفياء لهذه الإشارات الأولى، فسيصبح النداء أَكثـــر فـــأكثر إلحاحـــاً، وستغدو التجربة أَكثر فأَكثر تدفّقاً بالحياة . وبقدر ما ننعتق ممّا يبقينا بعيدين عن العريس، نلج في حالة وفاء ينبغي أَن نحياها باستمرار، إن نحن شئنا التوغّل عميقاً فـــي عـــالم المشـــاركة الحميمة . ومشاركتنا مع يسوع، في سلام، هي دليل اقتسامنا مأدبة العرس حقّاً .

الروح والعروس يقولان : " هلمّ ! "

و يسوع يقول : " ادعوا جميع البشر إلى العرس "

عطيّة اليوم

يدعونا يسوع إلى اقتسام صبره ونفاد صبره، وهو يساعدنا ،شيئاً فشيئاً،على قبول الآخرين كما هم، بلا حكم ولا إدانة، بكلّ معايبهم، ومصاعبهم، ومرارتهم، وآمالهم، ومطامعهم، وعطاياهم؛ ويساعدنا على التحديق في الآخر وعلى فهمه، وبعد أن نفهمه، على مؤازرته على النموّ وفقاً لموسيقى كيانه الخاصّة، بتوفيرنا له الغذاء الذي يحتاج إليه .

و ما الصبر سوى قبول الواقع على علاّته، وقبول ذواتنا بكلّ فقرنا وأوهاننا وجراحنا .

ثمّة من ينتحبون عندما تمطر السماء، وإذا ما أشرقت الشمس يشكون من قيظها، في الشتاء يتوقون إلى الصيف، وفي الصيف يتحرّقون إلى مجيء الخريف. صغارهم يتمنّون إن يصبحوا كباراً، والمسنّون يرتدون زيّاً يظهرهم بمظهر الشباب. إنّنا نرغب دائماً في الظهور على غير ما نحن عليه، عوضاً عن اكتشاف جمال الشباب والشيخوخة، كلٍّ منهما في حينه .

علينا أن نتعلّم التمتّع بنعمة اليوم؛ وحتّى إن ابتلينا بمرض، فعلينا أن نبتهج إذ إنّه يوفّر لنا فسحة للمطالعة الهادئة وللصلاة . فعلينا أن نكون مسترخين في المرض، وكذلك في العافية، وأن نتقبّل الحالتين على أنّهما موهبة الروح، ونتقبّل الوقت الحاضر غير متحسّرين على ما مضى، ولا متحرّقين إلى مستقبل نتوهّم أنّنا سنجد فيه سعادتنا، وإلاّ قضينا حياتنا من غير أن نحيا .

إحدى أجمل خصال الرجال والنساء الذين أعيش معهم، هي عيشهم اللحظة الحاضرة . لقد تألّموا في الماضي، ولهم تطلّعات نحو المستقبل، ولكن بما أنّ قلوبهم أكثر نموّاً من فكرهم، فهم قادرون على عيش واقع اللحظة الحاضرة .

ذات يوم قمنا بحجٍّ مع جماعة من المعاقين، وفي بعض الطريق طرأ على حافلتنا عطل، وبمشقّة انتهينا إلى مدينة في البرتغال، وإذ لم نكن نملك مالاً يمكّننا من المكوث في فندق، اقتحمنا منزل كاهن، وجلسنا في مكتبه؛ وعندما جاء وشاهد جماعتنا الغريبة، حملق دهشة، فيما كنّا نرتّل ونصلّي، مستسلمين تماماً إلى ما قد يحدث لنا . وقد التمست منه أن يجد لنا مكاناً نقضي فيه ليلتنا؛ ومع أنّه كان توّاقاً إلى الانعتاق منّا في أسرع وقت، إلاّ أنّه أظهر لنا الكثير من الودّ. وقد عثر لنا على ردهة نوم فسيحة، ولكنّه عجز عن تزويدنا بالطعام . وأقمنا، خمسة عشر نفراً، في تلك الردهة التي ساد فيها الحرّ، ومع كلٍّ منّا نحو ثلاث خوخات، وكسرة خبز جافّ، وقليل من الماء الفاتر . واستوضحنا كلّ فرد عمّا يرغب في شربه، وسكبت له الماء الفاتر على أنّه الشراب الذي كان يشتهيه، وقدّمنا كلّ ما يمكن تخيّله من أصناف الشراب . وما كان أروع طريقة كلٍّ منهم في عيش واقع الماء الفاتر !

و في طريق العودة، إذ كنت أَقود الحافلة حدث انفجار مدوٍّ وتطايرت واقية الـــريح، شظايا ... ووسط كلّ ذلك هتف أَحدهم : " يا للروعة ! لكأنّ واقية الريح من الكريســـتال ! " هكذا تعاش اللحظة الحاضرة، وهكذا يُشاهد جمال الواقع !

في جميع الأَحوال، وأَينما كنّا، علينا تعلّم تقبّل ما تأتي به اللحظة الحاضرة من واقع ومن أَشخاص . فإذا ما تعطّل شيء في منزلنا، ووافى من يصلحه، فقد لا يكون الأَفضل فـــي مهنته، ولكنّه قد يكون مرسلاً من اللّه لسماع البُشرى، على نحو ما جرى لأَحد أَصدقائي الذي أَمضى، مع عامل جاء يصلح له أَقفالاً، ساعات في التحدّث عن يسوع . قد يرسل لنا اللّه أَناساً نعيش معهم لحظة، لكي نقابلهم . تلك هي اللحظة الحاضرة التي ينبغي أَن نتعلّم عيشها .

لا ريب أَنّه ينبغي أَن تكون لنا مشاريع، ولكن عندما يصبح المستقبل حاضراً، علينـــا تعلّم تعديل مشاريعنا على ضوء المعطيات المتوفّرة، وعلى ضوء احتياجات من نعيش معهم .

علينا أَن نكون متأهّبين لتعديل مخطّطاتنا لكي ننصت إِلى نداء اللحظة الحاضرة . إِنّ الحكمة تبدأ عندما نكفّ عن ابتغاء مكافحة واقع الحاضر، ولكأنّه غير موجود، ونشرع نتقبّله كما هو .

يجب أَن يخفق قلبنا نفادَ صبر، ويمتلئ بالرجاء، على أَن يستند هذان الرجـــاء ونفـــاد الصبر على واقع اللحظة الحاضرة . ففي واقع هذه اللحظة سيكلّمنا يسوع، وســـيهبنا الـــروح ذاته . علينا أَن نعلم أَنّ اللّه يحبّنا، وأَنّنا ثمينون في عينيه، وأَنّ بوسعنا الاستسلام إِلى روحــــه في اللحظة الحاضرة .

سيهبنا الروح غداً ما هو يرغب في أَن نعيش غداً، فلا يسوغ أَن نهدر الوقت في القلق بل علينا أَن نعيش جمال علاقتنا بيسوع، وبروحه، وبالآخرين في اللحظة الحاضرة، علينا أَن نصبح مثل أَطفال يعيشون في دهشة، وأَمل . سيهبنا الروح غداً ما سنحتاج إِليه من سلام وقوّة وحبّ . أَمّا الآن فهو يهبنا القوّة على عيش اللحظة الحاضرة، ومن ثمّ، علينا أَن نبتهج في كلّ حين، وننعم بما يمنحنا الآن من أَفراح، وآلام، وسلام، وآمال . تلك هي هبته لنا اليوم .

لن نفلح في بلوغ السكينة بنبذ الخوف، بل بالثقة في حبّ اللّه والاستسلام له، فاللّـــه لا يطالبنا بأَن نجهد في سبيل الكمال، بقدر ما يطالبنا بأَن نثق به، وبأَنّه سيهبنا القوّة .

علينا أَن نخبر فصول شتاء من الآلام، وفترات تصبح فيها الصلاة عسيرة، وقوماً غير جذّابين، ونحن واثقون بأَنّ الربيع ليس بعيداً . قد تدمي قلبنا وترمينا في هوّة من الظلمة، وفاةٌ تحدث في الأسرة، أو إِخفاق في العمل، أو مرض يقتضي نمطاً جديداً من العيش، أو خيانـــة صديق. وفترة الظلمة هذه هامّة، وعلينا، في أَثنائها أن نكون أَشدّاء، ومعتصـــمين بالســـلام، وعوضاً عن محاربتها، أن نتّخذ موقف الترقّب .

علينا تقبّل هذا الشتاء على أَنّه هبة اللّه، واثقين من أَنّنا سنرى الثلج يذوب، والزهــور تنبت .

هكذا تجري الأمور مع الروح، ولكأنّها علاقة بين الزمن والأَبديّة، تتعاقب فيها فترات تواصل حميم، وفترات وفاء، وفصول خريف يتمّ فيها التواصل، ويســود الســلام والبهجــة بالروح .

و ثمّة فترات وفاء، عندما نكون على مقربة من يسوع، هو الذي خَبرَ النزاع أَكثر من أَيّ منّا ومثله نقول : " إِن أَمكن فلتجز عنّي هذه الكأس ! ولكن لا تكن مشيئتي بل مشيئتك . "

إِنّ دعوة يسوع هي دعوة إِلى السلام والسكينة، وإِلى انتهاج درب الفرح . ولكنّه يريد أَن يتقوّى حبّنا وإِيماننا ويصبحا من الثبات بحيث لا يتزعزعان، على حدّ قول الرسول بولس : " من يفصلنا عن محبّة المسيح ؟ أَلشدّة ؟ أم الضيق ؟ أم الاضطهاد ؟ أم الجوع ؟ أم العري ؟ أم الخطر ؟ أم السيف ؟ على ما هو مكتوب : "إِنّا من أَجلك نُمات النهار كلّه؛ قد حُسِبنا مثل غنم للذبح، غير أَنّا، في هذه كلّها، نغلب بالذي أَحبّنا، فإِنّي لواثق بأَنّه لا موت ولا حيــاة، ولا ملائكة ولا رئاسات، لا حاضر، ولا مستقبل، ولا قوّات، لا علوّ ولا عمق، ولا خليقة أخرى، أَيّة كانت، تقدر أَن تفصلنا عن محبّة اللّه التي في المسيح ربّنا . "

و لكي نستطيع التعبير عن مثل هذا التأكيد، علينا أَن تجتاز مراحل الشتاء التي تزوّد بالمنعة، وعلينا أَن نكتشف، شيئاً فشيئاً، الاضطراب الكامن في قلب الوجود، واكتشــاف دور التضحية، والأَلم، والتقدمة .

ينهج البعض دروب التضحية والحبّ والتقدمة، ليس فقط بغية ازدهــارهم ونمــوّهم الشخصيّين، بل في سبيل منح الحياة؛ فيقدّمون جراح كيانهم لكي يكونوا على مقربة من جميع مجروحي العالم، لكيلا يُهدَر حبّ يسوع المصلوب، بل لكي يؤتي ثماراً .

ثمّة، في عالمنا، قومٌ جراحهم وآلامهم من العمق، وحواجزهم من المنعة بحيث يتعذّر التحدّث إِليهم . فهم يرفضون، تلقائيّاً، وبعنف كلّ بادرة حبّ . فمن ذا الذي يستطيع الاقتراب منهم ؟ لا يقوى على ذلك سوى الذين يعيشون نزاعاً ولكنّهم يعيشونه في عذوبة نــور اللّــه، ويصلّون من أَجل الذين يقاسون النزاع خارج دائرة هذا النور، فيواجهون القنوط، وينتحرون بطريقة أو بأخرى . إِنّ الذين يقدّمون أَنفسهم ضحيّة هم الذين يستطيعون أَن يكونــوا علــى مقربة من جميع المتألّمين في العالم .

علينا التوغّل في معنى صليب يسوع، واكتشاف مغزى التضحية، ومدى قرب الأَلــم والموت من القيامة والفرح . وعلينا التعمّق في اكتناه الأَلام التي يصيبنا بها يسوع، وتبيّن أَنّها كفيلة بأَن تصبح معين حياة لأَشخاص مجروحين .

و أسوتنا في ذلك تلك المرأة الصامتة والمفعمة رأفة وحنـوّاً، التـي ظلّـت، ثـلاث ساعات، واقفة إِلى جانب ابنها الذين كان يتجرّع سكرات الموت، حاضرة بكلّ جوارح كيانها، مع يسوعها المصلوب . كانت معه بكلّ طاقات حبّها وحنوّها، وبكلّ طاقات السلام الكامنة فيها . عندما نعاني من الضيق، ونشرف على القنوط، ندرك كم نحن في حاجة إِلى حضور مريم، التي تعطينا فهماً أَعمق لمعنى الصليب، وتساعدنا على عيش الصلب والموت . فبها، هي التي تقرّبنا من يسوع، وُلد رجاء جديد .

إِنّ عالمنا عالم جريح، مقسّم، متألّم، يعاني من يأس سحيق وفقرٍ ذريع، حافل بعلامات الموت والفرقة والبُغض . غير أَنّ علامات الموت هذه كلّها قد امتصّها الصليب، وسمت بها القيامة . ورجاؤنا هو أَن يتحوّل شتاء البشريّة، شيئاً فشيئاً، إِلى تفجّر حبّ، فهذا هو ما دُعينا إِليـــــــــــــــــــــــه .

الجسّد المحطّم

عودة إِلى التواصل الحميم

Le corps brise
Retour vers la communion

Ed parole et silence

1998

هذا الكتاب

لقد غالى عصرنا في اهتمامه بالجسد، وجماله، وقوّته، وتفوّق أَدائه، ممّا أَبرز، بحدّة، مأساة الأَجساد المحطّمة، التي، لسببٍ أو لآخر، وغالباً من غير ذنب اقترفه أَصحابها، فقـدت بعض جمالها، وقوّتها، وقدرتها على الأَداء . ومنها أَجساد ضحايا " بؤس بريء "، أُعيق منها الدماغ، فبات عاجزاً عن استخدام ما تنطوي عليه الأَجساد من طاقات وحيويّة .

غير أَنّ هذه الأَجساد كلّها هي " هيكل الروح القدس " .

و لقد كان جان فانييه رائداً في معايشة هذه "الأَجساد المحطّمـة"، والإِنصـات إِلـى صرخاتها الأَليمة، الصامت منها والمدوّي، وإِلى بلسمة جراحها، وسكب الحبّ والعزاء فـي أَوصالها، ممّا قاده إِلى اكتشاف الغنى الفائق الكامن فيها، حيث هيكل الروح وصورة اللّـه . وقد ساعده ذلك على اكتشاف الجراح الخفيّة الثاوية في أَعماقـه، وفـي معظـم الأَشـخاص المدعوّين " "طبيعيّين" .

هذا الكتاب هو ثمرة خبرة سنوات في معايشته المعاقين عقليّاً، وهو دعوة للشباب إِلى خوض مثل هذه المغامرة الكفيلة بإِغناء نفوسهم، وإِشراع قلـوبهم علـى مُحطّمـي العـالم، والإِنحناء عليها لمواساتها، فهي كفيلة بأَن تصبح ينابيع مياه حيّة . أَلم تتدفّق من جنب يسـوع المطعون قطرات ماء ودم خلّصت العالم ؟

بُغية جان فانييه أَن يشقّ درباً صغيراً ينتهجه كلّ صابٍ إِلى اتّباع يسوع، درب بسيط، متواضع، خفيّ، ولكنّه منبع شفاء، ومدخل إِلى الحبّ الثالوثيّ، عبر معاهدة حبّ مع الفقيـر، والضعيف، والمسحوق . إِنّ يسوع حاضر في هذه الأَجساد، وجراحها هي جراحـه الخمسـة الممجَّدة التي يتأمّلها الآب، أَبديّاً، ومن خلالها يسكب شآبيب رأفته .

و لكأنّي بجان فانييه، من خلال كلّ صفحة من صفحات هذا الكتاب، يهب بالشباب :

" إِقتربوا، بلا وَجَل، من المحطّمين، تكتشفوا لديهم كنوزاً تـذهلكم، ونـوراً يُضـيء نفوسكم، وينابيع تنتظر أَن تفجّروها لتنعشكم .

" أصغوا إِلى صيحات جراح المجروحين، ومنها تعلّموا الحبّ ؛

" إِحيوا في يسوع، وتملّوا من تعاليمه، فتشرع مصاريع قلوبكم على المحرومين مـن الحبّ "

و يسترسل جان فانييه في التحدُّث عن حبّ يسوع، وحريّته، وحقيقته ورأفته، وإِيثاره للصغار والمسحوقين، وإِزعاجه للأَنانيّين، وعن جسَده المحطّم . فذاك الذي دعا جميع الظمأى إِلى النهل من مائه الحيّ، صاح بأَلم : " أَنا عطشان ! " لقد تقبّل النبذ، لكي يُعتق جميع منبوذي

الأَرض، وبصلبه، لم يعد الأَلم دليل عقاب، بل مدخلاً إِلى التحرّر والمجد، وباتت جراح البشر معبراً لقدرة اللّه، وإِسهاماً في صليبه الفادي .

و لا تغيب عن ناظريْ جان فانيه، أمّ يسوع العذراء المفجوعة، التي ظلّت واقفة أَمام صليب ابنها، تشاركه آلامه، وتقدمته الغذائيّة .

و يتحدّث جان فانييه عن خبرته الشخصيّة التي بدأت بالتقائه رافائيل وفيليب، فهــزّت جراحهما كيانه، وغيّرت مسرى مصيره . استمع إِلى نداء الحبّ المتصاعد من هشاشــتهما، فاستجاب له بكلّ طاقاته . وأَدرك، حينئذٍ، أَنّ لدور القلب، في الحياة، الأولويّة على دور العقل والسلطة .

المعاقون هم الذين دفعوه إِلى قلب الكنيسة وقلب يسوع، وكانوا له معلّمــين. علّمــوه الهبوط، والانحدار على مستوى البؤس البريء، فسمت نفسه، وانتعش قلبه . واستنار عقله .

فباستقباله إِخوة يسوع الصغار، استقبل يسوع نفسه، وبمعايشته لهم، عايشه، وتــذوّق حضور اللّه المدهش في الفقراء والمتواضعين . ووعى خطورة دور الفقراء : فقراء المــال، والحبّ، والكرامة، والقدرة .

فعلى هؤلاء إِن يحتلّوا قلب الكنيسة، لكي تبقى ينابيعها متدفّقة، وإِن كانت، ثمّة، أَسباب فرقة تمزّق الكنيسة، فليكن الفقراء أَداة توحيدها، والمائــدة التــي يتحلّــق الجميــع حولهــا، والإِفخارستيّا التي يتناولون، من خلالها، جسد المسيح . إِنّهم أَنبياء عصرنا، وصانعوا السلام فيه، إِذ يحشدون، على حبّهم، ومساعدتهم، أَقواماً مختلفي المشارب والنزعات .

الإِفخارستيّا والفقير هما كنز الكنيسة، وقطبا كلّ جماعة، فكلاهمــا حضــور يســوع الفعليّ الذي يغذّي قلبنا وفكرنا .

و خير قدوة لنا العذراء مريم، بفقر عيشها في الناصرة، وبرقّة لمستها للجسد الإِلهيّ، هشّاً في المهد، ومتألّماً على الصليب .

و خير عون لنا على التواصل مع يسوع، ومع الفقراء، هو الصلاة، فبها ننهل من نبع يسوع، ونتقوّى . وخير عون على معايشة المعاقين هو الحياة الجماعيّة القائمة على الخدمة . هذا الموضوع الذي يحتلّ من نفس جان فانييه واهتمامه مكاناً أَثيراً، قد احتلّ من هذا الكتــاب مساحةً واسعة .

و يرغب جان فانييه في وضع خبراته هذه كلّها في خدمة الشباب، فعلى حدّ قوله : " لقد لعب الشباب دوراً هامّاً في مسيرتي، خلال السنوات العشرين الأَخيرة . لقد هزّني عشطهم المتلظّي إِلى اللّه، ورغبتهم في اكتشاف السراط القويم لعيش الإِنجيل . ولكــن، فــي عالمنــا المحطّم، قد يغدو هذا الظمأ، وهذه الرغبة، مصدر أَلم وخوف، لا بل مصدر قنوطٍ أَحياناً .

" هذا الكتاب وُضع لهؤلاء الشبّان الذين قد يتّصفون، أَحياناً، بالتمرّد والغضب، ومع ذلك يظلّون منتفتحين على الغير؛ قد يتيهون، أَحياناً، ولكنّهم يظلّون يبحثون، متعطّشين إِلى الحياة . قد يتقهقرون، ويضطربون، ولكنّهم يحتفظون بقَبَس رجاء .

" هذا الكتاب، يساعدنا، جميعاً، على اكتشاف الماء الحيّ المتدفّق من شروخ العالم، ومن قلب يسوع " .

و في تقديمه للطبعة الثانية، كتب جان فانييه :

" يبدو عالمنا، اليوم، أَكثر تحطّماً وتفتُّتاً . فما أَكثر بؤَر النزاعات، والاضطهادات والبغضاء، والحروب، بحيث يُفتّ في عضد الكثيرين، لا بل يهوون إِلى القنوط !

" غير أَنّ كلّ هذه الشروخ تنطوي على بذرة حياة؛ ولا بدّ من تربة تُكسَر، وتُحرَث، لكي تتمكّن من استقبال هذه البذور، شاعر فارسيّ قال: " أفلق قلب إِنسان، تجد فيه شمساً " . إِنّ هذه البذور مختبئة في قلوبٍ بشريّة محطّمة كثيرة، تستيقظ على الرجاء، وتُشرَع على الحبّ، وفي العديد من الجماعات التي تستقبل أَشخاصاً واهنين مبرهنة، بذلك، على أَنّ الحياة أَقوى من الموت . أَجل، في كلّ جسد، أَيّاً كان مقدار تحطّمه، يكمن قلب نابض، قادر على الحبّ، قلب هو مسكن روح اللّه . واللّه حاضر في جسد البشريّة، ويدعوه إِلى ولادة جديدة " .

كلّ هذه المواضيع كانت تجيش في صدر جان فانييه، وتتحفّز للظهور، في غمرة نشاطه العارم، الدائب على تأسيس "السفينة" إِلى أن هُيِّئ له انتزاع عشرة أَيّام هدنة قضى بعضاً منها في دير رهبانيّ، والبعض الآخر في مقرٍّ للسفينة كان قد أَنشأه حديثاً، في بيت عينيا بفلسطين، ذلك المكان الذي أَلف يسوع أَن يرتاح فيه، وقدّسه بحضوره، ودنّسه اليهود بعدوانهم، وحوّلوه إِلى بؤرة صراع وبغضاء .

في غضون هذه الأَيّام العشرة أَفرغ جان فانييه كلّ تلك الخواطر في هذا الكتيّب، وغالباً ما اضطرّه إِلى تصحيح طبعاته الأَولى، عبر الهاتف، في أَثناء تنقّلاته بين فرنسا وإِنكلترا . وقد صدرت طبعته الأولى عام 1968، ولاقى من الرواج ما استلزم إِعادة طبعه عام 1998.

روح " السفينة " و" إيمان ونور "

في الثلاثين من أيّار 1998، عشيّة أحد العنصرة، كان البابا يوحنّا بولس الثاني والمجلس الحبريّ للعلمانيّين قد دعيا الحركات الكنسيّة الجديدة إلى اجتماع في ساحة القدّيس بطرس، حيث احتشد أكثر من ثلاث مئة ألف شخص . ودعي أربعة من مؤسّسي الحركات الجديدة إلى الإدلاء بشهاداتهم، وقد جاء، في شهادة جان فانييه، ما يلي :

" مؤسّستا " السفينة " و" إيمان ونور " مدعوّتان إلى المساهمة في رسالة يسوع، باستقبال رجال ونساء مبتلين بإعاقة ذهنيّة، باسم يسوع، وبصفتهم إخوة وأخوات . وبإنشائنا جماعة " معهم " نصبح لهم أصدقاء، فيكتشفون كرامتهم الإنسانيّة، ومعنى حياتهم .

ومن خلال حياتنا معاً، يتبيّن هؤلاء الذين يعدّهم العالم ضعفاء وحمقى أنّ يسوع قد اختارهم، وأنّه يحبّهم، وأنّ لهم في الكنيسة دوراً ...

إنّ المعاقين عقليّاً لا يسعون أوّلاً إلى المعرفة والسلطة، بل إلى الصداقة، ومن ثمّ، وعلى نحوٍ حافل بالسرّ، يوقظون قلوبنا على الحبّ، والحنان، وتواصل القلوب . وهذا يختلف اختلافاً بيّناً عن السخاء؛ فبالسخاء نعطي أشياء ومعارف، أمّا في التواصل فنهب ذواتنا، وقلبنا، وتتحقّق حركة تبادل حبّ في الحنان، والتعرُّض للعطب المتبادل، حيث كلّ فريق يعطي وكلّ فريق يأخذ . هذا التواصل هو مكان التعاهد والثقة المتبادلين حيث نتعاون على النموّ صوب الحرّيّة الداخليّة، ونلتقي يسوع الوديع والمتواضع القلب : " من يستقبل أحد هؤلاء الصغار باسمي يستقبلني، ومن يستقبلني يستقبل الذي أرسلني "

و من خلال تواصلنا مع الانسان الضعيف، نكتشف تدريجيّاً التواصل الحميم بيسوع، وعبر يسوع، بأبيه . هذا التواصل مع الفقير ومع يسوع هو، في آنٍ واحد، نعمة جليلة، وتَطَهُّر، وصليب، إذ يتيح لنا اكتشاف أجمل ما في القلب البشريّ، وأكثره جوهريّة : العطش إلى أن نُحَبّ، ونُحِبّ، ونتمتّع بالخصب، بإعطائنا الآخرين الحياة التي لن تمتلئ إلاّ بفضل نعمة الحبّ الإلهيّ .

غير أنّ الحياة مع الفقير، في جماعاتنا، تميط لنا اللثام عن مخاوفنا، وعِقَدِنا، وعجزنا عن الحبّ، وظلماتنا الداخليّة، واضطراباتنا، بل حتّى عن عنفنا . ولا بدّ لنا، جميعاً، من الموت عن رغباتنا في النجاح والسُّلطة لكي نستطيع عيش هذا التواصل مع يسوع، الوديع والمتواضع القلب، المختبئ في الإنسان الضعيف، مثلما لا بدّ لحبّة القمح من أن تموت لكي تؤتي ثمراً . ولكي نُصادق الأشخاص الضعفاء الذين لن يشفوا أبداً، والذين قد يظلّون، أحياناً، مجروحين ومضطربين في الأعماق، لا مناص لنا من اكتشاف سرّ مريم قرب صليب يسوع

والقريبة من مصلوبي عالمنا . إنّ مريم تعلّمنا عيش الرأفة، والمشاركة في حمل الألم البشريّ والإيمان بالقيامة .

مؤسّستا " السفينة " و" إيمان ونور " ليستا كبيرتين، ولا يسعهما توفير حلول للجميع . إنّما نحن نبتغي أن نكون علامة على القيمة المقدّسة والفريدة لكلّ كائن بشريّ، علامة على أنّ الأشخاص الضعفاء هم ينابيع حياة، إن نحن استقبلناهم باحترام؛ فهم يفتحون قلوبنا على الرأفة والعدل، وعلى اللّه الحبّ . ولذلك تتوخّى جماعتنا الاندماج في الكنيسة المحلّيّة، وفي قرانا، وأحياء مدننا، فلدى الأشخاص الضعفاء ما يهبونه للجميع، ولهم رسالتهم الخاصّة في الكنيسة .

باستقبالنا أشخاصاً معاقين قادمين من مختلف الكنائس والديانات، نَمَتْ جماعتنا وفقاً لهذه التقاليد المختلفة . إنّ كلّ جماعة من " السفينة " ومن " إيمان ونور" تودّ أن تترسّخ في كنيستها، وكلّ فرد فيها مدعوّ إلى تعميق إيمانه وفقاً للتقليد الخاصّ به .

إنّنا نريد الانقياد للفقير، وبواسطته، الانقياد للّه . إنّنا ننتهج درباً جديداً فقيراً وغير آمن . ولكنّنا نؤمن أنّنا إن بقينا أوفياء لحياتنا مع الفقير، وإن نحن تقدّمنا سويّةً مع كنائسنا الخاصّة المختلفة، فسيسهر علينا الروح وسيقودنا .

و يغدو الفقير عامل وحدة، فهو، على نحوٍ سرّيّ، يوقظ إله الحبّ المختبئ في قلب كلّ إنسان، ويحثّنا على العمل من أجل وحدة جميع المسيحيّين، وجميع رجال الأرض ونسائها، وإلى أن نكون شهود سلام ..."

من مقدّمة كتاب " الجسد المحطّم "

كثيرون هم الأَشخاص المحطّمون الذين يجأرون بأَلمهم،
و الذين نَعُدّهم مشكلةً ينبغي حلّها .
و هذه " المشاكل " من الضخامة، لا بل من الخَطَر المُنذر،
بحيث نأبى التحديق فيها،
فنزْوَرّ عن الأَلم، لكي نفرغ إِلى التسليات، أو إِلى مشاريع نحقّقها،
أو حتّى إِلى جماعات صلاة، ورياضات روحيّة،
محاولين، هكذا، النسيان .
أَحياناً قد ندنو ممّن يتألّمون،
غير أَنّ ثورة في قلوبنا تجيش،
و تعمينا عن رؤية نور يسوع في الشخص المتألّم .
و أَحياناً نستخدم الفقراء مادّةً لإِحساننا،
أو لإِبراز كفاءتنا المهنيّة
لتأكيد قدرنا الخاصّ، ولإِبراز مجدنا الخاصّ .
الصفحات التالية تودّ أَن تقول لك، يا أَخي،
أَلاّ تزْوَرّ عمّن يتألّمون، عن المحطّمين؛
بل تجاسر على الدنوّ منهم، وعلى لمسهم،
تجاسر على عقد علاقات معهم،
و حينئذٍ ستكتشف في داخلك وداخلهم
معين حياة، وبذور قيامة .
هذا هو سرّ يسوع والإِنجيل، سرّهما العظيم .
بانتهاجي، أَنا نفسي، هذا الدرب،
في إِثر يسوع، وداخل كنيسته،
استطعت النهل من هذا النبع،
و اكتشاف قدرتي على إِرواء الآخرين .
اكتشفت عالم الرأفة، وتواصل القلوب .
غير أَنّني، في نفس الآن، وقفت على كلّ ما هو، فيّ، محطّم :
ظلماتي الخاصّة، وعالمٍ من الخوف والحقد .
و من خلال مهاناتي، أَدركت، بعض الشيء،

أَنّ التواضع هو أَساس الرأفة، وطريق الحقّ والغفران .
في أَوّل عهدي بالسفينة، كنت مفرطاً في المثاليّة،
و شيئاً فشيئاً، اضطررت إِلى التخلّي عن كثير ممّا كنت أَحلم به لعالمنا،
و عن كثير من الأوهام عنّي وعن الآخرين .
بيد أَنّني، اليوم، أَمضي قُدُماً في دروب الرجاء،
و أَثق، شيئاً فشيئاً، في النور المتألّق في كلّ شخص،
مؤمناً كان أم غير مؤمن .
أَجل في هذا الطفل المحطّم، يتألّق نور،
و في هذا السجين، يخفق قلب،
و في هذه المرأة، ضحيّة البغاء، ثمّة عطشٌ إِلى الحياة،
و في هذا الرجل الغنيّ الجَشِع، المتعطّش إِلى السلطة، تختبئ طهارة طفل،
و في هذا الشابّ المحتضر، المصاب بالسيدا، يخفق نور اللّه .
في كلّ شخص، سواء كان محطّماً، أو متصلّباً، أو متسلّطاً، أو قاسياً، أو، ظاهريّـــاً، مغلقاً دون اللّه،
ثمّة نبع ماء حيّ، يتأهّب للتفجّر .
و إِن أَنت سرت، مع يسوع، على هذا الدرب، فسيقودك
صوب الفقير، والضعيف، والوحيد، والمسحوق،
بلا وَجَلٍ ولا قنوط،
بلا غضبٍ ولا ثورة،
بلا نظريّات، ولا حلولٍ مسَبقَة الصنع،
بلا عقدة ذنب، ولا شعورٍ بالعجز،
كي يجعللك تتذوّق السلام المتفجّر من تواصل القلوب .
سيُظهر لك يسوع معنى الأَلم الخفيّ،
و كيف يتفجّر الفرح من كلّ ما هو جريح ومحطّم،
و سيكشف لك أَنّه، هو نفسه، مختبئ في الفقير والضعيف والمســحوق الثــاوي فـــي أَعماقك .
و سيُظهر لك كيف ستكتشف من جديد، شراكة الحبّ والوفاء التي هي أَصل كلّ حياة، وكلّ وحدة، وكلّ سلام .
و كيف تجدّدها، وتتقبّلها، وتعيد بناءها
سيُظرها لك بذرة مفرطة الصغر، كفيلة بالنموّ حتّى تجدّد العالم .

الجسد المحطّم

في البلاد الغنيّة المنافَسة ناشطة لا تفتر، بل هي صراع متواصل في سبيل النجــاح، والسلطة والامتيازات .

في كندا قرأت الإعلان التالي " : ليس عدم التفوّق جريمة "
لقد فُرِض علينا أن ننجح،
و إلاّ لما كان لنا في المجتمع مركز، ولا عمل، ولا منزل، ولا هويّة .
علينا أن ننجح وإلاّ نُبِذْنا .
و لذلك علينا أن نتعلّم تقسية قلوبنا، والصراع ،
لنكون الأوّل والأفضل .
أمّا الذين لا ينجحون، فيظلّون على الهامش، يقطرون حزناً وغضباً،
و هم مهدّدون بالتردّي إلى هوّة المخدّرات والانهيار،
أو بالانجذاب إلى عصابات، لها سلطاتها الخاصّة، وقيَمها الخاصّة .
و آخرون ينحدرون إلى قعر القنوط والوحدة،
إذ لا مكان لهم، ولا عمل، ولا مستقبل،
و يُدفَعون إلى الانتحار دفعاً .
إنّنا نشهد اليوم ولادة بشريّة تواجه هشاشةً جديدة،
تائهةً، وحيدة، لا مرجع لها، ولا انتماء،
و لا تعثر على ما يسدّ فراغها الداخليّ .

****

و الخطر الذي يُنذر أبناء جيلنا يكمن في سعيهم إلى البحث عن الآخر لسدّ هذا الفراغ؛

و لكن إن هم انقطعوا عن اللّه، نبع الحبّ، تعــذّر علــيهم إرواء الآخــر، وإرضــاء حاجاتهم الخاصّة إلى التواصل التامّ، فيعيشون في إحباط دائم،

يطالبون الآخر بالكثير، ويرزحون تحت شعورهم بــذنب العجــز عــن الاســتجابة لاحتياجات الآخر، استجابة لائقة، فعندما تتحطّم صلتهم الحميمة باللّــه، تســتحيل صــلتهم الحميمة بالآخر؛

و لن يعود بوسعهم الجود بالماء بعد أن جفّت بئرهم،
و لــــن يعـــود بوســـعهم مـــنح الحيـــاة، بعـــد أن مـــات شـــيء فـــيهم .

لقد أَنفقت معظم عمري مع رجالٍ ونساءٍ معاقين، عقليّاً،
و لمست أَلمهم، الأَلم الرهيب الناجم عن كونهم خيبة أَمل والديهم .
إِنّهم يعانون من وهنهم، ومن عجزهم عن مواجهة الحياة المتسارعة من حولهم؛
إنّ شعورهم بأَنّهم غير مرغوب فيهم، كما هم، يولّد لديهم شعوراً بالذنب؛
فهم يدركون أَنّهم جرحوا والديهم، وكانوا لهم علّة هموم وآلام،
عوضاً عن أَن يكونوا لهم معين فرح .
و يخيّل إِليهم، حينئذٍ، أَنّهم لا يساوون شيئاً،
و أَنّهم عبء، بل أَنّهم سيّئون .
و من هذا الشعور بالعزلة تولد لديهم الهواجس، والتشوّس، والشروخ الداخليّة،
و تتلاشى ثقتهم بأَنفسهم وبالآخرين، التي تتحوّل إِلى عنفٍ، وانهيار، واضطرابات سلوك ،
ممّا يزيد من عزلهم، ونبذهم، ومن شعورهم بأَنّهم لا ينتمون لشيء أو لأَحد .
و لكن، مع كرّ السنين، وبعيشي مع أَشخاص مسحوقين، منبوذين، اكتشفت أَمراً جديداً.
فقد أَدخلوني، بتؤدة، إِلى أَعماق قلبي، بكلّ ما يمتزج فيه من نور وظلمات؛
أَدخلوني إِلى سرّ يسوع ورسالته، وسرّ البشريّة وتاريخها،
جعلوني أَكتشف النور المتألّق وسط الظلمات،
و بفضلهم شرعت أُدرك، بوضوحٍ جديد، مخطّط اللّه للبشريّة،
المخطّط الذي أَعلنه الأَنبياء والقدّيسون منذ قرون،
و الذي مازلنا نأبى فهمه .

يسوع

اسم يسوع يعني :

اللّه يخلّص، اللّه يشفي، اللّه يوحّد .

يسوع هو الذي، بجسده، يعيد الوحدة إِلى أَجسادنا،

و يُصلح جسد البشريّة المحطّم .

و هو الذي يفعمنا بروحه، إِن نحن ارتضينا التنكّب عن الجشع، والتنافس والأَنانيّة .

ليس يسوع من يرشد إِلى الطريق، ويعلن الحقيقة، ويلهم الناس، كما فعل أنبياء آخرون، فحسب، بل إِنّه، هو، الطريق، والحقّ، والحياة،

إِنّه نور العالم،

إِنّه القيامة،

إِنّه كرمة نحن أَغصانها؛

إِنّه الحبّ،

إِنّه الهيكل الجديد الذي تقطن فيه الأُلوهة،

و جسده هو هذا الهيكل الذي ينبغي أَن يقصده الجميع كي يرتاحوا ويرتووا،

و يظفروا بالحياة والغفران .

إِنّه المخلّص الآتي لا لكي يقاضينا ويدين خطيئتنا،

بل لكي يحرّرنا من عبء الشعور بالذنب الباهظ،

و من جميع مخاوفنا : الخوف من الأَلم والموت، والخوف من الشرّ، والنبذ، والهجران والفراغ ...

يسوع يأتي ليجعل منّا أَبناء الآب،

و يكتشف لنا حنان الأَب الفائق، وعطفه على كلٍّ منّا .

إِنّه يأتي ليشفي قلوبنا الجريحة، بدعوته كلاً منّا إِلى أَن يعيش معه علاقة حبّ حميمة .

و من خلال علاقة الحبّ هذه يدعونا إِلى إِشراع ذواتنا على علاقة حبّ وتواصل مع الآخرين .

عندما أعيد مطالعة الإِنجيل، وحياة يسوع، وكلّ أَفعاله المحسوسة،

أَتأثّر بحرّيّة يسوع، وحقيقته، وعطفه، وحبّه للقوم الأَكثر هامشيّةً ونبذاً من قومهم .

يسوع حرّيّة

يسوع إِنسان حرّ، لا بل يمكن القول أَنّ حرّيّته تثير الفضائح،
فالثقافة اليهوديّة لا تقيّده ولا تستعبده،
و هو لا يسعى إِلى الشعبيّة ولا إِلى الأَصوات،
و لا يقيم وزناً لما قد يفكّر الآخرون فيه؛
يخاطب الكتبة والفرّيسيّين، بعنفٍ،
و يصفهم بأَنّهم مراؤون وأَبناء الأَفاعي ،
و يشبّههم بالقبور المكلّسة،
التي تبدو، في ظاهرها، رائعة،
و لكنّها في داخلها مملوءة سلائب، وعظاماً جافّة .
يخاطب الأَغنياء بقسوة :
" ويل لكم أَيّها الأَغنياء،
أَيها المكتفون اليوم، والضاحكون الآن،
ويلٌ لكم إِذا امتدحكم الناس . "
" إِنّه لأَصعب أَن يدخل غنيٌّ ملكوت اللّه،
من أَن يعبر جملٌ في سمّ إِبرة "
بكلّ حرّيّة تحدّث إِلى السامريّة المحتقرة، وطلب منها أَن تسقيه،
و بكلّ حرّيّة ترك المرأَة التي كانت ضحيّة البغاء، تغسل قدميه بدموعها،
و تمسحهما بشعرها، غير عابئ بمن كانوا يستنكرون .
بكلّ حرّيّة، كان يعاشر الخطأة والعشّارين
المسجونين في عقدة ذنبهم، والذين كان محظوراً عليهم دخول الهيكل .
بكلّ حرّيّة يشفي، يوم السبت، من غير أَن يهزّه سخط الفرّيسيّين .
و بكلّ حرّيّة يستجيب، بحبّ، لاستغاثة قائد المئة الروماني، العدوّ ؛
وبكلّ حرّيّة يدعو ذاته إِلى بيت زكّا، العشّار الغنيّ المرذول،
غير حافل بتخرّصات القوم " الفاضلين " .
بكلّ حرّيّة، يمسّ البُرْص، ويعاشر منبوذي المجتمع، المعتبرين حثالة؛
بكلّ حرّيّة أَعلن أَنّ جسده غذاء حقّ، ودمه شرابٌ حقّ،
مع علمه بأَنّ القوم سينفضّون من حوله .
أَجل، يسوع إِنسان حرّ على نحوٍ لا يُصدَّق،

و لا يمكن تحديده بوصف أو تعريف،
و لا ينحصر في فئة خاصّة، سياسيّة كانت أو اجتماعيّة أو وطنيّة أو دينيّة .
إِنّه حرّ كي يتمّم مهمّة أَبيه،
و كي يعلن لكلّ إِنسان أَنّه محبوب من اللّه، ومدعوّ، بدوره، إِلى أَن يحبّ،
و يصبح أَخاً عالميّاً أو أختاً شاملة .
إِنّه حرّ حرّيّة اللّه .

يسوع حقيقة

لا يطيق الرياء والنوايا الملتوية ،
و لا يرضى أَن يكون من يعلنون شريعة اللّه، هم الذين يسحقون الضعفاء والعزّل،
يحارب أَبَ الكذب، والإِغواء، أَمير هذا العالم، وأَمير الأَوهام ،
الذي يسعى إِلى إِشاعة الفوضى والفرقة والظلمات بين الناس .
يسوع يتكلّم بسلطان، لا مثل الكتبة والفرّيسيّين،
الذين كان تعليمهم يقوم على إِبداء آراء مختلف المعلّمين،
(وهي طريقة للتعليم في معزل عن التورّط)
يعبّر عن الحقيقة ويعلنها بكلّ حرّيّة : " الحقّ الحقّ أَقول لكم "،
و يتقبّل عواقب هذه الحقيقة : ما تستـــثيره لدى الآخرين من عداء وبغض ،
فالحقيقة ليست، أَبداً، مصدر راحة،
و غالباً ما يؤثرعليها الناسُ الإِبهامَ .

يسوع رأفة

و لكأنّ المتألّمين والمحطّمين والمنبوذين، يجتذبونه على نحوٍ خاصّ؛
إِنّه يعرف الفقر والوهن البشريّين، وقسوة فراق الموت التي لا تطاق .
لا حاجز حول قلبه، ليقيه من العطب،
بل فؤاده، أبداً، مُشرع ومحبّ، ومتعطّش للدخول في تبادل صداقةٍ، وحبٍّ، وثقة،
و لأن يملأه البشر .
و لذلك يجرحه النبذ جرحاً بليغاً، ويتوجّع قلبه وجعاً مريعاً .
و هو دائماً على مقربة من كلّ معاناة من الاضطراب، والنزاع، ودموع العزلة .
لقد خَبَر يسوع من الألم الداخليّ ما يتخطّى قدرتنا على الاحتمال أو التخيّل
و لذلك هو يحسن فهمنا،
و لذلك هو يتدفّق رأفة،
و لذلك هو قريب من كلّ كائن بشريّ .
إِنّه يلتقي كلاًّ منّا في ضيقه، وألمه،
إِنّه يشفي، ويهب الحياة .
لا يحاكم ولا يدين،
و للمرأة التي قُبِضَ عليها متلبّسة بجرم البغاء،
- جرم كان عقابه الرجم -
اكتفى بالقول : " أنا لا أدينك، إِمضي، ولا تخطئي من بعد " .
إِنّه يبتغي أن يتحرّر كلّ إِنسان من الخوف، ويكبر في الحبّ،
كي يكون واحداً مع الآب، نبع كلّ نور وكلّ حبّ .
إِنّه يروي حكاية والد الإِبن المبذّر، أَبٍ لا يدين ابنه،
بل يأخذه بين ذراعيه ويمعن في تقبيله .
مع مرتا ومريم، يبكي، علناً، موت لعازر .
يبكي لبكائنا، ويتألّم لألمنا، ويختلج رأفة
عندما يأتيه بشر مصابون بشتّى ضروب العلل والأمراض، التماساً للشفاء ،
وتضطرب أحشاؤه،
و لكأنّــه لا يملــك أن ينــأى عــنهم، ولا أن يمنــع تفجّــر قدرتــه الشــفائيّة .

يسوع مع ذويه وسط المنبوذين والمعزولين

يجد يسوع راحته،

لا مع المفكّرين الذين يجادلون، ولا مع الذين يقبضون على مقاليد الحكم ويخافون منه، بل مع الفقراء والمحتاجين، والصغار .

و هو لا يني يؤكّد على مكانة الفقراء الأثيرة في رؤيته، وفي قلبه، وفي ملكوت أبيه .

إنّه يؤثر، بحبّه، الأشدّ فقراً :

" عندما تقيم مأدبة، فلا تدعُ إليها أصدقاءك الأغنياء وأفراد أسرتك،

لئلاّ يدعوك بالمقابل،

بل ادعُ بالأحرى الفقراء، والعُرْج، والمرضى، والعميان . "

و هو يتحدّث عن ذلك الرجل الذي أقام مأدبة عرس لابنه،

فأبى حضورها جميع من كانوا جديرين بالدعوة، فقال لخدمه :

" امضوا إلى الساحات والطرقات، وادعوا الفقراء، والعُرج، والمرضى والعميان " .

إنّ هؤلاء يتقبّلون دعوته بفرح .

الفقراء هم الذين لا يملكون مالاً،

الجياع، والمفتقرون إلى مسكن، وعمل ،

المنبوذون، المرفوضون بسبب علاّتهم، وإعاقتهم، وقلّة جدواهم الظاهرة،

المتعطّشون إلى أن يُحَبّوا ويُقبَلوا؛

الفقراء هم الذين يعيشون في الخطيئة، ولكنّهم يتوقون إلى التحرّر منها،

لا يقوَون على اتّباع الشريعة، فيرزحون تحت وقر الشعور بالذنب؛

الفقراء هم كلّ واحد منّا يعاني من الحزن، والعزلة، والافتقار إلى الحبّ .

الفقراء يعترفون بفراغهم، ولا يخفونه،

و يتوقون إلى مخلّص يشفي قلوبهم، ويهبهم السلام .

بيدَ أنّ إيثار يسوع للفقراء لا يعني أنّه يحبّ بعض الناس أكثر من سواهم،

بل يعني أنّه يجد فرحه في من يفتحون له قلبهم،

و يصرخون إليه من أعماق فقرهم .

يجد فرحه في من يعترفون بصفاته : إنساناً مفعماً حبّاً ورأفة، شافياً للقلوب، فيستقبلونه، هو ورسالة حبّه، إذ لديهم متّسع من الوقت للإصغاء إليه، والابتهاج به .

أمّا الأغنياء، فهم، غالباً، مشغولون،

يظنّون أنّهم يملكون كلّ ما يلزمهم، ومكتفون بأنفسهم، فلا حاجة بهم إلى يسوع ،

فهم ليسوا، حقّاً، على صلة بكسورهم الكمينة،
و قلّما يولون الأوّليّة للعلاقات الشخصيّة، ومبادرات الحبّ،
فيبتدعون عالماً زائفاً، من أَقنعة ومظاهر، خالياً من اللقاآت الحقيقيّة .
و لا وقت لديهم يهدرونه مع يسوع،
فلديهم ما هو أَفضل :
الاغتناء، وحماية ثرواتهم، وممارسة السُّلطة ؟
إِنّ دعوة يسوع إِلى الحبّ الشامل هي لهم تهديد خطير .
ثمّ إِنّ يسوع يُنفق وقتاً طويلاً مع المنبوذين، والرعاع، وحثالة المجتمع،
و من ثمّ يسهل على الأَغنياء، انطلاقاً من معاييرهم، ازدراؤه .
و يسوع لا يكافح في سبيل تسلّق سلّم الترقّي البشريّ،
و يأبى أَن يكون ملكاً، ولا يسعى إِلى ممارسة السلطة، حتّى في سبيل عمل الخير .
لا، بل إِنّه لا يني يهبط عن السلّم، ويقترب من الأَرض،
و يدنو من الناس في فقرهم ووهنهم .
كلّ ما يرغب فيه يسوع، هو أَن يهب كلّ واحد قلبه، وحبّه الذي يشــفي ويُنقــذ، وأَن يُصبح لكلّ إنسانٍ صديقاً .
لا يتوجّه يسوع إِلاّ نحو الإِنسان ،
و لا يطيق عالماً يعيش بالمظاهر،
حيث يتوارى الناس خلف أَقنعة، وحواجز وأَدوار .
إِنّه يمضي نحو الناس، حيث هم، وحيث تشتدّ حاجتهم إِليه .

يسوع مزعج

الزعماء الدينيّون، في زمانه، كانوا مفعمين غضباً وحسداً،
و ما كانوا قادرين على تقبّل سُلطته، وحرّيّته،
اللّتين كانتا تخرقان شرائع، هم وضعوها .
ما كانوا قادرين على تقبّل إِيثاره للفقراء،
و لا قبول سلطانه على غفران الخطايا،
و لا الاعتراف بكونه المسيح المنتظر .
ما كانوا يحكمون عليه من ثماره، بل إِنطلاقاً من نظريّاتهم وتعاليمهم،
و هي غالباً مشبعة كبرياء وحسداً .
إِنّ يسوع يزعجهم إِزعاجاً مريعاً، فيودّون التخلّص منه، ويقرّرون قتله .
أثناء عشائه الفصحيّ الأَخير .
توغّل يسوع بعيداً في رسالته المتمثّلة في لقاء ذويه، وحبّهم، ولمسهم،
فأَخذ ماء في إِناء، ومنشفة، وانحنى أَمام كلٍّ من تلاميذه، وغسل رجليه.
لم يتوجّه إِلى عقلهم وفكرهم، بل جثا، ووضع نفسه في مكانٍ أَدنى منهم،
و غسل أَدنى ما فيهم وأَقذره، وأَقربه إِلى الأَرض : غسل أَرجلهم .
هذه المبادرة ممنّ هو الزعيم والمعلّم، فضيحة لا يمكن فهمها ...
أَجل، لم يتردّد يسوع في إِظهار حبّه، من خلال هذه المبادرة حيال أَكثر أَجزاء الجسم ازدراءً .
و بأَيّة رقّة، وبأَيّ غفران غسل رجلي يهوذا !
إِنّه يصفح ويلتمس الصفح، لا بأَقوال، بل بكلّ جسده،
و بجسده أَعلن أَنّ لا شيء على الأَرض غير جدير بالمشاركة في ملكوت الحبّ،
و أَنّ حبّ قلبه كفيل باستيعاب كلّ شيء .
و لكن ما أَكثر الذين يودّون التخلّص منه :
الكتبة والفريسيّون، والشيوخ الذين يشعرون أَنّهم مهدّدون، ويتولاّهم الخوف .
و الرومان الذين يزعجهم ذلك اليهوديّ المأفون، الذي يبلبل الشعب،
و الأَغنياء الذين يأبون التخلّي عن ممتلكاتهم، أو الاعتراف باحتياجاتهم وريائهم،
و العشّارون والخطأة، الذين يرفضون تغيير مسيرتهم،
و يهوذا الذي يلتهمه الحسد .
في جسد عالمنا المحطّم،

ما أَكثر الذين يجدون مصلحتهم في الكسور الناجمة عن الخوف والخلافات:
فحتّى الأَعداء يلتقون أَحياناً على الحؤول دون الوحدة والشفاء،
و على تدمير مواعيد الضياء .
و حتّى داخل كلّ منّا يقيم خوفٌ من الشفاء والتغيير،
و كسورٌ تعلّمنا معايشتَها،
لأَنّهـــا تبـــدو لنـــا أَكثـــر بعثـــاً علـــى الاطمئنـــان مـــن المجهـــول .

جسد يسوع المحطّم

حينئذٍ تحوّل يسوع من كونه شافياً، إِلى كونه جريحاً؛
هو، صاحب القلب الرؤوف، أَصبح يحتاج إِلى الرأفة،
هو الذي كان يهتف : " إِن عطش أَحد فليأتِ إِليَّ ويشرب "
بات يصيح : " أَنا عطشان " .
و الذي كان يعلن البشرى للفقراء، أَمسى يسوع الفقير .
اجتاز التخوم التي، في البشريّة، تفصل بين من احتياجاتهم مُلبّاة، والمحطّمين الـذين يجأرون مستغيثين .
لقد تراكمت قوى الشرّ، فإِذا بيسوع، بغتةً، محاط بالحقد،
و أمسى البريء كبش فداء، تتمثّل فيه علّة كلّ خوف وقلق .
لقد غدا يسوع خطيراً لا بدّ من تحطيمه، وتدميره .
و حانت اللحظة التي كان ينتظرها إِبليس .
في بستان الزيتون، دخل يسوع طوعاً، في فقر الآلام المطلق،
و توغّل في أَغوار النزاع، والهجران، والعزلة، والإِخفاق التامّ .
أَجل، لقد نبذه شعبه،
هو الذي يجسّد الرقّة، ويحمل قلباً بالغ الرهافة، والمفعم حبّاً، لقد نُبِذَ، ورُفض حبُّه .
هو مرسل الآب كي يُعلن طيبته وغفرانه، وكي يؤتي السلام، نُبِذ،
و رُفضت رسالته التي تلقّاها من الآب،
و رُفض الآب المحبوب .
عندما يُمتَهن ويُرفَض قلبٌ يحمل كلّ هذا الحبّ،
يغرق في أهوال الموت والاضطراب،
و يستغلق الأَمر حتّى على أَصدقائه وتلاميذه المحبوبين؛
سيهجرونه، ومنهم من سيسلّمه لأَعدائه .
إِنّ قلبه محطّم .
قوى الأَسى والموت كلّها تغزو وجدانه الإِنسانيّ، وتلقيه في حالة نزاع داخليّ ،
وهذا الصراع من الرهبة بحيث يأخذ به الاضطراب كلّ مأخذ،
و يتقطّر عرق النزاع من كلّ جسمه المنهار على الأَرض؛
إِنّه يرتجف ويبكي .
و لكن في صميم كيانه، وفي ثنايا العاصفة الناشبة بضميره،

يثوي " نَعَم " للآب : " لا تكن مشيئتي، بل مشيئتك " .
إِنّه يتألّم عن شعبه الحبيب،
يتألّم عن كلّ كائن بشريّ .
و يرتضي ولوج سجن الظلمات،
كي يُعتق كلّ كائن بشريّ من سجن ظلماته،
يتقبّل الهجران والنبذ، بلا مرارة، ولا شعور بالكرْه، ولا رغبة في الانتقام .
فهو عليم بهشاشتنا ووهننا، ويضمر لنا من الحبّ بحيث يهتف : " نعم " ...
إِنّه يسمع الجموع تجأر : " أصلبه، اصلبه ! "
تلك الجموع المتقلّبة، التي، لبضعة أَيّام خلت، كانت تصيح :
" هوشعنا، هوشعنا لابن داود، ملك اليهود ! " ...
و اقتيد جسده الرازح تحت وقر الأَلم خارج أورشليم،
و عُلّق، مسمّراً على صليب،
فيما كان المارّة يسخرون قائلين : " خلّصت آخرين، فخلّص نفسك الآن " ،
ويصفّقون وتدوّي ضحكاتهم ،
و حينئذٍ هتف يسوع : " أَنا عطشان ! "
عطشان إِلى الماء، عطشان إِلى حبّ .
" إِلهي، إِلهي، لمَ تخلّيت عنّي ؟ "
و تدلّى جسده المحطّم على الصليب، منهكاً، قذراً، تكسوه الدماء،
مريع الجراح، وقد وسم النزاع محيّاه،
و غاض منه كلّ رُواء، وكلّ بهاء،
رجل أوجاع .
تدلّى على الصليب، في عريٍ تامّ،
مجرّداً من ثيابه، مجرّداً من كرامته البشريّة،
مجرّداً من المجد والإِعجاب،
مجرّداً من كلّ مكانة ووظيفية،
مجرّداً من قدرته على إِعلان البشرى، وعلى الشفاء بمجرّد اللمس،
مجرّداً من تلاميذه ومن ثقتهم،
مجرّداً من كلّ شيء، خلا حضور مريم .
فإِلى جانب رجل الآلام، انتصبت امرأة الرأفة .
وقفت عند أَقدام الصليب، علامة رجاء وثقة،

مستقيمة، في رأفتها، غير محطّمة،
و لم تفرّ من الألم .
تجربتها على تباين واضح من تجربة بطرس،
الذي كان قد اتّبع يسوع بسبب قدرته وعجائبه .
كانت مريم قد عرفت يسوع صغيراً، و في جسد الطفل العاجز ،
وفي صِغَر جسدها هي، يوم ظهر لها الملاك،
و وشّحها اللّه بظلّه، ووُلدت كلمة اللّه في أَحشائها،
في انخطافٍ ساجٍ .
في تلك الليلة نامت، وقد لفّها الحبّ، وارتعشت فرحاً،
و قلبها يضطرم بنار جديدة .
في تلك اللحظة بالذات، تعانق اللّه والخليقة،
و احتُفِل بعرسٍ في أَحشاء مريم .
كان عدلاً أَن تمتلئ نعمة، ويغمرها ظلّ الروح،
لكي تحبّ ابنها،
– لا حبّ امتلاك يبتغي ردم فراغ داخليّ –
بل حبّاً متفجّراً من الامتلاء .
و بفضل تلك النعمة، كانت تتعرَّفه، وتحمله بكلّ صغره وهشاشته،
و تستجيب لصيحة جوعه، جوع جسده، وجوع قلبه،
كانت تطعم جسده، وتطعم قلبه الجائع إِلى الحبّ، والمشاركة والرأفة .
و لذلك، وقد اقتيد الآن إِلى الجلجلة، مثلما يساق الحمل إِلى الذبح، بكلّ صِغَره وهشاشته، لم تُحبَط، ولم تنأَ، ولم تثُرْ،
فهي تحبّه
و هي معه بكلّيتها، تصغي إِلى صرخة أَلمه ونزاعه،
و تدرك أَنّ صيحته " أَنا عطشان "، تعني عطش حبّ .
لا تسأل الآب شفاء أو معجزة،
علَّ أَلمها يضمحلّ، وينحدر ابنها عن الصليب، ملكاً ممجّداً منتصراً !
و لا تنتحب على نفسها، متسائلة بقلق عمّا سيكون عليه الغد، في غياب ابنها الحبيب .
إِنّها تثق من غير أَن تفهم :
فهذا هو طريقها،

و هذه هي الساعة التي جاء يسوع من أَجلها، الساعة التي كان قد حدّثها عنها في قانا .

وفي ساعته هذه، هي معه، تهبه قلبها، وكيانها، وجسدها، ورقّتها، ورأفتها ، وكلّ ذاتها .
و متّحدةً بتضحيته، تقدّم للآب حياتها وحبّها،
في سبيل شفاء جميع من ينبذونه، ويمتهنونه، ويقتلونه؛
في سبيل شفاء عالمنا المحطّم .
إِنّه لمهمّ الإِصغاء إِلى تلك المرأة، والإِنصات إِلى صمتها ورأفتها،
فهي، وحدها، أَدركت المعنى الجديد الكامن في الأَلم .
و من أَعلى الصليب، رمقها يسوع بحبّ جمّ، وبعينين غشاهما الدم والأَلم،
و قال لها : " يا امرأة هذا ابنك ! " .
ثمّ رمق التلميذ الحبيب، يوحنّا، الذي، وحده بقي إِلى جانب مريم،
و خاطبه : " هذه أمّك ! "
في أَلم جسده، جمع بين هذه المرأة، أمّه، ويوحنّا، بمعاهدة حبّ .
و قبل موته صاح : " يا أَبت ِ، إِغفر لهم، فهم لا يدرون ما يفعلون ! "
و في تلك اللحظة حطّم سلسلة العنف والكراهية، والخطيئة،
التي كانت تربط جيلاً بجيل، منذ آدم وحوّاء حتّى اليوم،
و حوّل عنف البشريّة إِلى صفح ورأفة .
و تحقّق شيء جديد : تحوّل العنف إِلى غفران .
بموته أَشرع أَبواب الحبّ .
و أَسلم الروح،
و من قلبه الذي طعنته حربة، تدفّق دم وماء،
الماء الحيّ الذي كان قد وعد به السامريّة، وكلّ من سيؤمنون به،
نبع ماء يتفجّر حياة أَبديّة .

و استحوذت الحيرة على التلاميذ .
أَلم يكونوا قد وهبوا يسوع كلّ شيء،
و تعرّضوا لسخرية أَصدقائهم وأَقاربهم، الذين اتهموهم بالمثاليّة ؟
من أَجل يسوع كانوا قد ارتضوا المِحَن والنبذ .
لقد حلموا بمسيح قويّ، يطيح بقوى الاحتلال الغاشمة، ويحرّر الشعب،

و يقيم ملكوتاً جديداً، ملكوت عدل وحقّ، يتبوّؤون فيه مكانة، ويمارسون سلطة .
خلال السنوات الثلاث الأَخيرة، تذوّقوا طعماً مسبقاً لهذا المجد،
بما أوتوا من قدرة على طرد الشياطين، وشفاء المرضى .
لقد كانوا شهوداً على قدرات يسوع، عندما كان يجتذب الجماهير الغفيرة،
و يتكلّم بسلطان، ويحقّق المعجزات،
و يُفشل مكائد الفرّيسيّين بكثير من الحنكة والحكمة المذهلتَيْن .
كان يبدو ملكوت الحبّ قريباً جدّاً، ولكأنّ المرض والموت والظلم صائرة إِلـــى زوال وإِلى الأَبد؛
و سيكون لهم في ذلك الملك الرائع سهم !
و ها هو الملكوت الذي وهبوا في سبيله حياتهم ينهار، ويتحطّم كلّ شيء:
جسد يسوع، وأحلامهم، وقلوبهم، وسلطانهم، ووحدتهم ...
لم يتخيّلوا قطّ أَن يكون يسوع غير ما حلموا : مَلِكاً قويّاً، قديراً، يحكم بالعدل .
كانوا يرفضون فكرة مسيح متألّم، وخادم متألّم؛
و لذلك، أَثناء محاكمة يسوع، قال بطرس للخادمة : " لست أَعرف هذا الرجل " ،
و كان قوله صحيحاً ،
فهو لم يكن يعرف يسوعاً صغيراً، هشّاً،
يسوعاً يبكي وقد سحقه الأَلم،
يسوعاً يعاني الرفض والأَلم .
بصغِره وأَلمه، بجراحه وموته، خلّصنا يسوع، وبانتصاره على الخطيئة، والمـــوت، وسلطانِ إِبليس انتصر على العنف، لا بالفرار منه أو بتجاهله، بل بتحويله إِلى رقّة وغفران .
و بجســـده المحطّـــم، اســـتعاد جســـدُ البشـــريّة المحطّـــم بـــذورَ وحدتـــه .

بأَلمه وموته وقيامته
أعلن يسوع للعالم معنًى جديداً للوجع والأَلم، والوهن، والعطب؛
لقد حرّرنا من فكرة أَنّ الوجع والأَلم إِن هما إِلاّ عقابٌ على خطايانا :
بل هما، بفضله، قد أَمسيا دربنا إِلى المجد والتحرّر .
جراحنا الداخليّة والخارجيّة باتت معابر لقدرة اللّه الكليّة،
كي تتوغّل فينا، وتحوّلنا إِليه، وتجعل منّا بشراً ناهضين من الموت .
و لم تعد الأَحزان والتخلّيات مجرّد كارثة ،
بل غدت هوّة نصرخ منها إِلى اللّه، وقد تــنــقلب مكان لقاء .
أَجل، من خلال جراحنا، تدفّقت فينا قدرة اللّه، مثل نهرِماءٍ حيّ،
و روت أَرض كياننا المقفرة .
و هكذا، بدرونا، نستطيع أَن نروي أَرض إِخوتنا وأَخواتنا القاحلة، ونحيي من جديــد الرجاء والحبّ .
لا يبتغي يسوع، فقط، أَن نعيش فيه، ويعيش فينا،
بل يدعونا إِلى الاسهام في فدائه، واللحاق به على الصليب، لكي نهب العالَم الحياةَ .
تلك هي عطيّة اللّه المدهشة، وذلك هو المعنى العميق للأَلم والوجع، والانكسار :
أَنّ آلامنا، وآلام كلّ إِنسان، الثاوية في جراح يسوع،
قد تصبح خصبة، وتؤتي ثمار حياة ووحدة للكنيسة، والعالم، ولكلّ إِنسان ،
في جسد يسوع الناهض من الموت، وعبره، ذلك الجسد المتألّق بوحدة جديدة .
غالباً ما تمزّقنا الحياة بين قطبَيْن : النشوة والأَلم، المجد والصليب .
فذهننا مسحور أَمام روعة كاتدرائيّة تتردّد في حناياها موسيقى سماويّة،
و نؤنس أَنّنا في مكان مقدّس، حيث أُشيد، مدى قرون، بعظمة اللّه .
و في نفس الآن يصهر الأَلم قلبنا حيال عالم حيث يبدو الأَلم عديم المعنى،
حيال الجوع، والسجن، والموت، وامتهان حقوق الشخص البشريّ الأَساسيّة،
حيال أَطفال يُقتَلون في أَحشاء أُمّهاتهم،
و أَشخاص معذّبين، أو مطرودين من بلادهم، أَو يموتون بلا كرامة .
و نشعر بأَنفسنا تائهين، في بلبالنا الداخليّ، وخصوماتنا، وريَبنا .
كلٌّ منّا مدعوٌّ إِلى خوض ذلك الاختبار المزدوج : اختبار النشوة والأَلم .
علينا أَلاّ نتحاشى عن هذا أو تلك، بل أَن نلج في صميم السرّ :

فالبؤس والرأفة يتعانقان، والوحدة تولد من الفُرقة .
الفرار من الأَلم لن يهب الفرح أَبداً .
أَمّا اتّقاؤه، ومحو ذكراه، بالتخمة من صور التليفزيون،
أو بإِنفاق الوقت في تخيّل عالم مثاليّ، ينتفي منه الأَلم،
فما كلّ ذلك إِلاّ وهم .
و من ثمّ، لا تفرّ من الأَلم، بل تشجّع على اقتحامه،
كي تكتشف في ثناياه وجود يسوع الناهض من الموت، وجوده السّريّ،
إِنّه، هنا، كامن في سرّ الفقير القدسيّ .
و لا تزْوَرَّ عن أَلمك الخاصّ، وقلقك، وشرخك، وعزلتك، وفراغك،
بادّعائك القوّة .
بل توغّل في ذاتك، واهبط سلّم كيانك، إِلى أَن تكتشف،
– مثل بذرة صغيرة مغروسة في تربة هشاشتك المحطّمة المحروثة –
حضور يسوع، النور المتألّق في الظلمات .
و هناك قدّم ذاتك للآب، مع يسوع، من أَجل حياة العالم .
هذا الدرب ليس، دائماً، سهل الانتهاج،
بل ستعهد فيه فتراتِ إِحباط وغضب، وتقهقر، وشكّ .
و لكن، شيئاً فشيئاً، إِن كان ثمّة من يواكبك في تلك المسيرة الطويلة،
ستشرع تلحظ النور المتألّق في الظلمات،
و ستنهل من الماء المتفجّر من أَرض الفقراء القاحلة .

رسالتي ورسالة كلّ مسيحيّ

في حداثة سنّي أُنشئتُ على الحرب، وتعلّمت استخدام المدافع وآلات الدمار،
و تعلّمت أن أَكون سريعاً ومجدياً في تدمير العدوّ قبل أن يبادر إِلى تدميرنا.
و لكنّ يسوع دعاني إِلى هجر عالم الحرب إِلى عالم السلام،
دعاني إِلى اتّباعه .
و تتلمذت على يدي كاهن قدّيس،
و تلقّيت نعمة الصلاة والإِنصات إِلى كلمة اللّه .
و درست الفلسفة واللاهوت، ثمّ، فيما بعد، درّست الفلسفة ؛
فعلتُ كلّ ذلك في سخاء مشوب بالكبرياء،
مخبّئاً جروحي، ووهني، وخطيئتي .
غير أَنّني كنت واثقاً، سائراً مع يسوع، حتّى وإِن ترنَّحتُ أَحياناً .
و حينئذٍ قادني يسوع نحو رجال ونساء معاقين عقليّاً، لم أَلتقِ، قطّ، أَمثالهم من قبل .
و قد هزّ كياني هذا اللقاء الأَوّل، ونفذتْ إِلى أَعماقي الصيحة المتَفجّرة من أَجسادهم وقلوبهم، وأَذهانهم المحطّمة : " هل تحبّني ؟ هل أَنا جدير بالحبّ ؟ هل لي شأن ؟ لمَ تخلّيت عنّي ؟ "
و بتشجيع من ذلك الكاهن القدّيس، شرعت أَعيش مع رافائيل وفيليب،
رجلَيْن التقيتهما في مصحّة مريعة .
كانا قد فقدا والديهما، وباتا وحيدين، ولم يكن لهما من يلجآن إِليه،
و في أعقاب هذا الهجران كانا قد امتلآ غضباً وحزناً،
و أَمسيا يعيشان، جزئيّاً، في عالم أَحلام، محاولين الفرار من الأَلم الذي كان يقطنهما .
في الواقع لم يكونا راغبين إِلاّ في أَمر واحد : الحبّ،
حبّ يحترمهما ويصغي إِليهما،
حبّ يهبهما الحياة، ويسبغ على حياتها معنى .
كانا يبتغيان صديقاً .
ما كانا ينشدان، في المقام الأَوّل، معارفي، وقدرتي على تحقيق أُمور مدهشة، بل قلبي وكياني .
فبقدر ما يكون الناس فقراء، معدمين، عاجزين عن تحقيق أمور ذات بال، بنفس القدر تنحصر رغبتهم في تواصل قائم على الحبّ .
أَوَ ليس هذا، أَيضاً، ما يقتضيه يسوع منّا : قلبنا، قبل معارفنا وخدماتنا ؟

يريد أَن نهبه ذواتنا، ونهب بعضنا بعضاً ذواتنا .
و أخذنا نعيش معاً، كنتُ أَطهو بقدر استطاعتي، ولم يكن طعامنا جيّداً .
و لكنّنا كنّا نسترسل في التحادث والضحك معاً .
ووقعت، بيننا، أَحياناً، خلافات .
لقد ارتكبت أَخطاء عن جهل وقلّة دراية؛
إِذ كنت أعامل رفيقيّ معاملة الأَطفال، فأعلّمهما ما ينبغي فعله، من غير أَن أَصغي إِليهما حقّاً،
و على غير احترام للنور الكامن في قلبيهما .
و لكن بفضل هذه الأَخطاء شرعت أَتعلّم،
و شيئاً فشيئاً، أَصبحنا أَصدقاء، وولدت فيما بيننا الثقة .
و كانا يدعوانني إِلى التوغّل في عالم من الصداقة، والتواصل كان يشفي قلبي، ويوقظ فيه الحياة .
و معاً استقبلنا قادمين جدُداً، ونمت الشجرة؛
و ابتعنا بيوتاً أخرى في القرية، ووُلدت جماعات جديدة، في شتّى أَرجاء العالم؛
و ها نحن اليوم أُسرة كبيرة، في بلدان عديدة،
و المعاقون هم في قلب جماعاتنا .
هم الذين، بصيحاتهم الملتمسة حبّاً وثقة، أَرشدوني إِلى سراط القلب والحبّ؛
و هم الذين، بحاجتهم إِلى الحياة الجماعيّة، جعلوني أَفهم الجماعة وأَعيشها.
هم الذين، بما يعتريهم من مشاعر الأَلم، والوهن، والاضطراب، قد علّموني استيعاب اضطراباتي وأوهاني .
و هم : " مجانين هذا العالم، وضعفاؤه، ومحتقروه"، ساعدوني على تبيّن اختيار اللّه،
و تعرّف أصدقائه الحقيقيّين .
هم الذين، بقولهم " نَعَم "، ببساطة، ليسوع، علّموني أَن أَقول له " نَعَم " .
و هم، بحبّهم الإِفخارستيّا، وسرّ المصالحة والكهنوت، دفعوني إِلى قلب الكنيسة ؛
أَجل، بلا ريب، إِنّهم، معلّميّ .
و درب الحبّ هذا مشرع للجميع .
فيسوع يدعو البعض إِلى هجر كلّ شيء، كي يصبحوا متسوّلي رأفة، على غرار فرنسيس الأَسّيزي،
و يدعو آخرين إِلى هجر محيطهم العائليّ من أَجل اقتسام حياتهم مع الفقراء والضعفاء،

و آخرون مدعوّون إِلى فتح بيوتهم وقلوبهم لجارٍ مسنّ، أو لولدٍ معاق؛
يسوع يدعو كلاًّ منّا، حيثما كنّا، إِلى المضيّ قدماً، وإِلى الولوج في صميم الرأفة .
لقد كشف لي الفقراءُ والضعفاءُ النقابَ عن سرّ يسوع الأَكبر .
فإِن أَنت شئت اتّباعه، لم يتعيّن عليك تسلّق سلّم النجاح والسلطان،
لكي تكتسب المزيد فالمزيد من الشأن،
بل عيك ***الهبوط*** من أَجل لقاء الأَشخاص المحطّمين والمتألّمين، ومواكبتهم.
فهنا يتأَلّق النور وسط الظلمات، في عتمة فقرهم .
إِنّ الفقراء الذين أَنت مدعوّ لاقتسام حياتهم،
قد يكونون مرضى أو مسنّين، أو عاطلين عن العمل، أو شبّاناً متورّطين في عالم المخدّرات ،
أو أناساً يفعمهم الغضب لأَنّهم أُثخنوا جراحاً مريعة في حداثة سنّهم ،
أو أَشخاصاً معاقين، أو مبتلين بالسيدا، أو معتقين حديثاً من السجن،
أو ساكني أكواخ من الصفيح، ومُنتَبَذات
أو غرباء يعانون من الجوع والأَلم والعزلة .
أو مسحوقين من جرّاء لون جلدتهم .
أو وحيدين في مدنٍ مكتظّة .
لقد دعا المسيحيّون، دائماً، إِلى واجب خدمة الفقراء، ومساعدتهم على الانعتاق من بؤسهم .
بيد أَنّ ما نكتشفه في " السفينة " هو أَنّ الفقراء نعمة ثمينة،
و أَنّ علينا الإِصغاء إِليهم في احترام جمّ ، فلديهم هبات يودّون إِشراكنا بها .
و نكتشف أَيضاً، أَنّ يسوع، معين الحياة، كامن فيهم . إِنّه، حقّاً فيهم .
و إِن أَنت كنت للفقير صديقاً، بتّ صديقاً ليسوع .
و بتواصلك مع الفقراء، توثّق تواصلك مع يسوع، وتتوغّل في محراب التطويبات .
إِنّ يسوع يعلن عن سرّه بقوله : " ما تصنعه لأَصغر إِخوتي، فلي تصنعه "
" كلّ من يستقبل أَحد هؤلاء الصغار باسمي، فإِيّاي يستقبل، ومن يستقبلني يستقبل الذي أرسلني " ...
أَيّ إِله هذا، يقيم في قلب ولد محطّم !
و إِن أنت أَصبحت صديق إِنسانٍ متأَلّم ووحيد، اكتشفت شيئاً آخر : ستنعم أنت بالشفاء .

فالإنسان المحطّم سيكشف لك جرحك، وقساوة قلبك ،و سيكشف لك، في الآن عينه، كم أَنت أَيضاً، محبوب .

و حينئذٍ يصبح لك من جئت لشفائه، شيئاً فشيئاً، نبع شفاء .

و إِن أَنت أَتحت لصرخة الفقير أَن تشقّقك، وأَشرعت ذاتك لصداقته،

فسيقودك نحو الجماعة، وسيقودك إِلى رؤية للبشريّة جديدة،

و إِلى عالمٍ جديد لا تحكمه السلطة والخوف،

عالمٍ جديد يحتلّ الفقراء والضعفاء مركزه،

و سيُدخلك إِلى ذلك الملكوت الذي تحدّث عنه يسوع .

عندما يلتئم، في جماعةٍ، أَشخاصٌ مختلفون جدّاً، ضعفاء وأَقوياء، ويعيشون متحالفين، يشرعون يكتشفون فرح كونهم صانعي سلام في عالم محطّم، ويتبيّنون وجود الرجاء .

لحياتك وحياتي معنى في قلب يسوع،

و بقدرة الروح القدس، يسعنا منح العالم الحياة، بمبادرات حبّ صغيرة معاشة في الوفاء للعهد .

قد يقول لك حتّى بعض أَبناء الكنيسة أَنّك اخترت طريقاً متطرّفاً، شاقّاً، مفرطاً في هذا الاتّجاه أو ذاك، وقد يقولون أَنّه خير لك أَن تدرس اللاهوت، وهم لا يعلمون أَنّ الفقراء هم خير أساتذة للاهوت ،

شرط أَن نتعلّم الإِصغاء إِليهم .

و قد يقول آخرون أَنّك ستحرق نفسك، وتنهكها،

و سيكون قولهم صائباً إِن أَنت لم تستقبل نعمة دعوتك بقدرٍ وافٍ من العمق والحكمة .

كم من علامات شقاقٍ اليوم !

فمن جانب، قوم أَتقياء، يُصلّون مع آخرين، وهم غارقون في الرفاه،

و لكنّهم أَشدّ اهتماماً بحياتهم الروحيّة الخاصّة، من اهتمامهم برعاية الفقراء والجياع، ولكأنّهم يجهلون كلّ ما يحيق بهم من أَلم، وقدرة الروح التي أُعطوها لكي يصبحوا صانعي سلام ورأفة .

و ثمّة من يعملون في سبيل الفقراء، ويسعون إِلى تحريرهم،

بيد أَنّهم غفلوا عن قدرة الصلاة، وعن وجود يسوع، معين الشفاء .

و بتمثّلهم بالفقراء، قد تمتلئ قلوبهم ضغينة حيال مالكي الثروة والسلطان،

و حيال البنى السياسيّة والاقتصاديّة؛

و قد يكونون متأهّبين للقتل .

أَلا يسعنا ردم هذه الهوّة، واكتشاف يسوع، أَمير السلام،
الذي يدعو كلاًّ منّا، ليكون صانع سلام،
و ليجمع، في الحبّ، شمل البشر، مع كلّ اختلافاتهم ؟

عيش الجماعة كجسد متكامل

قد تكون الجماعة مجموعة أَفراد مرتبطين بالصلاة وتبادل الدعم الأَخويّ،
يقتسمون رؤية واحدة للحبّ وللاهتمام بالآخرين،
و قد تكون أُسرة تفتح أَبوابها لإِنسان محتاج،
أو جماعة مؤسّسة بهدف استقبال من يعانون الأَلم والبؤس .
في معزل عن الحياة الجماعيّة، قد تفضي خبرة التواصل سريعاً إِلى حبٍّ امتلاكيّ،
و إِلى استخدام الآخر لردم فراغنا،
أو لسدّ احتياجاتنا، وإِرضاء نزواتنا ورغباتنا .
إِنّ المرء يتلقّى خبرة الحبّ، ولا يستطيع أَبداً امتلاكها،
فهي لحظة أَبديّة، وهبة من يسوع تجدّدنا،
و لكن بسبب كسورنا ومخاوفنا، سرعان ما نسعى إِلى الاستيلاء عليها، وامتلاكهــا، والاحتفاظ بها .
الجماعة توفّر لنا مراجع وحدوداً علينا الالتزام بها،
و الدعم الذي يمكّننا من العيش في الحقيقة،
و خبرات فرح وأَلم .
الجماعة تهبنا اليقين الذي نحتاج إِليه لكي نظلّ أَوفياء، وتحثّنا على المضيّ قُدُماً،
و على عيش هذه الخبرات، على أَنّها مراحل نموّ، في حجّنا نحن حكمة كبرى،
و انغراس أعمق في صميم كياننا .
الحياة الجماعيّة هي خبرة انتماء وتضامن، وكأنّ أَفراداً خُلقوا لكي يعيشوا معاً .
و هي، لمن خبروا الوحدة، والفراق، والفرقة في أسرهم، خبرة تؤتي قدراً جزيلاً من الوحدة والشفاء،
عندما يُقبَلون كما هم، بكلّ ما هم عليه (أو ليسوا عليه !)
بكلّ ما هو فيهم محطّم، بكلّ جروحهم الداخليّة، بمواهبهم ونورهم .
لدى البعض، هذا الشعور بالانتماء يتفتّق باكراً، سريعاً، تلقائيّاً،
و لكأنّه نعمة من اللّه يُدعون إِلى الوفاء لها .
و قد يقتضي ذلك، لدى آخرين، سنوات، واختيارات قد تكون موجعة،
قبل أَن يولد لديهم الالتزام وينمو نموّاً كاملاً .
و قد تعترضهم مقاومة شديدة، ورغبة في عدم الانتماء،

لأَنّ الانتماء يفترض انسلاخاً عن استقلاليّتنا، وأَصدقائنا، وحرّيّتنا بتحقيق عملنا الخاصّ .

داخل كلٍّ منّا صراع ضدّ هذا الالتزام،

فنحن نخشى الاعتراف بمواهبنا، وبتنميتها وتوظيفها في خدمة الآخرين،

كما نخشى الخضوع لمواهب الآخرين .

و داخل كلٍّ منّا كبرياء تمنعنا من الإِيمان في دعوة يسوع ووعده،

و من تقديم ذواتنا في تواضع وحبّ يجعلاننا قادرين على الترحيب بالآخرين .

عندما نشرع نقتسم حياتنا مع آخرين، يعترينا شعور بالتفاؤل : فرح ينبثق من أغوار كياننا؛

فيبدو لنا كلّ فرد من أَفراد الجماعة مدهشاً، ونضع الجميع في أَعلى مقام ،

و يخيّل إِلينا أَنّنا اهتدينا، أَخيراً، إِلى مكاننا الصحيح عقب سنوات من البحث والوحدة .

و لكن، فيما بعد في لحظة كَلَل، أو عندما نشعر أَنّنا جريحون، غير مفهومين، غير معترفٍ بنا أو منبوذين،

تسقط الغشاوة من عيوننا، ونكتشف جميع عيوب الآخرين،

فنفقد الثقة، ويضمحلّ الحلم، ونصطدم بالواقع المؤلم .

داخل كلٍّ منّا يقطن حلم عالم رائع، حيث كلّ شيء جميل ومنسجم .

و ثمّة، أَيضاً، ثورة حيال الشروخ، والشرّ الذي ينبغي أَلاّ يوجد .

و عطشٌ مستَعِر إِلى استعادة الفردوس الضائع

لقد حلمنا، أَيضاً، بوالدين كامليْن مثل كمال اللّه،

و عجزنا عن تبيّن عيوبهما، إِلى أَن سقطت، يوماً، الغشاوة عن عيوننا فرأيناهما على علاّتهما .

إِنّنا نرغب في العيش في عالم كامل، وجماعة كاملة، وكنيسة كاملة .

و لطالما رُدّد على مسامعنا أَنّ علينا أَن نكون كاملين، بحيث لا يسوغ لنا أَن نكون ضعفاء وهشّين .

إِنّ فكرة الكمال هذه من عمق الرسوخ فينا، بحيث تدفعنا إِلى إِنكار شروخنا، وازدراء شروخ الآخرين، وإِلى إِدانة جماعة لا تتّسم بالكمال أو لا تتوافق مع مُثُلنا .

الشعور بالانتماء ينبع من الثقة،

و الثقة هي التدرّج في قبول الآخرين كما هم، بمواهبهم وحدودهم؛

و هكذا نعي أَنّ جسد الجماعة لا يمكن أَن يكون، أَبداً، مكتمل الوحدة .

و ليس محتّماً أَن نكون كاملين، ولا علينا أن ننتحب بسبب عيوبنا التي لن نُدان عنها .
فربّنا يعلم أَنّنا، من ملاحظ مختلفة، عرج ونصف عميان،
و لن نفوز أَبداً بسباق الكمال في مباريات البشريّة الأولومبيّة .
و لكن يسعنا السير معاً في الرجاء، والابتهاج بكوننا محبوبين رغم شروخنا .
و بمكنتنا أَن نؤازربعضنا بعضاً على النموّ في الثقة، والتعاطف، والتواضع،
فنعيش شاكرين، ونتعلّم الصفح والاستغفار،
و الانفتاح أَكثر فأَكثر على الآخرين، والترحيب بهم، وتزويدهم بالسلام والأَمل .
ذلكم هو سبب ترسّخنا في جماعة :
لا لأنّها كاملة ورائعة، بل من جرّاء إِيماننا بأَنّ يسوع قد جمعنا من أَجل رسالة،
و أَعطانا الجماعة أَرضاً علينا أَن ننمو فيها ونخدم .
و هكذا نكتشف أَنّ الجماعة هي حقّاً جسد، كلٌّ منّا عضوٌ فيه،
و أَنّنا مرتبطون بعهد قطعه لنا يسوع .

لكلٍّ مكانته في هذا الجسد وليس أَحد أَفضل من سواه، بل لكلّ فرد الحقّ بالاعتراف والاحترام . والمسؤوليّة لا تعني تفوّقاً، بل دعوة إِلى الخدمة .

أو لم يقل الرسول بولس في رسالته إِلى الكورنثيّين أَنّه ليس مطلوباً من كلٍّ منّا أَن يكون عيناً أَو أذناً أو رجلاً . بل علينا أَن نكون ذواتنا، وأَن نعثر على مكاننا الفريد في الجسد، ويتابع القول :

" إِنّ ما يبدو الأَضعف من أَعضاء الجسد، لهو الأَشدّ ضرورة، وما نحسبه الأَحقر، فهو ما نشمله بأعظم كرامة، وما يقبح منّا هو ما نحوّطه بأَوفر حشمة . "

إِنّ الأَشخاص الأَكثر تحطّماً، والذين يعانون من أَكبر قدر من الأَلم، والاضطراب،
– الأَشدّ صغراً ووهناً – المعتلّين والمسنّين،
هم في قلب الجماعة .
إِنّهم حضور يسوع، يسوع المتألّم المصلوب،
و الجسد موجود لكي يحملهم ويواسيهم، ويُعنى بهم، ويتلقّى منهم الحياة .
و عندما نكتشف سرّ العهد، وسرّ الجماعة كجسد متكامل،
تزول تساؤلات كثيرة حول التراتبيّة، والمنافسة، والتباري،
و لا نعود نرى في الخلاف تهديداً، بل كنزاً
فالإِنسنيّة لا تنهض على تراتبيّة حيث المتميّزون يحتلّون رأس السلّم،
و الذين دونهم والأَكثر جهلاً يقبعون في الدرك .
فليس، ثمّة، نموذج كامل، ولا ثمّة شخص مثاليّ، وليس من يملك جميع المواهب،

و لكنّنا، معاً، وكلٌّ في مكانه نكوّن جسد الجماعة .
و عندما نختبر الجماعة بصفتها جسداً، يدعونا فيها يسوع إِلى انتماء متبادل،
نكتشف مسؤوليّتنا عن ازدهار مواهب كلّ فرد ونموّها
إِذ بوسعنا أيقاظ مواهب الآخرين أو سحقها .
و لكن لن يكون بمكنتنا دعوة الفقراء إِلى النموّ في الحبّ، وإِلى عيش حقيقة كيانهم،
إِلاّ إِذا كانت أواصر المعاهدة والثقة فيما بيننا متينة،
و لم تكن تصرّفاتنا بدافع الخوف والغضب، أو الرغبة في التحكّم والسيطرة
بل بدافع الحبّ .
و حينئذٍ سنتمكّن، بدورنا، من تلقّي دعوة الفقراء إِلى النموّ في الحقيقة .
بيد أَنّ قبول الآخرين، مع اختلافهم، وإِحلالهم مكانهم بلا إِدانة، ولا حسد،
و لا سيّما عندما تتعارض طباعهم وأَنماط سلوكهم تعارضاً تامّاً مع طباعنا وسلوكنا،
يقتضيان صراعاً مستمرّاً .
يبدو أنّ على بعض الناس أن يواجهونا دائماً ويعارضونا،
و الأَكثر تهديداً لنا أولئك الذين يعكسون لنا صورة عن ذواتنا لا نرغب في رؤيتها أو لا نرضى عنها،
و يصبحون لنا " أعداء " لأنّهم يفضحون، فينا، شروخاً نودّ تجاهلها .
غير أَنّ يسوع يدعونا إِلى أَن نؤلّف، معاً، جسداً واحداً،
و أَن نحبّ بعضنا بعضاً، مع خلافاتنا، على غرار حبّه لنا .
يدعونا إِلىعيش معجزة الحبّ والنعمة المتمثّلة في الجماعة : جسداً واحداً وقلباً واحداً،
لا جماعة حيث الجميع متشابهون، ويسعون إِلى الانصهار (ممّا يفضي غالباً إِلى الفوضى)
بل جماعة حيّة تنطوي على اختلافات وخلافات .
إِنّ الجماعة، بكلّ مصاعبها، عطيّة من اللّه، تُقبل في إِيمان وثقة،
على أَنّها علامة حبّ اللّه، وموضع رجاء وتطهّر؛
و بترحيبنا بها نرحّب بحبّ اللّه .
هذه العطيّة لا توهب مرَّة ولكلّ مرّة،
بل علينا أَن نرغب فيها رغبة مضطرمة،
و نصلّي ونجهد في سبيلها، يوماً إِثر يوم .
فبما أَنّ الجماعة جسدٌ حيّ، وديناميكيّ، فهي في تبدّل مستمرّ،
و تتطوّر على وتيرة نموّها، وما يطرأ على أَعضائها من تغيير،

واستقبالها لها أَعضاء جدداً،
مثل خلايا الجسم التي تنقسم وتتكاثر .
الخطر الذي يُنذر كلاًّ منّا يكمن في توخّينا جماعة قويَّةً، مؤهّلةً، محكمة التنظيم،
آمنة ماليّاً وإِداريّاً، تضمّ العديد من الأَعضاء المؤهّلين والملتزمين .
فليس منّا من يحبّ العيش في معزلٍ عن الأَمان، وفي خوف من الغد والنزاعات .
مثل بطرس نخشى السير على الماء، ولذلك نسارع إِلى إِيصاد قلوبنا دون ما لا يوحي بالأَمان، ودون النداءات النبويّة، ودون تقبّل فقراء جُدد .
و نغفل، حينئذٍ، دعوة يسوع الأُولى، لدى التأسيس،
عندما بعثنا إِلى الحياة، وقادنا ممسكاً بيدنا .
إِنّ بذرة الحبّ الصغيرة التي انبعثت منها الجماعة، معرَّضة لأَن تقسو سريعاً .
و بقدر ما تكبر الجماعة، يعسر على أَعضائها أَن يظلّوا مثل أَطفال، يعتمدون على الراعي الصالح الذي يقود إِلى المراعي الخضراء، وإِلى كلأ جديد .
هذا الراعي الصالح يقودنا، مثلما قاد شعبه، عبر الصحراء، وعبر أَشكال جديدة من الفقر واللاأمان .
و قد تذمّر ذلك الشعب من اللّه، عندما كانت تدبو له الحياة شديدة القسوة ....
و غالباً ما نتذمّر، نحن أَيضاً، من اللّه .
في عالمنا، يعيش دائماً الفقراء والضعفاء، مفتقرين إِلى الأَمان،
تحت رحمة البشر والسلطة،
بل تحت رحمة جراحهم الذاتيّة، وعنفهم الداخليّ .
و نحن الذي دعانا يسوع إِلى السير معهم، ومولاتهم،
مدعوّون، أَيضاً، إِلى اكتشاف الطريق التي فيها يعتلن لنا اللاأَمان والوهن .
اللاأَمان والوهن يحاكيان باباً تتسرَّب من خلاله قوّة اللّه .
فلا تخشَهما، ولا تسعَ إِلى الظفر بكلّ الأَجوبة،
إِذ قد تتعرّض، حينئذٍ، إِلى الانصراف عن اللّه الذي يقودك إِلى الملكوت ...
و لئن كنّا مدعوّين إِلى السير في تواصل حميم مع الفقير،
فسيكون يسوع، دائماً، إِلى جانبنا، يقول :
" لا تخف، فأَنامعك . "

الصفح في الجماعة

صحيح أنّنا، في الجماعة، نجرح بعضنا بعضاً باطّراد،
و لا نعرف دائماً الإِصغاء، ونفتقر إِلى التفهّم والتعاطف،
و رغم رغباتنا الكمينة ننغلق، وننسى دعوة يسوع ...
و لذلك تقوم كلّ جماعة، مثلما تقوم كلّ أُسرة، على الصفح،
فالصفح هو النبع والصخرة لمن يعيشون معاً،
الصفح كلّ يوم،
الصفح، ثمّ الصفح، وأَيضاً الصفح
و التماس الصفح، بالقدر نفسه ...
الصفح هو الملاط الذي يربطنا، هو نبع الوحدة،
هو نمطٌ من الحبّ يحوّل الفرقة إِلى ولاء .
الصفح هو فهم الآخر، وحمل وهنه، وعيش الرأفة،
الصفح هو تقبّل شروخنا، شروخي وشروخك،
الصفح هو العزوف عن رؤية مثاليّة للآخر، وعن الرغبة في أَن يكون غير ما هو،
الصفح هو تحرير الآخرين، لكي يحقّقوا ذواتهم، ومساعدهم على الازدهار، وانتاد الثمار،
و اكتشاف جمالهم الخاصّ .
و لا يحتاج الصفح إِلى مشاهد تمثيليّة، ودموع، وعواطف مضطرمة ،
بل هو مبادرة بسيطة تظهر أَنّ يسوع يدعونا معاً، على أَنّنا أَعضاء جسد واحد،
إِلى معاهدة عيش مشترك .
الصفح هو صنع السلام، والكفاح من أَجل الوحدة، بُغية بناء جسد واحد،
و من أَجل شفاء جسد الكنيسة المحطّم،
و قد جاء يسوع لكي يصفح،
سرّ رسالته هو أَن يعلّمنا، نحن أَيضاً، الصفح،
صيحته على الصليب : " أبتاه، اغفر لهم، فهم لا يعرفون ما يفعلون "
كانت صرخته في كلّ لحظة من حياته : " اغفروا "
و لذلك أَمسى حمل اللّه، الحامل خطايا العالم، بصفحه المتواصل .
لقد أَخذ في جسده عنف البشريّة المتراكم منذ أَجيال، لكي يحوّله إِلى حنان وغفران،
في قلب رسالة يسوع تكمن وصيّته : " أَحبّوا أَعداءكم، أحسنوا لمبغضيكم،

صلّوا من أَجل مضطهديكم "

و هو يقول : سهل أَن نحبّ من يحبوننا

فهذا لا يستلزم قوّة ومحبّة خارقتين .

بيد أَنّ حبّ أَعدائنا يتعذّر على قوانا الذاتيّة،

فغريزتنا الفطريّة تدفعنا إِلى الدفاع عن أَنفسنا، وإِلى المهاجمة أو الفرار .

و لكن يسوع بمنحه إِيّانا الروح القدس يثقّفنا على صنع السلام .

و قوله : " أحبّوا أَعداءكم "، قبل كونه وصيّة، هو وعد :

وعد بمنحنا روحه لكي نقوى على فعل ما نعجز عنه بأَنفسنا،

و بتعليمنا الرأفة، والصفح عمّن يجرحوننا :

الذين يغتابوننا، ويكبّلون حرّيتنا، ويمنعوننا من العيش، وينبذوننا ويهجروننا، ويخنقوننا، ويضربوننا .

مع يسوع يصبح المستحيل ممكناً .

النموّ في الوحدة من خلال التواضع

ينبغي أَن تتمثّل مهمّة المدعوّين إِلى مواكبة أَشخاص محطّمين أو إِلى العيش معهم،
في مساعدتهم على عيش ملء حياتهم،
و على اكتشاف مواهبهم وممارستها، وتبيُّن مواطن جمالهم، وقدرتهم على الحبّ والخدمة،
و على اكتشاف مدى حبّ اللّه لهم، والتيقّن أَنّ بشرى يسوع موجّهة لهم .
إِنّ الخطر الذي قد يتعرَّض له من يخدمون الفقراء، يكمن في الحؤول دون نموّهم،
بفعل الكثير من أَجلهم، على غرار والدي ولد معاق يفرطون في العمل عنه .
إِنّه دائماً أَيسر أَن تقوم بعمل من أَجل إِنسان من أَن تساعده على الاضطلاع به بنفسه بحيث يكتشف كرامته البشريّة، واحترام ذاته .
عندما نغالي في العمل من أَجل الآخرين، ونحول دون نموّهم، وتولّيهم مسؤوليّة أَنفسهم، ألا نخدم ذواتنا ؟ أَلا نسعى إِلى إِثبات قدراتنا الفائقة ؟
إِنّ خدمة الأَشخاص المحطّمين، على غرار أمّ تُعنى بابنها،
تتمثّل في مساعدتهم على اكتشاف مواهبهم، وجمالاتهم الخاصّة،
و على الترقّي في بلوغ الاستقلاليّة
بحيث نستطيع أَن نتوارى شيئاً فشيئاً .
و هذا يعني " هبوط السلّم " وغسل أَرجلهم أُسوةً بيسوع،
و اكتشاف طوباويّة الوضاعة :
بكوننا خَدَمة متخفّين، وباحتلالنا المنزلة الدنيا حيث نكتشف يسوع .
كان يوحنّا المعمدان يقول أَنّ عليه أَن ينقص لكي يكبر يسوع .
و ملء مجد اللّه لم يتجلَّ إِلاّ عندما تلاش يسوع، وانحدر إِلى أَسفل درك .
قال يسوع : " إِنّه حسن أَن أَمضي، فحينئذٍ سأرسل لكم روي، لكي تكبروا وتمثروا "
و لذلك هو مات على الصليب، وتخفّى في خبز الافخارستيّا .
و هكذا، على أَكثرنا قوّة، وأَقدمنا في الجماعة تعلّم التواري،
و احتلال المنزلة الدنيا، والصيرورة خبزاً،
كي يُصيب الآخرون غذاء، ويكبروا، ويتقلّدوا المزيد من المسؤوليّة .
أَيّاً كان أسلوبنا في مقاسمة حياة الفقراء والمحطّمين،
نحنو مدعوّون إِلى تلمّس فقرنا الخاصّ،
و إِلى هجر عروش السلطة والمعرفة والأَمان، كي نصبح صغاراً متواضعين .

ذلكم هو الدرب الصغير الذي يرشدنا إِليه يسوع، لكي نصبح صانعي سلام ونبلغ الوحدة :

أَن نحُلّ الأَشدّ صغراً وفقراً في مكانهم الحقّ،

و هذا المكان، لمن هم مصابون بإِعاقة سحيقة،

هو مجرّد كونهم حضوراً، وكونهم سرّ يسوع، ووجه يسوع، وإِيقونة يسوع .

في وهنهم يفتقرون إِلى صوت، ولكنّ جسدهم هيكل للروح القدس .

دورهم الوحيد هو أَن يكونوا مسكناً ليسوع وأَبيه، وبيت قربان سرّيّاً حيّا.

و لن يكتشفوا هذا السرّ إِلاّ إِذا أزحنا الحُجُب عنه،

بطريقة نظرنا إِليهم، ولمسهم، وتحميمهم،

بحنان حضورنا، واحترامنا لجسدهم،

و أسلوب تحدّثنا إِليهم حتّى إِن لم يفهموا معنى كلماتنا .

لقد ازورّ التلاميذ عن يسوع عندما بات عاجزاً معطوباً، منبوذاً من المجتمع الدينيّ،

و عندما قُتل خارج أَسوار المدينة،

فقد عجزوا عن قبول مسيح ضعيف، إِذ كيف لرجل هوى أَن يساعد الآخرين على الوقوف !

فلنسأَل الروح القدس أن يقتحم حياتنا، أَيّة كانت سبلنا، ويعلّمنا الاقتداء بيسوع :

فننحدر، ونستشفّ وجهه في وجه الفقراء،

و نعيد لهم ما يستحقّون من مكانة في المجتمع وفي الكنيسة .

إِنّ السير مع الفقير، يناقض ثقافة مجتمعنا ...

بيد أَنّ تلاميذ يسوع مدعوّون إِلى مجابهة تيّار هذه الثقافة،

التي قطعت كلّ صلة بالفقراء، ونبذتهم وهمّشتهم؛

فهي إِنّما تشجّع تسلّق سلّم الترقّي، في سبيل مزيد من الشهرة والثروة؛

غير أَنّ يسوع باحتلاله المكانة الدنيا، وبغسله أَقدام تلاميذه،

و بصيرورته صغيراً ومعطوباً،

قد أَبدى لنا رؤية جديدة للمجتمع،

مجتمع مختلف جذريّاً عمّا أَلفناه،

حيث تبوّأ الفقير المكانة العليا، ويمثّل معين حياة .

لقد ناهض يسوع مفاهيم المجتمع، فنُبذ، وعدّ خطراً،

و أَعلن ثورة هادئة، غير عنيفة .

و بشّر بملكوت يزاح فيه الأَقوياء عن عروشهم

و يُرفع فيه الصغار والضعفاء .
و يُصفح فيه عن الأعداء،
و تدمّر الحواجز،
و تزول الأسلحة،
و يلتقي فيه البشر فيكوّنون جسداً واحداً،
حيث لكلّ فرد دورٌ يلعبه،
بلا منافسة ولا بتارٍ،
و حيث كلّ فرد يصفح
في فرح وحدة الحبّ .

حضور اللّه في الفقير

من خلال اختبار حضور اللّه في الفقير،
يدعونا يسوع إِلى اتّباعه، وإِلى تغيير ما في قلبنا، وإِلى تحديد اختيارنا،
و إِلى تعريض حياتنا كلّها لنور الحبّ، ونور الإِنجيل .
اليوم، مثل أَمس، يقول لنا يسوع : " تعالَ، اتبعني "،
يقولها لنا من خلال نداء الفقير .

عندما ننتج شيئاً، نحصل على نتيجة ملموسة،
و نمتلك هذا الشيء، فخورين به .
أَمّا عندما نهب الآخرين الحياة، فإِنّنا نلج عالم المخاطرة واللاأَمان؛

فبتواصلنا مع الفقير، لا نملك شيئاً، ولا نستمدّ أَيَّ فخر :
فلا معرفة جديدة، ولا شيء مكتملاً،
و لا شيء ملموساً يمكن التمسّك به،
لا شيء سوى الثقة، والتواصل مع إِنسان جريح،
و ثمار سلام وفرح جديدة .
إِنّها رابطة حبّ وتواصل، ومعاهدة، نابعة من قلب الثالوث،
الأَقانيم الثلاثة المتواصلين، أَبداً، فيما بينهم، تواصلاً حميماً .
إِنّنا نصبح حجّاجاً سائرين على أَرضنا الرائعة الجمال،
غير عالمين إِلى أَين قد تقودنا المسيرة،
و يقيننا الوحيد : الحبّ، وحضور اللّه، والدعوة إِلى الاستسلام لقيادة الحبّ .

هذه التجربة عميقة وهشّة في آنٍ واحد .
و إِن لم نكن متيقّظين، لسرنا فوقها، وسحقناها، أَو أغفلناها، ونأينا عنها،
و من هذا التواصل، وتلك اللمسة، ومن نداء يسوع، ونداء الفقراء الخافت،
يولد حبٌّ جديد يرشدنا نحو الدرب الضيّق الذي يدفعنا إِليه يسوع .
و هذا الحبّ المنبثق من نبع كياننا، يذيب قسوة قلبنا،
مدمّراً الحواجز التي أَقامها الخوف، في سنوات صبانا .
إِنّها مثل ولادة جديدة للطفل الكامن في أَعماق كلٍّ منّا :

طفل عذب، رقيق، هشّ، سريع العطب،
ذهلنا عنه كي نثبت لأنفسنا أنّنا راشدون، أذكياء، نستأهل التصفيق،
أو لكي نتّقي الاخرين، ومقتضياتهم المفرطة،
و قد نختبر، للمرَّة الأولى، ما قاله يسوع، بوحي الروح القدس :
" أشكرك، يا أَبتِ، ربّ السماء والأَرض،
لأَنّك أَخفيت ذلك عن الفقهاء والحكماء،
و أَعلنته للصغار" .
و نكتشف، حينئذٍ، أنّ التواصل مع إِخوتنا وأَخواتنا، واعتلان اللّه،
يتحقّقان في هذا الجزء منّا، حيث نحن مغرقون في الصغر .
إِنّ يسوع لا يأتي في البروق والرعود، والإِعصار،
بل يأتي في نسيم المساء الرقيق .
و الروح يهبّ على أَرضنا في قدر من الرقّة بحيث، إِن لم نكن متيقّظين،
لتعرّضنا لإِغفال حضور اللّه الذي يتجلّى في حياتنا .
فهو إله عذوبة، ورقّة، وحبّ، ويأتي في سكونٍ جمّ كي يهبنا الحياة،
بعيداً عن عالم الكبرياء والمعرفة البشريّتين،
و بعيداً عن مراقي السلطة والإِدارة،
بعيداً عن الرضى عن النفس الزائف،
و عن جميع الذرائع التي بها نذود عن ذواتنا، ونقيها،
مدّعين الاكتفاء بذواتنا،
فيمـــــــا اللّـــــــه يختبــــــئ فــــــي حفــــــرة كياننـــــــا الجـــــــريح .

إنّ صيحة الفقير وضيقه، يستثيران صيحتنا وضيقنا،
و لكأنّ جرح كياننا يُشرَع، معرّضاً إيّانا للعطب تعريضاً ذريعاً؛
و لكنّه، في الآن عينه، يُشرعنا على حضور اللّه المحبّ .
و حينئذٍ نكتشف اسم اللّه الجديد، اسم الروح القدس،
الذي أَعلنه يسوع : المحامي، أَي " الذي يستجيب للاستغاثة " .
إنّ الأمّ التي تأخذ بين ذراعيها ابنها المتسغيث، هي له المحامي .
إنّ اسم اللّه هو " المستجيب للاستغاثة "
به الرأفة والشقاء يتعانقان !
لن نستطيع معرفة رأفة اللّه اللامتناهية، إلاّ إذا ارتضينا الانحدار إلى هوّة بؤسنا،
و من هناك أَطلقنا صيحة استغاثتنا إليه .
و حينئذٍ سيجيب : " ها أنذا، يا حبيبي "،
و سيأخذنا بين ذراعيه، ويضمّنا طويلاً .
إنّه لفرح مدهش أَن نعلم أنّنا محبوبون، حبّاً غير مشروط؛
و هذا الحبّ ينبجس من خلال جراحنا نفسها .

الكنيسة

الكنيسة هي مجموعة المؤمنين
الذين استُدعوا من عالم خطيئة، وحقد، وخوف،
و لكنّهم ظلّوا في قلب العالم لكي يشهدوا للحبّ، ويكونوا علامات قيامة .
الكنيسة هي جميع من يؤمنون بيسوع، ويعترفون أنّه حمل اللّه
الذي يخلّص، ويشفي، ويحرّرنا من الشعور بالذنب .
و لكنّها، أيضاً، كنيسة ألم، لأنها كنيسة خطأة،
يؤمنون ولا يؤمنون، يثقون ولا يثقون،
يسيرون في النور، وقد يتيهون في العتمة .
هذه الكنيسة تحمل عبء التاريخ، والمخاوف، والخيانات،
و خطايا أعضائها، في القرون السالفة .
و هي أيضاً ثمرة وفاء أعضائها وقداستهم، في القرون السالفة .
إنّه لموجع أن تحجب المؤسَّسة النبع،
و موجع جدّاً عندما يبدو النبع وقد توقّف تدفّقه
على أرض عالمنا الجرداء،
و عندما لا يعود الفقراء يحتلّون قلب الكنيسة !
إنّ وجه العروس السرّي، والجسد السرّي، يشعّ بالنور،
بيد أنّ وجه الكنيسة البشريّ تكتنفه الظلمة،
و لكن ينبغي ألاّ تقلقنا الغيوم،
فمن خلفها تتألّق الشمس .
إنّ جسد يسوع المحطّم هو نبع الكثير من الدموع !
فإن كان صحيحاً أنّ المسيحيّين لم يبلغوا الوحدة الكاملة في إيمانهم وبُناهم،
الاّ أنّ بوسعهم أن يتّحدوا في حبّهم، وفي رغبتهم في اتّباع يسوع؛
بوسعهم أن يكونوا " واحداً "
و أن " يهبطوا السلّم " معاً، مع يسوع،
لكي يلتقوه في الأكثر فقراً ووهناً .
لا يستطيع المسيحيّون، اليوم، أن يقتسموا، على مائدة واحدة،
الخبز المكسّر الذي أضحى جسد المسيح،
و لكن بوسعنا أن نأكل معاً، على مائدة واحدة،

مائدة الفقراء والضعفاء .
أَليس هذا هو الطريق الأَقصر نحو الوحدة ؟
و لئن كان صحيحاً أَنّ مسيحيّين يتبعون تقاليد مختلفة
ما زالوا غير قادرين على شرب دم المسيح، من كأس واحدة،
إِلاّ أَنّنا باستطاعتنا أَن ننهل من كأس الأَلم الواحدة،
و معاً يسعنا سكب زيت الرأفة على جراح البشريّة .

و لن تتحقّق الوحدة، فقط، حول كنز يسوع المحطّم والناهض من الموت المحتجب في الإِفخارستيّا،
بل أَيضاً حول جسد يسوع الحيّ، جسده المحطّم الحاضر في الفقير .

إفخارستيّا

إنّ يسوع يمنحنا غذاءً لا يقوى سواه على منحه .

خبز السماء، جسده، ودمه .

يقدّم لنا هذا الغذاء السرّي، لكي نطّعمه بتواضع،

بإيمان، ومن غير أن ندركه إدراكاً تامّاً .

إنّه يدعونا إلى مائدته مثل أولاد عطاش وجياع :

" من يأكل جسدي ويشرب دمي، يقيم فيّ وأقيم فيه "

إنّه يستسلم لنا، ويصبح غذاءنا .

الإفخارستيّا هي خبزنا اليوميّ الممنوح على مائدة التضحية، وهيكل التقدمة.

هنا، مع يسوع، يسعنا أن نقدّم للآب ألمنا وألم العالم .

فالتضحية والتواصل، الألم والفرح، الصليب والقيامة، متّحدة اتّحاداً وثيقاً.

و الخبز المقسوم، جسد يسوع المكسور،

يقودنا إلى المنبوذين، والمجروحين والفقراء،

الذين تجد قلوبنا فيهم، ومن خلالهم، غذاء، وعلى نحوٍ مؤلم أحياناً .

سرّ يسوع في أنّ دعوته هي صرخة الفقير، الذي يعلن عن حضوره .

و نداؤه يجتذبنا ويزعجنا في آنٍ واحد،

يغذّي قلوبنا، ويحطّمها أيضاً،

إذ يشرعها، من خلال الفقر والتواضع، على الرجاء والثقة .

و لكن إن نحن حاولنا، بعون الروح القدس، الاستجابة لهذه الصرخة،

بفتح أذرعتنا وقلوبنا السريعة العطب،

و بعيشنا في تواصل مع الفقير،

حينئذٍ نوهب السلام .

الإفخارستيّا والفقير هما قطبا الكنيسة، والجماعة .

كلاهما حضور يسوع، الذي يغذّي قلبنا وفكرنا،

لكي نستطيع، منذ الآن، عيش ملكوت الآب .

الإفخارستيّا وغسل الأرجل واقع واحد؛

أحدهما ينير الآخر، وأحدهما ينبع من الآخر، وكلاهما كنز الكنيسة .

ليس، أبداً، من السهل المكوث في مستوى سرّ الفقير، وحضور يسوع فيه، إذ سرعان ما نجد فيه معضلة، أو نجهد في الهيمنة عليه، وكأنّه مالٌ يخصّنا .

لكي نعيش مع الفقير – بكلّ وهنه وهواجسه – ونستشفّ فيه حضور يسوع؛ لكي نعيش مع الفقير في تواصل، يكون أيضاً تواصلاً مع يسوع، لا بدّ لنا من قدوة،

و مريم هي مثالنا وقدوتنا،

فهي تلقّننا لمس جسد الفقير بحبّ،

و تلقّننا عيش الحياة اليوميّة، في بساطة الناصرة وفقرها،

تعلّمنا أن نظلّ حاضرين، من خلال جسد يسوع المتألّم، لجسد الفقير المتألّم.

مريم تساعدنا على العيش بيسوع في الإِفخارستيّا وفي الفقير .

إِنّ كلام اللّه، ولاسيّما ذاك المودع في الإِنجيل، غذاء للفكر والقلب،

و يكشف لنا معنى جديداً للعالم والحياة وتاريخ البشريّة .

و لو لاه لتعرّضنا سريعاً لتلك النظرة الأخرى التي تحكم العالم :

تلك التي تبتغي السلطة والشهرة، والمتعة، والاستقلال،

تلك التي تزدري الضعف، وتعدّ الأشخاص الهشّين نافلين،

نظرة تحتّم على كلّ فرد الدفاع عن مصالحه الخاصّة، بقوّة، ونشدان الأمان والثروة .

لولا كلام اللّه لتردّينا إِلى حالة من الإِحباط والشعور بالذنب،

من جرّاء شعورنا بعجزنا حيال شروخ العالم .

و لتعرَّضنا أَيضاً إِلى غواية الثروة والسّلطة، والمكانة الإِجتماعيّة، والمتع الزائلة،

و ينتابنا الشكّ، فننقاد للتيّار .

إِنّ كلام اللّه معطى لنا كي نقرأه ونتأمّله، وأَيضاً لكي نصغي إِليه،

فالكلام الحيّ، عندما يتفجّر من قلب محبّ، يحمل سرّاً، وينطوي على جدوى،

و يُحدث في القلب المصغي فحوى قوله،

و يمتلك ما يشبه قدرة على التحويل،

و يُشيع الحبّ، والإِيمان، وحضور الروح القدس .

و هذا يحتّم على تلاميذ يسوع سماع كلامه، ونشره .

فقط عندما نكون على تواصل مع يسوع، تتسنّى لنا القدرة على العيش في تواصل مع الفقراء وعلى إِيتاء ثمر .

فهذه هي الصلاة : أَن نَرِدَ نبع يسوع فننهل،
أَن نجيء إِليه مجيئنا إِلى صديق، ونكون على تواصل حميم معه،
و نقيم في حبّه، ونثق فيه، ونتبعه، ونرتاح فيه .
الصلاة هي أَن نكون مشدودين نحو اللّه، في عبادة، وشكر، وتوسّل؛
و هي أَن نستكين إِلى اللّه، ونُشرِع له قلبنا وكلّ الزوايا الخفيّة والمظلمة، أَحياناً، من كياننا :
جروحنا، وإِحباطاتنا، وسورات غضبنا،
و جراح حياتنا الجنسيّة والعاطفيّة،
و عقلنا، وأَفكارنا، ومشاريعنا .
الصلاة هي دعوة اللّه إِلى احتلال كلّ أَجزاء كياننا،
و لا سيّما تلك التي نحتفظ بها لذواتنا، لأَنانا العميق،
هي أَن نعطيه كلّ شيء، لكي يغمره بنوره .
الصلاة هي الصراخ إِلى يسوع، وإِلى الروح المحامي " الذي يستجيب للصراخ "
عندما نضيق ذرعاً، أو عندما نكبو،
لأَنّنا نلمس أَلمنا وشروخنا،
هي أَن نقدّم كلّ أَلمنا، وكلّ أَلم العالم، معه، وبه، للآب؛
هي أَن ندع الروح القدس يتغلغل في كياننا الجريح،
لكي يوحّدنا من الداخل،
و لكي يعلّمنا أَن نحبّ مثلما هو أَحبّ؛
الصلاة هي أَن نكون على صلة بمركزنا الخاصّ، ونبع كياننا؛
هي أَن ندع يسوع يقطن فينا، وأَن نقطن فيه؛
هي أَن ننقاد ليسوع، راعينا الصالح،
و أَن نتغذّى بحضوره .

صانعو السلام

صانعو السلام الأَوائل هم البشر المحطّمون؛
فهم، حقّاً، أَنبياء زماننا .
صرخة أَلمهم، ودعوتهم إِلى الحبّ هما اللتان تشرعاننا على السلام .
فصرختهم المنبعثة من شروخهم هي التي تجتذب، وتسائل، وتزعج .
إِنّها صرخة تشفي وتجرح في آنٍ واحد .

كان يسوع قد قال : " عندما أرتفع عن الأَرض سأَجتذب إِليّ كلّ شيء "
جسده الجريح، جسد الحمل البرئ، يوقظ فينا مشاعر تعاطف وحقيقة،
و لكن، أَيضاً، مشاعر خوف .
فيسوع مزعج،
و الفقراء، الذين نشهدهم، يوقظون عطفنا، ولكنّهم، أَيضاً، يزعجوننا .
إِنّ الأولاد الأبرياء، الجائعين المذعورين، سجيني اليأس،
يحملون في ذواتهم قدرةً سرّيّة على الاجتذاب وإِيقاظ التعاطف،
و يجمعون في الوحدة أَشخاصاً مختلفين، مبعثرين .
و لكنّهم، أَيضاً، يفرّقون ويخيفون،
لأَنّ نداءهم يدعو إِلى تغيير نأباه .
و هنا نلمس سرّ يسوع الأَكبر، الكامن في أَناجيله .
فالفقراء، والضعفاء، ليسوا فقط موضع محبّة وإِحسان،
بل هم منبع حياة، وصانعو سلام وحقيقة !
و ما أَكثر الذين يرون في الفقير معضلة، وعبئاً يتعيّن إِزاحته أو إِزالته على أنّه مصدر موت وقنوط !
و لكنّ يسوع يكشف لنا أَنّنا إِذا اقتربنا من الفقير،
و التقينا به، قلباً لقلب، وعشنا في تواصل معه،
فهو الذي سيحوّلنا، بإِيقاظه فينا النور والتعاطف .

المحبّة تتجلّى في أَفعال صغيرة

يقول بولس أَنّنا، إِن قمنا بأعمال عظيمة وجميلة – حتّى من أَجل اللّه –
و تكلّمنا جميع لغات البشر،
و امتلكنا كلّ المعرفة، بل امتلكنا إِيماناً كفيلاً بتحريك الجبال،
و مع ذلك افتقرنا إِلى المحبّة،
فلسنا بشيء .
و المحبّة تتجلّى في أمور صغيرة،
في الاهتمام بالغير، والتواصل معه،
و قدوتنا في كلّ ذلك، يوسف ومريم ويسوع في الناصرة .
فهم يعلّموننا معنى أَن يكون المرء إِنساناً ومسيحيّاً .
قد يُمنى البعض بالخَيبة، إِذ يبدو لهم على جانبٍ من الصِّغَر والتفاهة .
أَن ينفقوا كلّ وقتهم مع بضعة أَشخاص معاقين ذهنيّاً،
و بلا جدوى، ظاهريّاً .
و لن نتمكّن من ذلك إِلاّ باكتشافنا وجه حياتنا التأمّليّ :
العيش في حضور يسوع، بعيشنا في حضور بشرٍ محطّمين،
مع الرغبة في أَن نكون إِشارة حبّ،
و إِيماننا بأَنّنا، مع كلّ تلك الوضاعة،
يسعنا أَن نُبهِج قلب الآب، ونمجّده،
و نكون، عبره، وسيلة تغيير .

دعوة العاملين في "السفينة"

دعوتنا جميعاً :
أن نعيش تواصلاً حميماً بعضنا مع بعض، ونعيش علاقاتٍ صادقةً ومُحِبّة،
و نكون صانعي سلام ومصالحة، ونسعى إِلى إِعادة صوغ جسم الجماعة البشريّة .
فبمجرّد كفاحنا المتواصل من أَجل إِعادة صوغ جسد جماعاتنا،
و عيشنا مع أَشخاص شديدي الاختلاف بعضهم عن بعض،
و مختلفين عنّا،
أَشخاص من أَجناس وطبقات متباينة،
ينتمون إِلى مختلف الكنائس والديانات، أو لا دين لهم،
هذا، وحده، إِشارة
تظهر للعالم أَنّ الاختلاف قد يصبح كنزاً؛
و أَنّه ليس محكوماً على البشريّة أَن تنبذ دائماً من هو مختلف،
و لا أَن تعيش في حالة حرب، فالسلام والوحدة ممكنان،
و لكنّهما لا يتحقّقان إِلاّ بفضل الحبّ المتفجّر من قلب من هو محطّم،
و يحمل في جسده الممجّد، إِلى الأَبد، الجروح التي أَحدثناها فيه : يسوع .
أَجل، بنضالنا من أَجل إِنقاذ حياة واحدة،
و بمساعدة شخص واحد على النموّ، وعلى الظفر بالحرّيّة والمشاركة،
إِنّما نكافح من أَجل البشريّة جمعاء، وجميع المسحوقين ...
و هكذا يصبح الفقير منبع حياة لا منبع موت،

يسوع هو حمل اللّه، الصغير، الفقير، المصلوب،
الذي أَتى ليرفع الخطيئة ويدمّر جدران البغيضة،
و يفتح القلوب للتعاطف والتواصل .
و هو يدعونا إِلى إِقامة عهد مع جميع الفقراء والمجروحين،
لكي نستطيع، معاً، الاحتفال بوحدتنا، وننمو في الحرّيّة،
فمجد اللّه هو كلّ إِنسان يعيش ملء حياته .

بيت عنيا

باشرتُ تدوين هذا الكتاب في سكينة دير رهبانيّ، تغمرني صلوات الرهبان،
و ها إِنّني أُنهيه في بيت عنيا، شرقيّ الأردن، على بعد بضعة كيلومترات من القدس .

كان بيت عنيا مكان راحة ليسوع، حيث كان يحبّ الاستكانة إِلى جانب مرتا ومـــريم ولعازر .
أَمّا اليوم فبيت عنيا مكان توتُّر، حيث شهدتُ، في أَثناء زياراتي القصيرة، أَلماً جمّاً .
فقد أَغلق العسكريّون جامعة بيت لحم، ولقي طلاّب حتفهم، قتلاً،
و ساد الغضب، والخوف والقنوط .
و في المدينة القديمة حُوِّلت بيوت عرب إِلى رماد .
و لقد باشرنا بتأسيس جماعة " سفينة " صغيرة، في بيت عنيا، في الحيّ المسلم،
على مقربة من الصحراء التي تفضي إِلى أَريحا .
و هناك استقبلنا "غدير"، وهي فتاة في الرابعة عشرة من العمر،
جسدها ملتوٍ منكمش على ذاته،
و عيناها داكنتان، حزينتان،
غير أَنّ جماد وجهها، وحزنه، وتعبه، سرعان ما قد تتحوّل إِلى إِشعاع سلام .
و عندما تقول، برقَّة : " أُحبّك "، تنير بسمتُها كلَّ كيانها .
قليلة هي كلماتها، ولكنّها كلمات حبّ .
و من وهنها يشعّ الحبّ .
إِنها زهرة مفرطة الصغر، قد تُسحَق بيُسر، تحت أَقدام السلطة السياسيّة والعسكريّة...
غدير مسلمة، وذووها فقراء مُرهَقون،
و جيراننا أَيضاً مسلمون : علي، وفطمة وأَبناؤهما السبعة،
إِنّهم يقيمون في طابقٍ فوقنا، وهم مالكو منزلنا .
إِنّهم لنا أَصدقاء، يوفّرون لنا الحماية والمعونة، ويهبوننا صداقتهم .
و في حين يسود، من حولنا، الخوف والعنف والنزاع على السلطة، حافلة بالضـــغينة والارتياب،
تنير بسمةُ غدير المتفجّرة من جسدها الهزيل، العالمَ،
فتغمره بالضياء، وتهدي إِلى طريق سلام وحقيقة .
أَخي، أُختي، أَنتما مدعوّان، على غرار إِبراهيم،

إلى هجر أسرتكما، وأصدقائكما، لكي تكونا جسراً، في عالم فرقة وحرب،
أنتما مدعوّان إلى اكتشاف حضور اللّه،
على محيّا غدير والكثيرين من أمثالها،
و إلى أن تكونا رجل وامرأة سلام ومصالحة .
على الدرب، ستحين لحظات ينتابكما فيها الشعور باللا أمان، والإرهـــاق، ويطغــى عليكما الخوف، والشكّ، والحيرة .
حينئذٍ تذكّرا أنّ يسوع هو الذي دعاكما إلى هجر عالم رفاه وأمان من أجل اتّباعه .
فأصغِ، اليوم، مجدّداً، بكلّ قلبك،
إلى نداء يسوع ونداء غدير :
" تعالَ، اتبعني،
تعالَ وأقم فيّ "
" لا تخَفْ، فأنا قوّتك وأمانك،
و منبع رجائك "

بيت عنيا كانون الأوّل 1986

" كلّ شخص تاريخٌ مقدّس "

TOUTE PERSONNE EST UNE HISTOIRE SACREE

PLON 1994

هذا الكتاب

من خلال مؤسّسات " السفينة " المنتشرة في القارّات الخمس، التقى جان فانييــه آلاف البشر الغارقين في مآزق مستعصية، ولامس، قعر الألم والمآسي، وشاهد أيضاً رجالاً ونساءً كانوا تائهين، مهجورين، محطّمين، يُبعثون إلى حياة جديدة . وقد ارتأى، بمناســبة الــذكرى الثلاثين لتأسيس " السفينة " أن يبوح بتجربته في هذا المضمار .

بلغة بسيطة وحسّيّة تطرّق إلى مختلف أوجه الوجود : أعمار الحياة، جراح الطفولة، المخاوف التي تعشّش داخل كلّ فرد، الجدار الذي يفرّق البشر بعضهم عن بعض، قوّة الحبّ، ودروب الشفاء .

هذا الكتاب بقلم واحد من أعظم وجوه المحبّة المعاصرين، هو عون لم يبتغون تعلّــم المحبّة، لكي يحبّوا الآخرين على نحوٍ أفضل .

منذ وهلة التقائه المعاقين الأولى أصغى باهتمام إلى تســاؤلاتهم القلقــة والوجيعــة المتفجّرة من أجسادهم المحطّمة : " هل تحبّني حقّاً، وتبتغي أن تكون لي صديقاً ؟ " : " لــم يرفضني أبواي ؟ ولمَ أنا مختلف عن إخوتي وأخواتي ؟ "

و منذئذٍ توغّل في دهاليز عالم الألم، وتملّى من أسراره، واكتوت به كبده، وبفعل هذا اللقاء، انقلبت مسيرة حياته .

لقد استبان أنّ همّ المعاقين الأوّل هو أن يكون لهم أصــدقاء يحبّــونهم، كمــا هــم، ويرتضون بالعيش معهم، غير عابئين بنفور " القوم الطبيعيّين " منهم، ووهبهم كلّ ذلك .

ثمّ وافى معاقون آخرون، واتّسعت " السفينة "، وتكاثرت البيوت الصغيرة التي تضــمّ أعداداً متكافئة من المساعدين والمعاقين عقليّاً، كلّ منهم يقدّم للآخر ما يملــك . فقــد اثبتــت التجربة للمراقبين المفارقة التي آمن بها جان فانييه، والتي عليها نهضت "الســفينة" و"إيمــان ونور"، وهي أنّ المعاقين عقليّاً، أيّة كانت محدوديّتهم الذهنيّة والبدنيّة، يمتلكون في مجال القلب والعلاقات، مواهب تفوق مواهب "الطبيعيّين"، في هذا الميدان فإعاقاتهم الذهنيّة يقابلها مزيــد من الثقة في الآخرين، ومن عيش ما هو جوهريّ، وانفتاح على حضور اللّه المحبّة .

فلئن كان من العسير عليهم، في مجتمعاتنا التنافسيّة التي تؤكّد على القوّة والجدوى، أن يجدوا لهم مكاناً، وإن هم صُنِّفوا في فئة الخاسرين، في شتّى المنافســات، غيــر أنّ شــغَفهم بالصداقة، وتواصل القلوب، كفيل بالتأثير في قلوب الأقوياء إن رضي هؤلاء الإصغاء إلى من يعدّونهم أدنى منهم .

"في مجتمعاتنا التي تتفتّت وتتداعى، في ميدان الفولاذ والزجاج والوحدة، يكوّن المعاقون ملاطاً قادراً على لمّ شمل البشر، ويكتشفون موقعهم الصحيح، حيث يلعبون دور شفاء القلوب، وتقويض الحواجز التي تفرّق البشر، وتحول دون عيشهم بسعادة "

و مع ذلك تبقى حياة المعاقين، في "السفينة"، وحياة المساعدين معهم حافلة بالمشقّة . فلطالما هم كانوا ضحايا الازدراء والعنف، ممّا حزّن في أَعماقهم الهواجس والثورة، وذكريات الأَلم .

هذه المشاعر الكامنة في نفوس المعاقين تحمل مساعديهم على تبصّر ما يخفونه هم أَنفسهم في أَعماقهم من عِقَد، وكبرياء، وعطش إِلى البروز وجراح غافية، ومخاوف دفينة تؤثر في كلٍّ منهم، في غفلةٍ عنهم . وتحملهم على تبيّن حقيقة ذواتهم .

في " السفينة " تعلّم جان فانييه الكثير، ورغب في اقتسام ما تعلّمه مع الآخرين من خلال هذا الكتاب، وهو يقول في هذا الصدد : "إِنّ سرد مسيرة حياة يستلزم وصف أَيّام لا تُحصى، أَيّام تتشابه وتختلف خلافات طفيفة، ويسلتزم رسم وجود على الورق، ولكنّها ستكون وجوهاً خلت من الحياة . لذلك أوثر أَن أكتب، وأَنا أَقرب ما أَكون من الحضيض، ما علّمتني الحياة، وما أومن به، خدمةً لمن يبحثون، ويتأَلّمون، ويحبّون " .

هذا الكتاب يؤكّد، سطراً إِثر سطر، وصفحةً إِثر صفحة أَنّ أَكثر ما يحتاج إِليه المعاق هو الشعور بتواصل حميم مع أَشخاص يحبّونه وهذا التواصل الكفيل بشفاء المعاق، نفسيّاً، كفيل أَيضاً بإِغناء قلوب من يتواصلون معه ويحنّون عليه، وغمرها بالفرح والسلام .

و يحلّل جان فانييه، العوامل المؤثّرة على الإِنسان منذ طفولته، والتي قد تعدّه للانفتاح والتواصل، أو تغلقه على ذاته وتزرع في نفسه الهواجس؛ ويؤكّد على واجب الإِصغاء المطلوب من الوالدين والمربّين . فالولد لا ينمو نموّاً سليماً ما لم يثق في من يعيش بين ظهرانهيم، والثقة تولد من الإِصغاء والصراحة، وانعدام الازدواجيّة . والطفل يحتاج، أَيضاً، إِلى أَن يثق الآخرون به ويحبّوه، ويولوه مسؤوليّة، ويهبوه استقلاليّة تتناسب مع سنّه ومؤهّلاته . ويتطلّب ذلك من الوالدين التحرّر من نزعة تملّك أَبنائهما، وأَن يكونا له، بسلوكهما، قدوة لما يرغبان في أَن يكون ابنهما عليه، ومنزّهين من الرياء .

و لن يعرف الولد الاستقرار النفسيّ إِلاّ بالإِيمان الحقّ، الذي هو حياة وحرّيّة وروح، لا مجرّد رادع وموانع؛ وبه يثق أَنّ اللّه وحده هو المطلق، وأَنّه يحبّه، وبذلك يستطيع تجاوز ما قد يكتشفه لدى والديه ومربّيه من عيوب ومثالب .

ويسهب الكاتب في دراسة فترة المراهقة بكلّ ما تنطوي عليه من تساؤلات ومخاطر وسخاءٍ وبطولة، ممّا يستدعي مواكبتها من قِبَل شخص ناضج خبير،

و يتطرّق، في تحليلٍ متبصّر دقيق، إِلى شتّى مراحل الحياة، وما ينشأ عن كلٍّ منهـــا من مصاعب وتطلّعات وإِمكانات .

و لكن، في جميع مراحل الحياة، يظلّ التواصل مع الآخرين هو أَساس الحياة السليمة الخصبة .

بالإِجمال هذا الكتاب هو من أَجمل كتب جان فانييه، وأَعمقها تحليلاً . وأَكثفها خبرة، وأشملها إِلماماً بالنفس البشريّة، وأَدقّها تشخيصاً لأوصاب مجتمعاتنا، ووصف العلاج لها .

الفصل الأوّل : *العطش إِلى التواصل الروحيّ*

تواصل روحيّ، وسخاء، وتعاون

أَكتشف أَنّ التواصل الروحيّ يختلف كثيراً عن السخاء، فالسخاء هو إِلقاء بذور طّيبة، والإِحسان إِلى الغير، وممارسة فضائل بطوليّة، وإِعطاء مال، وتفانٍ في سبيل الآخرين . والرجل الكريم قويّ، ذو سلطان؛ يعمل ولكنّه لا يدع أَحداً يمسّه، ويأبى أَن يُجرح، ولديه مهمّة يضطلع بها .

وكذلك يختلف التواصل الروحيّ عن التربية والتثقيف . فالتثقيف، إِن لم يكن مبنيّاً على المشاركة الحميمة، يساعد الآخر ويربّيه، غير أَنّ المربّي يظلّ متفوّقاً، فهو يعرف، والآخر لا يعرف.

في المشاركة الحميمة يعرّض المرء نفسه، ويدع الآخر ينال منه؛ ويتمّ تبادلٌ عبر النظرة واللمسة، وتجيء وتغدو موجة حبّ، وينشأ اعتراف متبادل قد يتفجّر احتفالاً وبسمات، أَو يتعمّق تعاطفاً ودموعاً . المشاركة الحميمة تقوم على ثقةٍ متبادلة يهب فيها الواحد الآخر ويتلقّى منه أَعمق ما في كيانه وأَكثره صمتاً .

و أَكتشف، أَيضاً، أَنّ المشاركة الحميمة تختلف عن التعاون، فالتعاون قد يجمع زملاء يعملون معاً في سبيل هدفٍ واحد؛ فعلى سبيل الشاهد، يعمل أَفراد مؤسّسة معاً في سبيل غاية مشتركة، غير أَنّ ذلك لا يحتّم قيام تواصل حميم بينهم . أَمّا في حالة التواصل الحميم، فقد يعمل أَشخاصٌ معاً، ويتعاونون، ولكنّ الهامّ لديهم ليس بلوغ غاية ملموسة، بل المكوث معاً، واستمداد فرح الواحد من وجود الآخر، والاهتمام بشأنه .

لقد أَدخلني، حقّاً، رافائيل وفيليب إِلى عالم التواصل الروحيّ هذا . فأَثناء عملي في البحريّة لم أَسعَ إِلى أَيّ تواصل حميم مع البحّارة، بل اقتصرت على أَن أَكون لهم آمراً، ورئيساً، فإِن هم أَبدوا وهناً، أَو تعثّروا، كان عليّ حلّ قضاياهم أَو معاقبتهم. وأَثناء عملي في التدريس تمثّلت مهمّتي في أَن أوضح للطلبة ما يتوجّب عليهم فعله أَو تلقّنه، وكان عليّ أَن أُصحّح، وأوقظ العقول .

أَمّا مع رافائيل وفيليب، فكان عليّ أَن أَخلق جوّاً دافئاً يسعنا أَن نعيش فيه معاً في شراكة روحيّة حميمة، عيشة أسرة . ومن ثمّ، سعيت، بلا كَلَل، إِلى اكتناه أَشكال التواصل الحميم الممكنة، ومبدأ هذا التواصل وغايته .

يتجلّى التواصل، أَوّلاً، في محبّة الأُمّ أَو الأَب لطفلهما . فبسمة الطفل ونظرته تغمران قلب الأُمّ فرحاً وكذلك تسعد بسمة الأَمّ ونظرتها قلب الطفل . إِنّهما يعلنان ذاتيهما أَحدهما للآخر . ولا أَحد يدري من يُعطي الآخر أَكثر الأُمّ أم طفلها .

و يتحقّق تواصلهما عبر اللّمس، والنظرة، واللعب، وعبر الطعام، والحمّام، والعناية .

إِنّ الأمّ تضحك، وتعبث، وتلاطف، فيجيبها الولد بالبسمة والضحكة، بفرحه ونموّ جسمه .

ما الذي يحدث من خلال هذا الحبّ المتبادل ؟ إِنّ الأُمّ أو الأَبّ يقولان لطفلهما عبر اللمسة والضحكة : " أَنت جميل، محبوب، وثمين وهامّ "، وكذلك يقول الولد لوالديه . فبنظرته، وضحكته يعلن لهما عن جمالهما .

لا ريب أَنّ هذا التواصل ما انفكّ، لدى الطفل، مشروعاً بدائيّاً، وليس ثمرة اختياره؛ وهو لا يندرج في وعيه العقليّ الذي لن يصحو إِلاّ بعد وقت طويل، بل في وعي حبّه . وما هو سوى تهيئة للتواصل الروحيّ الذي سيتمكّن من عيشه فيما بعد . أَمّا بالنسبة للأُمّ والأَب، فقد تُفسد هذا التواصلَ رغبتُهما في امتلاك ابنهما أو في استخدامه لردم فراغ عاطفيّ يعانيانه.

و مع ذلك فهذا التواصل هو واقع عميق البعد الإِنسانيّ، لا بل إِنّه يمثّل أَخطر عناصر الحياة، والنفسيّة البشريّة، ويشكّل القاعدة التي ستتيح لكلّ فرد أَن يلج، تدريجيّاً، إِلى تواصل مع واقع بيئته الإِنسانيّة، وواقع الآخرين والعالم، وأَن يرى فيهم أَصدقاء يسعه الاعتماد عليهم، لا أَعداء . إِنّ الطفل الذي لم يعش هذا التواصل من شأنه أَن يفقد الثقة في ذاته، ويعيش محاطاً بالخوف، ويبتدع أَنظمة دفاع وعداء كي يقي نفسه، بعد أَن يمسي له محيطه مكاناً معادياً، أو يبدو له كذلك .

و ليس التواصل اندماجاً تزول فيه الحدود بين شخصين، ويضيع فيه كيانهما . فالأُمّ تعرف أَنّ ابنها كائن، وتريد أَن ينمو ويصبح ذاته . والولد يؤكّد، باكراً، وجوده وإِرادته . غير أَنّ، ثمّة، أَنماطاً من التواصل الخاطئ التي تنجم عنها تَبعات وبيلة؛ فالأُمّ، مثلاً، تسعى إِلى التحكّم بابنها، عاطفيّاً، لكي تمنعه من أَن يكون هو ذاته، فتتمكّن من السيطرة عليه . وهكذا يتحقّق الامتلاك عندما يُغوي الطرفُ الأَقوى الطرفَ الضعيف ويستخدمه في سبيل احتياجاته العاطفيّة، ويجهد في الاستيلاء عليه، والاحتفاظ به لنفسه، والفزع إِليه لتهدئة اضطراباته وملء فراغه الخاصّ . وهو، بالتالي، لا يطيق تطلّعه إِلى الحرّيّة، ورفضه الانصياع، ولا تأكيده على غيريّته . إِنّه مَسْخٌ للتواصل يحدث غالباً عندما تعاني الأمّ نقصاً عاطفيّاً حيال زوجها . وفي هذه الحال، تتعرّض الأمّ لخنق حرّيّة الولد، ويُمثّل لها التغايُر خطراً .

و على نقيض ذلك، يستهدف التواصل الحقّ أَن يكون الآخر مغايراً، وينمـــو صـــوب الحرّيّة الداخليّة، وينمّي مواهبه . إِنّه هبة القلب لكي يكون للآخر كيان . إِنّه تقدمة طوعيّـــة، بحيث تسعد الأُمّ بأَن يصبح ابنها ذاته، وتكتشف في التغاير خير ما في الإِنسانيّة .

التواصل الحميم الحقّ لا يسجن الواحد في الآخر، بل يهب كلّ فرد الحرّيّة والحياة .

عندما نجتاز فترة وهن لا نحتاج إِلى خطابات رنّانة وأَعمال باهرة، بل إِلى حضـــور من يدنو منّا لكي يمسك بيدنا ويقول : " أَنا مسرور بوجودي معـــك " . وهكـــذا نتبـــيّن أَنّنـــا محبوبون، لا من أَجل ما نستطيع فعله، بل لما نحن عليه . وحينئذٍ ستنبعث من جديـــد ثقتنـــا بذاتنا .

عندما أَصدف متسوّلاً في الشارع أو في المترو، أَمدّ يدي إِلى جيبي وأَنفحه أَوّل قطعة نقود أعثر عليها، أَيّة كانت قيمتها . أُعطيه إِيّاها وأَنا أُحدّق فيه، وأَقول له بعض كلمات . وفي كلّ مرَّة تنبعث من ذلك المتسوّل نظرة خاصّة، وينطوي تبادل النظرات هذا على فترة تواصل تغذّي وتسعد كلاًّ منّا . إِنّ مجرّد نظرتي إِليه كفيل بإِعادة الثقة إِلى نفسه؛ فكلّ إِنسان فقد الثقة في ذاته، وتردّى إِلى عالم الكحول، والمخدّرات، والفشل أسرويّاً أو اجتماعيّاً، أو مهنيّاً يحتاج إِلى من ينظر إِليه على أَنّه كائن بشريّ، بحنان وثقة .

مثال إريك – لغة التواصل

من أَكثر من أَماطوا لي اللثام عن أَسرار التواصل شخص يُدعى "إِريك"، التقيناه في مشفى للأَمراض العقليّة، وكان في السادسة عشرة من عمره، أعمى، أَصمّ، مقعداً، لا يتكلّم ولا يقوى على إِطعام ذاته . كان مبتلىً بإِعاقة ذهنيّة بليغة . ومع ذلك، لم تكن أُمّه المسكينة تطيق احتمال آلام ابنها، ومن جرّاء عجزها عن مساعدته، كانت قد أوكلته إِلى مصحّة أَمراض نفسيّة، وهو، بعد، في الرابعة من عمره . وهو، في صغره وفقره، لم يكن يستطيع أَن يدرك لماذا لم تعد أُمّه موجودة، ولماذا بات يلمسه، أَحياناً في شيءٍ من العدائيّة، أَشخاص عديدون . لقد غدا تائهاً، واضمحلّت معالم الاستدلال القليلة التي كان يمتلكها، واعتراه الشعور بأَنّه وحيد في عالم عدائيّ .

عندما التقيت إِريك كان قد قضى اثنتي عشرة سنة في الأَمراض النفسيّة ويعاني افتقاراً عاطفيّاً رهيباً . كان قلبه يحاكي فراغاً كبيراً مليئاً بالاضطراب . كلّما دنوت منه كان يلمس يديّ أَو رجليّ، ويشرع يتشبّث بي، بصيحة نابعة من أَعماق كيانه، ويجأر ملتمساً لمسةً وحبّاً . وكانت صيحته كلّيّةً، وحادّةً، بحيث يوجع الاستماع إِليها .

و كان لا بدّ من الإِفلات من عناقه الذي يبدو وكأَنّه رغبة في الالتهام .

و من الواضح أَنّ المشرفين على المستشفى كانوا يعدّونه ولداً يُلحف في الطلب، ويطلب على نحوٍ خاطئ . كان شديد الاضطراب والتخبّط، بحيث لا تطيق الممرّضات احتماله، وقد تفاقم قلقه وعدوانيّته تفاقماً بات لا يحتمله هو نفسه ولا يحتمله الآخرون؛ فهو لا يستكين إِلى هدوء، سَلِس البَوْل، ويقوم بحركات عنيفة، وتصدر عنه، أَحياناً، صرخات رهيبة . وكان من الواضح أَنّ صورة مجروحة عن ذاته قد تكوّنت في داخله .

كان إِريك يعيش مأساة أولاد كثيرين يعانون إِعاقة شديدة، ولا يمكن احتمالهم، ويعجز غالباً ذووهم عن منحهم ما يحتاجون إِليه من حبّ وتواصل حميم، وعطف وعناية .

إِنّ الصغير لا يعيش إِلاّ بالتواصل الحميم، وبنظرة أُمّه، وحنوّ يديها . فهو، وحيداً، معرّض للخطر، عاجز عن الذود عن نفسه، ومفرط في الصغر، والهشاشة، وأَعزل . وعندما يشعر أَنّه غير محبوب، وغير مرغوب فيه، ولا مكان له، تنتابه آلام العزلة، ويعيش صدمات الخوف . إِن لم يكن محبوباً، ناعماً بحماية الحبّ، فهو يواجه خطر الموت؛ وهذه هي مأساة الولد المهجور؛ وشعوره بالوحدة والنبذ يوحي له أَنّه غير صالح، وغير جدير بالحبّ، ويعتريه شعور بالذنب لأَنّه موجود؛ ويدخل في دائرة الآلام الداخليّة المُفرَغة . وشعوره بأَنّه غير مرغوب فيه يزيده اضطراباً، وانحطاطاً، وعدوانيّة، فينغلق أَكثر فأَكثر، ويضطّر إِلى الدفاع عن نفسه، كما يستطيع، في عالم معادٍ .

عندما نستقبل، في "السفينة"، أَمثال إِريك، الأَمر الوحيد الذي يتعيّن علينا إِبلاغهم إِيّاه هو سعادتنا بوجودهم، وحبّنا لهم، وقبولنا إِيّاهم كما هم . ولكن كيف نبلّغهم وهم لا يرون ولا يسمعون ؟ لا يسعنا التصريح لهم بذلك، ولا الإِشارة بالإِيمآت . بل الوسـيلة الوحيـدة هـي اللّمس . وقد تسنّى لي قضاء سنة مع إِريك، عام 1981، في مركـز "الفورسـتيير"، عنـدما تخلّيت عن إِدارة جماعة السفينة، واتّضح لي أَنّ إِحدى فترات التواصل الفضلى كانت فتـرة الاستحمام، إِذ كان جسده الصغير العاري يسترخي ويتمتّع في الماء الـدافئ . وكـان عـارم السعادة بأَن يُمسّ ويُغسل . فاللغة الوحيدة التي كان يستطيع فهمها هي لغة الحنان عبر الأَيدي، لغة عذبة تضفي الأَمان، وتفصح له عبر جسدي وارتعاشاته أَنّه محبوب، وطيّب، وأَنّني سعيد بوجودي معه . وبلمسه كنت أَتلقّى الحنان الذي كان راغباً في منحه .

و هكذا يغدو الجسد أساس التواصل ووسيلته؛ فالتواصل يقتضي نمطـاً معيّنـاً مـن الإِصغاء، الذي يمكن تجسيده عبر النظرة واللمسة . ومن ثمّ، عبر النظر والإِنصات، يمكـن إِبلاغ الآخر أَنّه جميل، وذكيّ، وذو شأن، وفريد .

عندما نُصغي باهتمام إِلى ولد، فهو يكتشف أَنّ لديه ما يقوله، وهو يرغب في قوله في وقتٍ ما . ولكن إِن نحن لم ننقطع عن التحدّث، مردّدين باستمرار على مسامع الآخر ما يتعيّن عليه فعله، وتعلّمه، فسيعسر على هذا الآخر أَن يثق بنفسه.

اللغة الأَجلّ شأناً في سبيل التواصل هي لغة لا تعتمد على الأَلفاظ، بل على الحركـة والنظرة، ونبرة الصوت، ووضع الجسم، فهذه هي التي تفصح عمّا نُعير الآخر من اهتمام، أو عمّا نكنّه له من عدم اكتراث، وازدراء، ونبذ، ويغدو الجسم، لمن يعانون من إِعاقة في الكلام المنطوق، هو اللغة الجوهريّة . إِنّ الصراخ، والعنف، والحركات المدمّرة، وكـذلك حركـات الحنان، جميعها وسائل اتّصال تحمل رسائل .

الأُمّ تفسّر دائماً صراخ ابنها، فتقول : " إِنّه جائع؛ أَسنانه تنبت؛ إِنّه بحاجـة إِلـى أَن يُحَبّ ويداعَب؛ أَو إِنّه غاضب ... ". كذلك نحن، في " السفينة " نتعلّم قراءة الوجه، والعيون، ووضع الجسم، والصراخ، والاضطرابات، وكذلك مبادرات الحنان . وعندما يؤنس الإِنسـان العاجز عن التعبير بالكلام أَنّه مفهوم، وأَنّ رغباته تُلبّى، يولد فيه يقين جديد، اليقين بأَنّه كائن يتمتّع بحقّ امتلاك رغبات والتعبير عنها، كائن مفهوم واثق من وجوده، ومن التمتّع بالتقدير

لطالما غمر الأَشخاصَ المجروحين الحزنُ، ودفعهم القنوط بعمق نحو صورة سـلبيّة عن ذواتهم، ممّا يجعلهم يشعرون أَنّهم لا يصلحون لشيء . ولكـن، بالمقابـل، عنـدما هـم يكتشفون، من حولهم، الفرح، فهم يكتشفون، شيئاً فشيئاً أَنّهم منبع فرح وحياة وسعادة، وشيئاً فشيئاً تتحوّل صورتهم السلبيّة عن ذواتهم إِلى صورة إِيجابيّة . وعندما يتعلّق الأَمر بمراهقين أو بالغين، تتدخل لغة العقل موضحة الالتزام، والمسؤوليّة ومعنى التواصل الحمـيم، وحالّـةً

محلّ لغة الحبّ، أو لغة أَلفاظ فحسب . وحينئذٍ لا يعود التواصل تجربة عاطفيّة عـابرة، بـل تجربة تسجّل في تاريخ، وتفصح عن بذل الذات العميق الذي يستدعي الاستمراريّة والأَمانة . ولا بدّ من الكلام لإِيضاح كلّ ذلك . قد تحول، أَحياناً، الحميميّة الجسديّة، أو القبلة الخاطفـة، دون الكلمة الضروريّة لترسيخ التواصل الحميم بين البالغين .

فعلى سبيل المثال كان لا بدّ لي من التحدّث إِلى رافائيل وفيليب لكي أوضـح لهمـا التزامي حيالهما . فعقب قضائنا معاً ثلاثة أشهر في البيت الصـغير، استوضـحتهما حـول رغبتهما في المكوث، فأَجابا " نعم "، وحينئذٍ أَعرْبت لهما، أَيضاً، عـن " نَعَمـي "، قـائلاً : "بوسعكما البقاء ما شئتما، فهذا بيتنا ".

قد يتعذّر عيش التواصل في كلّ لحظة من نهار كثير المشاغل . ولكنّ لحظات عيشها خلال نهار مثقل بالمشاغل، هي لحظات امتلاء، ولكأنّ كلّ مهامّ النهار تبلغ ذروتها في نظرة، في ضحكة، في فترات صمت واسترخاء قد تتحولّ إِلى صلاة . ففي مركز " الفورسـتيير "، مساءً عقب العشاء، كنت أُلبس إِريك بيجامته، ثمّ نقضي نصف ساعة أو ثلاثة أَرباع الساعة، في الصالون، نصلّي جميعنا معاً، الأَشخاص المصابون بإِعاقة سحيقة، والمساعدون . وغالباً ما كنت أَجلس، وإِريك يستريح على ركبتيّ، وكنت أَتبيّن أَنّني، أَنا أَيضاً أَرتاح معه . لم أَكن راغباً في الكلام، بل كنت ساكن النفس، صامتاً في داخلي . وعليه أَيضاً كان يخيّم السكون . كان ذلك مثل فترة شفاء لي، أَستعيد فيها وحدتي الداخليّة . وعلى محيّاه كانت ترتسـم بسـمة سلام، ويزول عن جسمه التوتّر، وتغمره السعادة . كذلك الأَمر عندما يرتـاح الطفـل بـين ذراعيّ أمّه، فترتاح الأُمّ نفسها إِلى هذا التواصل . تلك هي فترات شفاء داخليّ لكلّ منهمـا، ولأَحدهما بواسطة الآخر .

و هذا ما يلاحظ أَيضاً بين قرينين، وفي الصداقة، حيث، إِثر حديث مستفيض، يحـلّ نوعٌ من بُرهة تواصل إِلهيّ يشعر فيها الصديقان بالارتياح إِلى وجودهما معاً، ويهبط علـى كليهما صمت يودّان أَن يدوم . بُرهة السلام والصداقة والتواصل هذه تصبح برهة وحدة حيث يكون الواحد مع الآخر في التواضع وبذل الذات . إِنّها برهة أَبديّة في عالم يتشابك فيه العمل والضجيج، والعدوانيّة، والحاجة الفرديّة إِلى تأكيد الذات، وتحرّي الجدوى . قلبان يخفقان في تناغم، ويهبان الحرّيّة لكلّ منهما؛ شخصان حاضران أَحدهما للآخر، ولكأنّ الوقت يتوقّـف. ومع ذلك لا يكتفي أَحدهما بالآخر . فالطفل لا يفتأ ينمو ويكتشف أَشخاصاً آخرين، ويكتشـف العالم؛ والأُمّ، من جانبها، تحتاج إِلى زوجها، وإِلى عملها الخاصّ، إِلخ ...

ليس الآخر اللّه، ولا يقوى على إِرواء عطش القلب البشريّ إِرواءً تامّاً . قد يكون أَداة يُعلن بها اللّه حضوره . وفترات التأمّل في السلام والتواصل هذه تحفر القلب البشـريّ لكـي يزداد كينونة، وعيشاً، وبحثاً وبذلاً . إِنّها قمّة، ولكنّها، أَيضاً، نقطة انطلاق .

ليس التواصل فترة صمتٍ مقدّس بين شخصين، فحسب، بل هو، فضلاً عن ذلك، مُناخٌ، وموقفٌ، وأسلوب عيش وكيان مع الآخرين . إنّه مجموعة أشخاص مرتبطين بعضهم ببعض، يُغنّون ويعبثون، ويحتفلون ويُصلّون؛ أشخاصٍ قد يكونون بعيدين بعضهم عن بعض في المكان، ولكنّهم يعرفون أنّهم مرتطبون بوشائج التواصل . لاريب أنّ هذه الوشائج تحتاج إلى أن تتجلّى، وتُغذّى بين حين وآخر، ولكنّها باقية عبر الزمان والمسافات .

ثمار التواصل

الطفل الذي يرتاح بين ذراعي أُمّه أَو أَبيه، والولد الذي يعبث مـع والديـه، ويبتسم ويضحك، هو إِيقونة للسعادة، جسمه مسترخٍ، ومحيّاه مشعّ، وعيناه تتألّقان، ويداه تتحرّكان تعبيراً عن الحبّ، يدرك أَنّه محبوب، وأَنّه، من ثمّ، كائن ذو قيمة، وليس وحيداً، فلا حاجة به إِلى الدفاع عن نفسه مع كلّ وهنه وصغره . إِنّه في أَمانٍ وسلام، وبوسعه أَن يعيش ويحبّ؛ وكلّ كيانه متّحد في هذا التواصل الحميم .

هذا التواصل الذي يوفّر فترة سعادة، يصوغ أَعماق نفسيّة الطفل، ويتيح له المضيّ قدماً على دروب الحياة واثقاً في ذاته، وفي الآخرين، وفي الكون . عندما أَزور المشافي، غالباً ما أُحبّ أَخذ الأَطفال المعاقين بين ذراعيّ . فهم عندما يكونون متروكين في عزلتهم على أَسرّتهم ذات القضبان المعدنيّة، يقبعون فارغي الأَبصار، حزيني المحيّا . فأَفتح سترتي، وآخذ الطفل بين ذراعيّ، وأَضمّ جسمه إِلى جسمي لكي يتلقّى دفأه، وخلجاته . وفي الحال يشرع جسمه ينبض، ويحرّك يديه فرِحاً، ويطفق يضحك . إِنّه يذكّرني بامرءٍ ظمآن في صحراء، يعثر على واحة، فيشرب، ويَشرب، ويصبّ الماء على وجهه، ويضحك فرحاً . إِنّ الولد في حاجة إِلى التواصل الحميم، وفي معزلٍ عنه يلقى حتفه .

استقبلت جماعتنا في الفيليبين فتاة تدعى هيلين، في الخامسة عشرة من عمرها، مفرطة القِصَر، عمياء، ملتوية الجسم، مشلولة الذراعين والساقين، وكانت قد أودعت في مصحّة منذ صغرها . وفي جماعتنا باتت تُعنى بها، في كثير من الحبّ والاهتمام، مساعدة يابانيّة تدعى " كيكو "؛ وقد اعترفت لي بأنّها كانت تلقى في ذلك مشقّة كبرى . فقد كانت هيلين منغلقة على ذاتها، وما كان يبدو عليها أيّ شعور من فرح أو من غضب؛ كانت معدومة الإِحساس انعداماً تامّاً .

و قد شجّعت " كيكو " على مواصلة حبّ هيلين، والتحدُّث إِليها برقّة، ولمسها بحنان، وقلت : " ذات يوم ستبتسم لك ". والتمست من "كيكو" أن تنفذ لي بطاقة بريديّة يوم ستبتسم لها هيلين .

بضعة أَشهر إِثر ذلك، تلقّيت بطاقة بريديّة جاء فيها : " لقد ابتسمت لي هيلين اليوم... مع محبّتي، كيكو ".

عندما يكفّ الولد عن عيش التواصل مع أُمّه وأَبيه، ويجد ذاته، وحيداً، بلا أَمان، يغرق في العزلة والاضطراب . وإِذ لا قِبَل له على مواجهة القلق، يغدو مثل طاقة مجنونة لا هدف لها، ويغشاه الاضطراب والضيق؛ وتزول شهيّته للطعام، وتتعطّل دورة نومه، فيتيه ويتلاشى سلامه ووحدته الداخليّة؛ وإِذا ما شعر الولد أَنّه غير محبوب، وغير مرغوب فيه، يتحوّل قلقه إِلى شعور بالذنب؛ وإِذا ما عومل بغضب تيقّن أَنّه مذنب ومسيء للآخرين . وتنتابه مشاعر تتخطّى طاقاته، فهو عاجز عن احتمال الآلام الداخليّة، والضيق والقلق والإِحساس بالذنب .

و عندما يكتشف الولد أَنّ التواصل عسير وأَنّه منبع أَلم، يعيش اختبار موتٍ داخليّ، ويرين عليه الشعور بأَنّ لا قيمة له . وحينئذٍ ينشأ لديه الشعور بالذنب وهو آلم شعور قد ينتابه : فإِن هو كان غير محبوب، فالسبب أَنّه سيّء، ومذنب في أَمرٍ ما . وسينسكب هذا الشعور على كلّ حياته، عاكساً صورة جريحةً لذاته .

و يتفاقم هذا الشعور بالذنب، عندما يولّد الغضب والرغبة في الانتقام حيال الوالدين، من جرّاء اضطرار الولد إِلى الاحتماء من غضبهما ورغباتهما التملّكيّة . وتغدو سورات غضبه، هو، إِشارة حياة، ولكنّها، في نفس الآن تخيفه . إِذ إِنّه يكتشف ذئباً في داخله قادراً على القتل وإِلحاق الأَذى . وهذا الإِحساس يضاعف شعوره بالذنب، ولا سيّما عندما يكتشف، من خلال صيحات هياجه، أَنّ هذا الذئب يأبى الاتّصال بأَيّ كان: " أَرفض الحبّ ! أَمقته، أَمقت أُمّي، وأَمقت أَبي، أَمقت أَخي الأَصغر، وأُريد تحطيم دُماه ! " . ويتحوّل العالم من مكان

تواصل إِلى مكانٍ عدائيّ . وإِذ يتعيّن على الولد أَن يدرأ عن ذاته قوى العدوان، يبادر إِلى العدوان، ويهاجم .

و ما هو أَخطر من الغضب والعدوانيّة لدى الطفل، ثمّة الشعور بالذنب في أَقصى درجاته، الذي يدفع الطفل إِلى إِلغاء ذاته، وإِيذائها، فينقلب غضبه عليه، ويتجلّى في سلوكٍ مدمّر .

و على نقيض البالغين الذين يفرّون من القلق والضيق بالانغماس في العمل، أو الفزغ إِلى الهاتف، أو إِلى صديق، أو إِلى مشاهدة التليفزيون، يلجأ الطفل إِلى وسائل حماية قد تحدث على نفسه أَضراراً بالغة؛ فقد يفزع إِلى أَغوار ذاته، مثلما فعلت هيلين، ويرفض أَيّ تواصل، ويكبت مشاعره، ويحرد . وقد خبرنا، جميعنا، مثل هذه التجربة؛ فعندما يصيبنا أَحدٌ بجرح، ننسحب إِلى داخل ذواتنا . ونأبى أَيّ اتّصال، أو يساورنا الغضب . السلوك الوحيد الكفيل بإِخراج هيلين من سجنها الداخليّ كان حبّ " كيكو " اللا محدود . فقد كانت تردّد على مسامعها : " إِنّني أُحبّك حبّاً جمّاً؛ ولست أَدينك، ولا أَغضب عليك؛ بل أحبّك فحسب " . وشيئاً فشيئاً تجاسرت هيلين على إِيلاء ثقتها .

و أَحياناً يلجأ الطفل إِلى وسيلة وقاية أُخرى، فيفزع إِلى الأحلام، ويلج عالماً خياليّاً هرباً من الواقع الذي يعني له آلاماً جمّة : واقع جسده، وواقع التواصل المحطّم، وواقعه مع أُمّه المتقلّبة المزاج، أو والده الغضوب .... كلّ ذلك شديد القسوة عليه، وهو شديد الوهن . وخياله حماية ممتازة في مواجهة الأَلم والواقع . وهكذا يفزع إِلى أَحلامه، ويخلق عالمه الخاصّ في منجاة من الآلام . ويختبئ في أَلعابه التي ما عادت أَلعاب تواصل، بل أَلعاب منافسة يحرص على الفوز فيها .

الحبّ المتملّك

استقبلنا في "السفينة" رجالاً ونساءً يعانون من إعاقات سحيقة، وقد باتوا فريسةً لأمّهاتهم المضطربات . والدهم، غالباً، غائب، أمّا الأُمّ فقويّة ومسيطرة؛ تفعل كلّ شيء في سبيل ابنها، وتظنّ نفسها مُحبّة من جرّاء تفانيها من أجله، ولكنّها، في الواقع، تسحقه، وتعجز عن الإصغاء إلى رغباته، أو على مساعدته على التقدّم . ألا تخبئ في لا وعيها الرغبة في أن يظلّ ابنها عاجزاً وتابعاً لها لكي تضطلع، هي، بأعمال رائعة، وتبدو أُمّاً طيّبة ؟ إنّ سحق حرّيّة الولد بفيضٍ من العاطفة، هو، غالباً، أسوأ من إهماله . وأُمٌّ من هذا النمط عليمة بالتحكّم بابنها، وبدفعه إلى العمل، عبر الشعور بالذنب، أو الرغبة في الفوز " بأشياء طيّبة " . ما ذلك سوى تواصل سيّء، اندماجيّ، خانق ...

إحدى المساعدات في "السفينة" تعلّقت تعلّقاً خاصّاً بامرأة معاقة تدعى ماري بيير، وحرصت على اصطحابها، في عطلتها، وعلى المبيت معها في غرفةٍ واحدة . ثمّ اتّضح لنا أنّها كانت تُمنى بالغيرة إذ ما أقدم سواها على تحميم ماري بيير، التي سعدت، بادئ الأمر، بهذا الاهتمام المفرط، ولكنّها، شيئاً فشيئاً، بدت وكأنّها شرعت تفقد بعضاً من فرحها وعفويّتها .

هكذا تغدو بعض علاقات من هذا النَّسَق وبيلة، لأنّها مُغلَقة وتفتقر إلى الحرّيّة والفرح . إنّ بعض أنماط التواصل التي تستمدّ حافزها من الشعور بفقدان الأمان أو من الخوف قد تقوى على ردم فراغٍ داخليّ، وتهدئة الهواجس، ولكنّها سرعان ما تنقلب مخدّراً، لأنّها لم ترقَ، بعدُ، إلى مستوى التواصل القائم على الثقة والمولّد للحرّيّة .

ثمّة ضربٌ من التواطؤ بين من يعيشون عواقب الفشل أَيّاً كان مركزهم : متسوّلاً، أو مدمن كحول، أو مُعدماً، رجالاً ونساءً مكتئبين، أو عاملين بـــلا كَلَـــل فـــي ســـبيل نجـــاحهم الشخصيّ، أَو في سبيل أَهدافٍ كبرى، من مدراء شـــركات، وسياســـيّين، ونجـــوم مجتمـــع، ومناضلين، إِلخ ... رغم المظاهر، تتشابه أُسُس نفسيّات هؤلاء جميعهم بكلّ ما يعتَوِرها مـــن تباين، وفروقٍ دقيقة . ثمّة، من جانب، انهيار نفســـيّ أَدّى إِلـــى الإدمـــان علـــى الكحـــول، والانحطاط، والشعور بالاضطهاد، ومن جانب آخر انهيار أَنتج ضرباً من الحاجة الملحّة إِلى إِنقاذ الآخرين، والظهور بمظهر البطولة، والظفر بالاعتراف، والعثور على الهويّة الشخصيّة في إِعجاب الآخرين، وفي السلطة والنجاح .

حول القلب الجريح، داخل كلٍّ منّا، أُقيم جدارٌ نفسيّ من شأنه إخفاء جروحنا، وتمويه فقرنا الجوهريّ، وإتاحة الفرصة لكلّ منّا كي يعيش ويصارع في سبيل بقائه، وألاّ يهوي إلى عالمٍ من الانهيار والثورة ...

خلف هذا الجدار المتواري في اللاوعي لا توجد فقط مظاهر سلبيّة، هي ثمرة التواصل المحطّم، بل هنالك بحث جوهريّ عن التواصل الحميم الحقّ، وطاقات الحبّ الكمينة . خلف ذلك الجدار يقبع كلّ ما هو أكثر إثخاناً بالجروح وأكثر قذارة في الكائن البشريّ، ولكن يقبع أيضاً أجمل ما فيه؛ ثمّة طاقة فرح وحبّ، ولكن ثمّة أيضاً خوفٌ جمّ من الحبّ والآلام المرتبطة به . وغالباً ما يعمل الكائن البشريّ انطلاقاً من هذا الجدار، ويهرب من أناه العدائيّ الباحث عن الاعتراف، ومن كلّ ما ينذر بالفشل وما يقلّل من شأنه؛ ومن ثمّ تتّسم أعماله بنوع من الأنانيّة الجامحة الملتصقة بجلده . فهو يعمل كي يثبت ذاته، ويضاعف إيجابيّة صورته، ومجده . فخوف الإنسان الأكبر هو أن ينتفي وجوده، وتُنكَر قيمته، ويُحكَم، ويُدان، ويُنبذ نبذ الأشرار .

هذا الجدار يُقصي الكائن البشريّ عن نبعه الخاصّ، فلا يعود مثل الطيور، وأسماك البحر، والعالم النباتيّ التي تنمو وتهب الحياة، انطلاقاً من ينابيعها الخاصّة . فالحيوانات لا تلبس أقنعة، ولا تتحكّم فيها الحاجة إلى النجاح، وتصفيق الآخرين واعترافهم، بل يعيش كلٌّ منها ببساطة وشفافيّة؛ لا ريب أنّه قد يتعرَّض لخطر، ولكنّه يبدو واثقاً في قدرته على أن يكون ما هو .

أمّا جرح القلب البشريّ فيحول دون أن يكون الإنسان ذاته ببساطة، إذ يجعل منه منافساً يحاول إثبات أنّه جزء من النخبة ويخفي حدوده الخاصّة، أو إنّه ينقلب ضحيّة، فاقد الثقة بنفسه، ومتعطّشاً إلى الحنان . وبانقطاعه عن نبعه الخاصّ، ينقطع عن نبع الوجود .... وينهار .

هذا الجدار الذي قد يكون محكم الإغلاق أو أقلّ إحكاماً، ومنيعاً أو قليل المناعة، هو نتيجة تاريخ كلّ إنسان ... وقد يكون ثمّة أولادٌ قد عانوا الكثير : الحواجز المحيطة بقلبهم ممعنة في الصلابة، وحاجاتهم إلى اعتراف الآخرين، وتمنّيهم بأن يكون لهم الأب والأمّ المحبّان اللّذان لم يعرفوهما قطّ، ممّا اضطرهم إلى تشديد الحماية على ذواتهم . ولكن قد تُقيّض لهم تجربة –ومضة نور– تساعدهم على اكتشاف أنّ التواصل الحميم والحبّ موجودان، وأنّهم محبوبون، كما هم، وقد يتمّ ذلك بفضل لقاءٍ عفويّ بمساعدة اجتماعيّة، أو زائر سجون، أورفيق سجن ... أيّ إنسان يتوسّم ما فيهم من خير، فيشرق النور . إنّ الجدار

النفسيّ ليس ثابتاً، صلباً، لا يتزحزح، بل هو قابل للتحرّك، وقد يضعف تدريجيّاً بحيث يتـــيح للمرء الاتّصال بمنبعه .

عواقب الجرح المتأصّل في القلب البشريّ، وبخاصّة قيام الجدار النفسيّ، تتجلّى وتؤثّر سلباً في العلاقات مع الغير . فنحن نؤثر الاتّصال بمن يداهنوننا، ويعترفون بنا، ويعجبون بمواهبنا، ونخشى من لا يعترفون بنا، ولا يولوننا ثقتهم، ويتوجّسون منّا خشية، ويحاكموننا ويتّهموننا، لأنّهم يكتشفون ثغراتنا وراء الأقنعة، والشخصيّات الزائفة التي نصطنعها بعناية .

إنّني أستشعر، دائماً، ضرباً من الغضب يتصاعد في داخلي، أثناء تحاوري مع آخر أكتشف أنّه متمترس خلف مواقف فكريّة وسياسيّة واجتماعيّة، وفلسفيّة، ودينيّة تختلف جوهريّاً عن مواقفي، وأتبيّن أنّه يتحدّاني . وما لم يكن، ثمّة، تواصل وتجاذب أعمق من تباين المواقف، أشعر بأنظمة دفاعي وبمواقفي العدائيّة تتحفّز، وأتبيّن أنّ نبرة صوتي تتغيّر، فلا تعود تعبّر عن الاستقبال والانفتاح، والإصغاء، والرقّة، بل تصبح أكثر وقاراً وعدائيّة . ما الذي يستفزّ أنظمة الدفاع هذه ؟ أهو الخوف من أن أكون مخطئاً، ومداناً ؟ أم الخوف من أن تُمَسّ آرائي المسبقة اللاعقلانيّة، ومن أن يُظَنّ أنّني محبوس في إيديولوجيّة أتحصّن وراءها .

في مثل هذه الفترات أُصبح أكثر فهماً للمصابين بمَرضٍ نفسيّ . فالقلق والاضطراب الداخليّ المفرطان يجعلان الاتّصال مُحالاً، إذ يبدو الاتّصال وكأنّه يضاعف الضيق، ويفضح العجز عن استقبال الآخر بسلام . وحينئذٍ يرفض المرء العلاقة، ويحتمي خلف جدرانه .

الإسراع إلى الحكم على الآخر، أو التحسّب من حكمه علينا، هما أيضاً عائق في درب العلاقة : لقد اعترف أحدهم : " أو إنّني أُسارع إلى تبيّن الثغرات في الآخر، وأدينه، وأنتقده، وأحطّ من شأنه، لكي أشعر بتفوّقي؛ أو يستولي عليّ الشعور بنقصي حياله فأرى جميع الطاقات والثروات التي يمتلكها وأفتقر إليها، فأحسده، وتراودني الرغبة في التقرّب منه لكي أستحوذ على ثرواته، ولكي أستخدمه لصالحي . ومن ثمّ ألقى مشقّة في عقد علاقة ندّ لندّ، وتواصل حميم قائم على التلقّي والعطاء بكلّ بساطة ".

إنّه من اليسير تقرّي مواطن ضعف الآخر، ولكن الجدار النفسيّ يمنعنا من رؤية مواطن ضعفنا . هناك عمود في عين كلّ منّا يقودنا إلى نكران جراحنا، وأوهاننا . إنّنا عميان عمّا نحن فيه .

العلاقات السطحيّة سهلة، ولكأنّها تزجية للوقت؛ فقد نشترك مع الغير بنشاطات متنوّعة؛ ومع ذلك قد يظلّ باب قلبنا محكم الإيصاد، نصدّ الآخر عن الدنوّ منه حقّاً، لكيلا نفضح هشاشتنا حياله، ولكيلا نكشف عن واقعنا .

و قد يحدث ذلك في النشاطات المهنيّة والنشاطات الخيريّة على السواء . فقد نحسن إلى الآخرين، ونعلّمهم، ونعالجهم، وننفحهم مالاً، ومع ذلك يظلّ قلبنا موصداً؛ نظلّ مثل رئيس

يعامل مرؤوساً، في منأى عن العطف . فالعطف يقتضي أن نـدع الآخـر يمسّـنا، بآلامـه، وبصحبة كيانه، بحيث يشعر أنّنا نفهمه، ونحبّه من أجل ذاته، فيفتَحَ قلبه الذي تستقرّ فيه الثقة . وحينئذٍ يصبح العلاج مجدياً، والشفاء وشيكاً . غير أنّ موقف العطف يستلزم وقتاً، وصـبراً، وإِصغاءً، وقدرة تقبّل كلّ فرد كما هو، فقيراً كان أم غنيّاً، سواءً كان يشبهنا أو يختلف عنّـا . وحينئذٍ نعالج الإِنسان المريض، وليس فقط عـلّته أو جزءاً من جسده .

ثمّة رجال ونساءٌ كَلِفون بعملهم، مجمّدون خلف كفاآتهم، وآرائهم، وكتبهم، عـاجزون عن الإِصغاء، وخاصّة عاجزون عن عيش تواصل حميم . ما الذي يخيفهم ويبقيهم في عزلة عن الناس ؟ هل تقذف العلاقة البلبال في نفوسهم ؟ هل هم يخشون علاقة تستحوذ، وتسـحق، أو تخنق ؟ لقد اضطرّوا إِلى الدفاع عن ذواتهم بإقامة حواجز صلبة في مواجهـة العلاقـات المهيمنة .

و التواصل خطر لمن يشعر أنّه على قدرٍ وافر من الضعف، والهشاشة، واللاأمـان؛ فيخشى أن يسارع من يدنو منه بعطفٍ إِلى تبيّن جراحه، وظلماته، ومواطن فقره، وينتهي إِلى نبذه؛ فيأبى التعرّض لآلام نبذٍ جديد، ويتمترس خلف حواجزه .

و يخشى آخرون مباشرة علاقة، خشية فقد السيطرة على الوضع، وإِيقاظ رغبات لدى الآخر تجعله يتشبّث بهم، فيخنق حرّيتهم واستقلاليّتهم؛ إِنّهم يخشون أن يلتهمهم فراغ الآخـر وحاجته اللامحدودة إِلى الحبّ، ويجرّهم إِلى حيث لا يرغبون.

****

و ثمّة علاقات تثير الاضطراب . وقد كشفت لي تجربة أليمة، في "السـفينة"، كشـفاً قاسياً، عالم الظلمات القابع فيّ . كان الأمر يتعلّق بلوسيان، وهو رجل معاق إِعاقة سـحيقة، مشلول الجسم، لا يقوى على كلام أو حركة، ولا على الاضطلاع باحتياجاته، وسَلِس البوْل . كان قد عاش ثلاثين سنة مع أُمّه التي عنيت به بكثير من الصبر والحنان، وكانـت تفهمـه، وتدرك مغزى أدنى حركاته، وصيحاته، وتستجيب لها بحبّ . كانت هي الشخص الوحيد الذي لمسه سحابة ثلاثين عاماً، فقد مات أبوه وهو طفل . وذات يوم أُدخلت أُمّه إِلـى المستشـفى، فكان لا بدّ من إِدخاله المشفى هو أيضاً، إِذ لم يكن من يُعنى به . لم يكن لوسـيان يفقـه مـا يحدث، سوى أنّه فُصِل، فجأة، عن تلك التي كان يحبّها، وأُغرق في عالمٍ مريع من البـؤس . شعوره بالهجران كان ينتزع منه صيحاتٍ يائسة . وهكذا انتهى إِلى مؤسّسة " السفينة " وقُيّض لي، إِثر تخلّيّ عن مسؤولية الجماعة، أنّ أَقضي سنة في مركز " فورستيير " الـذي اسـتقبل لوسيان وتسعةً آخرين مبتلين بإِعاقات سحيقة . وكان "لوسـيان"، أحيانـاً، يلـج فـي عـالم الاضطراب، ولا يعلم أحد ما الذي يثير نوبته . فيجأر بلا انقطاع، وكانت لصيحاته نبرة حادّة

تتسلّل إِلى داخلي مثل حدّ السيف، فلا أَقوى على احتمالها . أَهي كانت تــوقظ فـــيّ ذكــرى اضطراباتي وصيحاتي في صغري ؟ .

لم نكن نجد سبيلاً إِلى تهدئة "لوسيان"، أو إِلى مساعدته، والتخفيف من معاناته، عندما يتوتّر جسمه ويتصلّب، فنعجز عن ملامسته، ويتعذّر علينا إِعطاؤه عقاقير أَثناء نوباتـــه، بـــل ويتعيّن علينا أَن ننتظر، وحينئذٍ كنت أَشعر لا بتصاعد اضطراباتي القديمة، بل بجيشان العنف والحقد في داخلي، حيث كان يستيقظ عالم من الفوضى؛ كانت تساورني، أَحياناً، رغبة فـــي إِزالته، وقذفه من النافذة؛ أو كنت أودّ الهرب، ولكن يتعذّر عليّ ذلك من جرّاء تولّي مسؤوليّة في الجماعة، وكان يغمرني الخجل، والشعور بالذنب، والبلبال، وبمـــا أَنّنـــي كنـــت محاطـــاً بالمساعدين لم أَكن قادراً على الإِساءة إِليه أو ضربه، ولكنّني أَدركت سبب تعـــرُّض أَطفـــال لضرب أَب أو أُمّ مرهقين بوِقْر مشاكلهما الخاصّة .

و قد يتولاّنا الضيق حيال آخرين متحرّرين من المشاكل التي نعاني نحن منها، والذين قد يستثير مجرّد حضورهم اضطرابنا . فامرأة محبطة لأَنّها لم تُحَبّ، قطّ، كامرأة، فوظّفت كلّ طاقاتها في نجاحها المهنيّ، لا تطيق امرأة فتيّة شابّة جميلة، مرغوبـــة، محاطـــة بالإِعجـــاب والحبّ، لأَنّها تبرز ثغراتها ومواطن ضعفها . وأَمثالها كثيرون .

و من حيث لا ندري قد تثير خصالنا ونجاحاتنا وقوّتنا، مخاوف واضـــطرابات لـــدى الآخرين، إِذ تولّد فيهم مشاعر نقص أو عجز وانعدام كفاءة .

و قد نخشى عدوّاً قريباً منّا، أَحد أَفراد أُسرتنا، أَو جماعتنا، أو جوارنـــا، يثيـــر فينـــا الخوف، ويجمّد حركتنا، ويبدو وكأَنّه يمنعنا من الازدهار ومن انتهاج دروب الحرّيّة . ولكأَنّه يخنقنا، ويسحقنا، ويسلبنا الحياة، بحيث نتمنّى زواله عن البسيطة، عسانا نظفر بالحرّيّة .

و لكن علينا أَن نكتشف أَنّ العدوّ الحقّ ليس الآخر، بل شياطيننا الداخليّة، إِنّ عـــدوّي في ذاتي؛ ومن ثمّ عليّ السعي إِلى انتزاع الخشبة من عيني، كي أَستطيع انتزاع القشّة من عين الآخر، وتقبّل جرحي في معزل عن كلّ قناع .

و ممّا يحول دون علاقة سليمة بالآخر عجزنا عن قبوله كما هو، بكلّ ما ينطوي عليه من جمال ومن جراح في آنٍ واحد . فثمّة والدون يقتضون الكثير من بنيهم، وأزواج يتوقّعون الكثير بعضهم من بعض، وثمّة من يرسمون للآخر صورة مثاليّة، فإِن لم يتطابق الواقع مـــع ذلك الاقتضاء، وذلك التوقّع وهذه الصورة، أَدّت خيبة الأَمل إِلى نبذ الابن أو الزوج أو القريب أو الصديق .

إِنّ صورة الآخر الزائفة، صورة ما نودّ أن يكـــون، عـــائق فـــي درب التواصـــل، فالتواصل يضرب جذوره في الواقع، لا في الأَحلام، ولا يمكن التواصل الحميم مع آخر ما لم يُقبَل كما هو .

الفصل الثاني : *مراحل الحياة*

1- الطفل : سنّ الثقة

استقبلنا، في أَحد مراكزنا في هوندوراس، كلوديا، الفتاة الصغيرة العمياء المنطوية على نفسها، التي كانت قد أُودعت، منذ صغرها، في مصحّة نفسيّة؛ وقد انتهت إِلى جماعتنا، وهي في السابعة، بعد أَن فقدت جميع إِشارات استدلالها؛ كانت مخلخلة، محطّمة، رازحة تحت عبء اللا أمان، ولكأنّها مجنونة، تجأر ليلاً، وتلتهم ثيابها .

و قد اعتنت بها طائفة من المساعِدات، ومع كرّ الأَشهر والسنين، الحافلة، أَحياناً، بالمصاعب والخلافات، اكتشفت كلوديا أَنّها محترمة ومحبوبة، وأَنّ لها مكاناً؛ ووجدت الأَمان والثقة؛ والآن، بعد نحو عشرين عاماً، هي ما انفكّت عمياء ومنطوية على نفسها، ولكنّها ساكنة منسجمة، تعمل في مصنع؛ وأَظنّ أَنّها سعيدة .

إِنّ حياة كلوديا، شأنها شأن كلّ كائن بشريّ، هي جدليّة بين الأَمان واللاأَمان . فالإِفراط في الأَمان يخنق، إِذ لا يعود المرء يعيش، ويعاني رفاهاً مفرطاً، وتنتفي من حياته أَيَّة مخاطرة، ويتوقّف كلّ تقدّم . ولكن إِن كان، ثمّة، إِمعان في اللا أَمان بما يواكبه من مخاوف وهواجس واضطراب، فالمرء، أَيضاً، ينقطع عن الحياة .

إِنّ نموّ الولد المتناغم يستلزم أَن تتقلّص المخاوف والصدمات النفسيّة ما أَمكن، فهو يحتاج إِلى أَرضيّة صلبة تبعث الأَمان؛ وهذه الأَرضيّة هي، أَوّلاً، نوعيّة العلاقة مع الوالدَيْن أو من يقومون مقامهما، ونوعيّة العلاقة بين الزوجين، وهي، أَيضاً، كلّ محيط حياة الولد .

و بما أَنّ فترة الحداثة هي فترة الاكتساب، ينبغي أَن يستطيع الطفل المضيّ في اكتساب شيء إِثر آخر في معزل عن التناقضات . فهو لا يطيق أَن يقول له شخصٌ شيئاً، ويقول له آخر نقيضه . إِنّه يمتلك منطقه الخاصّ الذي يمكّنه من تبيّن التناقضات، ولكنّه لا يمتلك القوّة والحياة الداخليّة الكافيتين لاحتمالها؛ إِنّه يحتاج إِلى نوع من الاستمراريّة، والانتظام والتماسك . وبما أَنّه لا يملك في ذاته الأمان كي يمضي قُدُماً على دروب الحياة، فهو يلتمس هذا الأَمان في ثقة الآخر، وثقة والديه اللّذيْن يتعيّن عليهما حمايته، وإِرشاده والشدّ من إِزره، وحبّه .

هذه الثقة ترسّخ قواعد شخصيّته، وتُشعره بالأَمان، وتهبه الثقة في نفسه، والاستمرار، والقناعات التي تؤهّله لتقبّل الواقع واستيعابه، واكتشاف هويّته، وجذوره، ولغته، ودينه، وقِيَم أُسرته وتقاليدها . وعندما يدرك من هو، يستطيع اكتشاف ما هو مدعوّ إِليه .

هذه الثقة تقتضي تواصلاً وحواراً . فالطفل لا يعبّر عن رغباته بالكلمات فحسب، بل أيضاً بصيحاته، وجسده، وبلغة غير كلاميّة . وقد ترتّب علينا، نحن العاملين في " السـفينة " مع رجال ونساء، كثيرون منهم لا يتكلّمون، أن نتنبّه لهذه اللغة غير الكلاميّة ...

فكلوديا، مثلاً، لم تكن تتكلّم ولكنّها كانت تعبّر عن رغباتها، وغضبها، وآلامها عبـر جسدها وصيحاتها . وإن لم يُصغَ إلى رغبات الطفل أو لم تُفهَم رغباته هذه، فسـيحين وقـتٌ يحجم فيه عن التعبير عنها، وينكفئ على ذاته، ويموت داخليّاً . وهو يحتاج، لكي يعيش بالثقة، إلى الشعور بأنّ الآخرين يفهمونه، ومن ثمّ يترتّب على الوالدَيْن، أو القـائمين مقامهمـا، أن يكلّماه . وأسوأ ما يتعرّض له الولد هو الإحجام عن الخوض في بعض المواضيع معه، بحجّة عجزه عن فهمها، كأن لا يُحدَّث عن وفاة جدّته، إذ إنّه يقيم، حينئذٍ، في بلبال، ويغدو له العالم فوضويّاً، خالياً من المعنى . أمّا عندما يناقش معه والداه الأسئلة التي يطرحها، ويحدّثانه، فهو، حينئذٍ، يكتشف للعالم وللحياة معنى، ويولد لديه الرجاء .

إنّ الولد الذي لا يعيش علاقة ثقة، والذي لا يصارَح بشيء، يجد نفسه وحيداً، وحـدة رهيبة، وينكفئ خلف جدران الخوف والقلق، وتنقطع صلته بالواقع، وينزع إلى إخفاء ما يعتلج في صدره، ويتّخذ من الكذب وسيلة للعيش والبقاء . ولا تلبث أن تصبح لديه المواربة عـادة، وتصبح حقيقته الوحيدة هي تلك التي يخترعها .

الطفل في حاجة إلى تربية

يحتاج الولد إلى إيلاء البالغ ثقته، ويتعذّر عليه أن ينمو وينفتح بدافع الخوف، فالخوف انغلاق، والثقة والتواصل إنفتاح .

و الازدواجية هي أحد عوامل تدمير الثقة، فهي تكشف عن اختلال وعدم انسجام لدى الراشد ولا سيّما عندما يطالب الولد بأمر ويعيش نقيضه . فالولد غالباً ما ينزع إلى تقليد البالغ الذي أولاه ثقته، وإن هو اكتشف تناقضاً بين أفعاله وأقواله، وقع في بلبال، وتعذّر عليه التقدّم، واضطّر إلى الانكفاء على ذاته .

لبضعة سنوات خلت، حاورت مراهقين في نحو الخامسة عشرة يكابدون مشاكل، وخضت معهم مواضيع شائكة، إلى أن استوضحتهم : " وماذا عن المخدّرات ؟ " وكان ثلاثة منهم قد تورّطوا في عالمها، فاستدرجتهم إلى التحدّث عن تجربتهم، وسألتهم عن ردود فعل والديهم فأجابوا : " لقد استشاطوا غضباً " . وحدّق فيّ أحدهم بعينين حادّتين وقال : " يا سيّدي، إنّ والدي مدمن على الكحول !" وأحسست بكلّ ما يجيش فيه من غضب، ولكأنّه كان يقول لي : " كيف لوالدي أن يغضب منّي وهو نفسه مدمن على الكحول ؟ " هذه هي اللغة المزدوجة : قول شيء وعيش شيء آخر . لو كان الوالد قال : " يا بنيّ لا تفعل مثلي، فقد سبّبت لوالدتك آلاماً جمّة "، لكان أكثر صدقاً، ولأشرع للحوار فسحة .

إنّ الولد يرى كلّ شيء، ويعرف كلّ شيء، حتّى عندما يفتقر إلى المدلولات الفكريّة والألفاظ التي تتيح له التعبير بالكلمات عمّا يراه . وهو يتحسّس، خاصّة، التناقضات ومواطن الظلم التي تحطّم الثقة ...

إنّ إحدى العقبات التي يصطدم به الوالدون تكمن في تطوير تربية الأولاد وفقاً لنموّهم وأعمارهم . فقد يعاملون ابن السابعة وكأنّه ما زال في الرابعة، أو ابن العاشرة وكأنّه ما زال في السادسة، ومن شأن ذلك إشعاره بالمذلّة، والاعتقاد بأنّ والديه لا يُصغيان إليه ولا يفهمانه ولا يثقان به . ولطالما أغفل والدون مبادرات طيبة ومَحبّة يبديها لهم أولادهم، ممّا يؤدّي إلى جرح مشاعرهم .

و لكن عندما يدرك الولد أنّ والديه يحبّانه، ويفهمانه، ويثقان به ويسعدان بوجوده، وينفقان وقتاً للّعب والضحك والتحاور معه، فحينئذٍ يصبح أكثر تقبّلاً لملاحظاتهما، وتوبيخهما، وعقاباتهما الرامية إلى تربيته .

إنّ الولد بحاجة إلى استيعاب أنّ لبعض الأعمال حدوداً، وأنّ، ثمّة، ما يُدعى قانوناً، وأنّ ثمّة أفعالاً محظوراً عليه فعلها : فعليه مثلاً ألاّ يضرب أخاه الأصغر؛ وعليه، أيضاً، أن

يكتشف أَنّ عليه الاضطلاع ببعض أَعمال لمساعدة أَخيه الأَصغر، ويسعد بما يوفّر له فعلها من فرح، لا لأَخيه فحسب، بل أَيضاً لوالديه .

في غياب تربية حقّة، يخيّل للولد أَنّه أَصبح سيّد الموقف، فيصيح، ويتصرّف بعنف، ويحطّم دُماه، إِلى أَن يظفر بما يبتغي . وهو يدري ما عليه أَن يفعل كي يجتذب كلّ شيء، إِلى ذاته . وإِن لم يتّضح له أَنّ له حدوداً، فسيكون من العسير عليه أَن يرى في الآخرين أَشخاصاً لهم كيانهم، ولهم احتياجاتهم، وسيسعى إِلى أَن يظلّ دائماً سيّد الموقف، كي يفوز بما يشاء، ويكتسي هذا الموقف صعوبة وخطورة خاصّتين عندما يعيش الولد وحيداً مع أُمّه المفتقرة إِلى الحنان من جرّاء غياب الزوج أَو نأيه، ومن ثمّ تتعرَّض لأَن تكون تابعة، عاطفيّاً لابنها، الذي لا يلبث أَن يكتشف سلطانه عليها، وقدرته على التحكّم بها .

الأَمر الوحيد الكفيل بالحؤول دون جنوح الولد وضلاله، هو احترامه لوالديه وثقته بهما، ويقينه بأَنّهما يتمتّعان باستقلاليّة القرار، واكتشافه أَنّهما يحبّانه حبّاً كافياً يمكّنهما من أَن يقولا له " لا " عند الاقتضاء

التربية تستلزم الكثير من المثابرة والقوّة، لا القوّة البهيميّة، بل قوّة رقّة تتفجّر من التواصل الحميم والثقة، ممّا يولّد لدى الولد اليقين بأَنّه مفهوم، ومحبوب، وبأَنّ ذويه يتوخّون سعادته .

إِنّ العالم الأَهمّ في التربية هو التقليد؛ فعندما يكون الولد على علاقة حميمة بوالديه، ويوليهما الثقة، فهو يسعى إِلى التمثّل بهما، وبذلك يتعلّم لغة الحياة، وحركاتها الأَساسيّة . الوالدان هما النموذج الذي يتأسّاه، بحيث أَنّه يكتشف ويقلّد حتّى عيوبهما مثلما هو يقلّد خصالهما . فمن يحبّ شخصاً يسعى، بلا وعي، إِلى تبنّي مواقفه .

التربية من خلال وحدة الزوجين

ليس حبّ الولد مجرّد إقامة علاقة ثقة متبادلة معه، بل هو مساعدته على النموّ، وتحمّل المسؤوليّة، والتمتّع بالاستقلاليّة، وعلى أن يكون نفسه، حرّاً، قادراً على العمل في حبّ، وبالإجمال هو مساندته على أن يصبح كائناً مكتملاً . وقد ينقلب التعلّق بالولد عائقاً في سبيل نموّه، وتحمّله المسؤوليّة؛ وقد تغدو تربية مفرطة في العاطفيّة تحكّماً، وحينئذٍ يصبح التواصل امتلاكاً .

إنّ الولد يحتاج إلى الأمان، وإلى اليقين بأنّه محبوب، وإلى تشجيع والديه له على النموّ وتحمُّل المسؤوليّة ،و إلى الشعور بثقتهم . والتربية المثلى يوفّرها والدان متحابّان، تربطهما الرقّة والوحدة، ويحبّ كلّ منهما ولدهما لا انطلاقاً من فراغ عاطفيّ، بل من قلب ممتلئ، ويمارس كلّ منهما سلطته وفقاً لمواهبه الروحيّة الخاصّة التي تكمل مواهب الآخر .

إنّ الخلافات والشقاقات بين الزوجين تغرق الولد في اللا أمان والانشقاق الداخليّ، إذ إنّه يحتاج إلى كلٍّ من أبيه وأُمّه . وهو عاجز عن فهم الخلاف، وقد يظنّ أنّه هو سببه، فيعتريه شعور بالذنب .

لقد استقبل مركزنا في بوركينا فاسو الطفل كريم . كانت أُمّه قد لقيت نحبها عند ولادته، فأودع في ميتم؛ وعندما بلغ الثالثة من العمر أُصيب بالتهاب السحايا فعُزل عن سائر الأَولاد . وقد خلّف لديه المرض عواقب خطيرة، إذ بات عاجزاً عن الكلام والمشي، وأُصيب دماغه بعطب . وقد تُرك في الميتم وحيداً، طيلة سنوات عديدة، ولشدّة ضيقه شرع يضرب رأسه . ولمّا انتهى، أخيراً، إلى مركزنا، اكتشف، شيئاً فشيئاً، أنّه محبوب، وقادرٌ على الاضطلاع ببعض النشاطات، وولدت لديه الرغبة في العيش، وأَقلع عن ضرب رأسه . ولكن بضع سنوات إثر ذلك، نشب خلاف بين المساعدين، فعاد إلى سابق عهده، إذ إنّ فقدان الوحدة من حوله أغرقه في اللا أَمان والاضطراب .

إِحدى العقبات التي يصطدم بها الطفل هي قبول حدوديّة والديه . ففي فجر حياته، والداه هما له كلّ شيء، بل هما له اللّه، وكلّ حياته تمرّ عبرهما، فهما يطعمانه، ويحميانه، وينيرانه، ويدعمانه، ويهبانه الكلام . ثمّ تأتي خيبات الأَمل، وتؤدّي الخلافات، والصراعات، وسورات الغضب إِلى تحطيم التواصل الحميم وجرح القلوب، ويُخيّل إِلى الولد أَنّ لا أحد يفهمه، فيصبح عدوانيّاً، مكتئباً، ومهجوراً أَو مملوكاً . ويحطّ والديه عن العرش الرفيع الذي كانا يحتلاّنه في نظره، ليهوي بهما إِلى الهاوية . وحينئذٍ يجد ذاته مغرقاً في الوحدة، ويتعرّض لإِدانة نفسه . وقد يجد، أَحياناً، سنداً لدى إِخوته وأَخواته، وأَترابه في المدرسة، أوسواهم .

بيد أَنّ أَكثر ما يساعده على تقبّل عيوب والديه، هو إِيمان باللّه يجعله يدرك أَنّهما ليسا اللّه وأَنّ، وراء مواطن وهنهما، ثمّة عدلاً وحبّاً، ونوراً حقّاً، فيشعر، آنذاك، أَنّه ليس تحت حكم شريعة الأَهل أَو المدرسة أو المجتمع؛ وأَنّ الحياة ليست مجرّد واجبات تفرض ما ينبغي وما لا ينبغي فعله، بل أَنّها تواصلٌ حميم مع اللّه الكامن في قلبه، وهو إِله طيّب، حتّى عندما يفتقر الوالدان إِلى الطيبة، وإِله يصفح حتّى عندما لا يصفح الوالدان . هذا اليقين يؤهّله لوضع المطلق حيث يجب أَن يكون، لا في ذويه، أَو ثقافته، أو جنسه، أو في طبقته الاجتماعيّة، ولا حتّى في مستقبله، ومشاريع دراسته . غير أَنّ ذلك يفترض أَن يكون الولد قد انتهى إِلى معرفة للّه، عبر قلبه، وإِلى عيش تواصل حميم معه . وهو، حينئذٍ، يكتشف اللّه، لا على أَنّه ثمرة جهوده وخضوعه للشريعة، بل على أَنّه معين حياته نفسها . وقد يكون هذا التواصل الحميم مع النبع أَيسر منالاً للولد، لأَنّه أَقلّ ازدحاماً بالحواجز الداخليّة، وبالكبرياء، وبالحاجة إِلى إِثبات الذات والاكتفاء بها، وبالإِجمال لأَنّه أَقرب إِلى عيش التواصل الحميم .

إِنّ الإِيمان يتيح نموّ وجدان الولد الشخصيّ، ويؤهّله ليكون نفسه، وليكتشف أَنّه محبوب في ما يتخطّى والديه، وأَنّ له قيمة في ما يتخطّى المجتمع، وما قد يفكّر به الآخرون أو ما قد يبتغونه منه، ويمكّنه من تنمية حرّيّته الداخليّة، فلا يعود في حاجة إِلى أَن يعيش، فقط، في نظر الآخرين، وعبره .

و لكن، لكي يحيا الولد في الإِيمان لا بدّ من أَن يبلّغ هذا الإِيمان على أَنّه حياة وروح . أَمّا إِذا اقتصر الإِيمان على كونه خادماً للأَخلاق والنظام العامّ، عوضاً عن أَن يكون وسيلة للتواصل الحميم والحبّ، فهو يصبح طاغوتاً، ويشعر معه الولد أَنّ والديه يبتغيان من تعلّمه الدين أَن يمسي عاقلاً وأَكثر إِطاعة لهما، وحينئذٍ يصبح الدين خانقاً، ولا يتعدّى كونه مجموعة شرائع ينبغي الخضوع لها، ويتبيّن الولد ما ينطوي عليه ذلك من رياء، فيأبى ديناً زائفاً يخدم

سلطة مراقبة . في حين أَنّه عندما يكتشف أَنّ الإِيمان هو ثقة في كائن يتخطّى ذويه، يُشرع قلبه على تواصلٍ شامل .

و لا يسع الوالدين أو سواهما إِبلاغ الإِيمان إلاّ إِذا تبيّن الولد أَنّ إِيمان والديه (أَو سواهما) يجعلهم أَوفر تواضعاً ومحبّةً، وصبراً، وثقةً، وطيباً، ويدفعهم إِلى الاستغفار إِن هم كانوا قساة، ظالمين، منتقدين، أو مرائين، أو إِن هم أَنفسهم لم ينفّذوا ما يقتضون منه . فالولد شديد الحساسيّة تجاه الحقيقة، والشعور بالرياء، والكذب والظلم .و لا يقوى على إِدراك كيف يستطيع والداه اللذان يدّعيان الإِيمان العيش على نقيضه . ولذلك يرفض الكثيرون من أَبناء حقبتنا الدين، على أَنّه خاوٍ من القِيَم الإِنسانيّة، ومجرّد وهم .

2- المراهقة : سنّ البحث، والسخاء، والمُثُل

فترة المراهقة فترة غنيّة جدّاً؛ إنّها فترة البحث والانتقال من أرض " الأُسرة الموهوبة "، إلى " الأُسرة المختارة " . فترة تتّسم باللا استقرار، وأحياناً بالخوف، ولكن، أيضاً، بالرجاء .

و المراهقة هي حقبة الصداقة، فالأصدقاء هم الوسيط بين دفء الأُسرة وحمايتها والأرض الجديدة التي لم يتمّ اختيارها بعد . الصداقة ثروة؛ وهي تفتح القلب، وتمنح الأمان، وتولّد الجرأة والإقدام . ولكن من المحقّق أنّ الشبّان قد ينكفئون خلف جدران الصداقة، ويرتاحون إلى وجودهم معاً، وهكذا يتوارون عن البالغين، ويخبئون إحباطهم، وينزعون إلى تأليف عصابة مستقلّة .

المراهقون في طريقهم إلى هجر أرض الأسرة التي وُهبوها، ونشدان أرضٍ جديدة يغرسون فيها جذورهم . وفترة الانتقال هذه هي بمثابة عبور وسفر . إنّهم يبتغون لحياتهم معنى، وإذ يغادرون ذويهم يتطلّعون إلى الأفضل، والأجمل، والأكثر جدّة، وينشدون لحياتهم مثلاً أسمى .

قد تجيش الثورة في قلوب مراهقين يرفضون قِيَم آبائهم، وينتفضون على المجتمع الذي يعدّونه مرائياً، ويستولي عليهم شعور بالخيانة، ويبدو لهم أنّ المجتمع، في تنظيمه المفرط، يفسح لهم مكاناً .

إنّني، اليوم، أشعر بالتأثّر حيال شبّان تحدوهم مُثُل عليا سخيّة؛ مُثُل عدل للبلدان الأكثر فقراً، ومُثُل حماية البيئة، مُثُل روحٍ ورحمة، أو مُثُل سلام .

كثيرون منهم متأهّبون للتضحية برفاههم الشخصيّ لكي يوظّفوا ذواتهم في منظّمات إنسانيّة . غير أنّ بعضهم محبَطون ومنكفئون داخل إحباطهم، في حين أنّ سواهم يودّون إقرار النظام في مجتمع يتفتّت، بانتمائهم إلى حركاتٍ سياسيّة ودينيّة محافظة محكمة التنظيم .

و توحي لي خبرتي أنّ، ثمّة، نمطَيْن من المُثُل : فمنها ما هو موجّه نحو الأفكار والبنى، ومنها ما هو موجّه نحو الأشخاص . الفئة الأُولى تنزع إلى النضال، وتسعى إلى إصلاح بنى المجتمع، متّكئة على تنظيم جيّد . أمّا الفئة الثانية، فتؤكّد على الإصغاء، والحضور، والعطف . والشبّان الذين يلتزمون تجاه أشخاص، يميلون إلى التوغّل في صميم الواقع البشريّ، أكثر من الذين يلتزمون بآراء وبُنى .

إنّ وعي بعض الشبّان للفوضى المتفشّية في داخلهم تزيد من حدّة شعورهم بفوضى العالم؛ وهم شديدو التحسُّس لما ينجم عن الانقسامات العائليّة، وعن الخلافات بين والديهم، من

فرقة وتشوّش، تجعلهم تائهين، معطوبين . وبعضٌ منهم تمزّقهم رغباتهم الجنسيّة وخشيتهم من الموت .

ليس تعلّم الحياة الجنسيّة السليمة بالأمر الهيِّن؛ وإن كان كلّ فرد يعاني من جروح في علاقاته مع الآخرين، فقد يعاني من جروح أعمق في حياته الجنسيّة .

إنّ عالم الجنس معقّد، وقد تسفر العلاقة الجسديّة عن وهم بالتواصل الحميم، أو عن خيبة الأمل، والانفصال، والتعاسة، وهي، حينئذٍ، تصبح مدمّرة للذات وللآخر . إنّ المتاجرة بالمشاهد الإباحيّة، والتعدّيات الجنسيّة، والاغتصابات، تظهر كيف يمكن أن تتحوّل هذه القدرة الجميلة عندما تكون هبة القلب في خدمة الحياة والتواصل الروحيّ والعاطفيّ، إلى أداة موت .

و خير دليل على ذلك مرض السيدا، حيث يؤدّي السائل المنويّ والدم، وهما عنصرا الحياة، إلى الموت . ولا عجب بالتالي إن وقف عالمنا موقف حيرة وضياع إزاء هذه القدرة التي تبدو فوضويّة .

بيد أنّ لدى الكثيرين، منذ شبابهم، حدْساً بأنّ للجنس طابعاً قدسيّاً، فيرفضون الاستسلام لأيّ كان، مؤمنين بأنّ الحياة الجنسيّة البشريّة تنطوي على علاقة مقدّسة .

إنّ بعض الشبّان يميّزون بجلاء بين الحبّ الصادق والحبّ الزائف، وفي ذلك تكمن منعتهم . فهم سرعان ما يتبيّنون الرياء والخطابات المزدوجة، ويمتلكون، أحياناً، حكماً صائباً . وغالباً ما ينجم ألمهم عن شعورهم بالوهن، والعجز عن المضيّ نحو النور، بل يجتذبهم شيء آخر . ويصيبهم عدم امتلاكهم القدرة على الحبّ بالإحباط .

ثمّ هناك اضطراب يسبّبه الموت الذي يبدو أمراً منفّراً لا يطاق، ودليلاً على ما يغشى عالمنا من خواء، ويبعث على التساؤل عن جدوى السعي نحو المُثُل، والحبّ، طالما سينتهي كلّ ذلك إلى الموت .

كثيرون من المراهقين، مع كلّ ما يرهقهم من هشاشة، يودّون أن يعيشوا ملء حياتهم . فالحياة، في صيغتها بحثاً ورجاءً، قويّة فيهم .

إِنّهم يبتغون بناء المستقبل، وتبوّء مكانتهم في العالم عبر مَثَلٍ أَسمى . هشاشتهم الذاتيّة التي يزيد من حدّتها شعورهم بالفوضى السائدة في داخلهم وفي خارجهم تدفعهم نحو مثلٍ أَسمى ونحو نظام يساعدهم على بلوغه، فهم عالمون أَنّهم لا يمتلكون لا القوّة ولا التجربة الضروريّتين للسير بمفردهم، وأَنّهم يحتاجون إِلى تربية إِنسانيّة وفكريّة وروحيّة، وإِلى نظام يؤازرهم على الانضباط وبلوغ المثل الأَعلى .

و لا عجب إِن انزلق بعضٌ منهم نحو البِدَع . فهم يستمدّون من صلابة قوانين البدعة، ومن اليقين الذي يستوحونه من الزعيم والفريق ما يبعث الاطمئنان في هشاشتهم واضطرابهم . وليست الحركات السياسيّة والدينيّة الأَقلّ اقتضاءً هي أَكثر ما يجتذب شبّان اليوم، إِذ إِنّ معظمهم يتوخّون أَن يجعلوا من حياتهم شيئاً جميلاً، ويبحثون عن مكان يجدون فيه لوجودهم معنى، ويتلقّون ثقافة إِنسانيّة وفكريّة جادّة، ونظاماً يساعدهم على مزيدٍ من الكيان . فهم يعملون أَن تحقيق شيء جميل في الحياة يقتضي الجهد، والخضوع لمقتضياتٍ ونظام .

هؤلاء الشبّان ينشدون شهوداً حقيقيّين يعيشون ما يبشّرون به، ومرشدين صادقين من شأنهم أَن يكونوا الوسيط بين ذويهم، وحياتهم العائليّة، وحياتهم في المجتمع، ومرشدين يساعدونهم على استيعاب النظام، واكتشاف أَنّه ليس نظريّة مجرّدة، بعيدة المنال، تهبط من علُ، بل هو مسجّل في صلب الواقع البشريّ . قد يبدو النظام أَحياناً صارماً، ولكنّه ضروريّ لازدهار الكائن البشريّ، وللظفر بهويّة واضحة المعالم، مع الحرص على الانفتاح على الآخرين مثلما هي ضروريّة القوانين والأَنظمة في الرياضة وفي التعليم .

أَنا، شخصيّاً، نعمت بدعم الأَب توما فيليب، إِثر هجري البحريّة عام 1950 . وأَتمنّى أَن ينعم الكثيرون من الشبّان بمثل هذا الدعم . لقد كنت في حاجة إِلى مثل تلك القدوة التي ساعدتني على اكتشاف أسلوب توجيه حياتي، وفي حاجة إِلى مثل ذلك الأُستاذ في الإِنسانيّات والفلسفة كي يساعدني على تثقيف عقلي، وفي حاجة إِلى ذلك الأَب الروحيّ الذي آزرني في مسيرتي الإِيمانيّة، وأَحبّني وأولاني ثقة بنفسي .

جمال المراهق وفقره

المراهقون هم، تارة، متسامحون تسامحاً مدهشاً، وتارة، غير متسامحين على نحوٍ مخيف . كثيرون منهم متسامحون، بيد أنّ تسامحهم هو، أَحياناً، ثمرة خيبة أَمل في مَثَلٍ أَسمى، بحيث فقدوا الإِيمان بأَنّ الأُمور قد تسير إِلى الأَحسن، وفقدوا العزيمة على النضال في سبيل عالم أَفضل . وبتخلّيهم عن مُثُلهم قد ينجم تسامحهم عن شيءٍ من خيبة الأَمل، والقنوط، أَو عن بعض انغلاق، وانعدام ثقة في البالغين .

و بعضهم متزمّتون تزمّتاً مريعاً، ينتقدون الجميع، وقد يمعنون في التعصّب والقسوة، وقد يقفون من الغرباء موقف نبذ وعنف؛ وقد ينغلقون في قوانين وقناعات، في معزل عن أَيّ انفتاح، ومن غير أَيّة محاولة للتفاهم .

إِنّ فترة المراهقة تنطوي على جمالٍ حقّ، فهي زمن البحث والانفتاح، والمُثُل، والسخاء والبطولة، والزمن الموجّه صوب المستقبل . وفي المقابل للمراهقة مواطن وهنها وفقرها : فثمّة الخوف من التقدّم، وانعدام الثقة بالذات، والخشية من الفشل، وجميعها تفضي إِلى الانغلاق، والإِحجام عن البحث . وقد تتحوّل تلك الفترة إِلى زمن خوفٍ عارم ووهن مريع، إِذ يصعب، أَحياناً، الاستقرار فوق أَرض صلبة، أو اتّخاذ قرار .

إِنّ مستقبل حقبتنا، سياسيّاً واجتماعيّاً، يبدو متقلقلاً . فكثيرون هم الشبّان العاطلون عن العمل . وفي الآن عينه أَمام الشبّان فسحة لاختيارات لا عدّ لها، وتستهويهم إِغراءات كثيرة، وقد يريدون، أَحياناً، كلّ شيء، وفي الحال، بلا تريّث ولا جهد. فالاختيار هو بعض موت، وهو تخلٍّ عن وقائع أُخرى، ممّا يجعل القرار عسيراً .

إِنّنا في عالم دائم التحوّل، حيث كلّ شيء يبدو مؤقّتاً، وكلّ شيء قد يتغيّر. والتليفزيون يُظهر دائماً مواقف حديثة، واختراعات وتقنيّات جديدة . فهل من ثابت بعدُ ؟ وإِذن، ينزع شبّان كثيرون إِلى عيش اللحظة الحاضرة، وتجربة اليوم القويّة .

و من ثمّ تتعيّن مساعدتهم على امتلاك قدر كافٍ من الثقة في ذواتهم من أَجل الاختيار، بارتضاء بعض الانسلاخات، وانتهاج درب السلام والتواصل، مع كلّ ما قد يقتضي من صراعات . ينبغي مساعدتهم على عيش أَمَل .

3- سنّ الرشد : سنّ التجذّر، والخصب، والمسؤوليّة

العثور على أَرضيّة

في " السفينة " شرعتُ أُدرك معنى حياة البالغين، فالسفينة تستقبل العديدين من البالغين المصابين بإِعاقة عقليّة الذين سرعان ما يقفون على أَرضيّة ثابتة، عقب فترة اطمئنان ونموّ. وتستقبل " السفينة "، أَيضاً، الكثيرين من المساعدين الذين تتراوح أَعمارهم بين ثماني عشرة وثلاثين سنة، لقضاء فترات تتراوح بين ثلاثة أَشهر وثلاث سنوات، وهم ما برحوا يختبرون، ويبحثون عن أَرضيّة نهائيّة، يفتقرون إِليها . ويعسر على بعضهم التجذّر في أَرض، إِذ إِنّ الإِمكانيّات المفسوحة كثيرة، وهم، بالتالي، يتلكّؤون في اتّخاذ قرار .

للكثيرين، مثلما هي كانت حالي، يمثّل الالتزام بالحياة المهنيّة الالتزام الأَوّل، فالمهنة توفّر نوعاً من الهويّة، وهي تُختار في مرحلة المراهقة، وهي مرحلة التثقيف، وتضفي نوعاً من التثبيت على من يظفرون بعمل . والكفاءة تبني الكيان، وتؤهّل المرء لتبوّء مكانته في المجتمع، وتؤمّن له راتباً يضمن معيشته .

و هنا نلمس مأساة شبّان وشابّات عاطلين عن العمل، ممّا يضع هويّتهم الناشئة موضع تساؤل . إِنّ الشخص الذي اتّضحت معالم شخصيّته، يتأَلّم، لا ريب، من البطالة، ولكنَّه يكون قد خَبَر، من قَبل، كفاءته وقيمته . بيد أَنّ هذه ليست حال الأَشخاص الأَكثر فتوّة والذين قد يرميهم فشلهم في إِثبات ذواتهم من خلال عملٍ معترفٍ به، في التيه والضياع .

شبّان آخرون يبنون ذواتهم ويستقرّون من خلال قِيَم الحياة : قِيَم أَخلاقيّة أَو اجتماعيّة، أَو فكريّة أَو دينيّة . وهذا الاستقرار يتدعّم ويُصبح واقعيّاً من خلال الانخراط في حركات سياسيّة أَو اجتماعيّة أَو دينيّة؛ وحينئذٍ يكون الشبّان قد عبروا من الإِيمان والقِيَم التي تلقّوها من ذويهم إِلى إِيمان وقِيَم شخصيّة، واتّخذوا خياراً فيما يتعلّق بهذه القِيَم، وانتقوا أَصدقاءهم وفقاً لذلك .

بيد أَنّ النضوج الإِنسانيّ الحقّ يتحقّق من الالتزام والمسؤوليّة حيالَ أَشخاص، فمثل هذا الارتباط يُلزم، ويثقّف ويفتح القلب والروح . وأَكثر الالتزامات شيوعاً هو التزام الرجل والمرأة بتكوين أُسرة؛ وثمّة، أَيضاً، الالتزام بحياة جماعيّة، والتزامات اجتماعيّة وإِنسانيّة مستوحاة من حبّ الأَشخاص الفقراء والمحتاجين . واختيار هذه الالتزامات النهائيّة ينطوي على انسلاخ وعلى مخاطرة.

انسلاخ متمثّل في الإِحجام عن نشدان اختبارات أُخرى، وفي التخلّي عن حرّيّة عمل أَيّ شيء؛ فالرجل الذي يتزوّج يتخلّى عن ملايين النساء الأُخريات؛ أَمّا المخاطرة فتكمن في

جهل ما ستؤول إِليه الأُمور، إِذ قد يتغيّر الآخر (والآخرون)، أو يعتلّ، أو يخون؛ وقد يتغيّر الإِنسان نفسه؛ وما أَعسر الخيار النهائيّ في عالم كلّ شيء فيه يتغيّر ويتحوّل بسرعة !

و يحين وقت في الحياة، (وهو، في حقبتنا، أَقرب إِلى سنّ الثلاثين منه إِلى سنّ العشرين) حيث يؤنس المرء ما يشبه دعوة إِلى غرس جذور لكي يؤتي ثماراً، ويعطي الحياة، فقد ملّ من الرِّيَب، واللا استقرار، والبحث، والحركة، وبات يتطلّع إِلى التوقّف، وإِلى الالتزام، أَخيراً، مع شخص يكون له رفيق درب أورفيقة درب، لما تبقّى من الحياة، أو إِلى الالتزام مع آخرين في حياة جماعيّة، حيث يتسنّى صوغ الذات وفقاً لمَثَل أَسمى، وهو مدرك أَنّه لن يعيش مع شخص كامل، رائع، بل أَنّ عليه أَن يتقبّل واقعه، وواقع الآخر، وأَن يهجر سماء المُثُل والأَحلام كي يعود تدريجيّاً إِلى الأَرض، وهذا يحمله على أَن يكون واقعيّاً، باكتشافه تدريجيّاً الانسلاخات التي سيكون مدعوّاً إِلى تقبّلها كي يبقى وفيّاً، وبتبيّنه مصاعب العلاقات، والآلام البشريّة، ولكنّه، من خلال الالتزام والتواصل الحميم، يعثر على حرّيّة جديدة، وعلى فرح منح الحياة .

توريث الحياة هو إِحدى الاحتياجات الكبرى لدى كلّ كائن حيّ . فمنذ نشوء العالم تولِّد الحياةُ الحياةَ . وفي كلّ زهرة، وثمرة، وبقلة، وشجرة، تكمـــن بـــذور ســـتهب آلاف وآلاف الأزهار والثمار والبقول والأشجار الأُخرى . لقد كان أَرســـطو يقـــول أَنّ الكائنـــات الحيّـــة المعرّضة للموت تشترك في الأَبديّة، لا بصفة فرديّة، ولكن من خلال استمرار الجنس وقدرتها على منح الحياة لآخر شبيه بها .

و ما ينطبق على جميع الأَحياء ينطبق، بشكلٍ خاصّ، على الكائن البشريّ، الذي، من كبرى ثرواته إِمكانيّة الحصول على أَبناء، يمدّدون وجود آبائهم . ولكن في المجتمعات الأَوفر غنى، ثمّة ضرب من الخوف من الإِنجاب، فالآباء، غالباً، يصارعون مصاعب ماليّة، بحيـــث يُنظَر إِلى الولد على أَنّه مصدر إِزعاج وعبء ماليّ، فضلاً عن كونه ثروة . بيد أَنّني أَتساءل ألا يوجد عنصر آخر وراء تدنّي نسبة الولادات في مجتمعاتنا الميسورة . ففي شتّى جماعات " السفينة "، في مختلف أَرجاء العالم، يعمل العديدون من الأَزواج الملتـــزمين، الـــذين يتلقّـــون رواتب وضيعة، ومع ذلك غالباً ما يكون لكلّ أُسرة منهم ثلاثة أَو أَربعة بل خمسة أَبنـــاء . أَوَ ليس سبب ذلك أَنّهم عثروا، في حياة "السفينة " الجماعيّة، على رجاءٍ، ما عادوا معه يخشـــون الإِنجاب ؟

و ليس الخصب البشريّ بيولوجيّاً فحسب، فالإِنجاب يقتضي من الرجـــل والمـــرأة أَن يتحابّا؛ ويُمهّد للحياة الجنسيّة الحميمة وللإِنجاب بالصداقة، وبالتواصل الروحيّ الماضي عمقاً، وبالتعارف والاعتراف المتبادلين، والثقة المشتركة التي تتيح أَن يهب الواحد الآخـــر ذاتـــه . ويحتاج الولد إِلى حبّ والدَيْه لكي يعيش وينمو نموّاً متوازناً، ويحقّق ذاتـــه، وينفـــتح علـــى الآخرين . فهو إِن لم يُحَبّ، ينغلق على ذاته، وإِنّما يهبه والداه الحياة بحبّهما له، أَمّا إِذا نبـــذاه أَو تملّكاه فيمنعان عنه هذه الحياة .

خصب الحياة هذا لدى الزوجين، يتخطّى أَبناءهما، وقد يشعّ على محيطهما نمط حياة فريدة .

و لا يقتصر خصب الحبّ فقط على الأُسرة، بل هو يندرج في كلّ علاقة إِنسانيّة، ولا سيَّما علاقة المساعدة . فالمعلّم الجيّد ليس هو، فقط، المتملّك من مادّته ومن تعليمها، بل هـــو، أَيضاً، من يحبّ طلاّبه ويقدّرهم، ويعترف بشخصـــيّاتهم. إِنّ مواقفـــه المتّســـمة بـــالاحترام والترحيب والمودّة تنفث فيهم الثقة، وتُشرعهم على تعليمه . وينطبق هذا، أَيضاً، على الكاهن والطبيب، والمساعد الاجتماعيّ، والمربّي، وعالم النفس، والملتزم إِلى جانب الفقراء في قرى الصفيح ... إِنّه ينطبق على كلّ لقاءٍ إِنسانيّ، وعلى كلّ نشاط يستلزم تعاوناً .

فثمّة من يباشر علاقة لكي يسيطر، ويُثبت تفوّقه، ويراقب، وقد يسحق ويُخيف؛ وثمّة من يظلّ سلبيّاً، لا مبالياً، رافضاً أيَّة مسؤوليّة في العلاقة؛ وثمّة من يباشر علاقة لكي يثبت قيمة الآخر، ويقدّره، ويساعده على اكتشاف مواهبه وتنمية خير ما فيه . وغالباً ما ينتقل المرء من إحدى هذه الحالات إلى أُخرى . وإنّما الجماعة، والأُسرة، وفريق العمل، تنمو عندما تكون العلاقات فيها خصبة، محبّة، ممتلئة ثقة متبادلة .

إنّ الآباء مسؤولون عن أبنائهم، وهذه المسؤوليّة ملزمة، فللولد حرّيّته، التي يمضي قدُماً في التعبير عنها كلّما كبر . وعلى الآباء تثقيف هذه الحرّيّة لا إلغاؤها . فعلى الولد أن ينمو حرّاً : حرّاً من الخوف، حرّاً في أن يحبّ، وفي أن يعرف الحقيقة ويعيشها .

إنّ مهنة الآباء مهنة جميلة ولكنّها كثيرة الاقتضاء . فإنتاج أيّ عمل فنّيّ،أوأيّ غرض يمكن وضعه جانباً عندما لا تدعو إليه حاجة، أقلّ اقتضاء من مسؤوليّة أب أو أُمّ عن ولد مدى الحياة . والمسؤوليّة تضفي مزيداً من الإنسانيّة والنضوج، والانفتاح على الآخرين .

إنّ الحدَث المراهق يعيش مغامرة البحث، والرجل البالغ يعيش مغامرة الحبّ والخصب، وغالباً ما يقوده الولد الذي يتولّى مسؤوليّته إلى حيث لم يكن راغباً . أليست تلك هي حال الكثيرين من الآباء الذين انفتحوا على الغير وتطوّروا بفضل أبنائهم ؟

النضوج الإنسانيّ يتمثّل في ممارسة السلطة، وتحمّل المسؤوليّة حيال أشخاص . ولقد اكتشفت، في " السفينة "، نمطَيْن من السُّلطة : سُلطة تفرض، وتسيطر وتتحكّم، وسُلطة تواكب، وتصغي، وتجتذب، وتحرّر، وتثق، وتهب الحياة، وتساعد الآخر على النموّ، وعلى الثقة بنفسه، وعلى تحمّل المسؤوليّة. وهذا النمط الأخير من السُّلطة يستند على التواصل الحميم .

فالآباء الذين يلاعبون أبناءهم، ويصغون إليهم ويحبّونهم، والذين يتّصفون بالطيبة والعدل، يجتذبون الثقة، وبفضل هذه الثقة يمارسون سُلطتهم كي يحيا أبناؤهم أحراراً ويبلغوا النضوج، ويقابل الأولاد هذه الثقة بثقة مماثلة .

هذا النمط من السُّلطة لا يفرض الحقيقة بل يساعد على اكتشافها . ولا يدفع إلى تعلّم صيَغ جاهزة، بل يساعد الآخر على اختبار الحقيقة الكامنة في الصيغ، اختباراً داخليّاً . وهذا يقتضي دعماً متّصلاً، ويستلزم وقتاً، إذ لا بدّ من مواكبة الآخر حيث هو، كي يستوعب الحقيقة شيئاً فشيئاً، وفقاً لإمكانيّاته، ووتيرته الداخليّة.

إنّ ممارسة السلطة التي تفرض إصغاء حقيقيّاً، وفهماً للآخرين، تستوجب وقتاً وخبرة ودعماً، وعلى من يمارسها أن يكون قد تلقّى أو اختبر هذا النمط من السُّلطة . ولكي يكون المرء مسؤولاً جيّداً لا بدّ له من أن يكون قد عاش تحت إمرة مسؤول جيّد .

و لكي يُحسن القيادة، عليه أن يُحسن الطاعة، فممارسة السُّلطة يتطلّب تواضعاً، وحينئذٍ تصبح السُّلطة خدمة تتخطّى الإنسان، وتصبح مخاطرة، إذ لا يملك المرء، دائماً، اليقين بمساعدة الآخر .

و المسؤوليّة في إطار الأُسرة تشرع المرء على حياة اجتماعيّة أرحب مدى، ولا سيّما عندما يكتشف من حوله عالماً تسود فيه التعدّديّة، ويحفل بضروب الألم، واللامساواة، والظلم، والمسؤوليّات التي لا تمارس دائماً ممارسة سليمة . وحينئذٍ يتعيّن عليه لعب دوره في سبيل إيجاد بيئة يستطيع البشر العيش فيها بسلام وثقة بعضهم مع بعض، ويستطيع كلّ فرد أن ينمو إنسانيّاً، وينعم بالاحترام، ويجد الوسائل الضروريّة للتواصل والعيش والنموّ . وهذا يقتضي نضالاً في سبيل كلّ ما يتيح ازدهاراً إنسانيّاً، وحرّيّة حقّة، وضدّ كلّ ما ينتقص من إنسانيّة الإنسان، ويسحقه ويستعبده؛ وقد يفضي الالتزام بمثل هذا النضال إلى النبذ، والسجن، والتعذيب والموت. ولكن ألا ينطوي ذلك على خصب منح الحياة ؟

و قد أظهرت لي تجربة العديد من المساعدين العاملين في " السفينة " أنّ ممارسة السُّلطة على أنّها خدمة هي طريق هامّ صوب النضوج الإنسانيّ، مع أنّها ليست دائماً مهمّة سهلة . فالاهتداء إلى السراط القويم بين تجنّب الأوضاع الصعبة أوالشائكة، والحاجة إلى فرض الذات والسيطرة، يقتضي بُعداً، وتعمّقاً، وقوّة، وسلاماً داخليّاً، وقدرة على الإنصات والحوار، وأُسلوباً في التعاون مع الآخرين في سبيل صالحٍ عامّ يتخطّانا جميعاً . وليست هذه الصفات موقوفة على بعض أشخاصٍ معيّنين، بل هي ضروريّة لممارسة كلّ نوع من أنواع السُّلطة، بدءاً بالسُّلطة الوالدّية . ويحتاج الظفر بها إلى وقت، وإلى مؤازرة أصدقاء ومرافقين جديرين بالثقة .

الشعور بالذنب

إن كان الخوف يشلّ الصغار، وانعدام الأَمل والثقة بالذات يشلّ المراهقين، فالشعور بالذنب الواعي أو اللاواعي يشلّ البالغين، ويسجنهم داخل ذواتهم، ويمنعهم من منح الحياة ومن ممارسة المسؤوليّة .

ثمّة شعور بالذنب نفسيّ، يطبعه في قلب الطفل شعوره بالنبذ الذي يوحي إليه بأنّه سيّء وعاجز عن إسعاد الآخرين؛ عن هذه الصورة الجريحة عن الذات ينجم الكثير من فقدان الثقة بالذات لدى البالغين، كما ينجم عنها كلّ المخاوف التي تمنع الناس من التحدّث، أو تحمّل مسؤوليّة تجاه الآخرين . في حين قد تكون هذه الصورة الجريحة عينها لآخرين معين قوّة تدفعهم إلى الانعتاق وإثبات تفوّقهم، بنشاطاتهم .

و ثمّة شعور بالذنب أَدبيّ يُرهق من تولّوا مسؤوليّة، ولكنّهم عوضاً عن النهوض بها متحلّين بالصبر، ومنصتين إلى الآخرين، ومهتمّين بمصالح الغير، حبسوا ذواتهم في سجن أَنانيّتهم، وأحكامهم المسبّقة، وحاولوا، أن يجعلوا من أَنفسهم مركز العالم، وخانوا الثقة التي أُولوها .

إنّ الشعور بالذنب سهم مسمومة تلسع الضمير ويصعب احتمالها، ممّا يدفع من تصيبه إلى الهروب صوب نظريّات وأَوهام، أَو نشاطٍ مفرط، أو ملذّات لا قرار لها؛ ولكي يُبعد شبح هذا الشعور بالذنب يجد أَلف وسيلة لتبرير الذات بإدانة الغير، وإلقاء اللوم على المجتمع، والكنيسة، والمسؤولين، والوالدين، ومن ثمّ يعيش في جوٍّ من الكذب، وفي خشيةٍ من أَن يُفضح أمره، منقطعاً عن نبع كيانه، محروماً من الشفافيّة، والعلاقات الصريحة .

و الشعور بالذنب الأَدبيّ يدعّم الشعور بالذنب النفسيّ، ممّا يرسّخ لدى المرء اليقين بأنّه سيّء ولا رجاء له؛ وتزداد صورته عن ذاته إثخاناً بالجراح، ممّا يحمله على ارتكاب المزيد من الأَفعال التي تبذر الموت .

الشيخوخة : سنّ الصفاء والحداد

قد تكون الشيخوخة مرحلة سعيدة تتيح للبعض مزاولة مختلف النشاطات التي تثير اهتمامهم، وتُعتق آخرين من مهامّ التنفيذ أو السُّلطة، ومن الحاجة إِلى إِثبات قدراتهم، فيتّسع لهم من الوقت ما يسمح لهم بفعل كلّ ما كان وقتهم لا يتّسع له من قبل، ويمسون قادرين على إِشراع قلبهم للآخرين، والإِصغاء إِليهم إِذ لم يعد لديهم ما يدافعون عنه، وعلى عيش التواصل الحميم، والاستغراق في الاحتفال والصلاة.

و لكن عليهم، قبل ذلك، الانسلاخ عن النشاطات الكبرى، والتنافسيّة الكفيلة بإِثبات شأنهم وقدرهم، ممّا يسرّب شعوراً بالفراغ والموت، والحزن والهجران ... إِنّ الشيخوخة عبور نحو أَرض التواصل، ونحو وهنٍ نرضى به، حيث نلتقي ما كنّا قد فقدناه في صغرنا، في أَثناء نشداننا هويّة سلطة ونجاح، ونلتقي جمال الحياة اليوميّة وبساطتها .

الفاجعة تتمثّل في فقدان شيء حيويّ، شيء يملأ الروح والقلب، ويوقظ ويستقطب الكثير من الطاقة، هذا الفقدان يترك فراغاً داخليّاً، ويُشيع شعوراً بالتشتّت والضياع، وانعدام الدليل . إِنّ تقبّل فواجع الشيخوخة والموت الكبرى يقتضي عبور شتّى المراحل، وتقبّل الفواجع التي تشرع بالحدوث باكراً وتنتشر خلال الحياة كلّها .

إِنّ فقدان الغالي هو واقع كلّ حياة، وكلّ عمر، فالولادة تعني للطفل فقدان أَمان أَحشاء أُمّه، وتمثّل فترة اضطراب . والولد البكر يفقد مكانته كابن وحيد لدى مولد أَخيه الأَصغر، فلا يعود هو مركز الاهتمام الأَوحد، وقد يغرقه ذلك في بحران الاضطراب، والغضب، والثورة، غير أَنّه، في الآن عينه، يجعله يتقدّم نحو مزيد من الاستقلاليّة .

و لقد عرفت الكثيرين ممّن فقدوا قبل أَن يمتلكوا . وقد يولّد الفقدان الغضب؛ ومن الأَهميّة بمكان أَن يتكلّم المرء كي يتحرّر من الغضب المتراكم المدفون في لا وعيه، والذي لم يجسر، قطّ، على التعبير عنه، وهكذا يتمكّن من الصفح .

و الحياة حافلة بالخيبات، والآمال المحطّمة، والأَحلام المغتالة، فقد يُبتلى شابّ بما يدمّر، في لحظة، حياته المهنيّة ومستقبله؛ وقد يُفجع والدون كانوا يتوقّعون مجيء وليدهم في أَفضل صحّة وكمال، فإِذا به معاق؛ وآخرون قد يتخيّلون الزواج معين سعادة دائمة فيكذّب الواقع اليوميّ توقّعاتهم، ولا سيّما عندما يعي كلٌّ من الزوجين حدوده، وقد ينقلب الحبّ غضباً وحقداً، وبقدر ما تسمو الأَحلام، يكون الهبوط إِلى أَرض الواقع قاسياً وأَليماً .

و قد يندفع آخرون في إِثر مُثُل مجسّدة في أحزاب أو مؤسّسات، ولكن سرعان ما يلجم اندفاعهم ما يشهدونه من ممارسات، في الواقع، تنسف أَسمى ما آمنوا به، محوّلة إِيّاه إِلى أَوهام موجعة .

في كلّ تلك الحالات ليست الحجج العقليّة هي التي تزيل آثار الصدمة، بل لا بدّ من العثور على فرحٍ آخر كفيل بملء النفس، رغم الفاجعة، أو بسببها، وبتحويل الأَسى إِلى بهجة .

و قد تشرع فواجع الشيخوخة في البروز، في قمّة الكهولة، ففي سنّ الأَربعين قد يشعر المرء أَنّ الحياة أَمست خلفه، وما عادت أَمامه، وأَنّه بات يتعذّر عليه مداعبة الأَحلام كالسابق، وتتضاءل إِمكانيّات التغيير والتماس حياةٍ جديدة؛ وقد يضطر إِلى العمل مع أَشخاصٍ أَزهى شباباً، وأوفر كفاية، ويستأهلون أَكثر منه الترقية .

كلّ تلك الأَعراض تؤذن بقدوم الشيخوخة، ولا بدّ من مضيّ بعض وقت لاهتدائه إِلى وتيرة الحياة الملائمة، وإِلى الغذاء الروحيّ الضروريّ لاتّخاذ الموقف الصحيح، وتقبّل الواقع بسجوٍّ وسكون نفس .

و من أَخطر فواجع الحياة أَن يُفجَع المرء بشرفه، ويُزدرى، ويُنظَر إِليه كمن خان قضيّة، وقد عرف يسوع هذا الأَلم الجمّ عقب كلّ ما أَحرزه من نجاح، فقد كانت الجماهير تسير في إِثره وترى فيه نبيّاً ومسيحاً سيُحرّر الشعب اليهوديّ المُذَلّ والمسحوق، وإِذا بهذه الجماهير عينها تنبذه، وإِذا بأَصدقائه يتخلّون عنه، وبالذين كانوا يهتفون يوم أَحد الشعانين " أوشعنا، أوشعنا لابن داود " غدوا يصرخون يوم الجمعة : " إِصلبه، إِصلبه "، وكأَنّهم يضمرون : " لقد خيّب رجاءنا." إِنّه لأَلم بليغ أَن يتخلّى عنك أَصدقاؤك ويفقدوا الثقة فيك؛ ولا غروَ أَنّ الفاجعة القصوى تكمن في افتقاد الأمان، والصداقة، والصلة الحميمة بالإِخوة والأَخوات، وفي الشعور بفقدان التقدير، وبالنبذ والإِدانة .

و بقدر ما يكون المرء ممتلئاً بشيء، أَو بأَحد، أَو بمشروع، أَو بوظيفة، أَو بصداقة، أَو بتكريم، أَو بمَثَل حياة يُثير ويجتذب، بالقدر عينه يكون الهبوط أَقسى وقعاً عندما ينهار هذا الواقع، فيشيع الشعور بالضياع والتشتّت، وتفقد الحياة طعمها . ولا بدّ من أَن يمضي وقت لكي تستعيد الطاقات نشاطها، ويتبلور مشروع جديد، ويعود للحياة طعمها .

و في أَغلب الأَحيان تمرّ الفاجعة بمراحل، أَوّلها الذهول وعدم التصديق، تليها مرحلة غضب وثورة وانهيار؛ وينحبس المصاب في وجومه وأَساه إِلى أَن يشرق في قلبه شعاع شمس، أَو يحدث له لقاءٌ منقذ، وحينئذٍ يقبل بالواقع كما هو، ويكتشف أَنّ مهمّته ليست في صنع الواقع، بل في مواجهته واكتشاف ما ينطوي عليه من نور، وحبّ جديد وحضور .

غير أَنّ بوسع المرء التأَهّب لبعض المراحل التي تحمل في طيّاتها فواجع، كالشيخوخة، وانتقاء خيارات قد تسعده لئلاّ يرغم رغماً على ما قد يُرهقه .

إِنّ بلوغ التواصل الكامل مع اللّه يقتضي الانحدار إِلى قعر الهاوية من أَجل الصعود بحيويّة أَوفر .

و جميع الفواجع التي يتعرّض لها المرء تظهر كم يتعيّن عليه العبور بمراحل مختلفة كي يحقّق ذاته تحقيقاً كاملاً . ولذلك يحتاج إِلى ثقة الولد، وجرأة المراهق وآماله، واستقرار البالغ وخصبه ومسؤوليّته، حتّى لو اختلطت هذه الدوافع في مختلف تلك المراحل .

لا ريب أَنّ الأَفعال الحميدة التي نقوم بها، وكفاحاتنا في سبيل العدل تنطوي على شيء من نشدان الذات ومن الحاجة إِلى إِثباتها، غير أَنّها تنطوي أَيضاً على جمال وصدق؛ ولا بدّ منها في سبيل تحقيق الذات، فهي نوع من التجرّد، يُمهّد للعودة إِلى الجوهريّ وللتواصل، إِذ بفضلها، تتلاشى الأَحلام، ومحاولات الهروب، والتبعيّة إِزاء الآخرين، ونظرات إِعجابهم، فيتعذّر التمويه، ويواجه المرء فقره الذاتي، وأَيضاً كلّ ما ينطوي عليه من جمال إِنسانيّ، ومن حقيقة كيانه ووجدانه أَمام اللّه، ومن لقاءٍ وتواصل .

الخطر الذي يهدّد المرء هو أَن يظلّ منغلقاً على ذاته، ومركّزاً اهتمامه على مشاريعه، ملتصقاً بسمعته ومجده، عائشاً في الخيال؛ إِنّ واجب الإِنسان هو أَن يكون ذاته، ويكون منفتحاً على الغير . وقد تدفعنا الفواجع إِلى الاضطراب والثورة، والانهيار، وتزيدنا انكفاءً على ذواتنا . ولكن بالتواضع نُشرع ذواتنا على الآخرين، وعلى الكون وعلى اللّه، وتعتقنا الفواجع ممّا كان يحملنا على الانغلاق .

و بالإِجمال تبقى الشيخوخة سنّ الأَلم، ولئن هي انطوت على نموّ في اتّجاه الطيبة والعذوبة، وسنّ العودة إِلى التواصل والعلاقات الإِنسانيّة الصحيحة، إِلاّ أَنّها للكثيرين فترة سأم وخوف . وقد يعاني بعضهم أَلماً بليغاً من جرّاء شعورهم بعدم جدواهم، وبأَنّهم غير مرغوب فيهم وعبء على أبنائهم . لقد باتوا يفتقرون إِلى القوّة، والطاقة، ويفقدون الرغبة في المطالعة، وأَقسى ما ينتابهم هو الفراغ الداخليّ، والقلق، بحيث أَنّ أَدنى الأُمور تذهب بلبّهم، وتغشى وجدانهم أَعراض الولد المنبوذ : الشعور بالذنب، وبفقدان القيمة، والانهيار، والثورة .

حتّى الشيوخ الذين عرفتهم ممتلئين سلاماً، وصفاءً، متقبّلين للواقع وللآخرين، كان ينتابهم شعور مرهق بالوحدة، في عالم يتخطّاهم، ويدعهم وحيدين، عاجزين، تائهين . وبقدر ما تكون حياتهم قد امتلأَت وحفلت بالنور، بالقدر عينه يتفاقم اضطرابهم وشعورهم الرهيب بالفشل والعجز ... ويبدو الليل متمادي الطول، والفجر بعيداً جدّاً ...

صحيح أَنّه ما زال، ثمّة، فسحة للتقدمة، ولكن ما أَشدّها هشاشة ! والإِيمان، خيط واهٍ، ولكنّه يهب شيئاً من ذلك الرجاء المقيم .

و مثلما قد تكون الحياة جميلة، قد يكون الموت، كذلك، جميلاً .

4- *النموّ الإنسانيّ*

الواجب والاختياري

بلوغ مستوى الكائن البشريّ يحتاج إلى تربية بشر وحبّهم . إنّ المتعمّقين في العلوم النفسيّة يعلمون أنّ للنموّ البشريّ شرائع وقوانين، إن هي لم تُحترَم، ساء نموّ الولد، وتعذّر عليه العيش عيشة بشريّة . وللولد الحقّ في تلقّي ما يحتاج إليه لكي يصبح بشراً سويّاً .

الطبيعة هي التي تهب الحيوانات هويّتها وتحدّد سلوكها المبرمج مسبقاً . ولكن ليست تلك هي حال الكائن البشريّ، فلديه ثمّة ما هو مفروض جسديّاً مثلما هي الحال لدى الحيوانات، وما هو مفروض نفسيّاً . فالولد الذي رُحِّب به يسهل عليه عيش التواصل، وعقد علاقات مع الآخرين ومع الوجود، في حين يتعذّر ذلك على من لم يلقَ ترحيباً . وثمّة ما ليس مفروضاً وما ينجم عن الاختيارات والحرّيّة البشريّة . وهويّة المرء تتحقّق عبر شتّى خيارات الحياة؛ إذ بوسعه أن يختار اقتسام حياته مع بعض الأصدقاء، أو مع امرأة، أو زوج؛ وبوسعه اختيار مهنة، وتوجّهات محدّدة، وقِيَم؛ ولا ريب أنّ وراء هذه الخيارات تكمن غرائز نفسيّة وتربية تحدوها وتيسّرها .

و في نموّه نحو هويّة مبنيّة على القيَم، يتأثّر المرء، إلى حدٍّ بعيد، ببيئته وأسرته اللّتين من خلال شتّى مبادرات حبّهما، وعطفهما، واحتفالهما معه بالحياة، تكوّنان لديه إيماناً وثقة في قِيَم معيّنة، فيغدو على تواصل مع كلّ ما هو فيهما أصيل وموحّد . ولدى الطفل من الذكاء ما يجعله يتغذّى بكلّ ما هو صادق في والديه، فتتسرّب إليه حياتهم العميقة، في علاقة ثقة وتواصل . ولكنّه، بالمقابل، لن يقوى على احتمال كلّ ما هو زائف أو متّسم بالازدواجيّة .

أمّا إذا تضاءل التواصل والصدق، فقد يتبنّى الولد بعض القِيَم، ويمتلك بعض الإيمان، ولكن على نحوٍ سطحيّ، وبدافع حاجته إلى الأمان واعتراف الغير به . إنّما في أثناء نموّه، قد يسلك وفقاً لهذا الإيمان أو على تعارضٍ معه، وينتقي أصدقاءه تبعاً لذلك . وسيلجأ إلى انتقاء قِيَمه الخاصّة وإلى تعميقها انطلاقاً من مواجهة الواقع . وهكذا سيختار معنى لوجوده .

لكلّ فرد هويّـــتة

شريعة النموّ الأَساسيّة الأولى هي شريعة الحبّ والتواصل . فالكائن البشريّ يحتـــاج، كي يعيش، ويزدهر، وينمو في الحرّيّة، إِلى من يعترف بفرادته ويشجّعه على تحقيق ذاتـــه، وإِلاّ انكفأ على نفسه، واتّخذ موقف الدفاع . ولكي ينمّي كلّ طاقاته، يحتاج إِلى بيئة تواصـــل إِنسانيّ، وثقة، وصداقة .

و لكلّ كائن بشريّ سرّه الخاصّ؛ وأَنا، شخصيّاً، أُومن بأَهميّة كلّ إِنسان، أَيّة كانـــت حدوده، وفقره، ومواهبه؛ فلكلّ حياةٍ معنى وإِن خفي . إِنّني أومن بقدسيّة كلّ إِنسان، وبجماله، وقدره؛ وبوجوده، حتّى لو كان مبتلىً بإِعاقة سحيقة.

لكلّ كائن وجوده، مع جماله الذي قد يكون ممسوخاً لدى من يســـكنون الشـــارع، أو السجون، أو المدمنين على المخدّرات والكحول، لا بل لدى من يقتلون بشراسة، ويمارســـون التعذيب، ويستغلّون الأَحداث . كلّ كائن هامّ وكفيل بالتحوّل، والتطـــوّر، وبالانفتـــاح قلـــيلاً، وبالاستجابة للحبّ، وللقاء تواصل . وكم أودّ أَن يقاسمني الآخـــرون إِيمـــاني هـــذا بالكـــائن البشريّ، وبقدراته على التطوّر، وإِلا غدت مجتمعاتنا مجرّد مجتمعات متنافسة، تهيمن علـــى الضعفاء، وتأسرهم في إِطار المساعدة، عوضاً عن مؤازرتهم على النهوض والانفتاح علـــى الغير؛ وبذلك قد تتعرّض إِلى نبذ من يسبّبون مضايقة بل إِلى الرغبة في إِزالتهم .

كلّ إِنسان مدعوّ إِلى النموّ، وليس مهمّاً بلوغه الكمال الإِنسانيّ، بل المهـــمّ أَن يـــنهج درب هذا الكمال عبر مبادرات انفتاح وحبّ، مبادرات تعاطف وتواصل . وبوسع كلّ امرئ، اليوم، في وضعه الراهن، وفي موقع عيشه وعمله، القيام بهذه المبادرات .

و يبقى أَنّ شرط كلّ نموّ إِنسانيّ هو قبول الذات، قبول الإِنسان بواقعـــه كمـــا هـــو، بمواهبه، وطاقاته، وحدوده، وجراحه، وظلماته، وشعوره بالذنب، وتعرّضه للمـــوت؛ قبولـــه بماضيه، وأسرته، وثقافته، وأَيضاً بطاقاته على النموّ، قبوله بالعالم وشرائعه، وبمكانتـــه فـــي الكون . ويشرع النموّ يتحقّق عندما ينسلخ الإِنسان عن أَحلامه في ذاته، ويرتضي بإِنسانيّته مع حدودها وفقرها، وأَيضاً مع جمالها، فقد يحجب رفض الذات أَحياناً المواهب والطاقات الفعليّة؛ والخطر الذي يتعرّض له المرء يكمن في رغبته في أَن يكون غير ما هـــو، أو فـــي التشـــبّه بآخر، بل التشبّه باللّه، في حين أَنّ شرط السعادة هو أَن يكون المرء ذاته بمواهبه، ومؤهّلاته، وطاقاته على التواصل والتعاون .

ثمّة من يتطلّعون أَبداً إِلى مركز أَسمى وأَوفر مسؤوليّة، ولكنّهم يعيشون في إِحباط ... إِلى أَن يرتضوا بدور أَكثر وضاعة وبساطة، ولكنّه أَكثر توافقاً مع مواهبهم وطاقاتهم .

التُربة الطيّبة

إنّ النبتة لا تنمو إلاّ إذا ضربت جذوراً في الأَرض، وفي أَرضٍ طيّبة، وكـذلك هـو شأن الكائن البشريّ : فتربته هي أُسرته، وجماعته البشريّة، وجماعة أَصدقائه . إنّه بحاجة إلى إيقاظ وتغذية قلبه وروحه وعقله . ومن الملاحظ أَنّ الذين يتلقّون عناصر الخصب، ويتعلّمون كيف يهبون الآخرين الحياة، يرغبون في إعطاء المزيد . لا ريب أَنّ، ثمّة، قوى أَنانيّة وخوفٍ كامنة في كلّ إنسان، غير أَنَّ من شأن الغذاء الروحيّ الجيّد بعث قدرات الحبّ . ونحن نلحظ بوضوح، في "السفينة "، أَنّ المساعدين، إن لم يتلقّوا الدعم والمساعدة على تبيّن معنى حياتهم اليوميّة وقيمتها، وإن لم يُغذّوا ويُثقَّفوا بكلمات الحياة والحقيقة، تسرّب إليهم السأم، وتراخت قدراتهم على الإصغاء والانتباه، أَمّا إذا أُحسنت تغذيتهم، فهم جديرون بمنح الحياة .

و التربية المتوازنة السويّة هي التي تتيح للولد، ثمّ للمراهق، فالبالغ، تنمية هذه العناصر الثلاثة : التواصل، والتعاون والكفاءة . فالتواصل يُشرع المرء على العلاقة البسيطة المنفتحة، قلباً لقلب؛ والتعاون يهيّؤه للحياة الاجتماعيّة والجماعيّة؛ والكفاءة تؤهّله لاحتلال مكانته في الحياة . إنّ ارتقاء الإنسان نحو النضوج الضروريّ وتبوُّءَه مكانه الصحيح في المجتمع مرهونان بتوظيفه كلّ طاقاته في هذه المضامير الثلاثة .

بيد أَنّ ثمّة من يفتقرون افتقاراً ذريعاً إلى التواصل، فهم منكفؤون على ذواتهم، ولا رغبة لديهم إلاّ في توسيع رقعة معارفهم وكفاآتهم، ولا يسعون إلاّ نحو مشاريعهم الخاصّة، يتنكّبون عن العلاقة التي تخيفهم، ولا يخاطرون بالانفتاح على الآخرين، وبالإعجاب بهم، وبالطبيعة . وقد يعيشون التعاون، ولكن بشرط أَن يعترف الغير بمهارتهم، ويتجنّبون الإصغاء والحوار .

إنّ إنماء الكفاآت المفرط، على حساب التواصل والتعاون، يحول دون النموّ السليم والتعاون، ويقود إلى اختلال نفسيّ؛ فثمّة من هم بالغون جدّاً على مستوى الكفاآت، بيد أَنّهم، في المضمار العاطفيّ، أَطفال يستجدون الحبّ . ولا بدّ من الاعتراف بأَنّ كفاآت كثيرة تتكوّن في مرحلة المراهقة بدافع التنافس والرغبة في الظهور والتفوّق . ولكن في مرحلة النضوج يتمّ الانتقال إلى كفاءة مشبعة بروح التواصل والتعاون، ومُتّسمةٍ، حقّاً، بطابع إنسانيّ، موجّه نحو خير الغير .

الراحة

إنّ التواصل والتعاون يقتضيان سجوّ النفس، وارتخاء الأَعصاب، فمن كان مأخوذاً في دوّامة المشاريع، والرغبات الجامحة في النجاح والظفر بالتقدير، أو من كان متعباً، متـــوتّراً، مرهقاً بالضغوط، يعسر عليه التوقّف لتقبّل الآخرين والإِصغاء إِليهم . ويتعذّر عليـــه إِشـــاعة الصمت، وتبيّن دوافع أَعماله، ومنابع مخاوفه بوضوح .

إِنّ النموّ يستلزم الراحة والطمأنينة، جسداً وروحاً، فالتوتّرات الداخليّة والضغوط تقطن في الجسد، وتمنع النور من إِنارة الأَعمال والأَفكار . ومن ثمّ لا بدّ من إِتقان فنّ إِصابة الراحة الحقّة التي تجدّد الطاقات للانطلاق بمزيد من العزيمة، والحماس، والأَمل في الكفاح من أَجل السلام . الراحة الحقيقيّة، إِذن، هي العثور على منابع طاقات جديدة، وهي على نقيض التردّي إِلى الحزن، والكَلل، وانعدام الثقة في الذات، والريبة، هـــي اطمئنـــان القلـــب، والاحتفـــالات الإِنسانيّة والجماعيّة، والضحك، والغناء، والفرح، والمرح؛ هي كون المرء مسترخياً في بيته، وجماعته، وجسده، ممارساً، بتناغم، التواصل، والتعاون، واستخدام الكفاآت .

يبقى أَنّ لكلّ فرد أسلوبه الخاصّ في الظفر بالراحة .

المواكبة

و مثلما تحتاج بعض النباتات إِلى داعم يضمن نموّها على نحوٍ مستقيم، كذلك يحتـــاج البشر، في مختلف مراحل حياتهم، إِلى من يقف بجانبهم ويواكبهم كي يعيشوا ملء إِنسانيّتهم، ويُؤتوا ثماراً .

أَنا، شخصيّاً، نعمت بامتياز مواكبة الأب فيليب توما لي طيلة ستّة وأَربعين سنة . لم يفرض عليّ، في أَثنائها، يوماً، ما يتوجّب عليّ فعله، ولكنّه كان يطرح عليّ أَســئلة جيّــدة، ويهديني دائماً إِلى هدف حياتي وغايتها، وهو مدركٌ أَنّ من يحبّ غايته حبّاً كافياً يختار لهــا الوسائل الملائمة .

إِنّ مبدأ المواكبة الأَوّل هو مساعدة الآخر على العيش في الواقــع، لا فــي الأَحــلام والنظريّات والأَوهام، وعلى قبول واقعه، وإِعاقاته الداخليّة، وجروحه وظلماته، لئلاّ يعيش أَبداً في إِحباط وتوتّر . فليس محتّماً أَن يكون كاملاً . لا ريب أَنّ المرء يحتاج إِلى الرجاء، وإِلــى نظرة مستقبليّة، ولكنّ ذلك يختلف كثيراً عن الأَحلام والأَوهام التي لا أَساس لهــا فــي أَرض الواقع، بل هي ثمرة خيال منقطع عن الواقع .

الأزمة

حياة معظمنا نسيجٌ من أَزمات، وشروخ، وانفصالات، وأَحداث غير متوقّعــة، منهــا البهيج، ومنها المفجع، فيما الموت يحوم أَبداً على مدى الحياة .

في اللغة الصينية تعني الأَزمة، في آنٍ واحد، خطراً وفرصة سانحة، فقد تنطوي على خطر الموت، أو على فسحة لانبثاق حياة جديدة . وفي اللغة اليونانيّة تعني الأَزمة ضــرورة التقدّم، واختيار الوسيلة الملائمة للخروج من المآزق .

أَزمات كثيرة تنجم عن إِجهاد مفرط، وعن فقدان التناغم بين التواصــل، والتعــاون، والكفاءة، وعن إِنفاق طاقات جمّة في أَحد هذه العناصر مع تجاهل العناصر الأُخرى، تجاهلاً تامّاً، بحيث تصرخ الطبيعة بغيظها .

و هناك أَزمات تنشأ عن شعور بالذنب وعن عــلّة في القلب أو الضمير لاتني تتفاقم . إِنّ الشعور بالذنب سرطان ينهش صميم الإِنسان، ويشلّ الفرح والشفافية، ويحــول أَحيانــاً دون التواصل والتعاون، إِلى أَن يحدث الانفجار، ويشتدّ الضيق بحيث يصبح صــرخة تنشــد التواصل، والشفافية، وحقيقة الذات .

و تدهشني وفرة أَعداد الذين لا بدّ من تردّيهم إِلى هوّات القنوط والعزلة قبل أَن يهبّوا نحو الحياة، ولكأَنّ اللغة الوحيدة التي يدركونها هي لغة العنف والمرض والموت، في حين هم يرفضون نصيحة الصديق، ويصدفون عن كلّ عون، طالما لم يبلغوا قعر الهوّة، مدّعين أَنّ لا حاجة بهم إِلى عون، وأَنّ بوسعهم تدبّر أمورهم بأَنفسهم، فيعيشون في الوهم، وينكرون الواقع .

أَجل، إِنّ الأَزمة خطرٌ وفرصةُ تجدُّد في آنٍ واحد، فرصة الظفر بتوازن جديد وحرّيّة داخليّة قشيبة؛ إِنّها تميط اللثام عن افتقار إِلى التناغم والشفافية، وتؤذن بأَنّ الوقت قــد حــان للاستعانة بكاهن، أو مرشد روحيّ، أو مرافق، أوصديق، أو معالج، أَو أَيّ إِنسان آخر يساعد على اتّخاذ القرارات الملائمة، وعلى رؤية الواقع وتقبّله تقبّلاً أَفضل، في سبيل المضيّ قُــدُماً على درب الحياة .

إِحدى علامات النضوج الإنسانيّ هي قدرة المرء على التمتّع بما يملك عوضــاً عــن التحسّر على ما لا يملك؛ وكثيرون هم الذين يبلغون هذا النضوج في ساعة الموت، ويشعرون بالرضى والسلام . ومن المدهش أَنّ أَناساً كثيرين مع كلّ ما اعتَوَر مسيرة حياتهم من تيــه، وفشل، وأَفعال لا مسؤولة، واختلال توازن، يجدون السلام في ساعة الموت، ولكأَنّ الجوهريّ يتحقّق في اللحظات الأَخيرة، عندما يقبل المرء، بتواضع، واقع الحياة، من خلال الموت، ويثق بالتواصل؛ حينئذٍ تكون الأَفعال الباهرة، وهي غالباً ثمرة التفوّق والكبرياء، والفساد أَحياناً، قد

اضمحلّت مثل الريح، وبقيت أَعمال الحبّ التي تهب الحياة، وتمثّل حقيقة كياننا، من خلال هذا " النَعَم " النهائيّ الذي نخاطب به الموت، وهو، أَيضاً، " نَعَم " للحياة، " نَعَم " مفعم نضـــوجاً، وشكراناً .

شروخٌ وقبول

جروح مؤلمة تصيب الكثيرين في شتّى مراحل الحياة، فتحمل البعض على الانكفاء على ذواتهم، وإِقامة متاريس الدفاع، بل تحملهم أَحياناً على الانتقام وإِيلام الآخرين مثلما أولموا هم أَنفسهم .

غير أَنّ البعض يكتشفون، يوماً، حضور اللّه وحبّه، فيرضون بواقعهم، ويغشاهم السلام، وتغمرهم السعادة؛ بعد أَن يكونوا قد استشفّوا في ثنايا الواقع، حضور اللّه وحكمته، وبذور حياة كامنة، فيكفّون عن معاداة الواقع، ويتحاورون معه، ويتبيّنون رسالة اللّه في اللّحظة الراهنة، فيصادقون الوقت والواقع .

في بنغلاديش تلقّيت درساً قيّماً؛ فإِثر محاضرة أَلقيتها على جماعة من ذوي أَشخاص معاقين ذهنيّاً، ومن الأَصدقاء والمربّين، نهض رجل وأَعلن : " إِسمي دومينيك؛ ولي ابن يدعى " فانسان " مصاب بإِعاقة سحيقة . كان ولداً رائعاً عندما وُلِد، ولكنّه في شهره السادس ابتلي بحمّى شديدة واكبتها تشنّجات؛ وهو اليوم في السادسة عشرة معاق إِعاقة سحيقة، عاجز عن الكلام والسير وتناول الطعام بمفرده، ومعتمد اعتماداً كاملاً على الغير، ولا يسعه الاتّصال إِلاّ عن طريق اللّمس. وقد تألّمنا كثيراً أَنا وزوجتي، وابتهلنا إِلى اللّه أَن يشفي ابننا فانسان؛ وقد استجاب الربّ لابتهالنا، ولكن بطريقة مباينة لتلك التي توقّعناها . فهو لم يشفِ "فانسان"، ولكنّه غيّر ما في قلوبنا، إِذ منحنا، أَنا وزوجتي، فرحاً وسلاماً بأن يكون لنا ولد مثل فانسان "

تحقيق الذات

الأَمر الجوهريّ لكلّ إِنسان، أَيّاً كان نهجه في الحياة، وأَيّة كانت أَزماته وشروخه، هو أَن يحقّق ذاته؛ وألاّ يشلّه الخوف من الآخرين، ومن تقييمهم له، وألاّ تشلّه احتياجاته البسيكولوجيّة إِلى الحنان والسُّلطة . عليه أَلاّ يصبح ما يريده له الآخرون أَن يصبح، وأَلاّ يصرخ كي يظفر بانتباههم بأَيّ ثمن؛ أَلاّ يصير غير ما هو، بل أَن يصير هو نفسه، انطلاقاً ممّا هو عليه، ومن بذور الحياة الكامنة في داخله، ومن تاريخه وتربته .

إِنّ بروز " الأَنا "، برفض كلّ تواطؤ مع عالم يسحق الضعفاء والضمير الفرديّ، وبرفض التواطؤ مع الشرّ ومع كلّ قوى الكذب والقمع، مهمّة عسيرة جدّاً. فعندما يبيع القضاة ضميرهم ونفسهم للسُّلطة السياسيّة والطغاة، حفاظاً على حظوتهم لديهم، لا يفتقرون إِلى بروز " أَناهم " فحسب، بل إِنّ هذا " الأَنا " يزداد ذوباناً في الخوف . وعندما يقترف المرء ظلماً، خشيةَ فقدان مكانته أَو سمعته، أوعندما يكذب، خشيةَ النبذ أو المعارضة، أو عندما يقبل رشوة، يتردّى " أَناه "، أَعمق فأَعمق، في ظلمات الكيان .

قد تشتدّ ضغوط المحيط لحمل الشباب على تناول المخدّرات أو على الانسياق مع التيّار وقد يتعرّض من يُقاوم للسخريّة؛ ولا بدّ من مناعة لأَجل قول " لا ". وحينئذٍ يبرز " الأَنا " العميق . وكذلك، ليس من اليسير الوقوف إِلى جانب العدل والحقيقة في العمل، أو تحت ظلّ بعض الأَنظمة الطاغية . ولكن " الأَنا " يبرز لدى قول الحقّ، وفضح الظلم مع المخاطرة بفقد الوظيفة؛

إِنّ شفاء الكيان البشريّ العميق يتحقّق كلّما اختار المرء الحرّيّة والعدل، واتّبع وجدانه، حتّى لو أَفضى به ذلك إِلى خلاف مع الغير، أو إِلى فقدان شيءٍ ذي بال، وإِلى العزلة .

بيد أَنّ بروز " الأَنا " العميق لا يمنح حرّيّة قوّة وسلطة، حرّيّة تؤهّل لإِدانة الغير، وادّعاء التفوّق عليهم؛ ولا حرّيّة عشوائيّة تتيح فعل أَيّ شيء؛ ولا حرّيّة منقذٍ أو نبيّ؛ بل حرّيّة الانفتاح على الأَلم، والقدرة على المعاناة، والإِنصات لفهم أَلم الآخرين، حرّيّة أَن يحتلّ المرء مكانه، ولا يغتصب مكان الآخر في المجتمع وفي الكون، وأَن يحيا في تواصل حميم وتعاطف مع الآخرين، وحرّيّة منح الآخرين الثقة والحرّيّة . حرّيّة الخضوع لحقيقةٍ وعدلٍ يتخطّيان الفرد، وجماعته، ويتيحان الانتماء لقِيَم عالميّة .

و يتمّ بروز " الأَنا "، في التواضع، شيئاً فشيئاً، عبر جميع ضروب الفشل، لا بل عبر الأَخطاء . إِنّه نموّ بطيء وجميل خلال شتّى مراحل الحياة؛ وعلى هذا الدرب يتعيّن على المرء أَن يتذرّع بالصبر، مكتشفاً وتيرة نموّه الخاصّ، واثقاً في الزمن، ومتيحاً لأَحداث الحياة

من مرضٍ، وأَزمات، وقراءات، ولقاءات، وانفصالات، وفواجع، أَن تعمل عملها بتؤدة؛ فعندما تتوفّر الإِرادة الحسنة، والتيقّظ على الالتزام بالحقيقة، حينئذٍ يتكاتف كلّ شيء لصالح الشخص ونموّه، في النضوج الإِنسانيّ والروحيّ .

و حينئذٍ يتلاقى النموّ الإِنسانيّ صوب هويّة أَكثر عمقاً، وانفتاحٍ أَكبر مع بروز " الأَنا " العميق، الذي لا يتّسم بالعظمة والقوّة، والذي قد لا يتجلّى للعيان، ولا يحاط بالتكريم والمكافأة، بل يتمّ في الصميم، ويندرج في نطاق الحبّ والوفاء للحبّ، وفي نطاق الثقة والتواصل، وهما عطاء للآخر وترحيب به . وهذا النموّ في التواصل يتحقّق على نحوٍ خاصّ لـدى الصـغار والمتواضعين؛ صحيح أَنّ النموّ يستلزم مكتسبات، غير أَنّه يتحقّق، خاصّة، عبر العطاء، وهو مدرسة عطاء، حيث يتعلّم المرء وهب ذاته، وقلبه . والعطاء الأَخير الذي يكتمل به كلّ شيء هو عطاء القلب متسقبلاً ربّ العطاء، الذي، بدوره، يستقبل بين ذراعيه الإِنسان وقد عاد طفلاً .

العيش في حضارتنا الحديثة

لقد انتقلنا من عالم تحكمه الأَخلاقيّات الأُسرويّة والدينيّة إِلى عــالم يحكمــه النجــاح الفرديّ والازدهار الشخصيّ . انتقلنا من نزعة – قد تكون أَحياناً مغرقة في السطحيّة – نحو خدمة الآخرين، وخدمة الوطن واللّه، إِلى نشدانٍ جامح للرفاه الشخصيّ؛ ومن أولويّة الأَخلاق إِلى أولويّة علم النفس والاقتصاد؛ ومن مبادئ أَخلاقيّة مغلقة، وغالباً صارمة، فيمــا يتعلّــق بالسلوك الأَدبيّ، انتقلنا إِلى حرّيّة مطلقة، حيث كلّ شيءٍ مباح للمتعة .

إِنّنا في مجتمع يوصف بأَنّه مجتمع اتّصالات، ولكنّه مجتمع اتّصال وتحريض ولــيس مجتمع علاقة . والتيليفزيون، رغم بعض برامج ممتازة، يشيع فوضى القِيَم، فيخــتلط الخيــر والشرّ ويصبح كلّ شيء ممكناً .

و ما نفي الأَخلاق إلاّ نهاية كلّ تربية حقّة، وكلّ احترام للكائن البشريّ كما هو، وباب مشرع على كلّ ضروب الظلم، بحيث يغدو العالم غاباً، كلّ فرد فيه يدافع عن نفسه، ويعتدي كما يحلو له .

بيد أَنّ إِحدى قِيَم المجتمع الحاضر تتمثّل في إِرجاع كلّ شيء إِلى الفرد : إِلى حرّيته، وحياته الخاصّة، في حين كانت الأَخلاقيّة الأُسرويّة والدينيّة تنطوي على مخاطر وثغرات، إِذ كانت تتيح الاختباء وراء الواجب، وإِغفال أَنّ ثمّة، فيما يتخطّى الواجب، دعــوة إِلــى حيــاة مليئة، حياة حبّ وتواصل حميم . وربّما أَدّى الالتزام بالواجب إِلى احتقــار الــذات وقيمتهــا الجوهريّة؛ ولكن، في المقابل ينزع الوضع الراهن إِلى دفع البشر نحــو حالــةٍ مــن الفقــر الإِنسانيّ، والثقافيّ والفكريّ، والإِيمانيّ، فكثيرون مُشبَعون بالصور والأَخبار، ومعظم النــاس يفتقرون إِلى وقتٍ كافٍ، وإِلى الميل لتقليب مضامين الأمور بعمق؛ وما أَكثر المأخوذين فــي دوّامة البقاء، واللهو، والاستجابة لنداءات الحاضر الملحّة . يريدون كلّ شيء، فــي الحــال، ويحتاجون إِلى اختبارات عنيفة تمنح الحياة أَو مظهر الحياة . وفي مثل هذه الظروف يصعب العثور على مراجع حقيقيّة؛ وتضمحلّ الدعائم التي كانت، من قبل، متوفّرة؛ وظروف الحياة قد تبدّلت تبدّلاً من العمق بحيث يتعذّر الرجوع إِلى الوراء؛ وتتابع البشــريّة مســيرتها الجميلــة والحافلة بالكوارث في آنٍ واحد؛ وبما أَنّني مؤمن بأَنّ العالم والبشريّة قد أُحســن صــنعهُما، وأَنّهما سيظلاّن ينطويان على عناصر توازن وشفاء، فلا بدّ من أَن ترتسم طريق تساعد كلّ فرد على الظفر بتوازنه وسلامه الداخليّ، هذه الطريق الجديدة ستجعل البشر يكتشفون، مــن جديد، تواصلاً حميماً أَوفر عمقاً من أَيّة تجربة عابرة، تواصلاً هو، في آنٍ واحد، اســتمرار، وعهد، ووفاء؛ وهو خلقٌ وحرّيّة، وهو نور وحياة . وإِنّني لآمل أَن تكون هذه الطريق الجديدة اكتشافاً للّه، لا اللّه المتواري في السماوات والذي ينبغي السعي إِليه بالتقشّف والتزام الواجب،

بل إِله الحبّ المختبئ، مثل طفل، في قلب المادّة، وفي ثنايا الأَلم البشريّ، وفي صميم الحيـــاة اليوميّة .

5- الوسط البشريّ

المجتمع والأُسرة والصداقة

المجتمع الحديث مؤسّسة شديدة التعقيد، والاندماج النشيط فيها يقتضي تثقيفاً وكفاءة، يتيحان الظفر بعمل وراتب، ويمكّنان من عيش حياة شخصيّة وأُسرويَّة، حافلة بالترفيه والصداقات .

و الحياة في المجتمع يحكمها التنافس، فالأَقوياء وأَصحاب الكفاءة يفوزون ويتسنّمون قمّة التراتبيّة الاجتماعيّة، في حين يخسر الضعفاء ويحتاجون إِلى مساعدة؛ كلّ فرد يجهد، ما استطاع، في سبيل تسلّق سلّم الترقّي الإِنسانيّ، كي يحظى بالامتيازات والمال، أَمّا الذين يعجزون عن الصعود فينغلقون على قنوطهم .

و قد أَلحقت مجتمعاتنا الحديثة والفنيّة الهزالَ والضمورَ بالجماعات الطبيعيّة والإِنسانيّة، وبالأُسرة، وبات على المرء أَن يختار بين النجاح والمكافأة، من جانب، أو العلاقات الإِنسانيّة والتضامن والعيش الجماعيّ من جانب آخر .

إِنّ الحياة الشخصيّة في المجتمع تتحقّق بواسطة الأَصدقاء؛ فمعهم يستطيع المرء أَن يسترخي ويُسقِط أَقنعته، ويكون ذاته، ويفعل ما يشاء، في منجاة من ضغط النظام . بيد أَنّ الصداقة أَيضاً تقتضي التزاماً . صحيح أَنّها قد تظلّ أَحياناً سطحيّة، لا تنطوي على أَيّة مسؤوليّة متبادلة؛ بحيث يتمّ التخلّي عن الصديق عندما يصبح غير مثير للاهتمام أو غير نافع، في حين أَنّ الصديق الحقّ يشعر أَنّه مسؤول عن صديقه في الأَيّام الحلوة والأَيّام المرّة، في النجاح وفي الفشل، في المحنة والمذلّة؛ فثمّة التزام وشروع في حياة مشتركة؛ أَمّا الصداقة الخالية من الالتزام فليست صداقة حقّة .

الأُسرة والجماعة هما المكانان المميّزان حيث يتحقّق التزام بالعيش معاً وبالمشاركة وبالمساندة؛ هما مكان للّقاء الشخصيّ، لقاء القلب والحبّ، حيث لا نخشى أَن يجرحنا الآخرون، فنقتسم معهم قِيَم الحياة وخبراتها . ثمّة مدارس ومؤسّسات تثقّف العقل؛ أَمّا الجماعة والأُسرة فمدارس للقلب، والحبّ، والوفاء؛مدارس تجعل كلّ فرد منفتحاً على الغير، وعلى المختلفين عنه، وعلى الصفح، والحبّ الشامل .

غير أَنّ الخطر يكمن في أَن تنكمش الصداقة والأُسرة على الذات، وعوضاً عن أَن تكونا عامل انتفاح وإِيثار وبذل سخيّ، أَن تصبحا بؤرة أَنانيّة وصَلَف واستئثار. فالأَصدقاء الذين ينكمشون على أَنفسهم يداهن بعضُهم بعضاً، ويحمي بعضهم بعضاً، وينمّون شعوراً بالتفوّق يحملهم على ازدراء الآخرين؛ في حين يمكن للصداقة أَن تكون دافعاً إِلى الانفتاح على

الآخرين وإلى المخاطرة بالحبّ، وبالدفاع عن العدل . كذلك الأُسرة التي بوسعها أن تفتح القلوب على القلوب، وتعدّ الأولاد للالتزام الاجتماعيّ ولعيش القِيَم الاجتماعيّة، قد تصبح موضع انكماش، ودفاع شرس عن امتيازاتها وممتلكاتها . وهناك الجماعات المنكفئة على ذاتها، المغرورة بحقائقها وتفوّقها . والنموذج الأقصى، في هذا المجال، يتمثّل في بدَع أو شِيَع، أعضاؤها، في الغالب، أشخاص يتّسمون بالهشاشة والاضطراب، فيبيعون حرّيّتهم ووجدانهم لشخص متنفّذ، أو زعيم مطلق السُّلطة يعدّونه مرسل اللّه، ويتغذّون بالخوف والأحكام المسبقة التي تحول دون اتّصالهم بآخرين يفكّرون على نقيض تفكيرهم، وتحرّم عليهم أيّ نقد أو نقد ذاتيّ .

أمّا الجماعة الحقّة، فعلى نقيض البدعة أو الشيعة، قد وُجدت من أجل الأشخاص، ومن أجل نموّهم نحو النضوج، والحرّيّة الداخليّة، بحيث يتسنّى لكلّ فرد تولّي مسؤوليّاته بحرّيّة .

الجماعة الحقّة منفتحة لكي تورّث الحياة للآخرين، للزائرين، والجيران، والأصدقاء، والأشخاص المختلفين، وهي مدعوّة للاندماج في حيٍّ، أو جماعة، أو منطقة . ولكن لا بدّ للجماعة من أن تكون، هي نفسها، حيّة، كي تورّث الحياة.

إنّ مجتمعاً إنسانياً حقّاً مدعوٌّ إلى تشجيع الانفتاح بين البشر، ولن يكون المجتمع إنسانيّاً إن كان الجميع خائفين بعضهم من بعض .

ثمّة فرح في كسر طوق الوحدة، وفي الانعتاق من مواطن الضعف والفقر الذاتيّة فضلاً عن أنّ الحبّ والصداقة والإخاء من أعظم الثروات الإنسانيّة؛ ويعظم هذا الفرح، على نحوٍ خاصّ، في أَثناء تأسيس الأُسرة، وفي فترة العرس، عندما يتبيّن الإِنسان أَنّ آخر قد اختاره، مدى الحياة، لا بسبب قدراته العمليّة، بل من أَجل كيانه العميق . ومن ثمّ يتحقّق تحقيقاً كاملاً فرح الحميميّة، والنشوة، والحبّ، والحاجة العميقة إِلى الأَمان، والخصب، وإِلى وضعٍ اجتماعيّ معترف به .

بيد أَنّ هذه الجماعة البشريّة الأُولى قد باتت، ولا سيّما في عهدنا، سريعة العطب . فالظروف الاجتماعيّة، واضطرار الزوجين، غالباً، إِلى العمل في كثير من التعب والتوتّر، وتطوّر كلّ منهما إِنسانيّاً ونفسيّاً، كلّ هذه العوامل تجعل حياتهما المشتركة، أَحياناً، وعرة جدّاً . وسرعان ما تبرز المشاكل، ويتّضح أَنّ الآخر ليس هو الشخص المتوقّع .

و من جانب آخر، ليس الحبّ والثقة المتبادلان، وحدهما، هما اللذان يجمعان بين الزوجين، بل الطاقات الجديدة التي توفّرها الأُبوّة والأُمومة، إِذيصبحان كلاهما معاً منبع حياة، ويصبح الطفل عامل وحدة .

بيد أَنّ الأمور ليست دائماً سهلة : فالطفل يبكي في أَثناء الليل؛ وقد يوقظ العدوانيّة وقد يخلق عدوانيّة بين الأَب والأُمّ اللّذين ينظران إِلى التربية من منظارين مختلفين ... وقد يولّد ذلك أَزمةً تنطوي على خطر وفرصة : خطر شقاقٍ وانفصال، أو فرصة العثور على وحدة جديدة أوفر عمقاً . على أَيّة حال، الطفل والشخص الضعيف يدعوان إِلى النموّ والمسؤوليّة والوحدة، وبذلك يساعدان على تجاوز التباينات السطحيّة، في سبيل الأَكثر جوهريّة .

كذلك هو أَمر الجماعة، التي قد تبدو، في ظاهرها، على جانب كبير من الجمال، حيث المشاركة العميقة، والتعاضد، والمساعدة المتبادلة . ولكن عندما يلج المرء إِلى داخلها سرعان ما يتبيّن عيوب الآخرين؛ وبعد أَن يكون قد سما بهم إِلى أَرفع قمم المثاليّة، يهبط بهم إِلى الهوّة، ولا يعود يرى منهم سوى الجانب السلبيّ . ولا بدّ من المرور عبر هذه المراحل للوصول إِلى حقيقة الأَشخاص، كما هم، لا ملائكة ولا أَبالسة، بل بشر جميلون ومجروحون، مزيج من نور وظلمات؛ أَشخاص نلتزم معهم على النموّ إِنسانيّاً لكي نحقّق ذواتنا .

إِنّنا نختار أَصدقاءنا ولكنّنا لا نختار إِخوتنا وأَخواتنا؛ وكذلك لا نختار أَعضاء جماعتنا؛ وهذا هو منشأ مصاعب الحياة الجماعيّة؛ فبعض أَعضاء الجماعة جذّابون، مستحبّون، يشاركوننا الأَفكار والمشاعر والرؤية، فيما آخرون منفّرون، لا يجدون من أَنفسنا قبولاً، ويتباينون معنا في سلوكهم، ومواقفهم، وطباعهم، وهزلهم، ونظرتهم إِلى الحياة، عامّة،

والحياة الجماعيّة، خاصّة، يجرحون ويثيرون الاضطراب : حضورهم يرهق، ومواقفهم تزعج .

ولا بدّ، في الحياة الجماعيّة، من انتقال من نظرة إِلى الآخرين على أَنّهم منافسون يمثّلون تهديداً، نحسدهم ونخشاهم لأَنّهم يملكون مواهب نفتقر إِليها، إِلى نظرة ترى فيهم أَعضاء في الجسد الواحد الذي ننتمي إِليه، مختلفين عنّا، ولكنّهم هامّون وضروريّون لحياة الجسد . وحينئذٍ لا يعود الاختلاف يوحي بالخوف .

و حينئذٍ تغدو الحياة الجماعيّة مدرسة للنموّ في الحبّ، واعتلاناً للتباين، وللاختلاف الذي يزعج ويوجع؛ اعتلاناً للجروح والظلمات الكامنة فينا، وللخشبة في عيوننا، ولنزعتنا إِلى الإِدانة ونبذ الغير، ولما نلقاه من مشقّة في الإِنصات إِلى الآخرين وقبولهم . هذه المصاعب قد تدفع بالبعض إِلى الهروب من الجماعة، والانفصال عمّن يزعجون، ورفض التواصل، وإِدانة الآخرين؛ فيما هي تحدو آخرين إِلى الجهد، ومكافحة ما ينطوون عليه من أَنانيّة، ومن نزعة إِلى احتلال مركز كلّ شيء، في سبيل تقبّل الآخرين تقبُّلاً أَفضل، وفي سبيل فهمهم وخدمتهم؛ وهكذا تصبح الحياة الجماعيّة مدرسة حبّ، ومنبع شفاء .

و في جماعة تسودها هذه الروح تتوطّد وحدة قائمة على ثقةٍ متبادلة، حيث كلّ فرد محترم وله مكانة، وحيث تنتفي المنافسة . هذه الجماعة التي توحّدها قوّة روحيّة، تشعّ وتنفتح على الغير؛ لا تدّعي التفوّق، ولا تحرص على سلطتها، ولا تتوخّى إِلاّ أَن تكون، مع جماعات أُخرى، عامل سلام في عالم مجزّأ .

و الدخول في الجماعة ليس بالأَمر الهيّن، فهو يقتضي انسلاخاً حقيقيّاً؛ فعلى من يُقدمون على الزواج أَن يتأَهّبوا له بالعزوف عن الحرّيّة الشخصيّة؛ ولكن غالباً ما يكون هذا التأَهّب سيّئاً، إِذ إِنّ فرح العرس، وكسر طوق الوحدة، واختيار رفيق أو رفيقة حياة، كلّ هذه أَيضاً تحجب، ما سيتعيّن علينا فقدانه : المجال الخاصّ، والحرّيّة الشخصيّة . إِنّ ولوج الحياة الأُسرويّة أو الحياة الجماعيّة يقتضي تبدُّلاً حقّاً؛ فلهذه الحياة مقتضيات، إِذ يتعذّر فيها على المرء الانفراد باتّخاذ قرارات تستلزم اجتماعات، ولقاءات، وتفكيراً مشتركاً . ثمّ إِنّ، ثمّة، مقتضيات الإِصغاء التي تتعاظم عندما يغرق الآخرون في الوهن، والمرض والاكتئاب . وقد يتحوّل شهر العسل إِلى عاصفة .

غير أَنّ بعض الجماعات قد تصاب بالشَلَل وتنغلق على ذاتها، وتنقلب أَماكن يحمي فيها الأَعضاء بعضهم بعضاً، ويُخفون ضحالتهم، ويسعون إِلى الاغتناء؛ فلا تعود أَماكن نموّ، بل مطرح موت، حيث يطالب كلّ فرد بأَن تعنى الجماعة به، في حين لا يريد أَحد الاهتمام بالغير ! إِنّ الانتقال من مرحلة الجماعة في خدمة الذات إِلى بذل الذات في خدمة الجماعة لا يتحقّق أَبداً مرَّة واحدة، وعلى نحوٍ نهائيّ، بل يتعيّن الجهد في سبيله كلّ يوم . وليست الجماعة

ردّاً جميلاً على كلّ المصائب البشريّة، بل هي تحدٍّ، وتقتضي من كلّ فرد، كلّ يوم، النمــوّ، وانسلاخاً جديداً، ومسيرة نحو المزيد من بذل الذات . وقد يتعيّن، أَحياناً، هجر الجماعـــة، أَو ارتضاء نبذها، إِن اقتضى الأَمر، في سبيل عيش الحقيقة ... إِنّ يسوع مؤسّس الجماعة الأَكبر مات وحيداً، خارج جماعته، محاطاً بحفنة من المقرّبين الحميمين .

5- *اختيار السلام*

نحو الشفاء

لكي نعي حاجتنا إلى التغيير، لا بدّ من أن ندرك، أوّلاً، أنّ ثمّة، فينا، ما يجب تغييره؛ وإلاّ، إن ظننّا في أنفسنا الاستقامة والطيبة والكمال، فلن ننهج درب الشفاء الداخليّ . إنّ وعينا لأحكامنا المسبّقة، ولمصاعبنا العلاقيّة والجنسيّة، ولتمزّقاتنا الداخليّة، ولمخاوفنا من الآخرين، ولسورات غضبنا منهم، هو الذي يوقظ رغبتنا في الشفاء الداخليّ، ولا سيّما عندما لا يكون الدافع إليه حرصنا على الكمال، بل توخّينا مزيداً من المحبّة، في سبيل عيش التواصل الحميم والتعاون، لكي نكون صادقين مع ذواتنا ونختار السلام .

لا ريب أنّ واجب كلّ كائن بشريّ هو التمتّع بالكفاءة وفقاً لطاقاته ومواهبه؛ غير أنّ الخَلَل يحدث عندما لا توظّف هذه الكفاءات في خدمة الآخرين، وتوقف فقط على خدمة المجد والقدرة الذاتيّين، ويحدث خَلَل، أيضاً، من جرّاء الأحكام المسبّقة، أو إدانة الغير افتئاتاً، والعجز عن تقبّل الآخرين المختلفين والغرباء والإصغاء إليهم، أو العجز عن الصفح؛ وعندما ينغلق المرء على ذاته يهوي إلى نوع من الموت، ويتوقّف سريان الحياة فيه، ويمسي عاجزاً عن منح الحياة .

و قد يوقظ لدينا وعيُ ضرورة التغيير وعيَنا لخطورة الصراعات الناشبة في العالم، والمجتمع، والعمل، والأُسرة، وتساؤلنا هل محكوم على الكائن البشريّ أن يعاني الصراع المستمرّ، والبُغض، والحرب ؟ وهل السلام ممكن ؟ وكيف التخلّي عن روح المنافسة، والحكم على الغير بما يرجّح القوّة، ويولّد ازدراء الضعف والتباين ؟

إنّ العمل في سبيل وحدة العالم وسلامه يبدأ بالذات . إذ كيف لمن يعيش حرباً ضمن أُسرته، وحيّه، ومدرسته، وجماعته البشريّة، أن يكون عامل مصالحة في بلاد نائية؛ إنّ العمل من أجل السلام في بلاد نائية قد يكون هروباً، ورفضاً لرؤية ما هو محطّم في الذات . إنّما العمل في سبيل السلام يكمن في تقبّل القريب، الذي يزعج وينفّر، وله آراء مختلفة، ويبدو وكأنّه تهديد، يبخسنا قدرَنا، ويثير هواجسنا، والإعراض عن إدانته فهو، أيضاً، كائن بشريّ يبحث عن الحياة والسلام . إنّه ليس، أوّلاً، منافس أو عدوّ بل أخ أو أُخت، وجريحٌ مثلنا .

إنّ الكائن البشريّ مزيج من نور وظلمات، من ثقة وخوف، من حبّ وكراهية؛ وهو يتمزّق داخليّاً عندما يرفض النظر إلى واقع ماضيه وجراحه، وأوهامه، وهواجسه، ويأبى تقبّلها، إذ سرعان ما ينكر أخطاءه بحقّ المحبّة أويعجز عن تبيّنها، ويفزع إلى الآراء

والنظريّات، والأَحلام والمشاريع التي تستنفذ كلّ طاقاته؛ ويسعى إِلى تبرير ذاته، وإِلى الظفر باعتراف الغير به، خائفاً من الحكم والإِدانة، ومن كلّ ما يفضح عيوبه .

إِنّ سبيل الشفاء الداخليّ والسلام يمرّ عبر معرفة الذات والولوج تدريجيّاً في ظلماتنا من غير أَن نغرق فيها، وعبر تعلّم عيش هواجسنا من غير التردّي إِلى الانهيار النفسيّ أو كراهية الذات، ولا إِتاحة الفرصة لمشاعر عُقَد الذنب، والموت، والحزن أَن تغزو نفوسنا؛ وعبر مواصلة القيام بأَعمال تهب الآخرين الحياة، والكفاح في سبيل العدل، مع الاعتراف بأَنّ دوافعنا ليست دائماً صافية، إِذ إِنّنا بشر .

إِنّ استعادة الوحدة الداخليّة تتمثّل في الاعتراف بقوانا اللاواعية، واكتشافنا أَنّ الحياة ليست هي نجاح مشاريعنا الخارجيّة، أو اعتراف الآخرين بنا، أو في امتلاك الأَشياء والأَشخاص الكفيل بردم فراغنا الداخليّ، إِنّما هي الإِقرار بأَنّ الهروب في العَبَث، وإِنكار الواقع، ومحاولة النسيان عاجزة عن منح الحياة . استعادة الانسجام الداخليّ لا تتحقّق إِلاّ في إِرادة العيش في الحقيقة، وانتباذ الأَكاذيب،و التزييف، والمظاهر والأَوهام والغوايات، ومواجهة الواقع في الذات وخارج الذات بثقة وتواضع، إِلى أن تبرز ال" أنا " العميقة، المختفية وراء غرائز الرغبة في النجاح والامتلاك، واللهو، أو التردّي في أَحضان الحزن . إِنّها تعلّم قبول الفراغ وعيشه على خير وجه .

و لكن أَنّى لنا القدرة على تحطيم الحلقة التي تدفعنا، بعنف، نحو النجاح أو الانهيار ؟ هذه القدرة لا تتأتّى إِلاّ من توخّي الحياة الداخليّة والحقيقة في اللحظة الراهنة، بعد أَن نكون قد أَدركنا أَنّ القيم الزائفة المتمثّلة في النجاح والامتلاك، والتظاهر والأَمجاد، إِنّما تؤتي ضرباً آخر من الموت : موت ما هو الأَكثر صدقاً وإِشعاعاً في داخلنا، أَي طاقاتنا على الحبّ والتواصل . هذه القدرة تولد وتتعمّق من خلال علاقات جديدة أو متجدّدة مع الأُسرة، أو الجماعة البشريّة التي قد ننتمي إِليها، باكتشافنا أَنّنا محبوبون ومعترف بنا، بكياننا العميق مع ما ينطوي عليه من جمال وشروخ، وحينئذٍ تأخذ الحواجز حول قلبنا في الانهيار، فنعبر من عالم الأَحلام والأَوهام، من عالم نظريّ ومثاليّ، إِلى الواقع .

أَشئنا أَم أَبينا، نحن البشر، جميعنا، مبحرون في سفينة الحياة الواحدة، وجميعنا متماثلون، بجمالنا، وتعطّشنا إِلى السلام والتواصل الحميم، وأَيضاً، بجراحنا ومخاوفنا . إِنّنا، جميعنا، جزء من البشريّة الواحدة، وخيرٌ لنا أَن نسعى، معاً، إِلى خلق محيط حياة لا بيئة موت، فنقف على واقع جسدنا، وماضينا، وننفتح على عالم الأَلم الذي نعيش فيه، ونجرؤ على التكلّم عن ذواتنا، وعلى الإِصغاء للغير، ولا نعود في حاجة إِلى إِدّعاء أَنّنا غير ما نحن .

مثل هذا التحوّل ينشأ غالباً من لقاءٍ مع شخص يعترف بجمالنا العميق، ويقف على سرّ كياننا المختبئ خلف زلاّتنا، ومخاوفنا، وقِيَمنا الزائفة، وكلّ طاقات الحياة الكامنة فينا . إِنّه

رائع الشعور بأَنّ ثمّة من يثق بنا، ولا يحاكمنا، ولا يديننا، ولا يبخسنا حقّنا، بل يحبّنا، فلا نعود بحاجة إِلى إِثبات ذواتنا، ونستطيع خلع أَقنعتنا، وهدم جدران حواجزنا . عندئذٍ نعهد لحظة تواصلٍ حميم توقظ لحظات السعادة والتواصل التي نعمنا بها في طفولتنا، والتي سُجّلت في ثنايا كياننا؛ فتهدأ حدّة جراح ماضينا، وتنبعث، من جديد، ثقتنا بأَنفسنا، وتنطلق فينا طاقات أَمل جديدة، وتعتلن لنا قيمتنا الخاصّة الكامنة خلف ما كنّا نعتقده أَطلال حياتنا؛ ممّا يحملنا على الاعتراف بآخرين على أَنّهم إِخوة وأَخوات في البشريّة، ويؤهّلنا للتجرّؤ على الاتّصال بمن كنّا نتوجّس منهم خشية وريبة، فنساعدهم على ولادة جديدة، فيستمدّون الرجاء من جمالهم الخاصّ، ويقبلون جراحهم الذاتيّة .

و ليس كالصلاة ما يدعم الشفاء، والصلاة ليست تلاوة أَدعية، بل هي الانفتاح على صميم ذاتنا حيث يقيم اللّه، وهي تبيّن أَنّ في أَعماق جسدنا وكياننا نبعاً، وأَنّ هذا النبع هو اللّه . اللّه هو القوّة التي توحّد الكون كلّه، وتضفي على كلّ شيءٍ معنى . اللّه هو " الكلّ " الذي يتخطّى الزمن؛ ولكنّ اللّه ليس مجرّد قوّة، أَو طاقة، أَو نور، بل هو كائن يمكننا التواصل معه، ويمكنه إِرواء ظمئنا إِلى الحبّ . إِنّه كائن كتوم يختبئ في داخلنا، وينتظر أَن نلتفت إِليه، لأَنّه يأبى فرض نفسه علينا، واستلاب حرّيتنا، وإِذا ما التفتنا إِليه سمعناه يهمس : " إِنّني أُحبّك . أَنت جميل، ولكنّك لا تعلم ذلك أَو إِنّك نسيته " .

لديّ انطباع بأَنّ اللّه المختبئ في كلّ شيء، وخاصّة في قلب كلّ إِنسان، يتأَلّم من الصُّور والأَصنام التي صُنعت له عبر الأَجيال، من خلال ثقافة دينيّة خاطئة، فشوّهت صورته الحقّة، واستحدثت إِلهاً مُشَرِّعاً، متأَهّباً للعقاب، إِلهاً فظّاً يرهقنا بالشعور بالذنب، إِن لم نتّبع شريعته، إِلهاً يرتضي بالطقوس والأَعمال الخارجيّة، ويجهل القلب البشريّ . إِنّ اللّه الحقّ هو إِله الحياة، الكامن في أَغوار القلب البشريّ، الذي لا يُحاكم ولا يدين . إِنّه ليس، أَوّلاً، إِله شريعة، بل إِله تواصل حميم . إِنّه إِله الفقراء والضعفاء، على نحو ما أَعلنه يسوع؛ إِلهٌ مهمّته أَن يحبّ كلّ كائن بشريّ، ويشجّعه، ويعاضده، ويغفر له، ويحرّره . إِنّه مثل نبع متأَهّب للانبجاس؛ إِنّه أَبٌ، وأُمٌّ تتدفّق حناناً، إِنّه حبيبٌ يستقبل ويريح . لقد جاء يسوع لكي يعلن وجه اللّه الخفيّ هذا، وقال : " تعالوا إِليّ أَيُّها المعانون والمرهقون بعبئكم وأَنا أُريحكم "؛ " إِن عطش أَحدكم فليأتِ إِليّ ويرتوِ "

التوغّل في الحياة الداخليّة هو اكتشاف أَنّ اللّه نبعٌ في ذاته، يمكن النهل منه، والانتعاش والاغتسال؛ هو التحرّر من الحاجة إِلى البروز ظاهريّاً، وإِثبات الذات؛ هو الانعتاق من سجون الحزن وفقدان الثقة بالذات من أَجل الاستكانة في اللّه وفي تواصل حميم يفيض حياة .

قد تكون الصلاة أَحياناً نداءً، وفرحاً، وانجذاباً، ونوراً دافئاً، وتواصلاً حميماً، وراحة . ولكن، في أحيان أُخرى، قد يزداد اللّه توارياً وراء هواجسنا، ومخاوفنا، وحاجاتنا إِلى إِثبات الذات، ولا بدّ، حينئذٍ من بذل الجهد من أَجل الوقوف بتواتر، في مواجهة اللّه المتواري، والإِقامة في قلبه، والاستغاثة به .

الحياة الداخليّة عامل نموّ، وتحرّر وانفتاح، فالتواصل الحميم مع اللّه ومع نبع الذات السرّيّ لا يُغلق الإِنسان في الروحانيّات وفي التنعّم بالسلام الداخليّ، بل يقوده نحو الفقير والضعيف، ونحو عيش تواصلٍ فعليّ معه .

إِنّ الشفاء الداخليّ يتحقّق عندما يشرع المرء يتنكّب عن السعي الدائم إِلى السُّلطة، والأَمان، والامتلاك، والتمتّع، وإِدّعاء الصواب، وعن ازدراء بعض الأَشخاص أو الجماعات، ويشرع ينهج منهجاً مخالفاً نحو اللقاء والتواصل مع الذين كان يزدريهم أَو ينبذهم، أو الذين لم يكن يقيم لهم شأناً . بادئ الأَمر قد يبدو هذا اللقاء عسيراً، بل مستحيلاً، من جرّاء التباين عن الآخر، ولأَنّه يزعزع نظام قِيَمنا، وقناعاتنا، ويقتضي انفتاحاً على تقبّل المختلف، وتأَهّباً لاعتبار الآخر كائناً بشريّاً، فريداً، رفيع الشأن، أَخاً أو أُختاً في البشريّة .

و عندما يقترب الإِنسان من الآخر المختلف محاولاً اختراق جدار الخوف والأَحكام المسبّقة، قد يتأَثّر قلبه، ويستيقظ تعاطفه، ويرمق، للمرّة الأُولى، الآخرَ الفقيرَ، على أَنّه صورة عنه، فلا يحاكمه ولا يدينه، بل يشرع يفهم آلامه ومعاناته، ويدرك أَنّه، مثله، كائن بشريّ، جريح القلب والشعور . إِنّ هذا اللقاء، أوالتواصل، لحقيقة جميلة وسامية، تنطوي على شيءٍ إِلهيّ، يتخطّى العقل، بل هو حضور اللّه، به نكتشف أَن ليس لدينا ما نقدّمه سوى قلبنا، وصداقتنا، وحضورنا؛ ويتمّ كلّ ذلك بقليلٍ من الكلمات، من خلال النظرة واللمسة؛ وحينئذٍ نتبيّن أَنّ في هذا الإِنسان المستضعف والبائس، نوراً يشعّ، وأَنّنا بإِصغائنا إِليه نغتني، ونتعلّم شيئاً من إِنسانيّة اللّه، إِنّها فترة تواصل حميم، ومعين شفاء للطرفين .

الضعيف عامل شفاء

عندما أَشهد رجلاً منيعاً وقادراً يعود إِلى البيت وينحني ويحبو على يديه ورجليه كي يلاعب أَبناءه، ويضحك معهم، ويصير معهم صغيراً، أَقول إِنّـه أَب إِنسـانيّ، بـل عميـق الإِنسانيّة؛ إِنّه لا ينظر إِلى أَبنائه من قمّة عرش سلطته ومعرفته، بل يتمثّل بصغرهم .

و نحن في " السفينة " و" إِيمان ونور " لا نسعى إِلى أَن نكون " من أَجل " المعـاقين، بل " معهم "، ونجهد في عقد علاقات معهم، وفي مشاركتهم الضـحك، والاحتفـال بالحيـاة، وبالسعادة معاً، ويكون، إِذّاك، عيد القلوب، ولا يعود الفقير فقيراً، بل كائناً يكتشف أَنّ بوسعه أَن يعطي، ويعطي، حقّاً، فرحاً وحياةً، ويتبيّن أَنّ الآخر سعيد بلقائه، وهنا يكمن سرّ التواصل الحميم .

أَعرف رجلاً قويّاً، مجدياً، منظّماً، مشغولاً، لا يتيح له وقتـه الالتفـات إِلـى أحـد، وأُصيبت زوجته بداء إِلزهايمر، فباتت عاجزة عن خدمة نفسها بنفسـها، فـرفض إِيـداعها مستشفى، بل حرص على العناية بها بنفسه، وعكف علـى إِطعامهـا، وتنظيـف أَسـنانها، ومساعدتها على قضاء كلّ احتياجاتها، ممّا أَفضى إِلى تحوّله تحوّلاً جذريّاً، إِذ أَصبح رجـل حنانٍ وطيبة، ونمّى جانباً من كيانه كان غافياً : فاستيقظ عطفه على الضعفاء، وقدرته علـى الإِصغاء والفهم، والتواصل؛ وتفجّر من قلبه نبعٌ كان ساكناً تجلّى فيه " أَناه " العميق . إِنّـه، بانحنائه العطوف على زوجته العليلة، شرع، هو القويّ، يتقبّل وهنه الخاصّ، مدركاً أَنّ مـن حقّه أَن يكون أَحياناً ضعيفاً، متعثّراً، معرّضاً للعطب، بحيث لا يتعيّن عليه أَن يبدو دائماً قويّاً، فائزاً، مسيطراً، ولا أَن يلبس قناعاً كي يظهر بما ليس عليه، بل يتمكّن من أَن يكون هو نفسه . وقد قاده ذلك إِلى اكتشاف إِنسانيّته الحقّة، وإِلى تحرّر داخليّ عميق الغـور، إِذ باسـتجلائه الجمال والنور الكامنين في آخر ضعيف أَخذ يكتشف جمال وهنه الخاصّ ونوره، بل اكتشـف أَنّ الضعف هو البيئة المثلى للحبّ والتواصل، والمكان الذي يقيم فيه اللّه . لقد اكتشف اللّه في الهوان، وأَصاب تحرّراً أَكبر .

إِنّ الضعيف يُشيع حضوراً . في جماعتنا استقبلنا أَنطونيـو : إِنّـه فـي الخامسـة والعشرين من العمر، ولكنّه هزيل، جريح، منكفئ على ذاته، عاجز عـن السـير، والكـلام، وإِطعام نفسه؛ إِنّه شديد الوهن، وقد لا يعيش طويلاً، وفي حاجة دائمـة إِلـى الأوكسـجين . ولكنّه، في الآن عينه، شعاع شمس . عندما يدنو منه أَحد ويدعوه باسمه، تتأَلّق عيناه، وتغشى البسمة محيّاه، ويتجلّى عليه جمال رائع . إِنّ صغره، وثقته، وجماله تجتذب القلوب، وتغـري بالمكوث معه .

إنّ الضعيف المسكين يزعج، ولكنّه، أيضاً يوقظ القلب . من المؤكّد أنّ أنطونيو يزعجنا، فهو يحتاج إلى مساندة دائمة ليلَ نهار، يحتاج إلى من ينظّفه ويطعمه، ويبقى إلى جانبه؛ غير أنّه، أيضاً، يوقظ قلوب المساعدين، ويحوّل كيانهم، ويجعلهم يكتشفون بُعداً آخر للإنسانيّة، ويدخلهم لا إلى عالم عمل ومنافسة، بل عالم تأمّل، وحضور وحنان . لا يلتمس أنطونيو مالاً، ولا معارف، ولا سلطة، ولادوراً يلعبه، بل يلتمس، جوهريّاً، التواصل والعطف؛ وربّما هو اعتلان لأحد وجوه اللّه، إله لا يحلّ جميع مشاكلنا بالقوّة وبسلطان خارق، بل إله يستجدي قلوبنا، ويدعو إلى التواصل الحميم .

الحجر الذي يرذله البناؤون قد يصبح، هنا أيضاً، حجر الزاوية، فالإنسان المنبوذ يحمل، في ذاته، عناصر شفاء من نبذوه .

و الحنان ليس عواطف ومشاعر، بل هو عذوبة وطيبة لا يثيران خوفاً؛ إنّه رقّة تُشعر الآخر أنّه ذو شأن وقدْر .

و يتجلّى الحنان من خلال جرْس الصوت، وطريقة اللّمس . إنّه ليس رخاوة، بل قوّة تُسبغ الشعور بالأمان، ويُعبَّر عنه بالعينين واليدين . إنّه موقف للجسم المتيقّظ لجسم الآخر . لا يفرض الحنانُ ذاته فرضاً، ولا يتّصف بالعدائيّة، ولا يأمر، بل هو رقيق ومتواضع، ومفعم احتراماً . إنّه ليس غواية، بل إصغاء ولمسة يُوقظان طاقات في قلب الآخر وجسده، ويفيضان حياةً وحرّيّة، ورغبة في العيش .

و لا يتعارض الحنان مع الكفاءة والجدوى، بل على نقيض ذلك، فإطعام الآخر وغسله يستلزمان كفاءة وجدارة، وإلاّ تعرّض الآخر للأذى . إنّ الكفاءة هي غطاء الحنان والتواصل . والحنان تمييز وتوازن مثل يد تحمل عصفوراً جريحاً، فلا هي مفتوحة تماماً لئلاّ تسقطه، ولا هي مطبقة لكيلا تسحقه .

الجاهزيّة

لا تكمن صعوبة لقاء الآخر المختلف والتواصل معه، في التوقّف والإصغاء إليه، مع أنّ، ثمّة، دائماً، خشية اللقاء، والتأثّر، لا بل خشية الانخداع بالآخر، إنّما الأخطر هو الخوف من النتائج . فمصادقة الفقير ليست منزّهة من المخاطر . ولئن كان من السهل زيارة موقوفين في سجونهم حيث ساعات الزيارة محدّدة، وحيث الحرس يوفّرون حماية كافية، وحيث من اليسير الإصغاء إلى السجناء، والتحاور معهم، وعقد علاقات مودّة معهم، غير أنّ المشكلة تحدث فيما بعد، إثر مغادرتهم السجن، فقد يأتونك زائرين، ولا سيّما إن كنت قد وطّدت علاقات صداقة معهم، ولا يأتون في مواقيت محدّدة، بل في منتصف الليل؛ فهل أنت متأهّب لهذا الإزعاج، وإلى عيش كلّ عواقب التواصل ؟

و إن أنت أعطيت الجائع الذي يقرع بابك خبزاً، أليس من المتوقّع أن يعود إليك ؟ فالجوع سيعاودهُ سريعاً، بل سريعاً جدّاً . إنّ عقد علاقات مع إنسانٍ في محنة، قد يجرّ عواقب تتعلّق بتنظيم الوقت، والجاهزيّة، والارتباطات السابقة، أومجرّد الطاقة النفسيّة والعاطفيّة على تقبّل آخر في ذاتك .

القضيّة قضيّة خيار . فهل أنت متأهّب لدفع حياتك في نهج جديد، وللتخلّي عن بعض النشاطات، والمُتَع، والتسليات، بل عن أنماط عمل تروقك، وبعض صداقات سطحيّة، لكي تعيش نمطاً آخر من العلاقة ؟ هذا التخلّي، في شتّى المجالات، ليس بالأمر اليسير، ويستلزم قوّة جديدة، بل قد يقتضي العثور على أصدقاء جُدُد، وجماعات جديدة، وإخوة وأخوات جُدد من شأنهم توفير الدعم والتشجيع اللازمين .

فهذه العلاقة التي تكتشف، من خلالها، الكائن المحروم وآلامه، وصيحاته، واحتياجاته العميقة، قد تدفعك على دروب جديدة، حيث تشرع الحواجز التي أقمتها حول قلبك تنهار، فتصبح عامل سلام ومصالحة . على مثل هذا الدرب، قادني، من حيثُ لم أتوقّع، رَفائيل وفيليب، وقد كان درب تحرّر، وسلام داخليّ، ورجاء .

و قد يدفع كلّ ذلك إلى تحوّلٍ داخليّ عميق، وإلى نظرة قشيبة على القِيَم الشائعة، يُرى على ضوئها أنّ من كان مزدرىً ومنبوذاً هو جديرٌ بالحبّ والاحترام لأنّه قريب من اللّه، بل لأنّ الربّ يقطنه . وتُشرع ثغرة في الحواجز المحيطة بالقلوب، وفي جهاز الدفاع عن الذات تنفسح آفاق عالم زاهٍ متحرّر من الإيديولوجيّات، والأوهام الاجتماعيّة، وتفتضح مزاعم العرق والتراتبيّة الاجتماعيّة الزائفة، وتتزعزع الأحكام المسبقة .

الترحيب بالعدوّ

الصراعات بين البشر هي نسيج تاريخ البشريّة، وهي نتيجة تلك الحاجة العميقة المدوّية في قلب كلّ رجل، وكلّ إمرأة، وكلّ جماعة بشريّة، وكلّ مرجع انتماء، إلى إثبات تفوّقهم قدراً، وقوّة، وقرباً من اللّه . إنّها قوام كلّ منافسة فيها رابح وخاسر . ومن ثمّ فإنّ تاريخ البشريّة إنّما هو تاريخ حروب واضطهاد، يسعى بها شعب إلى إزالة شعبٍ آخر، والاستيلاء على أرضه، واستعباده، ممّا يولّد في قلب المضطَهدين الكراهية والحاجة إلى الانتقام .

و في سبيل الخروج من تلك الحلقة الجهنّميّة لا بدّ من أن يسعى كلّ فرد وكلّ جماعة إلى مصالحة العدوّ .

و فضلاً عن وجود عدوّ شعبٍ أو عرق، ثمّة عدوّ شخصيّ، وهو ليس من بلدٍ ناءٍ غريب، بل إنسان قريب، في المحيط، أو في العمل، أو الأُسرة، أو الحيّ، أو الجماعة، إلخ ...و هو يمثّل تهديداً للحرّيّة والإزدهار الذاتيّين؛ إنّه يحطّ من قدر الآخر، ويهمّشه، ويؤذيه، ويثير غضبه، وهواجسه، وخوفه، ونوعاً من الانهيار . ومثل هذا العدوّ لا يمكن دائماً تسميته، أو تبيّن عدوانيّته . فالأُمّ المتسلّطة قد تحول دون ازدهار حرّيّة ابنها، وهي، بالتالي عدوّة ابنها . ولكي يتمكّن الكائن البشريّ من النموّ على درب الانفتاح والحبّ الشامل، عليه أن يعي أنّ له أعداء، أشخاصاً يأبى رؤيتهم، ومحاورتهم، وأشخاصاً يتمنّى زوالهم من أُفقه .

ثمّ تحدُث يقظة، وينبعث شعورٌ قشيب، ورغبةٌ في التغيير، إذ تستثير مشاهدُ أَحداث الحرب الرهيبة، والكراهية، والسحق، والموت، رغبةً في العمل من أجل السلام في المحيط، ودفن الخلافات؛ ويتساءل المرء هل تثوي المشكلة في ذاته، ويتمنّى أن يتبدّل قلب الحجر في داخله المفعم خوفاً إلى قلبٍ من لحم يتأسّى بمآسي الآخرين، ويسعى إلى جعل العدوّ صديقاً .

إنّ احترام الآخر وتقبّله يستلزمان الاعتراف بإنسانيّتنا المشتركة وبقدسيّة كلّ كائن بشريّ، الأَضعف والأَفقر كالأَقوى والأَغنى . في معزل عن هذه الرؤية وهذه القناعة الأَساسيّة، لن تتحقّق أَيّة قوّة أَدبيّة، ولا أَيّ تقدّم نحو السلام ووحدة البشريّة؛ ولا بدّ أَيضاً من قناعة مبنيّة على الرجاء . فالكائن البشريّ، أَيّة كانت بلاغة جرحه، ليس محكوماً عليه بالتمزّق، والسحق، والبغض، ففي البشريّة جمعاء، كما في الجسم البشريّ وفي الوجود، ثمّة قوى شفاء، وعوامل توازن، تسمح بسريان الحياة . ثمّة رجال ونساء، مرشدون روحيّون، وشهود حبّ، وأَنبياء سلام ومصالحة قادرون على مساعدة الآخرين على العثور على نبعهم في إله السلام . هؤلاء الرجال والنساء يستمدّون جذورهم من رؤية إيمان، ويدعون البشريّة إلى الوحدة، ويمكّنون الكائن البشريّ من مواجهة الصراعات .

إنّ مسيرة المصالحة مع العدوّ، وتحويل من كنّا ننبذه إلى من نحترمه ونصغي إليه، تنطلق غالباً من رؤية الإيمان هذه، ومن اليقين بوجود قدرة إلهيّة كامنة في القلب البشريّ، وكفيلة بدفع البشريّة نحو الوحدة والسلام . غير أنّها تقتضي تصميماً على التقدّم، وبذل جهود محسوسة، وكفاحاً ضدّ سيطرة الخوف، والانهيار، والكَلَل . هذه الجهود، التي تمثّل الغفران، تبدأ برفض إرادة إزالة العدوّ، وموته، وبالاعتراف بحقّه في الوجود والعيش لأنّه كائن بشريّ يمتلك قلباً وشعوراً، وحقّاً بمكان تحت الشمس، وبأن يكون ذاته بما ينطوي عليه من حدود، ومواطن وهن، ومواهب . وهذا الاعتراف يقتضي أفعالاً ملموسة حياله: كالإقلاع عن الإساءة إليه بالقول، وعن الحطّ من قدره؛ لا ريب أنّ العدوّ يثير فينا مخاوف وعقداً، وأنّنا لا نستسيغه، ولكن ذلك لا ينفي أنّ له حقّاً في العيش، وفي احتلال مكانه، وفي أن ينمو، ويتطوّر، ويتغيّر، إلخ ... فعلينا أن ننظر إليه نظرة ودّ، ونقرّ بأنّ فيه خيراً، ونجهد في سبيل الإحاطة بتاريخه وجراحه، ومواطن عطبه، والاستعاضة عن الحكم الذي يقود إلى الغضب والحقد بحكمٍ يوقظ العطف . إنّ تحرّي الإيجابيّ فيه عوضاً عن اجترار مثالبه يمثّل صراع الغفران .

إنّ مسيرة تحويل العدوّ إلى شخص نحترمه ونتقبّله، مسيرة تتطلّب وقتاً، وجهوداً، وانضباطاً . فالسلام لا يهبط من علُ . صحيح أنّه ينبع من قوّة إلهيّة خفيّة، ولكنّه يتحقّق، أيضاً، بفضل ألف جهد تبذل كلّ يوم، جهود تستهدف قبول الآخر كما هو، والصفح عنه، وقبول الذات بكلّ ما تنطوي عليه من جراح وهشاشة، واكتشاف العدوّ المختبئ داخل الذات، وانتهاج الأُسلوب الأمثل لاستيعاب الشروخ الذاتيّة، والمخاوف والهواجس، استيعاباً إيجابيّاً .

إنّني معجب بجماعة المصالحة، في كوريميلا بإيرلندا الشماليّة، التي أسّسها قسّ بريسبيتيريّ بغية تحقيق المصالحة بين الكاثوليك والبروتستانت المتصارعين في ذلك البلد . هذه الجماعة تستقبل، على سبيل المثال، في نهاية الأُسبوع، نحو خمس عشرة أمّ كاثوليكيّات قُتِل لهنّ ابن أو زوج على يد الميليشيات الاتّحاديّة، ونحو خمس عشرة أُمّ بروتستنتيّات قُتل لهنّ ابن أو زوج على يد جيش التحرير الايرلنديّ . هؤلاء الأُمّهات الثلاثون يبكين معاً، ويصلّين معاً، ويقتسمنَ ألَمهنّ، ويكتشفنَ درباً إلى السلم والمصالحة .

ليس الغفران واقعاً يتمّ دفعة واحدة، بل هو مسيرة تستلزم وقتاً . وكثيرون ممّن عانوا الكثير، قد تأبى مشاعرهم الصفح، غير أنّهم لا يسعون إلى الانتقام ولا يتمنّون موت من آلمهم بل يرغبون في أن يستعيد الظالمون الحقّ والعدل، ويلتقوا اللّه من جديد .

يبلّغنا الإنجيل وصيّة يسوع : " أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى من يبغضونكم، صلّوا لأجل مضطهديكم " ... من اليسير محبّة من يحبّونكم، فحتّى الكفرة يفعلون ذلك . أمّا أنا فأقول لكم أحبّوا أعداءكم . " من المحقّق أنّه يتعذّر علينا جميعاً أن نحبّ من يخدعنا، ويحطّ من قدرنا، ويُقصينا عن الحياة الإجتماعيّة . غير أنّ كلام يسوع ينطوي على

وعد، ولكأنّه يقول : " أَعلم أَنّك، بمفردك، لا تقوى على الصَفح، فقد أَمعن الآخر في إِيــذائك؛ ولكن، إِن شئت، سأعطيك قوّة جديدة تمكّنك من المستحيل، سأهبك روحي، ولكنّ ذلك مرهون بإِرادتك ... " المطلوب منّا، إِذن، أَلاّ نتجمّد في موقف الضحيّة المفعمة غضباً، وحقداً، ورغبة في الانتقام، بل أَن نفتح القلب لروح يسوع الذي يشفي، شيئاً فشيئاً، عُقَدنا ومخاوفنا، ويساعدنا على الجهد من أَجل انتهاج درب السلام .

حلّ الخلافات

إنّ التمرّس من حلّ الخلافات هو، اليوم، ضرورة قصوى، خلافات في الأُسرة الواحدة، بين الرجل والمرأة، بين الأَهل والأَبناء، في العمل، داخل المنظّمات، والاتّحادات، والجماعات البشريّة، خلافات بين البلدان، والأَجناس، والديانات ...

في كلّ خلاف ثمّة، ظاهريّاً، رابح وخاسر؛ ولكن غالباً ما ينقلب الرابح خاسراً، ولا سيّما إن هو حقّق ربحه بالقوّة والسلطان . فالشعور بالذنب والكذب الكامنان في قلبه يدمّرانه من الداخل . وقد انتهيت، في هذا المضمار، إثر خبرة سنوات قضيتها في " السفينة "، إلى المبادئ التالية :

– عدم التهرّب من عدوّ أو من خلاف، بل محاولة مواجهته في الوقت الملائم . عدم التقليل من شأن الخلاف، بادّعاء ضآلة خطره، خشية التحديق فيه . فمن اليسير إطفاء نار صغيرة، أمّا إذا تُركت لتصبح حريقاً هائلاً تعسّرت السيطرة عليها . إنّ الخلاف، شأنه شأن الأَزمة، دليل حياة، وقد يمهّد لحقبة جديدة من السلام والوحدة . غير أنّ الخلاف الخفيّ، غير المعلن، الذي ينقلب حزناً، وانهياراً، وموتاً داخليّاً، أشدّ خطراً من الخلافات العائمة على السطح، ولذلك ينبغي مواجهته مواجهةً جدّيّة .

– الإصغاء لكلّ فريق ومحاولة استيعاب قوله، ووجهة نظره، وما أُلحق به من جروح . وكذلك الإصغاء إلى من يمتلك السلطة، وتبيُّن مخاوفه من وضع سلطته موضع التساؤل، مما يُبقيه، غالباً، في موقف دفاع .

– التمييز، في كلّ خلاف، بين العناصر الموضوعيّة والعناصر الفرديّة، بين ما يتعلّق بواقع خارجيّ عن الأَشخاص، وما هو خلاف بين الأَشخاص أنفسهم . وإذا اتّضحت لدى أحد الأَطراف حاجة ملحّة إلى الربح وتوسيع رقعة سيطرته، فينبغي ألاّ يُفقده حلُّ الخلاف ماءَ وجهه، بل من الأَفضل أن يشعر كلّ طرف أنّه ربح شيئاً، وأنّ التعاون يؤتي من المغانم أكثر ممّا تؤتيه الحرب، وإلاّ استمرّ الخلاف.

و قد يتطلّب تبيّن عناصر الخلاف الموضوعيّة، وقتاً، إذ غالباً ما يُضفى على ألفاظٍ واحدة معاني متباينة .

– قد ينشأ الخلاف من شعور رهيب لدى الفرد باللاأَمان، كان يحميه منه دورٌ يلعبه، أو مقتنيات، أو قناعات، أو طقوس، أو نشاطات خاصّة، فإذا ما حُرِم منها، هيمن عليه القلق، وتفجّر فيه العنف . وقد يمسي هذا الانفجار فرصةً للشفاء، إذا ما شعر المعنيّ أنّ ثمّة من يجيد الإصغاء إليه ويحترمه، وارتضى أن يساعده أشخاص مؤهّلون وأقوياء على تجاوز هواجسه .

– وقد تتفجّر خلافات كثيرة من تباين التوقّعات بين شخص وآخر؛ فمن لا يظفر من الآخر بما كان يتوقّعه منه قد يُمنى بالخيبة، ويتملّكه الغضب، في حين لم يكن الآخر على علم بهذا التوقّع، أو كان معارضاً له . وتفادي هذا الخلافات يتمّ بالاتّفاق على عقدٍ محدّد الشروط؛ ولكن غالباً ما يأبى القوم العقود، مؤثرين المُبهَم، والعاطفيّ؛ يخافون من العقلانيّ والقانونيّ، ومن توضيح ما يريدون ويتوقّعون، ومن التزام جانب العدل وحقوق الآخرين .

و يتسنّى، عموماً، فضّ الكثير من الخلافات عندما يستطيع كلّ فرد التعبير بحرّيّة عن موقفه، في جوٍّ آمن، وبحضور شخص يتمتّع بثقة الجميع .

غير أنّ ثمّة من يأبون كلّ تسوية، فأحكامهم المسبّقة متغلغلة في أعماق كيانهم . لا يعترفون بوجود أيّ خير في الآخر، ويرفضون كلّ حوار، ويتعذّر عليهم التخلّي عن أيّة من قناعاتهم في سبيل الانفتاح على الآخر . فهم إمّا أن يكونوا رابحين، أو ضحايا ممتلئة حقداً ورغبة في الانتقام . وحينئذٍ لا بدّ من صبر وحكمةٍ جمَّيْن للحفاظ على أَمل في التغيير .

في حقبة الخلافات التي نشهدها لا بدّ من وجود رجال ونساءٍ متمرّسين من القدرة على فضّ الخلافات، متمتّعين بالحياة الداخليّة والحكمة الضروريّتين للإنصات إلى الأَطراف المتصارعة، واستجلاء ما يجمعها ويمكّن من إقصاء المخاوف والأَحكام المسبّقة، ويتلقّى كلّ طرف عوناً على التوجّه نحو الآخر . ومن الهامّ أن توجد أَماكن تُلقَّن فيها سُبُل السلام، ووسائل مواجهة الخلافات وفضّها . فعالمنا يتحوّل، أكثر فأكثر، إلى مسرح عنف وصدام، ولا بدّ من معرفة احتلال مكان فيه عوضاً عن الهروب منه .

التأنيب

على من يتولّى مسؤوليّة سلطة أَن يؤنّب، في حالات معيّنـــة، وقـــد اكتشـــفتُ، فـــي "السفينة"، فنّ التأنيب، وفيما يلي بعض ملاحظاتي في هذا الشأن :

– تجنُّب التأنيب بدافع الغضب والانفعال، بل التريُّث إِلى أَن يخيّم على النفس السلام، واستجلاء الوقائع قبل الاتّهام .

– قبل التأنيب إِشعار المؤنّب بأَنّه مقدَّر ومحبوب، وزرع اليقين في نفسه بأَنّه غيـــر منبوذ، ولا مزدرى، ممّا يجعله أَكثر تأَهُّباً لتقبّل التأنيب؛ فليس المقصود إِذلاله، بل مســـاعدته على التطوّر نحو الأَفضل .

– ويُستحسن أَن يعترف المسؤول أَنّه قد يرتكب هو نفسه أَخطاء، وبالتـــالي لا يـــأتي تأنيبه من موقع تفوُّق، ومن قمّة عرش، بل يبدو أَخاً أو أُختاً لا يتوخّى سوى المساعدة علـــى الإِصلاح، إِيماناً منه بأَنّ لدى الآخر ما يستطيع تقديمه .

– وفي أَثناء كلّ ذلك، عدم التخلّي عن موقف أَساسيّ : وهو الإِيمان بمـــن يتعـــرَّض للتأنيب، ومساعدته على التطوّر إِيجابيّاً نحو مزيد من الحرّيّة، والانسجام والصـــدق، وعلـــى اكتشـــاف طاقـــات طيبـــه، وكـــذلك جروحـــه ومصـــاعبه الخاصّـــة .

اللاعنف موقف من آخر (أو من جماعة) عدوانيّ، أو جائر، من أَجل دفعه نحو التحلّي بمزيد من العدل والحقّ، في معزل عن إِدانته كشرّير، أو الاعتداء عليه بعنف .

و بالتالي فاللاعنف هو ردّ على العنف يستهدف إِيقاظ ضمير الظالم، وله شأنٌ كبير في كلّ خلاف، سواء في مواجهة عدوّ، أو عندما يتعيّن التأنيب . وهو يفترض أن يتسرّب حبّ الظالم في ثنايا عدوانيّة اللاعنف، فتتولّد لديه القناعة بأَنّ هذا الظالم ليس شرّيراً شرّاً مطلقاً، بل أَنّ فيه خيراً وأَنّه قابل للتغيّر، وأَنّ المستهدف هو حياته لا موته . صفوة القول أَنّ اللاعنف يتفجّر من الحبّ .

العنف، لدى بعض الناس، لغة تستلفت انتباهاً يحتاجون إِليه كي يشعروا بوجودهم؛ إِنّه صيحة تنبعث من الاضطراب ومن صورة الذات الجريحة . إِنّه دليل حياة وأَمل . وعندما يولى الانتباه المطلوب على نحوٍ إِيجابيّ، مرفقاً بالترحيب، في معزلٍ عن الردّ على العنف بالعنف، بل بالرقّة والتفهّم، فغالباً ما يضمحلّ العنف .

لستُ أَدّعي أَنّ إِنساناً عازماً على القتل سينهار، حتماً، حيالَ اللاعنف . ولكنّني أُوقن أَنّ العنيف إِذا ما عومل ككائن بشريّ، لا كوحشٍ كاسر، فثمّة احتمالات راجحة بأَن يستجيب ككائن بشريّ . وهذا يقتضي أَلاّ نخيفه، بل أن نحاول محاورته كإِنسان .

حاملو رجاء

تمرّ الحياة البشريّة، عبر مراحل مختلفة، من الوهن إِلى الوهن، ومن أَحشاء الأُمّ إِلى أَحشاء الأَرض، حيث تتعاقب فترات نشاط ونور، وفترات توانٍ وظلمة وأَلم . وفي أَثناء مسيرته نحو إِثبات ذاته قد يُدفع الإِنسان إِلى نشر الفرقة، وترسيخ عالَميْن متوازيَيْن يتقابل فيهما أَقوياء وضعفاء، أَغنياء وفقراء، ناجحون وفاشلون . ثمّ تحين فترة يضرب فيها جذوراً في الأَرض، ويعيش معاهدة مع آخرين، في إِطار أُسرة أو جماعة، فيكتشف خصبه، ويهبط من المُثُل إِلى الأَرض، ويتبيّن أَنّه، في أَثناء مسيرته الشخصيّة، كان عامل فرقة، ويتبيّن جراحه ومخاوفه الجوهريّة، ويرغب في إِحلال السلام في ذاته، كي يصبح عامل سلام ومصالحة في حياته الخاصّة، وأُسرته، وجواره، وبلده، وكنيسته، وعالمه ويتَّضح له أَنّ الفرقة المبنيّة، غالباً، على أَحكام مسبّقة ومخاوف، تقوده إِلى مظالم، وحرب، وبغضٍ، وموت، فيبحث عن درب نحو الوحدة والسلام، حيث يتسنّى لكلّ فرد أَن يتبوّأ مكانه ويعيش، أَيّة كانت مواهبه، وحدوده، وأوهانه. ويتجلّى له، حينئذٍ، أَنّ طريق السلام لا يتمثّل في صعود نحو النور عبر التماس السلطة، والاعتراف، وإِشعاعٍ متزايد، بل عبر الانحدار نحو الصغير والضعيف. هنا يكمن السرّ، وهنا تكمن المفارقة .

و يصبح ما كان قد تنكّب عنه حتّئذٍ، كالتواصل الحميم، والعطف، هو أَشدّ ما يحتاج إِليه من أَجل استعادة وحدته الداخليّة، والتمكّن من منح الحياة، فيتوجّب عليه أَن يتحوّل، وينهج درباً جديداً، ويتيقّن أَنّه لن يعثر على اللّه وعلى الشمول، في السماء أو النجوم، ولا في النظريّات، والإِيديولوجيّات، والمُثُل، بل في الكائن الحيّ، في الأَرض، والوحل، والمادّة . إِنّ اللّه والشمول متواريان في الفقراء والضعفاء الذين يتلهّفون، قبل أَيّ شيء، إِلى الاعتراف والتواصل .

إِنّنا نحتاج بعضنا إِلى بعض، فكلٌّ منّا جزء من بشريّة مشتركة، ومن جسم شامل، حيث لكلّ كائن بشريّ شأنه ومكانه . نحن لم نُخلق لنكون أَبطالاً منعزلين، وأَشخاصاً " رائعين "، بل لكي نكون إِنسانيّين، كلّيّةً وبعمق، كلٌّ في مكانه، بمواهبه وحدوده، داخل جسد البشريّة الواحد . أَمّا إِن نحن غفلنا عن أَرضنا، أَرض كوكبنا، وأَرض أَجسادنا وقلوبنا؛ وإِن خيّل إِلينا أَنّنا لسنا سوى إِرادة، وعقل، وروح، ووعي للذات، وسلطة، فنحن ماضون صوب الانفجار . وإِنْ توخّينا العظيم والكلّيّ متربّعين على عروش، وأَغفلنا الصغير والضعيف، صاحب الجسم الهشّ المعرّض للمرض والموت، المفتقر إِلى رعاية، وطعام، وترفيه، وصداقة، لآل كلّ شيء إِلى حطام . إِنّ التجربة الكبرى التي قد يتعرّض لها الكائن البشريّ هي الاستسلام لغواية

السلطان، ورفض التواصل مع هشاشته وضآلته الذاتيّتين . أَمّــا إِذا ســلكنا طريــق القلــب والتواصل مع أَشخاص حقيقيّين، فسنقوى على إِعادة بناء الأَرض معاً .

و لكن لا مفرّ من الإِقرار بأَنّ هذه الأَرض هي وادي دموع وأَلم، حافلــة بــالمرض والموت، بالفرقة، والكراهية والحرب، والمظالم، واللامساواة . وداخل كلّ إِنسان صراع بين حرب وسلم، بين نور وظلمة، بين ثقةٍ وخوف، بين إِيثار وأَثرةَ، بين انتفاح وانغلاق . وحيال الأَلم، والمرض، والموت والوهن، قد تحدث يقظة، وينطلق نداء إِلى الحبّ والتعــاطف، كمــا يمكن أَن يحدث هرب إِلى الآراء والنظريّات يؤدّي إِلى تصلّب القلب .

تقف البشريّة، اليوم، أَمام منعطف . فبفضل التقنية بات بوسعنا فعل كلّ شــيء خــلا جعل كوكبنا أوفر محبّة وسعادة . لقد وفّرت التقنية تقدّماً مادّيّاً، وغواية للإِنسانيّة؛ وانطلقــت إِلى غزو القمر والنجوم؛ أوَ لم يحن الوقت لكي نرتدّ إِلى الأَرض، ونكتشف الإِنســانيّة مــن جديد، ونرمق، معاً، الضعيف والفقير، لكي يحرّك العطفُ قلوبَنا، ويوقظ أذهاننا ؟

إِنّ ذلك يستلزم ارتداداً وتحوّلاً؛ فأيّ حَدَثٍ كفيل بتفعيل هذا التحوّل ؟

رجلاً وامرأةً خلقهما

في سبيل حياة حبّ حقيقيّ

Homme et femme il les fit.
pour une vie d'amour authentique
Fleuris / Bellarmin 1984

هذا الكتاب

كتبه عام 1984، في محاولة ردّ على التساؤلات العديدة المتعلّقة بالممارسات الجنسيّة، ولا سيّما لدى المعاقين ذهنيّاً، والتي كانت تطرح نفسها بلجاجة في مراكز " السفينة " . وكان جان فانييه قد انتهى إِلى قناعة بضرورة مقاومة الإِباحيّة، في هذا المضمار، فالممارسات التي تتمّ في معزل عن نضج عاطفيّ، وحبّ حقيقيّ، قد تكون وبيلة ومدمّرة .

غير أَنّ كاتباً فرنسيّاً شهيراً له ابنة مغوليّة، نشر كتاباً أَعلن فيه أَنّ ابنته هذه عرفت السعادة يوم شرعت تستخدم موانع الحمل، وتمارس علاقات جنسيّة، وقد زاره جان فانييه، وحاوره، وناقشه، ولكنّ كلاًّ منهما تشبّث بموقفه .

و كان لا بدّ لجان فانييه من نشر كتابه لتبيان رؤيته المسيحيّة والإِنسانيّة في هذا المضمار، وقد أراده أَن يكون شهادة نضجت خلال عشرين عاماً من معايشته المعاقين في "السفينة"، وتعبيراً عن رؤيته الشاملة للجنس والزواج .

فهو، في معايشته للمعاقين عقليّاً، اكتشف لديهم الكثير من المشكلات الجنسيّة، وتساءل عن السبيل الأَمثل لمواجهتها : فهل يسوغ السماح لهم بعلاقات جنسيّة حرّة، أو هل ينبغي الحدّ من هذه العلاقات أو منعها، أو تنظيمها ؟

قديماً كان هذا الإِشكال يُحلّ عن طريق سجن المعاق، وفصله عن الآخرين، اتّقاءً لشرّه . وفي المقابل دعت النزعة الحديثة إِلى "تطبيع" المعاقين في المجتمع بمنحهم حرّيّة جنسيّة بلا قيود، بصرف النظر عن عواقبها العاطفيّة والنفسيّة، ولكأَنّ النشاط الجنسيّ منفصل عن الشخص نفسه وحياته .

لقد أدرك جان فانييه، وأَيّده كثيرون، ضرورة ربط الفعل الجنسيّ بعلاقة حميمة ثابتة . وكان لا بدّ للسفينة من بلورة رؤية واضحة بهذا الشأن المعقّد . وقد تبيّن لها أَنّه من الحمق إِطلاق حرّيّة المعاقين الجنسيّة، فهم في الحياة اليوميّة يحتاجون إِلى مواكبة، وهم لا يمتلكون، دائماً، قوى التفكير والإِرادة التي تتيح لهم ضبط نزواتهم الجنسيّة، ولا يملكون استقلالاً داخليّاً كافياً يمكّنهم من قيادة حياتهم بمفردهم .

و اتّضح أَنّه لا يسوغ اللجوء إِلى زجر المعاق، أو الاكتفاء بالحوار معه، بل لا بدّ من اكتشاف طاقات جديدة لديه تجتذب اهتمامه، وتلهيه عن الهوس الجنسيّ . ولا بدّ، أَيضاً، من اكتشاف المعنى العميق للجنس لديه، ولحدوده ونسبيّته .

المعاق في حاجة إِلى حبٍّ شافٍ، يرمّم كيانه المشروخ، ويشرع قلبه على الثقة والرجاء . ويكون الشفاء أَشمل وأَعمق إِن آمن المعاق بأَنّ إِلهاً يحبّه، بل يؤثره بحبّه، فعقد معه علاقة محبّة .

المعاق في حاجة إلى تربية تعلّمه الانفتاح على الآخرين، وإقامة علاقاتٍ معهم، وعلى تحمّل مسؤوليّة ذاته، ومسؤوليّة الغير، وعلى اكتشاف كلّ ماهو إيجابيّ وجميل فيه، وقدرته على إنجاز أشياء جميلة.

و على المربّي أن يبرهن له عن حبّه له، بمواكبته، وتشجيعه، وابتغائه صالحه؛ وهذا يقتضي منه أن يمتلك قلباً جديداً مستمَدّاً من حكمة اللّه، ولا ينفكّ يتغذّى بالصلاة .

غالباً ما يحلم المعاقون بالزواج الذي يساويهم بسائر البشر "الطبيعيّين" . غير أنّ الحياة الجماعيّة الموسومة بالتفاهم، والعطف، والإصغاء، كفيلة بتخفيف معاناتهم .

و قد يلجأ المعاقون إلى العنف، وما عنفهم إلاّ استلفات لانتباه الآخرين، أو ثورة على حيف أو مضايقة . أمّا نزواتهم الجنسيّة فهي، عموماً، تطلّع إلى علاقة مودّة، ورفضٌ للعزلة، ونشدان لعلاقة، مع الخشية من هذه العلاقة، بسبب انعدام ثقتهم في ذواتهم، واعتقادهم بأنّهم غير جديرين بالحبّ .

و إنّما التربية الجنسيّة، عامّة، هي إيقاظ للقلب، ومساعدة إنسان على السير نحو نضجٍ عاطفيّ، وعلى رؤية الآخر إنساناً له احتياجاته الخاصّة، وعلى تعلّم الحبّ الحقّ . وهي الإيمان بأنّ العلاقة الجنسيّة الخالية من معاهدة حبٍّ صادق مدمّرة للقلب البشريّ . ولن تكون متناغمة ومكتملة إلاّ ببلوغ نضج عاطفيّ يتجلّى في الحبّ المجرّد، وبذل الذات .

أمّا الانحدار بالغريزة الجنسيّة إلى اعتبارها مجرّد تحرير عابر لنزوة خارجيّة، لا صلة لها بالحياة والخصب، إنّما هو تحقير للإنسان . ويرى جان فانييه أنّ انتشار الإباحيّة الجنسيّة أفضى إلى القضاء على الحياة الجماعيّة، وعلى علاقات الصداقة الحقيقيّة، وشجّع الميول الفرديّة، وتجزئة الأُسرة وتشتّتها، وحوّل العلاقة الجنسيّة إلى تعبير عن الاضطراب، والخوف من العزلة . وهو يقول، في هذا السياق : "قد تكون الغريزة الجنسيّة مدمّرة، غاوية، آسرة؛ وقد تنزع إلى استخدام الآخرين كأشياء، وإلى ممارسة السلطة عليهم؛ وغالباً ما ترتبط الغريزة بالعدوانيّة والعنف، وتقضي على صاحبها" .

و يعترف جان فانييه أنّ الغريزة الجنسيّة تنطوي، مع ذلك، على عناصر جمال تعبّر عن رغبة في علاقة حميمة . وإذا ما تعذّر استخدامها في إطار معاهدة يباركها الربّ، فلا بدّ من استيعابها، شيئاً فشيئاً، في إطار صداقة حقيقيّة . ويمكن السموّ بالغريزة الجنسيّة، بفعل محبّة وتواصل يبتغي خير شخصٍ آخر، وحينئذٍ تُوجّه طاقاتها الحيويّة، لا من خلال اتّصال أجساد، بل من خلال أفعال عطفٍ ورقّة .

و خير شافٍ للقلوب هو الاتّحاد بيسوع، فيسوع صديق وحبيب يمسّ القلب، ويوقظه، ويملؤه بحضورة، والمعاق ذهنيّاً، أكثر من سواه، يحتاج، حاجةً جوهريّة، إلى بشرى حبّ

يسوع، الذي يؤكّد له مكانته الأَثيرة في قلبه، في حين أَنّ المجتمع يرذله إِلى الدرك الأَسفل، هذا إِن اعترف له بمكانٍ في أَحضانه .

و في حين يبتذل الإِعلام الجنس، يؤمن جان فانييه بسموّه، وبأَنّ للزواج طابعاً قدسيّاً يقرّب حبّ الرجل والمرأة من اللّه الثالوثيّ . غير أَنّ الزواج قد يُدنّس إِذا ما عيش في اقتصار على نشدان المتعة فحسب . وشرّ ما قد يحدث هو ممارسة أَفعال حبّ، من غير حبّ، وفي معزل عن منح الذات للآخر . فالحبّ إِنّما يكتمل بالتضحية وببذل الذات .

الزواج الحقّ تعبير عن تواصل حميم بين شخصين يبذل كلٌّ منهما ذاته في سبيل الآخر، وهذا العطاء المتبادل يزيد من انفتاح الزوجين على الآخرين، وعلى الوجود، وعلى اللّه . وهذه العلاقة تتّصف بالالتزام والديمومة، وتجعل من فريقيها متعاونين مع اللّه من أجل منح الحياة لكائن بشريّ آخر .

و ليست ديمومة التزام الزواج بالأَمر اليسير، ما لم يكن اللّه ساكناً في قلبي الزوجين، فاعلاً فيهما، ممكّناً كلاًّ منهما من قبول الآخر كما هو، ومن الغفران والمسامحة .

و على الوالدين إِحاطة أَبنائهما بالحبّ، كي ينموا نموّاً سليماً .

و يتطرّق الكتاب إِلى العزوبة الطوعيّة، التي تبدو وكأَنّها تنكّر للصبوّ الفطريّ إِلى الاتّحاد والخصب، الثاوي في أعماق كلّ كائن بشريّ، في حين أَنّها تلبية لدعوة إِلهيّة، ورسالة سامية تُبقي على بتوليّة القلب والجسد، في سبيل خدمة مثلى للربّ ولإخوته الأَثيرين، والأَكثر احتياجاً . فالقلب المشرع على يسوع يجعل صاحبه أَشدّ تحسُّساً للآلام البشريّة، وقرباً من الآخرين، وترحيباً بهم، وأوفر حبّاً .

بالإِجمال، هذا الكتاب هو ثمرة أَبحاث وتمزّقات، وهو استجلاء للغرض المقصود من العلاقة الجنسيّة، ولحاجات الإِنسان الأَساسيّة . وهو محاولة لمواجهة حالات معقّدة تتعلّق بممارسات المعاقين الجنسيّة التي يقف المسؤولون عنهم، حيالها، حائرين . وهو تأكيد بأَنّ العلاقة الجنسيّة لا تؤتي مهمّتها إِلاّ في إِطار استقرار نفسيّ لكلٍّ من الرجل والمرأة، وحبٍّ صادق، وتواصل روحيٍّ حميم . وحينئذٍ يصبح الحبّ عامل توحيد، وشفاء، وخصب روحيّ .

من المؤكّد أَنّ هذا الكتاب لا يقدّم حلاًّ لكلّ حالة مستعصية، بل إِنّه يفسّر آلام المعاقين، واحتياجاتهم العاطفيّة، وعلى ضوء هذا التفسير يمسي بمقدور كلّ فرد أَن يستلهم الحلّ الأَمثل لكلّ حالة، ومساعدة المعاقين على بلوغ نضوجٍ عاطفيّ، وحرّيّة داخليّة كفيلَيْن بجعلهم يتواصلون على نحوٍ أَفضل مع الآخرين، وحبّهم حبّاً أَمثل .

و كان دليل جان فانييه، في وضع هذا الكتاب، خبرته اليوميّة في " السفينة "، وإِيمانه المسيحيّ الذي اعتقد، بموجبه، أَنّ الجنس يجب أَلاّ ينفصل عن الحبّ، وإِلاّ لكان نفاقاً، وتشويهاً، وتجزئة للإِنسان . إِنّ نظرته إِلى الجنس نظرة مسيحيّة صرف .

و من ثمّ، يتوجّه هذا الكتاب، في المقام الأَوّل، إِلى قرّاء مسيحيّين مؤمنين . وفي هذا الصدد يعلن جان فانييه : " خبرتي تظهر في، بوضوح، أَن ليس، ، ثمّة، قطيعة بين الإِنجيل وعلم النفس . فبقدر ما أَتوغّل في جوهر إِيماني، أَي في الحبّ المتفجّر من قلب اللّه، يساعدني هذا الإِيمان على فهم الكائن البشريّ، بصيحاته، وآلامه، ونداءاته . وبقدر ما أَدنو من الكائن البشريّ، مصغياً إِليه، مستبيناً احتياجاته، بنفس القدر أَرجع إِلى جوهر إِيماني بيسوع " .

1- المعاقون والجنس

مذ شرعت أَعيش مع أَشخاص معاقين، اكتشفت علاقة وثيقة بين القلب الجريح، القلق، والمهان، من جانب، وسورات العنف والجنس المضطرب من جانب آخر . وبقدر مـــا كـــان المعاقون يستعيدون السلام والهدوء، كانت تهدأ اضطراباتهم الجنسيّة الجامحة، وحينئذٍ يصبح بالإِمكان الإِنصات إِلى كلٍّ منهم، وإِيجاد الحلّ الشخصيّ المناسب له .

في السبعينات عمّت نزعة إِلى إِعتاق المعاقين من السجون التي كانوا يُحشرون فيها، وإِلى توفير حياة طبيعيّة لهم، تؤمّن لهم نموّاً مدهشاً . بيد أَنّ هذا "التطبيع" كان، أَيضاً، يطرح تساؤلات حول العلاقات بين رجالٍ ونساءٍ معاقين ذهنيّاً، يلتقون، ويعملون، وقد يعيشون معاً . وشاع، في الدول الغنيّة، الميل إِلى منحهم حرّيّة جنسيّة مطلقة .

و قد وقفت " السفينة " من ذلك، موقفاً مخالفاً، إِذ منعت العلاقات الجنسيّة، إِلاّ في في إِطار حبٍّ إِنسانيّ واعٍ يتجسّد في الزواج، إِيماناً منها، ومن مؤسّسها، جان فانييـــه، بأَنّـــه لا يسوغ فصل العلاقة الجنسيّة عن كيان الشخص ككلّ .

في حين وقف آخرون موقفاً حائراً؛ فهم يعترفون بحقّ المعاقين بالمتعـــة الجنســـيّة، ويؤثرون أَن تتمّ في إِطار علاقة حميمة دائمة، ولكنّهم يخشون عواقبها، ومظاهرها المخزيـــة أَحياناً، وغالباً ما اتّسم موقفهم بالازدواجيّة .

إِزاء هذه المواقف المتباينة والمتناقضة أَحياناً كان لا مفرّ لمســؤولي "الســفينة" مـــن تعميق البحث، بغية الوصول إِلى رؤية واضحة، واقعيّة، سليمة، لما يتعلّق بمشاكل المعـــاقين الجنسيّة، ولقضايا الجنس بشكلٍ عامّ، بكلّ ما تنطوي عليه من معنى عميق ومن غنى وأَيضـــاً من حدود ونسبيّة .

الرجل والمرأة متكاملان ويحتاج أَحدهما إِلى الآخر، وتكاملهما عامل بقاء الإِنسانيّة . ولكن إِن لم يكن الرجل متّزناً، متناغماً مع ذاته، وإِن لم تكن حياته الجنسيّة مندمجة انـــدماجاً كاملاً في كيانه وحياته العاطفيّة العميقة، لمال إِلى تحقير المرأة واستغلالها، واعتبارها شـــيئاً تافهاً؛ وعوضاً عن أَن يرى فيها رفيقة، وحبيبة، وكائناً مدعوّاً إِلى النموّ، سيسعى إِلى غزوها وامتلاكها لنفسه . وحينئذٍ تتعذّر عليه العلاقة الحقيقيّة؛ والمرأة تعرف السبيل إِلى الاثّأر منـــه سرّيّاً . ومن ثمّ ليس أَجلّ شأناً من مساعدة الرجل والمرأة على اســـتيعاب الـــدوافع الجنســـيّة لديهما في حبّ صادق، من شأنه إِشراعهما على علاقة حقيقيّة وتواصل حميم عميق . ولـــيس أَجمل من حبّهما الحقيقيّ؛ إِنّه قوّة توحيد، وقوّة شفاء، ويحمل في ذاته خصباً روحيّاً .

إِذا ما انفصلت الحياة الجنسيّة عن الحبّ، انقلبت كذباً، وتلاعباً، وتجزيئاً للإِنســـان . وأَظنّ أَنّه من العَبَث معالجة شؤون الجنس بعيداً عن النظرة المسيحيّة . فقـــد أَظهـــرت لـــي

تجاربي بوضوح أَنّ لا انقطاع بين الإِنجيل وعلم النفس، بل بقدر ما أستغرق في جوهر إِيماني المتمثّل في الحبّ المتفجّر من قلب اللّه، أزداد قدرة على فهم الكائن البشريّ في صيحات ألمه وتوسّلاته؛ وبقدر ما أَدنو من الكائن البشريّ بإِنصاتي إِليه وتبيّني احتياجاته، أَعود إِلى جوهر إِيماني بيسوع .

الفصل الأَوّل :

القلب الجريح

إِنّ الشخص المعاق ذهنيّاً يحمل جروحاً بليغة في قلبه وفي عاطفته، ولهذه الجــروح انعكاسات على جنسانيّته التي قد تصاب بالاضطراب؛ وفي حين أَنّ إِعاقته هي، غالباً، ظاهرة بوضوح، ومرسومة على محيّاه، وساقيه، ويديه، وتتبدّى في كلامه أو في عجزه عن الكـــلام، وعجزه عن المحاجّة والتجريد والاستنتاج، يظلّ جرح قلبه خفيّاً، يدلّ عليه خوفه، وانعدام ثقته في نفسه، واكتئابه، وعنفه، وأَحلامه، وهربه من الواقع، ويتجلّى هذا الجــرح، علـــى نحـــوٍ خاصّ، عبر الصورة المهشّمة التي يحملها المعاق عن نفسه، وعبر شعوره بالذنب، ورفضـــه العيش .

و يزيده أَلماً شعُورُه بأَنّه خيّب آمال والديه، وسبّب أَلمهم، وكان باعث قلق ودمـــوع؛ ويجرحه جرحُ قلبهم؛ وعندما يستشعر الولد المعاق ذهنيّاً أَنّه غير مرحّب به، يتوتّر، ويتمترس وراء دفاعاته، وينكمش على ذاته لعجزه عن مواجهة الواقع، ويعيش نوعاً من الموت الداخليّ، ويتوقّف سريان الحياة فيه؛ ويمنعه اضطرابه من النموّ بهدوء؛ ويصـــاب بالعطـــب نطقُـــه، ومحرّكاته النفسيّة وتتجمّد أَجزاء من نفسه، وهكذا يبدأ كيانه بالتفتّت .

فالإِنسان هو غالباً انعكاسٌ للنظرة التي يحطّها محيطه عليه؛ وعنـــدما يزدريـــه ذووه ينتابه شعور بالذنب عن وجود ذاته، وعن كلّ ما يخامر والديه من هموم وما يذرفونـــه مـــن دموع . وهذا الجرح البليغ في قلبه هو نبع تصرّفاته الشاذّة، واكتئابه وعدوانيّته .

مثل هذه الأَعراض تظهر أَيضاً على الأَولاد غير المرغوب فيهم، وعلى الذين يعانون الازدراء من جرّاء لون جلدتهم، وفقرهم، وهزال مواهبهم .

و لكن حتّى لو كان الآباء رائعين، فهم قد لا يستطيعون تلبية كلّ تطلّعـــات الولـــد . بوسعهم أَن يحبّوا ابنهم، ولكن قد يتعذّر عليهم إِشراع قلبه على الحبّ . إِنّـــه يملـــك البـــراءة والحرّيّة، ولكنّه يعرف أَيضاً، وفي معزلٍ عن والديه، شتّى ضروب المخـــاوف، والهشاشـــة، والأَنانيّة . ويبدو أَنّ في قلبه فراغاً لا يقوى على ملئه سوى حبّ لا نهائيّ . ومع ذلك، إِذا ما تسنّت له علاقات دعم ومساندة، لعثر على الرجاء، واستطاع المضيّ قُدُماً في البحـــث عـــن الحبّ اللانهائيّ .

استضفنا، في " السفينة "، منذ بضع سنوات، إيريك، وكان، آنذاك، في السادسة عشرة . في سنّ الرابعة كان قد أودع مشفى، وهو أعمى وأصمّ، معطوب الدماغ عطباً ذريعاً، وفي قلبه جرح بليغ لأنّ أسرته تخلّت عنه . في المستشفى التقى أطبّاء وممرّضات يتّسمون بكثير من الإنسانيّة، ولكن لم يكن بمكنة أحدهم الاستجابة إلى صيحات جرحه . لم تكن مهمّتهم تؤهّلهم لعقد علاقات محبّة دائمة معه، فالمستشفى مكان علاج، وليس مكان عيش .

عندما يؤنس الولد أنّه محبوب، يغمره الأمان، ويسترخي جسمه . ولكنّه عندما يستشعر الوحدة يتصلّب ويتوتّر لكيلا يتألّم كثيراً من القلق، ولكي يحمي ذاته من محيطٍ يشعر بعدائيّته، إذ إنّه عاجز عن الاستجابة لصراخه ولحاجته البالغة إلى الحنان . تصلّب القلب هذا كان قد أصبح، لدى إيريك، تصلّباً لكلّ جسمه، فأمست عضلاته في مثل قسوة الخشب؛ وعندما انتهى الينا كان عاجزاً عن السير .

كيف السبيل إلى إعادة رغبة العيش لإيريك ؟ الوسيلة الوحيدة كانت في اكتشافه أنّ آخر يحبّه، وأنّ بينهما علاقات دائمة، لا علاقات امتلاكيّة، بل علاقات محرِّرة .

و من جرّاء صمم إيريك وعماه، ما كان لهذه العلاقة أن تتحقّق إلاّ عبر لمس جسده، لمسةً تتّسم بالحنان والرقّة، لمسة تبعث فيه الطمأنينة، وتشعره أنّه مُسانَد ومحبوب، وأنّه في أمان . كان لا بدّ من قضاء وقت طويل مع جسد إيريك، وتحميمه، ومساعدته على تناول طعامه، وإجلاسه على الركبتين، والتنزّه واللهو معه، إذ من شأن ذلك حمله على استعادة الثقة بنفسه واكتشاف أنّه محبوب، وقادر على التقدّم، وأنّ له قيمة . وعقب خمس سنوات من إقامته في " السفينة " أمسى إيريك أكثر هدوءاً ...

و في جماعة أُخرى من جماعات " السفينة " استضفنا إيفيت القادمة من مشفى نفسيّ . كانت قد بلغت العاشرة من عمرها وخبَرت الكثير من النبذ، وقد وُصفت دائماً بأنّها "الفتاة المجنونة"، وكان قلبها مختبئاً خلف سلوك عدائيّ، لا اجتماعيّ . وقد لزم المسؤول عن الجماعة وقتٌ طويل للنفاذ إلى قلب الطفل الرقيق فيها، إذ لم تكن إيفيت متأهّبة لإيلائه ثقتها فور وصولها . فمن أُثخن بالجراح، لا ينفتح على الغير تلقائيّاً، ويحذر الكلمات المعسولة التي ينطق بها قوم يبدو عليهم اللطف؛ إنّه يخشى عيش فصل جديدٍ من الهجران، وبالتالي يؤثر عدم عقد علاقات جديدة، ويؤثر الانغلاق . ثمّ شرعت إيفيت تختبر بوادر الحبّ التي كانت تُقابَل بها، فترتكب حماقات جسيمة، أو تهرب، ولكأنّ لسان حالها يقول : " أثبت أنّك مهتمّ بي حقّاً، وأنّك تحبّني، حقّاً " . ثمّ حلّ اليوم الذي تجرّأ الطفل البريء فيها على تصديق ما يقابَل به من حبّ، وتقبّل مبادرات الحنان، ففتحت باب قلبها، الذي سارعت إلى إيصاده من جديد .

ولكنّها، في مدى برهة، تذوّقت، للمرَّة الأُولى، طعم التواصل الحميم مع آخر . بضعة أَيّـــام، إِثر ذلك، تجرّأت على نهل منابع الحنان من جديد، وباشرت مرحلة كرّ وفرّ، وإِقدام وتراجع، إِلى أَن أَشرعت، ذات يوم، قلبها على مصراعيه، واستكانت إِلى السلام، وارتضت الحـــوار، ووثقت في البالغين . وهي موقنة، اليوم، من أَنّها محبوبة ومقدّرة، وأَنّها أَضحت "في بيتها" . وقد شرعت تتعلّم محبّة من هم أَصغر منها وخدمتهم . غير أَنّ هذا التحوّل قد اقتضى منهـــا الكثير من الوقت والاهتمام، ومن الآلام والصراعات . وفي أَثناء الأَيّام القاتمة كان المسؤول يقول لي عنها : " لكي تخلص وتعيش، ينبغي أَن يكون رجاؤنا أَقوى من قنوطها"

إِيريك وإِيفيت كانا في حاجة إِلى حبٍّ شافٍ، لا حبّ ولد معاقٍ فحسب، بل حبّ ولـــد أُصيب بجرح بليغ، وفقد الثقة في نفسه وفي الآخر، وتجزّأ، وتمترس خلف جدران صـــفيقة . إِنّه في حاجة إِلى حبّ يرمّم بناء كيانه، ويساعده على استعادة وحدة ذاته . بعض الأَولاد تلقّوا من الجراح ما اضطرّهم إِلى الانفصام عن قلبهم، وعن ماضيهم المغرق في الوجع، والتخلّـــي عن ذاكرتهم، فبنوا حواجز داخليّة لكيلا يذكروا أَيّام المحنة . ولكن لا بدّ للمرء، فـــي ســـبيل إِنشاء مشروعٍ مستقبليّ، من رجاء، ومن استيعاب ماضيه، وتاريخه . ولكي يســـتعيد الســـلام والحرّيّة، ويكبر، لا بدّ له من استعادة وحدة كيانه، وأَيضاً وحدته مع ماضيه . وقد يتعذّر على البعض استيعاب ماضيهم، فقد كانت جراحهم بليغة .

من شأن هذا الحبّ الشافي أَن يتيح للأَولاد وللمراهقين عيش بعـــض وجـــوه الحـــبّ الوالديّ الذي حرموا منه، وهذا يستلزم علاقة عميقة ودائمة مع إِنسانٍ بالغ . يلزمهم اكتشاف فرح هذا البالغ بوجوده معهم، وثقته فيهم، واعتزازه بهم وبما يحرزون من تقدّم . يلزمهم حبّ محسوس ينفذ إِلى جسدهم، ومن خلاله يكتشفون جمال جسدهم الخاصّ، ووجهه القدسيّ . وهذا الاكتشاف لا يتحقّق إِلاّ من خلال لمسة حنان وغفران، واحترام جمّ، ورجاء . فقـــط عنـــدما يشرع المرء يرتاح إِلى جسده، ويتبنّاه، ويعتبره خاصّته، يستطيع مباشرة علاقةٍ حقّة مع جسد شخص آخر .

قد يستغرق ذلك سنوات، وقد تفشل جميع الجهود في بلوغ الشفاء . فـــالمراهق يظـــلّ مشتّتاً، مجزّ أً، مضطرباً، عاجزاً عن العثور على حدود العلاقة الصحيحة؛ فهو إِمّا أَن يتسرّع في التماس اندماج خطير له وللبالغ، إِذ غالباً ما يفضي إِلى الرفض والنبذ؛ أَو إِنّـــه يتـــوارى وراء جدرانٍ أَقامها منذ سنوات طويلة، ويتهرّب من كلّ علاقة . وحينئذٍ تتعيّن المثابرة علـــى العيش معه، في احتـــرام عميـــق لجراحـــه، مـــع الحفـــاظ علـــى رجـــاءٍ فـــي القلـــب ...

اختبار الصغار لحبّ اللّه

ينمو الولد، ناعماً بمقدار أكبر من السلام والحقّ، إن تسنّت له، باكراً، خبرة نداء اللّه في يسوع المسيح، وعقد علاقات محبّة معه . وينطبق ذلك أكثر على الولد أو البالغ المنبوذ من جرّاء إعاقة ذهنيّة لديه، فلئن هو استطاع، من خلال حبّ المهتمّين به، اكتشاف أنّه، حقّاً، ابن إله آب، لسارع إلى هدم الحواجز التي أنشأها حول قلبه الجريح، واستعاد بعض وحدة كيانه . إنّ عيشه اختبار الظفر بالصفح، والاغتسال في ينابيع مياه حيّة متفجّرة من قلب اللّه كفيل بأن يزيل منه، شيئاً فشيئاً، شعوراً بالذنب قد يكون راسخاً بعنادٍ فيه ....

إنّ دين يسوع هو، حقّاً، بشرى سارّة؛ فهو ليس، أوّلاً، مجموعة قوانين يتعيّن الخضوع لها بمشقّة؛ إنّه اختبار نداء حبّ يسوع، ولقاءٌ معه في الإيمان والحنان . هذا اللقاء يُشرع الولد على الوجود وعلى اللّه، ويكشف له قيمته في عيون اللّه، فتتبدّل الصورة السلبيّة التي كوّنها عن ذاته، وينطلق قلبه على درب الشفاء . هذه التجربة تهبه رجاءً، فيما يعمل نداء اللّه فيه عمل بذار .

إحدى كبريات المآسي التي يتعرّض لها الولد، سواء كان معاقاً أم لا، تتمثّل في أنّ عطشه إلى أن يُحَبّ من شدّة الاقتضاء بحيث لا يقوى والدوه على إروائه إرواءً كاملاً . جميعنا مجروحون في قلوبنا، جَرحَنا ذوونا، وجرحتنا الحياة . جميعنا نواجه مصاعب في علاقاتنا، وحواجز نتوارى من ورائها . لا جَرَم أنّ الوالدين يحبّون أبناءَهم، ولكن لديهم، أيضاً، مخاوفهم، وهم أيضاً جرحهم ذووهم وجرحتهم الحياة ...

و لذلك ينبغي ألاّ يكون الوالدون وحيدين في عالم الولد، وإلاّ لرأى فيهم مصدر كلّ شيء أي اللّه، وجعل منهم أصناماً، عوضاً عن أن يصنع منهم إيقونات؛ وأبى إلاّ أن يكون كلّ شيءٍ فيهم حسناً . أمّا إذا أدخله والدوه إلى سرّ اللّه، فهو يكتشف أنّهم ليسوا الوحيدين، وأنّهم ليسوا منبع الحياة الأوّل، وأنّهم معرّضون للزَلل . ويمسي بمُكنة الوالدين استصفاح الولد عندما يخطئون، ويغدو الولد وذووه معاً، أمام اللّه، مثل إخوة وأخوات، يُصلّون ويستغفرون الربّ .

و عندما يختبر الولد، من خلال جماعة مسيحيّة، قدرته على عقد علاقة شخصيّة مع اللّه، يتبدّل كلّ شيء فيه، فيقوى على تخطّي ازدواجيّة علاقته بذويه الذين كان يقتضي منهم الكثير، ويشعر بالذنب إن خاب ظنّه فيهم . ويغدو قادراً على حبّهم حتّى إن لم يظفر منهم بكلّ شيء، ويدع بعض حواجزه تنهار إثر اكتشافه أمانة اللّه وحنانه . ويرى في يسوع الراعي الصالح الذي يحبّه، ويصفح عنه، ويقوده، ويسنده حقّاً، ويظلّ دائماً وفيّاً .

إنّ حبّ اللّه هذا، ليس هدفاً مثاليّاً خياليّاً نابعاً من قلبٍ خائبٍ جريح، بل هو خبرة داخليّة .

و عندما يختبر الولد مطلق العلاقة باللّه، يكتشف الوفاء والغفران، ويكتشف العهد . وقيام هذا العهد مع اللّه، يجعل العهد مع الأَهل والآخرين ممكناً، ولا تعود العلاقة قائمة على الانجذاب العاطفيّ، بل على العهد، وتمسي علاقاتنا أَقوى من مشاعرنا، وأَمزجتنا، وقدراتنا على الحبّ أو البغض .

إِن لم يكن اللّه حاضراً لعسُر على الولد عيش علاقته مع ذوويه وكأَنّها عهد. وإِن لم يتبيّن الرجل والمرأة نسبيّة العلاقة بينهما لتعذّر عليهما عيشها علاقة دائمة وعميقة . إِذ لا يسع أَحدهما أَن يكون للآخر، اللّه، وأَن يلبّي جميع احتياجاته، فلكلٍّ منهما جروحه، وشروخه الداخليّة، وخطاياه وخياناته . ولكي يعيشا، معاً، عهداً، ويرسّخاه، لكي يقبل أَحدهما الآخر مع تباينهما وحدودهما، يحتاجان إِلى الثقة في علاقة مطلقة بيسوع .

في حياة كلّ فرد انسلاخات وحداد، وثمّة حالات تنطوي على قدرٍ من الفواجع تستلزم التغلّب عليها خبرة داخليّة لحبّ اللّه . هذا الحبّ الذي يحرق، ويضيء القلب، ويبعث فيه الحياة، يظهر للإِنسان أَنّه ثمين لدى اللّه، كما هو، ويسبغ على حياته معنى، ويهب قدرة على مواصلة العيش، ويسمح بالخروج من دائرة الحزن والغضب، ويحول دون التيه في الأَوهام .

روت لي امرأة كانت قد فقدت ابنها وهو في السادسة، أَنّه، حين كان في الثالثة والنصف من عمره ابتلي بشلَل سرعان ما امتدّ إِلى كامل جسمه وأَصابه بالعمى . بضعة أَشهر قبل وفاته، إِذ كانت أُمّه إِلى جانبه تبكي، قال لها : " لا تبكي يا أُمّاه، فما زال لديّ قلب يحبّك " .

هذا الصغير كان قد بلغ مرحلةً من النضوج الفعليّ، وكان قادراً على التعبير عن الشكر على ما كان يملك، عوضاً عن النحيب عمّا يفقد . مثل هذا النضج ينبع غالباً من اختبار داخليّ لحضور اللّه، وهذا الاختبار يوهب للأَشخاص الفقراء، الذين، من جرّاء وهنهم، لا يستطيعون مواجهة الحياة إِلاّ به .

عندما يقول يسوع أَنّ علينا أَن نعود فنصير كالأَطفال، فهو يزيح الستار عن أَعمق ما في الكائن البشريّ، وأَسماه إِلهيّة . فمن وراء جميع الحواجز التي انتصبت في سنّ الصبا، من جرّاء الجراح المتعاقبة، ما انفكّ، ثمّة، ذلك القلب الطاهر والبريء، قلب الطفل الذي تقطنه نعمة اللّه . ثمّة ذلك القلب القادر على استقبال الحبّ، وعلى العطاء وبذل الذات، وعلى عيش تواصل حميم مع الغير، وتواصل حميم مع اللّه، وعلى أَن يكون معين حياة للآخرين . وفقاً لمرامي اللّه، ينبغي أَن يلهم هذا القلب جميع النشاطات البشريّة .

الفصل الثاني :

تربية ومقتضيات

ضرورة محيط متّحد وصادق

لتوافق الزوجين أو لخلافاتهما انعكاسات إيجابيّة أو سلبيّة على سلوك الأبناء الجنسيّ . فالمراهق – أو الرجل المعاق – لكي يعثر على التناغم الداخليّ، ويكون مرتاحاً في رجولته، يحتاج إلى نماذج رجال مرتاحين في رجولتهم، أي أنّهم يقيمون مع النساء علاقات بسيطة، صريحة، صادقة، تحقّق الوحدة، لا تسحق ولا تعاني الانسحاق، ويرون فيهنّ كائنات تتمتّع بمواهب وخصال مختلفة عن مواهبهم وخصالهم، ويسعهم التعاون معهنّ . وكذلك هو شأن الشابّات .

طالما أخفق المرء في الاهتمام بالآخرين، وفي تبيّن احتياجاتهم فهو ينشر الحرب والفرقة . إنّ مثل هذا الموقف الأنانيّ نفيٌ للحبّ، ويدفع نحو ممارسة للجنس مرتكزة على المتعة الأنانيّة، خالية من أيّة علاقة صادقة بالآخر، أو أيّ تواصل معه، أو إصغاء إليه، أو حوار معه، أو أيّ حنان . مثل هذا السلوك الجنسيّ لا يسعى إلاّ إلى الإفادة من الآخر لإرضاء احتياجات شخصيّة؛ ولا يتّصل بالقلب أو بعلاقة صادقة ومتناغمة تعبّر عن عاطفة رقيقة تجاه الآخر، تؤكّد قيمته، وتحاول مساعدته على الانطلاق نحو الأفضل .

إنّ المبدأ الجوهريّ لكلّ تربية يتمثّل في فتح القلب والذهن على احتياجات الآخر والآخرين . وهذا يقتضي تيقّظاً وإصغاء . ولئن كانت ثمّة تربية للذهن قائمة على تزويده بالمعلومات والمعرفة، إلاّ أنّ ثمّة تربية للقلب والإرادة من أجل الحبّ، في سبيل خدمة الآخرين .

جوهر التربية يتمثّل في مساعدة المرء على عقد علاقات مع الآخرين، والانفتاح عليهم، وعلى تحسّس حدودهم واحتياجاتهم، وتلبية هذه الاحتياجات بقدر المستطاع . النموّ هو تحمّل المرء مسؤوليّة ذاته ومسؤوليّة الآخرين .

التربية هي مساندة الصغار على اكتشاف كلّ ما هو إيجابيّ وجميل فيهم، وما يستطيعون عقده من علاقات مع الآخرين، وتبيّن أنّهم جديرون بالحبّ، وقادرون على الحبّ، ممّا يؤهّلهم لاكتشاف أفراح الصداقة الحقّة، وكرامتهم الإنسانيّة، وقدرتهم على العمل وعلى إنجاز أشياء جميلة .

التربية هي توفير المحيط الملائم لإيقاظ خير ما في الصغار، فمثلما تجلب بعض الأوساط الظلمات والموت، تجتذب أخرى الحياة وطعم العيش .

التربية هي مساعدة الصغير على استبيان هدف حياته؛ وهو في سعيه إليه قد يكبو، ويفقد الرجاء، ولكنّه سينهض من جديد؛ أو ليس في ذلك ضربٌ من اكتشاف الغفران ؟

في مجتمع الغواية الذي يدفع إلى الامتلاك وإلى المُتع الآنيّة تصبح تربية حتّى الأولاد السويّين مهمّة عسيرة، إذ لا يتسنّى دائماً للوالدين الوقت الكافي ولا الإصغاء الجيّد لفهمهم فهماً حقّاً؛ وغالباً ما يكون إجلاسهم أمام التليفزيون وإلهاؤهم بالدمى أيسر من اللعب معهم، والتمتّع معهم، ومشاركتهم بعض الأعمال والاحتفالات .

و إنّه لأيسر على الوالدين أن يحاولوا تملّك أبنائهم، واستخدامهم لردم فراغهم العاطفيّ؛ إنّها لشاقّة مهمّة المربّي الجيّد القائمة على توجيه الولد الدائم نحو مزيدٍ من الحرّيّة لكي يخدم على نحوٍ أفضل اللّه وإخوته .

و يجدر التنويه بأنّ الولد لا يتقبّل مقتضيات السلطة، وما تطالبه به من بذل جهود، إلاّ إذا أولاها ثقته؛ وهو يفقد هذه الثقة عندما يكتشف لدى السلطة خطاباً مزدوجاً، وتبايناً بين القول والفعل . وهو يرفض مقتضيات أبٍ لا يقتضي من نفسه شيئاً، ويأبى أيّة مقتضيات عندما يؤنس أنّه غير محبوب، وغير معترَف به .

و لكي ينمو الولد ويكتسب كرامة داخليّة حقَّة، لا يكفي أن يكون محبوباً حبّ حنان ومقبولاً كما هو، بل هو يحتاج أيضاً إلى تشجيع، ومساندة ومواكبة من قِبَل أب، أو من قِبَل مربّ حقّ وطيّب، يؤمن به، وبقدراته على النموّ . ويتعيّن على الأب أو المربّي أن يبرهنا للولد عن حبّهما الصادق له، وتوخّيهما صالحه ونموّه . أمّا إذا تبيّن الولد أنّ والده أكثر انشغالاً بشهرته الخاصّة، وعمله، ومُتعه، من انشغاله به، وإن هو استشعر أنّه سبب إزعاج لأبيه، فلن يأبه بنصائحه وتوجيهاته، ولن يوليه ثقته وسيقيم جداراً بينه وبين السلطة .

و تمسي المهمّة أكثر مشقّة عندما يتعيّن إصلاح القلوب المحطّمة، وإعادة طعم الحياة إليها ومن ثمّ يُقتضى ممّن يواكبون المعاقين أن يمتلكوا قلباً جديداً، وقوّة جديدة مستمدّين من حكمة اللّه . وإذا يتحتّم على الوسيط أن يحمل في قلبه للولد المعاق من الرجاء أكثر ممّا

ينطوي عليه قلب هذا الولد من قنوط، فعلى هذا الوسيط أن يكون على اتّصال بمنبع آخر أَمنع منه وأَوفر حبّاً ... ولا بدّ أَيضاً من جماعات مربّين تربطهم محبّة حقيقيّة ويتعـاونون لكـي يعيش كلّ فرد في الحقيقة، بلا غشّ، يُصلح بعضهم أَخطاء البعض، لكي يظلّ همّهم الأَوحـد صالح المعنيّ به ونموّه، لا الدفاع عن الذات وعن النظام القائم . ولا بدّ لهـم مـن التـزوّد المطّرد بالزخم وبالمؤازرة المهنيّة الملائمة، لكي يحتفظ كلّ فرد بالرجاء الذي يحتاج إِليه في صراعه ضدّ قوى الموت الثاوية في بعض القلوب .

ليس من السهل أَن يكون المرء راعياً صالحاً . لستُ أَجهل نظريّة الراعـي الصـالح وبوسعي التحدّث عنها . ولكنّني، في الواقع، أَتبيّن أَنّني غالباً أَشبه بالأَجير الذي يحتاج إِلـى إِثبات سلطته وحمايتها . غالباً ما أَفتقر إِلى الوقت للإِصغاء أَو إِنّني لا أَسعى إِلى تخصـيص وقت له ... فأُصدر أَحكاماً سريعة، وآمر بالمنع، أو بالعقاب قبل إِلمامي إِلمامـاً كـاملاً بمـا يجري، وقد أعاقب عندما لا يتعيّن العقاب، ممّا ينفّر الآخر عوضاً عن مساعدته؛ وحينئذٍ ينبع العقاب من هواجسي أَكثر ممّا ينبع من رغبتي في مساعدة الآخر على النموّ . وفـي معظـم الأَحيان يحدث ذلك عندما أَكون قد استسلمت للنشاط المفرط، وانسلخت عـن النبـع والنـور الكامنين في داخلي، وأُرهقت، ونأيت عن الصلاة وروح الصـلاة، وانغمسـت فـي الآنـيّ واليوميّ، مفتقراً إِلى البُعد الكافي، والتزوّد المتجدّد بالطاقة الداخليّة .

ليست ممارسة السلطة، وممارستها بحبّ وصدق بالأَمر الهيّن . وليس مـن السـهل التمرّس بالحزم والوضوح، وباحترام الآخر والوقوف على القِيَم الإِيجابيّة فيه، والعثور علـى الأَلفاظ والأَفعال الصحيحة الكفيلة بمساعدته على النموّ. وإِنّني أَعـرف أَوهـاني الخاصّـة، ومخاوفي في هذا المضمار؛ ولكنّني أَعرف، أَيضاً، حاجة الإِنسان المتأَلّم، المعاق ذهنيّاً، إِلـى أَن يقف إِلى جانبه شخص ملتزم حياله التزاماً عميقاً، فيحبّه ويحترمه، وفي آنٍ واحد يتّصـف بالحزم كي يساعده على النموّ وعلى إِطلاق مواهبه . على الراعي أَن يكون صـخرة حنـان وحقيقة يمكن الاستناد عليها .

و إِنّني معنيّ، على نحوٍ خاصّ، بأولئك الذين كان لهم، في حداثتهم، خبرة أَليمة عـن السلطة؛ فهم إِذ لم يعرفوا سوى أَوامر المنع التي لا عطف فيها ولا صفح، ولم يعهدوا سـوى تربية صارمة خالية من التشجيع ومن الاعتراف بخصالهم وقدراتهم على النموّ، قـد عاشـوا انسحاقاً بليغاً؛ ولكأَنّهم منعوا من العيش والنموّ .

و تختلف تربية الصغير عن تربية البالغ، ولو كان هذا الأَخير مُصاباً بنقص ذهنـيٍّ سحيق . فالبالغ المعاق، هو أَوّلاً بالغ؛ وفي حين أَنّ جسم الولد وفكره مـا زالا فـي مرحلـة تكوين، وفي حين أَنّ الولد أَكثر جاهزيّة وانفتاحاً، للبالغ تاريخ، وللبالغ المعاق غالباً قصّة خيبة أَمل، بل قصّة نبذ أَحياناً، وله، عن نفسه، صورة جريحة، وهو يسارع إِلى تحميل نفسه الذنب،

ولا بدّ من بعث الأَمان في نفسه، ودعمه ومؤازرته؛ وإِيلائه مزيداً من الإِصغاء، بسبب كــلّ جروحه . فقد تلقّى تربية، بل " ترويضاً " في أُسرته أو في مؤسّسة مــا، وعــاش تجــارب، ومحظورات، ومسموحات متضاربة خلّفت في سريرته أَثراً . ولا بدّ من إِصلاح الأَضــرار، وإِزالة العادات السيّئة، ولا بدّ أَيضاً من مزيد من التحاور معه، ومن قبول تعرّضــه للفشــل أَحيانـــــــاً كـــــــي يختبـــــــر هشاشـــــــته وأَخطـــــــاءه، وحـــــــدوده .

التربية الجنسيّة

تتمثّل التربية العاطفيّة والجنسيّة، أَوّلاً، في حمل المربّى على وعي معنى الآخر، وتعلّم الإِصغاء، والحبّ، والتعاطف والحنان، وبالإِجمال على تحمّل المسؤوليّة .

و التربية الجنسيّة الحقّة هي إِيقاظ القلب، ومساعدة إِنسان على السير نحو نضج عاطفيّ، وعلى رؤية الآخر إِنساناً له احتياجاته الخاصّة، وعلى تعلّم الحبّ الحقّ .

إِنّها المساعدة على فهم أَنّ العلاقات الجنسيّة الخالية من معاهدة حبّ صادق مدمّرة للقلب البشريّ، فعليها بالتالي أَن تكون موجّهة، بالحبّ الذي يسمو بها، ويكتنفها، ويجعلها إِنسانيّة حقّاً؛ فهي لن تكون متناغمة ومكتملة إِلاّ ببلوغ نضج عاطفيّ يتجلّى في الحبّ المتجرّد، وفي بذل الذات .

الفصل الثالث :

علاقة الرجل والمرأة

الرجل والمرأة في نظر اللّه .

يُظهر سفر التكوين أنّه عندما يزورّ الرجل والمرأة عن اللّه، يغيب هو عن جماعتهما فيفقدان براءتهما الأُولى، ويَخبَران في ذاتهما، فراغاً، ويعتريهما الاضطراب، ويعيان عريهما . وحينئذٍ يتّهم الرجل المرأة ويسعى إِلى السيطرة عليها؛ فتتحطّم وحدتهما، ويقوم بينهما تنافس، ولا يعودان، بعدُ، جسداً واحداً .

و حينئذٍ ينزع الإنسان إِلى الانكفاء على ذاته، والانطواء في عالم مغلق، ويجهد إِلى ردم فراغه الداخليّ بالتماس السلطة والامتلاك، في حين أَنّ عليه الانفتاح على آخرين وعلى آخر، وعقد علاقات معهم، وولوج عالم الحبّ، والتواصل، والعطاء، والمشاركة، والاستقبال . ولن يقوى على ذلك تماماً إِلاّ متى كان متصالحاً مع اللّه، وحاضناً حضوره في داخله .

و من أَسباب تجاذب الرجل والمرأة النزعة إِلى تخطّي العزلة والموت. ففيما يتعدّى الجاذب والاختيار الشخصيّ، تثوي في أَعماق كيان الرجل والمرأة دعوة إِلى توريث الحياة لكائن بشريّ جديد .

بين الرجل والمرأة تباينات بيولوجيّة وروحيّة وفكريّة، وعلى هذه التباينات أَن تكون عامل تكامل بينهما لا عامل خلاف وشقاق؛ وإِنّني لعلى يقين بأَنّ مجتمعنا في حاجةٍ قصوى إِلى قيام مصالحة ووحدة بينهما، فاحتياج أَحدهما إِلى الآخر شديدٌ جدّاً، وإِنّه لمن المؤلم بل من الخطِر أَلاّ يتبادلا الاعتراف أَحدهما بقدر الآخر .

الأُسرة هي الجماعة الأُولى، وهي قائمة على التباين بين الرجل والمرأة وعلى اعتراف أَحدهما بالآخر، وعلى كونهما، كليهما، مع الأَبناء ومن أَجلهم . والأَولاد أَيضاً مختلفون ولكنّهم ليسوا من مستوى أَدنى . وعندما يُقبَل الاختلاف لا على أَنّه خطر، بل على أَنّه كنزٌ، يتيح لكلّ فرد أَن يكون ذاته .

بيد أَنّ تقبّل التباين يقتضي نضوجاً في القلب والفكر لا يمتلكهما المرء تلقائيّاً، فهو أَشدّ ميلاً إِلى وحدة اندماجيّة، إِلى ضرب من " الحبّ " و" الوحدة " اللذين ينتفي منهما احترام اختلاف الآخر والاعتراف بحاجته إِلى النموّ . إِنّ الاعتراف يستلزم حواراً، وإِعطاء الآخر ما يحتاج إِليه من مساحة لكي يحيا وينمو، ضمن حدود لا يتعدّى عليها أحد . غير أَنّ مثل هذا

الاعتراف بحقوق الآخر واحتياجاته قد يكون مُكلِفاً وموجعاً، وقد لا يتحقّق إلاّ بقوّة داخليّة جديدة مُستمدّة من خبرة حبّ اللّه، وبإيمان راسخ بتضامن البشر أَجمعين .

إنّ المرأة توقظ لدى الرجل أَعمق ما فيه : القلب، والحنان، والرقّة والطيبة، فيصبح أَكثر عذوبة وتيقّظاً ورهافة، ويزداد انفتاحاً على الآخرين؛ وكذلك يوقظ الرجل في المرأة أَجمل ما فيها وأَكثره أُنوثة . إنّ كلاّ من الرجل والمرأة للآخر مرآة؛ وتباينهما يعلن لكلٍّ منهما هويّته، ويتيح لكلٍّ منهما أَن يكون ذاته في أُنوثته أو رجولته . ولكن قد يكون الأَمر، في الواقع، على نقيض ذلك، ولا سيّما عندما تستبدّ بالمرأة رغبة الغواية، فتصبح عامل شقاق وتنافس وبيل، أوعندما توقظ لدى الرجل الهوس الجنسيّ، الذي قد يفضي به إِلى الجنون .

النضج العاطفيّ

إنّ إقامة علاقة جنسيّة يقتضي نوعاً من النضج العاطفيّ، والقدرة على المسؤوليّة وعلى الوفاء للشخص الآخر . إنّني أعتقد أنّ الذين يباشرون علاقات جنسيّة في مطلع مراهقتهم، قبل أن يصيبوا نضجاً عاطفيّاً يؤذون أنفسهم، فهم يعيشون في أجسادهم وفي نفسيّتهم وقائع لا قِبَل لهم على احتمالها أو على استيعابها؛ أوَلا تكبح الخبرة الجنسيّة المبكّرة مسيرة نضج الشخصيّة، وتحول دون الانتقال إلى المرحلة التالية حيث يصبح المرء قادراً على الحبّ والخدمة والمسؤوليّة عن الآخر؟ إنّه لسؤال خطير .

لدى المعاقين عقليّاً ثمّة حاجة عاطفيّة ملحّة، ومن الخطر الاعتقاد أنّ تلمّسات الحنان والمودّة هذه تعبّر دائماً عن مطالب جنسيّة . لا ريب أنّ بعض المعاقين قد بلغوا من النموّ النفسيّ ما يتيح لهم التماس ممارسة العلاقات الجنسيّة، ولا بدّ من مساعدتهم على الظفر بنضج عاطفيّ يسمح لهم، فيما بعد، بعقد علاقات عميقة مع آخر، بغية الزواج .

إنّ المراهقة فترة عصيبة : إنّها عهد الظفر بالنضج العاطفيّ؛ وما هذا النضج إلاّ التزام فعليّ حيال الآخرين، التزام ليس هرباً إلى الخارج، ورفض رؤية الجروح الذاتيّة الداخليّة، بل التزام ينبع من السلام الداخليّ ومن التماس الوحدة والحقيقة في الذات . لقد أعلن يسوع : " طوبى لأنقياء القلوب، لأنّهم سيشاهدون اللّه". ونقاء القلوب هو نار، وكثافة حبّ، وخدمة، وتواضع، وصبر، وعطف. وبقدر ما يناضل مراهقون من أجل نقاء الحبّ، يتمكّنون من بلوغ النضج الحقّ، ومن تحمّل مسؤوليّة الكفاح الجادّ في عالمنا .

الفصل الرابع :

مكانٌ للقلب

نشاطات القلب ونشاطات العمل

قد يكون هَوَس العمل ناجماً عن الخوف من العلاقة أو من الجنس، ويمثّل هرباً من الاضطراب النفسيّ، وتعويضاً عنه؛ وهو حينئذٍ ينبع من العزلة ويقود إِلى العزلة . فمن يخشى ألاّ يتميّز في عالم الحبّ، يسعى إِلى التميّز في عالم السلطة والسيطرة، أو ينطوي في موقف حزنٍ وانهيار . ومن يَستعبد القلب، يتعرّض لإِيلاء الأَوّليّة للصراع والمنافسة، ويتوخّى الغلبة بأَيّ ثمن . غير أَنّ تبوّء المكان الأَوّل يقتضي دفع الآخرين إِلى الأَسفل، ويتعذّر، حينئذٍ، ارتضاء علاقة مساواة: فمن لا يتفوّق، يقبع في موقع أَدنى .

إِنّ الخطر يكمن في الفصل بين عالم العمل وعالم القلب والأَخلاق، إِذ إِنّ مبادئ الأَخلاق تقتضي بأَن يوجّه العمل إِلى خدمة الآخرين ورفاههم . وقد تبيّن لنا في " السفينة " أَنّ رجالاً ونساءً معاقين ذهنيّاً يسيرون نحو توازن إِنسانيّ بفضل العمل، وبفضل نشاطٍ مهنيّ يوفّر لهم إِحساساً بمسؤوليّة العاملين وكرامتهم، ومن ثمّ يخطون نحو شفاء القلب، في حين يتعيّن على آخرين أَن يخطوا نحو شفاء القلب كي يتبيّنوا قدرتهم على تحمّل مسؤوليّة العمل .

إِنّ بلوغ ملء النضج يستلزم عملاً، وأُسرة . العمل هو المكان الذي يمارس فيه المرء قدراته الفكريّة واليدويّة في سبيل خدمة مفيدة وجميلة . أَمّا الأُسرة أو الجماعة فهو المكان الذي يزدهر فيه القلب . وليس المنزل جدران بيت فحسب، بل هو حيث يستكين المرء إِلى " بيته " بكلّ ما ينطوي عليه من أَمان وحياة خاصّة، ومن استرخاء وصداقة . لا بدّ، في العمل، من توتّرات، فثمّة عمل ينبغي إِنجازه، وربّما مواعيد ينبغي التقيّد بها، وبرنامج ينبغي احترامه . أَمّا في البيت فالمرء يسترخي، ويستريح، ويتناول طعامه . وهو يسترخي برفقة آخرين لا يدينون، ولا يقتضون الكثير، ويبرهنون عن رقّة وصداقة، فيستطيع أَن يكون هو ذاته . المنزل هو مكان الأُسرة التي يشترك أَعضاؤها في المحبّة، والصلاة، والاحتفال، ومعاً يستقبلون أَصدقاء .

من المؤسف أَنّ حضارتنا تولي أَهميّة كبرى لامتلاك بيت جميل – جميلٍ ظاهريّاً – يوفّر للمرء الأَمان وسط ثرواته، ولكنّه غالباً خاوٍ من مزايا حياة الأُسرة. فهو ليس، بعدُ، مكان عيد، وحنان، واستقبال؛ بل موطئ قَدَم يسارع أَهله إِلى مغادرته للتمتّع خارجه بعطلة أو

بمشاهد . وعندما يقيمون فيه، وقد فقدوا طعم الاحتفال، ونالهم من التعب ما جعلهم غير قادرين على المشاركة، يقبعون في مشاهدة كسلى للتليفزيون .

و ثمّة قلّة من الأَشخاص المنسجمين مع ذواتهم، الذين تدعوهم مهامّ عملهم إِلى سفرٍ مطّرد، فلا يحتاجون إِلى بيتٍ مادّيّ معيّن، بل اللّه منزلهم، وهم منزل اللّه .

إِنّ الأُسرة أو الجماعة هي المكان الأَفضل لمعرفة الذات، حيث يكتشف المرء أَنّ عدوّه ليس خارجيّاً، بل في ذاته، وأَنّه هو الذي يحول دون الانفتاح والمشاركة، ويحرّض على الحسد، والخيانة، والعِقَد، والمواقف الأَنانيّة . والعيش في الأُسرة أو الجماعة هو دائماً مُذِلّ للـ " أَنا " الذي يتوخّى التأَلّق، إِذ غالباً ما يكتشف ظلماته وأَخطاءه، وحاجته إِلى النموّ والصفح .

" البيت "، إِذاً، هو متمّم جوهريّ للحياة الخارجيّة، إِنّه مكان عيش معاهدة وفاق، وهو ضروريّ للتوازن الإِنسانيّ .

و قد لحظت أَنّ من يفتقرون إِلى حياة عائليّة هم غالباً أَكثر تعرُّضاً لاضطرابات جنسيّة لا يقوون على ضبطها إِلاّ بمشقّة . فاستيعاب الغرائز الجنسيّة يحتاج إِلى الحنان العائليّ، وإِلى دفء الحياة الجماعيّة .

الفصل الخامس :

الجماعة مكان لاستيعاب الجنس والنموّ

كثيرون ممّن يقدمون إلى " السفينة "، من مؤسَّسات، هم جرحى في أجسادهم وفي قلوبهم، إذ لم يسبق لهم أن قُبلوا أو أُحبّوا، فلا يستطيعون أن يُحِبّوا ويقبلوا ذواتهم بما تنطوي عليه من هشاشة واضطراب . في داخلهم يختبئ غضبٌ عميق وعنيف أحياناً، يخافون هم أنفسهم منه لأنّهم يعجزون عن ضبطه . الفترة الأُولى هي، لمعظمهم، في "السفينة"، مرحلة تجذّر، وشفاء القلب، حيث يجدون السلام وشعوراً بالانتماء . وقد تستغرق فترة الشفاء هذه وقتاً طويلاً، وهي تقتضي عقد علاقات صادقة، في جماعة عائليّة دافئة، وعملاً يمنح الإنسان شعوراً بكرامته ويعلن له عن قدراته؛ وهكذا ينعتق المرء من دائرة مغلقة، وينفتح على الغير، ويكتشف آخرين لهم، هم أيضاً، أفراحهم، وأحزانهم، وحاجاتهم، ويسعه مشاركتهم وعيش معاهدة صداقة معهم .

فترة الانضمام هذه إلى " جسم " الجماعة يقتضي أن يحقّق المرء العبور من مقولة " الآخرون من أجلي " إلى " أنا من أجل الآخرين " . إنّ خيار المحبّة وتحمّل المسؤوليّة هو خيار جوهريّ يُدعى إليه كلّ كائن بشريّ؛ وينبغي أن تواكبه جهود يوميَّة في سبيل النموّ، وتجاوز الأنانيّات، والانعتاق من سيطرة عالم الظلمات، والخوف الكامن في كلٍّ منّا، والذي قد تدفعه إلى البروز بعض الغوايات وأحداث الحياة؛ ولا بدّ من جهود صغيرة في سبيل التركيز على النموّ في الحبّ والخدمة، وعلى الجماعة ومنبعها الذي هو اللّه نفسه .

و لكن عندما يعجز المرء عن الاندماج الشافي بالجماعة، قد يفزع إلى الأَحلام؛ وبقدر ما تكون جراحه بليغة، تزداد حاجته إلى الأحلام، ولا سيّما عندما لا تقوى الجماعة على تلبية احتياجاته .

تظلّ الجماعة واقعاً بشريّاً بكلّ ما ينطوي عليه من تعرّض للخطأ ومن هشاشة، ويظلّ المعاقون ذهنيّاً غير راضين، وقد يخامرهم الغضب على الجماعة لأنّها، بسبب أوهانها وجراح أفرادها، تعجز عن تلبية نداءاتهم؛ فيأخذون، حينئذٍ، يحلمون بمكان مثاليّ، مكان راحة، يلقون فيه حبّاً كاملاً، ويحتلّون فيه مركز الصدارة ويحلمون بالسعادة الكاملة . وقد يلعب الحلم أدواراً متناقضة، فقد يُشرع المرء على الواقع وعلى الحبّ، وقد يسلخه عن الواقع . قد ينهض الحلم دليل صحّة يظهر أنّ الحياة أقوى من الموت . ففي معزل عن الحلم قد يصبح العيش جحيماً، وانغلاقاً محكماً في القنوط؛ وحينئذٍ يبدو الحلم رفضاً للموت، وذريعة لمقاومة ألم بليغ؛ ولذلك ينبغي عدم الإسراع في تحطيم الحلم، بحجّة إعادة القوم إلى أحضان الواقع، فهم قد لا يطيقون

هذا الواقع . وعندما يكون شعورٌ بالعجز مدوّناً في الجسم، وعندما تذكّر إعاقة جسديّة تذكيراً دائماً بهذا العجز، يُمسي الواقع أشدّ إرهاقاً . ولكن، مع ذلك، لا يسوغ ترك أيّ إنسان يستكين إلى الحلم ويقطن فيه، فالحلم مكان عزلة، وذلك هو شأن من يتعاطون المخدّرات، فحتّى عندما يكونون معاً، ينحبس كلٌّ منهم إنحباساً رهيباً في أحلامه .

الحلم لا يؤتي الحياة، ولكنّه يتيح، أحياناً، العيش والاستمرار في العيش . ولا يسوغ إنهاء حلم أيّ إنسان، إلاّ إذا أُحيط بحبٍّ من الرقّة بحيث يكتشف أنّ الواقع ليس جهنّمياً وأنّ له فيه مكاناً .

و أكثر الأحلام مراودة للمعاقين، هو حلم الزواج، الذي يعني لهم أنّهم أصبحوا بالغين، أحراراً، " طبيعيّين "، على غرار إخوتهم وأخواتهم . فالعزوبة لهم دليل إعاقتهم، ورمز نوعٍ من النقص الذي لا يتحرّرون منه، بحيث لا تكتمل شخصيّتهم إلاّ بالزواج، أو بالارتباط بقرين .

فالمعاقون ذهنيّاً يتأثّرون حتماً بالثقافة المحيطة بهم فيما يتعلّق بعلاقات الرجل والمرأة، والجنس، وأيضاً بشأن الزواج الذي يصوّره الإعلام على أنّه موئل السعادة، ومن ثمّ يعيشون مشوّشين؛ وهم يتأثّرون، أيضاً، بالقِيَم المبهَمة الشائعة في أُسَرهم . ممّا يخلق جوّاً من التناقض والتوتّر . فالثقافة الشائعة ذات وجهين : إنّها تعكس، من جهة، حلم البشريّة : الرغبة في السعادة والحبّ؛ ولكنّها تظهر، أيضاً، عزلة أفرادٍ يعيشون في اضطراب، "كلٌّ لنفسه"، ويجهدون في ردم فراغ قلوبهم بالامتلاكات الماديّة، ممّا يثير الصراع، والتنافس، وغالباً العنف . هذه الثقافة المحيطة تنطوي على كثيرٍ من الغواية وتستنفذ جمّاً من الطاقات العميقة؛ وإنّنا لنجد، في " السفينة " أشخاصاً تستقرّ فيهم رغبة جامحة في امتلاك الأشياء، في حين أنّ حياتنا الجماعيّة قائمة على المحبّة، والإصغاء، والمشاركة، والتواصل، وهي مدرسة حقيقيّة للنموّ في الحبّ والمسؤوليّة؛ إنّها ثقافة مختلفة مبنيّة على الإنجيل والتطويبات، وتتعارض مع الثقافة المحيطة، والدعاوة التجاريّة .

إنّ الأوهام التي يبثّها الإعلام تحفر في القلب فراغاً، وهي، عوضاً عن إخماد قلق العزلة ومخاوفها، تزيدهما؛ إنّها تثير ولكنّها تعجز عن ملء القلب المتعطّش إلى الحضور، والتواصل، واللانهائيّ .

إنّ " السفينة "، شأنها شأن جماعات وأُسرٍ أُخرى، تتوخّى الاستجابة لهذه الحاجة الأكثر جوهريّة في الكائن البشريّ . إنّها تريد أن تكون موضع تجذّر حقّ، حيث يستطيع كلّ فرد أن يجد، في العمق، معنى لحياته، وازدهاراً لشخصيّته . إنّها تبتغي المساعدة على عيش علاقات وحدة ضمن شبكةٍ من المحبّة الأخويّة، حيث يسع كلّ فرد، ولا سيّما الضعيف، أن يجد مكاناً، ويتحمّل مسؤوليّةً ما .

غير أَنّ " السفينة " ليست محجراً، ولا مفرّ من أَن تؤثّر الثقافة المحيطة بوعي القوم ولا وعيهم . وهذا يستلزم من كلّ فرد أَن يختار، ويدفع حياته في منحى معيّن . وفي الآن عينه، قد يضاعف ذلك بعض الآلام، ويدع بعض الجراح نازفة، ويحول دون شفاء بعض القلوب؛ فالأَشخاص الهشّون والمضطربون يحتاجون إِلى بنىً ثابتة، ومراجع متينة، لا يساعد عالمنا الحديث على العثور عليها، بل هو غالباً ما يضاعف الاضطراب، والعزلة، والخوف، وانعدام الثقة في الآخر .

و هنا، بالتحديد، يكمن تحدّي الحياة الجماعيّة : توفير خيار يلبّي أَعمق التطلّعات الإِنسانيّة . بيد أَنّ عيش هذا الخيار لا يتحقّق في معزل عن صراعات داخليّة . قال يسوع : " الحقيقة تحرّركم " . غير أَنّ الحقيقة والتبعات الناجمة عنها مخيفة؛ وهذا هو تحدّي كلّ تربية؛ بيد أَن خبرتنا تظهر أَنّ القِيَم التي نحاول عيشها تساعد رجالاً ونساءً على النموّ الداخليّ الحقّ، وعلى الانتظام، والعثور على معنى لحياتهم، وعلى الرجاء ....

إِنّ الحياة الجماعيّة تقتضي إِخاءً حقّاً حيثُ يُصغي الأَشخاص بعضهم لبعض ويحبّ بعضهم بعضاً، وهي تتطلّب الحدّ، ما أَمكن، من الجدران التي قد تنتصب بين المعاقين ومن قدموا للعيش معهم، والتي تُستخدَم، أَحياناً، لحماية المساعدين وصوْن سلطتهم . هذه الجدران لا يمكن هدمها إِلاّ بالحبّ والثقة المتبادلين . وحينئذٍ يدخل المساعدون في علاقة تواصل مع المعاقين، وفضلاً عن بذلهم وخدمتهم، يتلقّون ويكتشفون إِنسانيّتهم الخاصّة، ويُقدمون على مجازفة الحبّ ... وهذا يعني إِجادتهم لأَعمال حنان ومودّة لا تقتصر على عدم إِثارة الغرائز الجنسيّة فحسب، بل تسهم في تهدئتها . هذه الأَعمال تهب أَماناً وسلاماً، وتوقظ القلب، وتنهض دليل تواصل ومعاهدة .

على المربّي أن يرى الإنسان في كلّيته، وعليه الإصغاء إليه وفكّ رموز صيحاته، وجميع أساليب تعبيره . فالعنف، على سبيل المثال، صيحة، وتعبير، ولغة، ومن ثمّ لا يتعيّن الاكتفاء بتهدئة العنف والعنيف، بل ينبغي إدراك معنى العنف، وتفسير رموزه .

و قد اكتشفنا، في " السفينة "، بفكّنا رموز أعمال العنف، أنّها صيحة تستلفت الانتباه، أو ثورة على ظلم أو مضايقة . وغالباً ما يتبيّن لنا أنّ هذه الصيحة تتعالى في مراكز ندُرت فيها الاحتفالات، والاتّصالات الشخصيّة .

و كذلك ينبغي فكّ رموز نزوات الغرائز الجنسيّة، التي اختلفت حولها النظريّات وتباينت المواقف . وقد أظهرت لي خبرتي أنّ الغريزة الجنسيّة هي تطلّع نحو علاقة أكثر منها تطلّع إلى متعة، وهي تتفجّر أحياناً عندما يستشعر الإنسان عزلته واضطرابه، فينشد اتّصالاً جنسيّاً، ولكنّه في أعماقه، ينشد بالحريّ، علاقة صداقة، وهو، في الآن عينه، قد يتوجّس خشية من الاتّصال والعلاقات . إنّه لأسهل على فتاة الاعتقاد بأنّ جسدها يثير الشهوة، من الاعتقاد بأنّها محبوبة لذاتها، وكثيرون من المعاقين ذهنيّاً لا يؤمنون بشخصيّتهم العميقة، وبكيانهم الداخليّ، وبقدرتهم على الحبّ واجتذاب حبّ الآخرين حقّاً . فلطالما أُدينوا بناءً على موازين خارجيّة، تميّز بين الطبيعيّ وغير الطبيعيّ . فأنّى لهم الاعتقاد بأنّهم، شخصيّاً، جديرون بالحبّ، وأنّ لهم شأناً ؟ إنّ الانحدار بالغريزة الجنسيّة إلى اعتبارها مجرّد تحرير عابر لنزوة خارجيّة لا صلة لها بالحياة والخصب، إنّما هو تحقير للإنسان .

و قد تجلّى لنا بوضوح في " السفينة " أنّ الأمر الجوهريّ للكائن البشريّ هو عيش علاقات صداقة عميقة . ومن ثمّ تتعيّن مساعدته على دمج طاقاته الجنسيّة في رؤية إخاء وصداقة . وهذا يقتضي من كلّ رجل وامرأة تعلّم حبّ الآخرين، وعيش علاقات تواصل، وعطاء، ورقّة، وخدمة معهم، وعدم استخدام الطاقات الجنسيّة التناسليّة إلاّ في إطار معاهدة من نمط خاصّ يباركها اللّه . إنّ استيعاب الجنس، إذن، هو عدم الخضوع للغريزة الجنسيّة ولالتماس المتعة الشخصيّة، بل الوفاء لمعاهدة مع آخر .

غير أنّ هذا الاستيعاب ليس أمراً سهلاً، فالغريزة الجنسيّة موجودة، وقد تدفع المرء إلى نشدان اتّحاد الأجساد في معزل عن مراحل الصداقة واتّحاد القلوب . وقد تكون الغريزة الجنسيّة مدمّرة، غاوية، آسرة، وقد تنزع إلى استخدام الآخرين كأشياء، وإلى ممارسة السلطة عليهم، وغالباً ما ترتبط الغريزة بالعدوانيّة والعنف، وتقضي على صاحبها .

و مع ذلك تنطوي الغريزة الجنسيّة على عناصر جمال، فهي انجذاب شديد نحو آخر، ورغبة في علاقة حميمة معه، تواكبها رغبة في منح طفلٍ الحياة . ومن ثمّ ينبغي فهم هذه

الغريزة، وتهدئتها، والتحاور معها، ووضعها في مكانها الصحيح . يتعذّر ترويضها والسيطرة عليها بقوّة الإرادة فحسب، ومن ثمّ لا بدّ من استيعابها شيئاً فشيئاً في إطار صداقة حقيقيّة مع شخص آخر، واستخدامها فقط في ظروف معيّنة ضمن معاهدة يباركها الربّ .

و يمكن السموّ بالغريزة الجنسيّة، في فعل حبّ وتواصل، يُبتَغى مــن خلالــه، خيــر شخص آخر، وأَشخاص آخرين، وبأيّة حال، ضمن علاقة مع أَشخاص، وحينئذٍ توجّه الطاقــة الحيويّة، طاقة الحبّ نحو الآخرين، لا من خلال اتّصال أَجساد، بل من خلال أَعمال عطــف، وحقّ، ورقّة .

في الواقع لا يمكن التمييز بين الغريزة الجنسيّة وجاذب الحبّ؛ وما جنــون الغريــزة الجنسيّة إلاّ جزء من جنون الحبّ، المرتبط بنشدان الحميميّة والحنان، وتواصلٍ حقّ . والأَمر الهامّ هو السير ومساعدة الآخرين على السير نحو حبٍّ حقٍّ قائم على التواصــل والعطــاء، وعلى معاهدة وعلاقات متينة . وهذا ما توفّره الحياة الجماعيّة التي هي، في آنٍ واحد، مكان علاج وشفاء، وتربية ونموّ، وأسرة حيث تُعاش علاقات حقيقيّة محرّرة .

في مثل هذه الجماعة يولد، لدى المعاق، شعور بالانتماء إِلى أُسرة جديدة؛ ثمّ يتسنّى له التحقّق من قدرته على الحبّ، والعمل، والخدمة، ومعايشة إِخوة وأَخوات، ومــن أَنّــه كــائن بشريّ بمكنته الأَخذ والعطاء، بل هو، فوق ذلك، ابنٌ للّه، قادر على الاعتراف بــربّ الكــون الذي هو، أَيضاً، أَبٌ . وهو بالتالي يكتشف نسبيّة إِعاقته، وأَنّ الشأن كلّ الشأن لقلبــه القــادر على الحبّ والخدمة والمشرع على اللّه والآخرين .

و بالإجمال عندما يُكَفّ عن اعتبار الغريزة الجنسيّة حقّاً بالمتعة أو مشكلة يتعيّن حلّها، بل يُعترَف بأَنّها دعوة إِلى عقد علاقات دائمة في سبيل الخروج من العزلة، تُحقَّــق خطــوة واسعة على دروب تربية حقّة .

الحبّ هو الواقع الأَجمل، ولكنّه واقع قد يكون على جانبٍ كبير من الخطورة إِن لــم يُبْنَ على معاهدة حقيقيّة . والحياة الجنسيّة بالذات، إِن لم تُعَشْ في معاهدة يباركها اللّــه، قــد تشيع الظلمة في القلب فيغدو مُعتماً . والجنس قد يكون سرّ العلاقة القدسيّ، وقد يكون، أَيضاً، مقبرة العلاقة؛ والقبلة قد تحول دون الكلمة التي لا بدّ منها لتعميق العلاقة . والغريزة الجنسيّة من القوّة بحيث قد تدفع إِلى اتّحاد جسديّ قبل المرور بالمراحل الضروريّة لمعرفــة الآخــر، ولتوثيق الصداقة والمشاركة . في مثل هذه الحال، لا أَساس للاتّحاد، ولا غدَ له .

الفصل السادس :

العزوبة المعاشة في إطار الجماعة

إنّ الحياة الجماعيّة، مع كلّ ما تنطوي عليه من غنى، لعاجزة عن ملء قلب بشـريّ، يتألّم من افتقاره إلى حميميّة مطلقة مع آخر، ومن عزوفه عن الأُبوّة أو الأُمومـة . بيـد أنّ للزواج أيضاً آلامه، فوحدة الزوجين ليست دائماً مكتملة، وثمّة شعور مقيم بعدم الرضى ناجم عن إحساس بغربة أحدهما عن الآخر، بحيث لا يستطيع واحدهما التسلّل إلى مناطق الآخـر السرّيّة، ولا تتحقّق بينهما شفافيّة تامّة، وفي قلب كلّ منها تكمن مخاوف وأنانيّات .

و نلمس هنا سرّ القلب البشريّ البالغ العطوبيّة، والشديد الظمأ إلى الحبّ، والحضـور والمطلق ... إنّه مشدود، باطّراد، نحو هذا المطلق، متعطّش إلى الارتواء، وإلى أن يُعدّ فريداً، ويكون محبّاً، حرّاً، ومعين حياة للآخرين . ولكنّ هذا الصبوّ إلى المطلق يختلج في صدر كائن هشّ، معرّض لغواية الأكاذيب، يعاني من المخاوف، وينشد السلطة والإعجاب مـن خـلال الأوهام، وقادر على البغض .

إنّنا متعطّشون إلى المطلق، ولكنّنا نحمل هذا العطش في آنية سريعة العطب .

و يبدو القلب البشريّ على علاقة وثيقة بالأجهزة الجنسيّة؛ فنشدان الحبّ مرتبط برغبة منح الحياة . ومن ثمّ يبدو الحبّ، بما ينطوي عليه من جنس تناسليّ، سـرّ الكـائن البشـريّ الأكبر . إنّه، في الواقع، مثل ثمرة رائعة معلّقة بشجرة الحياة؛ والثمرة، من غير شجرة، وهمٌ صرف . إنّ الحبّ يستلزم القوّة، والترسّخ، والقدرة على منح الذات لآخر، ومع هذا الآخـر، بذل الذات من أجل آخرين . إنّه يقتضي، تنكّباً عن التردّي إلى الأراجيف، ووفـاءً للعلاقـات المعقودة .

إنّ العطش إلى الاتّحاد وإلى الخصب ثاوٍ في أعماق الكائن البشريّ، وهو على صورة اللّه نفسه لأنّ اللّه حبٌّ وخصب، ويتّسم بطابع قدسيّ .... بيد أنّ هذا الطابع القدسـيّ الـذي يقرّب الرجل والمرأة من اللّه الثالوث قد يُدَنَّس تماماً إذا ما عيش في اقتصارٍ علـى نشـدان المتعة للذات، ورفضٍ لعلاقات دائمة، ولكلّ خصب . إنّ شرّ ما قد يحدث هو الحبّ " من غير حبّ " مع العزوف عن منح الآخر الذات .

لقد أعن يسوع أنّه جاء، لا لكي يضع شرائع عقلانيّة، يمكّن الخضوعُ لهـا الأفـرادَ والمجتمعَ من عيش منتظم، بل جاء لكي يوري نار الروح القدس، وينفث هوى حبٍّ هو نـور وخدمة . ونار الروح القدس هذه لا تعطى للحكماء والأقوياء، بل للمتواضـعين، والصـغار، والفقراء والوديعيين، والأنقياء القلوب والمضطهَدين .

سيُعاني، أَبداً، القلب البشريّ من عدم الرضى، ولن يتسنّى له، يوماً، أَن يعيش كامل النشوة والامتلاء اللذين إنّما يعبران بسرعة، مثل عطيّة، في قلوبٍ معرّضة للعطب، وحتّى الحبّ الأَجمل ينتهي بالفراق إِذ إِنّ الموت مدوّن في ثنايا الجسم البشريّ . غير أَنّ الحياة والحبّ هما أَقوى من الموت، وفي ما يتخطّى الفراق، تبقى وحدة لا مرئيّة ...

الحبّ الحقّ يكتمل، حتماً، في الأَلم والتضحية، لأَنّه بذل وعطاء ... ولا يمكن لحبّ أَن يكون متملّكاً، بل عليه أَن يكون، دائماً، محرّراً . إِنّ الحبّ المتملّك يخنق، وقد يؤدّي إِلى الدمار . لقد أَعلن يسوع أَنّ ما من حبّ أَعظم من أَن يهب المرء حياته في سبيل من يحبّ . الحبّ إِذن يكتمل بالتضحية : بمنح كلّ شيء، وببذل الحياة .

و بالتالي إِن كانت العزوبة مؤلمة، إِلاّ أَنّه يمكن عيشها في رجاء، ولا يقارن أَلمها بأَلم من يأملون أَن يتذوّقوا طعم الأَبديّ في ممارسات جنسيّة لا مسؤوليّة فيها، ولا علاقة دائمة، ولا خصب، فيُمنَوْن، لا محالة، بالخيبة، لأَنّهم سيهوون إِلى عزلة أَشدّ وحشة من التي حاولوا الهروب منها، فاللذّة عابرة، زائلة، والقلق ماثل، مقيم .

كثيرون يعيشون في عزوبة قسريّة أو اختياريّة لأَسباب متنوّعة، ولكن التجربة علّمتنا أَن العيش في كنف جماعة، بقوّة وحبّ نابعين من اللّه، يجعل عيش العزوبة ممكناً .

و لكنّ المأساة تحدث في غياب جماعة أَخويّة، عندما يعيش بشرٌ معزولين في كُتَل بشريّة لا روح فيها، ولا سيّما في مجتمعات تثير وسائل إِعلامها الغرائز الجنسيّة، وتبتذل العلاقات الجنسيّة، نازعة عنها كلّ سمةٍ قدسيّة كامنة في تلاقي أَشخاص على معاهدة .

إِنّ اللّه يعتلن للإِنسان في قلبه وفي عاطفته العميقة، فإِذا ما أَبتُذِل الجنس والحياة العاطفيّة، أُنكرت قدسيّة القلب البشريّ، وتعرَّض هذه القلب للدمار، وبذلك، يدمّر الهيكل الذي صُنع لتقبّل هبة اللّه، وهذا أَمر خطير، إِذ يستحيل تدمير اللّه، ولكن يمكن تدمير الإِنسان القادر على تقبّله .

بعض المساعدين في " السفينة " يلتزمون بالعمل فيها عبر الزواج، وآخرون عبر عزوبة ليست حالة انتظار غير محدّدة، بل عطيّة من اللّه، وقد يتحقّق ذلك إِثر سنوات طويلة من النضج، فيعيشونها على أَنّها تلبية لنداءٍ من اللّه حقيقيّ، ويقولون "نَعَم" في مثل فرح من يتزوّجون واندفاعهم، ويغدو قرارهم أَسهل، عندما يتّخذونه بوضوح، متّكئين على الأَمانة لمن دعاهم وعلى حبّه، خلافاً لما كانوا عليه في أَثناء حيرتهم؛ ويقتضي منهم قرارُ التزام العزوبة، استجابةً لدعوة إِلهيّة، أَن يفاتحوا في أَمره كاهناً أَوأحد شهود اللّه يثبّتهم في ما عزموا عليه أَمرهم، كما يقتضي منهم أَن يعملوا على إِبقاء قلبهم بتولاً، إِكراماً للّه المختبئ في قلب الأَشدّ فقراً.

قولهم " نعَم " ليس، إذن، تصلّب قلب أو فزعاً إلى عالم الروح، بل هو عــزمٌ علــى عيشٍ أعمق للمعاهدة مع الفقير . إنّ القلب المشرع على يسوع، صديقاً وقريناً، يجعل صاحبه أكثر تحسُّساً للآلام البشريّة، وأكثر قرباً من الآخرين وترحيباً بهم، وأوفر حبّاً .

و لكن، بعد الالتزام بالعزوبة، لا يسير كلّ شيء بلا ألم ولا تساؤل، ففي ميدان الحياة العاطفيّة، يظلّ القلب معرّضاً للعطب . إنّنا ننزع في " السفينة " إلى إزالة الحواجز المحيطــة بالقلب، من أجل عيش رقّة العلاقة . لا نخفي قلوبنا، ولا نحميها، وهذا يُضفي على العلاقات غنىً كبيراً، ولكنّه يعرّض الأمان للخطر، أحياناً .

هذه الحالة لا يمكن عيشها إلاّ حين يتأكّد العزم على تقبّل يسوع والفقراء تقبّلاً عذريّاً، وإلاّ عندما يُنظر إلى الافخارستيّا والصلاة على أنّهما لقاء مع من يحبّنا ويدعونا باسمنا علــى دروب الحبّ مع الفقراء والمجروحين . وحينئذٍ تصبح العزوبة علامة حبّنا، وتمسي عطــاءً، وتقدمة كياننا ليسوع ولأصدقائه .

لقد أظهرت لي تجربتي الشخصيّة، بجلاء، مدى حاجتي إلى الجماعة وإلى الصلاة من أجل عيش عزوبتي . فعندما أكون بين ظهراني الجماعة، مع من أُحبّهم وأعلم أنّهم يحبّونني، يغمرني السلام تماماً، ويشيع فيّ الانسجام مع ذاتي، وأقوى على الحبّ بقلبــي غيــر هيّــاب الاضطراب والتمزّق؛ وفي اللقاءات الشخصيّة، ثمّة، أحياناً، سلامٌ كبير، وكثافة صمت تنبــئ بحضور اللّه . في هذه الأثناء، أظلّ هشّاً، ويظلّ قلبي معرّضاً للعطب، وفي الآن عينه أشعر بالقوّة والانسجام مع ذاتي .

أمّا في أثناء سفري، عندما أكون وحيداً، بعيداً عن الجماعة، فإن لم ألتزم بالصــلاة، وإن نأيت عن مركز ذاتي وعن حضور يسوع، فإنّي أخبر هشاشــةً وعطوبيّــة شــديدتين، ويستحوذ عليّ انطباع بأنّ كلّ أنواع الرياح قد تطيح بي، وأنّ أيّة غواية قد تستهويني، وأنّني لا أملك لا قوّة الإرادة ولا الفضيلة الكفيلتين بوقايتي. وفي تلك اللحظات، أحاول الاتّكال على اللّه وعلى يسوع، ملتمساً حمايتي من الشرّ؛ ولكنّني أختبر فقراً ذريعاً .

سرّ الحبّ مع يسوع

كلّما تقدّمت سنّاً، وربّما حكمةً، وأَمعنت في الإِصغاء إِلى أَشخاص محطّمين ومتألّمين أو إِلى أَشخاصٍ يخطون نحو الحريّة، ازداد إِيماني بيسوع المسيح رسوخاً، وبتّ أَرى بوضوحٍ أَكبر أَنّ الأَلم البشريّ الأَوجع هو العزلة، والانكفاء على الذات، وانعدام الحبّ . فعندما يكتشف البعض ما في داخلهم من ظلماتٍ وهواجس يغرقون في الأَسى؛ ويتمثّل ردّ فعل آخرين في إِبداعهم "أَنا" متفوّقاً، فيتحوّل اضطرابهم إِلى طاقةٍ تدفعهم نحو النجاح والسيطرة، ويصبحون عدوانيّين، وينزعون إِلى العيش في المظاهر . وآخرون يلتمسون تعويضاً في العنف، والكحول أو المخدّرات؛ يسعون إِلى النسيان وإِلى الهروب من ظلماتهم الذاتيّة، جاهدين باندفاع في ردم فراغهم الداخليّ .

هل سيُكتب للبشريّة الخلاص ؟ أَم محكومٌ عليها بالتسويات، والكذب، والحرب ؟ لا العلم ولا التقنية قادران على إِنقاذها، إِذ لا يملكان وسيلة لتحرير القلوب ولفتحها على الحبّ والمشاركة . ولئن كان بوسع علم النفس حلّ بعض العُقَد، إِلاّ أَنّه يعجز عن تحويل قلبٍ من حجر إِلى قلبٍ محبّ، وعاجز عن منح الحياة، والرجاء، وحبّ المشاركة . أَمّا الحرب والعنف فلا قِبَل لهما على توفير السلام، بل هما يولّدان الكراهية والانتقام . ولن يأتي الخلاص من السياسة، ومن تغيير البُنى، فكلّ ذلك يظلّ خارجيّاً، في حين أَنّ القلب الإِنسانيّ الأَنانيّ هو الذي ينبغي أَن يتحوّل من الداخل .

إِنّي أومن أَنّ اللّه وحده قادر على شفاء قلب بشريّ من الداخل، بجعله يكتشف أَنّه محبوب ومن ثمّ، جدير بالحبّ، وأَنّ له شأناً، وأَنّه، هو، اللّه، يحبّه، كما هو، بحواجزه وفقره، وبمواهبه أَيضاً، فلا حاجة به،من أَجل ذلك، إِلى أَن يكون كاملاً، إِذ حسبه أَن يكون ابن اللّه الحبيب . وبحبّه على هذا النحو يهبه اللّه الحياة والقوّة على النموّ نحو حبّ أَعظم، ووحدة داخليّة أوثق .

إِنّ حبّ اللّه للبشر، مع فقرهم وجراحهم، من العظمة بحيث أَرسل ابنه، الكلمة، لكي يعلن لهم عن حبّ أَبيه . لقد أَرسل يسوع مولوداً من امرأة، مريم، لكي يحمل إِليهم بشرى أَنّ كلاًّ منهم محبوب، وأَنّ لا أَحد منبوذ أو مفقود . إِنّ يسوع، بإِعلانه حبّ الآب، هو الجواب على الاضطراب والعزلة . معه وبه يسع المرء أَن يعيش كما هو، متقبّلاً إِعاقته، ووهنه، وجراحه، وحتّى تعرّضه للموت، ومعه وبه يولد فيه رجاء : فقد بات الحبّ ممكناً .

يسوع هو الوسيط الأَمثل الذي يخاطب كلاًّ منّا بقوله : " لا تخف، فأَنا أُحبّك، إِنّك ثمين في نظري؛ بوسعك أَن تعيش؛ إِمضِ على درب الحياة لكي تصبح، بدورك، وسيطاً يعلن للآخرين أَنّهم ينعمون بالصفح والحبّ". إِنّ يسوع كامن في قلب كلّ فرد، ولكنّ البشر غالباً ما

يخافون منه، فيواصلون جريهم وضجيجهم، ويرفضون التوغُّل إلى داخلهم من أجل الإصغاء إليه، هو الصامت الأكبر، واكتشافه، والترحيب به في صميم كيانهم؛ يصعب عليهم تصـــديق أنّه متوارٍ في هشاشة قلوبنا، في ما هو أعمق من الاضطراب والخوف، وأعمق من الجدران التي أنشأناها حولَ هشاشتنا وجراح قلوبنا .

و عندما يكتشف المرء أنّه محبوبٌ حبّاً أبديّاً يتخطّى الزمن والمدى، بل يتخطّى الموت عينه، يشرع كلّ شيء فيه يتغيّر، ويمسي كلّ شيءٍ ممكناً، وكلّ شيء مقبولاً ومحبوباً .

شفاء المرء يأتي، أوّلاً، من اتّحادٍ شخصيّ بيسوع الذي يعلن عن ذاته صديقاً وحبيبـــاً يمسّ القلب، ويوقظه ويملؤه .

لكي يعثر القلب البشريّ على جذوره، في معاهدة دائمة لا بدّ له من التقـــاء يســـوع . والمعاق ذهنيّاً، الذي يكابد أحياناً محدوديّة بالغة، والذي قد يكون قاسى ألماً بليغاً، يحتاج أكثر من أيٍّ سواه إلى هذا اللقاء مع يسوع، يحتاج حاجةً أساسيّة إلى بشرى حبّـــه . فـــي معظـــم الحالات لا يستطيع هذا المعاق اختيار الزواج، ويتخبّط في بؤسٍ ذريع، إذ يعجز عـــن تـــدبّر أُموره بنفسه، ولا بدّ له من مساعدة الآخرين. إلاّ أنّه يحتاج، في المقام الأوّل، إلى يسوع الذي تتيح له بُشراه تبيّن هويّته العميقة، ومكانته في الجماعة وفي الكنيسة .

إنّ المجتمع يضع في أرفع مقام الأغنياء، والأقوياء والناجحين . وفي هـــذا النظـــام، يحتل المعاق ذهنيّاً المكان الأخير، هذا إن كان له مكان، وغالباً ما يفتقر إلى مكان، إذ غالباً ما ينزع انعدامُ ضمير البشر إلى قتله قبل مولده، أو لحظة مولده، أو إلى نبذه . وإذا ما ترك لـــه المجتمع المكان الأخير، فعلى مضَض، لأنّه يكلّفه ثمناً غالياً .

أمّا الإنجيل فقد أُعلن للفقراء، الذي يحتلّون صميم تراتبيّته الجديـــدة، والمكـــان الأوّل فيها، فهم الذين يتلقّون، بغزارة، بشرى حضور يسوع، تلك البشرى التي غالباً مـــا يرفضـــها الأغنياء والراضون عن ذواتهم .

الفصل السابع :

الوحدة في الزواج

جمال العلاقة الجنسيّة وجدّيّتها

نحن في " السفينة "، لا نبتذل العلاقات الجنسيّة، ولا نؤمن أنّها مجرّد ذريعة علاجيّة، أو وسيلة تعبير كأيّة وسيلة أُخرى . إنّنا نؤمن بجمال الجنس، وجلاله، بل بسرّيّته القدسيّة، إذ إنّه يعبّر عن تواصل حميم عميق بين شخصين، وبذل كلّ كيانٍ ذاته للآخر، في التزامٍ متبادل ودائم . وإنّ موقفنا هذا شديد الاقتضاء في حقبة تبتذل فيها وسائل الإعلام الجنس .

إنّ ما أخشاه، اليوم، هو النزوع إلى الاستعاضة عن تأكيد عمق سرّ حبّ الأزواج وما يوفّره من حميميّة، وما يُلزم به من ارتباط، بسراب ممارسات جنسيّة سهلة، لا مسؤولة، لا تربط شخصين، وتفتقر إلى الخصب : ممارسات تفضي، في نهاية المطاف، إلى خيبة الأمل وإلى عزلة جديدة، بسبب إخفاقها في تحقيق أعمق احتياجات البشر، وتعطّشهم إلى عيش معاهدة . إنّ انجذاب رجل نحو امرأة وامرأة نحو رجل قد يكون آسراً، معبّراً عن عطشٍ إلى حنانٍ يغذّي الجنس ويقود إليه . ولكن لكي يكون هذا الجنس إنسانيّاً حقّاً، نابعاً من العلاقة ومقوّياً لها، لا مفرّ من أن يعي المرء، بوضوح، هويّته، ويدرك من هو وما يبتغي من حياته، وأن يرغب في مشاركة آخر حياته مشاركة دائمة؛ أمّا من يمارس الجنس قبل بلوغه نضوجاً عاطفيّاً، وهو غير عالم بما يريد من العلاقات الجنسيّة وما يستهدف منها، يتعرّض لمضاعفة تشوّشه الداخليّ، وعوضاً عن ترسيخ هويّته، يخاطر بتشتيتها .

الجنس واقعٌ جميل وقويّ يستحوذ على أعماق حياة المرء، وهو وسيلة خصب فريدة، ووسيلة تعبير منقطعة النظير، وليس واقعاً سطحيّاً، بل، على حدّ قول البابا يوحنّا بولس الثاني : " التواصل الزوجيّ الحميم يضرب جذوره في التكامل الطبيعيّ القائم بين الرجل والمرأة، ويتغذّى بإرادة الأزواج الشخصيّة المشاركة في كامل مشروع حياتهم، في كلّ ما يملكون، وكلّ كيانهم .... "

إنّ الصديق الوحيد – الزوج أو الزوجة – ليس مجرّد شريك مؤقّت كما يحدث في الألعاب الرياضيّة، بل هو الحبيب، ومختار القلب، الذي يوهَب أعمق ما في الجسد والقلب، وتنطوي ممارسة الجنس معه على علاقة جديدة تتّسم بشيءٍ من المطلق عبر العطاء والتواصل الحميم . وهذا العطاء المتبادل يزيد من انفتاح الزوجين على الآخرين، وعلى الوجود، وعلى اللّه، فلا يعود أحدهما للآخر صنماً، بل إيقونة .

عطاء متبادل، وعلاقات جديدة عبر الأَجساد، من العمق بحيث رأت فيها الكنيسة المسيحيّة صورة للعلاقات التي تربط المسيح بالكنيسة، وواقعاً من العمق والجمال بحيث لا يمكن عيشه كاملاً وإنسانيّاً إلاّ إِذا اعترف الزوجان بالعلاقات الفريدة التي تجمعهما، وبالمعاهدة القائمة بينهما والمبنيّة على تعاهد كلّ منهما مع اللّه .

و هكذا تبدو العلاقات الجنسيّة دليل حبّ وصداقة، وعطاء وتواصل حميم، وهي تُلزم حياةً بأكملها؛ إنّها تمثّل قمّة، واحتفالاً بوحدة، ولكنّها تفترض قاعدة : المعايشة اليوميّة، والحياة المشتركة، والإخاء، كما أنّها تفترض بيئة هي البيت، بيت الأُسرة .

بممارسة العلاقات الجنسيّة التناسليّة، يهب أحد الزوجين ذاته الآخر في جسده . إنّ الجسد هو مكان الحميميّة، ودليل حميميّة القلوب . والجسد المعطى يصبح ثميناً لدى الآخر لأنّه جسد الحبيب .

و بفعل هذه العلاقة التي تفترض وتستدعي معاهدة، يصبح كلّ طرف مسؤولاً، نوعاً ما، عن جسد الآخر، ويحبّ الآخر في جسده وروحه وهو معافىً، وأيضاً عندما يكون معتلاًّ، أو مُتعباً .

الحبّ الذي يستولي على الجسد، ليس فرح لقاءٍ فحسب : بل هو أيضاً رغبة في حمل الآخر، ومساندته، ومساعدته في وقت المحنة؛ إنّه خدمة وعطف في العيش اليوميّ . وقد أكّد البابا يوحنّا بولس الثاني ذلك بقوّة عندما قال : " العلاقة الجنسيّة التي يهب بها الرجل والمرأة أحدهما للآخر بأفعال خاصّة مقصورة على الأزواج، ليست مجرّد قضيّة بيولوجيّة، ولكنّها تتعلّق بصميم الكائن البشريّ وأعمق ما فيه من حميميّة . ولا تتحقّق على نحوٍ إنسانيّ حقّ إلاّ إذا كانت جزءاً متمّماً من الحبّ الذي به يلتزم رجل وامرأة التزاماً تامّاً، أحدهما تجاه الآخر، حتّى الموت . ما العطاء الجسديّ الكامل سوى كذب إن لم يكن دليلاً على عطاءٍ ذاتيّ كامل وثمرة له، عطاء يكون فيه الإنسان بأكمله حاضراً، حتّى في بعده الزمنيّ .

و إذا ما احتفظ أيّهما بأيّ شيء، أو احتفظ بإمكانيّة التقرير على نحوٍ مختلف في المستقبل، فالعطاء ليس كاملاً .

العلاقة الجنسيّة المعاشة في إطار معاهدة هي في خدمة الحياة، فمن خلالها تُبنى الأُسرة، والأُسرة هي في خدمة الصغير، الولد . وبذلك تبلغ العلاقات الجنسيّة كامل معناها، وتجعل الرجل والمرأة " متعاونين مع اللّه من أجل منح الحياة لكائن بشريّ آخر ".

و بالتالي ينفتح الزوجان على واقعٍ يتخطّاهما، باكتشافهما قدرتهما على منح الحياة وعلى أن يصبحا والدين بتكريس ذواتهما لخدمة كائن صغير هشّ؛ وهذا الانفتاح يعتقهما من سجن قد يُزجّان فيه إن هما انغلقا على ذاتهما، ومصالحهما، ومُتعهما .

إنّ العلاقة الجنسيّة، في معزلٍ عن معايشة يوميّة، لا جذورَ لها ولا واقع . إنّها لحظة إثارة واتّصال، ومتعة، لا صلة لها بالواقع، ولا تفترض مسؤوليّة تجاه الآخر، ولا التزاماً حقّاً . إنّها أشبه بعبث، وليست دليل معاهدة؛ ولا تمثّل فعل رقّة وثقة بين أشخاص مرتبطين

ارتباطاً وثيقاً؛ معها يظلّ الخوف ثاوياً في اللاوعي، إذ إنّها قد تتقلب مناورة لإغواء الآخـــر والاحتفاظ به، فتتّســم بالهشاشـــة، وتخضـــع لتقلّبـــات المـــزاج، والمخـــاوف، والأهـــواء .

صعوبات المعاهدة في الزواج

عيش معاهد حقيقيّة في الزواج لا يتمّ بلا صعوبات جمّة؛ تلك حقيقة يُستحسَن عدم إغفالها؛ فكثيرون، في غمرة غبطة الزواج والعرس، يذهلون عن وجه المعاهدة الأليم، وما تنطوي عليه من انسلاخ . فالارتباط برجل أو بامرأة يعني التخلّي عن آلاف الآخرين . وبمنح الذات لشخص معيّن، يفقد المرء حرّيّة منح ذاته لسواه .

إنّ بدايات علاقة عميقة وحميمة بين رجل وامرأة هي، غالباً، مفعمة فرحاً وانشراحاً، فالحواجز المقامة حول قلبيهما، والتي كانت تبقيهما في عزلة، تنهار؛ ويتحرّر كلّ منهما من مخاوفه، وهواجسه، وكلّ ما كان يمنعه من التحدّث والتعبير . ولكن، بعد فترة، تشرع الغيوم تغشى علاقتهما، وبعد أن يكون نور أحدهما قد استدعى نور الآخر، يلامس نور أحدهما ظلمات الآخر، وأخيراً تتلاقى ظلمات كليهما، وتظهر توتّرات متبادلة، وعِقد، وقد ينقلب الحبّ كراهية .

فهل، والحالة هذه، علاقة التعاهد بين رجل وامرأة ممكنة ؟ وهل الحبّ هو شيء آخر غير غبطة عابرة تنتهي بالعُقَد والبغض ؟

أظنّ أنّ علاقة دائمة ممكنة عندما يكون اللّه قد لامس قلب كلٍّ من الزوجين، ووضعه على درب الشفاء؛ هذا اللقاء باللّه يتيح لهما عيش كلّ مقتضيات العلاقة . ولكي تبقى العلاقة حيّة ينبغي أن تقوم على المشاركة والرقّة، وتحتاج إلى العزيمة، والإبداع، والزمن .

بيد أنّ أزواجاً كثيرين يعيشون في أوضاع تنال من عزيمتهما، فلا يقويان على تعميق العلاقة، التي تتردّى إلى الانهيار .

إنّ العلاقة بين الزوجين ثمينة لكليهما، وهي أيضاً ثمينة للأبناء، وللمجتمع، وللّه، بحيث أنّ اللّه نفسه وعد بأن يؤيّدهما لكي يستطيعا السير نحو وحدة أوفر عمقاً، وحدة مقدّسة، على صورة وحدة اللّه الآب والابن والروح . إنّها الوحدة البشريّة الأولى ومنبع جميع الوحدات الأخرى .

و لذلك يُعدّ اتّحاد الرجل والمرأة سرّاً، يُعلن أمام الكنيسة التي تثبّته . إنّه مكان لقاء اللّه، الذي سيظلّ حاضراً في ذلك الاتّحاد، ولن يكفّ عن مؤازرة الزوجين، لكي يرسّخا وحدتهما من خلال قبول أحدهما الآخر في الحياة اليوميّة، ممّا يوفّر لهما لا أفراح الاتّحاد فحسب، بل أيضاً أفراح الغفران .

الغفران هو عطيّة يسوع الكبرى للبشريّة، إنّه حبّ فعليّ لآخر جريح، هشّ، خائف. الغفران هو إدراك أنّ جميع العقَد، والأعمال العدائيّة، تنجم، على نحوٍ خاصّ، من الآلام الداخليّة، والاضطرابات والمخاوف . الغفران هو قبول للآخر كما هو، بكلّ شروخه،

وماضيه، ومواطن وهنه، وخطيئته . الغفران هو الاعتراف بالمعاهدة مع الآخر، والنهج بموجبها .

هذا الغفران النابع من قلب اللّه يشفي قلب الإنسان في أعماقه . وهو الذي يحوّل، تدريجيّاً، صورة الذات الجريحة، إلى صورة إيجابيّة لابن اللّه؛ ويحوّل الشعور بالذنب إلى مسؤوليّة، وثقة بالذات، وبالآخرين، وباللّه . ومن اختبر الغفران يصبح، بدوره، قادراً على الصفح .

إنّ أُسُس الزواج تنهض على رغبة الآب في إشراك الرجل والمرأة، مع ما هما عليه من جراحٍ وفقر نفسيّ وإنسانيّ، بحياته الثالوثيّة، وإلى حبّه القائم على الغفران .

و من ثمّ فطريق الوحدة تمرّ عبر الغفران اليوميّ، ودليل الغفران الكامل عيد يندرج في الرقّة ووحدة الحبّ . ووحدة الحبّ هذه التي تنتظم الأفكار والأجساد تطرد كلّ ضروب العدوانيّة، والعُقد المتبقّية، وتجعل من الإثنين جسداً واحداً وقلباً واحداً، ونفساً واحدة، وروحاً واحداً ... وتصبح الوحدة إفخارستيّا، وفعل شكر عن نعمة الوحدة المتجدّدة .

لا يستطيع حبّ الزوجين أن يترسّخ ويسبغ عليهما سلاماً عميق الغور، إلاّ إذا ارتدى حضور يسوع؛ فقلباهما متعطّشان لا إلى حبٍّ عابر، أو متعة شخصيّة، بل إلى حبٍّ كامل أبديّ يخرجهما من عزلتهما ليدخلهما في الوحدة .

إنّ مأساة الزواج واتّحاد الأجساد في الحبّ، تكمن في أنّ كثيرين يلجونه ولكأنّهم يلجون فردوساً كفيلاً بإرواء حاجاتهم العميقة . فيما آخرون، سبق لهم أن خبروا تجارب مريرة، يلجونه متشنّجين، قانطين، في حين أنّ الحقيقة تثوي بين الموقفين، بين السذاجة واليأس . ففي القلب البشريّ عطشٌ فعليّ، لا وهم فيه، إلى الفردوس والأعراس الأبديّة، ولكن لا يتمّ الولوج إلى محراب هذه السعادة إلاّ تدريجيّاً . قد يُخيَّل للكثيرين من الشبّان المفتقرين إلى النضج أنّ الزواج هو هذا الفردوس، ولكن سرعان ما يتبيّنون أنّه إنّما مدرسة حياة وحبّ، وتدريجيّاً، من خلال الأفراح والغبطة، ولكن أيضاً من خلال الآلام، والعُقَد، وأفعال الصفح، يتعلّمون الحبّ والأمانة . ربّما في البدء، كانت عطيّة حنانهم وأجسادهم تفتقر إلى النضج، ولكنّ توخّيهم طبع وحدتهم بسِمة حضور اللّه، وقدسيّة السرّ، يجعلهم يكبرون معاً في الحبّ والحقيقة، ويصبحون، معاً، شهود الملكوت .

إنّ الأُسر المسيحيّة المتّحدة هي الدليل على أنّ الحبّ، والوحدة، والسلام، ممكنة .

إنّ كلاًّ منها هو الخليّة الأُولى لكلّ وحدة، وكلّ صفح، وكلّ جماعة، وكلّ خصب، وهي، بالتالي علامة رجاء .

الفصل الثامن :

الخصب واستضافة الموت

كان الأَقدمون يرون في الإِنجاب مظهراً إِلهيّاً، فالحيّ ليس، في ذاته، خالـداً، ولكـنّ الفرد المعرَّض للموت يشترك في الخلود من خلال الجنس البشريّ، وبقدرته على إِنجاب ذاتٍ أُخرى . إِذن، في التطلّع إِلى الإِنجاب، تكمن رغبة الخلود.

في الخصب البشريّ ينبغي أَن يُكمل الخصبَ البيولوجيّ خصبُ الحـبّ، ويجـب أَن يستقبل الوالدون الطفلَ الذي أَنجبوه بحبٍّ وحنان، لكي يستطيع أَن يكبر ويحتـلّ مكانـه فـي الوجود .

فالخصب البشريّ لا ينتهي بالولادة، إِذ يستمرّ الوالدون، سحابة سنوات طويلة، فـي حمل وليدهم، ومنحه الحياة، وتغذيته، ومساعدته على النموّ . حبّهم له هو الـذي يـوفّر لـه الأَمان، ويُقصي عنه المخاوف والهواجس؛ ويتيح له، مع هشاشته وعطوبيّته، الانـدماج فـي الجماعة البشريّة، ومن ثمّ، في الوجود . وعندما نشهد إِلى أَيّ مدى يمكن للأَولاد أَن يتعقّـدوا فكريّاً ونفسيّاً بسبب تعرُّضهم للنبذ، أَو بسبب حماية مفرطة متسلّطة، يسهل علينا إِدراك كـم يمكن للحبّ أَن يكون نبع حياة . فمن كان محبوباً يقوى على التقدّم بلا وَجَل، وأَن يكون هـو ذاته، ويتعلّم الكلام، ويتجهّز لكي يُحِبّ، هو، بدوره .

و لئن كان العقم البيولوجيّ موجعاً ودراماتيكيّاً، فإِنّ العقم النفسـيّ أَبلـغ مأسـاويّة . والبون بين الإِنتاج والخصب شاسع؛ فباستعمال العقل والتقنيات يمكن إِنتاج متاع لا حياة فيه، متاع يُمتلَك، ويمكن استخدامه أَو بيعه، ولكنّه لن يكون أَبداً غاية أَو هدفاً . أَمّا الخصب فهـو حمل ثمرة، ومنح الحياة لكائن بشريّ آخر، إِنّه علاقة كائن حيّ بكائن حيّ آخر، في الحـبّ؛ وهذا الكائن الذي وُهب الحياة لا يُمتلَك، بل، على نقيض ذلك، يُمنح مجالاً للعـيش، ويُمـنح الحرّيّة . إِنّ الخصب رائع ولكنّه، محاطٌ بالمخاطر . إِذ لا يحقّ للولد أَن يفعل بابنه ما يريـد، ويمسي الوضع مأَساويّاً عندما يبتغي الوالدون برمجة حياة ابنهم بكاملها ومراقبتهـا، إِذ قـد يسبّبون له، بذلك، أَمراضاً نفسيّة وبيلة .

إِنّ الخصب يفترض قبول الانضواء في سلسلة الحياة الكبرى التي تربط البشر معـاً، في تاريخهم . ولا بدّ من أَن يتخطّى الولد والديه، على نحوٍ ما، ولا بدّ أَن يتخطّاه أَبناؤه فيما بعد .

فالحياة اكتشاف متواصل يجعلنا نكتشف، بدهشة لاتنتي تتجدّد، أَسرار اللّـه. وتـاريخ البشريّة تاريخ مقدّس حيث يتجلّى سرّ اللّه من خلال الحبّ، ومن خلال صراعات ضدّ قـوى

الكذب والظلمة، وضدّ الشرّ . وفي حين أَنّ تربية محكمة البرمجة تُبنى على الخـــوف، يقـــوم الخصب على الثقة بالحياة وبنبع الحياة .

إِنّه لأَمرٌ جوهريّ لكلّ إِنسان أَن يكتشف خصبه ويعيشه، إِذ إِنّه بذلك يلج إِلى قلب اللّه وإِلى صميم الخصب الإِلهيّ الذي هو الروح القدس .

إِنّ كلّ إِنسان يتوق إِلى امتداد حياته فيما وراء الموت، بحيث لا يكون موتـــه مجـــرّد فراغ يخلّفه حيث كان، بل يتطلّع إِلى أَن يظلّ يعيش في مكان ما، وأَن يخلد ذكـــره، وحياتـــه وفكره . وهو سيظلّ حيّاً من خلال أولئك الذين وهبهم الحياة، وأَيقظ قلوبهم، وبإِشراعهم على حبٍّ أَكبر، وإِبلاغهم سرّ اللّه .

الخصب الروحيّ

إنّ الخصب الروحيّ يكتسب عمقاً لدى المعاق ذهنيّاً الذي يعيش في جماعة إيمان، عندما يكون قد خَبَر اللّه . إنّني أُذهل حيال إيمان المعاقين عقليّاً أيّاً كان مذهبهم ودينهم، ففي انفتاحهم على اللّه ما يدهشني بشدّة . فمع ضآلة طاقاتهم العقليّة، لديهم فيض من طاقات الثقة . إنّهم يعيشون ثقة الأطفال، التي تتلاشى لدى الإنسان المثقّف الذي قد ينزع إلى الصَّلَف . غالباً ما يجد المعاقون مشقّة في التعبير عمّا يجري في داخلهم، بيد أنّ كثيرين منهم ينعمون بالسكون وبسلام حقيقيّ في أثناء الصلاة، والقدّاس، وعقب المناولة . وبعض المعاقين بإعاقات سحيقة قادرون على عيش فترات هدوء طويلة أثناء الاحتفالات الدينيّة، في حين أنّهم في فترات الفراغ أو النشاط البشريّ، دائمو الاضطراب . وهذا دليل على أنّهم يعيشون خبرة حقّة، عميقة، في أغوار ذواتهم، وربّما هم كانوا يكتشفون جمالهم الداخليّ ومكانهم الحقيقيّ في قلب الكنيسة والوجود، بل في قلب اللّه . ومن خلال خبرة اللّه هذه التي تظلّ خفيّةً على المفكّرين، والمفرطي النشاط، والشديدي الاهتمام بمكانهم ودورهم في المجتمع، إنّما هم يكتشفون هويّتهم الحقّة .

عندما يكتشف المرء أنّ اللّه يحبّه، وأنّ بوسعه عيش علاقة معه، والاتّصال به، يحدث فيه تحوّل، ولا يعود يعبأ بمحدوديّته وإعاقاته، فباتّصاله بيسوع يستطيع تبليغ الحياة، ويستطيع الإيمان بقول يسوع : " كلّ ما تطلبونه من الآب باسمي، يمنحكم إيّاه . "

و إنّني أُومن بوجود خصب سرّيّ كامن في تضاعيف الألم . وليس سهلاً عليّ التحدّث عن ذلك . فهو واقع أستشعره فقط بإيماني، وأُعبّر عنه بالتشبيه : فما ينبذه البشر قد يصبح سماداً مخصباً؛ وما هو متعفّن يغذّي الأرض ويساعدها على حمل ثمار، ومنح الحياة . وقد لا يدرك الإنسان المتألّم خصوبة محنته، ولكن الجماعة التي تعيش معه، ومع صيحاته، قد تستطيع تقديم آلامه للآب، الذي سيفيض فيها الخصب بالإتّحاد مع آلام ابنه .

الجماعة التي تحسن الاحتفال بالحياة وبالخصب، تحسن أَيضاً الاحتفال بالموت؛ وكان فرويد قد قال : "من ابتغى الحياة عليه التأَهّب للموت". فمن عاش في خشية الموت، وحجبه عن ذاته وعن الآخرين، تولاّه الاضطراب حيال نُـذُره: كـالمرض، والإعاقـة، والـوهن، والإِخفاق، إلخ ... إِنّ الموت جزء من دورة الحياة، وهو، غالباً، واقع رهيب، ولكنّـه واقـع طبيعيّ مدوّن في الأَجساد، ولطالما عاشه الكثيرون من قبلنا .

و الجماعة التي تحتفل بالموت بواقعيّة وحنان، تسهم، إِلى حـدٍّ بعيـد، فـي طمأنـة أَعضائها في ما يتعلّق بهذا الواقع الجوهريّ . فهي لا تسعى إِلى إِخفاء واقع الموت الحاضـر بعمقٍ في حياة عالمنا، أو إِلى تزيينه – وتزيينه ضرب من إِخفائه والهروب منه – بل تنظـر إِليه بسكون، وتتحدّث عنه، وتصلّي، وتسعى إِلى عيشه ورؤيته تحت نظر اللّه؛ لا تنكر وجهه الموجع، فالفاجعة واقع إِنسانيّ ونفسيّ وروحيّ عميق الغور .

إِنّ موت من نحبّ يمزّقنا دائماً . فالحبّ هو حمل الآخر داخل الذات، والاحتفاظ لـه بمكانةٍ فريدة في القلب . هذا المجال الروحيّ يتغذّى بالحضور الماديّ، وإِنّما الموت هو سلخٌ لجزء من قلبنا . إِنّ من ينكر أَلم الموت لم يحبّ، حقّاً، أَبداً، ويعيش في وهمٍ روحيّ . ومن ثمّ فالاحتفال بالموت ليس نفياً لما يحدث من تمزّق، بل توفير فسحة لعيشه، والتحدّث عنه، وحتّى الإِشادة به؛ إِنّه مساندة متبادلة من أَجل مواجهة واقعه، ووضع كلّ ذلك بثقة في قلب اللّه . إِنّ يسوع لم يشأ إِلغاء الأَلم والموت، ولكنّه نفحنا وسيلة لعيشهما وأَدخلنا إِلى سرّ الأَلم بالتقدمـة والتضـحية .

الفصل التاسع : الاحتفال بالوحدة

معنى المتعة

يسهبون، اليوم، في الحديث عن حقّ المعاقين ذهنيّاً بالمتعة؛ ولكن قلّما يتحدّثون عن حقّهم في أن يُحبّوا ويُحتَرموا في كامل كيانهم، وفي حقّهم بعقد علاقة.

و المأساة تكمن في كون الممارسات الجنسيّة، في معزل عن العلاقة، وعن رباط صداقة حقيقيّة، مبعثَ خيبة أمل ذريعة . فهي توفّر متعة لا تدوم أكثر من لحظة، ولا يبقى، إثرها، لا علاقة ولا شيء . بل يُلفي المرء نفسه وحيداً، مستغرقاً في الاضطراب .

اللذّة واقع يحمل معاني متباينة : فثمّة ملذّات خطرة، وملذّات سامّة، وملذّات تولّد حاجة وإدماناً كالمخدّر مثلاً؛ وبعض المخدّرات تدمّر الدماغ، وتسجن المرء داخل ذاته، في عالم من الإثارة الخياليّة، وتعطّل نشاطه فلا يتبيّن احتياجاته الخاصّة ولا احتياجات الغير، ولا يتمكّن من حبّ الآخرين، أو من بذل جهد للكفاح من أجل السلام والعدل . إنّ التماس اللذّة من أجل ذاتها تخلق توتّراً شديداً مع الآخرين .

فإلى جانب الظلم الذي يقترفه من يسحقون الضعيف ويسومونه العذاب، ثمّة ظلم من ينغلقون على ذواتهم، في عالم اللذّة، ويرفضون الآخرين .

و قد يمسي التماس اللذّة الجنسيّة الأنانيّة هذا المخدّر الذي يُقصي عن القلب الإحساس باحتياجات الغير وآلامهم، ويفضي إلى إغلاق المرء على ذاته، وعلى مشاعره وأحاسيسه الخاصّة .

و من ثمّ قد تمسي اللذّة مدمّرة تسجن المرء في العزلة، وتزيد من اضطرابه، واضطرابه يدفعه إلى التماس ملذّة وتعويضات أُخرى، وتتكوّن حلقةٌ مفرغة : فالحاجة إلى الإثارة تتفاقم باطّراد، وكذلك السعي نحو المزيد من المتعة . سعيٌ لا ينتهي، ويؤدّي إلى الموت : فالكائن البشريّ لا يرتوي أبداً، ويتلهّف أبداً إلى المزيد، وهذا الإدمان النابع من الإضطراب ليس مجرّد واقع روحيّ : فالقلق يتجسّد في اللحم والدم ويولّد إدماناً جسديّاً .

في مواجهة ذلك الخطر ينبغي اللجوء إلى تربية على الرجاء تستلزم مناعة داخليّة، وتقتضي العزوف عن بعض الملذّات الآنيّة، السهلة، وتطلّعاً إلى ملذّات أعمق تُشرع على العالم الفسيح . نظير جهدٍ في سبيل الحدّ من المأكل والمشرب بغية العطاء لمن يملكون أقلّ .

غير أنّ، ثمّة، في المقابل، مُتعاً تشجّع الانفتاح على الآخرين، وتنفح المرء مناعةً، وأماناً، وثقة بالذات، وقدرة على إدراك احتياجات الآخرين وتلبيتها.و هذه المتع هي غذاء،

وتجدُّد طاقات يمكّنان من مواصلة الكفاح ضدّ جميع قوى الشرّ التي تحبس الإنسان في سجون الأَنانيّة والخوف، ويساعدان على المضيّ قُدُماً في دروب الحبّ .

عندما تُستهدف المتعة غايةً في ذاتها، وتُعدّ مطلقاً، فهي تغلق الإنسان على ذاته، أَمّا إِذا نُظر إِليها على أَنّها تجديد للطاقات، فهي تغدو وسيلة لمواصلة خدمة الآخرين .

و قد يكون التجاذب الذي يشدّ رجلاً إِلى امرأة عامل ازدهار وانفتاح على الآخرين وعلى الكون، أو قد يغلق أَحدهما على الآخر، وكلّ واحد على ذاته، حائلاً دون اندماجهما المتناغم والبنّاء في العالم .

إِحدى أَخطر مهامّ التربية هي المساعدة على التمييز بين ملذّات هي عامل انفتاح وتجديد طاقات، وتلك التي تدفع إِلى الانكفاء على الذات؛ بين المتع التي توفّر ازدهاراً حقّاً، وتلك الي لا تتعدّى كونها أوهاماً عابرة . ليست التربية مجرّد حظرٍ للمُتع الزائفة، بل المساعدة على إِظهار زيفها، والتدليل على أَنّ هناك متعاً أُخرى توفّر قدراً أَوفر من الفرح العميق، فضلاً عن الأَمان، والسلام والثقة . وتتمثّل الصعوبة، لدى المربّي، في تقرير متى ينبغي إِتاحة الفرصة، لاكتشاف زيف بعض المتع عبر اختبارات شخصيّة، ومتى يتعيّن الحؤول دون تلك التجارب التي قد تكون شديدة الوبال .

و يبدو أَنّ ثمّة علاقة وثقى بين انتشار الإِباحيّة الجنسيّة وزوال الحياة الجماعيّة وعلاقات الصداقة الحقيقيّة، فجميع قِيَم مجتمعنا تدفعنا نحو الاستقلاليّة والفرديّة؛ فالأُسرة الكبيرة قد تجزّأت وتشتّتت، وتلاشت احتفالاتها وأَفراحها، فبات القوم معزولين، مضطربين، مفتقرين غالباً إِلى القوّة الداخليّة، فراحوا يبحثون عن المثيرات : مشاهد عنف، وجنس، ومخدّرات، وكحول، وينشدون مشاعر قويّة في علاقات جنسيّة عابرة، أَنانيّة، لا رقّة فيها، ولا حميميّة، ولا عهدَ . وحينئذٍ تخلو العلاقات بين الرجل والمرأة من الحبّ والاحتفال، وتمسي ثمرة الاضطراب والخوف من العزلة .

" صمتُك يدعونـي "

TON SILENCE M'APPELLE
(Fleurus/Bellarmin 1974)

هذا الكتاب

لقد نأت المجتمعات الحديثة، شأواً بعيداً، عن التطلّعات الروحيّة والصوفيّة، وعن مبادئ الحرّيّة والمساواة والإخاء، وآثرت الاهتداء بشعارات اجتماعيّة زائفة، هي تمجيد لقِيَم الجدوى، والمال، والرفاه، وهي في الواقع، دعوة إلى تخطّي الفقراء، والضعفاء، والمعاقين، والإزراء بحبّ الشخص البشريّ، في سبيل التماس الجمال، والقوّة، والثقافة، والبحبوحة، ومزايا النجاح الاجتماعيّ، من بيتٍ جميل، وثقافة راقية، وشهرة ذائعة . وهكذا، قاد تغذّي هذه المجتمعات بثقافة مادّيّة وأنانيّة إلى الذهول عن الجوهريّ : أي عن تعميق وعيه الشخصيّ الحرّ، الحيّ، المحبّ؛ ممّا هوى بالإنسان المعاصر إلى أزمة مصير، وبحران من الحيرة .

و في قلب هذا المجتمع الحائر الذي كاد يفقد روحه، يضجّ صمت المحرومين الكثيف، مسائلاً الجميع .

هذا الصمت نفذ إلى أعماق وعي جانه فانييه، بفضل معايشته للمعاقين عقليّاً، في السفينة، واكتشاف يسوع فيهم . وقد ترسّخ هذا الوعي وتعمّق من خلال خبراته في بلدان العالم الثالث الأكثر حرماناً .

من مراقبة هذا العالم الممزّق بين متخمين وجياع، بين أثرياء ومعدَمين، بين راضين عن ذواتهم ومنبوذين، بين محبطين يائسين ومندفعين بكلّ طاقاتهم صوب الربح ... استشفّ ومضة رجاء، وجمع حصاداً وفيراً من التحليلات الدقيقة التي أودعها هذا الكتاب .

لقد تبيّن جان فانييه، بتبصّر نفّاذ، مِحَن عصرنا، والأزمة العاصفة بشبابنا، من جرّاء التضارب الحادّ بين تطلّعاتهم الطموح، والواقع القاسي الذي يصطدمون به، وبسبب افتقارهم إلى القدوة المؤثّرة، وإلى القائد الذي يستحقّ ثقتهم . فانتهوا إلى الكفر بقِيَم الأخلاق والدين التقليديّة، وبقِيَم العصر المادّيّة؛ خاب ظنّهم في الماضي، وفي السياسة الراهنة؛ لا الكبار يفهمونهم، ولا هم يعثرون على سبيل لإحلال المجتمع الذي يتطلّعون إليه؛ وهم، غالباً، يفتقرون إلى الإيمان الذي يهب السلام، فيضربون في دروب العنف .

لقد آلمهم نفاق عالم يتشدّق بالقِيَم، ويدّعي العدل، ولكنّه يسحق الأفراد، ويضحّي بكلّ شيء على هيكل النجاح والرفاه . هذا الرياء قضى، في نفوس الكثيرين من الشبّان، على إيمانهم بإرث البشريّة، حتّى على الجيّد منه . فغزوُ القِيَم المادّيّة الأنانيّة أدّى إلى خنق الحياة الحقيقيّة، وإحكام سجن القلب، وتقييد تطلّعاته الجميلة؛ وأعلنت القِيَم السائدة إفلاسها، إذ شُوّهت قيمة الطفل وأُفسد روح الزواج، وتلاشى الحبّ الحقّ بكلّ ما ينطوي عليه من روعةٍ وغنى، وإلهيّ ولا نهائيّ .

لا بدّ إِذن من تغيير يتحقّق بنار الحبّ وسلامه . لا بدّ من "ثورة حب" تحمل الأَغنياء على المشاركة بما يملكون، لكي يعمّ السلام والحبّ . فالسلام لن يحلّ على الأَرض حتّى يتعلّم الأَغنياء – أغنياء المال، والصحّة، والسلطة – الاقتسام مع المحرومين، وحتّى يعثر الفقــراء على أَملٍ جديد في الحياة؛ وحتّى ينتفي التمييز بين غنيّ وفقير، بين معاق وإِنسان سويّ، وكلّ تفرقة تنهض على أسس الاختلاف في المحيط، والجنس، والدين، والمستوى الفكريّ؛ وحتّــى يبرز عالم يلتئم فيه الجميع على فرح الحبّ الإِلهيّ الأَبديّ .

لن يحلّ السلام إِلاّ بتحولّ جوهريّ في قلوب البشر، بحيث يرمقــون الآخــرين بــلا خوف، ويرون فيهم إِخوة جديرين بالاحترام والتقدير، أَيّة كانت ثقــافتهم وديــنهم، ولغــاتهم، ونزعاتهم السياسيّة؛ وبحيث يتعاملون، جميعاً، في تواضع ومساواة، وفي معزلٍ عن كلّ موقف تفوّق، وعدائيّة، ومنافسة .

و من أولى شروط السلام أن يكون البشر على تناغم مع ذواتهم، وعلى توافــق بــين أقوالهم، وأفكارهم، وأسلوب عيشهم، وأن ينشأ الصغار في جوّ وئام .

و في سبيل ذلك، يتحتّم على الوالدين أن يكونوا متبصّرين، يرصدون، بدقّة، علامات الأزمنة، وأن يحدو نظراتهم الرجاء .

و عليهم السهر على عدم إفساد نفوس الشباب بإعلامٍ جامح، غير مسؤول، موجّه إِلى الاستهلاك، والعنف، والجنس الخالي من الحبّ . وعليهم توفير قدوةٍ لهم من الكهــول قــادرة على استثارة إعجابهم، واجتذابهم، في تيّارها، وإغرائهم بمبادئ السلام، والإِخاء، والمشاركة، والخدمة، الكفيلة، بإسباغ معنىً على حياتهم؛ وتنشئتهم علــى استضــافة الآخــر المحتــاج، والإِصغاء إِليه، والسعي إِلى تلبية احتياجاته، وتربيته على الحبّ، والحقّ، والصدق مع الذات .

و على المربّين أنفسهم أن يعيشوا جوهر رسالة يسوع، الذي غسل أرجــل تلاميــذه، وتقبّل الصلب لكي يعتق إخوته البشر، لكي يقووا على تعليم الفتيان والشبّان معايشة الفقير، من غير خوف ولا وَجَل، وهم واثقون أَنّ المرَض الوحيد الخطير المعدي الذي يتعيّن وقايتهم منه هو القلب المغلق المتحجّر .

خيار البشريّة، إِذن، هو بين ثورة دمٍ وعنف أو "ثورة حبّ" .

و " ثورة الحبّ " لن تتحقّق إِلاّ بالتمثّل بوجه يسوع الحقّ :

بتواضعه، وفقره، وتوقه المتلهّف إِلى إِنقاذ جميع البشر، والذي حمله على بذل حياته في سبيلهم .

و يحتلّ المعاقون ذهنيّاً حيّزاً هامّاً من تفكير جان فانييه، مثلما يحتلّون المكانة الأثيرة من قلبه وكيانه .

فعلى نقيض الفكرة الشائعة بأَنّ المعاق عقليّاً هو عنوان الفشل، يعلن جان فانييه : " لقد علّمني المتخلّفون عقليّاً الكثير عن المعنى العميق والحقيقيّ للحياة البشريّة، وبخاصّة عن قِـيَم القلب، والحبّ، والدهشة، بل التأمّل " . ومن ثمّ، خلافاً لما يعتقده الكثيرون، فـإِنّ للمعـاقين موقعاً هامّاً في المجتمع، فهم يعلّمون التواصل الحميم، والحبّ الصافي المجرّد القـائم علـى العطاء، ويمتلكون بذور اللانهائيّ، والأَبديّ الذي يفوق كلّ ما هو بشريّ، ويتميّزون بصـدق المشاعر .

إِنّهم تذكير دائم بأَنّ الفرح والسعادة ليسا نتاج المال، والقدرة، والسطوة، بل هما ينبعان من قلبٍ صافٍ منفتحٍ على العطاء . وهم مصدر إِلهام لمن برحوا يمتلكون مثل هذه القلـوب، ولم تحجّر مفاهيم العالم عواطفهم .

إِنّهم، بوهنهم، تحدٍّ لعصرنا.

و لئن كان كلّ إِنسان يحتاج إِلى الشعور بحضورٍ محبّ كي ينمو، ويزدهر، ويطمئنّ، فهم، أكثر من عامّة البشر، ييتئسون ويغرقون في القنوط عندما يتبنّون أن لا أحد يكترث بهم .

فلنجعلنّ قلوبنا ملجأ للمتألّمين .

إفلاس التقاليد الاجتماعيّة

الإنسان المعاصر شغِفٌ بالحرّيّة، ثملٌ بها، وتكاد الحرّيّة تقضي عليه .

قديماً كان فكره وحياته يندرجان في أثلام التقاليد والعادات، ولكنّه، شيئاً فشيئاً، وبفضل تطوّر بطيء في جميع الميادين، اكتشف إمكانيّات وطاقات بشريّة واصطناعيّة تثيره وتخيفه في آنٍ واحد . فقد استعاض عن عالم الطبيعة بعالَم مصطنع يُضفي عليه صبغة السلطان، بحيث انتفى عنه الشعور بأنّ الطبيعة تسيطر عليه وأنّه خادمٌ لها، وخُيِّل له أنّه أصبح سيّداً، وأنّ لا حدود لقدراته .

في قلب الإنسان عطش لا يرتوي إلى اللامحدود واللانهائيّ، وهو سرعان ما يملّ أثلام العادات، ويتطلّع أبداً إلى كلّ جديد، وهذا العطش يدفعه باطّراد نحو التطوّر، والتقدّم، وخوض الاختبارات في شتّى المجالات ...

الإنسان متعطّش إلى الحرّيّة، حرّيّة العيش في معزل عن القيود الخارجيّة، وظمأ أشدّ استعاراً إلى حرّيّة داخليّة تندرج في ازدهار طاقات الحبّ، والذكاء، والحياة .

و كان من شأن التقاليد أن تقوده نحو هذه الحرّيّة الداخليّة في مواجهة غرائز الاحتكار والأنانيّة الثاوية في كلٍّ منّا، وأيضاً في مواجهة التقاليد الاجتماعيّة والسلطة الحائرة . ولكن، من المؤسف أنّ هذه التقاليد غالباً ما كانت تقود إلى خنق الحرّيّة عوضاً عن بعثها؛ إذ إنّها باتت في خدمة جماعة من المالكين المتشبّثين بالسلطة والسلطان، في حين كان عليها أن تكون في خدمة ضمير كلّ فرد، ومن ثمّ فهذه التقاليد التي كان من شأنها إزاحة الحواجز المنتصبة في قلب الإنسان وبين البشر أدّت إلى نصب حواجز جديدة .

لقد اتّضح للمرء المعاصر أنّ التقاليد الدينيّة والاجتماعيّة والإنسانيّة غالباً ما استُخدمت لسحق الإنسان، وأنّ مظالم فادحة قد ارتُكبت باسمها. فباسم القانون شُنّت الحروب؛ وبذريعة تطبيق الشريعة أُرهق، على نحوٍ خاصّ، من لا يملك شهرة ولا يستطيع الدفاع عن نفسه؛ وهكذا وُجد عالم مراءٍ، يتشدّق بالقِيَم الاجتماعيّة ويسحق الأفراد، ومع ذلك، يدّعي العدل . إزاء هذه المظالم وهذا الرياء، فقدت شبيبة اليوم، المتطلّعة إلى الحرّيّة والحياة، ثقتها في التقاليد، وفي السلطة عموماً، فرفضت، ما هو جائر وعشوائيّ، وزائف، ومتجبّر، في السلطة وفي التقليد، وفضلاً عن كلّ ذلك رفضت، أيضاً، ما يمثّل، حقّاً، إرث البشريّة الكامن في ثنايا التقليد السليم الذي يفضي نحو الأبديّ، والحرّيّة الداخليّة، والحبّ الكونيّ .

إنّ الأزمة التي نعيشها ناتجة عن غزو القِيَم الزائفة المادّيّة، والفرديّة، والأنانيّة، التي تفضي إلى خنق الحياة الحقيقيّة، والتي حلّت محلّ التقاليد الدينيّة الكفيلة بقيادتنا نحو حرّيّة الحبّ الداخليّة، والتي أشحنا عنها قلبنا وفكرنا .

لقد سحقت أولويّةُ الشريعة والتقاليد، التي تؤثر المالكين، الأَولويَّةَ المطلقة التي تحــقّ للفرد في مواجهة التقاليد؛ وانحفرت هوّة بين التطلّعات الديمقراطيّة والروحيّة والصوفيَّة التي قامت عليها حضارتنا من جهة، ومن جهة أُخرى المزاعم الاجتماعيّة التي اتّخذت من الجدوى ونشدان المال والرفاه قِيَماً عليا، ممّا عمّق أَزمتنا وزرع البلبال في النفوس . لقد أُغفِل الفقراء، وامتُهنت كرامة كلّ كائن بشريّ، وأُشيد بحبّ الجمال والثقافة، والبحبوحــة، ومزايــا حيــاة اجتماعيّة رفيعة، متمثّلة في بيت جميل، وثقافة ممتازة، وسمعة اجتماعيّة، أَي، بالإِجمال، في النجاح، ونُسيَ الجوهريّ، ألا وهو تعميق الوجدان الفرديّ الحرّ، الحيّ، المحبّ، لصالح ثقافة أَنانيّة، ماديّة .

و من ثمّ واجهت شبيبتُنا، كما لم يحدث قطّ من قبل، الخيارَ بين تطلّعات الحبّ الكونيّ وواقع مجتمع يحرّض على التماس الخيرات الماديّة، غير عابئ بالآخرين، وفي معظم الأَحيان ينمّي قسوة القلب .

فضلاً عن أَنّ وسائل الإعلام والاتّصالات باتت تطلعنا على مآسي الشعوب، وعلــى قِيَمها الثقافيّة والدينيّة والأَخلاقيّة؛ وبعد أَن كان تعذُّر الحوار يســمح للشــعوب أَن تتجاهــل، وتدّعي في ذاتها كلّ امتياز، وتنكر أَيّ عنصر إِيجابيّ لدى الآخرين، سقطت هذه الإِدّعاءات، وأَدّى تمازج الشعوب والأَفكار إِلى تحطيم المعتقدات المطلقة الجامدة، وإِلى الإِيمــان بنســبيّة الفكر والحقيقة . وكما لم يحدث، قطّ، من قبل، على مدى التاريخ أَمسى الكثيرون، ولا ســيّما في صفوف الشباب، يعون قيمة كلّ إِنسان، في معزل عن عرقه، ودينه، وطبقته الإِجتماعيّة .

و بالمقابل أَدّت المقتضيات السياسيّة والاقتصاديّة إِلى سَنّ قوانين وصنع تقاليد غالباً ما ترهق الفرد، بتشديد المجتمع التّقنيّ والصناعيّ على الجدوى التي تجعل حياة المسنّين، وغير المستقرّين، والمعاقين، شبه مستحيلة . فلقد أَصبحت قِيَم الجدوى، والفرديّة، والثروة، والرفــاه الفرديّ هي الدوافع البشريّة الأَكثر شيوعاً، لا بل الوحيدة، وخُنِقت تطلّعات المرء العميقة، ففقد شيئاً فشيئاً معنى الإِخاء والجماعة .

العائلة التقليديّة الواسعة، والأُسرة الحديثة

قديماً كانت العائلة وحدة واسعة يعيش أَفرادها معاً، أو، أَقلّه، متقاربين؛ فينعمون جميعاً بالتعاون المتبادل، وبالأمان الأَدبيّ، والروحيّ والماديّ .

غير أَنّ التطوّر الصناعيّ واستقطاب المدن للقوى العاملة أَفضيا إِلى تفتيت العائلة الكبيرة، وقصرها على خليّة صغيرة قوامها الزوجان وأَبناؤهما فحسب، يعيشون في مجالٍ ضنك لا يتّسع لإِيواء قريب أَو عليل . وقد أَدّى ذلك إِلى إِشاعة شعور باللاأَمان؛ ففي حين كان أَفراد الأُسرة الكبيرة يتّكئون بعضهم على بعض، واثقين من ظفرهم بالعون المادّيّ والأَدبيّ، عند الضرورة، بات على الزوجين أَن يتدبّرا أُمورهما بنفسهما في شتّى مجالات الحياة الاجتماعيّة والمنزليّة، فإِذا ما اعتلّ أَحد الزوجين تخلخل كلّ توازن الأُسرة . وقد أَدّى اضطراب حبل الأَمان الماليّ والمادّي في الأُسرة الصغيرة، إِلى تغيير جوهريّ في دور الأُمّ؛ فإِن هي لم تعمل، تعذّر عليها، في معظم الأَحيان، إِنجاب أولاد عديدين . وإِن هي عملت اضطرّت إِلى إِيداع أولادها، كلّ صباح، لدى مربّية أو في مأوى أَطفال؛ وسرعان ما ينقلب البيت فندقاً، أو مجرّد مكان للنوم ،عوضاً عن أَن يكون موئل استقبال؛ وبما أَنّ الأُمّ تعمل ساعات طويلة في المصنع أو في المكتب، فهي تفقد القدرة على العمل في منزلها أو الرغبة فيه، فتسعى للحصول على شقّة صغيرة، مريحة، لا تستلزم سوى الحدّ الأَدنى من العمل، ولكنّها تفتقر إِلى الجوّ العائليّ، فلا حديقة فيها ولا فسحة؛ ومن ثمّ يتعيّن الحدّ من عدد الأَولاد، الذين غالباً ما يخيّل إِليهم أَنّ آباءهم يهملونهم بعض الشيء؛ فهم غالباً، منهكو الأَعصاب، بحيث لا يتقبّلون عَبَثَهم وحماقاتهم؛ وحينئذٍ ينساق الأَولاد إِلى الانتماء لحركة، أو جماعة شباب، أو إِلى عصابة، يجدون لديها ما يفتقرون إِليه من إِخاء .

و يشعر الزوجان أَنّهما معزولان ومحاطان بأَبناء يكلّفانهما ثمناً غالياً، ويعيشان في ظروف مرهِقة أَحياناً . وبمحاولتهما معالجة اللاأَمان الماليّ قد يخلقان أَلواناً أُخرى من اللاأَمان الأَخلاقي والعاطفيّ . فالمرأة، بحكم عملها، على اتّصال دائم برجال آخرين، وهي، بالتالي، أَقلّ ارتباطاً بزوجها، وقد تتعرّض لغواية أَحد زملائها . وقد يوقظ فقدان الأَمان لدى الزوج العدائيّة والغيرة؛ ويولد حبّه المتملّك هذا عدائيّة الزوجة، فينقلب زواجهما عالماً صغيراً من التوتّر والعداء الكامن الصامت، يعجزان ،معه، على إِقامة علاقة صداقة حقّة؛ وقد ينزعان إِلى تمويه هواجسهما واضطرابها بالاستغراق في النشاط المهنيّ، أو بنشدانٍ مجنون للمقتنيات المادّيّة، علّهما يستعيضان عن اللاأَمان السحيق بما يوفّره المال والطموح الاجتماعيّ من أَمان وهميّ .

من السهل، في عصرنا، الغرق في مستنقع مجتمعنا الآسن الذي يدفع باطّراد إلى الإنفاق على الذات؛ ومن العسير الانسلاخ عن تيّار اجتماعيّ يدفع دفعاً نحو الثروة والرفاه المادّيّ . ولا بدّ، في هذا المجال، من التنديد، بشدّة، بنظام الدعاوة التجاريّة في التليفزيون، والإذاعة، والمجلاّت، والذي لا يسهم إلاّ في تفاقم الشعور باللاأمان الثاوي في قلوب الشباب . إنّ مجتمعاً يرتضي أو يشجّع هذا اللون من الكذب الذي لا يستهدف سوى ترويج التجارة، في منأى عن مصلحة المستهلكين الفعليّة، إنّما هو ينهج درب انحطاط خطير . ومن لا يقاوم هذه الدعاوة الكاذبة لا يعمل لصالح الأُسرة الحقّ . فهذه الدعاوة تجعل المرء يعيش في شعور دائم بالإحباط، إذ إنّه لن يستطيع أبداً امتلاك كلّ شيء؛ وهي، إذ تطاله في كلّ لحظة، تمنعه، غالباً، من الانفتاح على القِيَم الأَساسيّة التي كان من شأنها مساعدته على التواصل مع أَمثاله .

و لا نغفلنّ أنّ وسائل الإعلام التي تصوغ الأفكار والقلوب، تحتكرها غالباً الشركات الكبرى التي تموّلها .

علينا أن نكافح بكلّ جوارحنا روح هذه الدعاوة، ليس فقط بمقاومتها، بل، خاصّة، بسلاح شفافيّة القلب والحقيقة، وباقتراح مَثَل أعلى يجتذب القلوب ويحرّضها على الاندفاع في الخدمة المجّانيّة . إنّ العالم مشرف على كوارث من الهول بحيث لا يسعنا إلاّ أن نقدّم للشبيبة مثالاً شديد الاقتضاء، يستلزم عطاءً تامّاً، وينفي الرفاه والبحبوحة .

****

إنّ ولادة طفل في الأُسرة فرصة ممتازة لإشراع الوالدين على آفاق جديدة . فظهور هذا الكائن الجديد الذي يُشعر بحرّيّته بحيث لا يسوغ التحكّم به اعتباطاً، هو، حقّاً، سرٌّ قدسيّ، سرّ ينبغي أن يقود نحو عطاءٍ جديد للكون .

لا يخصّ الطفل والديه، ولا هو ملكهما، أو متاعهما، بل هو موكلٌ إليهما لكي يستطيع، يوماً، خدمة إخوته البشر؛ وولادته تمثّل مرحلة انفتاح جديدة في حياتهما . وهو، في ذاته، يمثّل لهما مخاطرة . فإلى أين عساه أن يقودهما ؟ إنّ مهمّتهما ليست في صوغه على صورتهما، بل في مؤازرته على اكتشاف كيانه الخاصّ، وعلى التحرّر من غرائزه، ومن سيطرة بيئته، لكي يكون أكثر أَهليّة للحبّ.

الحبّ الزوجيّ ومصير المجتمع

لا يستطيع القلب الإِنسانيّ الانحصار في تخومه البشريّة المحدودة، بل هو في سعيٍ دائم إِلى تحطيم القضبان التي تسجنه داخل ذاته، بغية بلوغ اللانهائيّ والمسكونيّ. وهو ينشد اللانهائيّ عبر المعارف، وغزو الفضاء، والاكتشافات النوويّة، أو عبر الإِبداع الفنيّ، والشعريّ والموسيقيّ، أو حتّى عبر اختبارات وبيلة للمخدّرات والعنف.

غير أنّه لن يُوفَّق إِلى بلوغ اللانهائيّ، حقّاً، إلاّ عبر تجربة الحبّ المفعم بالتضحية، حبّ هو استقبال وتواصل، هو عطاء وصفح. فطبيعة اللانهائيّ الذي هو اللّه، هي حبّ عطوف. وغنى الحبّ يُلبّي كلّ تلمّسات قلوب البشر وأَفكارهم، ولكن طالما لم يتحقّق هذا الغنى، يظلّ المرء ينشد تعويضات في مسوخٍ للاّنهائيّ، وفي المقتنيات المادّيّة. بوسع من يحبّ أَن يظلّ فقيراً ظاهريّاً؛ ومعاصرونا يتطلّعون بشوق، وتمنٍّ، ورغبة إِلى كنز الحبّ الحقيقيّ هذا، ولكنّهم، –واأَسفاه!– يفتقرون إِلى المراس الأَدبيّ الذي يمكّنهم من الظفر به. وقد يهوون على جانب الدرب، فاقدي العزيمة، أو يتمترسون خلف تصلّب القلب، أو يستسلمون إِلى الممارسات الجنسيّة العابثة التي لا صدق فيها، ولا ديناميّة، ولا رضىً عميقاً.

اليوم، أَكثر من أَيّ وقتٍ مضى، يواجه الرجل والمرأة أَحدهما الآخر، ولا مناصَ لهما من تحديد موقف كلٍّ منهما من الآخر، ليس فقط على المستوى الشخصيّ، ولا على مستوى العلاقات الجنسيّة، والإِنجاب، والموقع الاجتماعيّ فحسب، بل عليهما أَن يعتلن أَحدهما للآخر زوجاً وزوجة، ويوثقا بينهما وحدة تمثّل اندماج شخصين، وحرّيّتين، في حرّيّة عليا. ولا يتمّ هذا الاندماج في معزل عن مصاعب وتضحيات، ولا سيّما التضحية بالأَنانيّة الجسديّة وصغارة الطبيعة البشريّة. وفي سبيل التقاء الزوجين، حقّاً، لا بدّ لكليهما من الانعتاق من الدنس الأَنانيّ، وبغية الظفر بشفافية حرّيّة الحبّ. وهذا يقتضي وفاءً يوميّاً، وفاء أَحدهما للآخر، ووفاءً للحقيقة، وللنور الداخليّ، ولروح اللّه. والحبّ الحقّ يقتضي التتلمذ على يد الزمن والمِحَن.

الحبّ الحقيقيّ ثاوٍ على قمّة الدرب، درب حياتنا. وإِن لم يتحقّق هذا اللقاء اليوميّ، ففي أَعقاب فترة من السعادة العابرة، سيعتبر الزوج والزوجة أَنّ وجود الآخر هو عائق في وجه حرّيّته، وينخرطان كلاهما في دوّامة العدوانيّة.

يمكننا القول أَنّ الأُسرة اليوم على مفترق طرق: فإِمّا أَن نلج حقبة جديدة تتحقّق فيها وحدة الزوجين العميقة النابعة من التقاء سرَّيْن قدسيَّيْن أَو إِنّنا ننزلق إِلى الكارثة، أَي إِلى زوال الأُسرة كواقع بشريّ. قد نكون مندفعين نحو إِباحيّة جنسيّة، تواكبها أَحياناً عربدة وقصوف على غرار ما أَنذر بانهيار الإِمبراطوريّة الرومانيّة والحضارة اليونانيّة؛ وربّما، بالإِصغاء فقط

إِلى النزوات الجنسيّة، سنعدّ انتقال الأَزواج من فراش إِلى فراش أَمراً طبيعيّاً " شرط التحابّ " ! وحينئذٍ ستُغفل القِيَم الإِنسانيّة العميقة، قِيَم العفّة، والوفاء في المحن، وعظمة حبّ يربط كائنين طاعنين في السنّ ما زالا يحبّ أَحدهما الآخر بمثل رقّة حبّه له في أَيّام الخطوبة . وسيتحمّل الأَبناء، بلا مراء، وِزْر تعدّد آباء وأُمّهات مزعومين؛ فالولد، لكي ينمو، على كلّ صعيد، جسديّاً، ونفسيّاً، وأَدبيّاً، وروحيّاً، يحتاج إِلى حياة عاطفيّة غنيّة، يدعمها إِشعاع حبّ والدَيْن يستطيع الإِعجاب بهما، وحبّهما .

في منظور عالم مثل هذا فقد معنى واقع الأُسرة، وتردّى إِلى أَلوان من ممارسات حبّ متعاقبة، وخوى من الأَخلاق، أَعتقد أَنّنا سندخل في حقبة من المشادّات والعنف هي ثمرة اضطراب نفسيّ عميق الغور . وقد خبرتُ، شخصيّاً، بحزن، الكثير من أَنماط هذا الاضطراب، وهذه العدوانيّة لدى أَحداث وبالغين عاشوا في أوساطٍ عائليّة مضطربة . ويمكننا الاعتقاد بأَنّ أَعداد هؤلاء الأَولاد، أوهؤلاء البالغين، سيزداد بنسبة تفاقم الخيانات الزوجيّة؛ وهكذا، شيئاً فشيئاً سينقلب المجتمع والعالم غابة تهيمن عليها، في أَغلب الأَحيان، قوى البغض والدمار .

في المِحَن الكبرى، الشخصيّة منها أو الاجتماعيّة أو العالميّة، قد يستغرق الإِنسان في الحزن والاستسلام، أو إِنّه يتجاوز ذاته ويكتشف فيها قوى كمينة لم يكن يلحظها، تتيح له مواجهة الواقع، واحتماله، والإِفادة منه لتعميق حياته الشخصيّة .

و لكي يتمكّن الزوجان من تحقيق وحدتهما والوفاء أَحدهما للآخر، لا بدّ لهما من الانفتاح على روح اللّه، روح الترحيب، والعطاء، والتضحية . وهكذا تتمكّن وحدتهما من بلوغ مدى من العمق يؤهّلها للتغلغل، تغلغلاً صوفيّاً، في العلاقات القائمة داخل حياة اللّه نفسها .

إِنّ الحبّ الذي يربط قلبي شابَّيْن مخطوبين، بما ينطوي عليه من هشاشة وتعرّض لزوال سريع، يتّسم بطابع شعريّ، محرّر، حافل بالنشوة والإِثارة . إِنّه ينزعهما، نوعاً ما، عن هذا العالم، ويتيح لهما تذوّق طعم سعادةٍ قشيبة . غير أَنّ ما يستطيع تذوّقه الشبّان المخطوبون ليس سوى ظلّ هزيل لما يمنحه الحبّ الحقيقيّ المتدفّق من قلب اللّه، والذي يحسر النقاب، بعض الشيء، عن سرّ الألوهة . إِنّ سعادة أولئك الشبّان عابر وخياليّ، في حين أَن الحبّ النابع من اللانهائيّ، مع أَنّه يضاهيه نشوة، يُضيف إِليه طابع الجدّيّة والواقعيّة، جدّيّة الالتزام والعطاء الكامل الذي يستنفذ الطاقات الحيّة حتّى آخرها، كما يضيف انفتاحاً على جميع البشر، وجاهزيّة لإِغاثة جميع أَلوان الشقاء والأَلم التي قد تقرع باب القلب .

إنّ إتّحاد زوجَيْن جديدَيْن بالحبّ هو اندماج حقيقيّ يربطهما باللّه نفسه . إنّه تيّار حياة إلهيّة يعبر من أَحدهما للآخر، فيُبرز أَحدهما للآخر وجهَ اللانهائيّ، ويكتشف أَحدهما في الآخر حضوراً إلهيّاً، حضوراً أَبديّاً طالما تطلّع إليه البشر في كلّ عصر .

إنّ ما ينشده البعض في نشوة الفنّ والإبداع، أو في اختبارات العلم، أو في مخاطرات المخدّرات والجنس، يعثر عليه الأَزواج الذين يحدوهم روح اللّه في الحبّ الذي يجمعهما، حبّ يضاهي، في رومانسيّته وشاعريّته، أَعظم قصص حبّ البشريّة، كما أَنّه يضاهي في واقعيّته، وكماله، وقدسيّته حبّ الأَنبياء والصوفيّين. إنّ الحبّ الزوجيّ الذي يواكب هذا الاتّحاد في الفرح والنشوة، لا بل ينبع منه، يتجلّى في القبول اليوميّ لحدود الآخر وعيوبه، وفي تقبّل أَحدهما الآخر، تقبّلاً موسوماً بالرقّة، والصفح، والعطف، والثقة، والرغبة في رؤية نور روح اللّه الدافئ يتألّق في الآخر . وهكذا يصبح هذا الحبّ علامة ساطعة على حبّ اللّه الرؤوف للبشر، وعلى غفرانه المستمرّ، ودعوته إلى الحبّ .

و هذا الحبّ الجديد، على نقيض الحبّ الذي يغلق الزوجين على ذاتهما وأولادهما، يشرعهما على الآخرين وخاصّة على الفقراء؛ غالباً ما يسجن تدفّق طاقات الحبّ الزوجين في عالم من الأَوهام ... في مثل فقاعة صابون تعكس أَلف لونٍ زاهٍ، ولكنّها تنفجر وتتبخّر عندما تلامس واقع الحياة القاسي، والمسؤوليّات المهنيّة والعائليّة؛ ولا سيّما عندما تتضّح معالم كلّ منهما على حقيقتها، وهي غالباً تتّسم بالفقر، وتلامس اليأس أو الاضطراب، أو تتّصف بالكبرياء، والحسد، والحساسيّة المفرطة، والخوف .

إنّ عالمنا يحتاج إلى أَعداد غفيرة من القوم الكرماء، وهؤلاء هم ثمار والدَيْن متّحدين يحدوهم مثلٌ أَسمى عظيم .

حاجة ملحّة إِلى التغيير

حيال خطورة أَزمة عالمنا الحديث، ينبغي أَلاّ نخشى إِعلان مَثَل أَسمى رفيع، يقتضي الحبّ والعطاء .

إِنّني واثق من أَنّ الوضع الراهن غير قابل للاستمرار . وسيتحوّل مجتمعنا سواء بنار الثورة، أو بمياه الإِنحطاط الآسنة، أو بنار الحبّ الحقيقيّ وسلامه . مازال ثمّة فسحة من الوقت لهذا التحوّل، ولكنّها فسحة قصيرة الأَمد .

إِنّنا بحاجة إِلى سلالة جديدة من رجال ونساء يتميّزون بسخاء جمّ، وإِنّني لأَشهد هذا السخاء في عيون الشباب؛ إِنّهم رجاؤنا .

الأُسرة المثاليّة، في حقبتنا، ينبغي أَن تكون بحجم الأَزمة الحديثة؛ فلكي يتحوّل المجتمع إِلى سراط الخير، ولكي يتنكّب معاصرونا عن الأَنانيّة المادّيّة وعن العنف والثورة، لا بدّ من أُسرٍ جديدة يتّقد فيها هذا القلب الجديد، وهذا الروح الجديد، قلبٌ من لحم ودم، وروح من نار . لا بدّ من استضافةٍ أَكثر صدقاً، ومن فقرٍ أَكثر جذريّة ومن رجاءٍ أَعظم، وجرأةٍ أوفر، وعطشٍ إِلى العدل والحقّ أَشدّ استعاراً . يلزمنا جيل جديد من رجال ونساء يثقون، حتّى الجنون، بعمل روح اللّه، ويهجرون أَمان العائلة الواسعة، لكي يستسلموا بين يدي اللّه، ولكي ينشروا، في بلادهم وفي جميع البلدان التي يسودها الشقاء، روح الحقّ والسلام والحبّ .

دموع صمت

على نحوٍ سرّيّ أَشعر أَنّ نداءً ينبعث من بؤس دموعٍ صامتة .
و لكن كيف يتسنّى الاقتراب من ولد بائس ؟
لا بازدرائه، بل بالتواضع،
لا بإِدانته، بل بحبّه،
بعيداً عن السعي إِلى السيطرة عليه،
و بعيداً عن إِعطاء أَيّ شيء سوى ذاتي :
و قتي، وطاقاتي وقلبي؛
و بإِنصاتي إِليه باهتمام،
و باللهو معه،
فإِنّه لثمين، لأَنّه ابنُ اللّه، يقيم فيه يسوع؛
و بمنحه صداقتي :
يدَيْن تشيعان الطمأنينة،
و تسكبان زيت العطف على الجراح العميقة .
فمن كان جريحاً، أَو جُرِح، سابقاً، جرحاً بليغاً،
له الحقّ في أَن يؤكَّد له أَنّه محبوب

ليس لحياتي معنى إِلاّ بمقدار ما أَكتشف الحبّ،
و بمقدار ما يهب فرحي الفرحَ، ويهب رجائي الرجاءَ،
و بمقدار ما أَقوى، في الصمت، على بثّ الروح الذي يحيا فيّ ..
لا بما أَقول، بل بأسلوب قولي،
باهتمامي العميق، بطريقة إِنصاتي، وبخفقات قلبي الرقيقة .
يا إِلهي،
لا تدعني أَتخاذل، وأَتهاون، وأستغرق في سُبات لا أَستيقظ منه،
و احمِني من التردّي في سجن العادات الأَنانيّة،
تلك التي قضبانها أَصدقاء سطحيّون، وحفلات، وضحكات حمقاء،
و قبلات لا حبّ فيها، وإِحسانات تستهدف تمجيد المحسن،
و أَعمال وإِدارات لا قلب لها؛
هذه القضبان تحول دون مسيرة الحياة نحو طعم اللانهائيّ المشرع على ندائك.

حطّم، يا إِلهي، الحواجز التي تمنع عنّي الحياة،
الحواجز التي تنذر بخنقي،
فينضج قلبي، وأَقبل ذاتي بحدودي وفقري،
و لا أَعود أَخشى الآخر،
و لا أَخاف من أَن أُؤكَل، وأُلتهَم، وأَفقد ذاتي .
و لا أَخشى اللقاء :
فقد نمكث معاً، ولا نلتقي،
و قد نعيش في البيت عينه، يوماً إِثر يوم،
و نجلس إِلى المائدة عينها،
و نجثو على المركع عينه،
و نطالع الكتب عينها،
و مع ذلك لا نعرف إِلى التلاقي سبيلاً، أَبداً .
بل قد يقبّل أَحدنا الآخر،
و نؤدّي فعل حبّ وحنان، ظاهراً
و مع ذلك لا نعرف إِلى التلاقي سبيلاً، أَبداً .
التلاقي أَمر نادر ورائع،
إِنّه حضور شخصٍ لشخصٍ آخر .
حضور أَحدهما للآخر يجعل الحياة تنساب من أَحدهما إِلى الآخر .
و لا أَخشى الإِصغاء، الإِصغاء المتيقّظ؛
يا إِلهي كم أَودّ الإِصغاء إِلى أَخي،
الإِصغاء إِلى خفقات قلبه،
إِلى نداءات قلبه الواهية،
إِنّها ماثلة هنا ... ولكنّها مكتومة،
يكتمها ضربٌ من الخوف .

دعوة إلى الحضور

لدى كلّ إنسان حاجة إلى التعبير عن ذاته . فكما تنفث الزهرة عبيرها، والشمس دفأها ونورها، كذلك نحن نحتاج إلى الإشعاع، بالأفعال، وخاصّة بموهبة الكلام الرائعة . ولا معنى للكلام إلاّ بمقدار ما يخرج من الإنسان كي يلج إلى قلب آخر فيفجّر فيه الحياة . ولكي نستطيع التكلّم يلزمنا من يُصغي إلينا، وهذا الإصغاء، في ذاته، ضرب من المشاركة . والمرء بحاجة إلى أن يشارك آخرين بذاته وبما يملك، وهذه الحاجة من الجوهريّة بحيث إن لم نعثر على الصديق الذي نقتسم معه، هوينا إلى عالم من الحزن أو من العنف . وكلٌّ منّا يعلم إلى أيّة هشاشة يتردّى من يشعر أنّ صبوّه إلى التواصل قد تحطّم أو جُرح، من جرّاء خيانة صديق، أو انثلام حبّ، في حين أن قلب من يحدوه الحبّ يتألّق بالروعة ويمكّن من تحقيق أجلّ الأعمال وأروعها .

أعطِ انساناً رجاء ودافعاً، تهبْه الحياة؛ بحيث يسوغ التساؤل هل الكسل واقع ماثل أو إنّه مجرّد الافتقار إلى دافع .

عندما يفقد الإنسان كلّ ممتلكاته الخارجيّة، فهو لم يفقد الجوهريّ، طالما ظلّ، إلى جانبه، صديق .

و الطفل يدرك أنّه هامّ، وغالٍ لأنّ أُمّه تجشّم نفسها العناء عندما يصرخ . إنّه بحاجة إلى الشعور بأنّ ثمّة من يُعنى به، ويحبّه، ولا يتلكّأ عن التضحية، براحته، وعن الاستيقاظ في آناء الليل، " من أجله " .

و البائس هو الذي يشعر أنّ لا أحد مستعدٌّ لإزعاج نفسه من أجله .

فالمرء لا يقوى على العيش إلاّ إذا احتلّ مكانه، وليس مكانه، بالضرورة، حيث يمكنه إثبات جداوه، بل قد يكون هذا المكان قلباً محبّاً . أمّا إذا شعر أنّه ليس معدوداً إنساناً، فلن يسلك سلوك إنسان، بل يرتضي القذارة، ويفقد كلّ رغبة واهتمام، ودافع ... ما خلا الإحباط والبغض .

إنّ أكثر ما يحتاج إليه البائس هو إنسانٌ آخر يقاسمه آلامه، ويروي بعضاً من عطشه إلى الوحدة، ويوفّر له حضوراً . يحتاج إلى من يفهمه لأنّه فقد الثقة في ذاته؛ يحتاج إلى نظرة إنسانٍ يُشعره بحضوره له، ويعلن له : " إنّني أثق بك "، ويساعده على استعادة الحياة والأمل .

البائس بحاجة إلى من يوافيه لا بدافع " الواجب " أو " الشفقة " بل لأنّه كائن ذو شأن، له قيمة حقيقيّة لا يوازيها شيء في نظر اللّه؛ لأنّه ينبغي أن يحيا، فإن لم يحيَ لافتقر الكون إلى عنصر ثمين . ولكنّ ذلك يستلزم صبراً، ومثابرة .

في قلبنا دعوة إلى التواصل وكلّ ما يواكبه من ألوان العطش، ولكن، ثمّة، أيضاً، شعور راسخ بفقرنا حيال الألم البشريّ، وكلّ مخاوف كياننا . إنّنا نخشى بذل ذاتنا بعد أن أشدنا، من حولنا، كلّ صروح الأمان، التي تمنعنا من التواصل . مع ذلك أودّ التواصل ولكنّني لا أقدر؛ ثمّة عالم يحول دون ذلك، وأشعر به كامناً في أحشائي .

و من ثمّ أفتقد الرجاء والحيويّة، وألج عالم حزن وريبة فأشكّ في ذاتي وفي الآخرين؛ أشكّ بقيمة الحضور وبكلّ شيء .

حواجز كثيرة يتعيّن هدمها في داخل الذات من أجل الظفر بحرّيّة الحضور للآخر، ولبؤسه، وللذات .

هلمّ أيُّها الروح القدس، وهبنا قلوب سلام ودفء، كفيلة بأن تصبح ملجأ للمتألّمين . تعالَ وساعدنا على أن نكون حاضرين بعضنا لبعض .

ليست البراءة براءة إِلاّ إِذا كانت بأَكملها مشدودة نحو الحبّ .
قد يُلامس البريء الشرّ،
لأَنّه يعيش إِلى جانبه،
و بأَفعاله، ونظره، وصمت سلامه، يحوّل الشرّ؛
قد يتحمّل الشرّ في أَعماق كيانه، ولكنّه يحوّله بنفحة الروح، لكي يُنقذه،
و لكي ينشر السلام الذي يغمره، ولا يقوى على حصره، فثِقَل الحبّ يحطّم السدود .
الأَفعال التي يقوم بها قد تستثير الاستنكار،
فيسوع انتهك حرمة السبت،
و النبيّ يتمرّد على الشريعة الاجتماعيّة، شريعة التقاليد،
لصالح شريعة الحبّ الأَبديّة،
تمثُّلاً بالبؤساء،
و بغية نفث النار التي تضطرم فيه .
العالم لا يحبّ الناس الأَحرار، لأَنّ وجودهم إِدانة له .
و البرئ هو الإِنسان الحرّ الذي أَمسى عبداً للروح،
و تحرّر من قيد كلّ فئة، فلا هو أَبيض ولا أَسود،
بل متحرّر من كلّ التقاليد الاجتماعيّة، وما تفرضه من أَنماط سلوك،
و الروح يهبه قلباً مسكونيّاً، يجعله يرحّب بالبائس، والغنيّ، والفقير ...
و يقاسمهم، في قلبه، نفحةَ الروح الأَبديّة .
و بفعل الروح، يكتشف البريء البراءة الكامنة في قلب من تصنّفهم التقاليد "خطأة كباراً " :
براءة البغيّ، والغضوب الانفعاليّ، واللصّ،
تلك البراءة التي تظلّ كامنة تحت ستار ظلمات القلق والاضطراب ،
و لا تستجيب إِلاّ لنظرة الإِنسان البريء،
مثلما استجابت مريم المجدليّة، ومثلما استجاب اللصّ التائب .
في أَعماق هؤلاء سرٌّ لم ينفذ إِليه أَحد،
فهم يدركون بؤسهم، ولا يدّعون التفوّق على سواهم،
بل ينتظرون حبّاً ينقذهم : ينتظرون البريء .
أَمّا من ادّعى أَنّه السيّد، والأَوّل، والجهبذ، والطاهر،

و أَنّه لا يحتاج إِلى أَحد،
فهو يتعرّض لفقدان براءته،
و يُعرض عن نظرة البريء، بل يدينه، وبذلك يدين نفسه .
لا يقوى البريء على إِيذاء أَحد،
و نظرته القادرة على تحويل قلوب الآخرين، تنفذ إِلى أَعماق كيانهم،
فتفجّر فيها ينابيع الطيبة .
أَمّا من يُعرض عن نظرته تلك، أو من ينبذه،
فهـــــــو يلـــــــــج إِلـــــــــى ملكـــــــــوت المـــــــــوت .

المتخلّف عقليّاً في قلب العالم الحديث

ما هو المعنى العميق للتخلّف الذهنيّ لدى البشر ؟ أليس للمتخلّفين مكان حقيقـــيّ فـــي الوجود وفي المجتمع ؟ أوَ ليس لهم دور يلعبونه في تاريخ البشريّة، وازدهار العالم ؟

أنا شخصيّاً أودّ أن أُعبّر لهم عن جزيل امتناني؛ فهؤلاء الذين يعدّهم القــوم عنوانـــاً للفشل، والجنون، ويزدرونهم من جرّاء وهنهم وعجزهم عن تدبّر أُمورهم، قد علّموني الكثير عن المعنى العميق والحقيقيّ للحياة البشريّة، وبخاصّة عن قِيَم القلب، والحبّ والدهشة، لا بل التأمّل .

و مع ذلك يظلّ السؤال قائماً : هل المتخلّف ذهنيّاً كائن بشريّ بكلّ ما لهذه اللفظة من معنى ؟ وما هو دوره في المجتمع ؟

لقد تباينت مواقف المجتمع من هذا التساؤل، على مرّ العصور؛ فقد علّم أفلاطــون – وأرسطو نفسه مع إنسانيّته العميقة – أنّه يتعيّن قتل المعاق منذ صغره، إيمانـــاً منهمـــا بـــأنّ الإنسان الذي لا يقوى على تحقيق ذاته وفقاً لمعايير المعرفة العقليّـــة والجـــدوى العمليّـــة، لا مسوّغ لوجوده؛ ومن ثمّ لا مبرّر لهدر الوقت، والطاقة والمال في سبيل العناية به ومعالجته . وكما يحدث في عالم الفنّ يواكب إبداع التحفة كثيرٌ من السقط الذي ينبغي إزالته .

و على نقيض هذه النظرة المحدودة التي تولي الأَوّليّـــة لقِــيَم العقــل، ثمّـــة موقـــف حضارات أكثر روحانيّة، تعتبر الكائن الواهن عقليّاً وجسديّاً أوثق اتّصالاً بكائنات عليا، وأنّـــه وسيط بين البشر والآلهة .

و بين هذين الموقفين المتناقضين ثمّة موقف إنسانيّ غربيّ لا يدعو إلى إزالة المعاق، ولا يعدّه أقرب إلى اللّه والكائنات الروحيّة العليا، بل ينظر إليه على أنّه كائن بشريّ نـــاقص، عاجز، متخلّف، معاق، " صغير مسكين " تنبغي مساعدته وحمايته؛ إنّه طفل وســيظلّ طفـــلاً مدى حياته، ولا بدّ من أن توفّر له شروط حياة لائقة، وعملٌ يشغله، مع أنّه قليل الإنتاج .

و إنّني أقترح سبيلاً رابعاً ينطلق من هذه المواقف الثلاثة ويوضّح وجوهاً جذّابة لدى بعض المتخلّفين .

من المحقّق أنّ المتخلّف ذهنيّاً فاشلٌ عقليّاً، وعمليّاً، ولا يقوى علـــى المســـؤوليّة ولا يتمتّع بالاستقلال، ولا يمتلك ديناميكيّة الحياة، وليس مؤهّلاً للعمل؛ فضلاً عن أنّه ساذج ينقـــاد لإيحاء الآخرين، وتفتقر شخصيّته إلى قوام متين . "أناه" العقليّ والإراديّ واهن، وهذا " الأنا " هو ما نحتاج إليه لكي نكون عناصر نشيطة في المجتمع، قادرة على تنظيم حياتهـــا وحيـــاة الآخرين . ولكنّ الإنسان ليس مجرّد كائن اجتماعيّ مكتوب عليه الكفاح لكي يتقدّم في المجتمع ويدافع عن ذاته، بل هو كائن يودّ أن يُحِبّ ويُحَبّ، ويتواصل ويقتسم مع الآخرين .

و إنّ صفات العقلانيّة والمنعة والتنظيم المطلوبة من العنصر النشيط هي غير الصفات المطلوبة للتواصل . فأَن يكون المرء جديراً بالإِعجاب أو أَن يكون جديراً بالحبّ أمران مختلفان؛ فالناس يحبّون تلقائيّاً الولد الفرح، الطاهر، البسيط، الضَّحوك . أَوَ ليست حداثته، ووهنه، وبراءته، وطهره، هي التي تبعث على حبّه ؟

في المجتمع أَناس يتميّزون بالجدوى، وبكلّ صفات التنظيم، والعمل، والإِدارة، ولكن يبدو أَنّ قلوبهم قد مُنيت بالهزال، فما عادوا قادرين على التعاطف. لا غرو أَنّهم مستقلّون، ولكنّهم مفرطون في استقلالهم؛ لقد بتروا جزءاً من ذاتهم : ألا وهو القدرة على إِقامة علاقة عميقة مع ضميرٍ إِنسانيّ آخر . وهم ينزعون إِلى اعتبار الآخر شيئاً، أو، أَقلّه، كائناً يتدنّى عنهم قدراً . وهم أَشدّ ارتياحاً إِزاء أوراق، أو موادّ، أو قوم ينبغي قيادتهم وكأنّهم آلات تُحرّك من بعيد، من ارتياحهم إِزاء إِنسانٍ يتأَلّم ويعاني ويحتاج إِلى العطف . إِنّهم مسيطرون لا يعون الحياة إِلاّ بشعور تفوّق .

غير أَنّ آخرين، مع ما يتمتّعون به من ملكات تقنيّة وعقليّة، لم يدعوا قلبهم يتجمّد ويقسو، واستطاعوا الحفاظ على ذلك الإِحساس العميق الذي يتيح للإِنسان أن يتواصل ويتعاطف مع سواه . إِنّهم لا يخشون العلاقات الإِنسانيّة، ولا سيّما وأَنّهم قد احتفظوا بصفاءٍ ونقاء يجذبان الآخرين إِليهم . قلبهم المشرع الشفّاف هو بمثابة نداء، ومنهم تتدفّق موجات دفءٍ إِنسانيّ وطيبة . تحرّكاتهم، ونظراتهم، وبسماتهم، وطريقة مصافحتهم، ومشيتهم، ونبرة صوتهم لا تعكس أَيّة قسوة أوعدوانيّة، بل تفوح بالعذوبة، والطيبة والتفاهم .

لدى الإِنسان وعيٌ عقليّ وإِراديّ يؤهّله لتبوّء مكانته في المجتمع وللعمل وفقاً لمعايير المجتمع ومن أَجل المجتمع، ولديه أَيضاً " وعي حبّ " يشرعه على بشرٍ آخرين يعترف بفرادتهم وبامتلاكهم بذور اللانهائيّ والأَبديّ، أَي ما يفوق الوصف، ويتخطّى المجتمع، والتقاليد، وحتّى الشرائع . هذا الوعي الداخليّ الأَعمق غوراً هو الذي يحول بنا دون السيطرة على الآخرين، بل يحدونا إِلى الانصهار بالآخر، والتمثّل به، والتواصل معه ومع الوجود، في التهاب دفء، وبذلٍ للذات، وتفانٍ، وتضحية، وتواضع، وبالايجاز، في لهيب حبّ .

و المتخلّف ذهنيّاً يفتقر إِلى وعي السُلطة، ولكنّه يملك وعي حبّ أَكثر تلقائيّة ممّا لدى عامّة الناس . وإِذ يتعذّر عليه أَن يكون عنصراً نشيطاً وطموحاً في المجتمع، فهو يزدهر طبيعيّاً، لا في ميدان الجدوى، بل في ميدان الصداقة . إِنّه كائن واهن، سهل الانقياد، يمضي إِلى الآخرين بدافع الثقة؛ وهو ساذج، ولكنّ سذاجته هي، غالباً، جذّابة وطاهرة ... وردّ فعله الأَوّل هو غالباً الترحيب لا النقد والنبذ . إِنّه يصدّق بسهولة، ويتعلّق بقوّة . ومن منّا لم يتأَثّر بترحيبه الحارّ، وبسماته، وتعابير ثقته، ويديه الممدودتين . في عالم يسوده غالباً البغض واللامبالاة، تتّسم هذه الدعوة إِلى الحبّ بالعذوبة . فالمتخلّفون، الذين انعتقوا من قيود التقاليد

الاجتماعيّة والطموح، أَحرار، وليست حرّيّتهم حرّيّة العقل المفكّر، بل حرّيّة الصداقة الداخليّة، ممّا يتيح لهم أَن يكونوا ذواتهم، ببساطة كيانهم، ومن غير حاجة إِلى تمثيل دور ... من منّا لم يدهش لصواب أَحكامهم على طيبة البشر أولؤمهم، وبحدسهم العميق حـول بعـض الوقـائع البشريّة، ولصدق وبساطة كيانهم الساعي إِلى أَن يكون حقّاً، لا إِلى التظاهر بما ليس فيـه ؟ نحن العائشين في مجتمع طغى فيه النقد والرياء على السذاجة، ألا تنعش نفوسَنا رؤيةُ قومٍ ما زالوا ينبضون، ويعبّرون عن إِعجابهم ؟ إِنّما إِحساسهم المشرَع أَداة ممتازة لتواصل الحبّ .

صحيح أَنّهم إِذا فقدوا الشعور بالأَمان احتجب وعي الحبّ لـديهم واضـطرب، وقـد يدفعهم الاضطراب إِلى العنف، أَو يهوي بهم إِلى ليلٍ داجٍ من اللاوعي حيث يهربون من كلّ واقع، إِذ إِنّ الواقع هو سبب اضطرابهم . وهذا ما يحدث غالباً في المشافي الكبرى .

أَمّا عندما تتوفّر لهم شروط أوفر إِنسانيّة، حيث ينعم كلٌّ منهم بـالاحترام، والعنايـة، والاعتراف، ويُحَبّ على أَنّه إِنسان فريد له قدره الخاصّ، ودورٌ يلعبه في جماعته، بـل فـي الوجود، يتّضح أَنّ ضعفهم نفسه يصبح عاملاً مناسباً لنموّ وعي حبٍّ لديهم؛ وتُدهش قـدراتُهم على الخدمة المجّانيّة في الطهر، والبراءة، والنقاء، والفرح الجمّ .

في عالم يزداد قسوة، يوماً إِثر يوم، ويتعيّن على البشر، فيه، العمل الدؤوب في سبيل إِكثار ثرواتهم، وحيث لا مجال لاحترام قِيَم القلب التي باتت غارقة في لجّة الجدوى، في هذا العالم دورٌ مؤهّل للعبه المتخلّف ذهنيّاً، الذي يتّسع له وقت للنظر والتأمّل، والدهشة، والحبّ، والذي يمثّل تذكيراً دائماً بقيم التواصل .

إِنّه، بكيانه ذاته، دليل على أَنّ السلام والفرح، وبالإِجمال السعادة، لا تكتسب بالعمـل فحسب، ولا تعتمد على الثروات . إِنّه يذكّر، تذكيراً رهيباً، بأَنّ البشر إِن لم يستخدموا قوّاتهم الحيّة، وقدراتهم على المعرفة والتنظيم في سبيل خلق عالم أَوفر عدلاً وإِخاءً، وفي سبيل ردم الهوّة الماضية اتّساعاً بين أَغنياء العالم وفقرائه، لانتهى هذا العالم إِلى القلـق والاضـطراب والصراع والنار . ومن ثمّ فالمتخلّف ذهنيّاً بما ينطوي عليه من صفاتٍ جذّابة هو تذكير دائـم بما يقتضيه الحبّ من فقر واستضافة، بأَنّ الفرح، والدهشة والسلام الغامر إِنّما هي شأن قلبٍ يتقن الأَخذ والعطاء .

لا بل إِنّ المتخلّف ذهنيّاً يمثّل دعوة . فوهنه، وصفاؤه، وبساطته، وثقته، التي تزدهر في جوٍّ إِنسانيّ سعيد، تستدعي عطف من يملكون السلطة والمال. فمن لم يتصلّب قلبه تمامـاً، ومن احتفظ في نفسه بزاوية مشرعة يستمدّ من اتّصاله بالمتخلّف ذهنيّاً إِلهاماً . فلـدى هـذا المتخلّف جاذب مدهش، وما لم يتّصف المرء بقسوة فائقة، لا بدّ له من التأثّر ببسـاطة حبّـه؛ وبالتالي بوسع المتخلّف إِحداث ثغرة في الجدران التي نشيدها نحن، أَبناء القـرن العشـرين،

حول قلوبنا خشيةً من الغير؛ وبمجرّد كيانه يستطيع المتخلّف استفزاز مبادرات، ليست نابعة من شفقة مهيمنة، بل هي مبادرات إيثارٍ حقّ.

و هكذا يلعب المتخلّف دورَه في المجتمع، وفي تطوير العالم، ويضمن توازن قِيَم القلب وإحساس الحبّ العميق، ويمنع المجتمع، طالما هو أَصغى إلى ندائه، من التصلّب في التقنية والإدارة الباردة الإحساس. أمّا إن نحن أعرضنا عن نداء الضعفاء والمحتاجين إلينا، فسيستمرّ الصراع، القائم على تفوّق الأنا العقلانيّ جماعيّاً كان أم فرديّاً، وسيحتدم السباق نحو السُّلطة، والتسلّح، والتقنيات التي لا تني تزداد تعقيداً. أمّا إذا تنكّب المجتمع، والحكّام، والمسؤولون، وكلّ فرد عن التنافس على المناصب والمجد، وأَصغوا إلى نداء الضعفاء، واستسلموا لجاذبهم، فجهدوا في مساعدتهم، فإنّ عالمنا عوضاً عن أن يزداد فرقة وتمزّقاً، سينهج طريق الوحدة والسلام.

لا، ليس المتخلّف ذهنيّاً كائناً بشريّاً فاشلاً، ناقصاً، بل هو إنسان كامل، وجليل الشأن، إذ ما من إنسان عديم الشأن. إنّه، بضعفه، يمثّل تحدّياً. فهل بتنا، نحن أبناء القرن العشرين، ممعنين في الرضا عن ذواتنا بحيث لا نثور على مظالم الحاضر، أو من الغنى والتفوّق بحيث لا نسمع نداء المتخلّف؟

شبابٌ من أَجل السلام

إِنّ سلام العالم مهدّد تهديداً خطراً، ومهدّدةٌ معه حياة الجنس البشريّ .

فلو اندَلعت، اليوم، حرب عالميّة، فالأَسلحة المتوفّرة تنذر الإِنسـانيّة كلّهـا بخطـر مستطير .

لا بدّ، إِذن، من أَن يعلن الشباب اختيارهم السلام، فالمستقبل يكمن فيهم .

لم يعد الشباب يخضعون، من غير اعتراض، لقِيَم الأَخلاق والدين التقليديّة. تلك هي من أكثر الظواهر بروزاً في عصرنا، وهي تنبئ بأزمة سلطةٍ أخلاقيّة .

قديماً كان يقود المجتمعات ويُلهمها نظام قِيَم دينيّة يؤثّر على مفهوم الأُسرة، والأَخلاق، والعلاقات بين الرجل والمرأة، وعلى أسلوب الحياة، وعلى طريقة قبول الإِنسان، بلا اعتراض ولا أسى، نصيبه من الوجود .

و قد تحوّلت هذه المجتمعات نحو إِيلاء الأَولويّة للاقتصاد والتقنيّة، فأُغفل الدين والحياة الروحيّة؛ وإِن بقي لهما قيمة على المستوى الفرديّ، إِلاّ أنّه لا شأن لهما في تنظيم البشر، ضمن مجتمع أَرضيّ .

و غدت القِيَم الدينيّة التقليديّة تبدو غالباً للشباب وكأَنّها من خارج الحياة : فهي طقوس تمثّل نيراً وسجناً وليست ينابيع خلاص، وحقيقة، وحياة، وغدا القبول بها، بلا اعتراض، يبدو ولكأَنّه رسوف الإِنسان في وضع صبيانيّ يمنعه من رؤية بدَهيّات كان من شأنها مساعدته على تطوّرٍ أوفر صحّة .

إِنّ الشباب يتّهمون بالرياء كلّ تقليد لا ينهج وفق منطقهم العميق القائم على الإِخاء، وحبّ الفقراء، والاتّحاد الصوفيّ باللّه . وهم يرفضون كلّ قيمة قديمة إِن هي بدت محكمة التنظيم، ولم تعُدْ معين حياة؛ يرفضون كلّ مبدأ أَخلاقيّ مفروض من فوق، قسريّ وخانق؛ إِنّهم يبتغون العيش، والظفر بالحرّيّة؛ فلطالما شاهدوا مؤمنين يتلون صلوات، ويحضرون احتفالات دينيّة، ويدعون إِلى الأَخلاق الحسنة، ولكنّهم يناقضون أنفسهم، ولا يُضفون على حياتهم المزعومة " دينيّة " شواهد الصدق التي يقتضيها إِله الحبّ .

إِنّ الشباب شغوفون بالصدق والشمول المسكونيّ، ويأبون التفاوت بين القول والفعل، وقد باتوا لا يرتضون بسلطة اعتباطيّة، لا تستند على قيمة الأَشخاص الأَصليّة، بل على مجرّد لقب أو وظيفة . إِنّهم يتوخّون الحقّ، ويريدون أَشخاصاً يكونون هم أَنفسهم، بلا خوف، ولا يحكمون عليهم بموجب نظام قِيَم وفئات؛ فالشباب منفتحون جدّاً، وجاهزون، مضيافون، متسامحون، وما يريدونه هو التعامل مع رجالٍ يعملون بقناعتهم، لا بدافع ما يفكّر به العالم أو يقوله عنهم .

و كذلك ينشد الشباب ما هو عالميّ، ويأبون الاقتصار على ما هو محلّي، أو قطريّ، أو حتّى وطنيّ، بل يتطلّعون إِلى أَبعد من الحدود، ويتلهّفون إِلى سلام شامل .

و ليس الشباب مادّيّين، بل هم يبحثون عن مَثَل أَسمى؛ ولكنّهم يودّون بلوغ هذا المثل قبل الحصول على ثقافة كافية، بل ربّما، من غير جهد .

لقد خاب أَمل الشباب في القِيَم التقنيَّة، وفي مجتمعنا الاستهلاكيّ، ويبدو لهم بلا معنى الإِنتاج من أَجل الأَكل، والأَكل من أَجل الإِنتاج، والسعي إِلى جمع المال من أَجل إِنفاق المال . كما أَنّهم يرفضون القِيَم الدينيّة التي ليست نبع حياة .

إِنّ مجتمعاً قائماً على الاقتصاد سرعان ما يستبدل " أَساطير " الدين، " أَفيون الشعب " بدعاوة هي ضربٌ آخر من " الأُسطورة " و" الأَفيون "؛ إِنّه يخلق حاجات باطلة، وأَساليب كاذبة لبيع المنتجات، ويحثّ القوم على الاستدانة، ويقيّدهم بسلاسل الدَّيْن، وهو أَسوأ أَنماط الاستعباد .

و خاب ظنّ الشباب في الماضي، ومن ثمّ فهم يرفضون ما كرّسه من انقسامات، ويتطلّعون إِلى مجتمع جديد، مجتمع قوم يعيشون في السلام والعدل والحبّ . إِنّهم يرفضون التفرقة بين سود وبيض، وبين الطبقات والأَديان والأَجناس، ويصبون إِلى عالم متّحد، عالم رجالٍ ونساءٍ يعيشون عيش إِخوة وأَخوات، عالم يسعهم فيه أَن يغنّوا ويرقصوا ويتمتّعوا بالحياة . إِنّهم متعطّشون إِلى هذا المجتمع الجديد حيث لا أَبيض ولا أَسود، ولا غنيّ ولا فقير، ولا قويّ ولا ضعيف، وحيث كلّ فرد محترم لا بسبب الفئة التي ينتمي إِليها، بل بفضل قيمة كيانه الخاصّ .

و خاب أمل الشباب في السياسة، وفي الأَحزاب السياسيّة التي تكرّس نظاماً زائفاً، فهي لا تسعى، فعلاً، لخير الأَشخاص وحرّيّتهم، بل تجهد في الإِبقاء على وضعٍ قائم يرى معظمهم أَنّه يفتقر إِلى العدل .

لقد مُنيَ الشباب بخيبة الأَمل لأَنّ الكبار لم يفهموا مُثُلهم، ولأَنّهم هم أَنفسهم لا يعرفون سبيلاً إِلى إِحلال هذا المجتمع الجديد . وخيبتهم جليّةٌ جلاءَ الحقيقة التي يصبون إِليها . وصيحتهم صيحة حقيقة وإِنذار؛ ولكن أَمام هذه الحقيقة تنتصب آلةٌ جبّارة، مغرفة في التعقيد، هي آلة مجتمعنا الواقعيّة، والتي تضمّ عالم العمل، والنقابات، والمصانع، والبورصة، والمال، والحكومة، والانتخابات، وحاجة الأَغلبيّة إِلى الأَمان، والأَحزاب السياسيّة، والشرطة، والجيش، والصفقات الدوليّة، إِلخ ... حيال هذا الوحش الذي يبدو أَنّ لا شيء يزحزحه، تبرز واهيةً وهشّة مُثُل الشباب . فضلاً عن أَنّ القوى الدوليّة تستغلّ ما يمثّله الشباب من قوّة لزرع الفوضى والتدخّل في شؤون البلاد، لكي تتمكّن، فيما بعد، من إِحكام طغيانها .

و مع مثاليّتها، وعدم قدرة الكبار المسؤولين على فهمها، تفتقر الشبيبة إِلى رائد وزعيم، بل هي مثل قطيع ضخم لا راعيَ له، ومن ثمّ فهي تلتفّ حول بعض منشدي الحبّ، والسلام العالمي؛ ورغم تطلّعاتها النبيلة السخيّة تظلّ عديمة الجدوى .

و قد تفضي الخيبة ببعضهم إِلى القرف، والقنوط، فينشدون الإِثارة في الجنس والمخدّرات، وينتحرون .

و لا بدّ من الاعتراف أنّ من الشباب فئات متنوّعة : فثمّة من لا يفكّرون إلاّ بالتقنية، وآخرون ينضوون إلى الاحزاب السياسيّة، ومنهم من ينشد المال والأمجاد . ولكنّ الجديد هو العدد الغفير منهم الذين تحدوهم التطلّعات التي أتينا على ذكرها، ولو تباينت دوافعهم، هؤلاء هم الذين سيدمغون المستقبل بطابعهم، وإذا ما استعادوا الأمل، فهم قادرون على تزويد البشريّة بنَفَس جديد .

إنّ العالم ينشد الوحدة ويصبو إليها، ولكنّه لم يبدُ، قطّ، منقسماً مثلما هو اليوم، فثمّة انقسامات بين الدول، وانقسامات وطنيّة داخل البلد الواحد، وانقسامات عرقيّة، وانقسامات بين أغنياء وفقراء، انقسامات هي آفة البشريّة .

و ثمّة انقسامات بين الأجيال، وبين الرجال والنساء، وانقسامات أخطر في قلب الإنسان عينه، الممزّق بين الرجاء والقنوط، بين الحياة والموت، بين الإيمان والشكّ، بين الحقيقة والكذب، بين السلم والحرب، بين الحبّ والبغض، بين الوفاء لروح اللّه والأنانيّة ...

الإنسان يصبو إلى اللانهائيّ، ولكنّه متورّط في حبائل المادّة، ينشد الخلود، ولكنّه مقيّد بالزمن . إنّه ينعم بنُبلٍ جمّ، ومخلوق من أجل الحبّ والقداسة، ولكنّه معرّض للتردّي إلى هوّة انحطاط رهيب، وإلى البغض والعنف . أليست تلك هي محنة الجنس البشريّ ؟

أوَ ليس قلق الإنسان هذا حيال مصيره – قلقٌ يزيده حدّةً الافتقارُ إلى السلام الذي يوفّره يقين الإيمان – هو أحد أسباب العنف السائد في عصرنا ؟

على جميع مشاكل العالم الحاضر، وعلى جميع تطلّعات الشباب يوفّر الإنجيل إجابة حيويّة . فيسوع أكثر من الشباب، كافح الفرّيسيّة والرياء؛ وأكثر من الشباب، لعن الأغنياء؛ وأكثر منهم أعلن مُثُل الإخاء والسلام العالميّين . بيد أنّ يسوع قد قُتِل على يد من أبوا أن تُقصيهم عن أحكامهم المسبّقة وتقاليدهم وعاداتهم، رسالتُه المسكونيّة، ومقتضيات الفقر المطلوبة لاتّباعه، ولتقبّل روحه القدّوس .

إنّ يسوع يأتي بالجواب على مستلزمات الحقيقة، والأصالة، والإخاء، والتجربة الصوفيّة التي يقتضيها، ويُظهر أنّ اختبار الله، أبيه، ممكن شرط أن يصبح المرء متواضعاً وفقيراً، مشرعاً قلبه لرحمة المحتاجين . إنّ مصداقيّة يسوع لا حدود لها، فقد مضى إلى نهاية شوط منطق رسالة حبّه، ببذل حياته .

غير أنّ مأساة عصرنا تكمن في أنّ من يدّعون أنّهم تلاميذ يسوع يحجبون رسالته حجباً مريعاً بصروحهم وثرواتهم، وغالباً بمواقفهم الإنسانيّة، وصلَفهم؛ هذه الرسالة يحجبها أيضاً انقسام المسيحيّين، ورداءتهم، ومادّيّتهم . القدّيسون هم تلاميذ يسوع الحقيقيّون، وقد عرفوا عبر الأجيال، وفي شتّى أرجاء المسكونة، إحياء الإيمان وبعث الرجاء . ولكن أين هم قدّيسو عصرنا ؟ ولمَ يتوارى اللّه عن شعبه ؟ ربّما ينتظر اللّه من شعبه مزيداً من الفقر، والحبّ، والثقة . وربّما ينتظر منه شهادة إيمان، لا من خلال العلوم البشريّة وعلم النفس، ولكن من خلاله هو، ومن خلال مواهب روحه القدّوس الذي ينبغي أن يقودنا ويلهمنا، ويقوّينا، ويمنحنا حضوره .

طالما ظلّ المسيحيّون متشبّثين بإرثهم الثقافيّ الوطنيّ، وبأسلوب عيش الأغنياء والمالكين، وطالما لم يلتفتوا التفاتاً جوهريّاً نحو الفقراء، ومنكوبي العالم أجمع ولم يتمثّلوا بهم، وطالما لم يسعوا إلى عيش إنجيل يسوع بحذافيره علّهمُ يصبحون رجال اللّه ونساءه، فهل بوسع اللّه أن يستجيب لندائهم ؟

لئن ظلّ العالم على ما هو عليه من انقسام وعنف وبغض، وظلّ الشباب خائبين، أليس سبب ذلك أنّنا، نحن المسيحيّين، لم نجرؤ على إبراز وجه يسوع الحقيقيّ لهم : بتواضعه، وفقره، وتوقه المتلهّف لإنقاذ جميع البشر حتّى بذل حياته من أجلهم ؟

من دواعي الأسف أنّ الكنيسة غالباً ما تمثّلت بالمالكين، لا بالأشدّ فقراً وبالمرذولين، وخافت من مقتضيات معلّمها، فلم تقتفِ أثَره على درب الفقر، خارقةً شرط تقبّل الروح .

لا مراء أنّ لا رجاء إلاّ في حياة يحدوها الروح القدس، حياة فقر وصدق، بها نزهد بقِيَم هذا العالم لكي نتمسّك بقِيَم اللّه وبحكمته، بالحبّ وبالإنجيل . وإن نحن، المسيحيّين، لم

نتّبع رسالة معلّمنا الحبيب، إِن لم نستيقظ، لكي نصبح أَنبياء سلام، فعلينا أَن نتوقّــع تحقيــق لَعَنات يسوع على المدعوّين الذين حبستهم مشاغلهم عن الحضور إِلى مأدبة العرس، ولَعنَاتــه على الأَغنياء والفرّيسيّين .

ثورة حبّ

إنّ الخطر الداهم يحتّم ثورة حبّ .

فالعنف ينتشر في كلّ مكان، والحرب تندلع، والدول تنتج المزيد والمزيد من الأَسلحة، وأَنبياء السلام هم غالباً صامتون . وفي كلّ مكان يعاني الفقراء البؤس والجوع، ويستمرّ الأَغنياء يلتمسون الأَمان في ثرواتهم الخاصّة؛ ويُمنى الشباب بالخيبة . ولطالما دامت المظالم، وعاش بشر كثيرون تحت نير الطغيان، والجوع، والأَشغال الشاقّة، وثورة دم وعنف تنذر بالانفجار ما لم يسارع الأَغنياء إِلى المبادرة . فعلى حدّ قول نبيّ السلام والوحدة غاندي :

" بعيداً عن أَيّة حاجة، يكدّس الأَغنياء النافل؛ ومن ثمّ يحكمون بالإِهمال والهدر على خيرات ليسوا في حاجة إِليها، في حين أَنّ ملايين البشر الآخرين ينفقون جوعاً لافتقارهم إِلى الطعام . على الأَغنياء، إِذن، أَن يبادروا إِلى التخلّي عن كلّ شيء، كي ينشروا الرضى في كلّ مكان . فلو هم اعتدلوا في التمتّع بما يملكون من خيرات، لسهُل إِطعام الجياع . "

متى سيفهم ذلك الأَغنياء الذين يعيشون على النافل ؟ وكم من الثورات والمجازر يلزم كي يدركوا أَنّ عليهم إِدارة ثرواتهم لصالح الجميع ؟ ولمَ لا يقتسمون، بالحبّ والسلام الشامل، ما سينتزعه منهم الموت أو الثورات ؟

السلام، السلام ... أَجل جميع البشر يصبون إِلى السلام . ولكنّ سلام من لا عمل له، من لا يملك ما يُطعم به زوجته وأَبناءه، المهاجر المنبوذ الذي لا أَصدقاء له، وسلام الشعوب الراسفة في قيود الطغيان، والعائشين في قرى الصفيح هو غير السلام الذي ينشده المالكون، فسلام هؤلاء يعني : " دعوني وشأني ... ولا تمسّوا مقتنياتي" . ذلك هو سلام الراضي بقَدَره، والذي أَصمّ أُذنيه عن أَنين البشريّة المتألّمة . هذا السلام هو حربٌ مستترة تقتل المنكوبين بسلام اللامبالاة؛ وقد يكون أَسوأ من العنف المكشوف لأَنّه، غالباً، يدّعي الفضيلة . ونحن نأبى هذا السلام لأَنّه جريمة تستدعي انتقام اللّه .

و ما هو سلام الجياع والذين يسحقهم الطغيان ؟

ليس السلام مساومةً على حدود، ولا هو أَفعال خارجيّة، ولا هو حوار يلجم العنف من الانفجار إِلى الخارج، ولكنّه يُبقي البغض قائماً . السلام هو تفاهم حقّ، لا بل هو أَكثر من ذلك، احترام عميق للآخر وللآخرين . الإِزدراء هو الذي يسبّب الفرقة، ويزرع الغيرة، والبغض والعنف . وطالما ظلّ على الأَرض بشر، وبلدان، وأَجناس تظنّ أَنّها مختارة دون سواها، وأَنّها متفوّقة، وتعامل الغير باحتقار، وتستصغرهم، فالحرب قائمة . ولن يحلّ السلام إِلاّ بتحوّلٍ جوهريّ في قلوب البشر، بحيث يرمقون الآخر والآخرين بلا خوف، ويرون فيهم إِخوة جديرين بالاحترام والتقدير . وهذا الموقف يقتضي حبّ الآخر بخصاله المختلفة،

وثقافته، ودينه، ومذهبه السياسيّ، ولغته، وعاداته واحتياجاته المختلفة، وبآلامه؛ وتقتضي التخلّي عن فرض ثقافتنا وآرائنا، بل مساعدة الآخر على التعبير بأسلوبه الخاصّ . ولن يتحقّق السلام إلاّ إذا التزم البشر والدول بالتواضع بعضهم إزاء بعض، وارتضوا نبذ المُحاجّة، وموقف التفوّق والعدوانيّة، في سبيل تبنّي موقف خدمة . ينبغي التنكّب عن التنافس من أَجل إِحلال الصداقة، والثقة المتبادلة، والتعاون والمشاركة .

تقف البشريّة، اليوم، أَمام خيار جوهريّ؛ فإِمّا أَن تندلع قوى الثورة الدامية حيال تواني الكثيرين من الراتعين بالرفاه (وبحجّة ردع هذا العنف تتدخّل الحكومات فتخلق دُوَلاً بوليسيّة) أَو أَن تدفع الشبابَ آمالُهم وشيءٌ من الجنون إِلى ثورة حبٍّ ولا عنف، يرتضون معها الفقر، بل حتّى الموت، لكي يتحقّق اقتسامٌ أَوفر عدلاً لخيرات الأَرض، ولكي يشهدوا على تقديرهم للفقراء والمنكوبين . وإِذا ما انضمّ إِليهم عدد غفير من الناس، انقلبت الموازين، من غير إِراقة دماء، وغدت أَرضنا موئل سلام .

إِنّني لواثق أَنّ الشباب مستعدّون لذلك، وما علينا إِلاّ أَن نسهّل مهمّتهم .

و بنعمة اللّه، وبالثقة بالروح، سيكون السلام ممكناً .

بعض توجيهات لتعليم السلام

ينبغي أَن يصبح الوالدون، والمربّون وجميع الذين يتحمّلون مسؤوليّة، رجال ونساء سلام : وهذا يعني أَنّه ينبغي أَن يكونوا موحَّدين في ذواتهم؛ وأَلاّ يقوم أَيّ تفاوت بين أَقوالهم، وأَفكارهم، وأُسلوب عيشهم؛ وهذا يعني، أَيضاً، أَنّ عليهم تجنّب السعي إِلى الحفاظ على سُلطتهم على نحوٍ اعتباطيّ؛ بل أَن يكونوا هم أَنفسهم، في أَعماقهم، حقيقيّين وصادقين، وأَن تنبع سُلطتُهم من هذا الصدق وهذه الحقيقة، وأَن ينبعث إِشعاعهم من أَشخاص، لا ممّا يدّعونه من أَلقاب ووظائف .

و عليهم خاصّة أَن يحترموا، بعمق، الشباب الذين يتحمّلون مسؤوليّتهم، فيصغوا إِليهم باهتمام، ويساعدوهم على التعبير عن ذواتهم، ويقدّروا مُثُلهم وآراءهم، ويشجّعوا اندفاعهم المجنون نحو السلام، واللاعدوانيّة، ويدعموا عملهم بالنصيحة المجدية، ويُقلعوا عن اعتبارهم أَدنَيْن تنبغي تربيتهم، ومحتاجين تنبغي تهدئتهم، ومثاليّين يتعيّن إِفهامهم تعقيد العالم، بل إِخوة وأَخوات عليهم أَن يقتسموا معهم معارفهم وتجاربهم، لكي يتعاونوا معاً على صنع عالم أَفضل .

و عليهم أَن يتعلّموا كيف يشاركونهم الضحك، والعَبَث، ويتبادلون معهم على المستوى الشخصيّ، وبالإِجمال عليهم إِسقاط حواجز السلطة، كي يبرزوا لهم حقيقتهم، بلا وَجَل، بل يظهروا لهم، أَحياناً، فقرهم الشخصيّ .

و عندما يتحرّر الوالدون والمربّون من الخوف، يكفّون عن محاولة الدفاع عن مركزهم وثرواتهم بأَيّ ثمن، يستشعر الشبّان السلام المنبعث منهم، فيقتفون أَثرهم واثقين .

على التربية الجديدة أَن تتحقّق في الثقة المتبادلة .

و لكي يمسي الولدُ رجلَ سلام، لا بدّ له من العيش في بيئة سلام ومشاركة.إِنّ الطفل شديد الحساسيّة، ويلتقط بسرعة موجات الفرقة والخلاف؛ فإِن هو شعر، من حوله، بمناخ وحدة، نما في الوحدة، وأَصبح عامل توحيد . أَمّا إِن هو نما في مناخ من الخلاف، فسيصبح عامل خلاف .

الفم يتكلّم من فيض القلب؛ فإِن كان قلب الوالدين في سلام، لتجنّبوا، تلقائيّاً، الأَحكامَ الاعتباطيّة، والأَحاديثَ التي تكرّس تمييزاً بين شتّى الفئات، وتصنيفَ الأَشخاص وفق معايير تحول دون التقائهم بحرّيّة في حقيقتهم الراهنة . ثمّة أَقوال تتردّد في بعض الأُسر، وتتلقّفها نفوس الأَطفال قطرة فقطرة وتُشْبَع بها مثل إِسفنجة، وتؤدّي إِلى تكوين الولد على مفاهيم زائفة .

إنّ الولد سيُصبح كائن سلام إن هو أَلِفَ سماع أَحاديث تتّصف، عادةً، بالحرارة والعطف، وتعبّر عن الإعجاب وعرفان الجميل، وتتحرّى مواطن الخير في الآخرين، وتلتمس لهم الأَعذار .

يجب أن يكون لدى الوالدين والمربّين اطّلاع نيّر على مشاكل عصرنا، على أن يكون اطّلاعاً موجّهاً نحو الرجاء . فإن لم يفقه المربّون معنى التاريخ، ومعنى وحدة العالم، وإن لم يتحلّوا بحسّ المسكونيّة، لتعذّر عليهم إدراك خطورة حقبتنا، التي لا يمكن معالجتها إلاّ بأفعال جديدة، جريئة وحاسمة . وفي مجال الإعلام هذا، على الحكومات، والكنائس، والكتّاب، والمسؤولين عن وسائل الاتّصالات الاجتماعيّة، أن يتحمّلوا مسؤوليّاتهم على نحوٍ جديد؛ ولا يحقّ لهم دغدغة الرأي العامّ وترك القوم يعيشون في حلم سعادة، وفي أَساطير، وهم مدركون حقيقة واقع مجتمعنا، لا يحقّ لهم أن يدَعوا الناس يرقصون فوق بركان وهم واثقون من أنّه سيشرع يثور، في غضون لحظات .

بيدَ أنّ الإعلام الذي يُعلن خطورة الساعة الراهنة ينبغي ألاّ يكون داعيَ أَسىً وتخاذل، وتفاقم القنوط، بل ينبغي أن يواكبه تبيانٌ لينابيع الرجاء، وبوارق الحياة، وإمكانيّات العمل . وينبغي إظهار كيف يجابه الواقعَ رجالٌ ونساءٌ نيِّرو البصيرة، كرام النفوس، تحدوهم قناعات راسخة، وأنّ بوسع كلّ فرد الانضمام إليهم بالفكر والقلب .

ينبغي ألاّ تظهر شاشات التليفزيون صور الجرائم، والأهواء الجامحة، وكلّ ما يجتذب الأنظار المريضة، ولا أساطير السعادة والقنوط، بل الحياة الفرحة، الموهوبة ببطولة أحياناً، التي يخوضها أَطبّاء، ومربّون، وعاملون اجتماعيّون، وكثيرون سواهم .

ينبغي إبراز السخاء الرائع الذي يتميّز به شبّان أمّوا بلداناً قصيّة، والوجوه الرائعة المشعّة بالسلام المتجلّية في أَشخاص زهدوا بالخيرات الماديّة، وعاشوا وفقاً لقِيَمٍ أَبعد عمقاً؛ ينبغي إظهار الفرح البسيط الذي يغمر بعض الشعوب الفقيرة، وبساطة أَزواج يتنكّبون عن كلّ مطمعٍ شخصيّ لكي يكرّسوا ذواتهم للآخرين في الفقر والبساطة؛ ينبغي إثبات قدرة الناس على الظفر بالسعادة في حياةٍ جماعيّة بسيطة وفقيرة ...

على وسائل الإعلام، عوضاً عن خدمة بيع المنتجات بواسطة الدعاوة، أن تستفزّ المزيد من السخاء بواسطة رجاءٍ جديد، لدى الشباب، ومساعدتهم على التصدّي تصدّياً مجدياً لعنف عصرنا، بإظهار إمكانيّات عملٍ غير عنيف ومجدٍ، قائم على المشاركة والإخاء . لا بل ينبغي وضع موجات أثير التليفزيون بتصرّف الشباب، وتمكينهم من الإعلان بأَنفسهم عن هذا الهدف الجريء .

يحتاج الشباب إلى مرشدين وقدوات . إنّهم متعطّشون إلى مجتمع إخاء جديد قادر، وحده، على إسباغ معنًى على الحياة . ومن ثمّ لا بدّ لهم من مربّين مؤمنين بإمكانيّة إحلال

سلام شامل، وفي سبيله يهجرون منزلهم، وبلدهم، وثقافتهم، بُغية اقتسام حياة المتواضعين والمنكوبين، وخدمتهم . إنّهم يحتاجون إلى رجال سلام لا يخشون التدخّل في مواقع الخلاف من أَجل إحلال الوحدة، ويوفّرون للمنكوبين رجاءً، ويجهدون في إفهام المالكين بأنّهم لن يظفروا بالفرح والسلام إلاّ بالعطاء .

يجب أَن يمتلك الشباب جرأة على هجر كلّ شيء في سبيل الظفر بلؤلؤة الإخاء الشامل الثمينة؛ ولكن لكي ينهجوا هذا النهج ويثابروا فيه، لا بدّ لهم من الاستعانة بإخوة أكبر منهم، ومن العثور على نماذج رجال ونساء سلام يؤازرونهم على رسم دربهم نحو العدل والسلام الشامليْن، ونحو محبّة الفقراء . وينبغي أَن توجد هذه النماذج في شتّى الميادين، وعلى مختلف المستويات . فليس من اليسير أَن يمضي الجميع نحو بلادٍ نائيّة، أو أَن يهجروا محيطهم للعيش وسط المحرومين . ولكن بوسع الجميع التخلّي عن أوهامهم الاجتماعيّة، وفتح قلوبهم وبيوتهم للغرباء، والمعاقين والمنكوبين، غير هيّابين فقدان الراحة . وبوسع الجميع تكريس فراغهم وعطلهم لا للترفيه عن أَنفسهم، بل لعيادة المرضى، والمعاقين، والمسنّين، والمسجونين ...

على المربّين – ولا سيّما الذين تلقّوا دعوةً إلهيّة – أَن يخوضوا حياة روحيّة موجّهة نحو الصوفيّة والعطف : عليهم أَن ينزّهوا الدين من كلّ عنصر رياء، ويعيشوا جوهر رسالة يسوع : الانفتاح على الروح القدس، والحنوّ على الضعفاء والمنكوبين، والأَعداء، والعزوف عن كلّ حكمٍ على الآخرين أو إدانةٍ لهم .

على المربّين أَن يتحلّوا باحترام جمّ للصغار الذين يؤثرهم الربّ بحبّه، والذين من خلالهم يرسل روحة القدّوس بأسلوب جديد . ولا يسع المربّي إلاّ أَن يكون أَداة الروح الوضيعة، ولا يسوغ أَن يفرض نفسه؛ وعلى عمله أَن يحاكي عمل يسوع الذي غسل أَرجل تلاميذه وتقبّل الاستشهاد لكي ينعم آخرون بالحياة.يجب أَن يقتضي من ذاته الكثير، وأَن يكون مفعماً احتراماً ورأفة، وتسامحاً حيال الآخرين .

ينبغي أَن يكون المربّون والشبّان، معاً، مندمجين بعمق في جسد المسيح السرّيّ، ومتّحدين بالرعاة والرسل، كي يعثروا على دين روحٍ وحقيقة يقودهم نحو حرّيّة الروح القدس، حرّيّة أَبناء اللّه .

يجب أَن يلتقي الصغارُ والشبابُ الفقيرَ، ويعيشوا معه : ينبغي أَن يكون الولد، منذ حداثته على اتّصالٍ بالبؤس، وبأَشخاص من أَوساط مختلفة عن وسطه، ليس فقط من خلال التليفزيون والكتب، بل، خاصّة، عن طريق اللقاءات وما تتيحه من صداقات . إنّ الأَطفال، عموماً، لا يميّزون بين الأَشخاص وفقاً لطبقاتهم الاجتماعيّة وأَجناسهم، بل إنّهم، في معظم الأَحيان، يرتاحون إلى الجميع؛ وإنّما يأتي التمييز والتفرقة من الكبار .

و قانا اللّه من التهذيب الزائف والتقاليد الاجتماعيّة التي طالما منعت أطفالاً ينتمون إلى أوساط مختلفة من اللعب معاً، خوفاً من تعلّم كلمات بذيئة، أو إساءة السلوك على مائدة الطعام، أو التخلّي عن العادات الحسنة . متى، ربّاه، سيتوقّف هذا الرياء ؟ ومتى سيتعلّم القوم تراتب القِيَم الحقيقيّ، وأنّه خيرٌ، ألف مرّة، التلفّظ بكلمات بذيئة، ومخالفة أُصول سلوك المائدة، من إغلاق القلب دون الفقراء ؟

لا نخشينّ أن يلعب أبناؤنا مع أولادٍ محرومين، بحجّة خوفنا من التقاطهم أمراضاً . إذ ليس، ثمّة سوى مرضٍ واحد خطير : هو القلب المغلق، قلب من حجر.

إن أقام الطفل، منذ حداثته، علاقات مع أُسرٍ من أوساط مختلفة، أو مع صغارٍ معاقين، لربّما تولّدت لديه رغبة مشاركة حقيقيّة . ومن مآسي مدارسنا أنّ كلّ شيء فيها طالما نهض على أساس المنافسة، ومن ثمّ على شيءٍ من ازدراء الضعيف . إنّ التنافس أمرٌ صحّيّ، ولكنّه، إن لم يرتبط برغبة في التآخي والتعاطف مع الأقلّ حظّاً، سرعان ما ينقلب ، بذرة ازدراء، وبالتالي، بذرة تفرقة وحرب .

و لو تضاءل الشأن البالغ الأهمّيّة الذي يولي، عادةً، للذكاء، وللسيطرة بالذكاء، وبُذلت جهود لمضاعفة التعاون بين الضعفاء والأقوياء، وبين الأغنياء والفقراء، لربّما اكتشف الطفل والشابّ الغاية الوحيدة للثروة وللذكاء الحادّ : ألا وهي خدمة مُثلى للإخوة في الإنسانيّة، أيّة كانت احتياجاتهم، في سبيل صوغ عالم أفضل .

و لكي ينمو الطفل بقلبٍ مُشبَع بالسلام، ويصبح صانع سلام شامل، ينبغي أن يكون متحرّراً من الأحكام المسبقة، ومن حواجز الخوف التي تحول دون رؤية البشر بعضهم لبعض كإخوة؛ ويجب أن يتعلّم استقبال الآخرين، ولا سيّما أولئك الذين لا يشبهونه ببيئتهم، وثقافتهم، ونمط حياتهم، والذين قد يُخيّل إليه أنّهم أعداء له .

التربية في سبيل السلام والاستضافة تقتضي قلباً مصمّماً، وقناعات داخليّة متينة .

فالقدرة على الاستضافة لا تتسنّى إلاّ لمن سكنته طاقةٌ عذبةٌ وقويّة تتيح له الإصغاء للآخر وفهمه، والنجاة بنفسه من الضياع، في آنٍ واحد . في معزل عن هذه الحياة الداخليّة وهذا السلام النابع من القناعة، يفتقد المرء إلى المناعة، ويغدو ضبابيّاً، عاجزاً عن وحدة وصداقة حقيقيّتين .

و هذا يقتضي من الصغير امتلاك حسٍّ عميق بالحقيقة، وتربية على الحبّ والحقّ، ممّا يفترض قدرته على التمييز بين الأشياء الضروريّة ضرورة مطلقة، والأشياء العرضيّة الثانويّة، بين الأشياء المحقّقة والأشياء المحتملة أو الممكنة، ويفترض، خاصّةً، أن يرى في كلّ حوارٍ، وكلّ إنسان، عناصر إيجابيّة تمكّن من التعاون على البناء، لا فرصةً للنقاش في سبيل إثبات امتلاك الصواب دون الآخرين.

و هكـــــذا، فقـــط، ســــيتهيّأ لـــــه، حقّـــاً، فهـــم أَفكــــار الآخــــرين وتقـــديرها .

" إِفتح ذراعيّ "

Ouvre mes bras
(Fleurus / Bellarmin 1978)

" افتح ذراعيّ "

إِنّه امتداد لكتاب " صمتك يدعوني "، وزبدة تجربته في معايشة المعاقين. إِنّه دعوة للأَغنياء والمالكين كي يشاركوا ويقتسموا مع الرازحين تحت وقر الحرمان الساحق .

إِنّه صرخة إِلى الشباب كي يتحرّروا من الأَنانيّة، وينفتحوا على المشاركة، وعلى احتضان من قست عليهم الحياة؛ وكي ينعتقوا ممّا يشيعه العصر من غرائز الامتلاك والخوف، والتنافس، والمتعة، في سبيل خوف حياة بذلٍ وبطولة .

إِنّه دعوة إِلى الانقياد لهمسات الروح، وإِلى الامتلاء بما يفجّره فينا من عطشٍ إِلى العطاء .

دعوة للولوج إِلى عالم الفاقة والحرمان، لفهمه من داخله، فهم لغتة وإِجادة التخاطب معه بلغة يفهمها .

و إِذا يطلق جان فانييه هذه الدعوة، لا يخفي أَنّ حبّ الفقير خَطِر، لأَنّه يقسرنا على تغيير مسار حياتنا، وركوب المركب الخشن، وخوض معارك التضحية، والموت عن الذات .

إِذن، ياربّ،

" إِفتح ذراعيّ " لاستقبال من ازدراهم العالم، ونبذهم، وأَثخنهم جراحاً، أو سجنهم في ملاجئ وبيلة، مهينة،

" إِفتح ذراعيّ " لكي أحتضنهم، وأَستضيفهم في جماعات محبّة، وموائل سلامٍ ومشاركة، فهذه الجماعات، لا الثورات العنيفة، هي القادرة على تغيير قلب المجتمع .

توطئة

هذا الكتاب هو امتداد لكتاب " صمتك يدعوني "، ويضمّ محاضرات أُلقي معظمها في كندا . وهو، في مجمله، عصارة الخبرة التي اكتسبتها من عيشي مع جماعات " السفينة "، ولملاحظتي أَنّ العالم مقسّم إِلى فئتين : فئة الهامشيّين والمعوزين، وفئة من يأبون رؤيتهم وينبذونهم .

و هذا لا يعني أَنّ المال، وحده، هو سبب هذا الانقسام، وأَنّ كلّ من يملك غنيٌّ وشرّير، وكلّ فقير، ماديّاً، ينهج درب اللّه . فبين المالكين من هم منفتحون على المشاركة، وبين الفقراء من قلوبهم موصدة، مفعمة حقداً، وحسداً لثروة الآخرين، ورغبةً في التشبّه بهم .

الشرّ الحقيقيّ مركزه القلب، وهو الانغلاق دون الحبّ، الذي يتجلّى في الكبرياء، ونشدان الحرّيّة الفرديّة في معزلٍ عن الآخرين وعن اللّه . وليست البُنى الخارجيّة هي التي تمنع الإِنسان من الحبّ، فالقلب البشريّ يتخطّى محيطه . ولئن كان محتّماً أَن تنحو الشرائع نحو إِحلال عالمٍ أَوفر عدلاً، تنتفي منه اللامساواة أَكثر فأَكثر، وتصان فيه حرّيّة كلّ فرد، بيد أَنّ الشرائع ليست هي الكفيلة بتغيير قلب الإِنسان، وبمساعدته على النموّ في الإِصغاء إِلى الآخرين والاهتمام بهم؛ بل وحده الروح القدس، روح اللّه، هو القادر على تغيير القلوب في الأَعماق، بإِشراعها، شيئاً فشيئاً، على الضّعفاء والفقراء .

عالمنا يزداد تمزّقاً، والأَحقاد تتصاعد، وأَمواج القنوط ونشدان المتعة تتدفّق، ولا سبيل إِلى توحيد العالم إِلاّ بقدر ما يتنكّب القوم عن أَصنامهم، وينكبّون على خدمة مستضعَفي المجتمع في العالم أَجمع . ذلكم هو الشرط الوحيد للظفر بالسلام .

و أَظنّ أَنّ الشبيبة، بما يحدوها من رغبة في الصدق، والسخاء، والاستقبال، كفيلة بتوفير الدواء ليأس الحاضر وما دّيّته، ولنشدان الرفاه والمتعة؛ وستمتلك الديناميّة والدعوة الجديرتين بخلق جماعات سلام ورجاء، وثيقة الاتّحاد، قادرة على تحويل مجتمعنا من الداخل، شيئاً فشيئاً . وستجد هذه الشبيبة نبعها في قلب الهامشيّين الذين قاسمتُهم بعضاً من حياتي . إِنّهم إِخوتي وأَخواتي في " السفينة " الذين أَتاحوا لي تذوّق أَفراح المشاركة، وأَفراح اليقين بأَنّني محبوب وقادر على حبّ الآخرين، بلا وَجَل . إِنّه لطيّبٌ وعذبٌ العيش، إِخوةً وأَخوات، واختبار هذه الوحدة، التي هي ثمرة الروح، وعيش رجاء عالَمِ سلامٍ يغمره حبّ الآب .

أُهدي هذه السطور، على نحوٍ خاصّ، لمريم المنزّهة من الدنس، الصامتة، العطوف، هي التي جعلتني أَتذوّق دروب الحبّ، والإِصغاء، والحنان، والوفاء، ودعتني كي أَكتشف في قلب الشقاء، قلب الحبّ : يسوع .

حلم مجنون

في حضارتنا عالمان : عالم المتعة، ونشدان الأَمان، ورفض المشاركة من جهة، ومن جهة أُخرى، عالم البؤس، والأَسى . وقد يعيش هذان العالمان جنباً إِلى جنب : لعازر والغنيّ ....

و أنا لديّ حلمٌ، هو، أَيضاً، رجائي . أَحلم بعالم حبّ حيث لا يخشى الناس بعضهم بعضاً، وحيث ينْصهر العالَمان الراهنان في عالَم إِخاء ... حيث الأَغنياء والفقراء، الشرق والغرب، المعاقون والأَصحّاء، يقتسمون، في ربيعٍ من الحقيقة، وحيث الانقسامات تتلاشى .

هل هو حلم مجنون، حلم " أو طوبيّ " لا يمتّ إِلى الواقع بصلة ؟ وكيف السبيل إِلى مواجهة القوى الجبّارة التي تبدو وكأَنّها تمرّغ هذا الحلم في الوحل ؟

إِنّني أُومن بالقلب البشريّ، بعد أَن طالما شهدتُ قوى الحبّ الرائعة تستيقظ هنا وهناك، وتأَثّرت لرؤية السخاء والجاهزيّة لدى الكثيرين من الشبّان . لست أُصدّق أَنّ الإِنسان غير قادر على الحبّ، ولكنّني أَعلم أَنّ هذا القلب لا يزدهر إِلاّ في ظروف معيّنة . إِنّ المجتمع الحديث لا يحرّض هذا القلب على الازدهار، بل هو يوقظ غرائز الامتلاك والخوف، والتنافس، وفوضى الرغبات، والمتعة، ولذلك ينبغي أَن تنبجس، في مدننا وبلداننا، جماعات سلام، حيث يتسنّى للشبّان والشيوخ، للمعاقين وللأَشدّاء، للسود والبيض، التعايش معاً، والتحابّ، والمشاركة، وعوضاً عن الحلم بمجتمع جديد، عيش هذا المجتمع في واقعٍ يوميّ قوامه الإِصغاء، والاستقبال، والعمل المتواضع ... وحيث يقبل أَحدهم الآخر كما هو، مع الإِيمان بقدرة كلٍّ منهم على النموّ، والتقدّم في دروب الحبّ .

و ليس حلمي حلماً فحسب، بل هو مبنيّ على واقع يوميّ منسوج من دموعٍ وضحك، ولقاءات رائعة، وصعوبات في العلاقة من كلّ نوع، ومن مال وإِدارة؛ وأَيضاً من تمزّق داخليّ وتأَرجح بين جرأة وخوف، وحبّ وأَنانيّة، من حاجة إِلى الأَمانِ وثقة بالروح، من نَزَقٍ، وغريزة سيطرة ونشدان للحقيقة ... ومن فقري الخاصّ .

و حلمي قائم، قبل كلّ شيء، على لحظات تجربة، وتواصُل، وانصهار، استشعرتُ، من خلالها، قوّة الحبّ وحنانه، وبخاصّة، الرجاء المنبعث فيّ، وجميعها تنبع من الروح .

و ما انفكّ حلمي يكبر، مذ أَقمت في " السفينة "، وهي جماعة أَشخاص قدموا من آفاق شديدة التباين، بعضهم مجروحون في عقولهم أو في نفسهم، وآخرون جاؤوا ليقاسموهم حياتهم . ويوماً إِثر يوم، نحاول، معاً، أَن نعيش ونخلق جماعة تتفجّر منها الحياة، حياة قائمة على العمل، والواقع، حياة أَلمٍ وفرح، قد تُرهق، أَحياناً، بوقْر الواقع اليوميّ، وقد تبدو باهظة، لأَنّ موت الأَنانيّة، والمشاركة، كليهما، عسيران؛ بيد أَنّها تتفجّر، أَحياناً، فرحاً وعيداً . وعبر هذه

الآلام والأَفراح، نكبر جميعنا معاً، إِنّها حياة قد تبدو على قدرٍ مريع من الفــراغ، والبســاطة والفقر إِن لم ينعشها الحنان، والإِصغاء، والحبّ .

جماعات السلام الصغيرة هذه، حيث تتحقّق المشاركة في العمق، كفيلة بتغييــر قلــب مجتمنا . أَنا لا أومن بقدرة الثورة العنيفة على أَن تكون هي الحلّ، إِذ يتعذّر على العطــف أَن يزدهر في أَرض فُرقةٍ دامية . ولا يمكن أَن يكون الطغيان حلاًّ، فالمطلوب هو إِحياء الحــبّ من جديد، والحبّ لا يُفرَض فرضاً، ولا يُزهر إِلاّ في أَحضان الثقة والحرّيّة، فــي حــين أَنّ الطغيان يولّد الخوف .

و لا يمكن لجماعات السلام والمشاركة أَن تنفصل عن المجتمع، لأَنّها تبتغي أَن تكون شاهدة، ورائدة تدفع القوم إِلى التخلّي عن قِيَم الامتلاك والفرديّة، بغية الدخول فــي ملكــوت المشاركة .

إِنّ ما تتميّز به هذه الجماعات من فرحٍ، ووحدة، وصدق، وأَلم، وسلام، وحرصٍ على العيش في الفقر يضع قِيَم الأَمان، والثروة، والطغيان، في موضع اتّهام . وما ينعم به أَعضاء هذه الجماعات من حرّيّة داخليّة، وبساطة عيش، يفضح استعباد الغرائز والمقتنيات المادّيّــة، وما يربك المجتمع من تعقيد . ومن ثمّ تصبح هذه الجماعات أَقطاب جاذبيّة تحــرّض النــاس على تغيير نمط عيشهم، لا بأَساليب الخوف والعنف، بل بأَساليب الرقّة، واللاعنف والحبّ .

و لن تقوى هذه الجماعات على تحويل مجرى التاريخ في الحــال، إِذ عليهــا أَوّلاً أَن تعيش، ولا يستطيع المرء نشر إِلاّ ما يعيشه حقّاً ... قد يلزمها سنوات طويلة قبــل أَن تــؤتي ثماراً، ولكنّ تأثيرها سيتعاظم رويداً رويداً ... وستتّسع دائرة الحبّ ... وسينخرط أَكثر فأَكثر من الناس في موجات الرقّة والحنان القويّة ... وستولد جماعات جديدة، قد تكون من أَنمــاط مختلفة ولكن يحدوها روحٌ واحد .

في سبيل ذلك يتعيّن على المجتمع وعلى كلّ فرد الانتقال من قِيَم الامتلاك، والتنافس، والتمييز، والسُّلطة، والأَنانيّات، إِلى قِيَم المشاركة، والسلام، والتعاطف والفرح في الــروح . ولا يمكن أَن يتحقّق هذا الانتقال إِلاّ بولادة جديدة، وبعبور من الموت إِلى الحياة . جماعــات الحبّ هذه هي، جوهريّاً، التقاء أَشخاص أَحياء وأَحرار، منسلخين مــن غرائــزهم، واهبــين بعضهم بعضاً، ومحبّين . وإِشعاعهم الشخصيّ والجماعيّ هو الذي يجتذب . وهذا الانســلاخ وهذه الحياة الجديدة لا يمكن أَن يُعاشا إِلاّ بالروح، الروح الذي يهبه يسوع . ولذلك تلزمنا هذه القوّة الجديدة القادمة من فوق، وهذا السلام، وهذه السكينة، وهذا الحبّ الشامل، وهذه جميعها يهبها روح الحقّ، والتقاء يسوع .

أَجل أُومن أَنّ يسوع حيّ ويحبّنا، وأَنّه جاء لكي يخلّصنا من موت الخطيئة، ويأتينــا برسالة سلام . جاء لكي يهب كلاً منّا القدرة على صنع المستحيل : إِحلال السلام، وجمع شمل

البشر المنقسمين . إِنّ أَعمالنا المسكينة، وجماعاتنا الفقيرة – ولكنّها تشعّ حبّاً – قـادرة علـى تغيير مسيرة التاريخ، لا بفعل قدرتنا، بل بفعل قدرة الروح القدس الذي يستعين بوهننا؛ فهو، وحده، يستطيع تغيير وجه المسكونة من خلال أَفعالنا المتواضعة .

إِنّ حقبتنا تشهد بعداً جديداً، وإِشعاعاً قشيباً . وستنبجس جماعات من نور، تفتقر غالباً إِلى هيكليّة ثابتة، من أَحشاء ظلمات عالمنا، مثل نجوم تهدي نحو طريق العطـف والحـبّ، محوّلةً، رويداً رويداً، غابةَ مجتمعنا إِلى حديقة، والحربَ إِلى عيد واحتفال، والشقاقَ والطلاقَ إِلى أَعراس .

إِفتح ذراعيّ، يا يسوع
لكي أُظهر قلبي العاري، المجرّد، الأَعزل،
و لكي يحوّله الروح القدس إِلى قلبٍ من لحم ودم، يعرف الحبّ،
و يلبّي الدعوة إِلى الأَعراس الأَبديّة .
إِفتح ذراعيّ، لكي أَستقبل بلا انقطاع، ولا وَجَل،
إِخوتَك، إِخوتي ....

في ما يتخطّى العنف

إنّ العطاء سهلٌ على من يملك فائضاً . ولكن ليس من السهل تقبُّل الآخر، ولا سيّما إذا كان معاقاً، تقبّله كما هو، بكلّ رقّة الحبّ وعطفه، وبكلّ رجاء رؤيته يتطوّر .

إنّ معايشتي لهؤلاء المعاقين تظهر لي أنّ كلّ يوم يشدّني أكثر إلى من يوصفون " غير طبيعيّين " ممّا يشدّني إلى من يُدعون " طبيعيّين "، أسياد العالم، والمسؤولين عن اقتصاده، وعن القرارات التي تحكم حياة الشعوب .

ما زال عالَمنا عالَمَيْن متناقضَيْن : عالَم قومٍ فزعوا إلى الرفاه والبحبوحة، وأمان المال، والمقتنيات، والنوادي؛ قوم يحكمون العالم ويتسنّمون قمّة النجاح، وأنظارهم عالقة بالثروة، والسيطرة، والجاه؛ يعيشون في البذخ، والنافل، والمظاهر، والبيوت والسيّارات الفاخرة، وأولادهم مغمورون بكلّ ما يرغبون فيه، يتعلّمون في مدرس راقية، ويتهيّؤون لمثل نجاح آبائهم .

و في المقابل، ثمّة عالَم متباينٌ تماماً، عالَم مسنّين، ومعاقين، ومجروحين، عالم من يعيشون عالة على المعونة الاجتماعيّة، أو يتسكّعون في الطرقات، أو يُحبسون في السجون والمشافي النفسيّة، أو يُحشَرون في مختبآت وقرى صفيح، ويستسلمون للمخدّرات، والكحول والبغاء .

تقنيّاً، وفي غضون سنوات معدودات، انتقل الإنسان من الطفولة إلى سنّ البلوغ، وباتت بمتناول يده قدرةٌ رهيبة، شرع لتوّه يكتشفها؛ وما كان لا يمكن تصوّره، لبضع سنوات خلت، قد أمسى واقعاً راهناً، وقد تحقّق تطوّر مدهش في اكتشاف طاقات اصطناعيّة؛ ولكن لا يبدو أنّنا أحرزنا أيّ تقدّم في مضمار القلب، وفي منحى العدل والحقيقة؛ بل ربّما نحن نتقهقر ...

و من عواقب تقدّم وسائل الإتّصالات، المقروء منها، والمسموع والمرئيّ، أن بات أصحابُ البطون الخاوية يتنادون للثورة على بذخ المحظيّين وهدرهم؛ وحيال وعي اللامساواة في الثروات والفُرَص، وحيال الطغيان والمظالم، لن يمرّ وقتٌ طويل قبل أن يستيقظ المسحوقون ويعملوا، معربين عن استيائهم، أو إنّهم سينكفئون على ذواتهم، ويتردّون إلى هوّة القنوط والموت .

علامَ يزدري غالباً من يملكون السُّلطة والنفوذ – بفعل الصدفة أو بفضل الولادة – من لا يملكون شيئاً ؟ ومتى سيُدركون أنّهم، إن تلقّوا الثروة والسلطة، فلكي يقتسموها مع الآخرين ؟

و مع ما نشهده من تقدّم تقنيّ، أَخذت التقاليد الدينيّة ومبادئ الآداب تفقد نفوذها . غالباً ما قامت، في التاريخ، معاهدة بين الأَغنياء وممثّلي التقليد الدينيّ، غير أَنّ الأَنبياء والقدّيسين، مع انتمائهم إِلى هذا التقليد، قد صُلبوا، وعاشوا على هامش المجتمع؛ وتعرّضوا للسخريّة، وعُدّ تعليمهم وأُسلوب عيشهم متهوّريْن، بل مستحيلين . ولطالما رفض البشرُ يسوعَ وتلاميذه، وتطويباته، وعظته على الجبل . وفي نظر معظم الناس، بدا العقل البشريّ أَفضل وأَكثر إِنتاجاً من إِلهامات الروح .

إِنّ التقاليد البشريّة والدينيّة آخذة في الانهيار بتأثير تداخل الثقافات؛ وحيال هذا الانهيار يطلق البعض صيحات انتصار، ويهلّلون لتحرّر الإِنسان من محرّمات الدين . وآخرون، إِذ يشهدون تفاقم الفوضى والإِباحيّة، يبكون الإِنحطاط البشريّ. ومع زوال التقليد، ووضع كلّ نوع من أَنواع السلطة موضع تساؤل، يُلفي الإِنسان نفسه وحيداً، وحدةً مأساويّة، لا يملك أَيّ يقين في ما يتعلّق بقضايا الحياة والموت القصوى، وقضايا الحبّ والبغض، الخير والشرّ؛ وبعد أَن يكون قد فقد كلّ ضمان وسلام داخليّ، يمضي يبحث بحثاً يائساً عن تعويضات أُخرى : في الثروة الخارجيّة أو المتعة الفوريّة؛ وآخرون حيال القِيَم المجرّدة من كلّ معنى، والتي تبدو، غالباً، مرائية، وحيال مظالم مجتمعنا الاستهلاكيّ، يغرقون في المخدّرات، والجنس، والعنف، والجنوح .

إِنّه لمأساويّ أَن ننجب أَولاداً ونسلّمهم لعالم عنف ويأس ضلّ معناه .

و من ثمّ يتعيّن علينا أَن نخلق لهم عالَماً أَوفر صدقاً وعدلاً؛ ولا يسوغ لنا التعامي عن مشاكل عصرنا الأَساسيّة المتمثّلة في الانقسامات بين الميسورين والمحتَقرين، وبين القارّات الغنيّة والقارّات الفقيرة . وإِن نحن تجاهلنا ذلك فسيسحقنا غضب البلدان النامية، وغضب المسحوقين المتدفّقين ديناميّة، والذين سيقاضوننا عن خمولنا وتخاذلنا . أَو سيغزونا جيش من الشبّان المتسكّعين، بلا هدف، حول بلداننا .

إِن نحن، رجال السلطة والثروة، القابضين على مقاليد الاتّصالات واقتصاد بلدنا، لم نقم بعمل سريع وجدّيّ، فلنتأَكّد أَنّ موجة العنف واليأس ستغمرنا . لقد فات وقت الاكتفاء بتوزيع مِنَح أَبويّة، والتربيت على رؤوس أَبناء الأَكواخ الهنديّة، أَو توزيع الأَقوال والوعود؛ بل لا بدّ من عملٍ أَكثر جوهريّة وعمقاً، ومن رجالٍ شجعان يعملون وفق منطق قناعاتهم الداخليّة، ولا يتوانون عن التخلّي عن أُسلوب عيشٍ يفصلهم عن إِخوتهم الفقراء، وعن اعتناق حياة عطفٍ صادق ومشاركة .

لقد أَكّد غاندي أَنّ العالم قد خطا خطوات مذهلة في ميدان اكتشاف واستخدام العنف وأَنّه ما زال في فجر اكتشافات رائعة في مضمار الحبّ واللاعنف .

لكي نوفّر السلام لعالمنا الممزّق، ينبغي أَن نعثر على وسائل جديدة بمستوى مكتشفات العلم والعنف؛ ينبغي أَن نحطّم أَنماط عيشنا القديمة، لكي نوجد جماعات رجاء وسلام، لا تستند فيها التراتبيّة على المولد، والموروث، والثروة ومركز اجتماعيّ غالباً غير مستَحقّ، بل على القِيَم الشخصيّة، قِيَم العمق الداخليّ، والحبّ، والعطف، وحياة الروح . لقد فات وقت الاقتصار على توزيع بعض نافلنا، وتأَكّدت مقتضياتٌ جديدة تُلزم بتغيير نمط عيشنا، وخلق جماعات تنشد الوحدة، والاستقبال، والمشاركة، والعطف، أَكثر من نشدانها الرفاه، والسلطة الفرديّة والطموح .

سيأتي يوم يقتسم فيه رجال الأَعمال، بدافع روح اللّه، مع عمّالهم، اقتسام إِخوة، لا اقتسام محسنين بعيدين؛ وحيث يعيش المحامون والأَطبّاء، وأَصحاب المهن الحرَّة بين ظهراني أَعضاء جماعتهم الأَشدّ فقراً، ويعقدون معهم علاقات صداقة وثقة متبادلة . يجب أَن يأتي يوم تهجر فيه أُسرٌ عديدة بيئتها، وتهدم حواجز الازدراء والجهل، لكي تفتح قلوبها على أَبناء مدينتها المتأَلّمين، ومن خلالهم، على جميع معذّبي العالم . يجب أَن يأتي يوم نقلع فيه عن إِشادة جدران شاهقة حول بيوتنا، ونفتح أَبوابنا على مصاريعها لكي نستقبل على مائدتنا الوحيدين، والمسنّين، والمعوّقين .

لقد نفد صبر الشباب، وضاق ذرعهم بمن تشدّقوا بأَقوال فارغة بحجّة خدمة إِله، من المؤكّد أَنّه ليس إِله حبّ حيّ؛ ضاق ذرعهم بمن طالما صلّوا، وهم يعتمرون قبّعات من أَحدث زيّ، أَمام ذاك الذي تلقّى أَكبر قدرٍ من ازدراء البشر، وكُلّل بالشوك، وغطّت وجهه البصقات . لقد أَثار سخريتهم مسيحيّون يجثون على أَوسدةٍ مخمليّة أَمام يسوع الذي نبذه شعبه، وأَدانه لأَنّه جدّف . لقد ضاق ذرع الشباب بمن لا قِيَم لهم سوى قِيَم المال والجاه؛ وهم يلتهبون توقاً إِلى تجربة حبٍّ جديدة، تحرّر من كلّ كذب ورياء . فإِن نحن آمنّا باللّه، توجّب علينا التوافق مع قناعتنا الداخليّة، والسعي إِلى لقاء إِله الحبّ والرأفة، والحنان، والعدل؛ فهو، وحده، قادر على أَن يولّد فينا ديناميّة الروح الذي يدمّر حواجز الخوف المقامة على أَرضنا، والتي تزرع الفرقة بين البشر .

من عالمنا الذي تجيش فيه ثورة بركانيّة، عالم يظلّ ممزّقاً بلا رحمة، رغم توحّده تقنيّاً – ستولد قوّة أَعظم من العنف، ستفجّر الحياة من صميم اليأس المتفاقم .

إِنّ رجاءنا قائم على الشباب، وعلى عطشهم إِلى الصدق، وعلى انفتاحهم وتسامحهم . ولكنّهم إِن لم يجدوا، بين الكبار، رجالاً ونساءً متأَهّبين لنشدان الحبّ والعطف أَكثر من نشدانهم البحبوحة والثروة، فسيهوون إِلى القنوط، ممّا سيفضي إِلى انتحار العالم؛ حيالَ ثورة العنف المتصاعدة، ومدّ القنوط والهروب، ينبغي أَن نوحي بثورة حبّ ومشاركة، نضع فيها

طاقاتنا وذكاءنا، وإِمكانيّاتنا ومواردنا التقنيّة في خدمة السلام والعدل لجميع البشر، وخاصّـــة لمن يعيشون في البؤس والأَسى ....

و حده روح اللّه كفيلٌ بمنحنا القوّة على العبور من عالَم أَنانيّة وشَجَع، إِلى عالَم تفاهم، ومشاركة وتضحية ... وحده روح الحبّ كفيلٌ بتحويل قلوبنا الحجريّة إِلى قلوب من لحم ودم، وعطفٍ رقيق، وصدق، إِذ لا يكفي أَن نوزّع أَموالنا على الفقراء، إِن لم يكن حادينا الحـــبّ، ذلك الحبّ النابع من روح اللّه .

فليحفر روح اللّه الذي يحبّ كلّ إِنسان – غنيّاً كان أَو فقيراً – قلوبنا، ويساعدنا على أَن نكتشف معاً غنى حياة موهوبة لخدمة إِخوتنا، لكي يصبح عالمنا مرفأ سلام، ويتحوّل مـــن غاب إِلى حديقة غنّاء . وليعلّم روح اللّه كلاًّ منّا أَنّ عظمة الحياة لا تأْتي ممّا نقتني ونربح، بل ممّا نتجرّد عنه ونقتسمه، ولا تأتي من خنق الحياة بل من إِعطائها .

بحث عن الرجاء

إِن كانت القِيَم التقنيّة تتيح بلوغ القمر، وتحقيق منجزات أُخرى بمقدار وافرٍ من الدقّة، إلاّ أَنّها تبدو عاجزة عن حلّ مشاكل القلب البشريّ، وتخفيف الأَلم .

و لقد خيّبت البُنى الراهنة أَمل الشباب، وغالباً ما خلّفت لديهم تجاربُهم الشخصيّة القَرَف، فانفتحوا على ما يتخطّى الفكر البشريّ، وانشدّوا إِلى نداءٍ سامٍ، وإِلى الصدق، وعالم الروح، وإِلى تواصل حميم مع آخرين، ينبع من تواصل فعليّ مع روح اللّه . ووُلد لديهم " شعور " بأَنّ الصمت أَجلّ شأناً من الكلمات، وأَنّ مواقف السلام والحنان أَسمى قدراً من قِيَم الجدوى .

على رجل السلام أَن يكون جسراً بين عالم البالغين المندمجين بالمجتمع، وعالم الشباب، لمساعدتهم جميعاً على فهم بعضهم بعضاً، وعلى التعاضد في سبيل صَوْغ عالم أَمثل . على رجل السلام أَن يدرك تطلّعات الشباب الأَكثر عمقاً، ويؤمن بهم ويثق في قدرتهم على تحقيق منجزات رائعة، وعلى لعب دور في عالمنا . وهكذا سيقوى على إِشعال قبس الرجاء الخابي، ومؤازرة الشباب على بلوغ مُثُلهم العليا .

و مساعدة الشباب تقتضي، أَوّلاً، معرفتهم وفهمهم فهماً جيّداً؛ وهذا يعني القدرة على تخطّي مظاهرهم الخارجيّة التي قد تتّسم بالغرابة والعنف، وتخطّي أَقوالهم ومواقفهم المدموغة بالتخاذل، واللامبالاة، والحزن، في سبيل إِدراك دعوتهم الحقيقيّة .

يجب تلمّس أَسباب حزنهم وقلقهم الحقيقيّة، والامتناع عن الحكم عليهم وإِدانتهم، وقسرهم على توجيه حياتهم نحو الاندماج الكامل بالمجتمع كما هو، وفرض قيود الشرائع عليهم، بل الإِنصات إِلى موسيقى كيانهم، واستشعار تطلّعاتهم العميقة .

و هذا يتطلّب من رجل السلام أَن يسير، هو نفسه، نحو الحرّيّة الحقّة، ويتجاوز آراءه المسبقة الخاصّة، وأَلاّ يكون في حاجة إِلى الدفاع، بعدوانيّة، عن معتقداته وأُسلوب عيشه ... وأَلاّ يخشى الاعتراف بحدوده الشخصيّة، وأَلاّ يتحرّج من إِظهارها للآخرين . فمن يخشى إِظهار حقيقة كيانه، بما تنطوي عليه من فقر وأَوهان، سيخاف، دائماً، الآخرين؛ وسيُمثّل دوراً، ويلبس قناعاً، وسيظلّ عاجزاً عن لقاء آخر في حقيقة كيانه . وطالما قامت فيه حواجز الخوف، لن يكون منفتحاً، بالقدر الكافي، بحيث يتقبّل الشباب، ويحبّهم ويفهمهم .

إِنّ الشابّ في حاجة إِلى الشعور بتعاطفٍ صادق وانفتاح عليه، لكي يقوى على التكلّم والبوح .... ولا بدّ من تفهّم حزنه العميق، وإِحباطه، وجنوحه إِلى الانتحار، وما يتعرّض له من غوايات، ومن الصراعات التي يتعيّن عليه خوضها. إِنّه بحاجة إِلى رجالٍ يحملون في صدورهم الصمت والسلام، وقادرين على تقبّل نجاويه وهواجسه، واستيعابها .

بالانفتاح والحدْس النابعين من الحبّ، يجب التمكّن من استشفاف الأَلم المتواري خلف قناع الشابّ الذي غالباً ما يشعر أَنّه منبوذ وعديم الفائدة في عالم صُنِع في معــزلٍ عنـــه، ولا يفسح له مكاناً .

و من الأَهميّة بمكان احترام أَحلام الشابّ في الوحدة الشــاملة، وعـــالَم خـــالٍ مـــن الحروب، ومن أَقسى ما قد يُمنى به الشابّ هو الاستهزاء بأَحلامه، ومحاولة تحطيمها، ودعوته إِلى مواقف " أَكثر واقعيّة " فأَحلامه غاليةٌ عليه .

إِنّ الشابّ بحاجة إِلى الشعور بأَنّ آخرين يفهمون حقّاً أَحلامه وآلامه وخموله وافتقاره إِلى الدافع؛ وهو أَشدّ حاجة إِلى الشعور بأَنّ له قدْراً، وأَنّ لديه ما يقدّمه للآخرين؛ إِنّه بحاجـــة إِلى الشعور بأَنّ الآخرين يثقون به، وبأَحلامه، وبقدرته على إِبداع أَشياء ذات شأن ... وهـــو يتألّم عندما يلحظ أَنّ ذويه لا يقيمون كبير وزن له ولآرائه، ويعاملونه علـــى أَنّـــه صـــغير، بازدراء وخشية، ممّا يجعل الحوار متعذّراً . ولكن عندما هو يؤنس أَنّ، ثمّة، من يُعجب بمُثُله وأَحلامه، ويبدي تأَهُّباً لمساعدته على تحقيقها، يولد لديه الرجاء .

و هذا يفترض أَن يكون رجل السلام على وعيٍ تامّ لازدواجيّة العالَم الذي نعيش فيه : عالم المالكين، الراضين عن ذواتهم، العائشين ضمن دائرة مقتنياتهم وأَصدقائهم المغلقة؛ وعالم البؤساء، الجائعين، المعوّقين، والذين يعانون التفرقة والعنصريّة .

و رجل السلام هو الذي يجلس بين هذين العالمَيْن، ويحرّض الشباب على اقتفاء أَثره، داعياً البائسين إِلى الأَمل والأَغنياء إِلى المشاركة . رجل السلام هذا كفيل بإِدراك ما تنطـــوي عليه تطلّعات الشباب ودعواتهم من قيمة عظمى، وبتبيّن قدرتهم على إِيجـــاد حلـــول جديـــدة لعالمنا، حلول تضع موضع تساؤل تقاليد مجتمعنا وقِيَمه، وتوفّر رجاء حقيقيّاً للبشريّة جمعاء

و هذا يفترض، طبعاً، أَن يكون رجل السلام قد وقف على حقيقة موقعه، وأَلاّ يكون قد أَقام تحالفاً لا مع قوى المال، ولا مع المجتمع المادّيّ والأَنانيّ، ولا مع التقاليد الاجتماعيّة، ولا مع الشباب أَنفسهم في ثوراتهم ومواقفهم السلبيّة: بل ينبغي أَن يكون رجل السلام نفسه قد عثر على حرّيته الداخليّة التي تؤهّله لتوجيه الشباب نحو حلول إِيجابيّة، تقـــرن الطـــابع الســـلميّ بالجدوى في سبيل الظفر بالعدل في العالم؛ ولا يتجلّى ذلك من خلال أَقوال بـــل مـــن خـــلال أُسلوب عيش .

و لكن لا يتسنّى الانفتاح على الآخرين والجاهزيّة لهم، على هذا النحو، في منأىً عن قوّة روح اللّه التي تؤهّل لرؤية كلّ شيء، بحكمة اللّه نفسه . إِنّ الدعوة إِلى الإِخاء الشـــامل، وإِلى اقتسام الخيرات لا تتحقّق إِلاّ بتدخّل مباشر من روح اللّه . ورجل السلام باستسلامه إِلى قوّة الصمت والسلام السرّيّة المتمثّلة في روح اللّه، وبعزوفه عـــن قِـــيَم مجتمعنـــا المادّيّـــة والسطحيّة، يزداد فهماً للدعوة السرّيّة التي تقرع قلوب الكثيرين من الشبّان؛ وعوضـــاً عـــن

التردّي إِلى الحزن في مواجهة العالم الذي يعيش فيه، يفعم الرجاءُ قلبه؛ وسيتحقّق أَنّ الربّ لم يهجر شعبه، وأَنّ المجتمع ليس حكراً على المســتغلّين، والمــرائين، والجهّــال، والعنيفــين، والوقحين والفاسدين، بل أَنّ عهداً جديداً يُعَدّ . لا ريب أَنّ صراعات وآلاماً كثيرة ستنشــب، وسيسود مزيدٌ من الفوضى، قبل أَن ينمو شيء إِيجابيّ حقّاً، وقبل أَن يعترف المجتمع المادّيّ بالخطر الرهيب الكامن في الافتقار إِلى الحبّ، تلك الدودة التي تنهشه من الداخل، وتحول دون كونه مجتمع إِخوة وأَخوات، يتحابّون، من غير حواجز .

إِنّ عصرنا يحمل الكثيرين على الأَمل والعمل . وهناك رجــالٌ وشــبّان، احتفظــوا بالرجاء في الإِخاء الشامل، في إِطار الحبّ وروح اللّه، سيهبّون، يداً بيد، لإِنشــاء جماعــات سلام، ومشاركة وحقيقة، ستكون الأَساس الذي ستنهض عليه، بقدرة الروح الالهيّ، جماعــة بشــــــر ودول تعــــــيش فـــــــي الســــــلام والحــــــبّ .

من الأَهميّة بمكان أَن نشهد قوماً يملؤهم الروح القدس، يحملون رجاءً، ويعملون ... بل يندفعون إِلى العمل . لا يقرّون أَبداً بهزيمتهم أَمام اليأس وتصاعد المظالم، واللامبالاة، والمادّيّة، والعنف . وغالباً ما لا يملك أُولئك الذين يحدوهم الروح القدس سوى القليل من الوسائل والمال، بيد أَنّ قلبهم مفعم رجاءً . الأُمّ تيريزا لا تملك شيئاً، سوى كيانها، ومنعة حبّها، وثقتها في الروح القدس، وديناميّة نابعة من العطش إِلى العدل ومن اتّحادها بيسوع . ولكن لديها، أَيضاً،أَوهانها، وحدودها، ومشاكلها، وتعبها، ومع ذلك لا تني تدأب في سبيل محتضري العالم أَجمع .

الولوج إِلى عالَم الشقاء يمرّ عبر مراحل :

إِذ ينبغي أَن تتوقّف أَمام البائس، وتحدّق فيه، وتنصت إِليه، وأَخيراً أَن تلمسه .

إِنّ بؤس البائس ينبع من شعوره بأَنّه وحيد، عديم الشأن، عديم الجدوى،

و هو يحتاج إِلى استعادة طعم الحياة والرجاء،

و هذا الطعم يأتيه من خلال نظرتي، وإِصغائي، ولمستي،

و عندما أَلتزم نحوه، يكتشف فيّ صديقاً، وأَخاً محبّاً .

لكن ينبغي أَن يكون التزامي كاملاً،

فالطبيب المعالج، والمربّي، وكلّ من يبتغي مساعدة آخر على أَن ينتظم ويعيش حياة داخليّة، هؤلاء لا يحقّ لهم أَن يحسبوا لوقتهم حساباً، بل يتحتّم أَن يكون عطاؤهم غير مشروط .

و لئن أَنا دنوت من تلك المرأة البائسة، وأَصغيت إِليها،

و اطَّلعت على أَسماء أَبنائها، وعلى ماضيها وحاضر حياتها،

لتعذّر عليّ أَن أَظلّ آكل كما أَلِفت أَن آكل من قبل،

و لتعذّرت عليّ رؤية البذخ والهدر .

إِن أَنا أَحببتُ حقّاً، وتعاطفتُ، واهتممتُ

لتعيّن عليّ تغيير نمط عيشي .

و إِن أَنا انفتحت على احتياجات الغير، وآلامهم،

لانتظمت حياتي على نحوٍ آخر، ولتغيّرت،

و لترتّبت عليّ مقتضيات تثير خشيتي .

أَليس حبّ الفقير خَطِراً ؟ فقد يقودنا إِلى حيث لا ندري

إِنّ التواصل لمخيف !

التواصل يقتضي أَن نحترم الآخر، ونتوغّل في ثقافته لا أَن نعكس عليه ثقافتنا . إِنّنا نحكم على الآخرين، ولكأنّهم نحن، عوضاً عن الإِصغاء إِلى لغتهم، واستبيان حاجاتهم، وعالَمهم الخاصّ .

يقدم، أَحياناً، إِلى " السفينة " قومٌ دامعو العيون، ويعرضون علينا أَلبسة، وأَدوات منزليّة وأَجهزة راديو قائلين : " إِنّها لم تعد في حالةٍ جيّدة، ... ولا تعمل... إِنّها مهترئة، محطّمة، ولكنّها، بلا شكّ، قد تفيد المعاقين وتسعدهم....".

و قد قال لي، يوماً، شخصٌ ميسور : " لديّ خمسة أَزواج جوارب، مثقوبة، ولكنّها قد تكون مفيدة لهم . " فأَجبته أَنّني، أَنا، نفسي، في حاجة إِلى زوجٍ من الجوارب، وتساءلت : " أَلن أَشعر بالبرد وأَنا انتعل هذه الجوارب المثقوبة ؟ " فلم يرُقْ له تهكّمي .

علامَ يُراد إِعطاء أَشياء معطوبة أَو مهترئة للمعوقين، وهم الأَحوج إِلى المتاع الجيّد ؟ أَلا تظهر هذه المواقف كم هو صفيقٌ الجدار الذي يفصل القوم الميسورين عن الأُناس المجروحين والحزانى، ويُبعدهم عنهم ؟

لقد أَصبح " الغنيّ " غنيّاً لأَنّه لم يعرف العطاء، وجهل المشاركة، فلو شارك لما اغتنى . من يسجن نفسه في عالم الدفاع عن الذات والكبرياء لن يعرف إِلى ملكوت المشاركة سبيلاً، فمفتاح هذا الملكوت الوحيد هو الانفتاح : فتح الذراعيْن، والعينيْن، والقلب؛ ولا بدْعَ في ذلك فملكوت اللّه هو مكان اللقاء، والتواصل، والسلام، والعطاء .

أَمام يسوع وملكوته يعترينا الارتباك لأَنّنا عاجزون عن هجر الأَمان البشريّ في سبيل اتّباعه، رغم مناداته لكلّ منّا : " اتبعني "، لا تخفْ "، "تخلّ عن كلّ شيء، وبع كلّ ما تملك وصرْ معي نبيّ سلام". ولكنّنا أَغنياء، وبعيدون عنه جدّاً ... غائصون في الحمأة حتّى رُكبنا، بل حتّى عنقنا، فلا نقوى على النهوض والانطلاق، وعلى اتّباع يسوع، ممّا يوقعنا في الحزن والقنوط .

إِنّه لمرهقٌ أَن يقف المرء أَمام ذاته، ورداءته، وجبنه، ومخاوفه، وضعفه، ولا سيّما عندما تراود قلبَه تطلّعاتٌ إِلى السلام، والحبّ الشامل، والنضال من أَجل العدل .

و إِنّه لباهظٌ الشعور بكلّ وقْر الحمأة والركاكة اللتين تحولان دون تحرّكنا .

لن تُكتَب للعالم الحياة، ولن يكون في مأمن من تفجّر براكين الحقد والموت، إِلاّ عندما يشرع الناس يتصدّون لجدران الخوف التي لا تُحصى، والتي تفرّق البشر. ولن يعيش العالم في سلام إِلاّ بقدر ما ننفتح، جميعنا، على المشاركة، واستقبال الآخرين، ولا سيّما البائسين، لكي نجعل، من العالَميْن المنفصليْن ملكوتَ إِخاءٍ وحبّ .

هذا ما عبّر عنه " رينيه دومال " بقوله :

إِنّني ميّت لأَنّ الرغبة ماتت فيّ،

و الرغبة ماتت لاعتقادي بأنّني أَمتلك،
و أَعتقد أنّني أَمتلك لأنّني لا أُحاول العطاء،
فمن يحاول العطاء يتبيّن أنّه لا يملك شيئاً،
و بتبيّنه أنّه لا يملك شيئاً يحاول العطاء،
و بمحاولته العطاء، يتبيّن أنّه لا شيء،
و بتبيّنه أنّه لا شيء، يرغب في أَن يصير،
و برغبته في أَن يصير، يحيا . "

لقد شاء يسوع أَن يكون أَوّلَ نزلاء ملكوته لصٌّ مصلوب إِلى جانبه : سارقٌ، مشرّد، سجين، عارُ البشريّة الراقية، مع أَنّ ذلك اللصّ لم يفعل سوى النهج وفق منطق حياته المضطربة؛ إِنّني أَظنّ أَنّ أُسرته، سواء كانت غنيّة أَو فقيرة، كانت ممزّقة، وأَنّ فترة حداثته قد خوت من الحبّ؛ وقد انزلق من الحزن إِلى الجنوح، ومن الجنوح إِلى الجريمة .

ومع ذلك كانت تختبئ في أَعماق قلبه براءة طفل، وبذرة سلام لم تجد التربة الملائمة لنموّها وإِثمارها، ... براءة وسلام كامنان، مطموران وراء جدار من الخوف، والإِحباط، والعنف ... بذرة السلام لم تكن من المنعة بحيث تقاوم الأَعشاب الضارّة والعنف، ولم تستطع أَن تتفتّح زهورَ فرح وحبّ . ولم يبقَ لذلك الرجل الخائب سوى درب ازدراء العالم ونبذه، فضاع في دائرة السرقة، والقتل، والإِدانة . ومع ذلك، في أَعماق قلبه، كان يحمل البراءة .

من الأَهميّة بمكان أَن نعرف كيف نقرأ، في حلكة الظلمات، رسالة نور يسوع، لكي نعثر على البذار الذي سينبعث في الربيع . ولذلك لا بدّ من أَن نرى غابَ عالَمنا، بما ينطوي عليه من انقسامات، وأَحقاد، ويأس، وأَن نرى، في آنٍ واحد، يسوع الذي، بحياته، وأَعماله، وأَقواله، وبجسده قد هدانا إِلى طريق الولادة الجديدة والرجاء .

عندما أُصادف أَشخاصاً يحدوهم الروح ويقطنون مع يسوع وفقرائه، ويحترمونهم، ويتمثّلون بهم، ويعتنقون نمط عيشهم، أَتحقّق من أَنّ الربّ خطب البشر لنفسه . ربّما هذا السلام الإِلهيّ لم يمسّ الجميع، بعد، ولكنّ الجميع مدعوّون إِليه . تخطر ببالي أَخوات يسوع الصغيرات القاطنات في قرى صفيح الفيتنام وأَميركا الجنوبيّة، وفي أَماكن أُخرى، واللواتي اخترنَ عيشة الفقر لكي يكنّ على مقربة من الصغار والفقراء . لقد ابتغينَ العيش إِلى جانب المصلوب لكي يمكثنَ على مقربة من المصلوبين . أُولئك الأَخوات الصغيرات، وكثيرات من مثيلاتهنّ، هنّ الدليل على تجسّد الكلمة، وإِقامته فيما بيننا، فقيراً بين ظهراني فقراء، داعياً إِيّانا إِلى الخطوبة الإِلهيّة، وإِلى الاحتفال بأَعراس الحَمَل .

لن يحلّ السلام على الأَرض إِلاّ بمقدار ما يرتضي البعض، حقّاً، أَن يكرّسوا ذواتهم لخدمة الآخرين، لا بصفتهم حكماء، وأَقوياء، وعظماء، بل بصفة خدّام متواضعين , إِخوة يعيشون معهم .

و قد تبدو هذه المشاركة المقرونة بالتواضع، واقتسام الحياة مع الفقراء، نافلَيْن لا طائل منهما، تماماً كما بدا صليب المسيح وموته . ومع ذلك، ففي اللحظة التي مات فيها يسوع، هاتفاً أَنّ كلّ شيء قد تمّ، انشقّ حجاب الهيكل، وتعانق اللّه والبشر .

لقد مات يسوع لكي نمتلك الروح، وأَرسل لنا روح الحرّيّة والحقيقة لكي نعيش حرّيّة أَبناء اللّه المجيدة . نحن لم نُخلق لكي نخضع لشريعة خوفٍ مفروضةٍ من الخارج، ولذلك غالباً ما نرفضها؛ ولم نُخلَق من أَجل تقاليد اجتماعيّة (مع أَنّنا، للأَسف، سرعان ما نخترع تقاليد أُخرى) .

إِنّ يسوع يطالبنا بالمضيّ إِلى الأَمام حتّى وسط حلك الظلمة .

و إِن نحن سأَلنا الروح القدس أَن يأتينا، فعلينا أَن نتقبّله بشروطه هو، وأَن نتحوّل به، وأَن نسير معه؛ علينا أَن نسأله المجيء لا بالأَقوال فحسب، بل بكلّ كياننا .

و عندما يأتينا الروح، يشرع ببثّنا عطشاً، هو بداية كلّ شيء . وعندما نرغب بشدّة في أَمر ما، علينا أَن نسير نحوه، فالروح لا يلقمنا كلّ شيء بملعقة صغيرة؛ إِنّه يهبنا الرغبة، ويدعونا إِلى بذل قسطنا، وعلينا أَن نسير .

الانتقال من ثقافة الأَنانيّة إِلى ثقافة الروح يقتضي ضروباً عديدة من التمزّق والموت؛ يقتضي الانسلاخ عن عالم الكبرياء، والمتعة، والخطيئة، للدخول في ملكوت الحبّ والنور .

و في سبيل ذلك، لدينا إِشارات، وقناعات . إِننّا نعرف أَين هو النور، وأَين نبحث عنه في أَغوار كياننا . فلو ارتضى كلٌّ منّا أَن يتوقّف، ويضع نفسه في حضور يسوع، في الصمت (فصمت كياننا ينبغي أَن يكون هو البداية)، يتبيّن، حينئذٍ، أَيّ سبيل عليه انتهاجه، ولكنّنا، غالباً ما نرفض التوقّف، ولا نصغي، ونحول دون تجسدّ كلمة اللّه فينا . لدينا موسى والأَنبياء، ولدينا يسوع، ولكنّنا لا نصغي إِليهم . عندما يخيّم علينا، ولو قليلاً، سلام اللّه، ونقف في حضور يسوع فمن النادر أَلاّ نعلم ما الذي يبتغي منّا في الوقت الراهن، ولو في خطوطه الكبرى . معضلتنا تكمن في توقُّفنا، والتماسنا بقلبٍ نقيّ، ثمّ وضعنا موضع التنفيذ ما شعرنا – إِثر لحظات السلام – أَنّ علينا القيام به . معضلتنا هي افتقارنا إِلى العزيمة والإِرادة والرغبة . لا نبحثنّ عن السهولة، بل فلنلتمس الروح القدس .

الحياة المسيحيّة تحاكي دائرة، وتحاكي نبعاً متدفّقاً،
تسري مياهه، وتدور، وتعود إِلى التدفّق باستمرار .
نعطي ما نتلقّاه، ونتلقّى ما نعطي،

يُغفر لنا إِن نحن غفرنا،
و نُحَبّ إِن نحن أَحببنا .

مهمّتنا دعوة الفقراء إِلى الرجاء،
و دعوة الأَغنياء إِلى فرح المشاركة .

" يسوع، عطيّة الحبّ "

Jesus , le don de l'amour
(ed . Fleurus . Bellarmin 1994)

هذا الكتاب:

كتب جان فانييه، في إِهدائه:

" أُهدي هذا الكتاب إِلى جميع الذين هم، مثلي،

عطاش إِلى حياة، ومعنىً للوجود، وتحرّر داخليّ،

الراغبين في السير على خطى يسوع، والعيش على غراره،

تحت قيادة الآب، ووفق إِلهامه .

أُهديه لمن ينشدون السلام، والحبّ، والحقّ،

سواء إِن هم كانوا تلاميذه ليسوع، أو لم يكونوا " .

لم يكن يسوع مجرّد مؤسّس ديانة لها طقوسها وتعاليمها الخاصّة، بل إِنّه، بموته وقيامته، أَوجد شراكة حبٍّ خالدة تربط البشر فيما بينهم، وتربطهم باللّه، فلا يترتّب عليهم سوى تقبّل "يسوع، عطيّة الحبّ " .

وفقاً للقدّيس بولس، ولمقتفي خطاه، معرفة اللّه هي كلّ شيء، وكلّ ما سواها عديم الشأن . غير أَنّ المعرفة المقصودة ليست معرفة عقليّة تُكتسب بالبحث المستفيض، بل هي تلك التي تنشأ عن العيش مع يسوع، وفيه . وجان فانييه يتحدَّث، في هذا الكتاب، انطلاقاً من الخبرة التي اكتسبها من هذه المعايشة مع يسوع، عبر معايشته إِخوته الصغار، والجرحى، والمسحوقين، والتي ما انفكّ يمعن توغُّلاُ فيها، يوماً إِثر يوم .

إِنّ المعاقين الذين لا يجيدون التعبير إِلاّ من خلال نظرة، أو لمسة، أو صمت، أو مجرّد حضور، يهيبون بمن يعيش معهم إِلى التغلّب على أوهانه، وإِعاقته الداخليّة، وإِلى استنباط كلّ طاقات الحبّ التي أودعها فيهم من أبدعهم على صورته ومثاله .

لقد أظهر جان فانييه، ببساطة وعمق، أَنّ قدرة اللّه تتجلّى من خلال ضعف يسوع الإِنسان، القادر على تحويل، جميع الأوهان البشريّة إِلى قدرات حبٍّ وسلام .

لقد تخلّى جان فانييه عن مهنته، وجاهه، وثروته، لكي يكون تلميذاً وفيّاً ليسوع، ومنه تعلّم أَسرار اللّه، وأَسرار الكون . وقد انقلب عطشه إِلى حبّ يسوع عطشاً إِلى حبّ جميع البشر، كما هم، بما ينطوون عليه من حرمانٍ، وشروخٍ، وأَقنعةٍ، وأَجهزة دفاع، وأَيضاً، بكلّ ما يتحلّى فيهم من جمال .

و قد وضع هذا الكتاب لكي يعلن حبّ يسوع، وقدرته على شفاء الجميع، حتّى الذين لا يعرفونه، أو يتنكّرون له . ولكي ينبئ بطيبة اللّه الجمّة، اللامحدودة، التي تحرّرنا من مخاوفنا، وكبريائنا، وأَنانيّتنا؛ ولكي يشيد بحبّه الذي ينعش ويزعج .

هذا الكتاب نشيدٌ ليسوع، نشيدٌ لحبّه، وعطفه، وتواضعه، وإِيثاره للصغار والمنبوذين، وكذلك لإِزعاجه، واقتضائه، وتحدّيه لمفاهيم العالم، وغضبه على الظالمين .

إِنّه يعلن وجه اللّه الحقّ، إِله حبٍّ، وحقيقةٍ، ونور، ويشرع ملكوته للأَطفال، والبسطاء، والمسحوقين، للفقراء، والضعفاء، والمتواضعين، الذين لا ثقة لهم إِلاّ فيه، ولا سند لهم سواه .

يسوع معلّم الحبّ المستحيل، حبّ الأَعداء، والمبغضين، ومشـرّع نهـج اللاعنـف والصفح، والمصالحة، نهج الترحيب بالمختلفين عنّا، والالتزام المطلق بالفقراء، والتشبّه بهم .

يسوع علّم بمثال حياته، أكثر ممّا علّم بأَقواله . " الحقيقة والنور كانا يشعّان منه . ولم يكن يطيق كذباً ولا رياءً؛ ولا استخدام اسم اللّه من أَجل الاستيلاء على الثورة والسـلطان " . وبمعايشته لتلاميذه ثقّفهم، ولطالما فاجأهم بما كان يقتضيه منهم .

لم يكن تعليمه أسير آراء مسبقة وشرائع، ولا كان منقطعاً عـن الطبيعـة، وجمالهـا وخصبها . كان جذّاباً، ولكنّه كان، أَيضاً، مزعجاً، والأَغنياء هم أَكثر من أزعجهم الأَغنيـاء الذين وضعوا كلّ ثقتهم بأَموالهم، وأَبوا التنازل عن شيءٍ منها لإِشباع جـائع، وسـدّ عَـوَز محتاج، الذين سجنوا ذواتهم وراء ممتلكاتهم، وبيئتهم الراقية، وترفعوا حتّى عن النظر إِلـى العامّة، واطمأَنّوا إِلى من يداهنهم، ويتزلّف إِليهم .

و كان يزعج، أَيضاً، الفقراء الذين يحسدون الأَغنياء، ولا يتطلّعون إِلاّ إِلى الاغتنـاء بأَيّة وسيلة؛

و يزعج الذين يدعوهم إِلى التخلّي عن كلّ شيء في سبيل اتّباعه؛

و يزعج الذين يهيب بهم أَن يضعوا ثقتهم كلّها في اللّه،

و الذين يقدّم لهم جسده خبر حياة، ودمه شراب خلود .

حتّى تلاميذه المقرّبون الذين عاش معهم ثلاث سنوات، هجروه، وتنكّرو لـه، عنـدما امتُهن، وصُلب، ولكأَنّهم لم يفهموا شيئاً ممّا علّمهم .

و لكنّه، بموته، أَحياناً .

و حتّى في قيامته التزم التواضع والكتمان، وكان قادراً على زلزلة الدينا، ولكنّه جعل من تلاميذه الجبناء أَبطالاً، لم يحجموا عن الاستشهاد في سبيل نشر رسالة حبّه؛ وبقيامته افتتح عهداً جديداً، عهد تحرّر، ومحبّة، وخدمة، يغمره الروح القدس .

و بات الأَكبر يغسل رجلي الأَصغر، وغدت القوّة تتجلّى من خلال الضعف، وأمسـى الحبّ عطاءً مجّانيّاً، ومكان نشوة وتواصل، وعذابٍ وصلْبٍ، في آنٍ واحد .

و أَضحى الفقير سرّ يسوع القدسيّ، ومكان إِقامته،

والحجر الذي رذله البنّاؤون غدا حجر زاوية بناء اللّه الجديد .

و صار للألم بعدٌ جديد، بعد أَن مضى يسوع إِلى آخر شوط الأَلم، والنبـذ المطلـق، وحتّى أَقصى تخوم الحبّ، وأَضحى معين ماءٍ يُحيي كلّ من ينهل منه

إِنّ يسوع التاريخ الذي اعتلن لتلاميذه، ومن خلال الأَناجيل، هو نفسه يعتلن لشـهود حبّه، ولقلوبنا، بالروح القدس، إِنّه يسوع الحيّ أَبداً.

يسوع هو، هو، أَمسِ واليوم

يسوع إِنسان مغرق في التواضع، يحبّ البشر، ومع ذلك يزعجهم .

لست أَرى تعارضاً بين يسوع الحيّ اليوم، ويسوع التاريخ، المعتلن في الزمن وفي الأَناجيل، والمعتلن، خاصّة، من خلال من كانوا شهود حياته، وحبّه؛ إِنّه واحد، وهو هو، عينه .

إِن كنّا نحبّه، فجميع أَفعاله وأَقواله الماضية ما زالت جوهريّة، مثلما هو جوهريّ كلّ ما يعلنه اليوم لقلوبنا، بالروح القدس، وكلّ ما أَعلنه للكنيسة، عبر التاريخ، فهو واحد، وهو يسوع الحيّ عينه .

يوم أَعلن يسوع في المجتمع : " اليوم تمّت هذه النبوءة "، أَعلن رؤيته وبرنامجه :
فالروح أَرسله، أَوّلاً، لا إِلى الكتبة والفرّيسيّين، ولا إِلى الأَغنياء والطبقة الحاكمة، ولا نحو القابضين على مقاليد السلطة والمعرفة، بل إِلى الصغار، والمعتلّين، والفقراء، والمسحوقين والمتألّمين، الذين لا صوت لهم؛ العاجزين عن اتّباع الشريعة، والشاعرين بأَنّهم تائهون، جميع المنبوذين من هيكل أورشليم، ولكأَنّهم منبوذون من اللّه، وجميع الذين يغمرهم العار والاضطراب، والذين يشعرون أَنّهم أَسرى ذنوبهم .

إِلى هؤلاء يعلن البشرى : فلينبذوا الخوف لأَنّ اللّه قريب منهم؛ إِنّه إِلهٌ يفهم ويصفح، ويحبّهم لأَنّ لهم قَدْراً ولأَنّهم ثمينون . هذه هي البشرى : إِنّهم محبوبو اللّه، ومختاروه، وأَمامهم الرجاء مفسوح .

لقد حقّق هذه النبوءة : فدخل إِلى أَماكن تحظر الشريعة اليهوديّة الدخول إِليها، وتناول الطعام مع خطأة وجابي مكوس، ولمَسَ البُرْص وشفاهم، معلناً أَنّ النجسين في نظر الشريعة طاهرون في عيني الربّ .

و خلافاً ليوحنّا الذي كان يعمّد الجموع القادمة إِليه، كان يسوع يمضي باحثاً عن النجسين، والمنبوذين، مثل راعٍ يبحث عن النعاج التائهة؛ وكشف لهم عن جليل شأنهم، فلقي كثيرون الشفاء، واستعاد كثيرون الثقة بذاتهم .

يسوع يشفي

يقول الإِنجيل أَنّ يسوع كان يتحنّن على المرضى . والحنان عاطفة عميقـة الغـور تخضّ الأَحشاء . لقد كان يسوع يعاني في جسده وفي عاطفته، من جرّاء أَلم الآخرين؛ وكان قلبه ينزف حيال الفقراء، والمنبوذين، والمهجورين والمسحوقين، الذين وضعوا فيـه ثقـتهم، وتاهوا مثل نعاج لا راعيَ لها . كان يتأَلّم، وما زال يتأَلّم، مع جميع من يعانون، أَيّـة كانـت طبقتهم الاجتماعيّة، أو انتماؤهم الدينيّ، أو جنسيّتهم .

فيه شيء لا يطيق الرياء، ولا الظلم الجائر نحو الصـغار، والمعتلّـين، والمرضـى المحتاجين، الذين يشلّ قلبهم الشعور بالذنب والعار، والذين يسحقهم من يدّعون تمثيل اللّه من كهنة وعلماء متدرّعين بثروتهم وسلطتهم .

و قد يعني حنان يسوع سَوْرة غضب حيال امتهان الصغار .

لقد كان يسوع رجل علاقات وتواصل، ينشـد اتّصـالاتٍ مباشـرة، يلمـس القـوم، ويصافحهم، ويدعو كلّ فرد إِلى الثقة والإِيمان؛ ينظر إِلى كلّ فرد، ويحبّه، بكلّ أَلمه وفقـره، معلناً له عن جماله، وعن حبّ اللّه له .

قلبه مشرع على جميع المعانين، والشاعرين بالذنب، المتعطّشين إِلى الحياة، والحبّ، والاستقبال . وهو يودّ أَن يشفي، وينقذ، ويحرّر، ويهب الراحة، ويتيح لكلّ فرد أَن يـنهض، ويرى، ويسمع، ويحبّ، بفضل الإِيمان .

الخطيئة

الخطيئة هي بتر علاقة حبّ، بتر عهدٍ وثقة .
هي قول " لا " للّه ولمرامي حبّه، والانصراف عن يسوع :
" لست أُريدك "، ولا أُريد خلاصك، ووعودك، وحبّك،
بل أَودّ أَن أَفعل ما أَفعل، بنفسي، وعلى طريقتي .
الخطيئة هي مناهضة الحبّ والتواصل،
هي احتلال مكان اللّه، ورفض الخضوع للحقيقة، ونفي الواقع، والعيش في أَحضان الكذب .
الخطيئة هي تدمير الحياة، ونشدان الموت، وتحطيم هيكل اللّه في الآخر،
تحطيم الضعفاء والفقراء، وعدم الإِصغاء لندائهم، ولنداء الذات العميق،
و إِغفال ما في الذات من هشاشة؛
هي رفض العطاء، ورفض الإيمان بالذات، و بالقدرة على استضافة الحبّ .

يسوع يعلن وجه الآب

لقد جاء يسوع لكي يعلن، لكلٍّ منّا، وجه الآب، أَبيه،
وجه حبّ، وعطف، وغفران .
كثيرون هم سجناء صُوَر زائفة للّه،
تصوّره إِله غضب، قاضياً يراقب الناس، متأَهّباً دائماً للانقضاض عليهم كي يعاقبهم؛
إِله الشريعة المهتمّ، قبل كلّ شيء، بالطقوس والاحتفالات،
و الأَضاحي والغسول، وبالمسموح والمحظور عمله أَيّام السبت؛
أَو إِله محايد، بعيد، لا يكترث لمعاناة البشر وآلامهم،

يسوع جاء ليعلن وجه اللّه الحقّ،
إِله حبّ، وحقيقة، ونور،
شغوف بالبشر كما هم، وكلٌّ منهم في نظره فريد؛
إِله يحبّ كلّ فرد مهما بلغ من صِغَر ووضاعة؛
إِله يُعنى بكلّ فرد، في جماله، وفقره، وشروخه،
في شعوره بالعار والوهن؛
إِله الحياة، الذي يرى كلّ حياة بشريّة ثمينة .
لقد تجسّد الكلمة لكي يعلن الآب .
ما من نبيّ فعل، قطّ، ما فعله يسوع :
فقد كان يدعو اللّه " أَبي "، لا بل " أَبتاه "، " بابا " .
من الواضح أَنّه يحبّ الآب، وأَنّ الآب يحبّه، وأَنّ بينهما حميميّة عميقة، وتواصلاً،
كلٌّ يهب الآخر ذاته، معاً، ومنذ الأَزل، أَحدهما في الآخر، أَحدهما للآخر، وكلاهمـــا متساويان تساوياً تامّاً .

الملكوت الخفيّ

لقد جاء يسوع لكي يعلن شيئاً جديداً تماماً، يعسر إدراكه،
ليس ملكوتاً خارجيّاً فيه ملك ظاهر وقويّ، محاطٌ بوزراء ومدراء مؤهّلين،
بل هو ملكوت لا يُرى إلاّ بعيون القلب والإيمان،
مفرط الصِغَر مثل حبّة خردل، وخفيّ مثل الخميرة في العجين :
بيد أنّ تلك الحبّة وهذه الخميرة ينطويان على قوّة سرّيّة :
ففي البذرة تكمن نبتة جسيمة مهيّأة لتصبح شجرة،
و في الخميرة قوّة تخمير العجين .
هذا الملكوت ليس مُلكاً للعظماء والأقوياء، المتمترسين خلف حصون علمهم وسلطتهم،
بل ملك من يحاكون الأطفال، ويملكون بساطتهم، وثقتهم، وانفتاحهم .
هذا الملكوت هو عالم جديد، وموطن حبّ يقتضي ولوجُه تحوّلاً، وولادةً جديدة .
إنّ ملكوت اللّه هو للفقراء، والضعفاء، والمتواضعين والصغار .
و إنّه لأيسر أن يعبر جملٌ من سمّ إبرة من أن يلج غنيّ هذا الملكوت .
و الأغنياء، وفق تعريف الكتاب المقدّس، هم سجناء مقتنياتهم :
من صحّة، ومعرفة، وعقائد، وسلطة، ورضى عن الذات؛
فيها يضعون ثقتهم وأمانهم،
في حين أنّ الفقراء، فقراء القلب، المجرّدين من كلّ تأمين بشريّ،
يضعون ثقتهم في اللّه .
الملكوت هو حيث الفقراء، والصغار، والأطفال مكرّمون،
لا عظماء الأرض، ونجومها، وأبطالها؛
الملكوت يحاكي كنزاً مخبأً في حقل، حقل القلب البشريّ، وفي سبيله يُبذَل كلّ شيء؛
هذا الكنز يوفّر حرّيّة داخليّة، وسلاماً وفرحاً مجهولين يصعب تخيّلهما؛
و شيئاً قشيباً، كلّ القشابة، يستأهل أن يُهجَر كلّ شيء بغية الظفر به .
إنّ الملكوت عطيّة، عطيّة اللّه .
إنّه عطيّة اللّه لمن يرغبون فيه، ويتعطّشون إليه، ويصرخون بتواضع معلنين ثقتهم بيسوع .
إنّه لمن يلتمسونه، على أن يلتمسوه مثل أطفال، برغبةٍ عارمة .
لقد جاء يسوع كي يدخلنا إلى ملكوت الحبّ الخفيّ،
ملكوت ماثل، هنا والآن، لا في قصور ومتاحف،

بل في قلوب الفقراء والمتواضعين،
في صميم عزلتنا، وفي الطفل المختبئ في كلٍّ منّا .
إِنّه في أَماكن لم نتوقّع وجوده فيها، في مطارح الأَلم، في السجون، والأَكواخ، والمشافي،
و بين منبوذي عالمنا.
إِنّه بين ظهراني جميع المحطّمين، والمرفوضين،
و جميع من هم، اليوم، عراة، ومصلوبون .
إِنّ ملكوت اللّه، الكامن اليوم في مطارح النبذ والتحطّم،
سيعتلن يوماً بكلّ ملئه،
وليمة أعراس أَبديّة، ملكوتاً متأَلّقاً بكلّ مجده،
أَكثر تأَلّقاً من الشمس؛
بل إِنّه سيصبح منبع النور، حيث لن يبقى للشمس مكان .

رؤية يسوع

في قلب يسوع رؤية عن البشريّة،
بشريّة ليست محكومة ومنظّمة وفق تراتبيّة هرميّة،
يحتلّ قمّتها ذوو السلطان، والأَغنياء، والوجهاء،
و يقبع في قاعدتها العبيد والهامشيّون، والقوم المسحوقون والوضعاء؛
بل بشريّة تؤلّف جسماً واحداً مرتكزاً على الأَشدّ ضعفاً،
يوحّد التواصل جميع أَعضائها،
و يُكرَّم فيها كلّ فرد، ولا سيّما الأَكثر وهناً .
رغبته هي تحويل البشريّة إِلى جسدٍ محبّ .
و هو يؤثر الأَكثر فقراً، فهم حجر زاوية هذا البناء الجديد .
و في سبيل إِحلال هذا الملكوت، بل مدينة الحبّ هذه،
تقرّب يسوع من جميع الأَوساط،
و تخطّى جميع حدود البلدان والثقافات، والأَجناس والأَديان،
لكي يلتقي البشر ويحبّهم .
إِنّ رسالة يسوع هي رسالة حبٍّ شامل : فكلّ إِنسان هو لي أَخٌ أو أُخت،
و الغرباء والمختلفون هم، أَيضاً، أَبناء اللّه .
فعلى الناس الإِقلاع عن الانغلاق على أَنفسهم،
خلف حواجز تقيهم من الأَلم، والواقع، والآخرين،
فهم مدعوّون إِلى إِشراع قلوبهم على مصاريعها لرؤية البشريّة الجديدة هذه، رؤية الوحدة .
لقد انغلقت البشريّة في جماعات، محاطة بحواجز مادّية، وثقافيّة، ونفسيّة،
مع جيوش تحميها، أو تهاجم لكي تتوسّع، وتستولي على مزيد من الأَراضي والثروات .
و بات لكلّ جماعة ثقافتها، ولغتها، ودينها،
و عدّ كلٌّ منها ذاته الأَفضل، محتقِراً الآخرين، أو متوجّساً منهم خشية .
و قد جاء يسوع ليدكّ هذه الحواجز، التي تحمي الجماعات،
و لكي يمنح البشر هويّة جديدة؛
جاء ليجمع شمل البشر أَجمعين في الوحدة، عبر جسده، وفيه .
بيد أَنّ هذه الوحدة ليست انصهاراً، ولا تطابقاً .

فكلّ فرد مختلف، وفريد، ولديه موهبة يقتسمها من أَجل بناء الملكوت وجسد البشريّة .
في الجسد البشريّ، أَعضاء كثيرة، يختلف بعضها عن بعض،
و لكنّها في جسد واحد : هذه هي الوحدة في الاختلاف .
لن يتحقّق ملكوت اللّه بالبغض والعنف،
" فاللذين يأخذون بالسيف، بالسيف يهلكون "،
بل بميلادٍ جديد لكلّ فرد في الحبّ، ونفحة الروح القدس،
و بنفاذ النور إِلى الظلمات وتحويلها .
سيتحقّق لكلّ فرد تحوّل، وتغيير في القلب والتوجّه،
فيُقبل على انتهاج طريق اللاأَمان والتواضع،
و يولي يسوع الثقة كلّها، ويعتنق الفقر،
و يقتسم الممتلكات والسلطان .
سيتحقّق الملكوت، من خلال الصفح والمصالحة،
و التزامٍ مطلق نحو الفقراء،
بالجلوس على مائدتهم، وإِنشاء جماعة معهم .
سيتحقّق من خلال الالتزام بالنور والحقيقة .
يسوع يدعو أَتباعه إِلى المستحيل :
" أَحبّوا أَعداءكم، أَحسنوا إِلى مبغضيكم،
باركوا لاعنيكم، وصلّوا لأَجل مضطهديكم "
ذلكم هو الحبّ المستحيل الذي جاء يسوع يعلنه للبشريّة السائرة نحو وحدتها.
هذا السراط، سراط اللاعنف، والصفح والمصالحة،
سراط الترحيب بالمختلفين عنّا، والالتزام المطلق بالفقراء، والتمثّل بهم؛
هذا السراط هبة من الروح القدس، من شأنه دكّ أُسس المجتمعات المنغلقة على ذاتها،
و ديكتاتوريّات الشيوعيّة الصلبة، والرأسماليّة الجامحة .
إِنّه قوّة جديدة سيهبها يسوع في الحبّ،
ستحوّل البغض إِلى صفح، والأَعداء إِلى أَصدقاء .
و قد يستغرق هذا التحوّل وقتاً، فالملكوت ينمو رويداً رويداً مثل بذرة،
و هو مبنيّ على الحبّ والتواصل .
و لكن، في قلب كلٍّ منّا مقاومة عنيدة ليسوع وللملكوت .

جاذب يسوع

لم يكن القوم يتأَثّرون بأَقواله فحسب، بل كانوا أَشدّ تأَثّراً بأُسلوب عيشه،
و بالإِشعاع والحبّ المنبعثَيْن منه.
كان منزّهاً من كلّ رياء، ومن كلّ رسالة مزدوجة،
و لم يكن أَيّ تباين بين أَقواله وأَفعاله،
فقد كانت أَقواله تنبع من حياته، وليس من ذهنه فحسب .
لم يكن يأبه للآراء السائدة وللمؤسَّسات،
بل كان معنيّاً بالأَشخاص، وبكلّ فرد .
كان يبحث دائماً عن المتأَلّمين،
و القوم يأتونه من بعيد كي ينالوا الشفاء من كلّ أَسقامهم .
كان ينطوي على جمٍّ من العطف، والطيبة، والعذوبة،
و لكنّه كان، أَيضاً، كثير الاقتضاء .
الحقيقة والنور كانا يشعّان منه، ولم يكن يطيق لا كذباً ولا رياءً،
و لا استخدام اسم اللّه من أَجل الاستيلاء على الثروة والسلطان .
في قانا الجليل، وفي أَثناء مأدبة عرس أسرتين فقيرتين، حوّل كميّة كبيرة من الماء إِلى خمر عذب المذاق،
لكي يجنّب أُولئك القوم المتواضعين المهانة،
و أَيضاً لكي يعلن أَنّ ملكوت اللّه يحاكي مأدبة عرس،
و أَنّ يسوع قد جاء لكي يحوّل حياتنا إِلى شيء جديد كلّ الجدّة،
في تواصل كامل باللّه .
كثيرون من الذين كانوا يوافونه كانوا يلتمسون مجرّد الشفاء :
كانوا يأتون بجسد ممتلئ أَلماً، وقلبٍ مفعم خزياً،
غير مدركين ولا متوقّعين أَن يُمسي شفاء أَجسادهم دعوة إِلى تغيير قلوبهم، وتغيير حياتهم .
و بعض الذين كانوا يوافونه، كانوا قد نُبذوا من الهيكل،
فخيّل إِليهم أَنّ اللّه أَقصاهم عنه،
و لكنّ يسوع قابلهم بحبّه، وهدم حواجزهم، وأَيقظ فيهم طاقات حياة وحبّ جديدة .
و قد حرّرهم لقاء يسوع، فعهدوا حياة جديدة .

يسوع يثقّف القلوب والأذهان

لقد ثــقّف يسوع رجاله وتلاميذ كثيرين آخرين، لا بتلقينهم خواطر،
أو دروساً في الكتاب المقدّس؛
بل ثــقّفهم وحوّلهم، بعيشه معهم، وسيره معهم، وبنهوضه لهم مثالاً ونموذجاً .
أحبّهم وأحبّوه، فتعلّموا، تلقائيّاً، أن ينهجوا نهجه .
علّمهم عيش البشرى، والاستسلام للآب،
و قراءة علامات اللّه في جميع الأحداث اليوميّة الصغيرة .
و أوضح لهم أنّ الإيمان هو ثقة باللّه، وليس آراءً عن اللّه،
و أنّ هذا الإيمان وهذه الثقة ينموان يوماً فيوماً،
من خلال كلّ جميل، وأيضاً من خلال كلّ عسير، وكلّ ما يعلن وهننا وفقرنا .
و أظهر لهم أنّ الثقة حوار، وتواصل حميم، وحديث قلبٍ لقلب لا يني يتعمّق ....
و هم شهدوا كيف كان يسوع يعيش، ببساطة وفقر، مستقبلاً كلّ لحظة وكلّ وضع، في انفتاح على مشيئة الآب،
و كيف كان حاديه ودافعه، لا شريعة مكتوبة جامدة، بل شريعة الحبّ،
حبّ كلّ إنسان في عَوَز .
كان يعلّمهم وهو يسير عبر الحقول، وقلبه على تواصل حميم مع قلب اللّه، كامن في جمال الطبيعة، وتناغمها ووحدتها، حيث كلّ شيء ينشد الوحدة والحبّ.
و لم يكن لتعليمه برنامج، بل كان يعلّمهم وهو يرمق بدهشة طيور السماء،
و زنابق الحقول، والخراف والرعيان،
و حبّات القمح، والفلاّح الذي خرج ليلقي في الأرض البذار .
و بفضل حضور يسوع كان كلّ ما يشاهدونه، ويلمسونه، ويسمعونه،
في الطبيعة، وفي الوجود، وفي الكتاب المقدّس، وفي أقوال الأنبياء،
و كلّ ما يختبرونه في ذواتهم، وفيما بينهم، ومع آخرين،
يصبح حيّاً وموحِّداً .
لم يكن تعليمه سجين آراء وشرائع، ولم يكن منقطعاً عن شدو العصــافير وصــرخة الفقراء ؛

وبفضل أقواله وحضوره، كانت تتوحّد أجســادهم وأذهــانهم وقلــوبهم، وإيمــانهم ومعرفتهم باللّه، وحبّهم للطبيعة وللناس،

طالما كانوا يسيرون مع يسوع كان كلّ شيء يغدو على قدرٍ كبيــر مــن الوضــوح واليُسر،
لأَنّه كان يحبّهم، ويحبّ كلاًّ منهم حبّاً شخصيّاً فريداً،
كلٌّ منهم كان يشعر بفرادته في نظر يسوع،
و هو كان عليماً بكلٍّ منهم، وبما ينطوي عليه من مواهب وهوان،
و إِذا ما نال منهم تعب أو اعتلال عبّر لهم عن عطفه ومحبّته .
و في غروب حياته أَقرّ : " كما أَحبّني الآب، كذلك أُحبّكم "،
كان كلٌّ منهم مدركاً ذلك، فقد كان حبّه يغمرهم،
و حضوره المحبّ الصادق كان يوقظ كلّ ما في قلوبهم من نور وحبّ .
هذا لا يعني أَنّ كلّ شيء كان سهلاً، في أَثناء مسيرتهم مع يسوع .
فأَحياناً كانوا لا يدركون ما يجري،
كان هو يظهر امتعاضه إِن هم حاولوا منع الأَطفال وأُمّهاتهم من إِزعاجه،
في حين كان كثيرون من علّيّة القوم يتحيّنون فرصة للتحدّث إِليه .
و قد ثارت سَوْرة غضبه لمّا عنّفه بطرس إِثر إِعلانه بأَنّه سيتأَلّم كثيراً وسيُقتل،
و عجز التلاميذ عن فهم عنف ردّ فعل يسوع إِذ قال لبطرس " خلفي، يا إِبليس ! "
لبطرس ! ذاك الذي كان لتوّه قد عيّنه الصخرة التي سيبني عليها جماعة المؤمنين .
و عنّفهم يسوع أَيضاً عندما شرعوا يتناقشون فيما بينهم لمعرفة من هو الأَعظم فيهم .
كان التلاميذ يحبّون يسوع، ولكن كان يتعذّر عليهم فهم أَشياء كثيرة فيه :
اطّعام جسده، وشرب دمه ؟ كان ذلك يحيّرهم .
و قد طفق كثيرون من التلاميذ يهجرونه إِثر سماع هذه الأَقوال المستهجنة؛
و حزن يسوع، وجرحه هجرهم؛ فقد أَعلن لهم عن سرٍّ حميم تفجّر من أَعماق قلبه،
و لكن لم يشأ أَحد أَن يسمع ويفهم؛ وسأَل تلاميذه : " أَتريدون أَنتم، أَيضاً، أَن تمضوا ؟ " ولكأَنّنا نسمع دموعه في صوته ...
غالباً ما كان يبدو يسوع حزيناً، مجروحاً، دامع العينين،
مثل عاشق ولهان، ترذله حبيبته .
و أَحياناً أُخرى، كان يحاكي طفلاً، ببشاشة محيّاه،
و بما يشعّ من عينيه وجسده من فقر الأَطفال وبراءتهم وصفائهم .
في كلّ ما كان يقوله ويفعله كان يبدو حرّاً وصادقاً، ولذلك كان تلاميذه يحبّونه .
لم يسعَ، قطّ، إِلى الشعبيّة، وإِلى انتزاع أَصوات الموالين؛

و كانت أَقواله تتّسم أَحياناً بالقسوة، مثل حديثه عن بغض الوالدين من أَجل اتّباعـــه، وحمل الصليب، وحبّ الأَعداء، والزهد بكلّ شيء .

كانوا معجبين به، خائفين منه، يحبّونه ولا يعملون ما يتوجّب عليهم فعلــه، فلطالمــا فاجأهم بما لم يتوقّعوه !

يسوع يزعج

كثيرون هم الذين اجتذبهم يسوع، ووجدوا بالقرب منه، شفاءً داخليّاً، ورجاءً متجدّداً .
و لكنّ آخرين كانوا ناقمين عليه لأنّه كان يزعجهم .
كان يزعج الأغنياء أوّلاً،
و لا ريب أنّ قصّة لعازر والرجل الغنيّ، التي رواها يوماً، قد أزعجت الكثيرين منهم؛
من الواضح أنّ بعضهم كانوا غاضبين منه، إذ خُيّل إليهم أنّه يدينهم،
في حين كان يُظهر لهم حبّه، بمحاولته فتح عيونهم .
كان يتوخّى فتح أذهانهم وقلوبهم، وتحريرهم من هوى الامتلاك، والعطش إلى الثروات، وإرشادهم إلى درب الحرّيّة الداخليّة، والمشاركة والتعاطف .
إنّ التمترس خلف حواجز الثروة والطبقة الاجتماعيّة، والاختفاء وراء الانتماء إلى نخبة مزعومة، هما نمطٌ من الموت، وإنكارٌ لإنسانيّتنا المشتركة .
و كذلك هو رَفْضُ التضامن مع من يئنّون باحتياجاتهم وآلامهم،
و رفض اقتسام حياتنا وممتلكاتنا مع من لا يمتلكون سوى الزهيد . هذا الرفض هو، أيضاً، ضربٌ من الموت،
و قد دعا يسوع الأغنياء إلى إشراع بيوتهم وأُسَرهم على الاستضافة، والتعاطف، بلا وَجَل .
دعاهم إلى إشراع قلوبهم، فلا يردّون الضعفاء، والفقراء، والمحتاجين،
بل يقتسمون معهم حياتهم، وطعامهم، ومقتنياتهم،
فيكتشفون حياة جديدة، ويكتشفون اللّه، ويكتشفون السعادة .
غير أنّ كثيرين من الأغنياء وذوي السلطان، كانوا عاجزين عن التغيّر،
و رافضين التغيّر، ورافضين دعوة الفقراء، والمرضى والعاجزين إلى مائدتهم،
خشية أن يفقدوا، بذلك، إحكام الزمام؛
لقد آثروا الانغلاق داخل أحكامهم الدينيّة المسبقة إذ لم يكونوا يطيقون رائحة الجموع، وفوح التعفّن المنبعث من البرص والمرضى،
و لا صيحة المتسوّلين .
و كانوا يأبون الإصغاء إلى حكمة النساء والضعفاء،
و يرتاحون إلى النظام القائم، ورئيس الكهنة، والمسؤولين الدينيّين،
الذين ما كانوا يزعجونهم، بل يداهنونهم،

ففي نادي الأَقوياء، والنخبة، يداهنون بعضهم بعضاً،
و ينتقدون الجموع القذرة، غير المتجانسة، الخشنة،
و يتناولون بالثلب ذلك النبيّ المزعوم، المتصلّب،
صديق الضعفاء، والقذرين، والمنبوذين،
الذي يلمس البُرْص، ويتحدّث إِلى السامريّين والنساء،
لا بل يدع امرأة سيّئة السمعة تغسل له رجليه .
و كان يسوع يزعج كثيرين آخرين،
يزعج الفقراء الغاضبين، المنغلقين في يأسهم وثورتهم،
الغاضبين من اللّه، والدين، ومن قَدَرهم، ومن الأَنبياء،
و من يسوع الذي يتحدّث عن الثقة، لا عن الثورة؛
و كان يزعج الثائرين عليه لأَنّه لا يُحسن إِليهم أو لا يشفيهم على نحو ما كانوا يتمنّون .
و كان يزعج أَيضاً رجالاً ونساءً منغلقين في ما اعتادوه من سكر وعربدة،
منقطعين عن وصايا اللّه، ورافضين الحبّ والغفران .
كان يزعج بعض الذين رمقهم بحبّ، ودعاهم إِلى اتّباعه بثقة، وإِلى بيع كلّ شيء،
و هجر كلّ شيء، في سبيل السير معه بتواضع، سيرهم إِلى جانب صديق؛
و الذين كانوا ينوؤون بشعور العجز عن الاختيار، والعجز عن قبول فقد ثرواتهم، وأُسرتهم، ومركزهم، وصورتهم الزاهية عن ذواتهم، التي كانت تسبغ على حياتهم معنى، وتوفّر لهم، أَماناً .
فما كانوا يجرؤون على الخطو نحو لا أَمان حبٍّ جديد، وثقةٍ أَوفر عمقاً .
لقد كان يزعجهم، ويُقلقهم، ويحزنهم .
و كان يسوع يزعج من يجدونه شديد التصلّب، واهماً، غير واقعيّ،
فكيف السبيل إِلى التخلّي عن الثروة، والاقتسام مع الفقراء،
و كيف السبيل إِلى الإِقلاع عن العنف، وإِلى حبّ العدوّ، وإِلى الصفح المستمرّ ؟
و كيف السبيل إِلى العيش بلا ضمان، ولا حساب مصرفيّ،
و كيف السبيل إِلى العودة إِلى طفولة الروح ؟
او إِلى اطّعام جسد يسوع، وارتشاف دمه ؟
كان يزعج الذين يطرحون كلّ تلك الأَسئلة، ويحرصون على إِدراك كلّ شيء برؤوسهم، من غير انتظار .

أولئك الذين عجزوا عن إِقامة مطابقة بين أسلوبه وتعليمه وآرائهم الخاصّة، رفضوا إِيلاءه ثقتهم وارفضّوا عنه .

كانوا يجدون قبول دعوته الجديدة مستحيلاً، بل عملاً أَحمق وخطيراً،

و يحتاجون إِلى التوافق مع النظام والتقاليد القائمة، والخضوع خضوعاً أَعمى للسلطات الدينيّة .

كان يسوع يزعج جميع الذين يأبون الإِقرار بفقرهم، وشروخهم، وخطيئتهم، وحاجتهم إِلى العون، والذين ينغلقون في علمهم، وثرواتهم، أوقدراتهم الروحيّة،

و الذين يبرّرون أَنفسهم باتّهام الآخرين .

ربّما كان يسوع يزعج الجميع !

فقد كان يدمّر التوقّعات، ويوقظ الغضب .

و لكن أَليس طبيعيّاً أَن يزعج النبيّ ؟

أَصدقاء يسوع يهجرونه في آلامه

أَصدقاؤه الذين اصطفاهم، ودعاهم لكي يثـقّفهم ويحوّلهم،
على دروب الجليل، أو فوق مياه البحيرة،
تاهوا، مذعورين؛ انهاروا، وفرّوا، وتركوا يسوع يواجه مصيره بمفرده.
بطرس، " الصخرة "، انهار وهو يُقسم، ويجأر، ويشتم : " لست أَعرف هذا الرجل ! "
يسوع الذي عرفه وتبعه كان قديراً، صانع عجائب، أَطعم خمسة آلاف شخص،
و أَنهض لعازر من الموت، وتجلّى على الجبل .
و هو كان قد أَولى ثقته لمسيح قويّ، مرسلٍ من اللّه ليكون المنتصر في الصراع بين الخير والشرّ،
(ومن المحقّق أَنّ الرومانيّين كانوا يمثّلون الشرّ)
و لكي يعتق البلاد من السيطرة الوثنيّة، ويعيد إِلى الشعب المختار كرامته، واندفاعه، ورجاءه، ويعيد لإِسرائيل مملكته .
و ها إِنّ كلّ شيء قد انتهى، وهُزِمَ يسوع، وخسر، وأُزيل مثلما أُزيل آخرون قبله .
عالم بطرس الداخليّ ينهار، ويستيقظ قلقه وعنفه،
فيتردّى إِلى الاضطراب والفوضى الداخليّة،
و لذلك يصيح، شافعاً صيحته بقسم : " لست أَعرف هذا الرجل ! "
لم يعد يسوع هو الرجل الذي تبعه، ووضع فيه أَمله،
المسيح الجبّار، خادم العليّ، الذي كان عليه أَن ينتصر .
يتعذّرعلى بطرس الإِدراك، ولكأنّ يسوع قد خدعه .
في نظره، الوهنُ يحاكي الجبن، ويفتقر إِلى أَيّ معنى،
فالرجال قد خُلقوا للصراع والقتال، والتصادم والانتصار؛
و الأَفضل ينتصر دائماً، مباركَاً من اللّه، ومرتدياً قدرته .
يتعذّر على بطرس إِدراك رسالة النبيّ الخفيّة والمتواضعة،
رسالة الخادم المتألّم التي تنبّأ بها أَشعيا :
"مثل حمل يُقاد إِلى الذبح، لم يفتح فاه ... ولكنّنا بجراحه نلنا الشفاء ".
لم يُطِقْ بطرس احتمال الفشل والعار، ففرّ، محطّماً .
فكيف للفشل أَن يُعِدّ للنصر، وكيف للموت أَن يهب الحياة ؟
غير أَنّ، في الطبيعة، الأَوراق الميتة المتساقطة على الأَرض،
و براز البشر وروث البهائم، وكلّ ما يُطرح ويتعفّن، يُغني الأَرض ويهب الحياة .

و الأَكثر نبذاً يصبح الأَثمن، والأَقذر يصبح الأَطهر؛
و التفاّح والعنب المتعفّنان يتحوّلان إِلى كحول .
و يسوع قال : " إِنّ حبّة الحنطة التي تقع في الأَرض، إِن لم تمت فإِنّها تبقى وحدها، وأَمّا إِن ماتت فإِنّها تأتي بثمر كثير . "
لقد هوى يسوع إِلى أَعماق الأَرض،
إِلى الوَهن والهوان والهجران .
و هناك سيحمل ثمراً وفيراً .

حمل اللّه، واهب الحياة

صُلب خارج أَسوار أورشليم، مدينة اللّه،
بعد أَن رشقه بالحُرْم ممثّلو شريعة اللّه،
أَدانوه بالتجديف (وفي ذلك الدليل على أَنّه ليس من اللّه) .
لا جاذب فيه ولا جمال، رجل آلام اعتاد العذاب،
سحقته خطايانا؛ حَمَل اللّه المقدَّم ضحيّة .
لقد بذل حياته، ووهبنا الحياة،
فتدفّقت سدود مياه حيّة وغمرت البسيطة .
و من قلبه الذي طعنته حربة جنديّ انسكب دم وماء؛
مخلّصٌ عذب، حَمَل صغير .
بموته منح العالم الحياة، وغلب الموت، وسلطان إِبليس،
محوّلاً عنف العالم إِلى حنانٍ وغفران .
أَجل، لقد أَحبّ، حتّى ملء الحبّ، حتّى نهاية شوط الحبّ،
حتّى بذل الذات الكلّيّ، مبيّناً لنا كيف يحبّ اللّه .
رجل العطف، جبّار الحبّ، أَصبح في عجز تامّ، وفي حاجة إِلى الرأفة .
ذاك الذي أَعلن البشرى الطيّبة للفقراء، والحرّيّة للمسحوقين،
أَمسى رجلاً فقيراً، راسفاً في أَغلال الحزن،
ذاك الذي هتف في الهيكل : " من كان ظمآناً فليأتِ إِليّ ويشرب "،
بات يصرخ، من الأَلم، : أَنا عطشان ! "
ذاك الذي جاء شافياً، بات في حاجة إِلى شفاء؛
و الذي جاء ليسكب الحبّ، بات يتسوّل الحبّ، يائساً .
معلّم الرأفة ونموذجها، يلتمس الرأفة،
و الذي جاء كي يهب الحياة بوفرة،
مات في الأَلم، وفي فراغٍ موحِش .

قيامة يسوع

قيامة يسوع هي الحَدث الأَكثر إِدهاشاً في تاريخ كوننا، والأَكثر إِغراقاً في التواضع .
لم يظهر يسوع فوق هيكل أورشليم، لكي يهين من أَهانوه،
بل ظهر لأَصدقائه الذين اختارهم، في كتمان التواضع .
و قد ذُعروا لأَنّهم ظنّوه شبحاً، فقال :
" لا، بل أنا هو، أنا هو حقّاً ! دسّوني، أنظروا إِليّ، أَعطوني ما آكله . "
لم يفهموا، وتعذّر عليهم التصديق، فهم مثلنا، بطيئو القلوب، بطيئو الإِيمان .
لم يأَخذ عليهم جبنهم، ولم يؤنّبهم لأَنّهم ارفضّوا عنه،
و لكنّه أَخذ عليهم عدم تصديقهم للمرأة، مريم،
عندما أَعلنت لهم أَنّها رأَته حيّاً .
من انهيارهم التامّ، وممّا عدّوه فشلاً مطلقاً،
انبعث شيء جديد تماماً، غير متوقَّع،
فقد نهض المسيح حيّاً، ومنح الشجاعة لأولئك الرجال المحطّمين
و جدّد رجاءهم، وأَعاد لهم الحياة، وثبّتهم .

إِنّ موت يسوع وقيامته قد دمّرا كلّ الحواجز
التي كانت تحول دون عطاء الروح؛
لقد غدت السدود مشرعة،
و روح اللّه، روح يسوع، قد انسكب، بملئه، على قلوب البشر التي أَمست للّه مسكناً .
و الشعوب، بعد أَن امتلأت من نعمة الروح القدس، وتحرّرت من الخوف والخطيئة،
باتت قادرة على أَن تمدّ بعضها لبعضٍ يداً، متخطّيةً الحدود والثقافات .
و باتت المشاركة في المسيح الناهض من الموت هي القوّة الموحّـدة لجميـع الأُمـم وجميع الأَجناس .

يسوع يجعل كلّ شيء جديداً

صار الكلمة جسداً، واتّخذ اللّه شكلاً بشريّاً،
لكي يُسمَع، ويُلمَس، ويُحمَل .
كلّ شيء قد تغيّر، وعَهِد العالمُ حَدَثاً جديداً، جدّةً مطلقة .
قبل تجسّد الكلمة، كان، ثمّة، دائماً، توتّر بين اللحم والدم والروح، وبين الجسد والنفس؛
و كان يُخيّل للبعض أنّ بلوغ اللّه، الروح اللانهائيّ، الكائن الأَبديّ، في ما يتعدّى كلّ مادّة،
يقتضي الانسلاخ عن الجسد، الذي كان يُعتَبَر، أَحياناً، " سجن النفس "،
و موطن الغرائز، والأَهواء الجامحة؛
و ظنّوا أَنّ بلوغ اللّه، منبع كلّ كيان، ومَعين الحكمة والعقل الأَسميين،
يستلزم التحلّي بالذكاء، والقدرة .
و كان الصغار والضعفاء يُقصَوْن .
فيما كان آخرون، بوحيٍ إِلهيّ، يرون اللّه ويلمسونه،
في جمال الكون، وقوّته وحياته .
كانوا يشاهدون وجه اللّه، الحيّ، الفاعل، المنشد، في جسد الوجود،
و لكنّه لم يكن إِلهاً شخصيّاً .
و تجسّد الكلمة فتبدّل كلّ شيء؛
تجسّد كي يكون على مقربة من الضعفاء والصغار،
و من جميع من لا يملكون القوّة الداخليّة، والقدرة على تسلّق قمم القداسة؛
جاء كي يمسّ القلوب، ويدعو الناس إِلى الثقة، وإِلى التواصل معه،
و يدعو البشريّة إِلى نظام جديد، وإِلى تأليف جسد متحابّ، يحتلّ الضعفاء مركزه،
لا تراتبيّة سلطة، حيث الضعفاء هم الأَخيرون، في القعر، مسحوقون .
تجسّد الكلمة فوُلدت وحدة جديدة بين اللحم والدم والروح، بين الجسد والنفس،
في قدرة الروح القدس وبواسطتها،
الروح الذي يوحّد كلّ شيء
و يدفع كلّ شيء إِلى امتلائه .
تجسّد الكلمة، واعتنق وهننا، لكي يُقصي عنّا الخوف من اللّه .
لقد جعل ذاته طفلاً أَعزل، ورجلاً مصلوباً أَعزل، بين ذراعي مريم،

لكي يقيم معنا تواصل حبّ .
الأَقوياء والأَغنياء لا يحتاجون إِلى الآخرين، بل يكتفون بذواتهم،
أَمّا الفقراء فهم دائماً في حاجة إِلى الآخرين، ويدعون إِلى التواصل والحياة الجماعيّة .
و الكلمة صار جسداً ووهناً، لكي يبلّغنا حبّه،
و يُذيب قسوتنا، ويدمّر حواجزنا الداخليّة، وأَجهزة دفاعنا، التي تحمي هشاشتنا،
و التي نخفي خلفها عزلتنا ومخاوفنا .
لقد جاء كي يمسّنا في صميم كياننا، ويوقظ ويطهّر الطاقات الكامنة في أعماق أَعماقنا،
طاقات الحبّ والعطف، طاقات الحياة .
لقد رأينا كيف صار يسوع صغيراً، وولج هوّة الأَلم؛
في العشاء الفصحيّ، عشيّة موته، نهض عن المائدة،
و خلع ثوبه، وفي زيّ عبد، غسل أَرجل تلاميذه، آخذاً مكان خادم وعبد .
و دهش التلاميذ من خلعه ثوبه، ولكنّهم دهشوا أَكثر من غسله أَرجلهم،
و رفض بطرس، الذي كان متأهّباً لغسل رجلي يسوع بفرح، لا أَن يغسل يسوع رجليه .
و بذلك كان يسوع ينشيء نظاماً جديداً، ويدمّر تراتبيّة السّلطة .
و لئن ترك بُطرسُ يسوعَ يغسل رجليه، فعليه أَن يغسل بدوره أَرجل من هم دونه،
و أَلاّ يتوقّع أَن يغسلوا، هم، رجليه؛
و عليه أَن يتّخذ دور الخادم والعبد، فنظام العالم قد انقلب، بغتةً .
من خلال فعل الحبّ، والتواصل، والخدمة، والغفران هذا،
الذي مسّ به جسد تلاميذه بحبّ،
أَعلن يسوع نظرة جديدة إِلى السلطة؛
فلئن كان هو، الربّ والسيّد، فعل ذلك،
فنحن، جميعنا، مدعوّون، أَيضاً، إِلى أَفعال حبّ وتواضع، وغفران،
و إِلى غسل بعضنا أَرجل البعض .
و ما دعا يسوع تلاميذه إِلى غسل بعضهم أَرجل بعض، وإِلى الاكتفاء بالمكان الأَخير،
و إِلى التمثّل بالأَطفال، والتحلّي بفقر القلب، والوداعة والتواضع، على غراره،
و إِلى المكوث في أَسفل سلّم الترقية البشريّة،

إلاّ لمعرفته مسارعتنا إلى التشبّث بأَدوارنا، ووظائفنا، وسُلطتنا، ولو كانت سُلطة روحيّة؛

إنّه يعلم كم نحن نسارع إلى استخدام معارفنا وعطايا اللّه، في سبيل جاهنا، وسمعتنا، ومجدنا، وقدرتنا على التحكّم .

و إذ نرضى عن كياننا الروحيّ نتأَمّل في مرآة العُجْب بذواتنا .

و نحبس، عنّا، عطايا اللّه، بظنّنا أَنّنا النخبة التي اصطفاها،

عوضاً عن أَن نكون بناة نظام جديد : ملكوت الحبّ،

و أَن نمثّل، في عالمنا المحطّم، علامات وحدة وحبّ للثالوث الأَقدس .

قوّة يسوع تتجلّى في ضعفنا

إنّنا نجهد في إخفاء ضعفنا خلف منجزاتنا وسُلطتــنا الروحيّة .
و نستخدم كلّ طاقاتنا لنثبت أنّ لنا شأناً؛
إنّنا شديدو العطش إلى تثبيت البشر لنا واعترافهم بنا،
و شديدو الخوف من أن يبخسونا قدرنا .
إنّنا نثور حيالَ ضعفنا وضعف الآخرين،
و نتّهم ذوينا، وجماعتنا، ومجتمعنا، وكنيستنا،
بكلّ ما ينتابنا من شعور بالألم والعجز .
و لكن عندما نعترف بفقرنا، ونقرّ بحدودنا وخطيئتنا،
و نلتمس مساعدة الآخرين وحكمتهم،
و نصرخ باحتياجاتنا ليسوع، ولأبيه، فهما يهبانا روحهما القدّوس،
لكي ينبعث كياننا العميق في الحرّيّة، والحقيقة، والتواضع؛
و هكذا ننمو في نضوج الحبّ والعطف، أعضاء في جسد واحد، وفي تواصل بعضنا مع البعض .
عندما يواكب ضعفَنا الثقةُ، والتواضعُ والجرأة،
فهو يمسي الدرب الذي تتسرّب منه قدرة اللّه إلينا .
إنّ نعمة اللّه تتجلّى في وهننا ومن خلاله .
إنّنا مدعوّون إلى النموّ في القوّة والكفاءة،
و لكن مهمّة هذه القوّة هي بناء بشريّة قائمة على الحبّ،
و ليس هدفها مجدنا الخاصّ .
نحن لسنا مدعوّين لنكون جزُراً مستقلّة إحداها عن الأُخرى،
و نكون مسجونين في الرضى عن ذواتنا،
بل نحن مرتبطون جميعنا، ومعتمدون بعضنا على بعض، ومدعوّون لتشــكيل جســد واحد؛
الضُعَفاء يحتاجون إلى الأقوياء، مثلما يحتاج الأقوياء إلى الضُّعفاء،
لكيلا يسجنوا ذواتهم في أفعال سطوة وكبرياء انتحاريّة، تجرح الطفل الكامن فينا .
إنّ هبوط سلّم الترقية الاجتماعيّة يعني أيضاً ولوج الظلمات السائدة في عمق كياننا،
و التورّط في حمأة وجودنا، في مناطق ظلال كياننا التي نخفيها؛
في مطرح الفراغ، والاضطراب، والشعور بالذنب،

الذي أَقمنا من حوله الحواجز، حمايةً لذواتنا .
و هناك نلمس حقيقة جراحنا الداخليّة، وزلاّتنا، وفقرنا الجوهريّ،
و نكتشف أَنّ كلّ ما ندّعيه من " أَعمال صالحة "، ملوّث بالرغبة في إِبـراز مجـدنا الخاصّ .
و لكنّنا نكتشف، ثمّة، أَيضاً، وجود يسوع ثاوياً في أَغوار نفوسنا .
فيسوع ليس حاضراً فقط في الفقير المقيم خارجاً عنّا،
بل هو حاضرٌ، أَيضاً، في الفقير الكامن في ذاتنا .
الفقراء والضعفاء أَنبياء، ولكنّهم أَنبياء يزعجوننا، ويوجعوننا .
و الكلمة قد تجسّد لكي يعلن لنا أَنّ عمل اللّه الجوهريّ هو الحبّ،
و أَنّ مهمّة من يتبعونه الجوهريّة هي الحبّ .
و الحبّ هو فرحنا وأَلمنا، إِنّه سيّد رقيق ولكنّه كثير الاقتضاء،
إِنّه مكان نشوة وتواصل، وعذاب وصَلْب .
إِنّ الحبّ عطاء مجّانيّ،
و إِنّه لصعبٌ علينا أَلاّ نُظهر شيئاً من عملنا، وأَلاّ نتلقّى أَيّ ثناء أَو اعتراف.
إِنّه صعبٌ أَن نكتفي بأَن نكون، ونحبّ، ونخدم .
يسوع يكشف لنا أَنّنا بلقائنا الفقير،
و بعقدنا علاقة حبّ معه، إِنّما نعقد علاقة حبّ مع اللّه .
و يمسي الفقير سرّ يسوع القدْسيّ، ومكان إِقامته .
و هكذا نكتشف أَنّ الذين نُبِذوا باتوا هم الذين يشفون قلوبنا،
و أَنّ الحجر الذي رذله البنّاؤون قد غدا حجر زاوية بناء اللّه الجديد .

الأَلم المحوّل

لقد تجسّد الكلمة كي يُسبغ على الأَلم بُعداً جديداً .
فالجسد يفترض الأَلم لأَنّه واهنٌ ومعرَّض للعطب،
و لأَنّ الموت مدوّن فيه منذ مولده .
تجسّد الكلمة، فأَخذ على عاتقه محدوديّة الجسد، وضغوطه، وآلامه،
و مضى إِلى آخر شوط الأَلم، والنبذ الكامل، المطلق،
معلناً هجر اللّه له، واستسلامه، هو، للّه .
منطق الحبّ، هو الحبّ حتّى آخر الشوط، حتّى مع التعرُّض للنبذ .
الحبّ هو عطاء الذات؛
و هل من الحبّ في شيء الصُّدوف، عندما لا يلقى الحبّ استجابة ؟
المحبّ لا يكفّ يقرع الباب الموصد، ويرتضي بذل حياته في سبيل من يحبّ .
و قد ارتضى يسوع الانحدار إِلى قعر النبذ .
و عندما أُدين، وأقصاه رجال الدين عنهم، أَتاح لحضور حبّ اللّه أَن يقطن هذه الهوّة .

إِدانته من قبلَ الرؤساء الدينيّين قد جاءت باللّه إِلى جميع مُداني البسيطة، عبر الأَجيال .

إِنّ حضوره يَغمر جميع من يشعرون أَنّ إِله الديانات ينبذهم ويهجرهم .
إِنّ إِله الحبّ لم يُلغِ الأَلم، ولم يفسّره،
و لكنّه تمثّل بالأَلم لكي يعلن حضوره لجميع المتألّمين، في جميع الأَزمنة .
جاء يسوع ليُعلن أَنّ لكلّ أَلم العالَم معنى، حتّى ولو بدا أَحياناً فضيحةً .
ببذله حياته في الأَلم، وفي صرخة استسلامه الأَخيرة للآب، وبموته،
وهب الحياة، وحوّل العنف المحتَمَل إِلى حنان وغفران .
صيحته الأَخيرة حطّمت الحواجز، وفجّرت المياه، ونسفت مغاليق القلوب،
و نشرت الروح في العالم .
مع يسوع، يمكن تقديم كلّ أَلم، وكلّ حداد، وكلّ نبذ، وكلّ قلق، ضحيّة للآب؛
كلّ ما هو محطّم قد يصبح خصباً، ومنبع حياة، وعطاءً للآخرين .
يسوع مختبئ في الأَلم، وهكذا يمسي الأَلم سرّاً قدسيّاً،
فالسرّ القدسيّ هو حيثُ يقيم يسوع .

هذا لا يعني وجوب تمجيد الأَلَم، ولا سيّما أَلم الأَبرياء، الذي يتعيّن علينا فعــل كــلّ مستطاع لإِزاحته،

علينا التحلّي بالكفاءة كي نكافح كلّ قوى الشرّ التي تولّد الأَلم .

غير أَنّ علينا أَن نتعلّم أَن نواكب بحضورنا من يتأَلّمون .

ليس الأَلم هو الشرّ الأَقصى الذي يتعيّن إِزالته،

فما علينا أَن نهرب منه ولا أَن ندعه يسحقنا .

إِنّ من يتجنّبون الأَلم يتجنّبون، أَيضاً، الأَشخاص المتأَلّمين .

و نحن بعد أَن نكون قد قمنا بكلّ مستطاع لإِزالة الأَلم،

مدعوّون إِلى تقبّله، ومسايرته، واكتشاف إِمكانيّة تحويله، بالحبّ، إِلى سرّ قدسيّ ،

بحيث نجعل منه عطيّةً تلِد الحياة .

يسوع في تواصل مع مريم

لقد صار الكلمة جسداً، ووهناً، لكي يقيم تواصلاً حميماً مع المرأة مريم، مختارة اللّه لتكون الأُمّ الحبيبة، إِيقونة الأَب المحبوب ورمزه .

و كانت علاقته بها هي العلاقة الأولى التي عاشها على الأَرض، والتي دمغت بطابعها كلّ علاقاته الأُخرى .

صار الكلمة جسداً لكي يعلن حنان اللّه، لا بالكلمات، بل بوهن جسده الملتمس لمسةً، وحضوراً، وتواصلاً حميماً .

و بنهله من ثدي أُمّه، كان يسوع يشرب حبّها وحنانها، ويهبها حبّه وحنانه .

و بجسده، في عذوبة ذلك التواصل الحميم وفي صمته، في عطاء الحبّ وأَخذه،

في العَبَث، والشدو، والاهتمام المتبادل،

أَدخلها في محراب التواصل الحميم الذي كان يجمعه بالآب .

هنا يكمن سرّ مريم : لقد حوّلها حبّ يسوع .

صيحة حبّ صغيرها أَيقظت ينابيع الحبّ، ينابيع تتفجّر حياة أَبديّة، كانت مختبئة في جسدها الانثويّ .

من خلال عذوبة نداء جسده، أَدخل يسوعُ مريم في سرّ العلاقة بين الكلمة واللّه، بين الابن والآب .

إِنّ حبّ يسوع لمريم، وحبّ مريم ليسوع يتفجّران من قلب الثالوث .

كانا واحداً مثلما يسوع والآب واحد .

و قد بلغت هذه الوحدة ملأها، عندما وقفت إِلى جانب يسوع المصلوب والمهان،

و مكثت، ثمّة، في تواصل حميم معه؛ امرأة تعاطف وحنان .

كانت مريم أولى من عاش حياة حبّ مع اللّه المتجسّد .

كانت تعيش في اتّحاد مع اللّه، كانت وإِيّاه واحداً، يُفعمها حبّ اللّه وحياته،

كما لم يُفعما، قطّ، أَيّ صوفيّ .

فقد عاشت حياة حبّها في جسدها، في النشوة والأَلم، مع الكلمة المتجسّد .

و لذلك تحتلّ مريم، بين جميع القدّيسين، في جيمع الأَجيال،

مكانة فريدة، وخاصّة في قلب الثالوث وفي قلب الكنيسة .

إِنّها، كما هتفت أَليصابات، " مباركة بين النساء " .

أَجل، وستغبطها جميع الأَجيال .

إِنّ حبّ مريم لا يعني وضعها على عرش تُقى،

بل هو تمكينها من دفعنا إِلى هذا التواصل الحميم مع يسوع وأَبيه،
و إِلى كلّ ما يطلبه يسوع منّا؛
و إِلى الوقوف عند أَقدام صليب جميع المصلوبين اليوم .
إِنها نموذج امرأة العطف والحنان .

جميعنا مدعوّون إِلى معين الحياة والتواصل الحميم

حياة الحبّ والنور، وتواصل الحبّ الحميم،
اللّذان أَعطاهما الكلمة المتجسّد لمريم،
أُعطيناهما، كلاًّ وفق دعوته، وبقدر إِيماننا بيسوع .
إِنّ جوهر رسالة يسوع ليس في حملنا على القيام بأَفعال، ولو كانت أَفعالاً في سبيل اللّه،
بل في دعوتنا إِلى عيش تواصل حميم معه، والإِقامة فيه ...
لقد منح يسوع مريم جسده، أَداة حبّ سرّيّ،
و كذلك، هو، من خلال الكنيسة، يهب جسده طعاماً، ودمه شراباً،
لكي يعيش فيه جميع من يتناولون من هذا الطعام وهذا الشراب، ويعيش هو فيهم .
و هو يهب أَيضاً كلامه الذي يعلن حبّه وحياته،
ومن خلال كلمات حبّه، نعيش في تواصلٍ حميم معه، ومن ثمّ، مع الآب .
بتواصلنا الحميم مع يسوع، نعيش في تبعيّة الروح القدس، ونصبح خلاّقين،
قادرين على العمل بأسلوب جديد، في كفاحنا من أَجل الملكوت، مدينة الحبّ .
في يسوع وبه، نستطيع مجابهة قوى الشرّ والإِفك المدوّنة في قلوب البشر وجماعتهم،
التي تسحق الحياة، وتسحق الضعفاء والمتواضعين .
فلسنا نحن، بعدُ، من يتكلّم، بل الروح القدس يتكلّم فينا،
و لسنا نحن، بعد، من يحيا، بل يسوع هو الذي يحيا فينا .
لقد جاء يسوع ليجعل كلّ شيءٍ جديداً،
و بتواضعنا الحميم معه ومع الروح القدس، نستطيع، نحن أَيضاً، أَن نجعل كلّ شيءٍ جديداً،
لا بل نستطيع أَن نفعل أَعظم من أَفعال يسوع .
بتواصلنا الحميم مع يسوع، تنبع أَعمالنا من التواصل، وتتّجه نحو التواصل.
أَقوالنا، هي أَيضاً، مدعوّة إِلى التفجّر من صمت التواصل،
لكي تقود إِلى صمت الحبّ .
إِنّنا مدعوّون إِلى النهل من قلب المسيح، كي نصبح للآخرين معين حياة . ونهب الآخرين حياتنا .
" إِن عطش أَحد فليأتِ إِليّ ويشرب . من آمن بي فستجري من جوفه، كما قال الكتاب، أَنهار ماءٍ حيّ "

" من يشرب من الماء الذي أُعطيه أَنا، فلن يعطش أَبداً، فإِنّ الماء الذي أُعطيه إِيّــاه ينقلب فيه نبعاً يتفجّر حياةً أَبديّة ".

" تلميذ يسوع "

DISCIPLE DE JESUS
(BELLARMIN 1977)

هذا الكتاب هو ثمرة أَربع محاضرات كان جان فانييه قد أَلقاها أمام رؤساء ورئيسات جمعيّات رهبانيّة في كندا عام 1969، ثمّ أعاد صياغتها في أَثناء إِقامةٍ قصيرةٍ له في الهند، حيث أَذهله ما شاهد من كثافة المتسوّلين، والأَطفال المتسكّعين، والبرص، وبيوت الصفيح، وبالمقابل ما شاهد من حنان وعطف في بيت المحتضرين الذي أَحدثته وأَشرفت عليه الأمّ تيريزا . ومذّاك سكنه هاجس مثل تلك الجماعات الصغيرة، واحات سلام، ومشاركة، وخدمة، كفيلة بتغيير قلب مجتمعنا .

من خلال هذه الصفحات يتحدّث جان فانييه عن رسالة يسوع كما يتمنّى أَن يعيشها هو نفسه، وكلّ مسيحيّ، ولا سيّما أولئك الذين كرّسوا حياتهم للربّ، عبر تحوّل قلبٍ صادق، والتزام نحوالفقراء، واستغراق في الصلاة والحياة الداخليّة .

و هو يؤمن أَنّ السبيل السويّ، الكفيل بالإِيصال إِلى هذا الهدف، في ما يتخطّى جميع الخلافات النظريّة والإِيديولوجيّة، وهو أَن نُبقي أنظارنا شاخصة إِلى يسوع، وآذاننا مصغية إِلى كلامه المحيي، في قلب الكنيسة .

و هو راسخ الإِيمان بأَنّ يسوع وحده هو الصديق والمخلّص، وبأَنّ على تلاميذه أَن يلتزموا تجاه الأَشدّ فقراً، على أَن تظلّ قلوبهم متّجهة نحوه .

و هو موقن، أَيضاً، بما يستطيع الروح القدس أن يغني به نفوسنا، وبضرورة وهبنا حياتنا لإخوتنا وأَخواتنا ولا سيّما الأَبلغ جروحاً، والأَكثر انسحاقاً . غير أَنّ هبة الحبّ هذه لا تنمو إِلاّ في مناخ جماعة مسيحيّة حيث إِخوة وأَخوات متحابّون حقّاً، يتعاونون على عيش التطويبات، في روحٍ من التسامح المتبادل والحنان .

و قد اقتطفنا من صفحات هذا الكتاب خواطر موجزة تتحدّث عن :

– ممارسة السلطة : والنموذج الأَمثل لها يسوع الذي لم يتحرّج من غسل أرجل تلاميذه .

– أزمات شبّان اليوم، الذين يتعيّن الإِصغاء إِلى تطلّعاتهم السليمة، وفي الآن عينه، دعوتهم إِلى انتباذ كلّ قديم قد يكون لهم عوناً على حياة معافاة .

– الاتّحاد بيسوع الذي يهبنا، جميعنا، القوّة والمنعة، ويسمو، خاصّة، بفقراء الروح .

– تأثير سلوك المسيحيّ على الغير، فإن هو كان وفيّاً ليسوع كان باعث تحرير وحياة، وإن تنكّر ليسوع، وخان تعاليمه، بات مثار عثرة وتشكيك .

1- السُّلطة

أَحد أَجسم الأَخطار المحدقة بمن يتولّون السُّلطة هو تصلّب القلـب، إِذ سـرعان مـا يشيدون من حولهم حواجز، ليس فقط من أَجل حماية سُلطتهم، ولكن، أَيضاً، ليتزوّدوا ببعض المنعة، لأَنّهم، جميعاً، يشعرون بوهنهم تحت عبء مسؤوليّة السُّلطة .

2- سُلطة يسوع

يسوع شخص مدهش، يقول ويفعل ما يدهش . فهو الذي كان كلّـيّ القـدرة وكلّـيّ الطيبة، كان، أَيضاً، على قدرٍ كبير من التواضع والبسـاطة، والكتمـان . يسـوع، الراعـي الصالح، يدهشنا بطريقة ممارسته السُّلطة، ولا سيّما عشيّة موته، عندما اتّزر بمئزر، وأَخـذ دست ماء، وجثا أمام تلاميذه وغسل لهم أَرجلهم .

يسوع يقدّم لنا صيغة جديدة من السُّلطة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتواضع، والتضـحية والخدمة . وهذا ليس سهلاً . ومع ذلك فهذا ما لقَّننا

3- في أَيّ جانب من الطريق يسير يسوع، وفي أَيّ جانبٍ منها يسير تلاميذه ؟
هل يسير يسوع وتلاميذه في وجهة واحدة ؟

4- شبيبة اليوم

الشبّان، اليوم، يتعاطون المخدّرات، لأَنّ الكبار لا يتعاطونهـا، ولأَنّهـم يريـدون أَن يكونوا مختلـفين . ثمّة تبدّل جوهريّ في نفسيّة الشبيبة، لست أَعرف له مثيلاً في شبابي .

و لا نُغفلنّ أَنّ الشبّان هم ميزان المستقبل، فلا بدّ من الإِصغاء إِليهم وتحسّس ما يحدث في قلوبهم . بعضهم على شفا ذلك الموت الذي يمثّله اليأس أو الحـزن العميـق . وبعضـهم يدركون قضايا أَساسيّة لم تكن مُتبيَّنة، على النحو نفسه، في حقبة مراهقتي، ومنها : الـدعوة إِلى إِخاء شامل، وإِلى حياة صدق، وإِلى رفض أَيّ وجه من وجوه الرياء، وإِلى السلام، وإِلى عيشٍ بسيط، بل فقير، وإِلى احترامٍ عميق للآخرين، ولثقافتهم، ونمط عيشهم، حتّى لو امتزج كلّ ذلك، لديهم، باستنكارهم لنمط حياة والديهم .

5- " يسوع "

المسيح، والربّ ألقاب تدلّ على وظيفة، أمّا اسم " يسوع " فيعني علاقة بشخص

6- *تمييز الروح*

– الاستعجال في التماس " الحبّ " يقتل الحبّ، أحياناً، والاستعجال في تحقيق " لقاء " في أعماق الذات، يقضي على اللقاء، أحياناً . وحينئذٍ يولد الشكّ بوجود الحبّ .

لكي نلتقي آخر، علينا أن نكون صادقين، صادقين في فقرنا وفي وهننا . غير أنّ الحبّ يقتضي الوفاء، في المحنة وفي الفرح على السواء، والوفاء يفترض قوّة المراس، قوّة داخليّة، وشيئاً من الانضباط . والذين يفتقرون إلى هذه القوّة قد يختبرون " اللقاء " في الحبّ، ولكن تنقصهم المنعة الضروريّة للحفاظ على هذا الحبّ . قد يعيشون لحظة فرح، ولكن يتعذّر عليهم الرجاء، وامتلاك المنعة الضروريّة للتحلّي بالصبر . وهنا نتبيّن أنّ التقاليد قد تساعد على التأهّب لحياة حبّ، وأنّنا بانتباذها، أحياناً، نتخلّى عن عكّازين كانا يوفّران لنا قوّة داخليّة، ويُعدّاننا، ويساعداننا على الحبّ في الفرح والأمانة، صيفاً وشتاءً .

إنّنا نجتاز فترة اضطراب شديد، لأنّنا قطعنا الوشائج مع كلّ تقليد، وانخرطنا في عالم من الاختبارات التي تقودنا سريعاً نحو العنف أو القنوط . وهذا ما يدفع شبّاناً كثيرين إلى " الهرب من الحياة "، بالاستسلام إلى المخدّرات، والشراب، والجنس، أو بالتوجّه نحو عالم من الثورة والعنف .

حيال هذا الوضع نلمس عجزنا، ولكن، إن كنّا تلاميذ يسوع يصبح هذا العجز نفسه معين رجاء . فالروح يرفرف فوق شعبه، وهو قريب، على نحوٍ خاصّ، من الذين يعانون ويصرخون إليه مستغيثين .

لقد جاء يسوع كي يهبنا روحه . وكلّ رسالته قائمة على اتّحادنا الشخصيّ به . والروح سيتدفّق في الشباب والشيوخ، وفينا جميعاً، بقدر انفتاحنا عليه؛ ونحن نعلم أنّ ملكوت الحبّ، الذي هو ملكوت الآب موعود للفقراء بالروح .

لم يأتِ يسوع لكي يدين، بل لكي يهب الحياة، ويغيث الفقراء والضعفاء . إنّه إله حنان وشفاء؛ إنّه الراعي، وهو يبادر إلى من هم معتلّون ويحتاجون إليه وإلى روحه .

7- غالباً ما جُرح البعض أو صُدموا لأنّنا، نحن المسيحيّين، لم نسلك السلوك الذي يبتغيه يسوع ! وكثيراً ما نلتقي أشخاصاً تلقّوا دعوة الروح القدس، ولكنّهم فقدوا العزيمة لأنّ بعض من يدّعون أنّهم مسيحيّون، من حولهم، لا يعيشون كما يطلب منهم يسوع أن يعيشوا .

8- إِنّنا نؤثّر على سلوك البشر وفقاً للصورة التي نرسمها لهم .

" الفقير في قلب السفينـة "

Le pauvre au coeur de l'arche

(Les chemins de l'arche - la ferme)

1994

هذا الكتاب يتضمّن نصّ محاضرات أُلقيت في شهر نيسان من عام 1991، وفي إطار لجنة دوليّة التأمت بقصد تحديد العناصر الأَساسيّة لروحانيّة " السفينة " إِذ إِنّ كلّ جماعة، كي تكبر وتنمو، تحتاج إِلى رؤية مشتركة توفّر لها الوحدة، والديناميكيّة، والرجاء .

الروحانيّة هي القوّة الداخليّة التي تزوّد كلّ راغب في العيش في "السفينة" بالدافع الحيويّ الضروريّ . وهي، كذلك الغذاء والثقافة اللذان يحتاج إِليهما كلّ فرد .

و جوهر هذه الروحانيّة تعاليم يسوع، ورسالته، وحياته؛ هذه هي أُسس الجماعات المسيحيّة؛ أَمّا الجماعات المتعدّدة الأَديان والمذاهب، فعليها، أَيضاً، أَن تعيش التطويبات، لأَنّ التطويبات هي مركز التقاء كلّ جماعات " السفينة "، وعامل وحدتها .

روحانيّة " السفينة " هي، إِضافة إِلى ذلك، عيش أُسرة مع من قست عليهم الحياة، ونبذهم المجتمع، والاعتراف بقيمتهم السامية، كما يراها اللّه .

إِنّها دعوة إِلى الطفولة، والتواضع، والخدمة .

إِنّها معاهدة حبّ، وحضور، وتواصل مع المعاقين الذين لا يفهمون سوى لغة القلب، عن طريق الجسد، وإِشعارهم بقيمتهم وجمالهم الخاصّ .

و بذلك تتحقّق المفارقة، ويصبح المعاقون العاجزون معين حياةٍ، وانفتاحٍ، وتحرّر للمتواصلين معهم، لأَنّهم أَقلّ كبرياءً وتطلّعاً إِلى إِثبات سلطانهم واستقلالهم؛ ومنفتحون على حبّ يسوع وسلامه . وحسبُهم، في سبيل ذلك، العثور على موئل حبّ، وعلى جماعةٍ مسيحيّة، ومساعدين يقودونهم على دروب الإِيمان . وحينئذٍ يدفع المعاقون، بدورهم، مساعديهم، نحو بساطة الإِيمان، إِيمانٍ طفوليّ قوامه الثقة والتواصل، ويصبحون لهم معلّمين، ويهدونهم إِلى طريق القلب .

إِنّ مخاطبة المعاقين تتمّ، غالباً عن طريق اللمس، ويسوع حاضر في أجسادهم المحطّمة، حضورَه في الإِفخارستيّا؛ ومن ثمّ من يلمس المحطّمين، يلمس يسوع، ومن يلمس يسوع يلمس الآب .

إِنّ اللّه حاضر في الفقير والمعاق، وحاضر، كذلك، في الفقير والمعاق الثاويَيْن في داخلنا . واكتشاف هذا الحضور يقتضي قلباً جديداً، وحبّاً جديداً، يتحقّقان باستجابةٍ إِلى دعوة يسوع، تتكرّر كلّ يوم، في الفرح والأَلم .

روحانيّة " السفينة " أخيراً، هي روحانيّة جماعة يحتلّ مركزَها الضعيف والفقير؛ جماعة تعيش باستمرار سرّ الموت والقيامة؛ جماعة تنمو على الوحدة في الاختلاف؛ جماعة أناس يرتبطون بإِنسانيّتهم المشتركة، قبل ارتباطهم بالإِيمان الواحد .

هبوط إِلى الصِّغَر :

1- روحانيّة " السفينة "

هذه الروحانيّة قائمة على رسالة يسوع وتعليمه وحياته؛ الجماعات المسيحيّة مبنيّة على التطويبات، والجماعات المختلطة التي لا تتّسم بطابع مسيحيّ تعيش، هي أَيضاً، روح البشرى والتطويبات؛ التطويبات هي مكان لقاء كلّ الجماعات، وصلة وحدتها .

غاية " السفينة " هي العيش عيشة أُسرة مع أَشخاص نُبِذوا، واعتُبروا فاقدي العقل، واحتُقِروا، وقُذف بهم على هامش المجتمع الذي عدّهم بلا قيمة، غالي الكلفة، نافلين، في حين نرى، نحن، أَنّهم ثمينون وهامّون للّه وللمجتمع نفسه .

ذلك هو سرّ جماعات " السفينة " .

لقد اكتشفنا أَنّ هؤلاء الأَشخاص يملكون مواهب حبّ وبساطة يجودون بها على العالم وعلى الكنيسة، إِنّهم منفتحون انفتاحاً خاصّاً على حبّ يسوع، لا يتطلّعون إِلى السُّلطة والثروة والجاه، بل إِلى الحنان، والتفاهم والصداقة .

و هذا الاكتشاف يلتقي مع صميم تعليم العهد الجديد . وقد لزم تلاميذ يسوع الكثير من الوقت والجهد كي يستوعبوا سرّ الصِّغَر والتواضع، وإِيثار يسوع للضعفاء والفقراء، بعد أَن أَكّد لهم أَنّهم إِن لم يعودوا كالأَطفال فلن يدخلوا الملكوت؛ وفي عشائه الأَخير معهم قام بغسل أَرجلهم لكي يفهمهم أَنّ الأَكبر، حقّاً، هو الخادم، وليس من يترفّع ويتحكّم .

لقد جاء يسوع بقِيَم جديدة، وبرؤية قشيبة إِلى العالم، وبأُسلوب جديد لفهم كُنه الكائن البشريّ؛ وهي القِيَم والرؤية والأُسلوب التي تقوم عليها روحانيّة "السفينة " .

ففي حين يدعو العالمُ إِلى التفوّق، والتميّز والتقدير، يدعو يسوعُ إِلى التزام المكان الأَدنى، وهبوط السلّم الاجتماعيّ، وإِلى أَن يصبح كلّ فرد، ولا سيّما إِن كان يتبوأ مركزاً ويمتلك قدرات وثروات، خادماً للآخرين .

و ما أَصعب الاتّضاع والحضور للأَصغر والأَضعف ! إِنّهما يقتضيان تحوّل القلب، وارتداداً، وولادة جديدة في روح اللّه . وإِنّما يدعونا يسوع إِلى الهبوط إِلى هذا الصِّغَر في سبيل لقاء حبٍّ معه، وتواصلٍ حميمٍ مع الآخرين . ومن ثمّ، فليس هذا الهبوط هروباً من العالم، بل هو أُسلوبٌ جديد للكينونة في العالم . وليس هذا الهبوط رفضاً لتنمية مواهبنا، بل هو رغبة في استخدامها لخدمة الضعفاء والفقراء، بعد أَن يكشف لنا الإِيمان أَنّ في داخلنا كنزاً دفيناً .

2- تواصل وعهد

هدف الهبوط إلى الصِّغر هو العيش مع الضعفاء والفقراء، والتعاون معهم على إشادة أُسرة وجماعة؛ وعدم الاقتصار على تحقيق أَشياء لهم، بل العيش معهم، ومصادقتهم .

معاهدة الحبّ هذه التي تربطنا بهم هي ميزة " السفينة " . والتعبير عن علاقة الحبّ هذه يتمّ من خلال الطعام الذي نتناوله معهم، ومن خلال حضورنا، وتواصلنا الحميم معهم، ولمسهم، ممّا يحقّق اتّصال القلوب من خلال الأَجساد، ونمطاً جديداً من الاتّصال عبر النظرة، والضحكة، واللمسة، وطريقة إِصغائنا وحضورنا بعضنا لبعض . ومع أَنّ ذلك ينطبق على الجميع، إلاّ أَنّه يتجلّى، على نحوٍ أَوضح، لدى المصابين بإِعاقات سحيقة، العاجزين عن الكلام والسير، فهم أَكثر تحسُّساً للغة الجسد منهم للغة الكلام، ولو أَنّ اللغتين ضروريّتان .

" السفينة " قائمة على الأَجساد المتألّمة والمضطربة لأَنّنا نستضيف رجالاً ونساءً مجروحين في أَعقاب مرض أو حادث، يعانون النبذ والازدراء، وطاقاتهم على الاتّصال الكلاميّ، واالإِدراك العقليّ، والتفكير، محدودة جدّاً أو مفقودة . ولكنّهم يستخدمون لغة القلب، وهي وسيلة الاتّصال بين الأَب وابنه، والأُمّ وابنها، اتّصال يحتلّ فيه الجسد مكاناً أَساسيّاً، تواكبه لغة العَبَث، والراحة، والحنان، وأَيضاً لغة الالتزام والعلاقات التي توفّر الأَمان، والشعور بالحبّ والاعتراف الذي يشيع الطمأنينة . من لم يدرك اللغة والعلاقات المتبادلة بين الطفل وأُمّه لا يستطيع الولوج إِلى رحاب روحانيّة السفينة، فهي العلاقات الجوهريّة الأُولى التي تؤثّر، بأَشكال مختلفة، على كلّ علاقاته المستقبليّة؛ وإِن هي جرحت جرحاً بليغاً أو اضطربت، لاحتاجت إِلى شفاءٍ عميق لكي يعيش علاقاته اللاحقة عيشاً متناغماً .

و من أَركان روحانيّة " السفينة " التواصل، والتواصل هو علاقة قلب لقلب، حيث يهتمّ كلٌّ منّا بالآخر ويحبّه، في مناخ من الثقة المتبادلة؛ فيسري تيّار حبّ به نتلقّى ونعطي، ويقوم بيننا نوع من المساواة، فلا نعود نخشى إِظهار عطوبيَّتنا، وندمّر حواجزنا، ونُشرع قلبنا، ويصغي أَحدنا للآخر، ونجهد في سبيل تفاهم حقّ . إِنّ تواصلنا هو نسيج صبر، وطيبة، وتسامح، وتعاطف، لا يُحاكِم، ولا يدين، بل يغفر .

بالتواصل نتداعى إِلى النموّ، ويقوم اتّصال فيما بيننا، بالكلام، واللعب، وكذلك في الصمت والحنان؛ وبالتواصل نكتشف معنى آخر للحبّ لا يقوم على مجرّد عمل شيءٍ في سبيل الآخرين، بل على إِطلاعهم على قيمتهم وجمالهم، وإِفهامهم أَنّهم جليلو الشأن، ثمينون وفريدون .

عيش التواصل هو إِفساح مجال للآخر في قلبنا، ودعوته إِلى استخدام مواهبه، والاعتراف بكرامته .

نحن في السفينة، نكتشف كم يصبح الفقراء، والهشّون والعاجزون، معينَ حياة للمساعدين ولأصدقائهم . فتطلّعهم إلى التواصل الحميم يجتذبنا إلى صميم هذا التواصل، وهذا الاجتذاب منزّه من كلّ التماس للسُّلطة والسيطرة؛ إنّهم يحسرون لنا الحجاب عن عالم حبٍّ جديد لم نكن لنتخيّله، بل كنّا ننبذه، عادّين إيّاه مجرّد حلم عاطفيّ، أو عديم الشأن .

تواصل القلوب هذا ليس امتلاكيّاً بل محرِّراً، ويساعد الآخر على النموّ في الحرّيّة الداخليّة، والثقة، وقبول الذات، وهذه جميعها تتيح التقرّب من اللّه، وممارسة المواهب، وتمنح قدرة النموّ وتحمّل المسؤوليّة؛ غير أنّها لا تنفي الحزم والوضوح : إذ لا بدّ من إيضاح أنّ بعض أنماط السلوك غير مقبولة أو مدمّرة .

نحن جميعنا مدعوّون إلى عيش هذا التواصل، ولكنّنا نتوجّس منه خشية من جرّاء أنانيّتنا، وحاجتنا إلى إثبات ذواتنا، والسيطرة، وامتلاك الأشخاص والأشياء، ونشدان اللهو والمتعة بأيّ ثمن . إنّنا نتوخّى أن نكون مستقلّين وأقوياء، ونخاف التعرُّض للعطب، ونخشى المعاهدة والصداقة مع الإنسان الضعيف، وما ينتج عنهما من تبعيّة متبادلة؛ نخشى الوفاء والالتزام، والسماح للآخرين بالدنوّ منّا، والتوغّل فينا؛ نخشى الألم الملازم للحبّ ....

و لن نتمكّن من عيش هذه المعاهدة وهذا التواصل المحرِّر مع آخرين، إلاّ إذا تحرّرنا، نحن أنفسنا، من مخاوفنا، ومن انعدام الثقة بذاتنا، ومن شعورنا بالذنب، عبر لقاءٍ حقيقيّ مع اللّه، في معاهدة حبٍّ معه، دُعينا إليها جميعنا، معاهدة نعيشها في الروح القدس، وفي علاقة قلب بقلب .

هذا التواصل قد يبدو لنا، من بعض زواياه، نافلاً لا طائل تحته، وهدراً للوقت، لأنّه يتعذّر علينا تقييم ما هو صغير، ما لم نلمس في هذا الصِّغَر اختبار سلام وحبّ، وتواصلاً، هو اختبارٌ للّه . ولولا ذلك لانتهى المساعدون، في "السفينة " إلى الإحباط، ولهجروها، بحثاً عن أعمال أشدّ إثارة وإنتاجيّة .

و جديرٌ بالتنويه أنّ المعاقين، في " السفينة " هم أكثر من المساعدين قدرةً على عيش روحانيّة القلب والحبّ هذه، وأكثر تأهُّباً لاستقبال حبّ يسوع، لأنّهم أقلّ كبرياءً وتطلّعاً إلى إثبات سلطانهم واستقلالهم، ويعلن لهم يسوع عن حضور حبّه، لا من خلال نظريّات وآراء، بل مباشرة عن طريق قلبهم، ويهبهم سلامه الذي هو حضوره .

و كما قال غالباً الأب توما : " إنّهم، من جرّاء إعاقتهم وفقرهم، مدعوّون إلى عيش التطويبات على نحوٍ مميّز" . إنّ كلّ كيانهم منفتح على العلاقة، والثقة، والتواصل الحميم، والحضور، والفرح والاحتفال، المتفجّرة، جميعها، من القلب .

و لا يعني ذلك أنّ المعاقين منزّهون من كلّ وهن، بل عليهم، هم أيضاً، أن يكافحوا كي يقبلوا ذواتهم، ويقبلوا يسوع؛ وهم أيضاً يتعرّضون لغواية الثروة، والقنوط، والثورة .

ولكنّهم عندما يعثرون على موئل حبّ، يغدو كفاحهم أَقلّ قسوة من كفاح من يُعَدّون " حكماء " و" أَقوياء "، في نظر العالم .

و لكي يعيشوا روحانيّة السلام الداخليّ، والحرّيّة، والحبّ هذه، يحتاج المعاقون إِلى جماعةٍ مسيحيّة، وإِلى مساعدين يقودونهم في حياة الإِيمان . بيد أَنّ المعاقين، بدورهم، يدفعون هؤلاء المساعدين نحو بساطة الإِيمان، إِيمان طفوليّ قوامه ثقة وتواصل . بذلك يصبح هؤلاء الرجال والنساء معلّمينا، ويتجلّى غنى إِيمانهم، ويهدوننا إِلى طريق القلب .

إِنّ المساعدين الذين يعيشون مع معاقين مدعوّون إِلى الحدّ من سرعة وتيرة عيشهم، وإِلى الإِصغاء، واستيعاب القلوب المحطّمة، والتحلّي بالرقّة، والصبر، والتواضع والحبّ .

و لكن كيف يسع المساعدين إِعلان يسوع لأَشخاص لا يعون الكلام ؟ إِنّنا، هنا، نمسّ سرّاً آخر . إِنّني أومن أَنّ أَجسادنا، وهي هياكل الروح القدس، قد تصبح أَدوات النعمة الإِلهيّة، وأَدوات حضور الروح القدس للآخرين، ولا سيّما للأَشخاص المعاقين إِعاقة سحيقة . فعندما نلمسهم بحنان، نستطيع أَن نكون على تواصل مع يسوع .

و بتواصلنا مع يسوع ومع المحطّمين والضعفاء، نصبح أَدوات حبّ يسوع لهؤلاء، ونعلن لهم يسوع؛ وهم، بدورهم، وبطريقة تقبّلهم هذا التواصل وهذا الحبّ، يعلنون لنا، نحن المساعدين، سرّ الحبّ ومعناه، وحضور اللّه الكامن فيهم، ويصبحون لنا منبع حياة وحقيقة .

عندما يقول يسوع : " كنت عرياناً فأَلبستموني، وغريباً فاستقبلتموني ... كلّ ما فعلتموه للأَصغر من إِخوتي، فلي قد فعلتموه " ... فهو يزيح الستار عن سرٍّ عسير الإِدراك .

إِذ كيف يمكن ليسوع أَن يكون حاضراً في هذا الفقر، وهذا الصِّغر، وهذا الأَلم ؟

إِنّه لمن السهل إِدراك أَن يكمن كلمة اللّه في جمال الكون، وفي أَقوال حكمته، وحقيقته ونوره، وفي الاحتفالات الكنسيّة الجميلة . ولكن من يستطيع تصديق أَنّه حاضر في هذا الغريب، أو هذا الإِنسان المحطّم، أو هذا الولد الأَعمى ؟ أَجل، من يستطيع تصديق جنون حضور اللّه في ما هو صغير ؟

مثلما يسوع حاضر في الخبز الذي يتحوّل إِلى جسده لكي يؤكل، هو حاضر في الإِنسان المحطّم الذي يدعونا إِلى التعاطف والتواصل . وبذلك ننفذ إِلى صميم التجسّد : الكلمة المتجسّد حاضر في من أَجسادهم محطّمة . ومن ثمّ فلمس يسوع هو لمس الآب؛ ولمس المحطَّمين هو لمس يسوع، وعقد معاهدة وتواصل مع المحطَّمين هو عقد تواصل مع يسوع .

و هكذا نكتشف أَنّنا بفضل جراحهم قد شُفينا .

ثمّة لحظات رقّة يتجلّى فيها حضور اللّه في الفقير . ولكن هناك أوقات يعاني فيها المعاقون الاحتضارَ والألم، ممّا يوقعنا في بحران من الاضطراب . فكيف يمكن لإله السلام أن يكمن في هذا النزاع الذي يثير اضطرابنا ؟

****

إنّ علاقتنا بالأشخاص المحطّمين والمضطربين تكشف لنا جراحنا، وظلماتنا وفقرنا، وتحطّنا من عرش سُلطتنا، وسخائنا، وطيبتنا المزعومة، لكي تدخلنا في حقيقة واقعنا ... ونحن نخشى هذه الحقيقة، مع أنّ الحقيقة تحرّرنا . فلكي نتواصل، حقّاً، مع الأشخاص ومع اللّه، علينا التخلّي عن أوهامنا، وخلع أقنعتنا، والظهور بما نحن عليه، غير مدّعين أنّنا أفضل ممّا نحن، وبعيداً عن محاولة إبراز صورة إيجابيّة عن ذواتنا . إنّ التواضع والحقيقة هما حجر أساس كلّ علاقة حقّة .

عندما نهبط إلى هوّة ظلماتنا نكتشف حضور اللّه فيها . إنّه حاضر ليس فقط في الفقير القريب منّا والذي يدعونا، بل أيضاً في الفقير الثاوي في داخلنا .

لقد وافى يسوع أرضنا لكي يدعونا إلى التواصل الحميم، ونشوة السلام والفرح التي يعيشها مع أبيه . فنحن لسنا مجرّد عاملين في سبيل اللّه، ومجرّد خدّام له، ومتعاونين معه، بل نحن أصدقاؤه، وأبناؤه المحبوبون، ومدعوّون إلى الانخراط في تيّار حبّ الثالوث، المتبادَل بلا انقطاع .

عندما أرتاح، في " السفينة "، وعلى ذراعيّ إيريك أو لويك، أتذوّق شيئاً من فرح الثالوث وسلامه، ومن الوحدة التي وعدنا بها يسوع . إنّ لفي حياتنا في "السفينة " عنصراً تأمّليّاً عندما نستكين الواحد إلى جانب الآخر، والواحد في الآخر، ومعاً في يسوع وفي الآب .

****

في الكنيسة، جسد المسيح، أُسَرٌ روحيّة متعدّدة، وقد أوكل يسوع إلى كلٍّ منها، في حقبةٍ معيّنة من تاريخ البشريّة، مهمّة إعلان أحد وجوه الحبّ، والتجسّد، وأحد وجوه رسالته .

و روحانيّة " السفينة " تقتبس عناصر من مختلف الروحانيّات، غير أنّها تقتضي حضوراً تأمّليّاً وفرحاً للمعاقين، وحياةً بسيطة معهم، لا تضطلع بأيّ إنجاز عظيم، ولكنّها تعثر على حضور اللّه في حبٍّ يوميّ، وفي هناتٍ صغيرة، في العمل، والعَبَث، والصلاة، على غرار مريم ويوسف في الناصرة؛ وهي تنطوي على الروحانيّة التي أعلنها بولس الذي جاء "

كي يبشّر بمسيح مصلوب، عثرة لليهود وجهالة للأُمم؛ أَمّا للمدعوّين فهو مسيحٌ، قــدرة اللّــه وحكمته، لأَنّ ما هو جهالة عند اللّه أَحكم من الناس، وما هو ضعفٌ عند اللّه أَقوى من الناس ... إِنّما اختار اللّه ما هو جاهل في العالم ليخزي الحكماء، واختار ما هو ضعيف في العــالم ليخزي ما هو قويّ؛ واختار اللّه ما هو خسيس في العالم وحقيــر، وغيــر الموجــود ليُعــدم الموجود ".

3- تحوّل القلب يستلزم وقتاً

ليس من اليسير عيش روحانيّة الصِّغر، ولا استشفاف يسوع في الفقير . ولا مناصَ، في سبيل ذلك، من وعي حضور اللّه في صلب فقرنا ووهننا . فلكي نتعاطف مع الآخرين ونحبّهم، لا بدّ من أَن نكون متعاطفين مع ذاتنا ومحبّين لها . ومن أَجل رؤية يسوع في الضعيف، نحتاج إِلى قلبٍ جديد، ونظرة جديدة، وحبٍّ جديد، هي هبات الروح، روحه .

يلزم وقت ليس فقط لكي يستولي الروح على أَعماقنا، بل لكي يتوغّل في كياننا، وذاكرتنا، وعقلنا، وخيالنا، وجسدنا، ويحوّل نفسيّتنا إِلى نفسيّة حبّ، وهذا لن ينتهي أَبداً .

إِنّها بذرة تحتاج إِلى سقاية، وإِلى غذاء الكلمة، والأَسرار، والحبّ، وحضور الفقير، والصلاة، ونشدان مشيئة الآب .

دعوة يسوع تقتضي استجابة، وموافقة تتكرّر يوماً فيوماً في الأَلم والفرح .

و يفترض ذلك أَن ننتقي ما نحتاج إِليه من فكريّ وروحيّ، وهذا الانتقاء يتضمّن فقداناً وانسلاخاً، إِذ إِنّه يتطلّب، حسب قول يسوع، أَن نُشَذَّب، ونُطَهَّرَ، ونموت عن ذواتنا لكي نحيا معاً، من جديد، في الحبّ . وإِن نحن اخترنا انتهاج درب الإِنجيل، والصِّغَر، والتواضع، فهذا يعني تنكّبنا عن الدرب المصعّد نحو السُّلطة والنجاح، وليس هذا بالأَمر الهيّن، إِذ إِنّه يقتضي صراعاً يوميّاً مع قوى الغواية التي تصرفنا عن الحبّ .

ضرورة حيويّة لكلّ جماعة أَن تمتلك فسحة مقدّسة، وموئل صمت، ومصلّى حيث يتسنّى لكلّ فرد الإِصغاء إِلى يسوع، والمكوث في رقّة حضوره .

و على منحدر الدرب العابر من روح العالم إِلى روح الإِنجيل، نحتاج إِلى يدِ عونٍ، وإِلى مرشدٍ حكيم يساعدنا على قراءة تاريخنا المقدّس، وعلى اكتشاف حضور اللّه واقتفاء أَثر أقدامه في حياتنا، وعلى اكتناه دعوة يسوع، واستبيان الهدف الذي يقودنا إِليه، وفكّ رموز لغته، واستيضاح ما يبتغيه منّا .

4- روحانيّة الصِّغَر، المعاشة جماعيّاً

عيش روحانيّة الصِّغر يستلزم جماعةً، وبيئة حياة تساندنا وتدعّم خياراتنا ورغبتنا في اتّباع يسوع والتقائه في الفقير والضعيف . وروحانيّة " السفينة " هي روحانيّةٌ جماعيّة، يحتلّ مركزَها الضعيفُ والفقير .

الجماعة هي حيثُ نعيش باستمرار سرّ الموت والقيامة، ونشرع نحبّ أعداءَنا عملاً بتعليم يسوع، وحيث يمكن لرسالة الإنجيل أن تضرب جذوراً .

و الحياة الجماعيّة هي الانسلاخ عن المصالح الشخصيّة الصغيرة، من أجل النموّ في الانتماء وفي الحبّ الواحد . وهي تقتضي حكمةً، وتدبُّراً، ووسائل تمييز، وعملاً مشتركاً، وأُسلوباً جديداً في ممارسة السُّلطة كخدمة؛ كما تفرض الخضوع والطاعة، مع إمكان محاورة السُّلطة ومساءلتها عندما تقتضي الضرورة... وأن يُوفَّر لكلّ فرد مجالٌ شخصيّ لكي يكبر، ويرتاح، ويصلّي، ويحقّق ذاته .

و علينا، في " السفينة "، التوفيق بين روحانيّتنا وكوننا مركزاً مهنيّاً تحكمه قوانين العمل، وأَربابَ عمل ندفع رواتب، إذ قد نتعرّض إلى التحوّل لرجال إدارة ناجحين، ولمربّين، وناشطين اجتماعيّين مؤهّلين، فنذهل عن مقتضيات الجماعة الأَساسيّة : أَي الحبّ، والمشاركة، والصفح، والحنان، والاحتفال .

و عيش روحانيّة " السفينة " يتطلّب معرفة عناصر جماعاتها المميّزة؛ فهي :

1ً - جماعات إيمان وتعاطف : إنّ الأَشخاص الذين نستقبلهم، والمصابين بإعاقةٍ عقليّة، ليسوا في خارج الجماعة، بل هم جزءٌ جوهريٌّ منها . لقد باتوا إخوة وأَخوات فيما بينهم ومع المساعدين، وجميعنا، معاً، نؤلّف أُسرة . ولكن ليس محتّماً أَن يكون للمعاقين والمساعدين إيمان واحد؛ ومن المحقّق أَنّهم لا يعيشون إيمانهم بكثافة واحدة، ولم يقدموا، جميعهم، إلى " السفينة " بدوافع روحيّة أَو دينيّة؛ فرغبتهم في الانتماء إلى جماعة تتقدّم، أَحياناً، على رغبتهم في الانتساب إلى كنيسة أو جماعة إيمان .

و من ثمّ فروحانيّة التواصل التي نعيشها في " السفينة " تفترض احتراماً عميقاً للأَشخاص، كما هم، أَيّة كانت معتقداتهم . فنحن مرتطبون معاً بإنسانيّتنا المشتركة، قبل ارتباطنا بالإيمان الواحد ... وبالتالي نحن مدعوّون إلى الاحتفال بوحدتنا وبتعاهدنا، بطرقٍ متنوّعة .

إنّ " السفينة " جماعة تعاطف، قائمة على الأَلم والأَجساد المحطّمة، وعلى استقبال من عانوا أَلم النبذ وتجمّدوا في القلق . فلا عجب أَن يكون العيش في جماعتنا وعراً .

2- جماعات علاجيّة

كثيرون من المعاقين يقدمون إلينا حاملين جراحاً بليغة، قانطين، ثائرين، مسجونين داخل جدران ألمهم . وهدفنا هو مؤازرتهم على السير نحو الشفاء والتحرّر الداخليّ؛ وفي سبيل ذلك، إنّما الحبّ، والجوّ العائليّ، والصلاة، والحياة الروحيّة، كلّها عناصر جوهريّة .

3- جماعات تحترم وتيرة إنسانيّتنا

ثمّة خطرٌ كامنٌ في تكليف المساعدين بعبء باهظ من العمل، وفي إرهاقهم، ووضعهم في أوضاع من التوتّر والأزمات المطّردة . وإن هم لم ينعموا بمواكبة جيّدة، لاعتراهم الشعور بأنّهم مرغمون على أن يكونوا غير ما هم حقّاً، وأن يحملوا ما لا طاقة لهم على حمله .

و قد تستهويهم مُثُلٌ عُليا، وهم يجهلون حاجاتهم الجوهريّة، فيُنهَكون .

علينا، إذن، أن نحسن مواكبتهم، ونحبّهم كي نساعدهم على الاختيار بحرّيّة وقبول ما يفرضه الاختيار من انسلاخات؛ وعلينا أن نوفّر لهم التثقيف، والراحة، والاسترخاء، والغذاء الروحيّ والفكريّ الذي يفتقرون إليه .

لقد تجسّد الكلمة، لكي يؤكّد لنا جمال بشريّتنا الجريحة، وجماعاتنا مدعوّة إلى أن تكون عميقة الإنسانيّة، لكي يحقّق كلّ إنسان ذاته، ويسير نحو الوحدة الداخليّة، وحدة الروح والجسد، وحدة العقل والقلب، والوحدة بين الأقوال والأفعال، لكي يتدفّق الفرح من الواقع ومن العلاقات التي تجمعنا .

4- جماعات شديدة التنوّع

في جماعاتنا متزوّجون وعزّاب، وآخرون، غير مزوّجين، يبحثون عن دربهم؛ ثمّة كهنة، وقسّيسون، ومرشدون روحيّون، وأصدقاء، وشركاء، وأعضاء مجالس إدارة، ومعاقون . وقد لا يكون لجميع هؤلاء الإيمان عينه، والثقافة عينها، وقد ينتمون إلى أجناسٍ مختلفة، وقد تتباين احتياجاتهم تبايناً شديداً، ولكن يجمعهم هدفٌ مشترك : حبّ الأشدّ وَهناً وفقراً، واحترامه، واستقباله .

نحن، جميعنا، مدعوّون إلى روحانيّة الاستقبال والحبّ، روحانيّة تعترف بإنسانيّتنا المشتركة . فيسوع هو الأخ الأكبر لكلّ إنسانٍ حيّ يعيش في العالم؛ ويدعو كلّ فرد إلى النموّ في الحبّ، وإلى قول نعم للّه، ولرؤية حبّه .

لكي تتمتّع الجماعة بوحدة حقيقيّة، لا بدّ من قبول التباينات والاعتراف بتنوّع المواهب والاحتياجات . وحينئذٍ لا يُنظر إلى الاختلاف على أنّه تهديد بل يُعدّ كنزاً ... وينبغي أن يُساعَد كلَّ عضوٍ في الجماعة على النموّ وفقاً لدعوته ورسالته ووفقاً للمواهب التي تلقّاها والتي دُعي إلى استخدامها في خدمة الجماعة بأكملها .

من خلال كلّ ذلك، نحن مدعوّون إلى عيش روحانيّة الوحدة، والصفح، والمصالحة، ومدعوّون إلى النضوج الضروريّ من أجل بناء السلام، وحلّ الخلافات . إنّ مجرّد العيش جماعيّاً مع أشخاصٍ مختلفين يوفّر فرصة للجميع كي ينموا في هذا المجال .

و مع ذلك، لا يسعنا الاستخفاف بصعوبة حبّ أشخاصٍ مختلفين، ففي مجتمعنا، قد يُحدث وجودُ أشخاصٍ معاقين إعاقة بليغة صدمة، إذ إنّ كثيرين لا يرتاحون إليهم، ويعجزون عن الاتّصال بهم، وهذا الشعور بالعجز قد يولّد القلق، والخوف من عُقَد نفسيّة . إنّنا سرعان ما نشعر بتهديد ما هو غريب وغير مألوف، ويعسر علينا الاعتراف بوجود اللّه في من هو مختلفٌ عنّا . ولا عجب إن احتجنا إلى مساعدة الروح القدس وقدرته من أجل تجاوز المخاوف، والدخول في علاقة تواصل ومشاركة، وتقبّل الاختلاف .

5- *جماعات هي أماكن احتفال*

دعوة جماعاتنا هي أن تكون أماكن احتفال، فالاحتفال هو صرخة شكر تتفجّر من الوحدة، وفي الوقت عينه، هي تعبير عن رغبتنا في نشدان هذه الوحدة معاً . إلهنا هو إله وحدة، يرغب رغبة عارمة في وحدة أبنائه، وتجرح قلبَه كلُّ أشكال الفُرقة، والبغض، والاضطهاد . ونحن في السفينة مدعوّون إلى الاحتفال بإنسانيّتنا المشتركة، وبالضعيف والفقير اللّذين يدعواننا إلى هذه الوحدة النابعة منهما أصلاً . إنّ روحانيّة " السفينة " هي روحانيّة صفح واحتفال .

الاحتفال الإفخارستيّ هو، بالطبع، أساسيٌّ في " السفينة " . إنّه سرّ الوحدة وهو احتفالٌ بها . فالضعيف والفقير يقودوننا إلى الإفخارستيّا، وجسدهما المحطّم يستدعي جسد المسيح المحطّم والمنتصر على الموت، وبالمقابل تقودنا الإفخارستيّا إلى جسد الضعيف والفقير المحطّم .

و في الجماعات التي ينتمي أعضاؤها إلى مذاهب مختلفة، والتي يندر فيها الاحتفال بالإفخارستيّا، من الأهمّيّة بمكان أن نحتفل معاً بحبّنا المشترك ليسوع ولكلامه، ونحتفل بوحدتنا وبإنسانيّتنا المشتركة، وبأيّام الأعياد وذكريات الميلاد، مستعينين بكلّ ما في الخليقة من جمال، للتعبير عن فرحنا وشكرنا .

الجماعات المرتكزة على أَشخاص يمتلكون القليل من القدرات الفكريّة والعقليّة، ولكنّهم يتحلّون ببساطة قلبٍ كبيرة، مدعوّة إِلى الاحتفال بالحياة، والحبّ، والوحدة، بكثير من القناعة والصدق . هذه الاحتفالات هي تظاهرات حبّ للّه وحبّنا المتبادل، ولا غنى عنها للحياة الجماعيّة، فهي غذاء جوهريّ للقلب والفكر. إِنّها تنبع من الانتماء، وتولّده، في آنٍ واحد . وهكذا فجماعاتنا كلّها مدعوّة إِلى أَن تكون، ولو على نحوٍ نبويّ، " إِفخارستيّة "، ومبنيّة على حضور يسوع .

ختام

إِنّ روحانيّة " السفينة " هي " روحانيّة الأَرنب "، لا روحانيّة الزرافة .

فنظر الزرافات يمتدّ إِلى بعيد، أَمّا الأرانب فتتلمّس طريقها . ونحن نتلمّس طريقنـــا، ولكنّنا سنمضي بعيداً، في الاتّجاه الصحيح، طالما استمررنا في مشاركة طعام الفقراء، علـــى مائدة واحدة، وفي الإِنصات إِليهم، وطالما استمررنا في تناول طعامنا على مائدة يسوع، فـــي تواصل معه ومع كنائسنا .

" روحانيّة السفينة "

La spiritualite de l'arche
(Novalis & Bayard editions / centurion 1995)

في هذا الكتاب يبيّن جان فانييه، مرَّةً أُخرى، ببساطة وإِقناع، كيف أَنّ العيش مع أَشخاصٍ معاقين، كفيل بأَن يصبح دعوةً مستمرّةً وملحّة إِلى تجاوز الذات . فالهشاشة المدوّنة في قلب الشخص المعاق، تعلن لكلٍّ منّا حدوده، وتدعوه إِلى تساؤل يفضي به إِلى التحرّر الداخليّ .

و يبدأ جان فانييه بالتأكيد أَنّه، مذ شرع، عام 1964، يعيش مع رفائيل سيمي، وفيليب سو، المعاقَيْن، قد تحول تحوُّلاً جذريّاً، فحتّئذٍ كان يعيش على مستوى الرأس والإِرادة، متمترساً خلف حواجز تخفي مخاوفه، وتحمي حساسيّاته . ولكنّه، في "السفينة" تعلّم العيش على مستوى القلب . ومُذّاك، عهد فرحاً عارماً، وازدهاراً في قلبه وعقله، مع أَنّه اجتاز أوقاتاً عصيبة .

و تعلّم الكثير عن القلب البشريّ، واحتياجاته، وتوجّسه من التواصل . وتعلّم، أَيضاً، الكثير عن الإِنجيل، وعن حياة يسوع وشخصه . وبالإجمال كانت " السفينة "، له، مدرسة حياة.

للعيش في " السفينة " مصاعبه، غير أَنّه معين نموٍّ إِنسانيّ وروحيّ، في مجتمع يُغفل، كلّ يوم أكثر فأكثر، قلبه وإِنسانيّته .

أَمّا روحانيّة " السفينة " فهي قائمة على يسوع الذي جاء لكي يُنجد الضعفاء، ويبلّغهم البشرى، وأَيضاً لكي يقوّض الجدران الفاصلة بين الأَغنياء والفقراء، بين الأَصحّاء والمرضى والمعاقين، علّ هؤلاء يتصالحون مع الحياة، ويحتلّون مكانهم في الجسد الواحد .

في " السفينة " يكشف الأَصحّاء والأَقوياء أَنّهم في حاجة إِلى المعاقين والضعفاء، مثل حاجة هؤلاء إِليهم . فقد قلب يسوع المعايير، وما عاد المطلوب من الغنيّ مجرّد " الإِحسان " إِلى الفقير، بل اكتشاف الربّ المختبئ فيه، وتبيُّن أَنّ الفقير هو، له، عامل شفاءٍ وتحرير .

يسوع جاء كي يردم الهوّة بين المالكين والمحرومين، مالكي المال، والسُّلطة، والعلم، والقوّة، والمحرومين من كلّ ذلك، فضلاً عن حرمانهم من الحبّ والكرامة . جاء لكي يزيل البُغْض، والأَحكام المسبقة، والمخاوف التي تفصل الأَشخاص والجماعات، داعياً الأَغنياء إِلى المشاركة، والفقراء إِلى الرجاء .

منذ تربيته الأَولى يُحرّض الطفل على الفوز وتخطّي الآخرين . ولا مراء أَنّ للمنافسة حسناتها، ولكن في مقابل كلّ فائز كم من الخاسرين المحبَطين، الذين، من جرّاء عجزهم عن التصعيد، يهوون إِلى أَسفل فأسفل، فاقدين الثقة بأَنفسهم . وغالباً ما ينزع الناجحون إِلى ازدرائهم، ويؤيّدهم، في ذلك، المجتمع الذي يُشيد بالأَقوياء، ويُقصي الضعفاء .

و جاءت "السفينة" لتنهج نهجاً مختلفاً، معترفةً بقيمة المعاق والفقير السامية، كما يراها اللّه، ومستنفرة قلوباً سخيّة للعيش معهم، وإِصلاح صورتهم الذاتيّة في عيونهم .

" السفينة " تؤمن أَنّ ليس للمال والمعرفة والسُّلطة شأن، ما لم توضع في خدمة الحياة .

و " السفينة " تستقبل، على مائدتها، من لا يرغب فيهم أَحد، ومن يعجــزون عــن ردّ الجميل بالمثل، عملاً بنصيحة يسوع .

و هي، بذلك، تفضح قسوة قلب المجتمع الاستهلاكيّ، وتُظهر التبــابن الشاســع بــين مجتمعاتنا التنافسيّة، الماديّة، الفرديّة، التي تحطّ من كرامة الإِنسان، ورسالة يســوع ببُعــدها الإِنسانيّ العميق .

بمصادقته رفائيل وفيليب، تحوّل جان فانييه من رجل عمل إِلى رجل إِصغاء؛ وبعد أَن كان له زملاء، بات له أَصدقاء، يُغنون نفسه وقلبه، ويحرّرونه من أَوهانه الذاتيّة وهواجسه .

معايشته للمعاقين، وإِصغاؤه إِلى موسيقى قلوبهم، علّماه الكثير عن ذاته وعن المعاقين، وعن الأَصحّاء الدائبين على إِخفاء جراحهم وراء أَقنعة .

إِنّ تمثّل يسوع بالأَصغر والأَضعف أَثبت أَنّ منطق الحبّ هو غيــر منطــق العقــل والسُّلطة . فالحبّ هو وضع الذات في متناول الآخر واستخدام لغته . فاللّه قــد جعــل ذاتــه صغيراً لكيلا نخشاه، ونكون على تواصل حبٍّ معه .

إِنّ اللّه قلبٌ ينشد قلبنا لكي يبثّ فيه الفرح والنشوة النابعين من التواصل الذي يوحّــد أَقانيم الثالوث الأَقدس .

و إِن كان، ثمّة، من كرّسوا حياتهم كي يشهدوا لحبّ اللّه، فالفقير، أَيضــاً ، مكــرَّس بزيت الأَلم، والنبذ، والهشاشة، ولذلك اختاره اللّــه لكــي يخــزي المتكبّــرين المــزدهين . بممتلكاتهم، وقدراتهم، ومواهبهم .

غير أَنّ معايشة المعاقين ليست، دائماً، بالأَمر السهل، وهي تحتاج إِلى إِيمانٍ راســخ، ودعم الروح القدس، والسير الدائم في خُطى يسوع .

و لئن كان الحبّ الحقّ مستحيلاً، بشريّاً، إِلا أَنّ اللّه يُظهــر مجــده وقدرتــه بجعــل المستحيل ممكناً .

و لا ريب أَنّ الحياة الجماعيّة المتحرّرة من العقَد، والمستهدفة خدمة الضعفاء، توفّر، هي أَيضاً ، دعماً كبيراً لمن يرغب في معايشة المعاقين . فمثل هذه الجماعات تتبنّى معــايير الإِنجيل، ويحتلّ فيها الصغار، والضعفاء، والفقراء، قلبَ الجسد، عوضاً عــن ذوي الســلطة، والأَقوياء، والمحظيّين؛ وتنتفي، فيها، المافسة، ولا يتفوّق أَحدٌ على آخر . غير أَنّ تحقيق ذلك

يقتضي جهداً متّصلاً يتكرّر كلّ ساعة، والصدوف عن نشدان الظهور، وعدم التخـوّف مـن التواري، ومن الإِكباب على المهمّات الوضيعة الرتيبة .

مجتمعاتنا شجّعت النزعة الفرديّة . فكلٌّ يمضي في طريقه الخاصّ، مأخوذاً بمشاريعه وتسلياته . وإن كان له أَصدقاء، فصداقاته حصريّة، يُقصي عنها المحرومون .

و في إزاء ذلك نهضت "السفينة" مكان تواصل مع هؤلاء المحرومين، كي تصـالحهم مع الوجود، وتعيد لهم ثقتهم بأَنفسهم، وتثبت أنّ الحبّ ممكن، وأَنّ الأنانيّة ليست هـي قَـدَر البشريّة المحتوم .

و تستلهم " السفينة " مثال يسوع الذي، عشيّة صلبه، غسل أرجل تلاميذه، لأنّه كـان مدركاً للخطر المتربّص بهم : كبرياء الحقيقة، والتطلّع إِلى سُلطة روحيّة، فكان لا بـدّ مـن دعوتهم إِلى التواضع، وخدمة الأَصاغر .

و يؤكّد جان فانييه أنّ تخلّيه عن كلّ مخطّط خاصّ قد جعله أَكثر تقبّلاً لمخطّط اللّـه، وأطوع انقياداً له، وأَشدّ جاهزيّة للعمل بهديه . وهو موقن بأَنّ بقاء "السفينة" واستمرارها فـي روحانيّتها، مرهونان بثقتها المطلقة في اللّه، مع كلّ ما تواجهه من تحدّيات، وفقدان الأَمان .

و أَخيراً يؤكّد جان فانييه على ضرورة تعاون " السفينة " مع الكنيسة، مع الحـرص على المسكونيّة، والانفتاح على جميع المذاهب، وعلى المؤمنين وغيـر المـؤمنين، فالـذين تستقبلهم " السفينة " إِنّما هي تستقبلهم لا بسبب انتمائهم إِلى دين أو مذهب معيَّنَيْن، بل بسـبب إِعاقتهم وآلامهم .

و بالإجمال، روحانيّة " السفينة " هي اقتفاء أَثر يسوع على دروب الصِّغر، والتواضع، والثقة، ونهجها هو نهج تحرّر، وفرح، وحبّ، ومصادقة الفقراء والضعفاء .

في "السفينة" نكتشف قلب المعاقين الذين يكشفون لنا سرّ إِنسانيّتنا، ونتوسّم قدرتهم على الحبّ . العيش معهم عسيرٌ أَحياناً، ولكنّ العيش معهم، في جماعة، يحوّلنا ويساعدنا على استجلاء الجوهريّ؛ إِنّنا نأتي لنساعد من هم أَضعف منّا، فنكتشف أَنّهم يساعدوننا .

الحياة في "السفينة" شديدة الاقتضاء، وتفترض الكثير من الزهد : راتب ضئيل، ساعات عمل طويلة، وعزوف عن بعض الخيرات الثقافيّة، وعن صداقات. ولكنّها تهب الكثير : الحياة الجماعيّة، والتمتّع بالحبّ، واكتشاف أَنّ للحياة معنى، وأَنّ بين الإِيمان والكفاءة والالتزام الاجتماعيّ رابطاً . إِنّ "السفينة" مكان نموّ إِنسانيّ وروحيّ .

"السفينة" عطيّة اللّه لحقبتنا حيث التقنيّة، والمعلومات الفكريّة والعلميّة ماضية في إِغواء الناس أَكثر فأَكثر، فينسون القلب والإِنسانيّة، أَو يتردّون إِلى الحزن والقنوط . وغالباً ما تسعى مجتمعاتنا إِلى إِزالة الضعفاء بحجّة أَنّهم مصدر إِزعاج، وأَنّ العناية بهم غالية الكلفة .

من خلال "السفينة"، يودّ اللّه التذكير بمعنى إِنسانيّتنا العميق، وبأَنّنا خُلقنا لكي نحبّ ونضع كلّ طاقاتنا في خدمة بناء مجتمعٍ أَكثر محبّة، حيث لكلّ فرد مكانه.

تريد جماعاتنا أَن تشهد، في المجتمع وفي الكنيسة، لحبّ اللّه الذي يرصد قلوبنا ويتقبّل ضعفنا . إِنّ حبّ اللّه طيبة، وحنان، وصفح . و"السفينة" ليست، أَوّلاً، حلاًّ لمشكلة اجتماعيّة، بل هي دليل على أَنّه ليس محكوماً على البشر بالحرب، والصراع، حيث الأَقوياء يسحقون دائماً الضعفاء، وأَنّ الحبّ ممكن، وأَنّ كلّ كائن بشريّ ثمين ومقدّس .

"السّفينة" أُسرةٌ أوحى بها اللّه وصاغها، والأُسرة من هذا النمط تفترض روحاً، ورؤية، وعلّة وجود مشترك، وروحانيّة ... والروحانيّة أُسلوب عيش يقتضي خيارات وأَولويّات .

عبر التاريخ، ووفقاً لاحتياجات العصور والثقافات، لم يكفّ الروح القدس عن استفزاز رجال ونساء يؤلّفون أُسَراً جديدة تشهد لحبّ اللّه ولقيامة يسوع ... ولجميعها أَساس واحد : الإِنجيل وحياة يسوع، وكلٌّ منها دربٌ إِلى النموّ في الحبّ، والتحرّر من المخاوف .

لقد استفزّ الروح القدس "السفينة"، من خلال الأَب توما فيليب، لكي يبيّن لحقبتنا أَنّ جوهر الكائن البشريّ ليس في المعرفة بل في الحبّ . ولذلك اختار الربّ التجلّي بطريقة خاصّة من خلال المعاقين ذهنيّاً، ومن خلال وهنهم، وبساطتهم، وقلبهم .

إِنّ "السفينة" أُسرة جديدة في العائلة المسيحيّة الكبرى، وفي شعب اللّه .

و بعض جماعاتها متعدّدة الأَديان، فهي، في الهند تضمّ مسيحيّين، وهندوسيّين ومسلمين . وكلٌّ يتجذّر في دينه الخاصّ، ونجد لدى بعض رجال، أَمثال المهاتما غاندي

روحانيّة قريبة من روحانيّة "السفينة" حيث الصغار والمتألّمون والمنبوذون ينهضون دليلاً على حضور اللّه . فبالاقتراب من الفقير، وبعقد معاهدة معه، يقترب المرء من اللّه .

إنّ روحانيّة "السفينة" مبنيّة على رسالة يسوع وسيرته، وفقاً لما بلَّغَنا الإنجيل.

قد يشقّ على بعض أَبناء عصرنا قبول أَلفاظ إِنجيليّة مثل " الفقيـــر " و"الضـــعيف " . فغالباً ما يُعَدّ فقيراً الفقير اقتصاديّاً . غير أَنّ إِنساناً بلا عمل، أَو أُمّاً فقدت ابناً، همـــا أَيضـــاً فقيران؛ والفقير هو من يعاني حاجةً ويعترف بها، ويستغيث. وغالباً ما يُعدُّ الوهنُ عيباً؛ ولكن أَلسنا، جميعنا، ضعفاء ومحتاجين على نحوٍ ما ؟ جميعنا معرّضون للعطب، ولجميعنا حـــدود وإِعاقات . وعندما نعترف بأَوهاننا، نستطيع التماس العون، والعمل معاً . ولئن كان الضعيف في حاجة إِلى القويّ، إِلاّ أَنّنا نكتشف، في السفينة، أَنّ القويّ، أَيضاً، في حاجة إِلى الضعيف .

الفصل الأوّل :

سرّ يسوع

كلّ روحانيّة مسيحيّة تقوم على يسوع . ونحن، في "السفينة"، نعيش، على نحوٍ خاصّ، سرّ يسوع الضعيف الذي جاء ليُنجد الضعفاء، ويبلّغهم بشرى .

في عهد يسوع، كما هي الحال اليوم، كان ثمّة عالَمان يفصل بينهما جدار : عالم الأغنياء الميّالين إلى إزدراء الفقراء، وعالم الفقراء الذين ينزعون إلى الانزواء في هذا النبذ، وفي أحزانهم . وقد نوّه يسوع بهذا الواقع من خلال مثل الغنيّ ولعازر .

لقد تناول يسوع طعامه مع الأغنياء، أمثال سمعان الفريسيّ، وزكّا العشار، ودعاهم إلى التغيُّر، وإلى الكفّ عن إزدراء الفقراء، وإلى اقتسام خيراتهم معهم؛ لم يقسرهم على بيع بيوتهم، بل دعاهم إلى فتح قلوبهم للفقراء . وفي إثر لقائه بيسوع، قرّر زكّا التبرّع بنصف ممتلكاته للفقراء .

لم يأتِ يسوع لكي يحاكم ويدين، بل لكي يجمع، في الوحدة، جميع أبناء اللّه المشتّتين . جاء ليقوّض الجدران الفاصلة بين الأغنياء والفقراء، بين الأصحّاء والمرضى أو المعاقين، لكي يتصالحوا ويحتلّوا مكانهم في الجسد الواحد .

لقد اجتاز يسوع دروب الجليل، وشعر القوم الوضعاء، والمرضى، والفقراء بطيبه ورأفته، فقد أحبّهم . كان يشفي المرضى ويبثّ الرجاء في صدر كلّ فرد، ويقترب من جميع المنبوذين باسم الدين، فيحدّثهم برقّة، ويعلن لهم عطف اللّه وصفحه . كان يبتغي تغيير الأوضاع، لا بالقوّة، أو بواسطة شرائع صارمة، بل بعقد علاقات صداقة مع الفقراء، وبإشراع طريق تواضع وتواصل .

لم يسعَ يسوع لأن يكون ملكاً في سبيل إعادة بناء مجتمع أوفر عدلاً حيث ينعم كلّ فرد بالاحترام، بل انتهج درب التواضع، والانحدار، ليكون أوثق قرباً من كلّ جريح . ودعا تلاميذه إلى الالتزام بالمكان الأخير، وبعدم التماس السُّلطة ولو من أجل عمل الخير، وبالخدمة كما يَخدُم العبيد، وضرب بنفسه، على ذلك، المثل .

لقد جاء يسوع برؤية جديدة تماماً، فلم يكتفِ بالإعلان أنّ اللّه كائن عطوف يسهر على الفقراء، ويدعو الأغنياء إلى المشاركة؛ بل جعل نفسه فقيراً؛ لقد صار الكلمة جسداً، والكلّيّ القدرة أصبح ولداً صغيراً أعزل يوقظ القلوب على الحبّ . أقواله، وأُسلوب حياته كانت تحيّر الناس، ولا سيّما ذوي السلطان، الذين أبوا الإصغاء إليه، ورفضوه، لا بل سعوا إلى قتله، وأخيراً أسلموه إلى السلطة المدنيّة، والحكم الرومانيّ . وحُكم عليه، وأُميت في خزيٍ تامّ،

وسط سخرية الجميع، وأَمسى رجلُ الرأفة في حاجةٍ إِلى رأفة . وهكذا قلب يسوع الأَوضـــاع فما عاد المطلوب منّا " الإِحسان " إِلى الفقير، بل اكتشاف يسوع المختبئ فيــه واكتشـــاف أَنّ الفقير هو عامل شفاءٍ وتحرير .

الفصل الثانـي :

روحانيّة مرتكزة على سرّ الفقير

العالَمان اللّذان كانا قائمين في عهد يسوع ما زالا قائمين اليوم في كلٍّ مـن بلـداننا، وقرانا، ومدننا، وقلوبنا . الغنيّ هو من يظنّ أَنّه يكفي نفسه بنفسه ولا يعترف بحاجتـه إِلـى الحبّ، وحاجته إِلى الآخر . وداخل كلٍّ منّا يثوي غنيّ . ثمّة أَغنياء بـالخيرات الماديّـة، أو الخيرات الثقافيّة، بل حتّى الروحيّة، راضون عن أَنفسـهم، ومسـجونون داخـل سـلطتهم، وامتيازاتهم، وأَحكامهم المسبقة . إِنّهم يملكون أَكثر ممّا يحتاجون إِليه، ومع ذلـك لا ينفكّـون يسعون إِلى المزيد؛ وثمّة دائماً أَكثر فأَكثر من فقراء، ومنبوذين يُعَدّون عاجزين عن الاندماج في المجتمع . إِنّهم طائفة المتسوّلين، والذين لا مسكن ثابت لهم، والعاطلين عن العمل، وكـلّ المعانين من مرض عقليّ، أو إِعاقة جسديّة أو ذهنيّة؛ إِنّهم المُسنّون المُهمَلون، والقـوم غيـر المستقرّين، والمسجونون في صورةٍ جريحة عن أَنفسهم . إِنّهم جميع المعانين من سوء التغذية والبؤس، وجميع اللاجئين الفارّين من الكراهية .

و رسالة يسوع، اليوم، هي عين رسالته أَمس : فقد جاء لكي يجمع في الوحدة جميـع أَبناء اللّه المشتّتين، ويهبهم الحياة بوفرة . ولذلك يبتغي إِزالة الـبغض، والأَحكـام المسـبقة، والمخاوف التي تفصل الأَشخاص والجماعات، وخلق موائل وحدة في هذا العالم المجزّأ، وبؤر مصالحة وسلام، داعياً الأَغنياء إِلى المشاركة، والفقراء إِلى الرجاء . وهذه هي رسالة السفينة وجماعات أُخرى : تقويض الجدران التي تفصل الضعفاء عن الأَقوياء، عسى أَن يعترفوا معاً باحتياجهم بعضهم إِلى بعض، وإِلى إِيجاد جماعة . هذه هي البشرى الحسنة .

****

إِنّ مجتمعاتنا الاستهلاكيّة تحضّ على الفرديّة، وعلى التنافس . فمنذ مقاعد الدراسـة ينبغي احتلال المركز الأَوّل؛ وينبغي الربح للظفر بالإِعجاب؛ وينبغي النجاح للظفر بعملٍ جيّد يوفّر السُّلطة والثروة والامتيازات . وفي جميع المجالات يتعيّن " الصعود " للحصـول علـى المزيد من الممتلكات، والاعتراف، والنفوذ .

و للمنافسة جانب إِيجابيّ، فهي تنمّي، إِلى الحدّ الأَقصى، الطاقات والقدرات، وتـدفع إِلى إِعطاء أَفضل ما في الذات، ولولا المنافسة والرغبة في الاعتراف والإِعجاب، لما أَحرزت البشريّة ما أَحرزته من تقدّم في مجالات كثيرة . فالسعي إِلى التميّز يقود إِلى المُتميّز، بيد أَنّ

للمنافسة جوانبها السلبيّة . ففي مقابل كلّ ناجح كم من الخاسرين، المُحبطين، والعاجزين عن إنماء مواهبهم ! إنّهم من جرّاء عجزهم عن التصعيد، يهوون أسفل فأسفل في فقدان الثقة بأنفسهم . والذين تسلّقوا سلّم الترقية الاجتماعيّة ينزعون إلى إزدراء من فشلوا ....

عام 1963 اكتشفت العالم " السفليّ "، بزيارتي مؤسَّسات، وملاجئ، ومشافي نفسيّة، حيثُ اطّلعت على عالَم المصابين بأمراض أو إعاقات نفسيّه، عالَم كآبة وجنون . كانوا مختبئين، منزوين بعيداً عن المجتمع لكيلا يراهم أَحد، مسجونين في غربة، وقد ضاقوا ذرعاً، بلا أيّ عمل . كانت قاعات النوم محكمة التنظيم، ولكنّها مفتقرة إلى أيّ طابع شخصيّ . وكان المعالجون يعملون بقلوبهم ولكن وقتهم لا يتيح لهم الاهتمام بكلّ فرد . وكان المعاقون ذهنيّاً يُترَكون وشأنهم مسحوقين أحياناً . وإن هم ثاروا – ولثورتهم ما يبرّرها – كانوا يُعاقَبون بشدّة، منعاً لكلّ عدوانيّة، وبالتالي لكلّ رجاء ...

و هكذا بدأت مغامرة "السفينة" .

أوّل ما اكتشفتُه لدى المعاقين هو عمق ألمهم، ألَم كونهم سبب إحباط لذويهم وأقربائهم، وجرحُهم الذي سبّبه نبذُ محيطهم وعبّر عنه بألف إشارة ازدراء، ممّا كان يثير غضبهم أو يدفعهم إلى اللّجوء إلى عالم الأحلام . واتّضح لي أنّهم كانوا يتطلّعون إلى الصداقة والثقة، ويحتاجون إلى التعبير عن احتياجاتهم وإلى من يصغي إليهم . فلطالما عانوا لأنّ الجميع انصرفوا عن الإصغاء إليهم، وأبوا أو لم يستطيعوا مساعدتهم على الاختيار وعلى التحكّم بحياتهم، فقد كان لديهم مثل احتياجاتي : أن يُحِبّوا ويُحَبّوا، ويستطيعوا الاختيار، وتنمية طاقاتهم .

و مع ترسّخ الصداقة بيني وبينهم، كنت أتبيّن قسوة مجتمعاتنا التي تؤثر الأقوياء، وتُقصي الضعفاء . ومع كرّ الأيّام اتّضح لي كم كان العيش المشترك بين المعاقين عقليّاً ومن جاؤوا ليقاسموهم حياتهم يناقض الثقافة الشائعة .

لم يكن قد مضى وقت طويل على وجودي في "السفينة" عندما عثرت على مقطع من إنجيل لوقا يقول فيه يسوع : " عندما تقيم مأدبة لا تدعُ إليها أصدقاءك، أو إخوتك، أو ذويك، أو جيرانك الأغنياء لئلاّ يدعوك، هم أيضاً، ويردّوا لك بالمثل. بل بالحريّ ادعُ الفقراء والمقعدين، والعرج، والعميان؛ والطوبى لك حينذاك".

كثيراً ما كنت سمعت هذا المقطع، ولكنّه لم يكن قد هزّني قطّ . وبغتةً تبيّنت أنّه كان يصف "السفينة" : فتناول الطعام على مائدةٍ واحدة مع رافائيل وفيليب وآخرين، كان يعني عقد صداقة ومعاهدة، وتكوين أُسرة معهم . وذلك يناقض كلّ التناقض مجتمعاً تنافسيّاً، تراتبيّاً، يُنبذ منه الضعفاء، وشرعت أُدرك كم بشرى يسوع تتعارض وثقافتنا .

لقد تحقّقت أَنّ المعاقين ذهنيّاً ليسوا مرضى يستلزمون علاجاً خاصّاً، بل هم أَشخاص يحتاجون إِلى محيط مناسب يشجّعهم على العيش، وعلى النموّ، ما استطاعوا، وعلى استجلاء معنى لحياتهم . وقد أَدهشني التقاء الإِنجيل والعلوم الإِنسانيّة حول هذا الموضوع، وتبيّنت كم مجتمعاتنا التنافسيّة، المادّيّة، والفرديّة تحطّ من كرامة الإِنسان، وكم رسالة يسوع عميقة البُعد الإِنسانيّ .

****

مصادقتي لرفائيل وفيليب وعيش معاهدة معهما كانا يقتضيان منّي تحوّلاً جوهريّاً . فبتربيتي كنت رجلَ جدوى وسرعة، يتّخذ قراراته بمفرده؛ كنت رجل عمل قبل أَن أُمسي رجل إِصغاء . في البحريّة كان لي زملاء، ولكن لم يكن لي أَصدقاء حقّاً . فأَن يصبح المرء صديقاً يعني أَن يعرّض ذاته للجراح، ويُسقط أَقنعته وحواجزه من أَجل استقبال الآخر كما هو، بجماله، ومواهبه، وحدوده، وآلامه، ويشاركه البكاء عندما يبكي، والضحك عندما يضحك ... في السفينة لم يعد يتعيّن عليَّ أَن أَترقّى في الرتبة، بل أَن " أنحدر "، وأَن " أَهدر " وقتي في علاقات مع معاقين، لكي أَصوغ معهم جماعة، وموئل تواصل ومعاهدة ...

حاجة رفائيل وفيليب الكبرى كانت الخروج من عزلتهما، والانتماء إِلى جماعة أَصدقاء، وعيش تواصل قلوب . وكان عليّ أَن أُحبّ وفقاً لهذا التواصل؛ فحبّ شخصٍ ما يعني، بالطبع، الرغبة في أَداء خدمات له، ولكنّه يعني، خاصّة، أَن تكون حاضراً له، وتظهر له جماله وقيمته، وتساعده على الثقة بذاته . والحبّ يعني، أَيضاً، أَن أَدع الآخر يلمس فقري، وأَن أُوفّر له فرصةً لحبّي . وكانت حاجة رفائيل وفيليب إِلى أَصدقاء شديدة بقدر ما عانيا من النبذ، وبقدر ما تكوّنت لديهما صورة سلبيّة عن ذاتهما . وكان عليّ محو هذه الصورة، بإِشعارهما فرحي بوجودهما وبالعيش معهما .

وبلمسي هشاشة المعاقين ذهنيّاً، وبتلقّي ثقتهم، كنت أَشعر بتدفّق ينابيع حنان جديدة فيّ . كنت أُحبّهم، سعيداً بالعيش معهم، وكانوا يوقظون جزءاً من كياني ما برح، حتّئذٍ، هزيلاً، ضامراً، ويُشرعوني على عالمٍ آخر، لا عالم القوّة والنجاح، والسُّلطة والجدوى، بل عالم القلب، والانفتاح على الآخر، والتواصل، وكان ذلك مبتكراً في حياتي . لقد قادوني على درب الشفاء والوحدة الداخليّة .

إِنّ مصادقة الفقير شديدة الاقتضاء، فهي ترسّخنا في واقع الأَلم، وتمنعنا من اللجوء إِلى الخواطر والأَحلام . فنداء الفقير إِلى الصداقة والتضامن يحملنا على الاختيار، والإِيغال في الحياة الداخليّة، ووضع الحبّ في صميم حياتنا اليوميّة، ويحوّلنا .

غير أَنّ هذه الصداقة تُبرز التمزّقات التي تنتابنا . فمن السهل تجنّب المقتضيات، والاستسلام لغواية المشاريع الشخصيّة، والنشاطات التي تبدو مثيرة، والتسليات، والمُتَع التي تجعلنا نتخلّى عن التضامن . أمّا الحياة المسيحيّة، واستقبال الفقراء، وروحانيّة السفينة، فتستلزم صراعاً . ولعيش هذا الصراع نحتاج إِلى نعمة الروح القدس الذي نتلقّاه بالصلاة، وفي اللحظات التي نقيم، خلالها، في حبّ يسوع .

و بمصادقتنا الفقير نشرع نكتشف لديه صفات قلب قد لا نجد الكثير منها لدى من يضعون طاقاتهم في خدمة النجاح ... إِنّ الأَشخاص الذين استقبلناهم يتميّزون ببساطة العلاقة؛ فالثقافة الشائعة والتقاليد لا تشلّهم؛ وهم قادرون على استقبال الزائرين بفرح، من غير أَن يولوا كبار العالم اهتماماً أَكثر من سواهم . فهم لا ينظرون إِلى الوظيفة أَو المركز بل إِلى القلب؛ ولا يلبسون أَقنعة فيتجلّى الفرح والغضب على وجوههم، ويعيشون اللحظة الراهنة، متحرّرين من سجن الماضي وأَحلام المستقبل . وبالتالي يبدو أَنّهم يمتلكون طاقة كبرى على الصفح، وتخطّي جراح الخلاف . هذه الصفات جميعها تجعل منهم رجال ونساء صداقة، واستقبال واحتفال . وبعزوفهم عن النجاح والمنافسة، كثيرون منهم يشعّون فرحاً . هذا الفرح لا تحبسه آلامهم السابقة وإِعاقاتهم، بل تزيده تفجّراً . فيبدون أَوفر وحدة داخليّة وانسجاماً من أَشخاص موهوبين عقليّاً ويدويّاً، ولكنّهم ضامرون، في نطاق الحبّ، وهم يرشدوننا إِلى درب الحبّ .

و لئن كان المعاقون، أَحياناً، يوقظون فيّ الحنان ويهبونني فرح المكوث معهم، إِلاّ أَنّ آخرين، في أَحيانٍ أُخرى، كانوا يوقظون فيّ مشاعر الغضب وآليّات الدفاع .

فقد كنت أَتوجّس خشيةً من أَن يمسّوا مواطن وهني، ويعترينى من جرّاء ذلك الاضطراب، في حين أَنّ الترحيب بالمعاقين يستلزم السلام والجاهزيّة . ولقد كان عسيراً عليّ اكتشاف عالم الظُلُمات، والقَلَق، والخوف، والفوضى، والبغض النفسيّ الذي كان يقطن فيّ، ذلك العالم الذي يخفي جراحنا القديمة، ويبرز عجزنا عن الحبّ . فإِن نحن اقتصرنا على حبّ من نغنم من حبّه، أو نستمدّ منه متعة، فهل نحن نحبّ حقّاً، أَم إِنّنا نحبّ ذواتنا ؟ فما السبيل إِلى الخروج من ذواتنا لالتقاء الآخر الذي يستغيث، ويحتاج إِلى الحبّ، ولكنّه يزعجنا، ويضجرنا، ويوقظ فينا القلق؟ إِنّه لشاقّ، ولكنّه خلاصيّ جدّاً، لمَن، مثلي، استطاعوا، دائماً، فعل ما يشاؤون، ونجحوا، أَن يكتشفوا عجزهم، وفقرهم، ومواجهتهم الفشل . فبتبيُّني عجزي عن الحبّ، وعُقَدي الداخليّة، قد أَفضى بي إِلى تلمّس إِنسانيّتي، وإِلى عيشٍ أَعمق تواضعاً .

فهل كان بوسعي أَن أَكون عطوفاً مع رافائيل وفيليب، وتقبّل مواطن وهنهما وجراحهما، لو أَنّني كنت عاجزاً عن تقبّل وهني وفقري وجراحي ؟ إِنّ العيش مع معاقين ومصادقتهم يقودانا إِلى الهبوط عن عرشنا والاعتراف بإِنسانيّتنا المشتركة وبما نلقاه من مشقّة في الحبّ .

لقد اتّضح لي أَنّ مصادقة المعاقين تقتضي منّي أَن أكثّف الجهد على معالجة ذاتي بعون الروح القدس، عبر الصلاة، وبالتعاون مع مرافقيّ، وأَن أَتعلّم تقبّل ذاتي، متحرّراً من كلّ وهم حول نفسي؛ وكان عليّ أَن أَكتشف الصفح وحاجتي إِلى أَن أَظفر بالغفران . وشيئاً وفشيئاً ساعدني الفقراء على تقبّل فقري، وعلى أَن أُصبح أوفر إِنسانيّةً، وأَعثر على مزيد من الوحدة الداخليّة .

و عندما نكون مع معاقين يتحتّم علينا أَلاّ نكون مستعجلين، بل أَن نهب نفسنا وقتاً كافياً للإِصغاء إِليهم وفهمهم .. فوتيرتهم هي وتيرة القلب، وعلينا أَن نسير بتُؤَدة لكي نعيش العلاقة عيشاً أَعمق .

الإِصغاء هو، في المقام الأَوّل، موقف . هو محاولة فهم الآخر بآلامه، ورغباته ورجائه، بعيداً عن محاكمته وإِدانته . والإِصغاء هو إِبراز قيمة الآخر من أَجل منحه الحياة، ومساعدته على الثقة بنفسه . كثيرون يتأَلّمون لأَنّ لا أَحد يحاول فهمهم . ولكن إِذا أُصغي إِليهم باهتمام وعطف، شرعوا ينفتحون .

و ليس الإِصغاء إِنصاتاً إِلى الكلمات فحسب بل أَيضاً إِلى تعابير الجسد، وإِلى اللغة غير الملفوظة . فرفائيل، مثلاً، كان يكاد لا يتكلّم، وتوجّب عليّ أَن أُصغي إِلى لغته الخاصّة، وإِلى المعنى الذي كان يعطيه للكلمات القليلة التي كان يتلفّظ بها . وترتّب عليّ أَيضاً أَن أَتعلّم لغة جسده، ودموعه، وأَحزانه، وبسماته، ومداعبته، وصيحات غضبه الناجمة عمّا يعانيه من كبت . إِنّ المعاق يعبّر عن ذاته بجسده أَكثر من تعبيره بكلام معقول، وبالتالي ينبغي التنبّه للغته البسيطة المحسوسة من أَجل الإِحاطة بآلامه ومتاعبه، ورغباته وآماله .

عندما أَكون مركّزاً اهتمامي على ذاتي، ومشاريعي، وفي حاجة إِلى إِثبات ذاتي، يمسي أَصعب عليّ أَن أُصغي، فالإِصغاء إِلى كلام الآخر وتعابيرجسده يستلزم نوعاً من الانسلاخ عن الذات، والانفتاح والجاهزيّة لتقبّل ما يريد الآخر إِعطاءه، والذي قد ينطوي على كلّ ثوراته وظلماته، وأَيضاً على كلّ جمال قلبه.

في " السفينة " تعلّمت الإِصغاء غير المشروط للمعاقين، وهذا التعلّم ساعدني على أَلاّ أَحكم على الناس انطلاقاً من معايير وشرائع، بل على محاولة فهم جراحهم الداخليّة، ومؤازرتهم على التقدّم خطوة فخطوة . وتعلّمت أَنّني إِن أَنا أَفرطت في الاقتضاء، لظلّ القوم مشلولين ورازحين تحت عبء الشعور بالذنب؛ وإِن لم أَقتضِ بقدرٍ كافٍ، لما تقدّموا قطّ . وهذا التعلّم ساعدني أَيضاً على سرعة استبيان أَقنعة أَشخاص موصوفين بأَنّهم " طبيعيّون "، أَقنعة يرتدونها كي يخفوا محدوديّتهم، وجراحهم، وآلامهم الداخليّة . ولطالما ساعدني الإِصغاء الخالي من المحاكمة على تجاوز آرائي المسبقة وهي ثمرة تربيتي، لكي أُقدّر أَشخاصاً ينتمون

إلى ثقافات وديانات مختلفة . فعندما يشعر الآخر أنّ، ثمّة، من يسعى إلى فهمه، والتقرّب من قلبه، فهو أيضاً يُسقط مخاوفه وآراءه المسبقة، ويُصبح أكثر ثقة .

عندما نُصغي إلى الفقير بقلب مفتوح، نكتشف فيه مظاهر نبويّة، فالمعاق ذهنيّاً لا يستطيع معرفة اللّه عقليّاً أومن خلال مفاهيم مجرّدة . ولكنّه يستطيع إدراك أنّه محبوب؛ إنّ الطفل الذي يشعر أنّه محبوب يعيش في سلام، أمّا إذا شعر بأنّه غير مرغوب فيه فهو يتألّم . ومعرفته ليست مجرَّدة، بل عاطفيّة، ملموسة، وتمرّ عبر القلب والجسد والمشاعر . كذلك هو شأن المعاق عقليّاً، ولا سيّما إن كانت إعاقته عميقة .

إنّ التطويبات التي أعلنها يسوع تمثّل شريعة حياة . ويتعيّن على بعض الناس الذين يمتلكون قدرات ومعارف أن يختاروا دربهم وفقاً لها . أمّا الموغلون في الفقر، ولا سيّما المعاقين ذهنيّاً، فلا خيار لهم . إنّهم فقراء بالروح؛ وكثيرون منهم ودعاء ومتواضعون؛ وهم يبكون لأنّهم اعتادوا الألم؛ ومتعطّشون إلى العدل، ربّما من أجل ذواتهم؛ وللكثيرين منهم قلوب طاهرة، وكثيرون منهم مضطهدون وصانعو سلام . ومن خلال كيانهم يتجلّى حضور يسوع، فقيراً ومتواضعاً ...

بيد أنّ الانفتاح التلقائيّ على اللّه لا يعفي المعاقين من الكفاح وبذل الجهد، فهم يحتاجون إلى مساندة، وتثقيف، ودعم لكي يقبلوا أنفسهم كما هم، وينموا في الإيمان، ويعيشوا في الواقع لا في الخيال . ونحن في " السفينة " وفي " إيمان ونور " ننظّم لهم رياضات وجلسات تثقيفيّة تعالج فيها قضايا هامّة مثل الإعاقة، والجنس، والموت، ووجود اللّه في حياتهم . وهذه الفترات تؤتي بعضاً منهم تحرّراً ونضوجاً داخليّين حقيقيّين .

إنّ تمثّل يسوع بالأصغر والأضعف يظلّ واحداً من أعظم أسرار الإنجيل وأكثرها استعصاءً على الإدراك . فكيف يمكن للّه – وهو العظمة، والجمال، والقدرة – أن يُصبح الأصغر، والأشدّ تألّماً، والأكثر وهناً ؟ إنّ منطق الحبّ هو غير منطق العقل والسُّلطة . فالحبّ هو وضع الذات في متناول الآخر، واستخدام لغته . فمن أحبّ ولداً كلّمه بلغته، ومن لاعب ولداً فعل كما يلعب الأولاد . وعلى هذا النحو يجعل اللّه ذاته صغيراً لكيلا نخشاه، ولكي يكون على تواصل حبٍّ معنا .

لقد صار الكلمة جسداً لكي يعلن لنا أثمن ما فينا : قلبنا المعرَّض للعطب، وتعطّشنا إلى أن نُحَبّ، وقدرتنا على حبّ الآخرين، وعلى أن نكون عطوفين ورحومين، وعلى أن نهب الحياة . ليست الأهميّة الكبرى للمعرفة والسُّلطة بل للحبّ الذي يتيح للمعرفة والسُّلطة أن تكونا في خدمة الحياة، وفي عيش علاقات وفاء . ومن أجل ذلك يتمثّل يسوع بالضعفاء الذين يجأرون بحاجتهم إلى الحبّ، ويلتمسون التواصل . إنّ سرّ إلهنا أنّه إله خفيّ . ليس إله شريعة

يأمر ويتطلّب، ولا معلّماً يرشد إلى سراط الخلاص، بل هو تواصل وحبّ . إنّه قلب ينشد قلبنا لكي يبثّنا الفرح والنشوة النابعين من التواصل الذي يجمع أقانيم الثالوث الأقدس .

و بتمثّله بالفقراء يذكّرنا يسوع بتمثّله بما هو صغير في كلٍّ منّا، فالمطلوب منّا هو أن نمسي واثقين، منفتحين، دَهِشين كالأطفال .

عبر الأجيال شجّعت بعض الكنائس نمطاً من الحياة المكرّسة، وعُدَّ الأشخاص المكرّسون شهوداً مميّزين للّه . وإن كان قلب كلّ معمّد يخصّ اللّه، إلاّ أنّ الأشخاص المكرّسين يتوخّون إبراز هذا الانتماء من خلال نمط حياة خاصّ .

و لكن يبدو أنّ الإنجيل يكشف النقاب عن سرٍّ آخر، سرّ الفقير المكرّس بزيت الألم، والنبذ والصِّغر . عندما يعلن القدّيس بولس أنّ اللّه يختار المجنون، والضعيف، والمُحتَقَر، أو عندما يشبّه يسوع ملكوت اللّه بمأدبة عرس دعي إليها الفقراء، والمتسوّلون، والمقعدون، والمعاقون، فكلاهما يؤكّدان المكانة الفريدة التي يحتلّها الفقراء في قلب اللّه . فيسوع الذي عرف النبذ والازدراء يتمثّل بهم . أوَ ليس هذا هو نظام الإنجيل الجديد الذي جاء لكي يقوّض النظام القديم ؟ نحن، في "السفينة"، قد شرعنا نستشفّ هذا السرّ الذي استشعره أشخاص أمثال القدّيس منصور دي بول الذي أعلن : " الفقراء هم أسيادنا " .

إنّ اللّه يرفض النبذ، فالنبذ هو ثمرة تصلّب القلوب وثمرة الخطيئة . ولكنّ الإنجيل يوضّح أنّ الربّ يرحّب بمن نبذهم المجتمع .

****

معايشة الفقير وتناول الطعام معه على مائدة واحدة، ليسا دائماً، أمراً شاعريّاً، بل هو حافلٌ بالصراعات والخلافات . فالمعاقون، أحياناً، منكفئون على ذواتهم، وعلينا أن نكافح كلّ ما يطويهم على أنفسهم، وأن نساعدهم على الانفتاح على الآخرين، وعلى تحرير قلوبهم من الخوف، ومن مشاعر الانهيار والموت . وهذه الصراعات شاقّة، وغالباً ما نحتاج، في سبيل خوضها، إلى دعم الحياة الجماعيّة، لا بل دعم بعض المختصّين .

لبضع سنوات خلت، قضيت عطلة صيفيّة مع فريق من السفينة يضمّ خمسة عشر فرداً . وكانت حياتنا معاً بسيطة ولكن كثيرة الاقتضاء، إذ كان يتعيّن إعداد الطعام والاضطلاع بأعمال التنظيف، في حين أنّ فريقنا يضمّ عدداً من المعاقين إعاقة سحيقة .

كنتُ أستيقظ باكراً فأمضي إلى دير رهبان قريب، وأُشارك الرهبان صلاتهم، وأُفيد كثيراً من فترة الصمت والسكون هذه . ولكنّني كنت أعود مثقل القلب، إذ كنت أخشى، إثر هذه الساعات المباركة، العودة إلى الاهتمامات اليوميّة من إعداد الإفطار، وإيقاظ " لويك "،

وتحميه، وإيقاظ المساعدين، إلخ ... ومع مرور الأيّام، كنت أزداد اكتئاباً؛ فقد كانت حياة الرهبان تستهويني أكثر فأكثر . وحينئذٍ أدركتُ أنّ عليّ التحديق في دعوتي الخاصّة، وقبولها قبولاً كاملاً، في معزل عن التمزّق والأحلام . فيسوع لم يدعُني إلى عيشة الرهبنة، بل إلى إلتقائه في الفقر وفي أفعال الحبّ الصغيرة اليوميّة، في "السفينة" .

إنّ العيش مع الفقراء يقسرنا على هجر نظريّاتنا، وأحلامنا، وآرائنا الجميلة عن اللّه، لكي نعيش في واقعٍ قد يكون أحياناً قاسياً ومزعجاً . في هذا الواقع سيتسنّى لنا اكتشاف اللّه المدعوّ عمّانوئيل أي " اللّه معنا " . إنّه حاضر هنا، في هوّة إنسانيّتنا، وفي صميم ألمنا الخاصّ .

****

ينبغي أن نعمل كلّ شيء لكي نثقّف المعاقين ونعيد دمجهم في المجتمع . ولكن علينا، أيضاً، أن نتعلّم مسايرة الذين لن يُشفوا أبداً، والذين سيظلّون منبوذين، مسجونين في قلقهم وفقرهم، فهم في حاجة إلى صداقة وإلى حياة جماعيّة، وإلى أن يُعلَن لهم جمالهم وقيمتهم . إنّ الإنجيل يكشف لنا النقاب عن أمرٍ جديد كلّ الجدّة، وهو أنّ هؤلاء المعاقين، مع آلامهم وفقرهم، لديهم ما يهبونه . فهم بمجرّد كيانهم، علامة إلهيّة، وحضور ليسوع .

و روحانيّة "السفينة" ليست، في المقام الأوّل، " فعل أشياء " للفقراء، بل هي الإصغاء إليهم، واستضافتهم، والعيش في تواصل معهم، من أجل مساعدتهم على اكتشاف معنى لحياتهم . وهم يكشفون لمن يُقبلون للعيش معهم حجم القلب والرأفة، ويبشّرونهم بالإنجيل، ويهدونهم إلى سراط التطويبات؛ ويتمّ تحوّلٌ في قلب أولئك الذين وافوا لكي يخدموهم، فيستبينون فقرهم الذاتيّ؛ ويقودهم الفقراء من السخاء إلى الرحمة، ويجعلونهم يكتشفون قول يسوع : " كونوا رحماء كما أنّ أباكم السماويّ رحيم؛ لا تدينوا لئلاّ تدانوا؛ إغفروا يغفر لكم " .

يتّضح لنا، إذن، أنّ المعاقين ذهنيّاً، وجميع القابعين في أسفل السلّم الاجتماعيّ، يمثّلون مفارقة . فوفق نظرةٍ إيمانيّة، هؤلاء الذين يُعدّون " فشلاً " يُمسون قادرين على إعادة التوازن لعالمنا . قيل في يسوع : " الحجر الذي رذله البنّاؤون صار حجر الزاوية " . وعلى هذا النحو، إن نحن تقبّلنا المنبوذين، لحوّلونا. ذلكم هو الإنجيل والعهد الجديد الذي أقرّه يسوع . ولكي نتحوّل جذريّاً، ونعيش هذا الحبّ الجديد، نحتاج إلى موهبة الروح القدس، ونظرة الإيمان، ورجاءٍ وحبٍّ متفجّريْن من قلب يسوع، ونابعيْن من تواصلنا معه بالصلاة . إن تبدّل نظرتنا إلى الفقير وتحوّل قلبنا، عمل بطيء ورائع، يتحقّق في بوتقة الحياة الجماعيّة .

الفصل الثالث

روحانيّة معاشة في جماعة

بُغْية " السفينة " إنشاء جماعات يعيش فيها، معاً، معاقون وأَشخاص مدعوّون إلى مصادقتهم، وتحدّي جماعاتنا يتمثّل في الجمع، برباط الوحدة، بين أَشخاصٍ قادرين وأَقوياء، وأَشخاصٍ فقراء ومنبوذين .

و يتمثّل عمل يسوع في تدمير حواجز الأَحكام المسبقة والخوف التي تفصل المعاقين عن الأَصحّاء من أَجل دمجهم في جسد واحد . إنّه يخالف اتّجاه المجتمع التراتبيّ حيث ذوو السُّلطة، والأَقوياء، والمحظيّون يحتلّون القمّة فيما يقبع على الحضيض الصغار، والضعفاء، والفقراء . إنّه يُحدث انقلاباً كلّيّاً، حيث يتبوّأ الأَخيرون قلب الجسد الذي أَنشأه يسوع، وتنتفي المنافسة، وحيث لكلٍّ مكانه ولا يتفوّق أَحدٌ على الآخر . كلٌّ فرد مختلف عن الآخر، وجميعهم رفيعو الشأن وضروريّون .

و "السفينة" تتوخّى أَن تكون جسداً يتوحّد فيه الضعفاء والأَقوياء فمهمّتها الجوهريّة هي الاستضافة، والعناية، والعمل، والتواصل مع المعاقين الذين يكوّنون جزءاً من الجماعة . وهذه الحياة الجماعيّة مع أَشخاصٍ ضعفاء هي نبع شفاء وتحرّر ليس فقط للمعاقين، بل أَيضاً للمساعدين العاملين .

بعيشنا اليوميّ مع الفقير يشركنا يسوع بالتواصل الذي يعيشه هو مع الآب . وبتناولنا الطعام مع المعاقين عقليّاً، وبمصادقتنا إيّاهم، ننهض بعمل وحدة، ومصالحة وسلام؛ وننمو في الحنان الإِلهيّ، ونكتشف غفران يسوع، ونصبح علامةً للاحتفال بالأَعراس الأَبديّة . ومن ثمّ تحتلّ الوحدة مكانة فريدة في جماعة "السفينة" .

بيد أَنّ مثال الحياة الجماعيّة هذه، مثال الجسد الذي لا تنافس فيه وحيث لكلّ فرد مكانته، لا يتحقّق أَبداً على نحوٍ نهائيّ، بل يقتضي كفاحاً يوميّاً، إِذ سرعان ما تفرز العلاقات مصاعب، وحسداً، وغضباً، ومخاوف؛ وقد ننزع إِلى تجنّب بعض الأَشخاص، بحيث نكون معهم جسميّاً، من غير أَن نلتقي، مثل بواخر تمخر عباب البحر ليلاً .

ليس سهلاً الاندماج في جسم جماعة على من كانت المنافسة تسري في عروقه، وعلى من تعلّم أَن يكون دائماً الأَفضل، وأَن يترقّى، ويُثبت ذاته، ويُثير الإِعجاب، بل عليه أَن ينسلخ عن أُسلوبه في النظر والعمل . ولا يعني ذلك وجوب تخلّيه عن كلّ حياةٍ ذاتيّة أَو تفكير شخصيّ، ولكن عليه، أَوّلاً، أَن يكون دائم الإِنصات، وأَلاّ يفرض وجهة نظره، بل أَن يسعى، دائماً، نحو الوحدة . فالحياة الجماعيّة تقتضي التعاون والمشاركة في القرار، فلا بدّ من قضاء

بعض الوقت في اجتماعات قد تبدو طويلة ومرهقة؛ إِذ ينبغي أَن يتحمّل كلّ فرد قسطاً من المسؤوليّة، والاجتماعات تتيح التعبير عن الآراء والإِصغاء إِلى الآخرين، بحيث تصبح بوتقة لصنع الوحدة .

و الحياة الجماعيّة، ونشدان الوحدة يقتضيان جهداً مستمرّاً لكي يكون الإنسان متيقّظاً لاحتياجات الآخرين، ولا سيّما أولئك الذين لا يميل إِليهم، ولكي يحافظ على مكانتهم . وهما يقتضيان، أَيضاً، جهداً لتقبّل الاختلاف، وعيش الصفح كلّ يوم . ومواطن الاختلاف بين أَعضاء السفينة كثيرة ومتعدّدة، ولكنّ الوحدة داخل هذا التنوّع تتحقّق من خلال المعاقين، الذين، من جرّاء عطشهم إِلى حبّ الآخرين واعترافهم بهم، وبفضل ثقتهم، يلمّون شملَ جميع الأَعضاء، ويضفون على الجماعة معناها واتّجاهها . والإِيمان باللّه وحبّه هما اللّذان يدعوان كلّ فرد ويلهمانه، ويتيحان له التركيز على الجوهريّ وعيش هذه الوحدة .

كثيرون من المساعدين العاملين في السفينة يؤكّدون أَنّ الفترة التي أَمضوها في عيشٍ بسيط مع المعاقين قد غيّرتهم، وأَتاحت لهم النموّ، في عالم حافل بالخلافات والتنافس، عالمٍ يفرض ارتداء القناع والعدوانيّة . يبدو أَنّ هذه الحياة القائمة على علاقات ودّيّة تسعدهم، مع ما تتّسم به من اقتضاء ووعورة، ومع ذلك كثيرون منهم لا يستقرّون في السفينة، فالبقاء فيها، وعيش المهامّ اليوميّة الصغيرة، لا بضعة أَشهر أو بضع سنوات فحسب، بل مدى حياة بأَكملها، يستلزم اكتشاف روحانيّة الحبّ في الأُمور الصغيرة .

هذه الأُمور الصغيرة غالباً ما تُعتَبر تافهة، عديمة القيمة، بيد أَنّ كلّ تلك الأَعمال الصغيرة قد تصبح أَعمال حبّ، وتخلق بيئة حارّة تتيح تواصل القلوب، وتجعل من الحياة الجماعيّة مدرسة حبّ . وإِن كان لا بدّ، في الحياة الجماعيّة، من مسؤولين يحملون الرؤيا، ويضمنون الوحدة، إِلاّ أَنّ هناك العديد من الأَشخاص الخفيّين الذين يلعبون دوراً أَساسيّاً، فهم يحبّون برقّة، وينفقون وقتاً في " العيش مع"، ويحمّمون المعاقين، ويُعدّون الطعام : إِنّهم على صلة أَوثق بالآخرين، وهم أَدوات الحبّ .

إِنّ جماعات السفينة تتوخّى أَن تكون أَماكن حبّ وسعادة؛ والخطر يكمن في الانزلاق إِلى غوايات ما هو كبير، غوايات الثروة، والنجاح، واكتساب السُّلطة، والخيرات المادّيّة، والامتيازات، فمن وقف طاقاته على هذه المجالات قد يُغفل ما هو إِنسانيّ، ويذهل عن إِنشاء علاقات صداقة وإِخاء .

إِنّ مجتمعاتنا تتناثر شظايا، وشبكات الصداقة والإِخاء الطبيعيّة تتلاشى، وكلٌّ يسير في طريقه الخاصّ، مأخوذاً بمشاريعه الخاصّة، وتسلياته . وإِن كان لكلّ إِنسانٍ أَصدقاء، إِلاّ أَنّ هذه الصداقات غالباً ما تنقلب حصريّة، ويُقصى عنها الفقراء .

و من ثمّ، أَوَ ليس حيويّاً، اليوم، أَن نوجد، من جديد، أَماكن انتماء، حيث يتواصل الأَشخاص، وينفتحون بعضهم على بعض، ويستعيدون، معاً، معنى للحياة ؟ فما أَكثر الذين فقدوا الثقة في أَنفسهم، وفي مجتمعاتنا، وفي المستقبل، وفي الكائن البشريّ عامّة !

إِنّنا، جميعنا، في حاجة إِلى إِستعادة الثقة والرجاء، وإِعادة اكتشاف جمال القلب البشريّ وطاقات حبّه . إِنّ جماعات السفينة تبتغي أَن تشهد بأَنّ الحبّ ممكن، وأَنّه ليس محكوماً علينا بالأَنانيّة الفرديّة أَو الجماعيّة . هذه هي رسالتها في المجتمع.

و من المحقّق أَنّ لدرب الحبّ اليوميّ المتواضع، الوثيق الصلة بالأَشخاص، بعداً عالميّاً؛ فأَصغر عمل نقوم به خدمةً لأَخ أَو لأُخت يتردّد صداه حتّى آخر الدنيا .

****

لقد انتهج يسوع درب الهبوط إِلى التواضع الذي أَفضى به إِلى التقاء فقراء وحيدين وإِلى التواصل معهم . وهو يدعونا إِلى انتهاج هذا الدرب عينه : " من رفع نفسه هبط، ومن وضع نفسه ارتفع . " فهو عليم بنزعتنا إِلى اقتناص السُّلطة والتحكّم بالآخرين، وبوجود طاغوت هاجع في داخل كلٍّ منّا . وهو شديد القسوة حيال من يستخدمون الدين في سبيل مجدهم الخاصّ، ومن يسحقون الفقراء من غير أَن يصغوا إِليهم . إِنّ الخطر الذي يهدّد دائماً الأَشخاص الكرماء هو التحديق في ذواتهم من خلال مرآة الرضى عن الذات . وثمّة خطر، أَيضاً، في استخدام الأَشخاص الضعفاء للسيطرة عليهم، وخطر في التماسهم اعتراف الآخرين بمآثرهم.

عشيّة موته، في أَثناء العشاء الفصحيّ، انتزع يسوع ثيابه، وفي زيّ العبد، غسل أَرجل تلاميذه، فقد كان مدركاً للخطر المتربّص بتلاميذه : كبرياء الحقيقة، والتطلّع إِلى سلطة روحيّة، فدعاهم إِلى التواضع والصِّغر، والتمثّل بالأَطفال، وإِلى عدم السعي إِلى إِثبات أَنّهم على صواب وأَنّ الآخرين مخطئون؛ وإِلى غوث الفقراء والذين لا صوت لهم، ومن خلالهم، العيش في التواصل معه، مثلما هو يعيش في تواصل مع الآب . إِنّ الكبرياء تدمّر الجماعة، والتواضع يبنيها. والتواضع هو الاعتراف بما هو جميل لدى الآخر، وما هو عطيّة اللّه؛ وهو الاعتراف بظلماتنا، وبكبريائنا التي تذهب بأَلق أَعمالنا الحميدة، وبالتماسنا المكان الأَوّل؛ والتواضع هو الاعتراف بأَنّنا نحتاج إِلى يسوع لكي نتحرَّر من عُجْبنا بذاتنا اللاصق بإِهابنا، وهو قبولنا احتلال مكانتنا من جسم الجماعة، وتقديرنا لمكانة الآخرين، وهو الخضوع للآخرين وخدمتهم؛ وهو الاعتراف بشأن الأَشياء الصغيرة في الحياة الجماعيّة . والتواضع هو، أَيضاً، تأكيد ما نفكّر به وتحمُّلنا مسؤوليّاتنا كاملة لكي تكون الجماعة أَكثر محبّة وصدقاً .

بتواصلنا مع يسوع الوديع والمتواضع القلب نستطيع أَن نتحرّر من نزعاتنا إِلى إِدانة الآخرين، وأَن نعيش بتواضع مع المتواضعين، فنبني معاً أَماكن سلام وحبّ، تنهض دليلاً على الرجاء في عالمنا الجريح .

الفصل الرابع :

ثقة في اللّه الذي يسير معنا

عندما أَرمق اليوم البذرة التي غُرست في الرابع من آب 1964، والشجرة التي انبثقت منها، وباتت تضمّ مختلف جماعات "السفينة" عبر العالم؛ وعندما أَتبيّن الجمال والقداسة اللّذين يميّزان عدداً غفيراً من المعاقين ومن المساعدين الذين قدموا لمشاركتهم حياتهم، أُقرّ بأَنّ هذا هو عمل اللّه، عملٌ يتمّ، أَحياناً، رغماً عنّي، وقد اقتصر دوري على تقبّل الأَحداث، والانقياد للعناية الإِلهيّة . وقد اتّضح لي، فيما بعد، أَنّ جهلي وفقري، في مطلع عهد السفينة، قد جعلاني أَكثر إِصغاءً للّه، وأَطوع انقياداً له، يوماً فيوماً . فلو كان لي مخطّطي الخاصّ، لربّما كنت أَقلّ تأَهُّباً لتقبّل مخطّط اللّه .

إِنّ كلّ عمل إِلهيّ يقتضي، في مستهلّه، هذا اللاأَمان وهذا الفقر، اللّذين يتيحان جاهزيّةً حقيقيّة لعمل الربّ . ثمّ بفعل العناية الإِلهيّة يأتي الأَشخاص والمال؛ وعندما يتوفّر الأَشخاص، والمال، والبُنى، تصبح الجماعة في خَطر، إِذ قد يُخيَّل إِليها أَنّها باتت أَقلّ حاجة إِلى اللّه، وتتعرَّض لغواية الاكتفاء بذاتها؛ فالعيش أَمسى هانئاً، والحماس فتر، والذين يزعجون أُقصوا، والحضور للآخرين تقلّص، وكلّ فرد غدا أَكثر اهتماماً بذاته .

و نحن، في "السّفينة"، لن نكون في مأمن من هذا العبور من اللاأَمان إِلى الأَمان، فإِلى الانحطاط، إِلاّ إِذا بقينا متيقّظين لأُمور ثلاثة : الوفاء للفقير الذي يستغيث ويزعج، وحياة جماعيّة ممتازة، وثقة في العناية الإِلهيّة . لا يكفي أَن يكون للسفينة، أَو لسواها، مؤسّس، فكلّ مسؤول، وكلّ فريق مسؤولين مدعوّون إِلى إِعادة تأسيس الجماعة .

لا بدّ من أَشخاص يحسنون إِدارة ما هو متوفّر، ولا بدّ أَيضاً من أَنبياء لا يكفّون يذكّرون بالتحدّيات وبدعوة الجماعة، اليوم، إِلى بثّ شعلة واندفاع جديدَيْن، والتمكين من تحقيق مخطّط الربّ .

إِن نحن كنّا أَوفياء لمقتضيات الفقير والحياة الجماعيّة، ظلَلْنا منفتحين على نفحة الروح النبويّة؛ فالمعاقون يعرفون كيف يزعجوننا، ولا سيّما عندما يشعرون بفتور اهتمامنا بهم بصدق . والافتقار إِلى المال، وبخاصّة الافتقار إِلى المساعدين يبقياننا في حالة لا أَمان، مُشرَعين على الآخرين وعلى اللّه . والأَزمات التي قد تنشب في الجماعة، أَزمات المعاقين وكذلك أَزمات المساعدين، من مرضٍ، وحوادث، وخلافات، لا تتطلّب حكمة ونُظماً مناسبة فحسب، بل، أَيضاً، لجوءاً مستمرّاً إِلى عون اللّه . إِنّ الأَزمة ضرب من الفقر غير المنتظر الذي يستدعي العودة إِلى ما هو جوهريّ في الحبّ .

هذا الاعتماد على اللّه يولّد تعباً وخوفاً . ففي كلّ جماعة وفي كلّ إنسان قوَّة تدفع إلى الأَمان، وإلى اكتساب الخيرات، وإلى تنظيمٍ يحتاط لكلّ شيء ويتحكّم به . ومع ذلك قد توجد روحانيّة استسلام للّه مزيّفة لا تسعى إلاّ إلى تمويه القصور والعجز البشريّين، وضعف التفكير .

تحتاج السفينة إلى حكمةٍ ومؤهّلات بشريّة، فلا بدّ من إدارة أُمورها بكفاية، وهي في حاجة إلى أَطبّاء ومعالجين نفسيّين . ولكن كلّ ذلك يستهدف تمكيننا من الاستجابة، على نحوٍ أَفضل، إلى استغاثة الفقير، ومن قبول إزعاج الآخرين، ومن التبشير، في كلّ حين، ببشرى يسوع .

ينبغي التجرّؤ على المضيّ دائماً قُدُماً، وعلى الابتكار بدراية وتمييز . فتاريخ الكنيسة هو تاريخ تجدّد مستمرّ، إذ لا تفتأ تولد أُسرٌ جديدة، وتبرز روحانيّات جديدة . وهذا التجدّد يزعج ما هو قائم، بحيث تلقى الآراء المبتكرة، والجماعات المستحدثة، وأَساليب العمل الجديدة، مقاومةً دائمة . فكيف السبيل إلى منع إدارة ما هو قائم من خنق الجديد ؟

يُبرز الإنجيل تناقضاً كاملاً بين اللّه ومامون؛ ومن ثمّ على الجماعة القائمة على الإيمان أَن تختار : فإمّا الفقر واللاأَمان لإفساح المجال أَمام عمل اللّه، أو رفض الاعتماد على الغير، والضعف والفقر، والسعي إلى التحكّم بكلّ شيء، وبالتالي الخضوع لمامون .

ينبغي أَن نسلس للّه قيادنا، فهو يسير معنا، ويواكبنا على الدرب . إنّ ما يحدث في "السفينة" لهو ضربٌ من المستحيل : فالعيش، طويلاً، مع معاقين وفقراء، وتحمّل إزعاجهم، وإقامة جماعة معهم، أَمرٌ لا يطاق، ويتعارض مع ما فُطرنا عليه من أَنانيّة . إنّ الحبّ مستحيل، ولكنّ اللّه يُظهر مجده بجعل المستحيل ممكناً . في هذا المستحيل يتجلّى اللّه، ونشهد، نحن، لقيامته ولحبّه الأَبويّ للصغار والمعدمين .

الفصل الخامس :

روحانيّة تندرج في الكنيسة

إِنّ التاريخ المقدّس بأَكمله هو اعتلان إِله ساهر على البشريّة، يبتغي اقتيادهـا إِلـى الحرّيّة الداخليّة والسلام . ولكنّه، أَيضاً، شعب يخشى اللّه، ويُفتن بالمال والغرور، ويزورّ عمّا يريد اللّه إِبلاغه من حبٍّ وقوّة يحوّلانه إِلى أَداة سلام وحبّ.

إِنّ اللّه يحبّنا جميعاً، غير أَنّ الإِنجيل يُظهر لنا أَنّ الفقـراء، والضـعفاء، ومنبـوذي المجتمع البشريّ يحتلّون مكانة أَثيرة في قلبه .

إِنّ اللّه يدعو ويرسل إِلى "السفينة" مساعدين لكي يستقبلوا المسحوقين والمنبوذين من جرّاء إِعاقتهم العقليّة، ويفتح قلوبهم على صيحات هذا الشعب الصغير ومِحَنه . والسرّ يكمـن في أَنّ هذا الشعب الصغير يحوّلهم، ويلقّنهم الإِنجيل، ويدعوهم للولوج إِلى صميم البُشرى .

لقد جاء يسوع لكي يقود شعبه نحو الآب، ويرشده إِلى سراط الحبّ والغفران . جـاء كي يهب تلاميذه الروح القدس، المحامي، روح الحقّ، فيؤمّن لهم الانعتاق من سجون الكبرياء والأَنانيّة، ويُشرع أَفئدتهم على الحبّ الشامل . بيد أَنّ تلقّي عطيّة الحبّ هذه، وهـذه القـدرة الجديدة في الروح القدس، يستلزم الثقة . فما الإِيمان سوى الثقة في وعـود يسـوع لشـعبه وكنيسته .

عبر القرون أُعلنت البشرى للفقراء وبُثّت في القلوب حياة جديدة . غيـر أَنّ، ثمّـة، صراعات لخنق البشرى، وتحويل شعب اللّه عن الحقيقة التي تزعج أَصحاب السُّلطة والنفوذ، ممّا أَدّى إِلى إِقصاء الفقراء .

إِنّ روحانيّة "السفينة" مستمدّة من الكنيسة، جسد المسيح، ونحن مدعوّون إِلى مشاركة جميع المسيحيّين في الرجاء، وإِلى تقبّل عطايا اللّه، على غرار جميع المسيحيّين، والمشاركة في ذكرى الفصح – موت يسوع وقيامته – المعاشة في الإِفخارستيّا . إِنّنا مدعوّون إِلى العيش بكلمة اللّه، وجسد المسيح، وإِلى التواصل مع يسوع مثلما هو على تواصل مع أَبيه .

إِنّ روحانيّة "السفينة" درب من دروب أُخرى للمضيّ نحو الآب، وعيش التطويبـات وإِنجيل يسوع؛ ولعيش هذه الروحانيّة كاملة، يتعيّن الاتّحاد بجسد المسيح، وهذا الجسـد هـو الكنيسة ورعاتها؛ فلا بدّ من التعاون معهم، من أَجل اقتسام ما أوتينا من هبات مع الجسد كلّه، ولكي نتلقّى من هذا الجسد عطايا أُخرى . لا بدّ لنا من التضامن مع هذا الجسد، ومن الابتهاج لما يتجلّى فيه من " نِعَم "، ومن الاعتراف، بتواضع، بمواطن رداءته، في معزلٍ عن المحاكمة والإِدانة .

تريد "السفينة" أَن نكون عضواً كاملاً في الكنيسة، وأَن تنهل من نبع حياة الكنيسة لكي تشهد للإِنجيل .

كما تحرص جماعاتنا على تبوّء مكانها في محيطها، وعلى الانفتاح على الجيران والأَصدقاء، وعلى الاندماج في أَبرشيّاتها وكنائسها المحلّيّة . إِنّها تسعى لجعل هذه الأَبرشيّات جميلة وحيّة، وللإِفادة من كلّ ما تنطوي عليه من غنى . علينا أَن نشهد، بتعايشنا، أَنّ الحبّ ممكن، وأَنّ لدى المعاق ما يعطيه؛ وأَن نتلقّى، بدهشة وإِعجاب، عطايا الآخرين ونكون على تواصل مع مختلف السُّلطات الدينيّة .

"السفينة" جماعة مسيحيّة، غير أَنّ العديدين من أعضائها يوافونها غير منفتحين على الإِيمان المسيحيّ . ولئن كان بعض الأَعضاء مؤمنين يحبّون الطقوس الليتورجيّة، إِلاّ أَنّ آخرين لا تجتذبهم الممارسة الدينيّة المنتظمة . ولكنّ كلّ فرد مدعوٌّ إِلى العثور على دربه، في ما يتعلّق بالصلاة والتواصل مع الربّ . وكلّ فرد، أَينما كان على هذا الدرب، يُشجّع على الانفتاح على الآخرين في حياة أَخويّة، قوامها المشاركة، والاستقبال، والطيبة، والصفح . إِنّ التنوّع ثروة، والمهمّ هو خلق مجال حياة حيث يستطيع كلّ فرد النموّ وفقاً لوتيرته الخاصّة في الحبّ والسلام الداخليّ .

لقد استقبلنا في مختلف أَرجاء المسكونة معاقين عقليّاً، لأَنّهم كانوا يعانون من النبذ، لا لأَنّهم كانوا ينتمون إِلى مذهبٍ دينيٍّ معيّن . وقد دفعنا ذلك على درب المسكونيّة والمشاركة بين الأَديان . وبما أَنَّ "السفينة" تأبى أَن تكون معزولة، فهي تدعو كلاً من أَعضائها إِلى الاندماج، وفقاً لرغباته وطاقاته، في كنيسته أَو تقاليده الدينيّة الخاصّة .

بمحاولتها الاهتمام باحتياجات كلٍّ من أَعضائها، الإِنسانيّة والروحيّة، ولجت "السفينة" تدريجيّاً في مخطّط اللّه الوحدويّ : وحدة البشريّة جمعاء، ووحدة جميع المسيحيّين . إِنّ يسوع في عطش إِلى أَن يكون الجميع واحداً، مثلما هو والآب واحد . فالانقسامات التي تنقلب سحقاً، وضغينةً وحروباً، تجرح قلب الربّ . والمعاقون يرشدوننا إِلى درب الوحدة، التي هي استضافة، ومصالحة، وصفح .

و عندما ولدت جماعات "السفينة" في بلدانٍ إِسلاميّة أَو هندوسيّة، تبيَّنتُ أَنّ دموع أُمّ وآلامها أَمام ابنها المعاق إِعاقة سحيقة هي هي أَيّة كانت ديانة الأُمّ . إِنّنا ننتمي جميعنا إِلى إِنسانيّة مشتركة، ولنا قلب قادر على منح الحبّ وتلقّيه، وبوسعنا، جميعاً، النموّ في الحبّ، بانعتاقنا، تدريجيّاً، من السجون التي نزجّ فيها ذواتنا .

دعوة الوحدة هذه كثيرة الاقتضاء، وتفترض قلباً ناضجاً كفيلاً باستقبال الآخر واحترامه في إِيمانه الخاصّ، وباكتشاف كلّ ما يجمعنا، في ما يتخطّى خلافاتنا . ولا يمسي

ذلك ممكناً إلاّ عندما نكون راسخين، بعمقٍ، في حبّ اللّه، وإلاّ إذا التقينا قلب الآخر باحترام وحبّ .

إنّ العيش في "السفينة" كثير الاقتضاء، فلئن كان هجر الأُسرة والمهنة، والتخلّي عن حرّيّة العمل، على جانب من الصعوبة، إلاّ أنّه من الأَصعب الحفاظ على الوفاء للالتزام عبر السنين، فهو، مثل كلّ حياة مسيحيَّة، نموٌّ مستمرّ في الحبّ يستلزم نعمةً إلهيّة، وقبولاً بأَن نخضع لتشذيب دائم . فكلٌّ منّا قد ركَمَ، عبر السنين، أَنظمة دفاع، وأَحكاماً مسبقة، اتّقاءً من الآخرين ومن الأَلَم . وفي أعماق كيان كلٍّ منّا مخاوف كمينة تحكم، على غير وعيٍ منّا، أَعمالنا وأَفكارنا؛ ولكلٍّ منّا عُقَده التي تمنعه من حبّ البعض وتربطه ارتباطاً وثيقاً بآخرين . وعمل اللّه يقوم على تشذيبنا وتقليمنا، وإبطال أَجهزة دفاعنا، كي يظلّ قلبنا مطيعاً للروح القدس، وللحبّ الإلهيّ . عمل اللّه يقوم على التغلغل، تدريجيّاً، في عالم لاوعينا، عالم الشعور بالذنب، والظُّلُمات، والفوضى، والقلق، لأَجل تحريرنا، وتوحيد كياننا . إنّ طريقنا طويل، ولا بدّ لنا من إحلال الوحدة في ذواتنا لكي نكون معين وحدة للآخرين .

قليلون من المعاقين قرّروا المجيء إلى "السفينة"، ولم يكن لهم خيار . ورويداً رويداً، ارتضوا بهذه الحياة الجماعيّة، التي نرجو أَن تلبّي احتياجاتهم العميقة. وبعضهم، مع كرّ الزمن، انتهوا إلى اختيار "السفينة"، على غرار ميشيل الذي أَعلن ذات يوم : " بوسعي أَن أَدعو نفسي : " ميشيل السفينة "، فالسفينة هي التي وهبتني الحياة . "

و من جهة أُخرى، وافى عدد من المساعدين، بدعوةٍ من اللّه، لكي يعيشوا معاهدة مع المعاقين . وآخرون جاؤوا كي يخوضوا تجربة قد يطول أَمدها أَو يقصر، من شأنها أَن تسبغ على حياتهم معنى، وشيئاً فشيئاً اكتشفوا، في الإنجيل، عالم الحنان والإيمان، فاختلجت قلوبهم . وسيغادرون "السفينة"، وقد تبدّلوا، لكي يواصلوا مسيرتهم في مكان آخر .

إنّ المدعوّين إلى العيش في "السفينة" يتوسّمون في الأَشخاص المعاقين معين حياة، وكنز حنان؛ ويسوع، في حديثه عن ملكوت السماوات، شبّهه بكنز مخبأ في حقل؛ فمن وجد الكنز باع كلّ شيء لكي يبتاع الحقل .

بعض المساعدين يشعرون أَنّهم مدعوّون لعيش دعوتهم مع رفيق أَو رفيقة عمر؛ وهم وإن لم يعيشوا في بيت واحد مع المعاقين، إلاّ أَنّهم أَعضاء كاملون في الجماعة؛ ومعاهدتهم مع الفقراء تغذّي معاهدتهم الزواجيّة .

و آخرون من المساعدين يشعرون بدعوة إلى عيش العزوبة، في "السفينة"، لكي يكونوا أَوثق اتّحاداً بيسوع، وبالمعاقين الذين يتعذّر عليهم الزواج، والذين يقاسمونهم العيش في بيت واحد، والطعام على مائدة واحدة . إنّ اتّحادهم بيسوع، ورغبتهم في انتهاج درب الإنجيل و"السفينة"، بالعزوف عن الزواج، ينموان من خلال الصلاة، والعلاقة مع أَشخاص ضعفاء،

وعزوبتهم مشبعة بحبّ البشر . في حين لا يشعر مساعدون آخرون بدعوة إِلى العزوبة التي يشقّ عليهم الالتزام بها، فهم لا يطيقون الوحدة . وهؤلاء، بالتالي، متضـــامنون مـــع بعــض المعاقين الذين يعيشون عزوبتهم بمشقّة .

و يواصل كلّ مساعد سبيله، يسانده ويدعمه حضور المعاقين، والمعاهدة التي تربطه بهم؛ ويُمثّل الحبّ، والثقة، ونداء الأَشخاص الضعفاء، معالمَ تُبقي كلاًّ منهم على درب الحبّ .

خلاصة

إنّ جماعات "السفينة" تبرز مفارقة كلّ ضعف وكلّ فقر . فما يُرذَل ويُقصي قد يصبح درب نعمة، ووحدة، وتحرّر وسلام .

البشر ينجذبون نحو الضياء، والنجاح، والغنى والسُّلطة، ونحو كلّ ما هو متألّق وعظيم، ويتنكّبون عمّا هو بشع وفقير . وبتصعيدهم في السلّم الإجتماعيّ، يتفاقم شعورهم بالوحدة، ويتعيّن عليهم الذود عن أنفسهم، والتواري، والاحتماء . فهم خائفون، إذ إنّ الخوف من الآخرين ينجم عن افتقار إلى الحبّ والثقة . وهم، بالتالي، يفقدون معنى التضامن، وينقطعون عن الفقراء . إنّ النبذ يفضح ما فيهم من ظُلمات، وأحكامٍ مُسبقة، وفقر قلوبهم . ولكنّهم بمقدار ما يقتربون من المنبوذين، يشرعون يسيرون على درب التحرُّر .

لقد أصبح الكلمة جسداً، وأخفى مجد أُلوهته بصيرورته واحداً منّا . لقد قاسَمنا حاجاتنا، ولا سيّما حاجتنا إلى الحبّ، وقاسَمنا آلامنا . صار فقيراً، وسلك درب الهبوط، وتجرّد، لكي يرشدنا إلى سراط التواصل والحبّ .

و نحن، في "السفينة"، نبتغي اقتفاء أثر يسوع على درب الصِّغر، والتواضع والثقة . ونؤمن بأنّ هذا الدرب هو درب تحرّر وفرح . إنّ روحانيّة "السفينة" هي درب حبّ، وصداقة مع الفقراء والضعفاء؛ فمع هؤلاء نحن ندعوّون إلى عيش حياة جماعيّة متواضعة وفقيرة، باسم يسوع .

كلّ فرد وكلّ جماعة، في الكنيسة، مدعوّ إلى عيش أحد وجوه حياة يسوع. البعض، كرُسل، مدعوّون إلى التبشير في جميع أرجاء العالم، وآخرون مدعوّون إلى شفاء المرضى، وآخرون إلى التعليم، وآخرون إلى أن يكونوا رعاة قطيع اللّه. ودورنا نحن، في السفينة، هو عيش عيشة يسوع في الناصرة، حياة بسيطة وفقيرة، منفتحة على الجيران، وعلى جميع المتألّمين . مدى ثمانية وعشرين عاماً عاش يسوع هذه الحياة الخفيّة، عاش متواضعاً مع المتواضعين، وأكل على مائدة الفقراء، عاملاً بيديه، وشاركه مريم ويوسف هذه الحياة المتواضعة .

في حياة يسوع العلنيّة لا حضور لمريم، بل يحتلّ التلاميذ المكانة الأُولى من حوله، أمّا في الناصرة وعلى الصليب فالأمر على نقيض ذلك، فمريم وثيقة القرب من يسوع بقلبها . إنّها المرأة المحبّة، الصامتة، الوفيّة، التي تعيش مع يسوع؛ تواصلاً وحناناً . ونحن، في السفينة، مدعوّون إلى المشاركة في حياة الناصرة هذه، أي إلى أن نكون علامة حبّ، في عالم محطّم ومتألّم . ونحن، أيضاً، مدعوّون إلى المساهمة في سرّ تعاطف مريم مع يسوع المتألّم

والمنبوذ ببقائنا على مقربة من المصلوبين، والمضطربين، والمنبوذين، الذين لن يُكتب لهم، يوماً، الشفاء .

"السفينة" شعب يسير بلا انقطاع . فعلينا أَن نستأنف، دائماً، المضيّ، مستعدّين لكلّ مزعج ومدهش . منذ أكثر من ثلاثين سنة، ما انفككنا نكتشف جوانب عديدة من الإِنجيل، كانت ما تزال خافية عنّا . إِنّ روحانيّتنا، ومعاهدتنا مع الفقير، سرّ لن ننتهي أَبداً من التأَمّل فيهما . وبمواصلتنا المسيرة سنكتشف وسنعيش جوانب أُخرى من هذا السرّ الذي هو سرّ التجسّد، والتواصل مع يسوع المختبيء في الفقير.

" الجماعة : مكان صفحٍ واحتفال "

La communaute , lieu du pardon et de la fete
(ed . fleurus / bellarmin 1989)

تمهيد

لطالما استولت فكرة الحياة الجماعيّة على ذهن جان فانييه ونفسه، ولطالما توسّم فيها المُناخ الأمثل لعيش التطوبيات، وشفاء جراح قلوب الأَصحّاء والمرضى، على السواء، وخاصّة المعاقين.

و يكاد لا يخلو حديثٌ له، أو مؤلّف، من الإشادة بالحياة الجماعيّة . وقد انطوى كتابه : " الجسد المحطّم "، خاصّة، على أروع نشيدٍ لها .

و قد أَنضج رؤيته للجماعة، وبلوَرها، تأسيسه لجماعة " السفينة " وعيشه سنوات طويلة بين ظهرانيها . ففي " السفينة " تواجه الحياة الجماعيّة أَقسى التحدّيات، وتقتضي أَصدق التزام وأمتنه . ففي "السفينة" يخبَر أعضاء الجماعات، في آنٍ واحد، أَشدّ الصّعاب قسوةً، وأَخصب فُرَص الازدهار والفرح .

و مع أَنّ جان فانييه، في تواضعه، اعترف بأَنّه "بطيء الاستيعاب"، إِلاّ أَنّه يرى، ويحلّل، ويسجّل ما يعيشه هو، وما يعيشه رفاقه . وفي عام 1976، دُعي إِلى إلقاء سلسلة من أَربع محاضرات عن " الجماعة "، وفي كلّ مرّة، كانت الكنيسة تغصّ بالحضور، ممّا أَكّد أَنّ لدى " السفينة " ما تقوله للعالم .

و في عام 1978، في أَثناء رحلة بالحافلة إِلى فاتيما، أملى خواطر حول موضوع الجماعة . هذه الخوطر، ونصوص المحاضرات الأَربع التي ألقاها من قبل، أَلّفت المادّة الأَساسيّة لكتابه : "الجماعة مكان صفح واحتفال" الذي صدرت طبعته الأولى، عام 1980 .

إِلاّ أَنّه ظلّ يُعمل الفكر في هذا الموضوع، وينهل من بئر التجارب التي تراكمت، من خلال اختباره الطويل للحياة الجماعيّة في كلٍّ من " السفينة " و" إيمان ونور "، وإحاطته بكلّ جوانبها، ووقوفه المتبصّر على إنجازاتها الرائعة وعثراتها . كلّ ذلك أغنى رؤيته لحياة الجماعات، وأوضح مختلف مستلزماتها، وحمله على إضافة فصولٍ مستفيضة، أو فقراتٍ مطوّلة إِلى كتابه، الذي صدر، في طبعته الثانية النهائيّة، عام 1989 .

و مع أنّ هذا الكتاب يحاول الإحاطة بكلّ جوانب الحياة الجماعيّة، لم يرتدِ أُسلوب بحثٍ أو أطروحة، بل هو مجموعة غنيّة من الومضات والرؤى التي تنير معالم مسيرة اكتشفت من خلال المعايشة اليوميّة عبر التعثُّرات والإخفاقات، وإلهامات الربّ، وإِيحاءات إخوةٍ وأخوات، في فسحات تناغمٍ وسلام، وفترات توتّراتٍ وآلام . ورغم كلّ شيء يؤكّد هذا الكتاب أَنّ الحياة الجماعيّة –على غرار "السفينة"– مغامرة رائعة، مغامرة تحرُّرٍ وحبّ .

لا ريب أَنّ هذا الكتاب هو دستور جماعات "السفينة" للحاضر وللمستقبل؛ غير أَنّه، فضلاً عن ذلك، ينطوي على مبادئ عامّة كفيلة بإِضاءة سبيل كلّ جماعات تستهدف الخدمة .

و بما أَنّنا استفضنا في ترجمة المقاطع الهامّة من هذا الكتاب القيّم، لا نرى داعياً إِلى تلخيصه، بل ندعو إِلى تمعّنه، وتذوّقه، وتأمّله

مقدّمة

قديماً كان الناس يعيشون في جماعات متجانسة، ينتمون جميعهم، تقريباً، إِلى أسرة واحدة، ويشتركون في جذور واحدة؛ وفي تلك الجماعات – سواء دعيت قبيلة أو قرية – كانوا يتكلّمون اللغة عينها، ويمارسون الطقوس والتقاليد عينها، ونمط عيش واحداً، ويخضعون لسطلة واحدة . هذا التضامن كان ينبع، معاً، من أواصر اللحم والدم، ومن ضرورة التعاون على توفير وسائل العيش، وصدّ هجمات الأَعداء المجاورين، ومقاومة المخاطر الطبيعيّة . وكانت تربط أَفراد الجماعة الواحدة وحدةٌ تتجذّر في أَعماق اللاوعي .

و تبدّل الزمن، ووُلد المجتمع الحديث من تفتّت تلك الجماعات الطبيعيّة أو الأسرويّة، وبات الذين يعيشون، اليوم، في محلّة واحدة، لا يؤلّفون جماعة متجانسة؛ فالمدن تتألّف من جيران يجهل بعضهم بعضاً، وقريباً سيكون هذا أَيضاً شأن القرى . وأَمسى القوم يعيشون في مجتمع تعدّديّ، وكثيرون من الأولاد يتحدّرون من زواجات مختلطة متعدّدة الثقافات . وفي هذه المدن، التي انتفى منها التضامن، باتَ كلّ فرد يحبس نفسه، خشية من الجيران والدخلاء، وراء جدران بيته . ولم يعد الشارع، والحيّ، والقرية، بؤر جماعات بشريّة، وأَدّت سهولة المواصلات إِلى مزج الشعوب والديانات والفلسفات .

إِنّ فقدان الثقة في الجماعة وفي القِيَم التقليديّة يدفع الناس إِلى العيش في فرديّة جامحة تتجلّى في صراع متّصل من أَجل تسلّق سلّم النجاح الاجتماعيّ، والاكتفاء بالذات ... والفرديّة تولّد عزلة رهيبة، يحاول المرء تخطّيها بمزيدٍ من العمل، ينتج مزيداً من المال، ويوفّر مزيداً من النجاح، ويتيح مزيداً من التسلية، في معزل عن كلّ علاقة دائمة وصادقة مع آخرين . ولكنّ هذه التسليات تسجن الناس في عزلة أَشدّ عمقاً، وتوقعهم في حلقة مفرغة من أَلَمٍ ومحاولة نسيان هذا الأَلم .

و من المحقّق أَنّه يتعذّر العيش في العزلة، وفي فرديّة موحشة، فالجميع يحتاجون إِلى أَصدقاء. والحاجة إِلى الانتماء لجماعةٍ ما متأصّلة في الطبيعة البشريّة، سواءً كانت هذه الجماعة حلقة من الأَصدقاء، أو نادياً، أَو عصابة، أو فريقاً من المناضلين السياسيّين، أو كنيسة، أَو أَيّة جماعة أُخرى، فالعزلة تؤدّي إِلى الجفاف والموت .

كثيرون، اليوم، هم الذين يتوقون إِلى جماعة حقيقيّة، حتّى ولو أَخافتهم مقتضـيـاتها، جماعة يستطيعون أَن يعيشوا، في رحابها، مثلاً أَسمى واحداً، وأَن يتبادلوا السند والتشـجيع، ويشهدوا لقناعاتهم، ويعملوا لمزيد من السلام والعدل في العالم .

يوم كانت الجماعات البشريّة متلاحمة، كان الوالدون والقابضون على مقاليد السـلطة يمارسون سيطرة شديدة على الأَولاد، ولا يرون في كلٍّ منهم كائناً فريداً قادراً علـى بلـوغ حرّيّته الخاصّة؛ كانوا يُضحّون بالوجدان الشخصيّ لصالح وجدان الجماعة .

و اليوم نشهد يقظة الحرّيّة الشخصيّة التي تقود إِلى فرديّة جامحة، والتي قـد تقـود، أَيضاً، إِلى إِيقاظ رغبة أَشدّ عمقاً في الحياة الجماعيّة، وفي الانتماء، رغبة تسـتهدف إِنمـاء الوجدان الشخصيّ، لا إِلغاءه .

لقد شاع، في أَيّامنا، الوعي بأَنّه بات متعذّراً على كلّ جماعة، أو كلّ بلد، أَن يعـيش معزولاً عن الآخرين، متمترساً وراء حدوده . فالبشريّة مهما بدت مجـزّأة ومنقسـمة إِلـى جماعات تتصادم، لا تؤلّف إِلاّ أُسرة واحدة . وعندما تنسلخ جماعات، وأُمَمٌ، وأَجنـاس عـن سواها، وتسعى إِلى السيطرة، بفرض ثقافتها، ونظريّاتها، ونمط عيشها، وبالسعي إِلى إِلغـاء هويّة شعبٍ آخر الثقافيّة، فهي لا تجرح هذا الشعب فحسب، بل تجرح نفسها، وتجرح البشريّة جمعاء .

اليوم، أَكثر من أَيّ يوم مضى، نحن مدعوّون إِلى وعـي وحـدة الأُسـرة البشـريّة الجوهريّة، وضرورة مؤازرة كلّ جماعة على اكتشاف هويّتها ومكانها في إِطار هذه الأُسرة، وعلى مزيدٍ من الانفتاح على الآخرين، فالخطر يكمن في الانغلاق على الذات .

إِنّ الفرديّة والمادّيّة تقودان إِلى التنافس، وإِلى نبذ الضعيف؛ أَمّا الجماعة فتفضي إِلى الانفتاح والاستقبال، وإِن لم توجد الجماعة لانغلقت القلوب وماتت .

لقد افتتحتُ " السفينة " عام 1964 تحدوني الرغبة في عيش الإِنجيل، واتّباع يسـوع المسيح على نحوٍ أَفضل . كلّ يوم أَتوغّل، أَكثر فأكثر، في اكتشاف مدى ضـرورة ازدهـار الحياة المسيحيّة في الالتزام بالحياة الجماعيّة، ومدى حاجة الحياة الجماعيّة إِلى الإِيمان، وحبّ يسوع، وحضور الروح القدس، كي تزداد عمقاً . إِنّ كلّ ما أَقوله، في هذه الصـفحات، عـن الحياة الجماعيّة مستوحى من إِيماني بيسوع .

الحياة الجماعيّة وعرة، ولكنّها، أَيضاً، مغامرة رائعة مؤهّلة لتصبح معين حياة . أَتمنّى أَن يتمكّن الكثيرون من خوض هذه المغامرة، فهي، في نهاية الشوط، مغامرة التحرّر الداخليّ؛ أَي حرّيّة الحبّ، واكتساب حبّ الآخرين .

الفصل الأَوّل : قلب، ونفس، وروح

الجماعة مكان انتماء

إِنّها المكان الذي يجد فيه المرء أَرضه وهويّته .

رغبة الولد الأَشدّ عمقاً هي التواصل الحميم مع أَبيه وأُمّه . وهذه الرغبة في التواصل مع شخص آخر هي أَكثر ما في الكائن البشريّ جوهريّة؛ ومنها تتفرّع جميع الاحتياجات والرغبات الأُخرى . وإِن لم يرتوِ هذا العطش إِلى الانتماء والتواصل، لتصاعدت فيه مشاعر الاضطراب والقلق، يُواكبها الشعور بالذنب، والانهيار، والغضب، والحَنَق على الذات وعلى الآخرين .

و هذا الأَلم الذي قد يغدو من الحدّة بحيث لا يُطاق، قد يدفع الولد، إِن هو كان على قدرٍ من القوّة، على فعل كلّ شيء من أَجل خنقه، وإِخفائه، وإِغفاله، بالعيش في الأَحلام، وعلى ردم ما أَحدثه من فراغ بالعمل الدؤوب، واللهو، والضجيج . وحينئذٍ سيُدفن شعوره بالفراغ والعزلة، وكلّ أَلمه، في زاوية من كيانه مغرقة في الخفاء، في نوع من القبر الذي تغلقه صخرة . جميع مِحنه تدفن، ومعها يدفن قلبه الجريح المتعطّش إِلى التواصل . وانطلاقاً من هذا الوضع، يقوى بعض الأَولاد على العيش، وعلى تحقيق شيءٍ ما، بل على إِحراز بعض نجاح وإِعجاب، وعلى الظفر باستقلالهم، ويستعيضون عن نشدان التواصل والحبّ بنشدان الإِعجاب؛ في حين أَنّ أولاداً آخرين يتردّون إِلى انهيار سحيق، ويتمرّدون على آبائهم وعلى العالم المحيط، ويبحثون عن أَتراب لهم يعيشون معهم على هامش المجتمع . ولكن، في جميع تلك الحالات يظلّ الولد في أَعماق ذاته خاضعاً لقوى اللاوعي، وللشعور بالذنب الكامن في قبر كيانه .

قد يكون لنا، في ما يتعلّق بالحبّ والتواصل والانتماء، وكلّ مقتضياتها، مواقف مزدوجة . ففي كلّ كائن بشريّ تتجاور رغبة مضطرمة في التواصل والانتماء، مع بعض خوفٍ منهما . والحبّ هو أَكثر ما نرغب فيه، وفي الآن عينه أَكثر ما نخاف منه؛ فهو يبرز معطوبيّتنا ويفتحنا على الآخرين، ولكنّه يعرّضنا لجروح الرفض أو الفراق . وقد نخشى الحبّ من جرّاء خوفنا من فقدان حرّيتنا وقدرتنا على الإِبداع . إِنّنا نرغب في الانتماء إِلى جماعة، وفي الآن عينه، نخشى أَن نلقى فيه شيئاً من الموت، إِذ، ربّما قد نفقد فيها فرادتنا . إِنّنا نرغب في الحبّ ولكنّنا نتهيّب ما يقتضيه من تبعيّة والتزام ...

في الكثير من بلدان العالم الثالث ما انفكّت أَواصر الحياة الجماعيّة متينة، في حين أَنّ الحضارة الغربيّة تقوم على التنافس . بيد أَنّ بعض الجماعات ما زالت قائمة على الخوف، الذي يولّد الحروب القبليّة والدينيّة، في حين أَنّ الحياة الجماعيّة التي نتطلّع إِليها، هي عامل تحرّر .

أَحد تلامذة مارتن لوثر كنج كان يهتف : " شعبي مهان "، والأمّ تيريزا كانت تردّد "شعبي جائع " . شعبي هو جماعتي، الجماعة الصغيرة المؤلّفة ممّن يعيشون معاً، وأَيضاً جماعة كبرى من المحيقين بها، والتي من أَجلها وُجدتْ الجماعة الصغيرة . إِنّها أولئك المدوّنون في جسدي، مثلما أَنا مدوّن في جسدهم؛ فلئن كنّا قريبين أو بعيدين، إِخوتي وأَخواتي قاطنون في داخلي، أَحملهم ويحملونني، وعندما نلتقي يتعرّف بعضنا بعضاً . لقد خُلِقْنا أَحدنا للآخر، وجُبِلنا من نفس التربة، ونحن أَعضاء جسد واحد . وعبارة " شعبي " لا تعني أَنّني متفوّق عليهم، وأَنّني الراعي الذي يقودهم، بل تعني أَنّهم لي مثلما أَنا لهم، وأَنّنا، جميعاً، متضامنون، وأَنّ ما يمسّهم يمسّني .

و لا تعني عبارة " شعبي " أَنّني أَنبذ الآخرين، بل تعني مِقْفزاً أَنطلق منه نحو البشريّة جمعاء؛ ولن يسعني أَن أَكون أَخاً كونيّاً، إِن لم أُحبَّ، أَوّلاً، "شعبي" .

و الجماعة لا تهب المرء شعوراً بالانتماء فحسب، بل تساعده، أَيضاً، على تحمّل وحدته في لقاءٍ شخصيّ مع اللّه؛ وبذلك، أَيضاً، الجماعة مشرعة على الكون وعلى البشر.

إِنّنا ننتمي للوجود، ولجميعنا ما نتلقّاه منه وما نعطيه إِيّاه . إِنّنا، جميعاً، جزء من كلّ . والخطر يكمن في إِغفالنا ذلك، وفي اعتقادنا أَنّنا مركز العالم، وأَنّ الآخرين موجودون من أَجلنا . علينا، إِذن، التخلّي عن هذا الضرب من الأَنانيّة المدمّرة لكي ننبعث على حبٍّ يعلّمنا الأَخذ والعطاء .

الجماعة مكان انفتاح

تجمع البشر أواصر اللحم والدم، والانتماء إِلى القرية الواحدة أو القبيلة الواحدة . ويقود آخرين بحثهم عن الأَمان والرفاه إِلى التجمّع لأَنّهم متشابهون، ولأَنّ لهم رؤية واحدة إِلى ذواتهم وإِلى العالم؛ وتجمع آخرين رغبة مشتركة في النموّ في الحبّ الشامل والتعاطف؛ وهؤلاء هم الذين يخلقون الجماعة، حقّاً .

للأَسف، غالباً ما لا تتكاتف الجماعات المختلفة على العمل لمجد اللّه؛ بل تنغلق إِحداها دون الأُخرى، وكلّ واحدة تظنّ أَنّها الشعب المختار، حبيبة اللّه، والجماعة المصطفاة من أَجل

تغيير وجه العالم، وأَنّها تتفرّد بامتلاك الحقيقة؛ أَعضاء تلك الجماعات لا يــدركون أَنّ كــلّ جماعة مختارةٌ، وكلّ جماعة مدعوّةٌ إِلى إِبراز قَبَس من مجد اللّه، ولكن بالمشاركة فيما بينها . وهكذا فإِنّ الجماعات التي لا تتعاون تخلق التفرقة، وتحلّ بينها المنافسة التــي تفضــي إِلــى الحسد، والحسد، بدوره يولّد البغض والحرب ... وتنتشر فيها الرغبة في " الفوز "، وإِثبــات التفوّق؛ تعميها غاياتها الخاصّة الجماعيّة ورغبتها في السيطرة، وتعجز عــن رؤيــة جمــال الآخرين وتقديره .

الجماعات الحقّة هي المنفتحة على الغير، المعترفة بعطوبــيّتها، المتواضــعة، التــي ينمو أَعضاؤها في الحبّ، والتعاطف والتواضع؛ وتفقد الجماعة أَصالتها عندما ينغلق الأَعضاء على ذاتهم، واثقين من انفرادهم بامتلاك الحكمة والحقيقة .

الميزة الجوهريّة لجماعة تعيش الانتماء الحقّ هي الانفتاح، والاستقبال، والإِنصات إِلى اللّه وإِلى الوجود، وإِلى الأَشخاص الآخرين، والجماعات الأُخرى . يُلهــم الحيــاةَ الجماعيّــة الشمول، والحقّ، ومبدأ الواقعيّة؛ وهي منفتحة على الكونيّة، وقائمة على الصفح والانفتاح على الآخرين، وعلى الفقراء والضعفاء، أَمّا البِدَع فتــنْصب جدراناً وحــواجز، بــدافع الخــوف، والحاجة إِلى إِثبات الذات، واختلاق ضمانات زائفة؛ في حين أَنّ عيش الحياة الجماعيّة يتمثّل في إِسقاط الحواجز من أَجل تقبّل الاختلاف .

الجماعة مكان حبّ متبادل

فضلاً عن كونها انتماءً وانفتاحاً، الجماعة هي، أَيضاً، حبٌّ لكلّ فرد، ومن ثمّ يمكــن تعريف الجماعة بعناصرها الثلاثة : حبّ كلّ فرد، والارتباط معاً، وعيش الرسالة .

في الجماعة يُحَبّ كلّ فرد، لا الجماعة في معناها المجرّد بصفتها كلاًّ، أو مؤسّسة، أو أسلوب عيش مثاليّاً . فالشأن للأَفراد الذين يتعيّن حبّهم، كما هم، بحيث ينمون حســب خطّــة اللّه، ويصبحون ينابيع حياة؛ وذلك بشكلٍ دائم، وليس بشكل عابر .

و هؤلاء الأَشخاص المرتبطون يؤلّفون أُسرة، بل شعباً مدعوّاً لأَن يــنهض شــاهداً، ويحقّق رسالة خاصّة .

لا تصبح الجماعة جماعة حقّة إِلاّ عندما يشرع أَفرادهــا يحبّــون بعضــهم بعضــاً، ويهتمّون بنموّ كلّ فرد . فعلى حدّ قول ديتريش بونهوفر : " من أَحبّ الجماعة دمّرها، ومــن أَحبّ الإِخوة بنى الجماعة " .

لا يسوغ أَن تكون للجماعة أولويّة على الأَشخاص، فهي موجودة من أَجلهم ومن أَجل نموّهم؛ وجمالها ووحدتها ينبعان من إِشعاع كلّ فرد من أَفرداها وممّا ينطوي عليه من نـــور وحبّ، ومن الطريقة التي بها يحبّون بعضُهم بعضاً .

بعض الجماعات المزعومة تميل إِلى التضحية بالوجدان الشخصيّ في ســبيل وحــدةٍ عظمى، وتنزع إِلى منع الأَشخاص من التفكير، وإِلى القضاء على السرّيّة والحميميّة الفرديّة، ولكأنّ كلّ ما يمتّ بصلةٍ إِلى الحرّيّة الشخصيّة ينقض وحدة الجماعة، ويمثّــل ضــرباً مــن الخيانة، ولكأنّه ينبغي أَن يكون للجميع نمط واحد من التفكير . وفي سبيل ذلــك يُلجــأ إِلــى التلاعب بالعقول وإِلى غسل الأَدمغة، بحيث يصبح الأَشخاص آلات تُحرَّك عن بُعد؛ وهكــذا تبنى الوحدة على الخوف : خوف من أَن يكون الإِنسان ذاته، أَو أَن يصبح وحيداً معزولاً إِن هو انفصل عن الآخرين، وخوف من السلطة الطاغية، ومن القوى الخفيّــة، ومــن التــدابير الانتقاميّة، إِن هو انفصل عن الجماعة .

إِنّ غواية بعض المجموعات السرّيّة وبعض البِدَع قد تكون آسرة . فثمّة من لا ثقة لهم في ذواتهم، ضعفاء الشخصيّة، يشعرون بمزيد من الأَمان عنــدما يرتبطــون ارتباطــاً كلّيّــاً بآخرين، فلا يفكّرون إِلاّ بما يفكّر به هؤلاء، ويطيعون بــلا تفكيــر، ويستســلمون بخنــوع؛ وتستقيل شخصيّتهم العميقة حيالَ قوّة الجماعة التي يغدو شبه مستحيل الانفصال عنها؛ فثمّــة ضرب من الابتزاز، وتوريط للأَشخاص بحيث لا يقوون، بعدُ، على الانفكاك .

في الجماعة الحقّة، على كلّ إِنسان أَن يحتفظ بسرّ كيانه العميق وأَلاّ يضطرّ إِلى البوح به . فثمّة مواهب إِلهيّة، وآلام، ومنابع إِلهام يتعيّن أَلاّ تُباح للجماعة؛ وعلى كلّ فرد أن يتمكّن من ترسيخ وجدانه الذاتيّ وحياته الروحيّة . فغاية الانتماء هي تحقيق الذات . والجماعــة لا تستهدف إِنتاج ما هو خارج عنها، ولا هي تجمّع أَشخاص يناضلون في سبيل قضيّة، بل هي مكان تواصل حميم، حيث يحبّ الأَعضاء بعضهم بعضاً، ويتحسّس بعضهم جراح البعض .

و في الجماعة تُهدَم الحواجز، وتزول المظاهر والأَقنعة، ولكنّ ذلــك لــيس ســهلاً، فكثيرون هم الذين بنوا شخصيّتهم على إِخفــاء جــراح قلــبهم وراء حــواجز الاســتقلال، والاستغراق في النشاط بغية تأكيد الذات، وإِحراز النجاح، والــتحكّم . ولا تشــرع الجماعــة تصبح حقّاً جماعة إِلاّ عندما يقلع أَعضاؤها عن التستّر أَحدهم عن الآخرين، وعنــدما تنهــار الحواجز ويستطيع الجميع عيش تجربة تواصل .

و قد وصف سكوت بيك هذه التجربة بأَنّها " أُعجوبة " الجماعة، وقال : " سلام جديد يحلّ على الجماعة ؛ لهجة التحادث تخفت، ومع ذلك، يا للغرابة، تبدو الأَصوات أَبعد مــدى. ثمّة فترات صمت ولكنّها لا تترجم أَبداً اضطراباً، بل يغدو وقــع الصــمت مريحــاً، مفعمــاً

بالسلام؛ ينتفي الهيجان، وتتلاشى الفوضى، ولكأنّ الموسيقى قد حلّت محلّ الضجيج، والجميع ينصتون ويسمعون، والسلام يعمّ . "

تواصل وتعاون

الجميع في الجماعة مدعوّون إلى التعاون على تأمين الاحتياجات اليوميّة، ممّا يستلزم تنظيماً وانضباطاً، وإلاّ سادت الفوضى، واضطرب كلّ شيء . غير أنّ التعاون، في معزلٍ عن التواصل الحميم، سرعان ما ينقلب، مخيّم عمل، أو مصنعاً، وتتفاقم التوتّرات والخلافات .

التواصل الحميم يُبنى على اختبار حبّ مشترك، وهو اعتراف بأنّنا جسد واحد وشعب واحد، دعاه اللّه ليكون منبع حبّ وسلام . وهو يتحقّق في الصمت أكثر ممّا يتحقّق بالكلام، ويتحقّق في الاحتفال أكثر ممّا يتحقّق في العمل . إنّه تجربة انفتاح وثقة تتفجّر من أعماق الكيان، إنّه عطيّة الروح القدس .

الجماعة هي، قبل كلّ شيء، مكان تواصل؛ ومن ثمّ ينبغي أن تتوفّر، في حياتها اليوميّة، الوقائع والرموز، واللقاءات والاحتفالات التي توقظ وعي هذا التواصل؛ فعندما تقتصر الجماعة على كونها مكان عمل، يتعرّض كيانها للخطر .

الجماعة مكان شفاء ونموّ

عندما ينضوي إلى جماعةٍ أشخاصٌ خَبَروا عزلة المدينة الكبيرة، أو عالم العداء والنبذ، فهم يعثرون على دفءٍ وحبٍّ منعشْين جدّاً . ويشرعون يزيحون أقنعتهم وحواجزهم، ويُقلعون عن الخوف من الجراح، ويعيشون حقبة تواصل وفرح عميق .

و لكنّهم، في الوقت عينه، يكتشفون أنّ الجماعة مكان رهيب، لأنّها مكان علاقات، يميط اللثام عن عواطفنا الجريحة، ويبرز مدى صعوبة العيش مع آخرين، ولا سيّما مع أشخاص معيّنين . إنّ العيش مع كتبٍ وأمتعة، أو مع التلفاز، أو مع كلاب وهررة لأسهل منالاً

! وإِنّه لأَسهل العيش في وحدة، والاقتصار على أَداء خدمة للآخرين، عندما تنتابنا في ذلك رغبة !

الجماعة هي المكان الذي تُفتَضَح فيه حدود الإِنسان، ومخاوفه، وأَنانيّته، وفقره، وأوهانه، وعجزه عن التفاهم مع بعض الأَشخاص، وعُقَده، واضطراباته العاطفيّة والجنسيّة، ورغباته التي لا ترتوي، وإِحباطاته، وحسده، وأحقاده، ونزعاته إِلى التدمير . طالما كان المرء وحيداً، كان يُخيّل إِليه أَنّه يحبّ الجميع، ولكنّه، وقد شرع يقضي وقته كلّه مع آخرين، يتّضح له كم هو عاجز عن الحبّ، وكم يرفض الآخرين، وكم هو منغلق على نفسه .

الحياة الجماعيّة هي كشفٌ مضنٍ لمحدوديّة كلّ كائن، وأوهانه وظلماته وهي، غالباً، كشف غير متوقّع للوحوش الكامنة فيه، وهذا الكشف شاقّ الاحتمال؛ ولذلك يسارع إِلى إِزاحة هذه الوحوش، وإِعادتها إِلى مخابئها، والادّعاء بعدم وجودها؛ او إِلى الزعم بأَنّها وحوش الآخرين.

و لكن عندما يطفو كلّ هذا الأَلم على السطح، نكتشف أَيضاً كم الجماعة مكان آمن . فثمّة، أَخيراً، من ينصتون إِلينا، حقّاً؛ ويصبح ممكناً، شيئاً فشيئاً، أَن نعلن لهم عن وجود هذه الوحوش فينا، وعن جميع مشاعر الذنب المدفونة في قبر كياننا؛ وأولئك الذين يواكبوننا يسعهم مؤازرتنا على تقبّلها، ويوضحون لنا أَنّ هذه الوحوش هي حامية عطوبيّتنا، وعطشنا، وخوفنا من الحبّ، وهي تقف عند باب قلبنا الجريح . ففي كلٍّ منّا جرح حبٍّ بليغ، وتطلّع إِلى تقدير الآخرين، الذين يتوقّع منهم أَن يعدّوه فريداً وعظيم الشأن . إِنّ قلبنا محطّم ودامٍ، ونحن نصبو إِلى حبٍّ لا نهائيّ مجرّد لا يقضي على حرّيّتنا؛ الحياة الجماعيّة هي إِعلان هذا الجرح البليغ، ولا يسعنا الشروع بالتطلّع إِليها وقبولها إِلاّ عندما نكتشف أَنّ اللّه يحبّنا حبّاً لا يُصدَّق؛ فننعتق من الشعور بأَنّنا خطأة مريعون، خيّبوا أَمل ذويهم والآخرين وجرحوهم . إِنّ اختبار اللّه في الصلاة، واختبار أَنّنا محبوبون ومقبولون في الجماعة التي غدت لنا مكاناً أَميناً، يتيحان لنا، شيئاً فشيئاً، أَن نقبل ذواتنا على علاّتنا، بكلّ جراحنا والوحوش الكامنة فينا . إِنّنا جريحون ولكنّنا محبوبون، ومن ثمّ يسعنا أَن ننمو، ونزداد انفتاحاً وتعاطفاً، ونتبيّن أَنّ لنا رسالة . وهكذا تمسي الجماعة مكان تحرّر ونموّ .

إِنّ الجرح الذي نحمله جميعنا ونحاول الهرب منه، قد يصبح مكان اللقاء مع اللّه ومع إِخوتنا وأَخواتنا؛ وقد يُصبح مكان نشوة وعيد الأَعراس الأَبديّة . ما كان شعوراً بالعزلة والذنب والنقص يصبح موئل تحرّر وخلاص .

فعندما تشرع الحواجز بالانهيار، يتجلّى قلبنا بكلّ ما ينطوي عليه من جمال وأَلم، فهو، من جرّاء الجراح والخطيئة، ممتلئ ظلمةً وحاجةً إِلى الانتقام، ولكنّه، أَيضاً، المكان الذي يقطنه اللّه : إِنّه هيكل الروح . فعلينا أَلاّ نخشى هذا القلب العطوب الذي تتجاذبه الغوايات

الجنسيّة، والكره، والحسد، وألاّ نفزع إلى السلطة والمعرفة للظفر بالمجد والاستقلال، بل حسبنا أن نُفسح فيه مكاناً للّه كي يطهّره وينيره . وبقدر ما ينزاح الحجر عن قبرنا، وتتجلّى رسالتنا، نكتشف أنّنا محبوبون ونتمتّع بالصفح والغفران . وحينئذٍ، بقدرة الحبّ والروح، يصبح القبر مكان حياة؛ وينبعث القلب إلى حياة جديدة طاهرة، ونكتشف، بنعمة اللّه، حياة جديدة، مولودة من الروح .

هذا الانحدار إلى أغوار القلب هو نفق ألم، وهو أيضاً تحرّر الحبّ . إنّ الألم يرافق تصدّع حواجز الأنانيّة وانهيارها، والحاجة إلى إثبات الذات وإلى اعتراف الآخرين، التماساً لمجدٍ شخصيّ؛ ولكن التحرّر يتحقّق عندما ينبعث إلى حياة جديدة الطفل الثاوي في أعماقنا، ويموت الراشد الأنانيّ . فيسوع قد أكّد أنّنا لن نلج الملكوت ما لم نتغيّر لنصبح كالأطفال، فللأطفال قد أُعلن الحبّ، لا لحكماء العالم ودُهاته .

عندما نعيش حقّاً وفقاً لقلبنا، نعيش وفق الروح الذي يقطن فينا، ونرى الآخرين مثلما يراهم اللّه، نرى جراحهم وآلامهم، ولكنّها لا تبدو لنا مشكلة، بل نرى اللّه فيهم؛ ولكن عندما نشرع نعيش على هذا النحو، في منأى من حماية حواجزنا، نُشرع ذواتنا للعطب، ونصبح فقراء . " طوبى للفقراء بالروح، فملكوت السماوات لهم " . ويمسي هذا الفرح ثروتنا، إذ لا نعيش، بعدُ، من أجل مجدنا، بل من أجل حبّ اللّه وقدرته واللّه يتجلّى في الوهن .

***

الفرق بين الجماعة والفريق المتّجه حصراً نحو هذه القضيّة أو تلك، يكمن في أنّ الفريق يرى العدوّ في الخارج، ومن ثمّ فنضاله موجّه إلى الخارج، وسينجم عنه رابح وخاسر . الفريق يؤمن بامتلاك الصواب والحقيقة، ويسعى إلى فرضها؛ في حين أنّ أعضاء الجماعة يدركون أنّ الصراع يندرج داخل كلّ فرد وداخل الجماعة، وأنّه ينبغي أن يوجّه ضدّ جميع قوى الكبرياء، والنخبويّة، والحقد والانهيار : فهؤلاء هم الاعداء الذين يجرحون الآخرين ويسحقونهم، ويسبّبون الفرقة وكلّ أصناف الحروب . إنّ العدوّ في الداخل، لا في الخارج؛ غير أنّنا غالباً ما نراه ونحاربه خارج ذواتنا، لكيلا نراه في داخلنا .

يقول القدّيس يوحنّا الصليبي أنّ لحبّ اللّه ولحبّ الآخرين نبعاً واحداً وغاية واحدة . فمن نما في حبّ الآخرين، نما في حبّ اللّه، ومن أوصد قلبه دون الآخرين، أوصده دون اللّه .

في كلّ كائن بشريّ عطشٌ إلى التواصل الحميم، وصبوٌّ إلى الظفر بحب الآخرين وتفهّمهم، بعيداً عن الإدانة ورغبة عميقة في اعترافهم بأنّه ثمين وفريد . بيد أنّ لهذا التواصل مقتضيات تستلزم الخروج من القوقعة، والتعرّض للجراح في سبيل حبّ الآخرين وفهمهم، والاعتراف بأنّ كلاًّ منهم فريد لا غنى عنه، والاقتسام معهم، وتوفير المجال والطعام لهم . وهنا يثوي الألم، والخوف، وأحياناً العجز عن الحبّ . إنّ يسوع يدعو تلاميذه إلى الحبّ، وإلى حبّ بعضهم بعضاً مثل حبّه لهم، لا مثل حبّهم لذواتهم فحسب . إنّه يدعو إلى شيء جديد : حبّ الآخرين كحبّ اللّه نفسه، والنظر إليهم بعينيه . ولن نقوى على رؤيتهم وحبّهم على هذا النحو، ما لم نكن قد خبرنا، في الإيمان، أنّ يسوع يحبّنا حبّاً محرّراً .

استلطاف ونفور

الخطران الأكبران اللّذان يهدّدان مصير الجماعة هما " الأصدقاء " و" الأعداء " . فالمتشابهون سرعان ما يلتقون . إنّنا نحبّ أن نكون إلى جانب من يروق لنا، ويقاسمنا آراءنا، ونظرتنا إلى الحياة، وأسلوب مَرَحنا؛ فيتغذّى أحدنا بالآخر، ويداهن أحدنا الآخر . وقد تتحوّل الصداقات البشريّة سريعاً إلى نادٍ للأردياء المنغلقين بعضهم على بعض، الذين يتبادلون المداهنة ويزعمون أنّهم المتميّزون . وهذا يحول دون رؤية المرء لفقره الداخليّ وجراحه . وتكفّ الصداقة عن كونها حافزاً على النموّ، وعلى المضيّ قُدُماً نحو خدمة مثلى لإخوتنا وأخواتنا، وعلى مزيد من الأمانة لما أوتينا من مواهب، ومزيد من التيقّظ لمقتضيات الروح، والتأهّب لمواصلة السير، عبر الصحراء، نحو أرض التحرّر الموعودة؛ بل تصبح الصداقة خانقة، وتنتصب حاجزاً دون المضيّ نحو الآخرين، والاهتمام باحتياجاتهم . ومع كرّ الزمن تتحوّل بعض الصداقات إلى إدمان عاطفيّ بل إلى ضرب من العبوديّة .

و في الجماعة، أيضاً، بواعث نفور . فثمّة دائماً من لا أتفاهم معهم، من يعقّدونني، ويخنقون انطلاقة حياتي وحرّيّتي . وجودهم يبدو تهديداً لي، ويوقظ فقري، وشعوري بالذنب، وجروحي، ويستفزّ فيّ ضروباً من العدوانيّة، والتقهقر الوضيع . إزاءهم أعجز عن التعبير عن نفسي وعن العيش بسلام . وآخرون يولّدون فيّ مشاعر الغيرة والحسد؛ إنّهم كلّ ما أتمنّى أن أكون؛ حضورهم يذكّرني بكلّ ما أخفقت في كونه، وإشعاعهم وذكاؤهم يفضحان إملاقي . وآخرون يطالبونني بالكثير، وأعجز عن تلبية طلباتهم العاطفيّة المطّردة، فأضطرّ إلى ردّهم .

هؤلاء جميعهم " أَعدائي "، ويهدّدون كياني، إِنّني أَكرههم ولو لم أَعترف بذلك . صحيح أَنّ هذا الكره ما انفكّ نفسيّاً، ولم يبلغ مرحلة أَخلاقيّة، إِذ إِنّه ليس، بعدُ، إِراديّاً . ومع ذلك، أَودّ أَلاّ يوجد هؤلاء، فزوالهم أو موتهم يبدوان تحريراً لي .

من الطبيعيّ أَن تنطوي كلّ جماعة على حساسيّات متقاربة، وعلى صدامات بين حساسيّات متباينة ناجمة عن عدم نضوج عاطفيّ، وعن العديد من عناصر طفولتنا التي لا نملك في ضبطها حيلة، ولا سبيل إِلى إِنكارها .

و لكن إِن نحن أَسلسنا القياد لمشاعرنا، ستتألّف قبائل داخل الجماعة، التي لن تكون بعد جماعة، أَي مكان تواصل حميم، بل مجموعات من الأَشخاص المنكمشين على أَنفسهم، والمنغلقين دون الآخرين ... لن تكون الجماعة جماعة حقّاً إِلاّ عندما يقرّر معظم أَعضائها، بوعي، تحطيم هذه الحواجز، والانعتاق من شرنقة " الصداقات " ومدّ أَيدهم إِلى "الأَعداء".

و لكنّه طريق متمادٍ؛ فالجماعة لا تتكوّن في يوم واحد، لا بل إِنّها، في الواقع، لا تكتمل أَبداً، بل هي، أَبداً، إِمّا في تقدّم نحو حبٍّ أَكبر، أَو في تقهقر لارتضاء أَعضائها أَو رفضهم الانحدار إِلى نفق الأَلم، في سبيل ولادة جديدة في الروح .

يتحدّث " سكوت بيك Scott Pech " عن جماعات مزعومة، حيث الجميع مهذّبون وخاضعون للقوانين، وحيث لا يتحدّثون إِلاّ عن التفاهات والعموميّات . ولكن خلف كلّ ذلك يكمن خوفٌ جمّ من الخلاف، خوف من إِفلات الوحوش المختبئة . فلو هم شرعوا ينصتون بعضهم إِلى بعض، ويتكلّمون وفقاً لكيانهم العميق، ستتصاعد بواعث غضبهم ومخاوفهم، وربّما سيلجأون إِلى ضرب رؤوس بعضهم بعضاً بأَواني القلي . ففي أَغوار قلوبهم مشاعر مكبوتة لو شرعت تطفو على السطح لعلم اللّه وحده ما قد يحدث؛ لا ريب أَنّ الفوضى ستعمّ .

بيد أَنّ هذه الفوضى قد تُفضي إِلى الشفاء، إِذ إِنّها تجعل القوم يدركون واقع الجماعة، والمخاوف المريعة التي تسكنهم، ويستشعرون ضياعهم وفراغهم، ويكتشفون أَنّهم قد عاشوا جميعهم في الزيف . وقد تحدث حينئذٍ المعجزة وتتحقّق الجماعة . شعورهم بالضياع يحملهم على اقتسام أَلمهم، وخيبات أَملهم، ومحبّتهم، وتبيُّن أَنّهم إِخوة وأَخوات، فيلتمسون من اللّه النور والشفاء، ويكتشفون الصفح والجماعة الحقّة .

العدوّ يخيفني، فأعجز عن سماع صرخته والاستجابة لاحتياجاته؛ ومواقفه العدائيّة المسيطرة تخنقني؛ فأَتجنّبه وأَتمنّى زواله . ولكن، في أَحضان الجماعة، أَنا مدعوّ إِلى اكتشاف أَنّ " العدوّ " هو إِنسان يتأَلّم، فأَعي، من خلاله، وهني، وقلّة نضوجي، وفقري الداخليّ . وربّما هذا هو ما آبى النظر إِليه . فالعيوب التي أَنتقدها لدى الآخرين هي غالباً عيوبي التي أَرفض مواجهتها . وغالباً ما يكون منتقدو الآخرين والجماعة، والباحثون عن جماعة مثاليّة،

هم من يهربون من عيوبهم وأوهانهم . إنّهم يرون القشّة في عين الاخر، ولكن لا يبدو أنّهم يعون وجود الخشبة في عيونهم، ويرفضون الاعتراف بجراحهم، وعيوبهم، وأخطائهم .

العدوّ، في الجماعة، يكشف عن حقيقة الجماعة في داخلنا .

الجماعة، مكان صفح

طالما لم أُقرّ بكوني مزيجاً من نور وظلمات، ومن خصالٍ وعيوب، من حبّ وبغض، وإيثار وأثرة، ونضوج وفجاجة، وطالما لم أعترف أنّنا، جميعنا، أبناء الأب الواحد، سأظلّ أقسّم العالم إلى " أعداء " (" الأشرار ") و" أصدقاء " (" الأخيار ")؛ وسأظلّ أنصب حواجز بيني وبين جماعتي، وأنشر الأضاليل .

و لكن عندما أُقرّ بأوهاني ومعايبي، وبخطئي تجاه اللّه وإخوتي وأخواتي، وبنيلي الغفران الذي يؤهّلني للتقدّم في مضمار الحرّيّة الداخليّة، نحو حبّ أوفر صدقاً، حينئذٍ أستطيع تقبّل عيوب الآخرين وأوهانهم . فهم، أيضاً، قد غفر اللّه لهم، ويستطيعون التقدّم في مسالك الحرّيّة والحبّ؛ ويغدو بإمكاني رؤية كلّ كائن بشريّ بواقعيّة وحبّ، وتبيّن الجرح فيهم الذي يولّد الخوف، ومواهبهم التي يسعني أن أُحبّها وأُعجب بها . نحن، جميعنا، معرَّضون للموت وللعطب، ولكنّنا، جميعنا، أيضاً، ثمينون وفريدون . ولدينا رجاء في القدرة على التقدّم نحو حرّيّة كبرى وعلى تعلّم الصفح .

يسوع يحذّرنا من الحكم على الآخرين وإدانتهم؛ الحكم والإدانة هما خطيئة الحياة الجماعيّة . ونحن إنّما ندين لأنّ فينا ما يشعرنا بالذنب، فنأبى النظر إليه، ونحرص على ألاّ يراه الآخرون . بحكمنا على الآخرين نصدّهم، ونقيم بيننا وبينهم جداراً، وحاجزاً . وعندما نصفح ندمّر الحواجز ونقترب من الآخرين ...

لا نستطيع تقبّل الآخرين، حقّاً، كما هم، والصفح عنهم، إلاّ عندما نتبيّن أنّ اللّه يتقبّلنا كما نحن ويصفح عنّا . إنّها لتجربة عميقة الغور أن ندرك أنّ اللّه يحبّنا ويحملنا، بكلّ جراحنا وصغَرنا ... إنّ قبولنا مسؤوليّة خطيئتنا وقسوة قلبنا، ومعرفتنا بأنّنا قد ظفرنا بالغفران هما تحرّر حقّ .

و لن نقوى على حبّ أَعدائنا وكلّ ما هو محطّم فيهم، حبّاً حقّاً، إِلاّ عندما نشرع نحبّ ما هو محطّم فينا . ولن نقوى على الحبّ بقلب كونيّ شامل، إِلاّ عندما نكتشف أَنّ قلب اللّـــه الكونيّ يحبّنا .

الجماعة مكان صفح؛ فمع كلّ ما قد نكنّه بعضنا لبعض من ثقة، ثمّة أَقوال تجرحنـــا، ومواقف تستفزّنا، وأَوضاع تتصادم فيها الحساسيّات . ومن ثمّ فـــالعيش المشـــترك يفتـــرض صليباً، وجهداً دائماً، وتقبّلاً يمثّل صفحاً متبادلاً يتجدّد كلّ يوم .

و بالتالي فمن ينتمي إِلى جماعة وهو غير مدرك أَنّ عليه أَن يـــتعلّم فيهـــا الصـــفح والتماس الصفح سبعين مرّة سبع مرّات كلّ يوم، سيُمنى بخيبة الأَمل؛

و الصفح هو استبيان ما سبّب غضب الآخرين، ودفَعهم إِلى سلوكٍ غير مستساغ، وهو أَيضاً إِنعام النظر في الذات، وتبـــيّن ما ينبغي تغييره، وما ينبغي الاستصفاح عنه وإِصلاحه .

الصفح هو الاعتراف مجدّداً – عقب فرقةٍ – بالعهد الذي يجمعنا مع مـــن لا نتفـــاهم معهم جيّداً؛ هو الانفتاح عليهم والإِصغاء إِليهم من جديد . هو إِفساح مكان لهم فـــي قلبنـــا . ولذلك ليس الصفح بالأَمر الهيّن، إِذ علينا، نحن أَيضاً، أَن نتبدّل، وأَن نتعلّم الصفح، والصـــفح من جديد، والصفح دائماً، يوماً إِثر يوم . ولا بدّ لنا من قدرة الروح القدس لكي ننفتح على هذا النحو .

كن صبوراً

نحن لا نملك السيطرة على حساسيّاتنا، وبواعث انجذاباتنا ونفورنا النابعة من أَعماق كياننا .

و كلّ ما يسعنا فعله هو الجهد في الإِحجام عن إِتّباع هذه الميول التي تمثّل حـــواجز داخل الجماعة ... إِنّها مزيج من ظلمات ونور . ولن تُصحَّح في يوم واحـــد، بـــل يســـتلزم تصحيحها جمّاً من أَعمال التطهير والصفح، والجهود اليوميّة، وخاصّة موهبة الروح القـــدس التي تجدّدنا من الداخل .

إِنّ تحويل حساسيّاتنا بحيث نستطيع الشروع بحبّ العدوّ عملٌ متمادٍ، فعلينا أَن نقابـــل بالصبر حساسيّاتنا ومخاوفنا، ونرأف بأَنفسنا . وعلينا أَن نعترف بما نحن عليه، ونسأل الآب

أَن يصفح عنّا ويطهّرنا، ثمّ علينا أَن نجهد في سبيل لجم لساننا الذي يزرع الشقاق، ويروق له الإِعلان عن أَخطاء الآخرين . إِنّ اللسان من أَصغر الأَعضاء، ولكنّه قادر على زرع الموت ! ومن أَجل إِخفاء أَخطائنا نضخّم أَخطاء الآخرين . أَما عندما نقرّ بعيوبنا، فيسهل علينا تقبّل عيوب الآخرين .

و علينا أَن نسعى، بصدق إِلى رؤية خصال " العدوّ "، وعندما نراها سنستطيع استخدام لساننا، يوماً، لمديحه، وهذا سيفضي إِلى المبادرة القصوى التي بها نلتمس من عدوٍّ قديم نصيحة أو خدمة . والتماس النصيحة أو الخدمة أَعمق وقعاً من الرغبة في إِسداء خدمة أو إِحسان . وفي هذه الأَثناء يستطيع الروح القدس أَن يساعدنا على الصلاة لكي يكبر "العدوّ" أَيضاً، مثلما يريد له اللّه أَن يكبر، لكي يتحقّق يوماً فعل المصالحة ...

و لئن تمادى الطريق، ينبغي أَلاّ نهوي إِلى القنوط، فإحدى مهمّات الحياة الجماعيّة هي مساعدتنا على مواصلة الدرب في الرجاء، وعلى قبول ذواتنا كما نحن، وقبول الآخرين كما هم . إِنّ الصبر، كالصفح، هو في صميم الحياة الجماعيّة، صبر تجاه ذواتنا، وتجاه سنّة نموّنا، وصبر تجاه الآخرين . إِنّ الرجاء الجماعيّ مبنيّ على قبول واقع كياننا وواقع الآخرين، وعلى حبّ هذا الواقع، وعلى الصبر والثقة الضروريّين للنموّ .

علينا أَن نسأل اللّه تعليمنا حبّ من لا نشعر تجاههم بأَيّ جاذب، ثمّ أَن يجعلنا ننجذب نحو أؤلئك الذين يعلّمنا أَن نحبّهم .

الثقة المتبادلة

في صميم الجماعة تقوم ثقة متبادلة نابعة من الصفح اليوميّ، ومن تقبّلنا مواطن وهننا وفقرنا ومواطن وهن الآخرين وفقرهم . ولكنّ هذه الثقة لا تولد في يوم واحد؛ ولذلك لا تتكوَّن جماعة حقيقيّة في يومٍ واحد . فعندما ينضوي شخصٌ ما إِلى جماعة، يمثّل شخصيّةً ما، لأنّــه يودّ الظهور بالمظهر الذي يتوقّعه منه الآخرون . وشيئاً فشيئاً يكتشف أَنّ الآخرين يحبّونه كما هو، ويثقون به . ولكنّ الثقة شيء ينبغي أَن يُمتَحن ويكبر كلّ يوم .

قد يحبّ الأزواج الجُدد أَحدهم الآخر حبّاً جمّاً، ولكن هذا الحبّ ينطوي أَحياناً علــى عنصر سطحيّ ومثير مرتبط بما يكتشفونه . ولا ريب أَنّ الحبّ أَعمــق غــوراً بــين أَزواج مسنّين، عاشوا مِحَناً معاً، واستقرّ في يقين كلٍّ منهم أَنّ الآخر سيظلّ وفيّاً حتّى الموت، وأَنّ لا شيء يقوى على تحطيم وحدتهم .

و هذا ما يحدث في جماعاتنا : فغالباً ما تنمو الثقة في أَعقاب آلام، ومصاعب جسيمة، وتوتّرات امتحنت الوفاء . والجماعة التي تسودها ثقة حقيقيّة متبادلة هي جماعة صلبة لا تهتزّ .

يتّضح لي، أَكثر فأَكثر، أَنّ العقبة الكبرى التي يصطدم بها كثيرون ممّن يعيشون فــي أَحضان جماعة هي انعدام ثقتهم بذاتهم ... يخشون أَلاّ يستطيعوا الحبّ حقّاً، ويعبرون سريعاً من حالة الاندفاع إِلى حالة الانهيار، ولكن لا هذه ولا تلك تعبّر عن حقيقتهم، فيرتــابون فــي إِمكانيّة الظفر بحبّ الآخرين مع ما هم عليه من هوانٍ ووهنٍ، وفي قدرتهم على حبّ الآخرين . ولكن عندما يتبــيّنون، شيئاً فشيئاً، أَنّ اللّه والآخرين يثقون بهم، سيسهل علــيهم أَن يثقــوا بأَنفسهم، وتنمو ثقتهم بالآخرين .

حقّ المرء في أَن يكون نفسه

من كبريات صعوبات الحياة الجماعيّة هي قسْر الأَفراد، أَحياناً، على أَن يكونــوا مــا ليسوا عليه . إِذ يُلصَق عليهم مَثَل أَعلى يتعيّن عليهم التمثّل به، فيُطلب منهم الكثير، وسرعان ما يدانون ويُصَنّفون . فإِن هم أَخفقوا في التمثّل بالصورة التي رُسمت لهم، خشوا فقدان حبّ الآخرين، أَو، أَقلّه تخيــيب أَملهم، ويضطرّون إِلى التواري خلف قناع . وإِن هــم أَفلحــوا، أَحياناً، في التمثّل بهذه الصورة، وفي التقيّد بقوانين الجماعة، فقد يوحي إِليهم ذلــك شــعوراً سطحيّاً بأَنّهم كاملون، وهذا مجرّد وهم . وليس المطلوب من أَعضاء الجماعــة أَن يكونــوا

كاملين بل الجماعة مؤلّفة من أَشخاص مرتبطين بعضهم ببعض، وكلّ منهم مزيج من خير وشرّ، من ظلمات ونور، من حبٍّ وبغض .

الجماعة هي التربة التي يمكن النموّ فيها، بلا وَجَل، نحو تحرّر قوى الحبّ الكمينة، ولا يمكن أَن يتحقّق نموّ إِلاّ إِذا اعتُرف بإِمكانيّة تحقّقه، وإِذا أُتيح للأَفراد الاعتراف بذواتهم والقبول بها كما هي .

في كلٍّ منّا قطاع مضيء، مهتدٍ، وقطاع ما زال يكتنفه الظلام؛ والجماعة ليست مؤلّفة فقط من مهتدين، بل هي مؤلّفة من جميع العناصر التي تحتاج، فينا، إِلى تحوّل، وتطهير، وتشذيب، ومن " غير مهتدين "

حبّ الآخرين هو الاعتراف بمواهبهم ومساعدتهم على تنميتها، وهو قبول جراحهم ومقابلتهم بالحلم والعطف، فإِن لم نَر منهم سوى مواهبهم وجمالهم، توقّعنا منهم الكثير، ورقّيناهم إِلى مستوى المثاليّة؛ وإِن لم نرَ سوى جراحهم، أَفرطنا في حمايتهم، أو نبذناهم، ومن ثمّ تعرّضنا للحؤول دون نموّهم .

الربّ يدعونا كما نحن

يسعنا اختيار العيش في جماعة لأَنّها ديناميكيّة، دافئة ومشعّة، وفيها نشعر بسعادتنا ولكن إِن نشبت أَزمة بما يواكبها من توتّرات واضطرابات، شرعنا نرتاب في حكمة خيارنا. ولن نتمكّن من المكوث في هذه الجماعة إِلاّ عندما ندرك أَنّ الربّ هو الذي اختارها لنا، وحينئذٍ فقط ننعم بالقوّة الداخليّة التي تمكّننا من عيش فترات الاضطراب .

أَليس هذا ما يحدث في الزواج حيث تتوطّد العلاقة عندما يعي الرجل والمرأة أَنّ اللّه هو الذي جمعهما لكي يكون أَحدهما للآخر رمز حبٍّ وصفح ؟

يعترف الأَعضاء القدامى في الجماعة أَنّهم ليسوا هم من صمدوا بقوّة إِرادتهم، عبر السنوات والمراحل العصيبة، التي مرّت بهما الجماعة، بل أَنّ اللّه هو الذي أَبقى الجماعة متّحدة . فالجماعة لا تقوم على مشروع مشترك، أو حبٍّ متبادل، بل على دعوةٍ من اللّه .

يبدو، من استقراء أوضاع الجماعات المسيحيّة، أَنّه يروق للّه أَن يدعو إِلى الجماعة الواحدة أَشخاصاً على جانب كبير من التباين، بشريّاً، قادمين من ثقافات، وطبقات وبلدان شديدة الاختلاف، ومن المؤكّد أَنّ أَجمل الجماعات تأتي، بالتحديد، من هذا التباين الكبير في الأَشخاص والطباع ممّا يدفع كلّ فرد إِلى تخطّي بواعث استلطافه ونفوره لكي يحبّ الآخر مع كلّ جوانب اختلافه . لم يكن، قطّ، من شأن هؤلاء الأَشخاص اختيار العيش معاً، فبشريّاً يبدو ذلك تحديّاً بل مستحيلاً . وبسبب هذه الاستحالة يعتقد هؤلاء القوم أَنّ اللّه هو الذي اختارهم

لعيش هذه الجماعة، وجعل المستحيل ممكناً . ومن ثمّ إنّهم لا يعتمدون، بعدُ، على قدراتهم البشريّة الخاصّة، ولا على ما يشعرون به من استلطاف متبادل، بل على الآب الذي دعاهم إلى العيش معاً، والذي سيهبهم، شيئاً فشيئاً، هذا القلب الجديد، وهذا الروح الجديد، اللّذيْن سيجعلان منهم شهوداً للحبّ . فبقدر ما يبدو الأمر مستحيلاً، بشريّاً، يتحقّق أنّ حبّهم نابع من اللّه، وأنّ يسوع حيّ . " بهذا يعرف الجميع أنّكم تلاميذي، إن كنتم تحبّون بعضكم بعضاً . "

لا، ليست الحياة الجماعيّة سهلة، ولكنّها تغدو ممكنة بفضل دعوة يسوع .

لا يسوغ إذن نشدان الجماعة المثاليّة، بل المطلوب منّا هو حبّ من وضعهم اللّه إلى جانبنا اليوم . فهم، لنا، دليل حضور اللّه؛ ربّما كنّا نؤثر أشخاصاً مختلفين، أكثر مَرَحاً وذكاءً؛ ولكن هؤلاء هم من منحنا اللّه واختارهم لنا، ومعهم يجب أن نخلق الوحدة ونعيش المعاهدة . إنّنا، دائماً، نختار، أصدقاءنا، ولكنّنا لا نختار إخوتنا وأخواتنا، بل نُعطاهم . وهكذا هو الأمر في الجماعة .

يدهشني، أكثر فأكثر، عدد غير الراضين عن الجماعة التي يعيشون في أحضانها ... بل ربّما كنّا جميعنا نحلم بجماعة مثاليّة، كاملة، ينعم كلّ فرد فيها بالسلام الكامل، والتناغم التامّ، حيث يسود التوازن ويعمّ الفرح .

و من العسير إفهام الناس أنّ المثاليّ غير موجود، وأنّ ما يحلمون به من توازن شخصيّ وتناغم لا يتحقّق إلاّ في أعقاب سنوات وسنوات من الصراعات والآلام، وأنّه حتّى حينئذٍ، لا يتحقّق إلاّ بشكل عابر مثل لمسات نعمةٍ وسلام . أمّا من دأب على التماس توازنه، وسلامه الخاصّ، فلن يعثر عليهما أبداً، فالسلام هو ثمرة الحبّ، وبالتالي ثمرة خدمة الآخرين .

و لكي نكون أدوات جيّدة لحبّ اللّه، ينبغي ألاّ نكون مرهقين، محترقين، عدائيّين، مشتّتين أو مُغلقين، بل ينبغي أن نكون مرتاحين، موحّدين، ساكني النفوس، واعين لاحتياجات جسمنا وقلبنا وفكرنا . قال يسوع أنّ الحبّ الأعظم هو بذل المرء حياته . ولكنْ لا نبذلنّ حيواتٍ مُنهَكَة، متشنّجة، مملوءة عدوانيّة، بل بالأحرى فلنهب حيوات تتدفّق فرحاً .

ما من جماعة مثاليّة؛ بل الجماعة مصنوعة من أُناسٍ لهم ثرواتهم، ولهم أَيضاً فقرهم ومواطن وَهنهم، يقبل بعضهم بعضاً، ويصفح بعضهم للبعض، ويتحسّس بعضهم آلام البعض؛ إِنّ أَساس الجماعة هو، أَكثر من الكمال والتفاني، التواضع والثقة .

كلّما ترسّخت الجماعة أوغل أَعضاؤها في الهشاشة والحساسيّة، ولو بدا أَنّ الأَمر ينبغي أَن يكون على نقيض ذلك، فمن شأن الثقة المتبادلة بين الأَعضاء أَن تزيدهم قوّة . وهذا، وإِن كان صحيحاً، لا ينفي الهشاشة والحساسيّة القائمتين في أَساس نعمة جديدة توجِد بينهم تبعيّةً متبادَلة . الحبّ يجعل المرء ضعيفاً عطوباً، ويدفعه إِلى رفع الحواجز وتحطيم القوقعات التي تفصله عن الآخرين، ويجعله يُتيح للآخرين أَن يدخلوا إِليه في حين يتحلّى هو بلباقة فائقة قبل أَن يدخل إِليهم . إِنّ ملاط الوحدة تبعيّة متبادلة .

و تقوم الجماعة على رقّة التعامل اليوميّ بين الأَعضاء، تعبّر عنها مجاملات وخدمات وتضحيات صغيرة هي إِشارات لا تكفّ تقول : "إِنّني أُحبّك، وسعيد بكوني معك"؛ وهي مبادرات مثل دعوة الآخر إِلى المرور قبلك، وفي النقاش، عدم السعي إِلى إِظهار أَنّه على خطأ وأَنّك على صواب؛ وهي الاضطلاع بالأَعباء الصغيرة لكيلا يحملها الآخر .

الجماعة جسد حيّ

يتحدّث القدّيس بولس عن الكنيسة، جماعة المؤمنين، بصفتها جسداً يتكوّن من أَعضاء مختلفة . إِنّ كلّ جماعة هي جسد ونحن نخصّ بعضنا بعضاً . وشعور الانتماء هذا لا يــأتي من اللحم والدم، بل من دعوة إِلهيّة؛ فكلٌّ منّا، شخصيّاً، مدعوٌّ للعيش مــع الآخــرين ليكــون عضواً في الجسد الواحد . وهذه الدعوة هي أَساس قرار التزامنا بعضنا تجاه بعض، وتجــاه الآخرين، ممّا يجعلنا مسؤولين أَحدنا عن الآخر : " كما أَنّ لنا في جسد واحد أَعضاء كثيــرة، وليس لكلّ الأَعضاء عمل واحد، كذلك، نحن الكثيرين جسد واحد في المسيح، وكلّ واحدٍ منّــا عضوٌ للآخرين " .

و في هذا الجسد لكلّ عضو دورٌ يلعبه، فاليد تحتاج إِلى الرجل، والأذن والعين تتمّمان الشمّ . " إِنّ ما يبدو الأَضعف من أَعضاء الجسد لهو الأَشدّ ضرورة، وما نحسبه الأَحقر، فهو ما نشمله بأَعظم كرامة، وما يقبح منّا فهو ما نحوّطه بأَوفر الحشمة ... فإِنّ اللّه قد نظّم الجسد بحيث يُنيل ما تنقصه الكرامة كرامةً أوفر، لئلاّ يكون شقاق في الجسد، بل يكــون للأَعضــاء اهتمام واحد بعضها ببعض . فإِن تأَلّم عضو تالّم معه سائر الأَعضاء، وإِن أُكرم عضو فــرح معه سائر الأَعضاء "، وفي هذا الجسد لكلٍّ موهبةٌ مختلفةٌ يمارسها : " وإِذ لنا مواهب مختلفة، بحسب النعمة المعطاة لنا، فمن أوتي النبوّة، فليتكلّم بحسب قاعدة الإِيمان؛ ومن أوتي الخدمــة فليلازم الخدمة، والمعلّمُ التعليمَ، والواعظ الوعظَ، والمتصدّقُ سلامةَ النيّة، والمدبّرُ الاجتهــادَ، والراحمُ البشاشة "

و على هذا الجسد، هذه الجماعة، العمل وإِشعاع أَعمال حبّ، أَعمالَ الآب، ولــيكن، معاً، جسد صلاة، وجسد رحمة، لكي يشفي ويهب الحياة لمن هم في شدّة، وفاقدو الرجاء .

ممارسة الموهبة

بممارسة الموهبة تبنى الجماعة؛ وعدم الوفاء للموهبة يُلحق الأَذى بالجماعة كلّها وبكلّ عضوٍ فيها . فمن الأَهميَّة بمكان أَن يعرف كلّ عضو موهبته، ويمارسها ويشعر بمســؤوليّته عن تنميتها، وأَن يعترف الآخرون بهذه الموهبة وأَن يؤدّي هو لهم حساباً عن استخدامه لها . فالآخرون يحتاجون إِلى هذه الموهبة، وعليهم تشجيع من وُهبها على إِنمائها والوفــاء لهــا .

ويتحدّد مكان كلّ فرد في الجماعة وفقاً لموهبته، وهكذا لا يمسي مفيداً فحسب، بـل، أيضـاً، فريداً وضرورياً للآخرين . وهكذا فقط تزول المنافسات وأسباب الحسد .

الحسد وباء يدمّر الجماعة، وهو ناجم عن جهل كلّ فرد لموهبته أو استخفافه بها . أمّا إذا قنع كلّ عضو جماعة بموهبته الخاصّة لأحجم عن حسد موهبة الآخرين التي تبدو له أجمل .

جماعات كثيرة تصوغ (أو تشوّه) أعضاءها بحيث يتشابهون جميعهم، وكـأنّ هـذا التشابه حسنة قائمة على التجرّد؛ وهذه الجماعات تقوم حينذاك على القانون والنظام؛ في حين يتعيّن على كلّ فرد أن ينمو في ممارسة موهبته لبناء الجماعة، وجعلها أجمل وأكثر إشـعاعاً وأوفر دلالة على الملكوت .

و ينبغي عدم الاقتصار على الموهبة الظاهريّة التي قد تكون مرتبطة بملكة فطريّة، إذ إنّ، ثمّة، مواهب كمينة، أبعد عمقاً، مرتبطة بمواهب الروح القدس، وبالحبّ، ومـدعوّة إلـى الازدهار .

يقول " ديتريش بونهويفر " : " ينبغي أن يصبح كلّ فرد حلقةً لا غنى عنها في السلسلة الواحدة، ففقط عندما تتماسك الحلقات جميعها، حتّى أصغرها، يتعذّر تحطيم السلسلة . وعلـى كلّ جماعة مسيحيّة أن تدرك أن ليس الأعضاء الضعفاء فقط هم الذين يحتاجون إلى الأقوياء، بل أنّ الأقوياء أنفسهم لا يقوون على العيش في معزل عن الضعفاء؛ وأنّ إقصـاء الضـعفاء يعني موت الجماعة . "

الموهبة هي ما يُقدّم لبناء الجماعة، وعدم الوفاء للموهبة يُحدث خلَلاً في البناء .

و ليست الموهبة مرتبطة، حتماً، بالوظيفة، فثمّة من وُهبوا الشعور الفوريّ بألم الآخر، بل عيش هذا الألم : تلك هي موهبة التعاطف . وثمَّة من يشعرون بحدوث خَلَل ويسـارعون إلى استبيان السبب : تلك هي موهبة التمييز . ولدى آخرين موهبة النور : فيحكمون بوضوح على كلّ ما يمتّ بصلة إلى خيارات الجماعة الأساسيّة؛ ولدى آخرين موهبة خلق مناخ مناسب للفرح، والانشراح والنموّ العميق لدى كلّ فرد؛ ولدى آخرين موهبة تبيّن خيـر الأشـخاص ومساندتهم؛ ولدى سواهم موهبة حسن الوفادة . لكلٍّ موهبتُه، وله حقّ القدرة على اسـتخدامها لمصلحة الجميع ونموّهم .

الجماعة هي المكان الأمين حيث كلّ فردٍ حرٌّ بأن يعبّر عن نفسه ويقول بكلّ ثقة مـا يعيش ويفكّر ... وطالما ظلّ هناك من يخشى التعبير لكيلا يُحاكم، ويُعدّ أحمق، ويُنبذ، فهـذا دليل على أنّ ثمّة شوطاً لا يزال، يتعيّن اجتيازه . ينبغي، إذن، أن يكون، في قلب الجماعـة، إنصات مملوء احتراماً وعطفاً يستدعي أجمل ما في الآخر وأصدقه.

و لا يقتصر التعبير عن بيان المعوجّ، والإفصاح عمّا يعتري المرء مـن إحباطـات وغضب – وهذا ما يحسن قوله أَحياناً – بل هو البوح بالدوافع العميقة التي تحدو كلّ فـرد، وبتجربة حياته . إنّه، غالباً، طريقة ممارسة موهبة لتغذية الآخرين ومساعدتهم على النموّ .

في معظم الجماعات التي أَعرفها، ولا سيّما القديمة منها، ثمّة أَشخاصٌ هامشـيّون أي عاجزون عن التلاؤم مع مقتضيات الجماعة وعن احتلال مكانهم فيها ... أَلمهم جسيم، إذ إنّ الطبيعة لم تزوّدهم بطبع سهل؛ ولكنّهم أَبناء اللّه، إخوةٌ لنا وأَخوات، وبوسع اللّه أَن يعمل فيهم ومن خلالهم، مع ما هم عليه من مصاعب وعُصابٍ نفسيّ، من أَجل نموّ الجماعة . لديهم، هم أَيضاً، موهبة يقدّمونها؛ وغالباً ما يمكن أَن يكون صراخهم نبويّاً . فعلى الآخرين أَن يعيروهم اهتماماً ويصغوا إليهم .

الهامّ، في الجماعة، هو الأَشخاص ونموّهم، قبل الشرائع والنظام . وعلى المسـؤولين أَن يقيموا توازناً دقيقاً بين احترام الأَشخاص، بجراحهم ومصاعبهم، واحترام الشرائع والنُظم . لا ريب أَنّ الشرائع والنظم ضروريّة، ولكن عندما تترسّخ، لا خطر من تجاوز بعضها، فغاية القوانين هي حياة الأَشخاص ونموّ مواهبهم، وليس الأَشخاص من أَجل القوانين .

عندما يتولّى البعض، في الجماعة، مسؤوليّتهم، " بنجـاح "، ويتمتّعـون بالإعجـاب والتقدير، قد يُغفلون عن أَنّ التواصل مع يسوع ومع الآب هو هدفهم، ومنبع سلامهم . وقـد يذهلون عن الثقة باللّه، ويستعيضون عن اللّه بالجماعة، فلا تعود الجماعة مكان حبّ آتٍ من اللّه وراجع إليه، تتجلّى فيه حياته، بل تمسي الجماعة غاية في ذاتها ... وعندما يتخلّون عـن تلك المسؤوليّات، في أَعقاب سنوات من ممارستها، يعسر عليهم العثور على مكانٍ لهـم فـي الجماعة، ويُفجعون بالمسؤوليّة المفقودة؛ ولا بدّ لهم من اكتشاف أَنّ سبب وجودهم في الجماعة ليس لأَنّ الجماعة مكان ازدهار إنسانيّ رائع، بل لأَنّ اللّه دعاهم للعيش فيها؛ وحينئذٍ سيتّضح لهم أَنّ يسوع يدعوهم، من خلال أَلمهم، إلى حميميّة جديدة، أوفر عمقاً، مع الآب، وأَنّ هـذه هي الموهبة التي عليهم، آنذاك، عيشها . أَوَ ليست هذه هي الغاية القصوى لكلّ إنسان ؟ وإن هم لم يعوا هذه الموهبة الجديدة، ولم يكتشفوا طريق القيامة عبر التواضع، والأَلم، واختبـار جديد لحبّ اللّه، فقد يقتصرون على مرارة الصليب وهوانه.

من " الجماعة من أجلي " إلى " أنا من أجل الجماعة "

لا تصبح الجماعة جسماً حقّاً إلاّ عندما يحقّق معظم أعضائها العبور من " الجماعة من أجلي " إلى " أنا من أجل الجماعة "، أي عندما يُشرَع قلبُ كلّ عضوٍ على كلّ عضوٍ آخر، غير مستثنٍ أحداً . إنّه عبور من الأنانيّة إلى الحبّ، ومن الموت إلى القيامة؛ إنّه الفصح، عبور الربّ، وهو عبور من أرض عبوديّة إلى أرض الميعاد، أرض التحرّر الداخليّ .

فالجماعة ليست مساكنة، ولا هي ثكنة أوفندق، ولا فريق عمل، ولا حُجر أفاعٍ . بل هي المكان حيث كلّ فرد، أو بالحريّ أغلبيّة الأعضاء (فلنكن واقعيّين) دائبة على البروز من ظلمات الأنانيّة إلى نور الحبّ الحقّ؛ فالحبّ ليس نزوة عاطفيّة، أو تأثّراً عابراً . بل هو اعتراف بمعاهدة وبانتماء متبادل . هو الإصغاء للآخر، والاهتمام به، والشعور بتواصل عميق معه . هو الاستجابة لندائه واحتياجاته الأساسيّة؛ هو التعاطف معه، ومشاركته ألمه، ودموعه وفرحه . الحبّ هو الشعور بالسعادة بحضوره، وبالحزن في غيابه؛ هو إقامة الواحد في الآخر، وفزع الواحد إلى الآخر؛ " الحبّ قوّة توحيديّة "

و لئن كان الحبّ هو انشداد الواحد نحو الآخر، فهو، أيضاً، وخاصّة، إنشداد الإثنين معاً نحو وقائع واحدة، والتطلّع إلى أمنياتٍ واحدة، والمشاركة في الرؤيا والمُثُل . وهو، بالتالي توخّي أن يحقّق الآخر ذاته تحقّقاً كاملاً، وفقاً لدروب الربّ، وفي خدمة الآخرين؛ وأن يكون وفيّاً لدعوته، ويحبّ بحرّيّة بكلّ أبعاد كيانه .

ثمّة، إذن، قُطبا الجماعة : شعور بانتماء أحدنا إلى الآخر، وأيضاً رغبة في أن يمضي الآخر إلى أقصى ما يستطيع، في عطائه للّه وللآخرين، وأن يكون أكثر نورانيّة، وأشدّ رسوخاً في الحقيقة والسلام .

و لكي يحقّق القلب هذا العبور من الأنانيّة إلى الحبّ، ومن " الجماعة من أجلي " إلى "أنا من أجل الجماعة"، والجماعة من أجل اللّه ومن أجل المحتاجين، يلزم وقتٌ وكثير من أعمال التطهّر، وموت مستمرّ في سبيل قيامات جديدة . والحبّ يقتضي أن ينسلخ المرء، بلا انقطاع، عن آرائه، وحساسيّاته، ورفاهه . إنّ درب الحبّ مفروش بالتضحيات؛ وجذور الأنانيّة ممتدّة إلى أعماق لاوعينا، وهي التي غالباً ما تكوّن ردود فعلنا الأُولى القائمة على الدفاع، والعدوانيّة، والتماس المتعة الشخصيّة .

ليس الحبّ مجرّد فعل إراديّ يتعهّد به المرء مراقبة حساسيّاته وتجاوزها، ولكنّه شعورٌ وقلب مطهَّران يندفعان تلقائيّاً نحو الآخر . وهذا التطهّر العميق الغور لا يتمّ إلاّ بموهبة من اللّه، ونعمة متفجّرة من أغوار ذاتنا حيث يمكث الروح ... إنّ تعلّم الحبّ يتطلّب حياة

بكاملها . إذ ينبغي أن ينفذ الروح القدس إلى زوايا كياننا الكمينة، وإلى كلّ قطاع فينا يقطنه الخوف، والاضطراب، والتحفّز للدفاع، والحسد .

في خطابه الأخير إلى تلاميذه صلّى يسوع ثلاث مرّات لكي يكونوا واحداً كما هو والآب واحد . ونحو هذه الوحدة ينبغي أن تجهد كلّ الجماعات فتكون " قلباً واحداً، ونفساً واحدة، وروحاً واحداً ". إنّ صلاة يسوع مدهشة، ورؤيته تمتدّ إلى أبعد ممّا يستطيع البشر تخيّله أو تمنّيه . إنّ وحدة الآب والابن كاملة، جوهريّة؛ وعلى كلّ جماعة أن تصبو إلى هذه الوحدة التي لا يمكن أن تتحقّق إلاّ في إطار صوفيّ، بالروح القدس وفيه؛ وطالما ظلّ الإنسان على الأرض، فكلّ ما يسعه فعله هو السير بتواضع نحو هذ الوحدة .

ليست الجماعة مجرّد فريق أشخاص يعيشون معاً ويتحابّون، بل هي مكان قيامة، وتيّار حياة . إنّها أشخاص شديدو التباين، ولكنّهم متحابّون، ويحدو جميعهم رجاءٌ واحد، ويحتفلون جميعهم بحبّ واحد؛ وهذا ما يفسّر جوّ الفرح والاستقبال الذي يميّز الجماعة الحقيقيّة، والنابع من شعور كلّ فرد بأنّه حرّ في أن يكون هو ذاته، في أعمق ما فيه، وأنّه ليس في حاجة إلى تمثيل شخصيّة، وادّعاء تفوّقه على الآخرين، ومحاولة القيام بأعمال مدهشة، لكي يظفر بالحبّ . وليس في حاجة إلى إخفاء جزء من ذاته وراء حواجز وأقنعة، بعد أن اكتشف أنّه محبوب من أجل ذاته، لا من أجل مواهبه الفكريّة أو اليدويّة . وعندما يشرع المرء يُسقط الحواجز والمخاوف التي تحول دون كونه ذاته، وتمنع حياة الروح القدس من التدفّق من خلاله فهو، حينئذٍ يبسّط ذاته . وتبسيط الذات هو أن يكون المرء ذاته، والتيقّن من أنّ الآخرين يحبّونه كما هو، بخصاله، وعيوبه، وبكيانه العميق، وهو السماح لحبّ اللّه ولنوره أن يتألّقا من خلاله، وفقاً لدعوته ومواهبه .

و عندما يعيش أعضاء جماعة في تواصل حميم فيما بينهم، ويحتلّ الفقراء مركز حياتهم، تصبح الجماعة علامة لملكوت اللّه ولحضوره . فيسوع قد جاء كي يعلن للبشريّة أنّ اللّه ليس كائناً وحيداً، خالداً، يتأمّل مجده الذاتيّ؛ وأنّه ليس مجرّد خالق مدهش لعالم رائع ولكنّه حافل بالألم، بل أنّ اللّه أسرة من ثلاثة أشخاص يتواصلون فيما بينهم ويهب أحدهم الآخر هبةً كاملة، ويرتبطون أحدهم بالآخر . واللّه يرغب، رغبةً حارّة، في وجود جماعات تكون علامة على هذا التواصل بين الآب والابن والروح القدس .

الفصل الثاني : المسيرة نحو العهد

رجاء يولد

أتبيّن أنّ عدد الشبّان الجريحين في قدرتهم على إقامة علاقة، وغير الناضجين عاطفيّاً، في تعاظم . وهم في حاجة إلى جماعة، إلى أُسرة جديدة، لكي يصيبوا مزيداً من النضوج، والشفاء، ويظفروا بالوحدة الداخليّة . وقد ينال بعضهم الشفاء، ويكتشفون معنًى لحياتهم في جماعة معيّنة، ثمّ يمضون ويتجذّرون في تربةٍ أُخرى . وآخرون يضربون جذوراً في الجماعة عينها التي تصبح هي التربة التي سيتمكّنون فيها من النموّ، وإيتاء الثمار. ولكن بين الدعوة الأولى إلى العيش في جماعة، والتجذّر النهائي، ثمّة مراحل عديدة، وفترات ارتياب، وأزمات من كلّ نوع . وإنّما التجذّر النهائيّ هو الاعتراف بعهد، والترحيب به، والعهد علاقة يوثّقها الربّ بين الأشخاص، وهو، بالتالي مقدّس، مبنيّ على العلاقة القائمة بين كلّ إنسان واللّه .

و عالمنا يحتاج، أكثر فأكثر، إلى هذه الجماعات، حيث يجد الشبّان الحريّة الداخليّة من خلال شبكة علاقات صداقة، ويكونون حقّاً أنفسهم، من غير أن يضطرّوا إلى التزيّي بشخصيّة غير شخصيّتهم، فيتحرّرون من المخاوف التي ترهقهم وتمنعهم من اكتشاف كيانهم العميق؛ وحينئذٍ فقط يتبيّنون أنّ اللّه والآخرين يحبّونهم، وأنّهم هم أنفسهم قادرون على القيام بأعمال جميلة في خدمة الآخرين، وعلى بلوغ أعماق كيانهم الذاتيّ .

كثيرون من الشبّان يقدمون إلى " السفينة "، بعد أن يكونوا قد هجروا مدرستهم أو جامعتهم أو عملهم الذي أخفق في إرضائهم . وإثر بضع سنوات، يكتشفون من هم حقّاً وماذا يبتغون، فيختارون إمّا الانتساب إلى جماعة دينيّة، أو الزواج، أو العودة إلى عمل أو إلى دروس تلبّي تطلّعاتهم . وآخرون يؤثرون البقاء في جماعة " السفينة "، لا لمجرّد كونها المكان الذي لقوا فيه الشفاء، والذي يستكينون إليه ويسعدون فيه، بل لأنّها المكان الذي قرّروا أن يضربوا فيه جذوراً، لأنّهم استشفّوا دعوة الربّ، وأدركوا معنى الحياة الجماعيّة برفقة أشخاصٍ معاقين، وتلاقى مشروعهم الشخصيّ مع مشروع الجماعة .

إنّ أملاً جديداً يولد اليوم، بعد أن اجتازت الفرديّة والتقنيّات شوطاً بعيداً، واضمحلّ وهم عالم أفضل مبنيّ على الاقتصاد والتقنيّة . ومن خلال هذه الشروخ، تنبعث قلوب كثيرة إلى الحياة، وكثيرون من الشبّان يكتشفون في داخلهم رجاء، إذ قد باتوا اليوم يستطيعون أن يحبّوا ويخلقوا جماعة، بفضل إيمانهم بالمسيح يسوع . إنّ بعثاً يُعدّ . وقريباً ستنشأ طائفة من

الجماعات القائمة على العبادة، وعلى الحدب على الفقراء، جماعات ترتبط فيما بينهـا، ومـع الجماعات الكبرى المتجدّدة، التي تسير منذ سنوات، وأَحياناً منذ أَجيال . أَجل، إِنّ كنيسة جديدة تولد .

لقد تكاثرت، في حقبتنا، الخيانات، والزواجـات المحطّمـة، والعلاقـات المبتـورة، والأَشخاص الذين لم يكونوا أَوفياء للحبّ الذي وعدوا به، والأَبناء الثائرين على آبائهم، فلا بدّ من أَن تتكاثر، بالمقابل، الجماعات التي تشهد للوفاء . إِنّ جماعات طلاّب وأَصدقاء، حتّى ولو كانت اجتماعاتهم قصيرة الأَمد، قد تكون إِشارة رجاء . أَمّا الجماعات التي يعيش أَعضاؤها، بوفاء، طيلة حياتهم، معاهدة مع اللّه، فيما بينهم ومع الفقراء، فهي أَجلّ شأناً، لأَنّها علامة وفاء اللّه .

في حضارتنا قد نكون رقيقين وعديمي الوفاء في آنٍ واحـد، أو قـد نكـون أَوفيـاء وعديمي الرقّة . أَمّا حبّ اللّه فيقرن الرقّة إِلى الوفاء . وعالمنا يتطلّع إِلى جماعـات حنـان ووفاء، وهي، الآن، تولد .

دعوة إِلى الأُسَر

أُسَرٌ كثيرة تكتشف، أَكثر فأَكثر، أَنّ حياتها العمليّة لا إِنسانيّة . لا شكّ أَنّها تجني مالاً وفيراً ولكنّها تؤدّي ثمنه من حياتها العائليّة . فأعضاؤها يعودون مساءً إِلى بيوتهم متـأخّرين، وعطلاتهم الأُسبوعيّة مشغولة بلقاءات عمل، وعالم العمل يسيطر على أَذهانهم؛ ومن العسـير عليهم الظفر بالهدوء الداخليّ الضروريّ لعيشٍ عائليّ، في سلام؛ ويدركون أَنّ نشاطهم المفرط يحملهم على إِغفال أَعمق ما فيهم .

بعضهم مأخوذون في هذا التيّار الذي يفضي بهم إِلى التقدّم المهنيّ، ويخشون، إِن هم أَفلتوا منه، فقدان امتيازاتهم المادّيّة؛ في حين أَنّ آخرين هم أَكثر إِدراكاً لخطورة وضعهم، إِذ إِنّ حبّهم لأسرتهم، ورغبتهم في اللّه أَكبر من رغبتهم في الامتلاك، وفـي التفـوّق المهنـيّ، فيَنشُدون حياةً أَوفر إِنسانيّة، وأَعمق مسيحيّة، ويحلمون بحياة جماعيّة . ولكن قبل التزامهم بها عليهم أَن يتبـيّنوا حقيقة دوافعهم . وخليق بهم الشروع بعمل أَوفر بساطة، وأَقلّ أَجراً، يوفّر لهم فسحة لكي يكتشفوا، شيئاً فشيئاً، موقع قلبهم، وبعد أَن يستعيدوا لحياتهم توازنـاً جديـداً، يكون بمكنتهم هجر عملهم، والاندماج في جماعة، ولن يكون ذلك، بعدُ، حلماً، بل مآل مسيرة طبيعيّة .

و إِن هم اختاروا اقتفاء أَثر يسوع، فعليهم تحمّل عواقب اختيـارهم، إِذ قد لا ينعم أَبناؤهم بمثل ما كانوا ينعمون به من امتيازات مادّيّة، ولكنّهم سيكتشفون الجماعة، وهي عطيّة رائعة .

ليست الأُسرة عازبَيْن يعيشان جنباً إِلى جنب، بل هي شخصان أَصبحا جسداً واحداً . وما يجمعهما من وفاء وحبّ هو ما يضفي على الأَبناء المنبعثين من حبّهما سلاماً وصحّة ونموّاً . وإِنّه لمن الرائع أَن تستقبل الجماعة في حضنها أُسَراً، ورائع أَن تكون الأُسَر جزءاً من جماعة . ولكن لكي يلتزم زوجان بجماعة ينبغي أَن يرغبا كلاهما في ذلك، بلا تحفّظ من أيٍّ منهما؛ وينبغي أَن يكونا على اتّحاد وثيق فيما بينهما، وأَن يكونا قد تخطّيا مراحل الأَزمات المختلفة التي يمرّ بها الزوجان في سنوات زواجهما الأُولى . وحينئذٍ، بفضل حبّهما المتبادل، ونضوجهما العاطفيّ، ووجود أَبنائهما، يقدّمان الكثير للضعفاء في الجماعة، ولنا جميعاً . فطريقة عيشهما المعاهدة بينهما هي علامة حبّ للجماعة وللعالم .

إِنّ كلّ أُسرة متّحدة هي علامة رجاء وقيامة .

الدعوة الأُولى

الالتزام بالعيش في جماعة، ليس، في المقام الأَوّل، التزام عمل، كما هو الأَمر في الأَحزاب السياسيّة والنقابات، حيث يحتاجون إِلى مناضلين يبذلون وقتهم وطاقاتهم، ويتأهّبون للقتال . فالجماعة شيء مختلفٌ تماماً، والحياة فيها هي استجابة أَعضائها إِلى دعوة من اللّه إِلى العيش معاً، وإِلى التحابّ، والصلاة، والعمل في سبيل الاستجابة إِلى صيحة الفقير؛ وهي، بالتالي، التزام كيان؛ وعلى من يبتغي التجذّر في جماعة أَن يعترف أَنّه فيها، في مكانه وبيته، وأَنّه جزء من جسم . والحياة الجماعيّة هي، نوعاً ما، تماثل الزواج حيث يعترف الرجل والمرأة أَنّ علاقة تربطهما، وأَنّهما وُجدا أَحدهما للآخر، وحينئذٍ فقط يعقدان العزم على الالتزام بالزواج، وعلى الوفاء أَحدهما للآخر .

و كذلك، في الجماعة، كلّ شيء يبدأ بالاعتراف بالتواصل المشترك، وبالدعوة إِلى العيش معاً . فذات يوم يستقرّ الشعور بأَنّ علاقات قد نُسجت، وحينئذٍ يأتي القرار الجازم بالالتزام، وبوعد الوفاء، على أَن تثبّته الجماعة .

و يتحتّم أَن يلي القرارُ الاعترافَ بهذه العلاقة أو بهذه المعاهدة، من غير تلكّؤ، وإِلاّ أَفضى كلّ شيء إِلى الهلاك .

و إِذا ما انطلق المرء في رحلته نحو الوحدة الداخليّة، ونحو أَرض الميعاد، فهذا يعني أَنّ كيانه العميق قد اهتزّ في لحظة معيّنة، وأَنّه عهد تجربةً جوهريّة، كما لو أَنّ عصا موسى ضربت صخرة أَنانيّته فتفجّرت منها المياه، أو كما لو أَنّ الحجر الذي يغلق قبره دُحرِج، فاستطاع كيانه العميق أَن ينبجس . إِنّها تجربة انبعاث، وصفح، ودهشة، وإِن بدت ضعيفة؛ إِنّها فترة خطوبة مع الكون، ومع النور، ومع الآخرين، ومع اللّه؛ إِنّها خبرة حياة، يشعر بها المرء أَنّه، جوهريّاً، واحد مع الكون، ومع اللّه، مع كونه ذاته في ما هو فيه الأَشدّ حيويّة، والأَشدّ نورانيّة، والأَشدّ عمقاً؛ إِنّها اكتشافه أَنّه نبع يتفجّر حياة أَبديّة .

هذه الخبرة هي دعوة توجّه خطواتنا نحو مصيرنا النهائيّ؛ وفترة الدهشة هذه هي الواقع الشخصيّ الأَعمق، وهي تتمّ في سياق معيّن، مثل لقاء فقير يوقظ نداؤه فيّ استجابة ويجعلني أَكتشف ينابيع حيّة كامنة في أَغوار كياني . وقد يعتلن مثل هذا النداء بمناسبة زيارة جماعةٍ ما ومقابلة أَشخاصٍ فيها ينهضون مُثُلاً تُقتدى، حَسْبي أَن أرمقهم وأُصغي إِليهم كي أَكتشف ما أَودّ أَن أَكون؛ وسرعان ما ينقلبون مرآة لشخصي العميق، وأَنجذب إِليهم انجذاباً سرّيّاً . وقد يكون النداء أَكثر كتماناً، مختبئاً في أَعماق قلبي، نابعاً من مطالعة الإِنجيل أو سماع بشراه، فأَشعر معه أَنّني استشففت أَرض الميعاد، وعثرت على " بيتي " و" مكاني " . وغالباً ما تحدو تجربة كهذه إِلى الانضمام لجماعة، أو تدفع نحو منحى في الحياة جديد .

قد تكون هذه التجربة تَفَجُّر حياة، ولحظةً مضيئة يغمرها السلام والسكون، أَو قد تكون أَكثر تواضعاً، مثل لمسة سلام، وشعور بالارتياح، شعور كون الإِنسان في مكانه الصحيح، برفقة الأَشخاص الذين يطمئنّ للعيش معهم . وهذه التجربة تهبه رجاء جديداً، ودفعاً إِلى المضيّ قُدُماً بعد استجلائه أموراً جديدة وراء الوقائع الماديّة، والحدود البشريّة، وتبيّنه أَنّ السعادة ممكنة، وإِثر استشفافه " السماء " .

بفضل هذه التجربة يُشرَع الكيان العميق على الملأ . فيما بعد، إِثر الانضمام إِلى جماعة والانطلاق على الدرب، قد تحجب الشمسَ غيوم، ويبدو وكأَنّ الكيان العميق ينغلق، بيد أَنّ تلك التجربة تظلّ كامنة في ذاكرة القلب؛ ويكون قد استقرَّ في اليقين أَنّ الحياة العميقة فينا هي نور وحبّ، وأَنّه يتعيّن استئناف السير في الصحراء، وفي ليل الإِيمان، لأَنّ المرء، في فترةٍ ما، قد استجلى حقيقة دعوته .

و قد تعقب هذه التجربة الجوهريّة موجة ارتياب، وقد يسهم إِغراء المال، وهموم العالم، والخوف من النقد، والمصاعب، والاضطهادات، أو العجز النفسيّ عن اتّخاذ قرار، في الانصراف عن اعتلان ذلك النور ويلتمس المرء لنفسه الأَعذار؛ ولكن، للأَسف، قد تأخذ المرءَ دوّامة، وقد يلتقي أَشخاصاً آخرين يملؤون شعوره بالوحدة، فيفوّت فرصة عيش هذه التجربة

الجوهريّة الكفيلة بإِدخاله في جماعة رجاء . وقد ينتهج درباً آخر، وقد يتحقّق التقاؤه باللّه وبالفقير بطريقة أُخرى، وفي وقتٍ آخر .

****

إِنّ النداء دعوة : " تعالَ معي". وهو ليس، في المقام الأَوّل، دعوة إِلى السخاء، بل إِلى لقاء حبّ . ثمّ يلتقي المرء أَشخاصاً آخرين، مدعوّين، هم أَيضاً، ويشرعون يعيشون معاً، جماعيّاً .

لقد التقيت عدداً من الأَشخاص، شعروا داخليّاً، لدى زيارتهم جماعةً ما، وبكثير من اليقين، أَنّ مكانهم فيها، في حين أَنّ لا شيء في الجماعة ذاتها كان يجتذبهم إِليها : لا أَعضاؤها، ولا نمط عيشها، ولا موقعها ! ومع ذلك أَدركوا أَنّ مكانهم هو في أَحضانها .

هذا النمط من التجربة هو غالباً نداءٌ إِلهيّ حقّ، ولكن لا بدّ له من تثبيت إِقامةٍ في الجماعة ومن فترةِ اختبار .

" اهجر أَباك، وأُمّك، وثقافتك "

من أَجل الدخول في معاهدة والانتماء إِلى شعبٍ جديد، وإِلى جماعة ذات قِيَم جديدة، ينبغي هجر شعبٍ آخر، أولئك الذين أَلِف المرء العيش معهم، حتّئذٍ، وفقاً لقِيَم ومعايير أُخرى : معايير عائليّة تقليديّة، وثروات، وامتلاك، وجاه، أو ثورة، ومخدّرات، وجنوح ... هذا الانتقال قد يكون انسلاخاً شديد الإِيلام، وغالباً ما يستغرق تحقيقه وقتاً طويلاً. وكثيرون هم الذين يأبونه، لأَنّهم يأبون القرار والحسم، يحتفظون بقَدَمٍ في كلّ فريق، ويعيشون بين بين، ولا ينتهون أَبداً إِلى العثور على هويّتهم الذاتيّة ...

البعض يهربون من الالتزام لأَنّهم يخشون، إِن هم انغرسوا في أَرضٍ، أَن يحدّوا من حرّيتهم، فلا يعودوا قادرين على التطلّع إِلى هدف آخر ... ولكن الحرّيّة لا تنمو على نحوٍ مجرّد، بل تنمو في أَرضٍ معيّنة، وبالوجود مع أشخاص معيّنين . ولا ينمو داخليّاً إِلاّ من التزم مع آخرين وتجاههم، ولكن علينا جميعاً أَن نمرّ عبر فترة من الموت والانسلاخ عندما نختار، ونشرع في التجذّر، ونبكي ما هجرناه .

و كثيرون لا يعلمون أَنّهم لو أَعطوا كلّ شيء في سبيل اتّباع يسوع والعيش في جماعة لعُوِّضوا مئة ضعفٍ من كلّ شيء .

إِنّ قلبي يبكي وأَنا أَشهد البعض لا يحملون على محمل الجدّ تجربة الدعوة الأَساسيّة، فلكأَنّهم يطيحون بكنزٍ، في حين تتصاعد من أَرضنا صيحة قنوط، صيحة الجياع والعطاش، مقرونة بصيحة يسوع : " أَنا عطشان " . إِنّهم لا يؤمنون إِيماناً كافياً بذواتهم ولا بدعوتهم، ولا يتبيّنون أَنّ فيهم نبعاً ينتظر أَن يتحرّر لكي يروي عالمنا المبتلى بالجفاف . ما أَكثر الشبّان الذين يجهلون ما فيهم من جمال حياة تنتظر فرصة للتدفّق !

و البعض لا يجرؤون على الانتقال، خشية خيانة " شعبهم " الأَوّل أَو إِيلامه، إِذ يرون في هجر الآباء والأَجداد، وأُسلوب عيشهم إِدانة لهم . ولكن أَلم يقل يسوع : " من أَحبّ أَباً أَو أُمّاً أَو أُختاً أَكثر منّي فلا يسعه أَن يكون لي تلميذاً " ؟ إِنّ الدخول في جماعة مسيحيّة، وفي حبٍّ شامل يقتضي إِيثار يسوع وتطويباته على الأُسرة الخاصّة والأَصدقاء .

و البعض يخشون، إِن هم انتموا إِلى جماعة، أَن يفقدوا هويّتهم؛ وإِن هم أَمسوا جزءاً من فريق وتبنّوا مبادئ التبصّر الجماعيّ، أَن يزولوا، ويفقدوا شخصيّتهم، وغناهم الداخليّ . ولهذا الخوف ما يبرّره، فبالدخول إِلى جماعة يترك المرء بعضاً من ذاته، ويتعيّن على زوايا خشنة من شخصيّته أَن تمّحي ... فالعدوانيّة التي تمثّل غنًى ذاتيّاً، ينبغي أَن تُستبدل بإِصغاءٍ أَكبر، وينبغي أَن يحلّ الصبر محلّ التبرّم . وبالمقابل ستولد قوّة جديدة، وستظهر مواهب جديدة . غير أَنّ الجماعة لا تُلغي إِطلاقاً هويّة الفرد، بل تثبّت هويّته الأَشدّ عمقاً، وتستدعي المواهب الأَكثر شخصيّة، المواهب المرتبطة بطاقات الحبّ .

لمئة سنة خلت، لم تكن كبيرة الخطوة التي يتعيّن اجتيازها من حياة الأُسرة وما هي عليه من إِيقاع وبُنى، وإِطار طاعة، إِلى حياة جماعة دينيّة . أَمّا في أَيّامنا فقد غدت هذه الخطوة جسيمة، فقد تغذّى عالمنا بالاستقلاليّة، والفرديّة، والرغبة في النجاح وفي تسلّق درجات السلّم، وتطلّع كلّ فرد إِلى تولّي مسؤوليّات خطيرة في المجتمع . لقد بات العبور عسيراً . وقد يكون أَيسر على من لم يُصِب نجاحاً في المدرسة وفي العمل أَن ينضمّ إِلى جماعة، ولكنّه قد يكون، بذلك، يلتمس مهرباً، ويتعرّض لخطر أَلاّ يعثر على هويّته الحقيقيّة وأَلاّ يظفر بالازدهار . ولكنّ اللّه يصنع أَشياءً جميلة، وقد يساعد من كان ضالاًّ في العالم على التقاء الحقيقة في أَحضان جماعة .

و على الجماعات أَن تتعلّم استقبال من نجحوا في العالم، وعلى تزويدهم بالدعم الضروريّ كي ينتقلوا من قمّة السلّم إِلى موئل التواصل . كما عليها أَن تساعد من لم ينجحوا في استجلاء دوافعهم وتعميقها .

إِنّ الشبّان الذين استسلموا طوال سنوات لغذاء التليفزيون، سيعسر عليهم أَن يتغذّوا بعلاقات صادقة في حياة جماعيّة . والذين أَصبحوا عدوانيّين تجاه ذويهم، والمجتمع، وأَنفسهم سيعسر عليهم أَن يولوا الآخرين ثقتهم . والذين تطلّعوا دائماً إِلى التألّق والإِعجاب والتقدير،

سيعسر عليهم الإِرتضاء بصِغر العيش اليوميّ في أَحضان الجماعة . اليوم، أَكثر من أَيّ يوم مضى، نحتاج إِلى نعمة إِلهيّة خاصّة لكي ننتقل من الاستقلاليّة، والعزلة، ونبذ المجتمع، إِلى الحياة الجماعيّة .

قد يتبادر إِلى ذهن أولئك الذين نعموا بمناخ عائليّ دافئ، وبإِخوة وأَخوات كُثُر أَنّ لا حاجة بهم إِلى حياة جماعيّة؛ وقد لا يكونون في حاجةٍ إِليها، ولكنّ الجماعات تحتاج إِليهم فقد يوفّرون للآخرين، ولا سيّما للفقراء والضعفاء، الكثير في إِطار جماعة . وعليهم أَن يتيقّظوا لدعوة يسوع : " مع كلّ ما تملك، هب مالك للفقراء ثمّ تعالَ فاتبعني ".

في أَساس الالتزام الجماعيّ ثمّة، غالباً، فعل إِيمان بولادة جديدة، فإِن كان المرء وحيداً أَو عائشاً في أُسرة، فهو يبني هويّته على نجاحات مهنيّة، وعلى حرّيّة التمتّع بوقته، وأَفراح حياة الأُسرة . والجماعة لا توفّر دائماً، ومن المؤكّد أَنّها لا توفّر أَبداً في الحال، مثل ذلك الرضى، ومثل هذه الهويّة؛ إِذ يشعر الفرد بدخوله الجماعة أَنّه فقد بعضاً من ذاته، ويتعذّر عليه قبول مثل هذا البتر إِن لم تؤازره الجماعة والصلاة، وعليه أَن ينتظر بصبر موعد الولادة الجديدة، إِذ لا بدّ من موت حبّة القمح قبل أَن تظهر الحياة . إِنّ الطريق، أَحياناً، طويل، والليالي خالية من النجوم، والفجر يتلكأ في البزوغ .

إِنّ عقد معاهدة يعني الاستسلام، بثقة، لحياة جديدة كامنة في أَغوار الذات، ونشعر بها شعوراً مبهماً، وإِن هي نالت نصيبها من التربة، والماء والشمس، لانبعثت بعزيمة متجدّدة، وسيحلّ موسم الجنى قريباً .

و إِنّني لأَدهش من كثرة الذين يودّون الانضمام إِلى جماعة، فتسيطر هذه الغاية على كلّ طاقاتهم بحيث يعجزون عن سماع صرخة الفقير، وعن رؤية القريبين منهم، والمحتاجين إِلى اهتمامهم، وحبّهم وحضورهم . ويبدو أَنّ مشروعهم يعميهم . إِنّ وسيلتهم الفضلى للاستعداد للدخول في جماعة هي أَن يحبّوا ويكونوا حاضرين لمن هم على مقربة منهم، وبعد ذلك يتمّ الانتقال إِلى الحياة الجماعيّة انتقالاً طبيعيّاً .

ينبغي أَن يحاط الداخل حديثاً في الجماعة علماً بما ينتظره، ليس فقط في ما يتعلّق بالعمل وباستخدام الوقت، بل بما هو أَعمق، أَي بموقفه الداخليّ . عليه أَن يعرف موقف الجماعة من قضايا جوهريّة مثل الثروة، والجنس، وممارسة السلطة، وأَن يطّلع بوضوح على مسؤوليّاته وحقوقه ... تفادياً لكل التباس وفوضى . ولذلك يتعيّن الإِمعان في الحوار مع القادمين حديثاً، ومواكبتهم، وتثبيتهم، وتشجيعهم، وتوفير كلّ ما يحتاجون إِليه من دعم .

فالذين يجتازون من ثقافتهم الخاصّة – أَصدقائهم واستقلاليّتهم – إِلى ثقافة الجماعة، يعانون، من جرّاء ذلك، محنة قاسية، بحيث يتعرّضون، في غضون بضعة أَسابيع أَو بضعة أَشهر، لاضطراب رهيب يشعرهم بالعزلة، والشكّ، والضياع، وفي تلك الفترة يتعيّن تقديم الكثير من العون لهم .

و ينبغي أَن يؤمّن لهم التثقيف الروحيّ المناسب، ومساعدة الغذاء الذي يحتاجون إِليه لكي يقووا على عيش كلّ ما هو مقفر في الجماعة، فيُعوَّضوا عن أَصدقائهم، واستقلاليّتهم، وتسلياتهم، بما يهبهم العزم على عيش مقتضيات الحياة الجماعيّة .

و قد يجتذب البعض إِلى الدخول في الجماعة نمط عيش بسيط وفقير حيث المشاركة، والاستقبال وأولويّة العلاقات الوديّة . وقد يكونون فارّين من مقتضيات حياة المجتمع، آملين في العثور على ازدهارهم في حياةٍ تلقائيّة واحتفال . ولكنّهم يكتشفون، شيئاً فشيئاً، أَنّ الحياة الجماعيّة ليست هذا فحسب، وأَنّ الوفاء لها يستلزم الخضوع لنظام، وبُنَى معيّنة، وبذل جهد يوميّ في سبيل الخروج من قوقعة الأَنانيّة . ويتبيّن، أَيضاً، أَنّ الربّ استدعاهم لكي يساندوا الآخرين في مِحَنهم، وفي نموّهم صوب التحرّر، ويتولّوا أَمرهم، ويلتزموا تجاههم، وأَن يرتضوا، هم أَنفسهم، بأَن يتولّى آخرون أَمرهم، وبأَن يتلقّوا منهم السند والحبّ، وبذلك يدخلوا في علاقة ارتباط متبادل وفي معاهدة . وهذا أَشدّ صعوبة واقتضاءً، لأَنّه ينطوي على اعتلان ما في المرء من مواطن ضعف . وهكذا يدخل الإِنسان في جماعة بحثاً عن سعادته؛ ويبقى فيها لكي يُسعد الآخرين .

و غالباً ما تكون فترة المكوث الأُولى في الجماعة، فترة مثاليّة، يبدو فيها كلّ شيء كاملاً . فالعيوب متوارية، ووحدها الحسنات تبرز، وكلّ شيء رائع، جميل؛ وكأَنّ الجماعة مؤلّفة من قدّيسين، وأَبطال، وكائنين استثنائيّين، يختزلون كلّ ما يودّ الداخل إِلى الجماعة أَن يكونه .

ثمّ تحين مرحلة خيبة أَمل ناجمة، عموماً، عن فترة تعب، أَو شعور بالوحدة، أَو حنين إِلى الوطن، أَو عن فشلٍ ما، أَو عن طغيان السلطة . وفي أَثناء مرحلة " الانهيار " هذه يمسي

كلّ شيء قاتماً : ولا تعود تظهر سوى معايب الآخرين ومثالب الجماعة؛ ويغدو كــلّ شــيء مثار سأم، ويشيع انطباع بأَنّ جميع الرفاق مراؤون ولا همّ لهم سوى القانون والنظام، والبُنى، أو أَنّهم، على نقيض ذلك، فوضويّون، غير مؤهّلين؛ وتصبح الحياة لا تُطــاق . وبقــدر مــا يكونون، في الفترة الأُولى، قد ارتقوا بالجماعة إِلى مســتوى المثاليّــة والكمــال، ونصّــبوا مسؤوليها على عروش رفيعة، تكون خيبة أَملهم أَشدّ مرارة، ويهبطون من شاهق " إِلى الهوّة " . وإِن هم تمكّنوا من تخطّي هذه الفترة الثانية، تسنّى لهم الدخول في المرحلة الثالثة، مرحلــة الواقعيّة والالتزام الصادق، مرحلة المعاهدة، حيث يتبيّنون أَنّ أَعضاء الجماعة ليسوا قدّيســين ولا أَبالسة، بل هم أَشخاصٌ يختلط فيهم الخير بالشرّ، والظلمات بالنور . وكلّ منهم يسعى إِلى النموّ، ويعيش في الرجاء . وحينئذٍ يشرعون يتجذّرون، مدركين أَنّ الجماعة ليست في القمــم ولا في أَسفل سافلين، بل هي هنا، على الأَرض، وهم متأهّبون للسير معها وفيهــا، يقبلــون الآخرين والجماعة كما هم، واثقين بأَنّهم جميعهم، معاً، قادرون على النموّ نحو شيءٍ جميل .

خيار التجذّر

بعض الشبّان يجدون مشقّة كبرى في عقد العزم على تجذّر نهائيّ، فكثيــرون مــنهم عهدوا طفولة بائسة أَو غير مستقرّة، وخاض كثيرون آخرون تجارب جنسيّة مبكّرة، ومثــل هذه التجارب قد تجعل، فيما بعد، الالتزام صعباً . فضلاً عن أَنّه من الشائع اليوم الارتياب في كلّ شيء، والتشكيك بالسلطة، والتخوّف من قطع عهد، فعالمنا يتغيّر تغيُّراً سريعاً، وكلّ شيء يتبدّل . ولئن التزم شابّ اليوم، كيف له أَن يلتزم للغد ؟ وبالتالي لا بدّ من معاملته بكثير مــن الصبر، إِذ إِنّه، لأَسباب عديدة، قد يكون متخلخل الكيان، وعاجزاً عن إِعلان "نَعَم " نهــائيّ . ولكنّه إِن التقى شخصاً وفيّاً له، لاكتشف، شيئاً فشيئاً، ماهيّة الوفاء، ولتمكّن حينئذٍ من الالتزام .

و صعوبة الالتزام، لدى كثيرين، تنبع من كونهم لم يحلّوا، بعــد، قضــيّة العزوبــة والزواج التي يتعذّر التجذّر في جماعة قبل حلّها . وهذا الحلّ يعني، للبعض، قــرار البقــاء عازبين طيلة حياتهم تلبية لدعوة يسوع والفقراء، والتخلّي عن غنى حياة عائليّة، أَمــلاً فــي الظفر بموهبةٍ إِلهيّة، ورغبةً في مزيدٍ من الجاهزيّة في خدمة يسوع والفقراء والإِنجيل . وهذا لا ينفي معاناتهم، أَحياناً، من جرّاء هذه التضحية، غير أَنّهم يضعون إِيمانهم ورجاءهم في هذه الدعوة إِلى العيش مع يسوع، وفي حياةٍ جماعيَّة مع الفقير .

و الحلّ يتمثّل ،لآخرين، في الاستسلام للظروف وللّه، مع إِيلاء الأَولّيّة لإيمانهم ولالتزامهم وفقاً لأُسلوب عيش معيّن . فقد ارتضوا أَن يعيشوا الحياة الجماعيّة عيشاً كاملاً، وأَن يلتزموا تجاه الفقراء، وأَن يضعوا الصلاة في صلب حياتهم . وإِن هم استنسبوا الزواج، في ما بعد، فسيفعلون ذلك في هذا السياق عينه، لكي يستطيعوا أَن يعيشوا هذه التطلّعات العميقة ثنائيّاً، ثمّ مع الأَبناء . والوسيلة الفضلى لعقد زواج حقيقيّ، يتمثّل في الالتزام بأسلوب عيش، على معرفة واضحة لما يُرغب في عيشه؛ وعلى هذا الالتزام الأَساسيّ يمكن بناء علاقة حميمة مع الآخر . وإنّها لخطيرة محاولة نشدان علاقة حميمة، قبل اختيار أُسلوب الحياة، وخارج نطاق هذا الخيار .

و إِن اتّفق أَن مارست جماعة ضغوطاً على أَحد أَعضائها لكي يقرّر قبل أَن تحين ساعته، ففي ذلك الدليل على أَنّ هذه الجماعة نفسها لم تظفر، بعد، بحرّيّتها، وأَنّها لا تشعر بالأَمان، فتتشبّث بالأَشخاص؛ ولربّما هي نمت نموّاً سريعاً بدافع الكبرياء . أَمّا الجماعات التي ولدت من مشيئة اللّه، والتي كان الروح القدس منشئَها، فالآب السماوي سيرسل لها الأَشخاص الذين تحتاج إِليهم ...

عندنا، في السفينة، يستطيع بعض أَشخاص، بضعة أَيّام بعد وصولهم، الإِعلان عن أَنّهم باقون، طيلة حياتهم . فشعورهم بالارتياح والطمأنينة من الشدّة بحيث يتكوّن لديهم اليقين بأَنّهم عثروا على مرساهم . ولكن قد يلزم آخرين وقت أَطول كي يكتشفوا أَنّهم في مكانهم الصحيح، وأَن لا حاجة لديهم إِلى البحث عن مكان آخر . وتوقيت " النَعَم " النهائيّ ليس واحداً للجميع .

إِنّ عقد معاهدة مع آخرين يعني الانغراس معهم في تربة واحدة . فاللّه هو الذي دعانا لكي نكون، معاً، علامة وفاء وحبّ . وفقط عندما نغرس جذورنا في التربة نشرع نؤتي ثماراً . والانغراس في التربة يعني الشروع في عيش معنى جديد للرسالة، تولد معه قدرة جديدة على منح الحياة، لا فيّ فقط، بل في جسم الجماعة .

الفصل الثالث

الرسالة

لقد استهلّ يسوع رسالته بدعوته رجالاً ونساءً اختارهم، وأحبّهم ودعاهم ليكونوا لـه أَصدقاء . وهكذا بدأ كلّ شيء بعلاقة شخصيّة مع يسوع، وفي تواصل معه .

و اليوم إِن اجتمع أَشخاص لكي يعيشوا معاً ويتحابّوا فلأَنّهم يشعرون، في كثير أو قليل من الوضوح، بأَنّ لديهم مهمّة بصفتهم جماعة، وبأَنّ اللّه دعاهم معاً، وبأَنّ لهم رسالة حبّ يبلّغونها للآخرين . وعندما يجتمع اثنان أو ثلاثة باسم يسوع، يكون هو حاضراً فيما بينهم، والجماعة هي علامة هذا الحضور؛ وعندما هي تصلّي وتحبّ، فهي علامة القيامة وهذه هي رسالتها .

للجماعات نشاطات مختلفة مثل صناعة الجبن، والبيرة والنبيذ، أو تلقين تقنيّات جديدة أكثر تطوّراً، أو بناء مستشفيات ومدارس؛ وقد تسهم في تقدّم الثقافة بنشر الكتب، والفنّ، وإِنشاء المكتبات الكبيرة . ولكنّ كلّ ذلك لا يهب الحياة حتماً . أَمّا رسالة الجماعة فهي أَن تكون للآخرين معين حياة، أَي أَن تمنحهم أَملاً جديداً، ومعنى قشيباً لحياتهم، وتكشف لهم النقاب عن جمالهم الجوهريّ، وعن قيمتهم وشأنهم في الوجود، وقدرتهم على الحبّ، والنموّ، وإِنجاز أمور جميلة، والتقاء اللّه؛ وتزويدهم بمزيد من الحرّيّة الداخليّة؛ وإِشراع أَبواب كيانهم لكي تتدفّق منه طاقات جديدة؛ وإزاحة نير الخوف والشعور بالذنب الذي يرهقهم، عن أَكتافهم . إِنّ منح الآخرين الحياة هو إِبلاغهم أَنّ الربّ يحبّهم كما هم، وأَن حجر القبر الذي يخفي بشاعات حياتهم قد يُدحرج، وأَنّهم ظفروا بالصفح، وباتوا قادرين على العيش في حرّيّة . ونحن، ، بحبّنا وحناننا، باستقبالنا وإِصغائنا، قادرون على منح الحياة .

كلّ محتوى رسالة يسوع هو منح الحياة . لقد جاء لكي يهب الحياة، ويهبها بغزارة . جاء ليزيل السدود التي تمنع سريان الحياة ... جاء ليحرّر، ويُشرع أَبواباً جديدة ودروباً جديدة، ويبطل الشعور بالذنب، ويشفي، ويوحّد، ويخلّص . وهو يطالب تلاميذه بمواصلة رسالة منح الحياة هذه، رسالة الخصب والتحرير، وهي رسالة كلّ جماعة مسيحيّة.

و عندما أَرسل يسوع تلاميذه أَوصاهم بالوفاء للفقر، وبألاّ يصطحبوا شيئاً معهم، وأَمرهم بصنع أَشياء يستحيل عليهم تحقيقها بأَنفسهم . وهذه هي حال كلّ رسالة، فالجماعات وأَعضاؤها مدعوّون إِلى الالتزام بالفقر، وإِلى تحقيق أمور مستحيلة، مثل أَن يكونوا مؤسّسي جماعات، وأَدوات شفاء ومصالحة، وصفح، وتوحيد . الرسالة هي جلب حياة اللّه إِلى

الآخرين؛ ولا يمكن لذلك أَن يتحقّق إِلاّ إِذا تحلّت الجماعات والأَفراد بالفقر والتواضع، وأَتاحوا لحياة اللّه أَن تنساب من خلالهم .

وبقدر ما يكون الأَشخاص والجماعات أَغنياء وراضين عن ذواتهم، فخورين بقدراتهم وسلطتهم، وبقدر ما يرغبون في فعل ما يشعرون بالقدرة على فعله، يتعذّر عليهم تسريب حياة اللّه، ولا يعودون يعطون سوى ما يملكون، أَي رضاهم عن ذاتهم .

رسالة عامّة، ورسالة خاصّة

رسالة منح الحياة والتحرير ينبغي أَن تمارَس، في المقام الأَوّل، بين أَعضاء الجماعة؛ وأَن تبدأ معهم . فهم ينضوون إِلى جماعة لكي ينموا في الحريّة الداخليّة، ثمّ لكي يهبوها للآخرين، ويشعّوا، ويبلّغوا البشرى . وتحقّق الرسالة بوسائل مختلفة، في أَماكن وأَوقات مختلفة . منح الحياة هو الرسالة العامّة لكلّ جماعة وكلّ فرد، ولكن لكلّ جماعة رسالتها الخاصّة، وأُسلوبها الذاتيّ في منح الحياة، وفقاً للأَهداف الخاصّة بها .

لكلّ جماعة مهمّات ثلاث : محبّة كلّ فرد، والارتباط معاً، وعيش الرسالة . ولكن لكلٍّ منها أُسلوب عيش مختلف، ونظم وهيكليّة مختلفة، وأولويّات حياة يوميّة مختلفة؛ ولكن لجميعها اهتمام واحد بالآخرين، وبحبّهم، وبإعلان بشرى الخلاص للبشريّة جمعاء، وبتزويدها بمزيد من السلام، والحياة والحرّيّة .

كلّ جماعة جديدة يستفزّها اللّه الذي يلهم رجلاً أو امرأة، أو مجموعة أَشخاص الاستجابة لاستغاثة، وتلبية حاجة محدّدة من حاجات البشريّة، في حقبة معيّنة من التاريخ . ولكلّ جماعة جديدة، مع مؤسّسها، موهبة خاصّة، ورسالة .

و تصبح الجماعة، حقّاً، متّحدة ومشعّة، عندما ينتابها شعور بضرورة رسالتها الملحّة . ففي العالم الكثيرون جدّاً ممّن فقدوا الرجاء، والعديد من صيحات لا يستجيب لها أَحد، ومن الأَشخاص الذين يموتون في وحدتهم . ويحقّق الأَفراد تحقيقاً كاملاً معنى الجماعة عندما يدركون أَنّهم ليسوا موجودين من أَجل ذواتهم، ولا من أَجل قداستهم الذاتيّة المتواضعة، بل من أَجل استقبال عطيّة اللّه، ولكي يأتي اللّه فيروي القلوب الجافّة، بفضل صلواتهم، وتضحياتهم، وحبّهم، وروح خدمتهم . الجماعة مدعوّة لتكون نوراً في عالمٍ من الظلمات، ونبعاً منعشاً للكنيسة وللبشر أَجمعين . فإِن هي عطشت قضى العالم عطشاً؛ وإِن هي لم تحمل ثمراً قضى الفقراء جوعاً .

بيد أَنّ الشعور بضرورة الرسالة الملحّة لا يعني أَن يندفع المرء إِلى العمل بإِفراط، ويكون عصبيّ المزاج قلقاً؛ بل إِنّ ذلك الشعور لا يتعارض مع الاستسلام والثقة والسلام، والاسترخاء . وهو إِلمام بما يغمر العالم من أَلم وشرّ، وفي الآن عينه، بعمق بشرى الخلاص، واتّساعها، وشمولها .

توضيح الأهداف

يريد البعض العيش معاً، وهم لا يتبيَّنون لهذه الرغبة سبباً . بل رغبتهم الوحيدة هي العيش في جماعة، فحسب .

و لكن إِن لم تكن الأَهداف الخاصّة واضحة تماماً، لسرعان ما تنشأ الخلافات وينهار كلّ شيء .

و غالباً ما تنجم التوتّرات، في الجماعة، عن أَنّ للأَفراد توقّعات متباينة لا يوضحونها. وقد يحدث مثل ذلك في الزواج، حيث لا تكفي الرغبة في العيش معاً، إِذ إِنّ استمرار هذا العيش مرهون بمعرفة ما يُراد تحقيقه معاً، وما يُراد كونه معاً .

ذلك يفترض أَن يكون لكلّ جماعة نظام، أَو مشروع حياة يحدّد بوضوح هدف العيش المشترك، وما هو مُنتَظر من كلّ فرد، ويقتضي من كلّ جماعة، قبل تأسيسها، أَن تنفق وقتاً كافياً في إِعداد هذه الحياة المشتركة، وتوضيح خياراتها . وقد كتبَ في هذا الشأن، برونو بيتلهيم : " إِنّني واثق من أَنّ الحياة الجماعيّة لا يمكنها أَن تزدهر إِلاّ إِذا وُجدت في سبيل هدفٍ خارج ذاتها . ووجودها متعذّر ما لم تكن نتيجة التزام عميق تجاه واقع يتخطّى واقع العيش الجماعيّ " .

و بقدر ما تكون الجماعة صادقة وخلاّقة في نشدانها الجوهريّ وتحقيق غاياتها، يكون أَعضاؤها المدعوّون إِلى مزيد من تجاوز الذات، أَشدّ نزوعاً إِلى الاتّحاد والترابط . وعلى نقيض ذلك، بقدر ما تفتر الجماعة حيال هدفها الأَساسيّ، تتعرَّض الوحدة بين أَعضائها إِلى التفتّت، وتبرز التوتّرات، ويكفّ الأَعضاء عن التحدّث عن الطريقة التي يستطيعون بها الاستجابة لنداء اللّه واستغاثة الفقراء، ويحصرون حديثهم على ذواتهم، ومشاكلهم، ونُظُمهم، وغناهم، وفقرهم إِلخ ... إِنّ هناك علاقة وثيقة بين قطبي الجماعة : هدفها ووحدة أَعضائها .

إِنّ الشعور بالانتماء إِلى شعب، وإِلى معاهدة، وما يقتضيه من التزام هما في صميم الحياة الجماعيّة . ويبقى السؤال : من هو شعبي ؟ أَهو فقط أولئك الذين أَعيش معهم ولهم مثل خياراتي، أو هم الذين من أَجلهم قامت الجماعة ؟

بمقدار ما ينمو إِنسان في الحبّ، ويتّسع قلبه، وبمقدار ما تنضج لديه فكرة الجماعة في معناها الضيّق، يتّسع واقع الجماعة الواسعة، واقع " شعبي " .

و لكن يبقى على كلّ فرد يعيش في جماعة أَن يحدّد أولويّاته بوضوح، وأَن يتبيّن أَين ينبغي أَن يوظّف طاقاته، ولمن ينبغي أَن يهب حياته .

العطش إلى اللّه، وصيحة الفقير

في كلّ حقبة وكلّ ديانة، حاول أَشخاص أَن يعيشوا معاً عطشهم ونشدانهم التواصل مع اللّه . بعض هذه الجماعات أُشيدت على قمم الجبال أو في الصحراء، بعيداً عن ضجيج المدن . وكانت الحياة فيها شاقّة، وموجّهة، جوهريّاً، نحو علاقة شخصيّة باللّه، والتأمّل، وسائرة على إِيقاع فترات عبادة، وعملٍ مشترك . فيما استهدفت جماعات أُخرى – ولا سيّما تلك التي يحدوها إِلهام مسيحيّ – خدمة الفقراء، والمرضى، والأولاد المهملين، أو الذين يعانون ضيقاً وجوعاً، في مطارح النبذ، ووسط ضجيج المدن .

العطش إلى الأبديّ والجميل، والحقيقيّ، والطاهر، من جانب، والانجذاب إلى الأَشدّ فقراً وأَبلغ جروحاً من الجانب الآخر، يبدوان متناقضين . غير أَنّهما، في قلب المسيح المطعون، كلاهما واحد . فيسوع يكشف لنا أَنّه يحبّ الآب، وأَنّه متّحد به اتّحاداً حميماً، وأَنّه، في الآن عينه، إِله حبّ لكلّ إِنسان، وبخاصّة للأَكثر تحطّماً، وأَلماً، ونبذاً . وبُغية إِبراز هذا الحبّ توخّى أَن يكون هو نفسه محطّماً ومنبوذاً، رجل أَوجاع، وضيقٍ، ودموع؛ وشاء أَن يكون المصلوب .

و لذلك تنشد الجماعات التي تلتئم باسمه التواصل مع الآب من خلاله وبه، وتسعى، أَيضاً، إِلى تبليغ الفقراء البشرى، وتحرير المساجين والمسحوقين .

و عبر تاريخ الكنيسة، ازدهر هذا أو ذاك من وجهي هذه الرسالة المزدوجة أَكثر من سواه، وفقاً للأَماكن والأَزمنة التي جاءت فيها دعوة الربّ، ولكن، كلا النمطين ظلاّ حاضرين . فثمّة المدعوّون إِلى قمّة جبل أو إِلى الصحراء، بحثاً عن اتّحاد أَوثق باللّه، من خلال المصلوب، والذين ترتدّ صلاتهم على مصلوبي العالم؛ وثمَّة المدعوّون، معاً، إِلى بذل حياتهم لمصلوبي الوجود، بالعيش معهم . إِنّهم ينشدون دائماً اتّحاداً عميقاً وشخصيّاً بيسوع لكي يحبّوا على غرار حبّه .

كلّ جماعة وأُسرة مدعوّة إِلى عيش هذين النمطين من الرسالة، ولو بأساليب متباينة؛ أسلوب الصلاة وأُسلوب الحضور للأَشدّ صغراً وفقراً . إِنّ اللّه هو النبع الذي دعينا جميعنا للارتواء منه، ونبع الحياة هذه ينبغي أَن يرتدّ، من خلالنا، على جميع العطاش . فبعضنا يشرعون بالنهل من النبع المتفجّر من قلب اللّه، ثمّ يكتشفون أَنّهم مدعوّون إِلى منح هذا الماء للعطاش . وآخرون يشرعون بإِرواء الآخرين، ثمّ يتبيّنون أَنّ بئر قلبهم سريعة النضوب، فيكتشفون حينئذٍ النبع المتفجّر من قلب اللّه، والذي ينقلب فيهم " نبع ماء يتفجّر حياةً أَبديّة " .

و قد يكون، أَحياناً، من الأَيسر، سماع صيحة الفقراء البعيدين، من سماع صيحة إِخوتنا وأَخواتنا في الجماعة . فلا مجد في الاستجابة لاستغاثة من نعيش معه كلّ يوم، والذي

يستفزّ أَعصابنا . وربّما تعذّرت علينا الاستجابة إِلى صيحة الآخـرين، داخـل الجماعـة أو خارجها، إِن لم نعترف بصيحة جرحنا الذاتيّ، ولم نستجب لها .

يسوع هو الفقير

يميط يسوع لنا القناع عن وحدةٍ كبرى قائمة بين التأمّل الشخصيّ في اللّـه الأَبـديّ، والعلاقة الشخصيّة بالمحطّمين والمنبوذين . وربّما كان هذا هو سرّ الإِنجيل، وسرّ قلب يسوع الأَعظم . إِنّه يدعو تلاميذه، ليس فقط إِلى خدمة الفقراء، بل إِلى اكتشافه حاضـراً، حضـوراً واقعيّاً، فيهم، وإِلى التقاء الآب من خلالهم . يقول لنا يسوع أَنّه مختبئ في وجه الفقير، وأَنّه، هو، الفقير، وبالتالي، يغدو، بقدرة روحه، أَصغرُ فعل حبّ حيال الإِنسان الأَكثر محدوديّة فعلَ حبٍّ تجاهه . فيسوع هو الجائع والعطشان، والسـجين، والغريـب، والعـاري، والمشـرّد، والمريض، والمحتضر، والمسحوق، والمهان . والعيش مع الفقير هو عيش مع يسوع . ومن ثمّ فالمدعوّون إِلى العيش مع يسوع عبر الفقراء، لا يُطلب منهم فقط فعل أَشياء من أَجلهم، أو اعتبارهم موضع إحسانهم، بل بالحريّ النظر إِليهم على أَنّهم منابع حياة وتواصل . فغايتهم لا تقتصر على تحرير الفقراء، بل تبتغي التحرّر بواسطتهم، ولا تنحصر فـي شـفاء جـراحهم فحسب، بل تبتغي نيل الشفاء بواسطتهم، ولا تكتفي بتبشيرهم بالإِنجيل، بل تبتغي تعلّم الإِنجيل على أَيديهم .

الذين يقبلون على مساعدة الفقير يفعلون ذلك، بادئ الأَمر، بدافع السخاء، رغبةً فـي مؤازرته وغوثه، ويعدّون أَنفسهم مُنقِذين، وغالباً ما ينصبّون ذواتهم على عروش . ولكـنّهم بلمسهم الفقير، وبعقدهم علاقة محبّة وثقةٍ معه، ينقشع السرّ المغلق، ويعثرون فـي صـميم لا أَمان الفقير حضوراً ليسوع . وحينئذٍ يكتشفون سرّ الفقير القدسيّ وسرّ الرحمـة؛ إِذ يبـدو أَنّ الفقير يحطّم حواجز السلطة، والثروة، والكفاءة والكبرياء، ويذيب القواقع التي يتلحّـف بهـا القلب البشريّ حمايةً لذاته . إِنّ الفقير يعلن يسوع المسيح، ويظهر لمن وافى لكي "يسـاعده"، فقره الخاصّ وعطوبيّته، كما يظهر له أَيضاً قدرته على الحبّ، وطاقات حبّ قلبـه . للفقيـر قدرة سرّيّة : ففي وهنه، يصبح قادراً على هزّ القلوب المتصلّبة، وعلى إِطلاعها على ينـابيع الماء الحيّ الكامنة فيها؛ إِنّه مثل يد الطفل الصغيرة التي لا نخاف منها، والتي تتسـلّل مـن خلال حواجز سجن أَنانيّتنا، فتقوى على دفع المزلاج، وتحريرنا . واللّه، يتوارى في الطفل .

إِنّ الفقراء يبشّروننا بالإِنجيل، لذلك هم كنوز الكنيسة .

المساعدون في السفينة، مدعوّون إِلى إِعلان البشرى للفقراء، الذين يكشفون لهم ما يخصّهم به الربّ من حبّ جمّ . ويساعدون، حقّاً، عدداً منهم على اجتياز عتبة حياة إِيمان؛ ولكن بعد اجتياز هذه العتبة، المعاقون هم الذين يقودون المساعدين قُدُماً على درب الإِيمان : إِنّهم يصبحون معلّمينا .

صيحة تلتمس الحبّ

عندما استقبلت رفائيل وفيليب القادمين من ملجأ، كنت أُدرك أَنّني أَقوم بعمل يربطني مدى الحياة؛ فهل يمكن أَن أَعقد معهما علاقات، وأُنشئ معهما أُسرة جديدة، ثمّ أَن أُعيدهما إِلى مشفى أو إِلى أَيّ مكان آخر ؟ عندما بدأت بتأسيس السفينة، كان هدفي تأسيس أُسرة، وجماعة معهما ومع الضعفاء والفقراء من جرّاء إِعاقة عقليّة، والذين كان يرين عليهم شعور الوحدة والنبذ . صيحة رفائيل وفيليب كانت تلتمس الحبّ، والاحترام، والصداقة، وتواصلاً صادقاً . من المؤكّد أَنهما كانا يطالبانني بالإِضطلاع ببعض الأَعمال من أَجلهما، غير أَنّ ما كانا ينشدانه، بعمق، هو أَن يُحَبّا، حقّاً، حبّاً يعترف بجمالهما وبالنور الذي يتأَلّق فيهما، حبّاً يكشف لهما النقاب عن قيمتهما وشأنهما في الوجود . وصيحتهما الملتمسة التواصل أَيقظت وفجّرت في قلبي توقي إِلى التواصل . لقد جعلاني أَكتشف، في داخلي، بئراً، ونبع حياة، ومعين مياه حيّة .

في جماعة السفينة، في شاطئ العاج، استقبلنا " إِنوسنت " المعاقة إِعاقة سحيقة . فهي لن تقوى أَبداً على الكلام، أو السير، أو النموّ، بل ستظلّ، من نواحٍ كثيرة، مثل طفل عمره بضعة أَشهر . غير أَنَّ عينيها وكلّ جسدها تختلج فرحاً كلّما أُمسكت بحبّ، وتشيع بسمة رائعة على محيّاها، ويشعّ كلّ كيانها بالسلام والفرح . الآراء، مهما كانت جميلة وعميقة، لا تؤتي " إِنوسنت " أَيّ عون . وهي لا تحتاج لا إِلى مال، ولا إِلى سلطة، ولا إِلى عمل . ولا تبتغي إِثبات ذاتها؛ بل كلّ ما ترغب فيه هو لمسة محبّة وتواصل . عندما تتلقّى هبة الحبّ تختلج بهجة، أَمّا إِذا شعرت بالهجران، انكفأت على أَلمها وهواجسها، ودنت من الموت .

و كلّما كان إِنسان فقيراً ومسنّاً، ومريضاً، ومصاباً بإِعاقة عقليّة عميقة، أَو على شفا الموت، التمست صيحتهُ التواصل والصداقة، موقظةً قلب من يصغي إِليه ويستجيب له.

أَلمٌ داخليّ

هذه الصيحة التي تتصاعد من قلب الفقير ملتمسة الحبّ، والاعتراف والتواصل، تكشف لنا نبع الحبّ الكامن فينا، وقدرتنا على منح الحياة، وتبرز لنا، في الوقت عينه، قساوة قلوبنا ومخاوفنا . فما أَكثر ما تقتضي تلك الصيحة ! ... صيحة الفقير هي تهديد للغنيّ القابع في داخلنا . إِنّنا غالباً على أُهبة لمنح المال، وقليل من الوقت، ولكنّنا نتوجّس خشية من إِعطاء قلبنا، ومن التواصل مع الفقير، في علاقة حبّ شخصيّة، لأَنّنا، إِن فعلنا ذلك، توجّب علينا أَن نموت عن أَنانيّتنا، وقسوة قلبنا .

إِنّ الرسالة تنفي كلّ موقف تفوّق وسيطرة . إِنّها تتفجّر من فقرنا وجراحنا، وأَيضاً من ثقتنا في حبّ اللّه، في حبّه لكلّ إِنسان . وليست الرسالة نُخبويّة، بل هي الحياة الموهوبة، والتي تنبعث، من جديد، من قبر كياننا لكي تصبح معين حياة . إِنّها تتفجّر من يقيننا بأَنّ الصفح حرّرنا، ومن وهننا وتعرّضنا للجراح . إِنّها إِعلاننا قدرتنا على العيش في التواضع، والصِّغر، والفقر، لأَنّ اللّه يقطن في قلبنا، ويهبنا حياة جديدة، ويجعلنا أَحراراً . لقد تلقّينا مجّاناً، ونستطيع أَن نعطي مجّاناً .

ما دامت القلوب حافلة بالمخاوف والأَحكام المسبقة، ستظلّ هناك حروب، ومظاهر لا مساواة صارخة . وإِنّما حلّ المشاكل السياسيّة الكبرى يقتضي أَن تتبدّل القلوب، وتتفتح على الحبّ، والمشاركة، والمصالحة . إِنّ الردّ على الحربّ هو عيش البشر عيشَ إِخوة وأَخوات . والردّ على مظاهر التفاوت واللامساواة هو المشاركة؛ والردّ على ظواهر القنوط هو ثقة ورجاء بلا حدود . والردّ على الأَحكام المسبقة والبغض هو الغفران .

أَجل، إِنّ العمل من أَجل الجماعة، هو العمل في سبيل البشريّة؛ والعمل في سبيل السلام، جماعيّاً، هو عمل من أَجل سلام العالم، ومن أجل توفير حلول حقيقيّة للقضايا السياسيّة؛ وهو عمل من أَجل ملكوت السماوات، لكي يستطيع كلّ فرد أَن يتذوّق الأَفراح السرّيّة المتفجّرة من الأَعراس الأَبديّة .

إِنّ الرسالة تقتضي دائماً الصراع بين قوى الشرّ، الساعية إِلى الفرقة، والدافعة بالأَفراد والجماعات صوب العزلة، وبالتالي صوب الاضطراب واللاأَمان، والساجنة إِيّاهم في عالم من الخوف والعدوانيّة، ومن جهةٍ أُخرى قوى الحبّ والثقة التي تُشرعهم على الصفح، والتواضع، والتفاهم، والرأفة، والاستقبال، والوحدة، والسلام . هذا الصراع قائم في كلّ شخص، وكلّ جماعة، وبين الجماعة والعالم المحيق بها . فإِن عاشت الجماعات نداء الرسالة

هذا، لكانت على معارضة دائمة للثقافة السائدة، ولسعي العالم، بِقيَمه الزائفة، إِلى عزلها، وإِلى جعلها تبدو حمقاء، خياليّة، متعذّرة العيش، أو لسعيٍ إِلى تسريب قِيَمه الزائفة إِليها، لكي يخلق الفرقة في داخلها، ويُفقدها الشعلة والروح اللذين يحدوانها، بمنحها الثروة والأَمان .

إِنّ الجماعات الحيّة ستتعرّض دائماً للاضطهاد بأسلوب أو بآخر . وعلى أَعضائها أَن يعوا خطورة الصراع ويخوضوه بجرأة، في الصلاة . فإِبليس وأَرواح الشرّ تأبى وجود جماعات محبّة، وسيفعلون كلّ ما يسعهم فعله لتثبيط عزائمها، وجراحها، ومحاولة تدميرها .

داخل الكنيسة، يكرّس البعض ذواتهم للربّ في حياة صلاة وعبادة؛ في حين تتمثّل رسالة آخرين في إِعلان البشرى، أو القيام بأَعمال رحمة باسم الكنيسة . وأَنا أَشعر أَنّ مكاني في الكنيسة وفي المجتمع هو السير مع الفقراء والضعفاء . إِنّنا مدعوّون إِلى النموّ معاً، وإِلى تبادل المساندة كي ننمو نحو مزيد من الحرّيّة الداخليّة، وأَحياناً، نحو مزيد من الاستقلاليّة الخارجيّة .

الفصل الرابع : النموّ

الجماعة تنمو كالطفل

نحن، جميعنا، على سفر : سفَر الحياة . كلٌّ منّا حاجّ على هذا الدرب، ونموّ الإِنسان، منذ فترة كونه جنيناً في أَحشاء أُمّه إِلى يوم موته، هو في آنٍ واحد متمادي الطول وشديد القِصَر .

في مجال النشاط والجدوى ثمّة نموّ يعقبه انحطاط . أَمّا، على صعيد القلب، والحكمة، والتواصل مع اللّه والآخرين، فالنموّ قد يكون مطّرداً . ومسيرة نموّ القلب هذه تمرّ بمراحل محدّدة : فالطفل يعيش بالحبّ والحضور، وفترة الطفولة هي فترة ثقة؛ والمراهق يعيش بالسخاء، والأَحلام، والرجاء؛ والبالغ يحقّق ويلتزم، ويتحمّل مسؤوليّات؛ البلوغ هو زمن الوفاء . وأَخيراً يعود الشيخ إِلى زمن الثقة، وهو زمن حكمة . إِنّ الشيخ الذي بات عاجزاً عن النشاطات الكبرى، يملك وقتاً للاطّلاع، والتأمّل، والصفح؛ إِنّه يدرك معنى الحياة البشريّة، ويعرف السبيل إِلى تقبّل الواقع . ويعلم أَنّ الحياة ليست مجرّد عمل وسعي وجري، بل هي أَيضاً استقبال وحبّ . لقد تخطّى، على نحوٍ ما، مرحلة وجوب إِثبات جدواه .

و بين كلٍّ من هذه الأَوضاع، لا بدّ من اجتياز مراحل، وكلّ مرحلة تقتضي إِعداداً وتربية، يتمّان في كثير أَو قليل من الأَلم الناجم، خاصّة، عن انسلاخات لا بدّ منها .

إِنّ الحياة البشريّة هي هذا السفر، هذه المسيرة، وهذا النموّ نحو حبٍّ أَكثر واقعيّة وصدقاً . إِنّها سفرٌ نحو وحدة الكيان . والنموّ هو البروز، شيئاً فشيئاً، من تربةٍ رؤيتنا فيها محدودة، يحكمنا فيها نشدانٌ أَنانيّ للمتعة، ونزعات انجذاب أو نفور، إِلى مسيرٍ نحو آفاقٍ لا حدّ لها، نحو حبٍّ شامل، حيث نكون منفتحين على كلّ فرد، ونتمنّى سعادة الجميع .

و كما أَنّه لا بدّ للحياة البشريّة من اجتياز مراحل متعاقبة، كذلك في حياة الجماعة مراحل يستلزم كلٌّ منها إِعداداً، وتربية، وتتمّ في قليل أو كثير من الأَلم .

فهناك مرحلة التأسيس والإِنطلاق، ثمّ مرحلة السير بسلام وفق وتيرة منتظمة، والشروع في الازدهار والنموّ . وغالباً ما تحدث فترة مراهقة : حيث يخيّل للأَعضاء أَنّ جماعتهم فريدة، تنعم ببركة الربّ، وتتميّز عن كلّ ما سواها؛ وهم، آنذاك، ساذجون يدّعون امتلاك كلّ الحقيقة، متدفّقون سخاءً ومثاليّة .

و شيئاً فشيئاً يتبيّنون، وأَحياناً من خلال أَزمات، أَنّهم بعيدون عن الكمال، وأَنّهم ارتكبوا أَخطاءً جسيمة، وأَنّ هناك جماعات أُخرى تحظى ببركة الربّ، وأَنّ من الحكمة التعاون معها؛ ثمّ، إِثر مضيّ فترة من الزمن، تأخذ الانتسابات الجديدة في التناقص، ومعدّلات

العمر في الارتفاع . وفي هذه الفترة، قد تشتدّ التوتّرات الناجمة عن توضيح الأَهداف ونمــط العيش . ثمّ، عقب وفاة المؤسّس، قد تنشب أَزمة، ولا سيّما إِن لم يكن إِعداد مسؤولين جُدُد قد تمّ بإِحكام، ونَضَج . وأَخيراً قد تحدث أوقات تبدو فيها الجماعة شائخة ومريضة .

هذه المراحل ليست دائماً واضحة المعالم كما هي مراحل الحيــاة البشــريّة، ولكنّهــا موجودة، وقد تتكرّر دوريّاً طالما ظلّت الجماعة قائمة . فالجماعة تولد، وتكبر، وتهب الحياة، ثمّ تشيخ، ثمّ تنبعث إِلى حياة جديدة، وتمرّ عبر مراحل عديدة في ممارسة الســلطة، وتطــوّر الأَنظمة . وعلى الجماعة ومسؤوليها السهر على أَن تتحقّق هذه التطوّرات على خير نسق .

و تحدث توتّرات كثيرة في الجماعة لأَنّ بعض أَفرادها يــأبون النمــوّ، إِذ إِنّ نمــوّ الجماعة يقتضي نموّ كلّ فرد من أَفرادها؛ فكثيرون منهم يعارضــون التغييــر، ويرفضــون التطوّر، ويريدون أَن تظلّ الأمور، دائماً، على ما هي عليه .

و لكنّ نموّ الجماعة لا يتوقّف، وقد كتَب ديفيد كــلارك : " مســيرة الجماعــة هــي اكتشافات مستمرّة . نحن لا نعرف الكثير عن الدرب الممتدّ أَمامنا . نحن لا نسافر مــزوّدين بخريطةٍ مفصّلة، ولا بخطّ سير يُشعر بدقّة ساعة وصولنا إِلى مراحل معيّنة، ولا ندري إِلــى أَين نمضي " .

العيش في جماعة، بعد مضيّ عشرين عاماً، ليس أَسهل ممّا كان في مستهلّه . بــل، على نقيض ذلك، من يدخل في جماعة، هو على شيءٍ من السذاجة : إِنّه ممتلــئ بالأوهــام، ولديه النعمة الضروريّة التي تمكّنه من الانسلاخ عن حياة فرديّة وأَنانيّة .

إِنّ الذي يسير منذ عشرين سنة في جماعة يعرف مشقّة هذه المسيرة . إِنّه على وعيٍ واضح لحدوده وحدود الآخرين، وعلى علمٍ بكلّ وقر أَنانيّته .

الحياة الجماعيّة تحاكي، بعض المحاكاة، ضرباً في الصحراء صوب أَرض الميعــاد، ونحو التحرّر الداخليّ ... إِنّه من اليسير إِبقاء جذوة الاندفاع مضطرمة، في فتــرة تأســيس الجماعة، حيث القلوب ما انفكّت تتدفّق سخاء، ويصعب تثبيطها . ولكن يصعب إِبقاء لهيــب الاندفاع مع كرّ الشهور والسنين، وفي مواجهة حدود الذات؛ وتمسى الجوانب البطوليّة عاجزة عن إِثارة المخيّلة، ويبدو اليوميّ على جانبٍ من التفاهة . وسرعان ما تعود الأَشياء التي خُيّل للمرء أَنّه انعتق من تأثيرها، تمارس غوايتها : كالرفاه، وشريعة الحدّ الأَدنــى مــن الجهــد، والتماس الأَمان، والخوف من الإِزعاج؛ ويفقد قدرته السابقة على المقاومة، ولجــم اللســان، والغفران؛ وتنتصب حواجز، ويفزع المرء إِلى العزلة، فالاستسلام إِلى القلق أَيسر .

يقول البعض أَنّ الجماعة تبدأ بنشوة سرّ قدسيّ، وتنتهي بالإِدارة؛ تبدأ في اندفاع عارم، وفي حبٍّ متأهّب لتخطّي كلّ المصاعب، في شغَفٍ بالمخاطرة وإِيمانٍ لا يتزحزح في العناية الإِلهيّة، ولكنّها تنتهي من غير اندفاع، وقد طغت عليها الإِدارة مع كلّ موكبها من الهموم الماديّة، وحساب مصرفيّ، وخوف من المخاطرة . إِنّ تحدّي الجماعة التي تكبر يكمن كلّه في تكييف بُناها بحيث تبقى دائماً في خدمة نموّ الأَشخاص، وغايات الجماعة الجوهريّة، لا في خدمة تخليد تقاليد، أو الحفاظ على سُلطة أَو هيْبةٍ . أَجل، التحدّي يكمن في خلق هيكليّات تتوافق مع الروح، ومع نموّ الأَشخاص، وتكون، في ذاتها مصدر غذاء . وثمّة طريقة لممارسة السلطة، وللتمييز، بل حتّى للإِدارة الماليّة، تنسجم مع الإِنجيل والتطويبات، وتغدو، بذلك، معين حياة .

الجماعة تعني تواصل القلب والفكر، وهي شبكة علاقات . بيد أَنّ العلاقات تفترض الاستجابة لصيحة الإِخوة والأَخوات، والشعور بالمسؤوليّة تجاههم، وفي ذلك اقتضاء وإِزعاج . ولذلك، تُستبدَل العلاقة وما تفرضه من متطلّبات، بالقانون، والنظام والإِدارة . إِنّه لأَيسر الخضوع لقانون من حبّ أَشخاص . ولذلك تنتهي بعض جماعات إِلى الانغلاق في الأَنظمة والإِدارة عوضاً عن النموّ في المجّانيّة، والاستقبال، والعطاء .

من البطوليّ إِلى اليوميّ

تأسيس الجماعة أَمرٌ على جانب من البساطة، فهناك الكثيرون ممّن ينشدون البطولة، مستعدّون للنوم على الحضيض، وللعمل ساعات طويلة في أَثناء النهار، وللعيش في بيوت مهلهلة البنيان؛ يسهل عليهم التخييم، والجميع متأهّبون للعيش الخشن، فترة من الزمن . ليست المشكلة في إِطلاق الجماعة – فثمّة دائماً قدر كافٍ من الطاقة لإِطلاق الصاروخ – بل المشكلة في بلوغها مدارها، وقبول العيش اليوميّ الذي غالباً ما يتّسم بالسأَم، مع إِخوة وأَخوات لم نخترهم، بل أَعطيناهم، وفي التطلّع إِلى غايات الجماعة، دائماً بمزيدٍ من الصدق .

الجماعة التي ليست سوى صاروخ بطولة، ليست جماعة حقّة . فالجماعة الحقّة تفترض نمط عيش، وموقفاً، ونظرةً معيّنة إِلى الواقع، وتفترض، خاصّة، وفاءً للمهامّ اليوميّة البسيطة : من إِعداد الطعام، وتنظيف الأَطباق، وترتيبها، وحضور الاجتماعات . إِنّها نسيج عطاء، وأَفراح، وأَعياد، وصفح سبعين مرّة سبع مرّات .

لا تصبح الجماعة موجودة، إلاّ عندما يعزف أَفرادها عن التطلّع إِلى تحقيق أَعمال عظيمة، وإِلى لعب دور البطولة، بل يرتضون بأَن يعيشوا، كلّ يوم، رجاءً جديداً، مثل أَطفال يحدّقون بإِعجاب في شمسٍ مشرقة، ويعربون عن شكرهم عند غيابها . لا توجد الجماعة، إلاّ عندما تعترف بأَنّ عظمة الإِنسانيّة تقوم على قبولنا بصغرنا، وبوضعنا البشريّ، وبأَرضنا، وعندما تشكر للربّ غرسه، في جسدٍ محدودٍ، بذوراً أَبديّة، تتجلّى من خلال أَفعال حبّ وصفح يوميّة صغيرة .

جمال الأَشخاص يثوي في هذا الوفاء للدهشة اليوميّة .

اتّضاح الرؤية

عقب فترة البطولة والكفاح، ولحظات الدهشة الأُولى، سرعان ما يحين آنٌ تتّضح فيه الرؤية، والأَهداف وروحانيّة الجماعة، وتتجلّى أَيضاً هويّتها، ومكانتها في المجتمع، وفي الكنيسة، وفي تاريخ البشريّة، ويتجلّى، حينئذٍ، بوضوح، مدى سيرها في عكس تيّار الثقافة الشائعة، ومجال نبوّتها، والأَخطار التي تتربّص بها وبأَعضائها، والتثقيف الخاصّ الذي يحتاج إِليه هؤلاء . إِنّه من الأَهميّة بمكان، لحياة الجماعة، أَن تتّضح هذه الرؤية، ويتكوّن عنها وعيٌ عقليّ، على أَن يتفجّر هذا الوعي، دائماً، من الدهشة ومن عمل النعمة اللذين ينبغي أَن يحتلاّ، أَبداً، صميم الجماعة .

في " السفينة " لزمنا بعض الوقت لكي ندرك أَنّ موهبتنا الخاصّة هي في العيش مع المعاقين عقليّاً، لا مع المعاقين من نمط آخر، ولا مع أَنماط أُخرى من الفقر . والآن يلزمنا بعض الوقت لكي نتمكّن من التعبير بوضوح عن روحانيّتنا، وعن الطريقة التي نتلقّى بها من شعبنا الغذاء، ولكي نستبين، بدقّة، ما يميّز "السفينة" عن سائر الأُسَر أو الجمعيّات .

على كلّ جماعة أَن توضح روحانيّتها، وتساعد أَعضاءها على عيشها، فهي الكفيلة بمساعدتهم على النموّ في الوحدة الداخليّة، والاتّحاد باللّه . إِنّ كلّ جماعة تلقي الضوء على جانب من الإِنجيل ومن حياة يسوع . وروحانيّتها هي موهبتها الخاصّة، وموضع وفائها، وتتجلّى من خلال أُسلوب عملها وصلاتها، واجتماعاتها واحتفالاتها، ووتيرة عيشها، وطريقة ممارستها الحياة اليوميّة، وأولويّاتها ... غير أَنّ كلّ روحانيّة متّجهة نحو الحياة الصوفيّة؛ وغايتها هي دائماً التواصل مع يسوع وأَبيه، في الروح القدس، والتواصل مع إِخوتنا وأَخواتنا .

ثمّة، دائماً، خطرٌ كامن في تنظيم الجماعة، منذ البدء، بكلّ تفاصيل حياتها وأنظمتها، وروحانيّتها، حرصاً على الأمان . صحيحٌ أنّ الأفكار هي التي تسبق، حينئذٍ، الحياة وتحكمها، ولكنّ الروح القدس لا يعمل على هذا النحو؛ بل على الجماعة الوليدة أن تعيش أوّلاً، وأن تسبق الحياةُ الكتاباتِ والبُنى . والجماعة تنمو وتترسّخ وتتطوّر مع الزمن، بوحيٍ من الروح القدس، في اتّجاه محدّد، ووفقاً لمبادئ واضحة هي مبادئ التأسيس، ولا يسوغ أن يُخطَّط لكلّ شيء مسبقاً، ولا بدّ من التمييز بين العرضيّ والجوهريّ؛ وللمنتمين حديثاً إلى الجماعة كلمتهم ورأيهم في نموّها، وإسهامهم برؤاهم وإلهاماتهم الخاصّة .

إنّ الأحداث تعدّل طريقة فعل الأشياء، ورويداً رويداً، تُصاغ رؤية مشتركة وقد يُفضي مخطّطٌ عقلانيّ مفرط التفصيل والتحديد، موضوعٌ قبل ولادة الجماعة، إلى خنق الروح؛ كما أنّ الرغبة في الحفاظ على الانفتاح على كلّ شيء، وعلى أيّ شيء، وعلى الإبهام، قد تحول دون نموّ الجماعة . ولكلّ شيء وقته : وقتٌ للحمل، ووقت للولادة، ووقت للنموّ .

ثمّ هناك وقت لقراءةٍ جديدة لكلّ ما تمّ، ولإمعان التفكير فيه؛ فاللّه يهبنا قلباً لكي نستسلم لإلهام حبّه وروحه، ولكنّه يهبنا، أيضاً، فكراً لكي نستطيع أن نقرأ، وندرك، ونميّز، ونوضّح، في القوانين المكتوبة وفي البُنى، ما قاله لنا، وما أعطاناه، من خلال حياتنا وتاريخنا .

من الأخطار التي تتربّص بالجماعة أن يبقى أفرادها أطفالاً شديدي الاعتماد على الوالدين . قد يفلحون في العيش، والعمل، والصلاة على نحوٍ جيّد، ولكنّهم لا يُعملون الفكر في ما يعيشون .

و إن هم أقاموا على رفضهم استيعاب ما هم فيه، مؤثرين " إلهام الروح " والانقياد للعاطفة لأمست الجماعة في خطر . من المحقّق أنّ علينا أن نبقى كالأطفال، وأن نحتفظ بروح الدهشة، ولكن علينا، أيضاً، أن نكون حكماء : سواء في إدارتنا وترسيخنا للجماعة، أو في الحفاظ على بذرة الحبّ في مواجهة قوى الشرّ، والغواية والكبت، التي تستهدف سحقها .

و بمقدار ما تنمو الجماعة وتتجذّر، يتعيّن عليها المضيّ قدماً في اكتشاف المعنى العميق لحياتها ورسالتها . فالجماعة الحيّة تقوم على علاقات إنسانيّة حقيقيّة : إنّها جماعة حياة أكثر منها فريق أشخاص يفعلون أشياء . وبمقدار ما تزداد حيويّة، يتعيّن عليها أن تكون أكثر تبيّناً لقضايا الحياة البشريّة الأساسيّة : مثل الألم والموت، والنموّ الإنسانيّ، والشفاء الداخليّ، ومكانة الرجل والمرأة في المجتمع وفي العالم، ومعنى الجنس، والأُسرة، والعزوبة . عليها أن

تحدّد موقفها من ممارسة السلطة، ودورها، ومعنى النموّ نحو الحرّيّة والمسوؤليّة . عليهــا أَن تعي بعمق مكان اللّه، والصلاة، والدين، في الوجود البشريّ، وأَن تمتلك رؤية واضحة للفقــر والغنى، وللعلاقة بين الحبّ والكفاءة . عليها أَن تتبيّن مكانتها من الكنيسة، اليوم، ومن العالم، وتحدّد موقفها من الآلام الرهيبة، واللامساواة السائدة في العالم . وعليها أَن تتبيّن كيف يسعها الاستجابة لاستغاثة الشباب وقنوطهم، إِذ يتعذّر النموّ معاً، وتوثيق العلاقات بين الأَعضاء، في معزل عن مناقشة هذه القضايا .

من الحكم الفرديّ إِلى الديمقراطيّة

في مستهلّ الجماعة يقرّر المؤسّس كلّ شيء ويفعل كلّ شيء؛ ولكن، شيئاً فشيئاً يقدم معاونون، وإِخوة وأَخوات، وتنعقد علاقات . ويستطلع المسؤول رأيهم، ولا يعود هــو الــذي يملي ما يتوجّب فعله، بل يأخذ يصغي إِلى الآخرين؛ ويولد روح جديد . ويشــرع المســؤول يكتشف طاقات كلٍّ من رفاقه ومواهبهم الخاصّة، ويتبيّن أَنّهم أَوفر منه كفاءة في هذا المضمار أو ذاك، وأَنّهم يملكون من المواهب ما لا يملك . وحينئذٍ يتعيّن عليه أَن يمارس سلطته بإِيكاله إِليهم مسؤوليّات كبرى، وأَن يتعلّم أَن يموت عن ذاته لكي يتيح للآخرين مزيداً من حياة . ومع ذلك يظلّ، هو، المرجع، والمنسّق، الساهر على بقاء الروح، وعلى وحدة المجموع وتناغمه . وبين حين وآخر، في ساعات الأَزمات، يدعى إِلى تثبيت سلطته، إِذ يبقى هو المسؤول الأَخير، وعليه، إِذا ما تراخى النظام، الدعوة إِلى احترامه . وهكذا يظلّ مرجعاً متباعداً، ولكنّه حاضر، إِلى أَن يزول نهائيّاً، ويدع مكانه لآخر يحلّ محلّه، وهكذا ينجز مهمّته، ويستمرّ عمله، ويتمثّل دوره في التواري .

ثمّة وجهٌ من المحاكاة مع السلطة الأَبويّة؛ فبادئ الأَمر يفعل الآباء لأَبنائهم كلّ شيء، ولكن، رويداً رويداً، يمسي الأَب والأُمّ صديقين يتحاور معهما الأَبناء، بل قد يمسون لأَبنــائهم أَولاداً عندما يطعنون في السنّ . فعلى الوالدين أَن يكونوا أَبداً متأهّبين للتخلّي عــن موقــف التملّك، ويتيحوا لحياة أَبنائهم أَن تنمو عوضاً عن خنقها . وكذلك على من يؤسّس جماعــة أَن يتعلّم، شيئاً فشيئاً، الامّحاء، عوضاً عن حماية سلطته .

تطوّر هامّ يحدث عندما يعي المؤسّس أَنّ الجماعة هي مشروع اللّه لا مشروعه، وأَنّه لها مجرّد أَداة، وعليه أَن يتوارى .

و من الهامّ جدّاً أن يكون لأَفراد الجماعة مشاريع خاصّة ومسؤوليّات تتيح لهم اتّخـــاذ مبادرات، على أن تدعم الجماعة هذه المشاريع الشخصيّة، أو أن تكون هذه المشاريع عينهـــا نابعة من تبصّر جماعيّ، وإِلاّ أَساءت إِلى الجماعة، إِذ إِنّها تصبح مشروع شخص يسعى إِلى إِثبات أَنّه أَوفر معرفة من الجماعة، أَو أَنّه غير مرتاح في أَحضانها . ففي الجماعات، أَحياناً، أَمثال هؤلاء الأَشخاص الذين يدّعون التفوّق، ويتخيّلون أَنفسهم منقذين . والتبصّر الجمـــاعيّ يفرض بأَن يحاول جميع الأَعضاء، أَو أَقلّه المسؤولون، استجلاء مشاريع الجماعة الحقيقيّـــة، ومنحاها الصحيح . وفي هذا المجال ينبغي التخلّي عـــن الهـــوى، وإِرادة إِقنـــاع الآخـــرين، والانتصار للآراء الخاصّة، بل على الجميع أَن يصغوا بعضهم إِلى آراء بعض، بحيث تبـــرز الحقيقة، شيئاً فشيئاً، في معزل عن الأَهواء . وقد يستلزم ذلك وقتاً طويلاً، ولكن لا بأس فـــي ذلك، إِذ إِنّ كلّ فرد، حينذاك، يتبنّى المشروع .

يبدو أَنّ بعض الجماعات قد أَسّسها أَشخاص يحتاجون إِلى الزعامة، وإِلى إِثبات شيءٍ ما، وإِلى أَن يجعلوا من جماعتهم مشروعهم الخاصّ . يجب إِذن، دائماً، مساعدة المؤسّســـين على عدم الوقوع في هذا الشرك، وعلى تبيّن دوافعهم بوضوح، وعلى الانسلاخ عن بعـــض آرائهم . منذ البدء ينبغي تجنّب تركهم بمفردهم؛ ومن الأَفضل أَن يضطلع بالتأسيس شخصان أو ثلاثة، يُشبعون الأُمور تمحيصاً، معاً، ويتبادلون الرقابة . وإِلاّ جَنَح المؤسّسون إِلى تملُّك " وليدهم " وأَمسوا لا يطيقون نقداً، ولا ينصتون إِلاّ إِلى المداهنين، ويتوهّمون أَنّهـــم وحـــدهم مُلهَمون ونبويّون . والمؤسّس الذي ينزع إِلى خنق فكر معاونيه، ويحرمهم الثقة، ولا يشاركهم المسؤوليّات والطاقة الخلاّقة، سيقضي على جماعته بالموت اختناقاً .

الانفتاح على الحيّ وعلى العالم

لكي تصبح الجماعة علامة، ينبغي أن يرى الجيران فيها إِسهاماً إِيجابيّاً للحيّ وللقرية. ومن المستحسن أن يكون، في الجماعة، من يستطيع مساعدة شيوخ الجوار ومرضاه، وأن تحسن الجماعة وفادة المتألّمين والمحتاجين .

إِنّ جماعة تكبر تكتشف، شيئاً فشيئاً، أنّها ليست موجودة من أَجل ذاتها، بل تخصّ البشريّة جمعاء، وأنّ وجودها يخدم البشريّة كلّها . فقد تلقّت موهبة، وعليها أن تثمّرها من أَجل الجميع، فهي إِن انغلقت على نفسها ماتت اختناقاً؛ عليها، إِذن، أن تذكر دائماً أنّها إِشارة وشهادة للبشريّة جمعاء، ومعين رجاء للجميع .

على الجماعة أَن تكون، في آنٍ واحد، منفصلة عن المجتمع البشريّ ومنفتحة . فهي، بقدر ما تعيش قِيَماً مختلفة عن القِيَم السائدة في المجتمع، تكون، حتماً، منفصلة عنه . أَمّا إِذا كانت منفتحة على مصراعيها فلن تقوى أبداً على الحفاظ على قِيَمها الخاصّة وعلى ترسيخها، ولن تمتلك هويّة، وحياة خاصّة، وستنزع إِلى المساومة مع روح ثقافة المجتمع وقِيَمه، وإِلى التأثّر بها، وستفقد حرّيّة الوفاء للحقيقة . غير أنّها إِذا كانت محكمة الانغلاق، فلن تقوى على النموّ، وعلى تبيّن القِيَم الحقيقيّة الموجودة في المجتمع، ولدى الآخرين؛ وستدّعي أنّها على صواب وأنّ الآخرين على خطأ، عاجزة عن تبيّن الظلمات والأَخطاء في ذاتها .

إِنّ الجماعة مدعوّة إِلى النموّ، شيئاً فشيئاً، في علاقة مع الآخرين، ومع الجوار، وإِلى التعاون معهم على النموّ، فلا يكون أَحدهم على صواب والآخرون على خطأ، بل يكون الجميع متعاونين .

لديّ انطباع بأنّ بعض الجمعيّات الدينيّة، في الكنيسة، كانت، في حقبةٍ ما، شديدة الانغلاق على ذاتها، فكادت تموت اختناقاً، وعندما شعرت بذلك انفتحت على المجتمع، ولكن البعض غالوا في الانفتاح، وشرعوا بخلع زيّهم الرهبانيّ تقرّباً من الجمهور، ولكنّهم تخلّوا أَيضاً عن تقاليدهم، وعن معنى تأسيسهم، ففقدوا هويّتهم، واندثرت جماعتهم .

عندما تكون الجماعة في حالة احتضار، لا يكون الوقت ملائماً لتبديل الأُمور الخارجيّة من نظامٍ وزيّ؛ وإِلاّ لما بقي ما يربط الأَعضاء معاً . بل ينبغي، حينئذٍ، العكوف على التجدّد الداخليّ، واستعادة الثقة في العلاقات الشخصيّة وفي الصلاة، والبقاء على صلة وثيقة بالفقراء والبائسين . فقط عندما تغدو الحياة الداخليّة منيعة، ويكون الحبّ، حقّاً، هو الذي يلهمها ويقودها، ستستطيع الجماعة تغيير مظهرها الخارجيّ، وليس قبلَ ذلك .

المحنة : مرحلة من مراحل النموّ

المحنة عامل نموّ في الجماعة، وأَعني بالمحنة كلّ ما هو صعب، كلّ ما هو فقر، اضطهاد، كلّ ما يهدّ الجماعة ويفضح وهنها: التوتّرات والصراعات الداخليّة والخارجيّة، وكلّ المصاعب الناشئة من مرحلة جديدة يتعيّن اجتيازها .

إِنّ إِنشاء الجماعة يقتضي صراعاً مع شتّى العوامل، ولكن عندما تنطلق الجماعة على دربها قد تتلاشى بعض الطاقات، وتنزع الجماعة إِلى التماس تعويضٍ في الرفاه، والأَمان، والتسليات وفي مساومات مع قِيَم أُخرى .

إِنّ المحن ضروريّة لأَنّها تحمل الأَفراد على تمحيص ما يجري فيها وفي الجماعة، وعلى اتّخاذ موقف واضح من غاياتها وحياة الصلاة فيها، وعلى استعادة الوحدة والطاقة الضروريّتين لمواجهة المصاعب .

إِنّ الجماعة التي تغتني وتنعم بالأَمان، وتقصر اهتمامها على الذود عن مقتنياتها وسمعتها، مشرفة على الموت . فقد توقّفت عن النموّ في الحبّ . الجماعة تعيش عندما تكون فقيرة، وعندما يشعر أَعضاؤها أَنّ عليهم العمل معاً، ويبقوا متّحدين، معتمدين بعضهم على بعض، أَقلّه من أَجل كسب خبزهم اليوميّ .

غالباً ما يشرع أَعضاء الجماعة في التحاور، والتحديق بعضهم بعيون بعض، عندما يشعرون أَنّ جماعتهم على وشك الانهيار، إِذ يدركون، آنذاك، أَنّها قضيّة حياة أو موت، وأَنّ كلّ شيء على شفا الزوال إِن لم يقوموا بعمل حاسم ومختلف اختلافاً جوهريّاً . ينبغي، غالباً، الانحدار إِلى قعر الهاوية لبلوغ صميم الحقيقة، والاعتراف بالفقر الذاتيّ، وبالحاجة إِلى الآخرين، ولالتماس غوث الربّ .

المحنة توحّد الجماعة فهي تحجب المشاعر العدوانيّة والمصالح الفرديّة التافهة . صدْمتُها تعمّق الوحدة، وتركّز الاهتمام على الجوهريّ . وينشأ تضامن جديد كفيل بمواجهة المحنة على نحوٍ أَفضل، وبتخطّيها .

إِنّ المحن التي تحطّم أَماناً سطحيّاً، غالباً ما تحرّر طاقات جديدة كانت ما انفكّت مخبأة. وانطلاقاً من هذا الجرح تولد الجماعة، ولادة جديدة، على الرجاء .

التوتّرات

التوتّرات لحظات حتميّة في مسيرة نموّ الجماعة وترسُّخها؛ وهي تنشأ عن خلافات شخصيّة، أو خلافات ناجمة عن رفض النموّ والتطوّر الفرديّ والجماعيّ، أو عن تصادم أنانيّات أفراد مختلفين، مبعثه تراخي المجّانيّة في مجمل الجماعة، أو عن تباين الطباع، والمصاعب النفسيّة لدى كلّ فرد . وهي توتّرات طبيعيّة . فمن الطبيعيّ أن ينتابنا الاضطراب في مواجهة حدودنا وظلماتنا الخاصّة، وعند اكتشافنا جروحنا البليغة . ومن الطبيعيّ أن نتوتّر حيال تفاقم مسؤوليّات لا نملك وسيلة لمواجهتها، من جرّاء شعورنا بفقدان الأمان . إزاء ما يطال مصالحنا الخاصّة من ضربات مميتة متعاقبة نصرخ ونئنّ داخليّاً، ومن الطبيعيّ أن نقاوم، ونخاف، ونراوح في مكاننا؛ ومن الطبيعيّ أن نتوتّر أمام أعضاء جُدد عسيري المراس، لم يتحرّروا بعد من مخاوفهم وعدوانيّتهم .

كلٌّ من هذه التوتّرات يضع الجماعة بأكملها في مواجهة فقرها، وعجزها، ومتاعبها، وعدوانيّاتها، ومواقف انحطاطها . وقد تنقلب هذه التوتّرات جزيلة الشأن، ومناسبة تعي فيها الجماعة أنّ كنزها في خطر . فعندما يكون كلّ شيء سائراً على خير نَسق، يُخيّل للجماعة أنّ النجاح حليفها، وتتراخى طاقات حبّ أعضائها، ويتضاءل إصغاؤهم إلى الآخر؛ أمّا التوتّرات فتلجئهم للعودة إلى واقع فقرهم، وإلى تكريس مزيد من الوقت للصلاة والحوار، وإلى التذرّع بالصبر في محاولتهم تجاوز الأزمة واستعادة الوحدة المفقودة؛ والتوتّرات تجعلهم يدركون أنّ الجماعة هي أكثر من واقع بشريّ، وأنّها تحتاج إلى روح اللّه كي تعيش وتترسّخ . وتمثّل التوتّرات، غالباً، مراحل ضروريّة نحو مزيد من الوحدة، بإبرازها ثغرات تدعو إلى إعادة تقييم، وإعادة تنظيم، وإلى قدرٍ أكبر من التواضع. وقد يميط الانفجار العنيف اللثام عن توتّر حقيقيّ كان غافياً. وفقط عندما ينفجر التوتّر تضحي ممكنة محاولة معالجة أسبابه حتّى في جذورها .

لقد نما إلى علمي أنّ لفظة " أزمة " في اللغة الصينيّة تعني " مناسبة " كما أنها تعني "خطراً " . ومن ثمّ، من شأن كلّ توتّر، وكلّ أزمة أن يصبحا مناسبة حياة جديدة إذا ما تمّ تناولهما بحكمة، وإلاّ كانا مصدر موت وفرقة .

و تنجم التوتّرات عن تفاوت بين حجم المصاعب التي يتعيّن مواجهتها، والغذاء المتوفّر . فإن كانت المصاعب جمّة، والدعم ضئيلاً، لتعاظم التوتّر، ولما اقتصر التعبير عنه بالمزاج المعكّر، والسلوك اللامنطقيّ، بل بالحاجة إلى التعويض من خلال المهدّئات والكحول، والتماس الحنان، إلخ ... وقد يدفعنا التوتّر إلى نشدان الرفاه، والتسليات التعويضيّة، ويعيدنا إلى قِيَمٍ كنّا قد تخلّينا عنها عندما دخلنا في الجماعة . ولكي يتحوّل هذا الألم إلى صيحة نحو

اللّه، لا بدّ من مواكبة جيّدة، وبذلك قد تفضي التوتّرات إِلى تحطيمنا، كما أَنّها قد تعود بنا إِلى الجوهريّ .

و ليس أَكثر ايذاء للحياة الجماعيّة من محاولة تمويه التوتّرات، وتجاهلها، وإِخفائها وراء علامات تهذيب، والفرار من الواقع ومن الحوار . فالتوتّر أو الاضطراب قد يكونان إِشارة تنبئ بنعمةٍ إِلهيّة جديدة . ولكن من الخطر الإِمعان في روحنتهما، واعتبارهما امتحاناً نجابهه وحيدين أَمام اللّه، عوضاً عن التحدّث عنهما إِلى شخص ثالث، أو إِلى سلطة خارجيّة في محاولةٍ لإِيجاد حلّ لهما .

و غالباً ما تنجم التوتّرات أَو المِحَن عن فقدان الجماعة للحسّ بما هو جوهريّ، ومن ابتعادها عن رؤياها الأَصيلة، وتنكّرها لنداء اللّه ونداء الفقراء . وهي، حينئذٍ، تمثّل دعوة جديدة إِلى الوفاء؛ ومن أَجل استعادة السلام، لا بدّ للجماعة من أَن تعترف بجراحها، وتلتمس صفح الربّ، وتتوسّل إِليه كي يهبها النور، وقوّة جديدة .

يتعيّن، إِذن، قبول التوتّرات على أَنّها حدث يوميّ، ومحاولة حلّها في العمق، وفي نشدانٍ للحقيقة . وحلّها لا يعني الاستعجال في إِجراء مواجهات، أَو في تفجيرها على الملأ . فجعل إِنسانٍ ما يعي حدوده، وهواجسه، وأَنانيّته، وحسده، وعجزه عن الحوار، لا يساعده على تخطّيها، بل قد يدفعه إِلى الانكفاء على مزيدٍ من الاضطراب الذي يلامس القنوط. ومن ثمّ تنبغي مساعدته على اكتشاف ما ينطوي عليه من طاقات الحبّ، والطيبة، والعمل الإِيجابيّ، وعلى استعادة ثقته بنفسه وبالروح القدس . فلا يسع أَحداً تقبّل مخاوفه الخاصّة، إِن لم يشعر أَنّه محبوب ومحترم، وأَنّ الآخرين يثقون به؛ ولا يسع أَحداً تخطّي مصاعبه وظلماته الداخليّة، ما لم يُساعَد على اكتشاف أَنّه جدير بالحبّ . وتتمثّل مهمّة المسؤول في تبيّن ما ينطوي عليه الإِنسان المتوتّر والعدائيّ من جمال وقيمة، وفي حمل سائر الأَعضاء على الحذو حذوه . وشيئاً فشيئاً، عندما يشعر الشخص المعنيّ أَنّه ليس مرفوضاً، بل أَنّه مقبول ومحبوب، فإِنّه سيدع طاقاته الإِيجابيّة في خدمة الآخرين تزدهر . وعندما تتضاءل المخاوف، ويشرع الأَشخاص يصغي أَحدهم للآخر، بعيداً عن الأَحكام المسبقة، وعن الرفض التعسُّفيّ، يبدأون يفهمون سبب تصرّف أَحدهم على هذا النحو أو ذاك، وتتلاشى التوتّرات . هذا القبول المتبادل الذي قد يتحوّل رويداً رويداً إِلى ترحيب حقيقيّ بالآخر، يقتضي وقتاً وصبراً، وقد يستلزم لقاءات عديدة جاهدة، وحوارات دقيقة، كما إِنّها قد تستلزم قبولاً صامتاً هادئاً، معجوناً بالحنان .

و بالإِجمال ينبغي عدم تمويه التوتّرات، ولا تفجيرها قبل الأَوان، بل الصلاة من أَجلها، واستيعابها في كثير من الرقّة، في ثقةٍ ورجاء كبيرين، مع العلم بأَنّ الأَلم سيواكبها

دائماً . ويجب معالجتها بصبر وعطف عميقين، بلا ذعرٍ ولا تفاؤل ساذج، بل بموقف واقعيّ قائم على الإصغاء والتماس الحقيقة، حتّى لو كان ذلك كثير الإقتضاء وموجعاً .

و جدير بالتنويه أنّه، إلى جانب العناصر الشخصيّة والعاطفيّة التي تكمن دائماً في التوتّرات، ثمّة عناصر حقيقة موضوعيّة، وتضارب فعليّ في الرأي، لا يسوغ تجاهلها . إنّه من الخطير ألاّ نواجه واقعاً مزعجاً، بحجّة أنّ الآخر يعاني من مشاكل عاطفيّة .

و قد تنجم التوتّرات عن أنّ البعض متشبّثون بآرائهم؛ غير أنّهم، مع مرور الزمن، ينفتحون، ويكتشفون أبعاداً أُخرى للواقع، وتتحوّل نظرتهم، وتزول التوتّرات . ولذلك يتحتّم مواجهة التوتّرات بالصبر والإحجام عن السعي إلى حلّها بسرعة، إذ قد يدفع ذلك البعض إلى مزيدٍ من التكمّش بوجهة نظرهم، عوضاً عن إبداء اللين .

و تتأتّى بعض التوتّرات من وجود قِيَم في الجماعة تبدو، ظاهريّاً، متناقضة؛ وتتمثّل عبقريّة الجماعة في التأليف بين هذه القِيَم، وإقامة تناغم بينها .

إنّ الروح القدس يستمدّ دائماً جديداً من القديم؛ وعبر تاريخ الكنيسة، مع ما واكبها من آلام وصراعات، قد انبثقت دائماً نبتات جديدة، وقد نهض، أبداً، أنبياء جُدد، وقدّيسون جُدد، كي يُعلنوا القديم بأُسلوب جديد . وحدث، دائماً، توتّر بين " القدامى والحديثين"، فالقدامى يتوجّسون دائماً خشيةً من الحديث، ويتوسّمون فيه تهديداً، وخطراً، وضلالاً، فيدينونه، وأحياناً يدمّرونه . والحديثون قد يضيقون بالقديم ذرعاً، وينبذونه على أنّه خاطئ، فاسد، سيّء، ومحافظ . ومثل هذه التوتّرات تحدث في الجماعة، وفقاً لتطوّرها حسب إلهام الروح القدس واحتياجات الوقت الراهن، أو رفضها لكلّ تغيير .

و على مسؤول الجماعة أن يتبصّر ما هو حقيقيّ في كلٍّ من النزعتَيْن، على أن يظلّ محدّقاً في الجوهريّ، وأن يميّز بين ما هو نبويٌّ في الأساليب الجديدة وما هو مجرّد حاجةٍ إلى التغيير، ومن جهةٍ أُخرى عليه استجلاء ما هو، في القديم، حقيقيّ وينبغي ألاّ يتغيّر، وما هو مجرّد خوف من التغيير ومن اللاأمان . عليه أن يتحلّى بالصبر بانتظار حلول أنوار الروح القدس، وأن يدعو الآخرين إلى التمرّس بالصبر .

إنّ بعض التوتّرات تشبه آلام الولادة، والألم يدفع كلّ فرد إلى التزام الصغَر والتواضع، والصلاة والتوسّل، ويجعله حريصاً على نشدان الحقيقة وحبّها، أكثر من حبّه لآرائه الخاصّة .

إنّ نموّ شخص في الحبّ والحكمة يقتضي وقتاً . وفي وضع الجماعة يتحقّق هذا النموّ ببطءٍ أكبر؛ وعلى أعضاء الجماعة أن يكونوا، دائماً، للوقت أصدقاء، ويدركوا أنّ أشياء كثيرة ستتحقّق إن أُفسح لها الوقت الكافي . وقد يكون الاستعجال في إيضاح الأُمور بحجّة الوضوح والحقيقة خطأً فادحاً .

و ثمّة، في جماعات كثيرة، شخص أَكثر هشاشة، يبدو وكأَنّه يستقطب عدوانيّة جميع الآخرين، الذين يتّخذونه هدفاً لنقدهم وسخريّتهم، و" كبش فداء " هواجسهم الشخصيّة والجماعيّة، ويحمّله كلّ فرد من أَفراد الجماعة كلّ ما ينتابه من محدوديّة وجبن . هذه العدوانيّة، متى انطلقت، يعسر إِيقافها، ومن ثمّ لا بدّ من تحويل مواقف النبذ هذه عن هدفها، إِذ لا يسوغ أَن يكون أَحد أَعضاء الجماعة مضطهَداً . ولا بدّ من أَن يتحملّ آخر هذه العدوانيّة، بوحيٍ من الروح القدس، ولا بأس، في سبيل ذلك، من أَن يلعب دور المهرّج، وهكذا، شيئاً فشيئاً، تتلاشى العدوانيّة الفظّة المتّسمة بالازدراء، ويُزيل الضحكُ التوتّر .

و قد تنجم توتّرات كثيرة عن رفض أَن يكون للسلطة مواطن ضعف، وعن افتراض أَنّها تتصف بالكمال ممّا يولّد خيبة الأَمل؛ ولا بدّ من تبيّن أَنّها، مثل كلّ إِنسان، قد تقع في الخطأ، على أَلاّ يؤدّي ذلك إِلى فقدان الثقة بها . ومن ثمّ على كلّ فرد أَن يزداد نضجاً وأَن يقيم مع السلطة علاقة صادقة وحرَّة، كما أَنّ على السلطة أَن تكون متأهّبة للتطوّر، وإِلى انتباذ الخوف .

طرد أَخ أو أُخت

البِدَع والمماحكات الداخليّة تفضي إِلى زعزعة بعض الجماعات؛ ومن اللافت للنظر أنّ الجماعات المسيحيّة الأُولى، عقب فترة النعمة والوحدة، سرعان ما شهدت تمزّقات، وبروز الانتماءات الحزبيّة، فالبعض مع بولس والبعض مع أَبلُّس .

يهوذا نفسه عاش مع الأَحد عشر ومع يسوع، بيد أَنّ قلبه كان يزخر بالخبث والحسد، وقبل أَن يدفعه إِبليس إِلى فعل الخيانة النهائيّ، كان قد انفصل بقلبه عن الآخرين. لقد ابتغى استغلال كونه في محيط يسوع، من أَجل مجده الخاصّ، وغاياته الذاتيّة، وعوضاً عن خدمة يسوع مع سائر الرسل، استخدمه لغايات كبريائه .

متى يتعيّن طرد من يبدو منفصلاً، بقلبه، عن الجماعة، مع عيشه فيها، باثّاً روح الفرقة، ساعياً إِلى التأثير على الأَكثر ضعفاً، وإِلى اجتذابهم واستخدامهم في سبيل أَهدافه الشخصيّة الهدّامة ؟ إِنّ أَمثال هذا، ممّن أَفعم الحسد قلوبهم هم، غالباً، بالغو الذكاء ويتمتّعون بقدرة فائقة على اكتشاف ثغرات السلطة الشرعيّة والحياة الجماعيّة واستغلالها، فينصّبون أَنفسهم مصلحين متبصّرين قادرين على تقويم الأَخطاء؛ إِنّهم يتمكّنون من اجتذاب بعض الأَشخاص الهشّين أَو الناقمين، ويفلحون في إِشاعة الفرقة، وبثّ الفوضى، وإِضعاف السلطة . هؤلاء تنبغي محاولة محاورتهم، فإِذا ما باءت المحاولة بالفشل توجّب منعهم من مواصلة عمل التفريق، ولئن بدا شاقّاً إِبعادهم بعد أَن ساروا مع الجماعة شأواً طويلاً .

وحدهم مسؤولو الجماعة وقداماها قادرون على اتّخاذ قرار طرد، غير أَنّ عليهم، حينذاك، الاعتراف بأَنّ قسطاً من المسؤوليّة يقع على عاتقهم، إِذ ربّما لم يجرؤوا على ردع المعنيّ، أَو محاورته، مذ شرعت تظهر نُذُر الفرقة، وآثروا ترك الأَوضاع تتفاعل بدافع سذاجة صوّرت لهم أَنّ كلّ شيء سيصطلح تلقائيّاً . وربّما أَفادوا من زارع الفتنة، ومن طاقاته العمليّة . ومع ذلك فاعترافهم بخطئهم، ولو متأخّراً، ينبغي أَلاّ يمنعهم من البتّ الحازم، إِذ لا بدّ من إِقصاء من يشكّك الشبّان في الجماعة .

و لكن ينبغي عدم اللجوء إِلى إِقصاء كلّ معارض، إِذ ربّما كمن الخطأ في رفض الإِصغاء إِلى الاعتراضات الأُولى، فلو أُصغي إِليها، وتمّ الاعتراف بأَوهان الجماعة، وأَحياناً بأَخطائها، ولو اتُّخذت الإِجراءات الضروريّة لتصحيحها، لربّما زالت الاعتراضات، ولربّما انقلبت قوى إِصلاح إِيجابيّة . ويتعيّن على الجماعة وذوي السلطة فيها تجنّب طرد أَيّ عضو لمجرّد كونه مزعجاً، صعب المراس، مسائلاً، بحيث يقتصر الإِقصاء على من هم منقطعون، داخليّاً، عن الجماعة انقطاعاً تامّاً، ويمثّلون مصدر تشكيك، بتحريضهم البعض على السلطة

الشرعيّة، وبزعزعتهم ثقة الآخرين فيها، فيزرعون الشقاق، ويحرفون الجماعة عن أَهـدافها الأَصيلة ...

إِنّ بناء جماعة يستلزم الكثير من الوقت والحكمـة، ولكـن تحطيمهـا وتـدميرها لا يحتاجان إِلاّ إِلى القليل منهما، ولا سيّما عندما تقبل الجماعة فـي أَحضـانها شخصـاً قـويّ الشخصيّة وذكيّاً من جرّاء حاجتها إِلى عناصر تتمتّع بالكفاءة، أَكثر من قناعتها بأنّ مكان ذلك الشخص هو في صفوفها . وإِن كان ذلك الشخص متكبّراً، مدمّراً، ساعياً نحو السلطة، وكانت الجماعة تفتقر إِلى أَشخاص أَقوياء كفيلين بمواجهته وصدّه، لتعرّضت الجماعة للتحطّم والموت .

لا نذهلنّ أَبداً عن أَنّ إِبليس هو عدوّ المحبّة والتواصل، ويمقت الجماعات التي ينمـو أَفرادها على الحبّ ومعرفة يسوع، فيفعل كلّ ما يستطيع لزرع الفرقـة، وخلـق المشـادّات والتمزّقات، وتدمير الجماعة .

العين الخارجيّة، أو السلطة الخارجيّة

يتّضح لي، أَكثر فأَكثر، أَنّ الجماعات، صغيرةً كانت أَم كبيرة، عاجزة عن تدبّر كـلّ أُمورها بمفردها، وأَنّ أَعضاءها، غالباً، عاجزون عن التخلّص ممّا يعتريها من توتّرات، مـن جرّاء انشغالهم بالأُمور الآنيّة، وافتقارهم إِلى البُعد اللازم لرؤية ما يحدث، واقعيّاً، في الجماعة . وهم، بالتالي، يحتاجون إِلى شخصٍ من خارجها، يتمتّـع بـالعطف والكفـاءة والسـلطة، فيساعدهم على تبيّن مسيرة جماعتهم، وعلى ابتداع هيكليّات جديدة تتلاءم ومختلـف مراحـل نموّها . كلّ جماعة تحتاج أَن يزورها باطرّاد من يصغي، ويطرح الأَسئلة الجيّدة حول رؤية كلّ فرد، وحياته في الجماعة، ويستطيع كلّ فرد أَن يتحدّث إِليه إِن آنس في نفسه، إِلى ذلـك، حاجة . وعلى هذا الشخص، خاصّةً، أَن يكون مستشاراً جيّداً للمسؤولين، ويسـاعد الجماعـة على التطوّر واكتشاف رسالة اللّه الكامنة في التوتّرات .

و يجب أَن يتمتّع هذا المراقب الخارجيّ بالحكم السليم، والتفهّم، وبالخبرة في شـؤون العلاقات الإِنسانيّة والجماعيّة، وأَن يحبّ أَهداف الجماعة الأَساسيّة، ويحترم بُناها، ويساعدها على تقييم ذاتها، فتتبيّن أَين عليها بذل المزيد من الجهد، وهل هي تفقد طاقاتها الخلاّقة، بحيث تمسي أَسيرة العادات والرتابة، وهل ما تعقده من اجتماعات يوفّر حقّاً الغذاء والحيويّة أو إِنّـه هدرٌ للوقت لا طائل تحته . كلّ ذلك من الأَسهل فعله بمؤازرة مراقب خارجيّ.

و على المراقب الخارجيّ أن يلعب، أيضاً، دور الذاكرة؛ فمن الضرورة بمكان أن يأتي، من الخارج، من يقول : " هل تذكر ؟ "، مُذكّراً بالنشأة الأُولى، والتاريخ، والتقاليد، والأيّام الفرحة وكذلك الأيّام القاتمة . فلكي تستطيع الجماعة إعداد مشاريع للمستقبل، عليها أن تكون قد أحسنت تمثُّل ماضيها، وكوّنت لنفسها تقاليد . ومن أجل ذلك ينبغي التحاشي عن الإكثار من تبديل المراقبين الخارجيّين فالاستمراريّة هامّة جدّاً .

إنّ مهمّة المراقب الخارجيّ دقيقة، وتتمثّل في استشفاف طاقات الجماعة الإيجابيّة من أجل دعمها، واستجلاء القوى السلبيّة؛ ليس عليها أن تبيّن للآخرين ما يتوجّب عليهم فعله، بل تقتصر على طرح آراء، واقتراحات، وتوجّهات؛ إنّها تشجّع وتساعد على التجدّد في الأمل، وتجرّد الأحداث من مظرها المأساويّ .

و ترتدي هذه المهمّة خطورة خاصّة في شتاء الجماعة، إذ عليها، حينذاك أن تدعو إلى الثقة والصبر، والصلاة .

تحتاج الجماعة إلى سلطة خارجيّة كفيلة بدعم المسؤولين وتشجيعهم، وكذلك بمراقبتهم ومساءلتهم عندما تقتضي الضرورة، بالتدخّل، بصراحة وحزم، عندما يتّضح عدم كفاءتهم، وعجزهم عن الحفاظ على روح الجماعة وأهدافها، أو استغلالهم إيّاها لأغراضهم الشخصيّة، أو اقترافهم مظالم .

إنّني أخشى على بعض جماعات لا تقاليد لها، وتأبى أيّة سلطة خارجيّة، فهي لن تعيش طويلاً إثر غياب مؤسّسها، وقد ينجرف المؤسس نفسه إلى أخطاء، طالما ظلّ في منأى عن أيّه رقابة .

نموّ شخصيّ، ونموّ جماعيّ

إنّ كلّ عضوٍ في جماعة ينمو في الحبّ والحكمة يُسهم في إنماء الجماعة بأكملها . وكلّ عضوٍ يرفض النموّ لنفسه، ويتهيّب التقدّم، يمسي عائقاً دون نموّ الجماعة . ومن ثمّ كلّ عضو، في الجماعة، مسؤول عن نموّه الخاصّ، وعن نموّ الجماعة كلّها .

النموّ الإنسانيّ يتمثّل في التوفيق بين قدرتنا على العمل وقلبنا . فغالباً ما ينبع العمل من الخوف : خوف من العلاقات، ومن التعرّض للعطب، ومن الحبّ نفسه، خوف من التبعيّة، والجنس، ومن كياننا العميق الخفيّ . وهكذا يمسي العمل، غالباً، هروباً، ورغبة في إثبات أمرٍ ما . أمّا عندما يسودنا السلام، بعد أن نكون قد استوعبنا جراحنا العميقة ووهننا، وعقدنا علاقة وثيقة مع أعماق قلبنا، وطاقاتنا على العطف، فالعمل ينبع من صميمنا، ويمسي معين نموّ .

و الجماعة تنمو حقّاً عندما يتبنّى كلّ فرد رؤيتها وروحها، في قلبه وفي عقله . وهكذا يختارها، كما هي، ويصبح عنها مسؤولاً .

يبدأ النموّ عندما يشرع المرء يتقبّل مواطن ضعفه الخاصّ؛ ومن ثمّ يتعيّن علينا أَن نساعد كلّ فرد على أَن يعيش بمزيد من الصدق والعمق قناعته الداخليّة بأَنّ اللّه يحبّه، كما هو .

مع تقدّمي في السنّ، ورسوخ خبرتي في الحياة الجماعيّة، وربّما مع نموّ إِيماني، أَعي، أَكثر فأَكثر، حدود الطاقات البشريّة ومواطن وهنها، وقوى الأَنانيّة، والجراح النفسيّة البليغة الناجمة عن الخوف، والعدوانيّة، والحاجة إِلى فرض الذات، التي تحكم حياة البشر، وتؤدّي إِلى إِقامة الحواجز فيما بينهم . لن نستطيع الخروج من كهوفنا وحدودنا إِلاّ إِذا مسَّنا روح اللّه، وأَزاح الحواجز، أَمامنا، وووضعنا على درب الشفاء .

لقد أَرسل اللّه يسوع لا لكي يديننا، أو ليحكم علينا بالانكماش ضمن حدودنا، وظلماتنا، وسجون كياناتنا، بل لكي يصفح عنّا، ويحرّرنا بزرعه في تربة كياننا بذور الروح . وما النموّ في الحبّ سوى روح يسوع ينمو فينا . ويتّخذ هذا النموّ بُعداً آخر إِذ تركنا يسوع يتغلغل إِلى داخلنا ليهبنا حياة وطاقات جديدة .

لا يثوي رجاؤنا في جهودنا نحو الحبّ، ولا في التحليل النفسيّ الذي يسعى إِلى إِلقاء الضوء على عُقد حياتنا، ولا في إِعادة تنظيمٍ أوفر عدلاً للبنى السياسيّة والاقتصاديّة التي تنظّم حياة البشر، وتؤثّر في سلوكهم، مع أَنّ كلّ ذلك قد يكون ضروريّاً . بل إِنّ النموّ الحقّ يأتي من اللّه، عندما نصرخ إِليه من أَعماق هوّتنا، وندع الروح يتغلغل فينا . وحينئذٍ يصبح النموّ في الحبّ نموّاً في الروح، وتصبح المراحل التي يتعيّن اجتيازها من أَجل النموّ في الحبّ هي المراحل التي يجب اجتيازها لكي نتّحد اتّحاداً أَكمل بالربّ، في أَعماق كياننا .

لكي ننمو في الحبّ، ينبغي أَن ندمّر سجون أَنانيّاتنا، وهذا يقتضي آلاماً، وجهوداً دائبة، وخيارات متكرّرة . ولكي نبلغ بعض نضج في الحبّ، ونحمل صليب المسؤوليّة، يجب أَن ننعتق من نزوات المراهقة، وأوهامها، وسذاجاتها . وفي أَثناء هذا النموّ نحتاج إِلى صديق، ودليل، ومشيرٍ حكيم، إِلى من يواكبنا على مدى دربنا، ويساعدنا على تخطّي الأَوقات العصيبة .

يتساءل البعض كيف يمكن التحقّق من النموّ؛ وعلى هذا التساؤل يجيب القدّيس بولس في الفصل الثالث عشر من رسالته إِلى الكورنثيّين، حيث يوضح أَنّ المحبّة ليست أَعمالاً بطوليّة خارقة، ولا التكلّم بلغات عديدة، ولا التنبؤ، ولا الإِحاطة بجميع الأَسرار وبالعلم كلّه، ولا امتلاك إِيمان فذّ، ولا التبرّع بكلّ شيء للفقراء، ولا الاستشهاد؛ بل هي الصبر، والخدمة، وتجنّب الحسد والكبرياء، والتنكّب عن التباهي في كلّ حين، وعن المغالاة في إبراز الصفات

الذاتيّة؛ المحبّة هي الامتناع عن كلّ ما يُلحق بالآخرين أذىً، ونشدان صالحهم قبل الصالح الخاصّ؛ والتحاشي عن الغضب، والمرارة، والعدوانيّة، وعن تحريّ الشرّ لدى الآخر؛ وعدم الابتهاج بالظلم، والتماس الحقيقة في كلّ شيء .

و يقول القدّيس بولس في رسالة أُخرى أنّ النموّ في المحبّة هو نموّ في الفرح والصبر، والعطف، والسخاء، والوفاء، والرقّة، والسيطرة على الذات، وانتباذ جميع ميول الشقاق التي تسكننا : الكراهيّة، والخلافات، والحسد، وسورات الغضب، والمنازعات، والانقسامات، وكلّ النزعات المعتمة التي، في داخلنا، تسعى إِلى الفحش، والنجاسة، والعربدة، وعبادة الأَصنام، والسحر، والمجون، والتهتّك والقصوف .

و الصفة الأَساسيّة للعيش الجماعيّ هي الصبر، والاعتراف بأَنّ الفرد والجماعة يحتاجان إِلى الوقت كي ينموا . فلا شيء يتمّ في يومٍ واحد . إِنّ العيش في جماعة يقتضي مهادنة الوقت ومصادقته .

التخلّي عن الأَوهام

الخطر الذي يهدّد كلّ جماعة، بل كلّ إِنسان، هو العيش في الوهم . وهذا ما نفعله، جميعنا، عندما ننغلق دون الآخرين . فالحقيقة التي تنغلق دون الآخرين تعيش في وهم أَنّها تنفرد بامتلاك الحقيقة، أَو إِنّها تخشى أَيّ تغيير، وتخشى المساءلة، والظهور على واقعها، بكلّ ما هي عليه من فقر . مسؤولوها يأبون الإِصغاء إِلى الغير ويتذرّعون بشتّى الحجج الدينيّة الكفيلة بتدعيم قناعتهم بأَنّهم، وحدهم، ممتلئون بالروح القدس، ومتواصلون مباشرة مع اللّه . قد تكون هذه حالةً قصوى، ولكن في كلٍّ منّا، كما في كلّ جماعة، يكمن خوف من المساءلة، وخطر إِخفاء التوتّرات والاعوجاجات، أو، أَقلّه الرغبة في عدم مواجهتها .

و قد كتب " سكوت بيك " في هذا السياق : " الحقيقة هي الواقع، والزيف هو اللاواقع. وكلّما وضحت رؤيتنا لواقع العالم، كنّا أَكثر قدرة على التعامل معه . وكلّما كانت رؤيتنا للعالم أَقلّ وضوحاً – لأَنّ الكذب، والآراء الكاذبة والوهم تلقي بظلماتها على فكرنا – تضاءلت قدرتنا على تحديد منهج السلوك الذي يتعيّن علينا انتهاجه، وعلى اتّخاذ قرارات حكيمة "

إِنّ أَهمّ عامل في نموّ الأَشخاص والجماعات هو الالتزام بالحقيقة حتّى وإِن كانت جارحة، بل خاصّة إِن كانت جارحة . فلا نموّ مع العيش في الكذب والوهم، ومع الخوف من اعتلان الحقيقة . ولطالما سعينا إِلى تمويه مخاوفنا، وأَخطائنا، وعجزنا، وريائنا ! وفي سبيل ذلك قد نتوارى خلف شرائع دينيّة كما كان يفعل الفرّيسيّون والكتبة . بل علينا بالأَحرى أَن

ننفتح على الحقيقة، ونفسح لها مجال الاعتلان، حتّى وإن هي فضحت فقرنا الجوهريّ وخطيئتنا؛ وحينئذٍ سنصرخ نحو يسوع، المخلّص، الذي سيرسل لنا روحه، ويقودنا و يصفح عنّا . وحينئذٍ فقط ستحرّرنا الحقيقة .

أتصوّر أنّ بطرس، عندما سار في إثر يسوع، اجتاز أربع أزمات . أولاها كانت عندما دعاه يسوع، فقد كان جزء من نفسه يتحسّر على حياته العائليّة وأيّام الصيد . غير أنّ حبّه ليسوع ورجاءه مكّناه من تخطّي هذه الأزمة . ولقد خَبَر أزمته الثانيّة عندما تبيّن أنّ يسوع لم يكن ذاك الذي كان يتمنّاه، فقد كان يؤثره نبيّاً أو ماسيّا، ويؤثر ألاّ يلحّ في غسل رجليه، وألاّ يتحدّث عن موته الوشيك . ثمّ كانت الأزمة الكبرى، عندما ارتضى يسوع أن يضعف ويموت، ممّا حدا ببطرس إلى إنكاره؛ واجتاز الأزمة الرابعة، عندما تخلّى عن أوهامه عن نفسه، ولمس مواطن فقره، وأشفى على القنوط .

و هذه هي أيضاً الأزمات الأربع الكبرى في حياة الجماعة . أولاها، وأقلّها صعوبة، بلا ريب، هي في الانضمام إليها، إذ تظلّ أجزاء منّا متمسّكة بالقِيَم التي تخلّينا عنها . والأزمة الثانية تحدث عندما نكتشف أنّ الجماعة ليست كاملة كما تخيّلناها، وأنّ لها مواطن ضعفها ومعايبها، فتتهاوى المُثُل والأوهام، ونواجه الواقع . وتحدث الأزمة الثالثة عندما نشعر أنّ الجماعة لا تفهمنا أو ربّما تنبذنا، فلا تعيد، مثلاً، انتخابنا لموقع مسؤوليّة، أو لا توكل إلينا الوظيفة التي نطمح إليها . أمّا الأزمة الرابعة والأبلغ إيلاماً، فتنشب عندما يخيب أملنا في ذاتنا، من جرّاء تصاعد مشاعر الثورة، والحسد، والكبت، من أعماقنا .

إنّ بلوغ الاندماج التامّ بالجماعة يقتضي حسن اجتياز هذه الأزمات التي تمثّل تغلغلاً في أعماق الذات، وعبوراً نحو التحرّر الداخليّ؛ وهي، جميعها تستلزم التخلّي عن الأوهام، وتقبّل الواقع، تدريجيّاً، كما هو .

إنّ التخلّي عن الأوهام ينطوي على الكثير من الآلام والدموع . فجميعنا نعايش، بقدرٍ ما، أوهاماً تداري عطوبيّتنا، فإذا ما انقشعت واجهنا فراغاً رهيباً يحاكي الموت، غير أنّنا نُبعَث من جديد في الحقيقة، والحقيقة تحرّرنا دائماً .

و قد يعترينا الخوف من السير في إثر يسوع، خشيةً ممّا قد نضطر إلى فقدانه . فإنّه من العسير جدّاً التخلّي عن بعض القِيَم وبعض المقتنيات، التي تبدو وكأنّها مصدر ازدهار إنسانيّ، ممّا يلجم الكثيرين عن اتّباع يسوع .

من السهل الانتماء إلى جماعة مزدهرة تحقّق أُموراً رائعة؛ ولكن من العسير المكوث في جماعة فقيرة، محطّمة، مُهانة؛ غير أنّ سرّ النموّ، لدى المسيحيّ، يكمن في قبول آلام الصِّغر والمهانة، وحينئذٍ فقط نعيش سرّ إيماننا، وتتجلّى قدرة اللّه .

إنّ سرّ الحياة الأعظم يثوي في تعلّم تحويل الفجيعة إلى تقدمة .

إنّ الخطر المحدق بمن اختار الحياة الجماعيّة، يتمثّل في فقدانه، بعد بضع سنوات، نظرة الطفل وانفتاح المراهق، وفي التصاقه بقطاعه، وفي نزوعه إلى الرغبة في امتلاك وظيفته وجماعته، في حين يتعيّن عليه، بعد التزامه بالحياة الجماعيّة، ألاّ يكفّ عن النموّ والحبّ، وعن السير الحثيث نحو مزيدٍ من اللاأمان البشريّ . فبعد أن يتجذّر في تربته عليه مواصلة النموّ ممّا يقتضي أن يُشذّب، بل أن يُكسَر، أحياناً، لكي يستطيع الإتيان بمزيد من الثمر .

و قد يكمن الخطر في الاقتصار على نشاطٍ جماعيّ وعلى ما يقتضيه ذلك من مسؤوليّات ومن نشاط مفرط لا مهادنة فيه ولا راحة . فمن يدأب على أعمالٍ من أجل الآخرين، ويضحّي في سبيلهم، يتماهى، أكثر فأكثر، بمهامّه وبما تنطوي عليه من مزايا، ويتشبّث بها ... فلا بدّ، لمن يتحمّلون مسؤوليّات جسيمة، في جماعةٍ ما، أن يسائلوا أنفسهم عن حياتهم الداخليّة : فهل هم يهدرونها في النشاط، أم إنّهم يسعون، حقّاً، إلى تغذيتها ؟ إنّه لمن السهل أن يعيش المرء على هامش كيانه، مستخدماً طاقاته الخارجيّة، عوضاً عن السهر الدائم على تعميق الحياة الداخليّة، وعن الاتّصال الوثيق بمركز القلب الذي يغشاه الصمت، وحيث يقيم اللّه .

و بقدر ما تتعاظم مهامّ عضو الجماعة ومسؤوليّاته، بنفس القدر يتعيّن عليه الاستغراق في التأمّل . فإن هو لم يغذّ حياته العاطفيّة العميقة بالصلاة الكامنة في اللّه، وإن لم يُنفق وقتاً في الصمت، وفي العيش في حضور إخوته وأخواته والتعاطف معهم، تعرّض للاكتئاب والمرارة . فالحفاظ على الحريّة الداخليّة مرهون بمدى تغذية أعماق القلب . وبالتالي فالإنسان المفرط النشاط ،المتهرّب من كيانه العميق ومن جراحه، يعيش في الأوهام، وسرعان ما قد ينقلب طاغية، ومسؤولاً لا يُطاق، لا يثير من حوله سوى الخلافات .

الدعوة الثانية

الدعوة الأُولى هي دعوة إِلى اتّباع يسوع، وإِلى التأهّب لتحقيق أَعمال جليلة ورائعة من أَجل الملكوت، ومعها ننعم بالتقدير والإِعجاب في أسرتنا، ولدى أَصدقائنا، وفي الجماعة . وفيما بعد، تأتي الدعوة الثانية، عندما نرتضي بعجزنا عن تحقيق أُمور عظيمة وبطوليّة من أَجل يسوع . إِنّها فترة تضحية، ومهانةٍ، وتواضع، حيث نشعر أَنّ لا فائدة لنا، ولا اعتراف بنا . وإِن كانت المرحلة الأُولى تتمّ في غمرة الظهيرة، وفي وَضَح النهار، فالليل هو الذي يخيّم على المرحلة الثانية، حيث يغمرنا شعور بالعزلة والاضطراب، ويستبدّ بنا الخوف، وتخامرنا الريبة في الالتزام الذي ارتبطنا به في وهج النور . ويساورنا انطباع بأَنّنا محطّمون تحطّماً سحيقاً وبأَشكال مختلفة . غير أَنّ هذا الأَلم ليس نافلاً، فمن خلال التضحية يسعنا بلوغ حكمة محبّة جديدة، إِذ ،وحدَها، آلام الصليب تمكّننا من اكتشاف معنى القيامة .

كلٌّ منّا يحمل جرحاً يُخيفه من العزلة، ويدفعه إِلى الهروب بأَساليب مختلفة، وقد يلتجئ البعض إِلى الجماعة أَملاً في دمل هذا الجرح ولكنّهم يُمنَوْن بالفشل؛ فطالما كان المرء شابّاً استطاع تمويه الخوف بالديناميكيّة والسخاء، واللوذ إِلى المستقبل فزعاً من الحاضر، أَملاً في أَن يستتبّ كلّ شيء في الغد . أَمّا عند بلوغ الأَربعين، إِذ يصبح المستقبل ماضياً، وإِذ ما يزال المرء يحمل في داخله ذلك الجرح الذي يشيع عدم الرضى، فهو يتعرّض للإِحباط بتبيُّنه أَن لم يعد لديه مشاريع جديدة للمستقبل، فضلاً عن كونه يحمل في جسده كلّ ما خلّفه الماضي من كلَل وشعور بالذنب . وطالما هو لم يتيقّن أَنّ هذا الجرح ملازم للطبيعة البشريّة، وأَنّ لا مناص من معايشته، فهو سيسعى أَبداً إِلى الهروب منه، ولن يقوى على تقبّله إِلاّ عندما يكتشف أَنّ اللّه يحبّنا كما نحن، وأَنّ الروح القدس يقيم، إِقامةً سرّيّة، في صميم جرحنا ...

إِنّ مرحلة الشيخوخة هي أَثمن مراحل الحياة، وأَقربها إِلى الأَبديّة . ولكنّ ثمّة أُسلوبين لعيش الشيخوخة . فالذين يعيشون في الماضي وفي الوهم، وينتقدون كلّ ما يجري من حولهم، تغدو شيخوختهم قلقة حافلة بالمرارة؛ وينفّر طبعُهم الكدر الشبابَ منهم، فينغلقون في الأَسى والعزلة، منكفئيين على ذواتهم . أَمّا الشيوخ الذين احتفظوا بقلب طفوليّ، فإِنّهم يعهدون، إِثر انعتاقهم من مهامّهم ومسؤوليّاتهم، شباباً قشيباً، وهم يقرنون نظرة الإِعجاب لدى الفتى إِلى حكمة الكهل الناضج ... حرّيّة قلوبهم، وأسلوب تقبّلهم حدودهم وأَوهانهم، تجعل شخصيّاتهم تشعّ في أَرجاء الجماعة، فهم نماذج رقّة ورأفة، ورموز عطف وصفح، ومتأمّلون حقيقيّون في قلب الجماعة بل هم كنوز خفيّة، وينابيع وحدةٍ وحياة .

صلاة، وخدمة، وحياة جماعيّة

الانفتاح على اللّه بالعبادة، والانفتاح على الفقراء، بالاستقبال والخدمة، هما قطبا النموّ، ودليل عافية الجماعة . وعلى الجماعة أَن تمضي قُدُماً في تعميق هويّتها، على أَنّها جسدٌ، كلُّ عضو فيه ملزم بممارسة موهبة، وينبغي الاعتراف به وبموهبته .

فإِن لم تهتدِ الجماعات التي استهلّت نشاطها بخدمة الفقراء إِلى سبيل تعميق الصــلاة، وانعكاسات تواصل الحبّ، والاحتفال، فهي تتعرّض لأَن تصبح مجموعة مناضلين يكــافحون من أَجل العدل . وإِن لم تكتشف الجماعات التي استهلّت نشاطها بالصــلاة والعبــادة، فــيض الرحمة الذي ينعكس على المتألّمين فهي تتعرّض لأَن تتجمّد في الشريعة وتنتهي إِلى العقم .

هذه العناصر الثلاثة المكوّنة للجماعة : الصلاة أو التواصل مع الآب بيسوع وفيــه؛ وخدمة الفقراء؛ ووعيها أَنّها واحدة في جسد واحد، لا بدّ من ائتلافها لصحّة الجماعة ونموّها. فيسوع قد دعا كلاًّ من الرسل دعوة تنطوي على علاقة محبّة شخصيّة، ثمّ لــمّ شــملهم فــي جماعة، وأَخيراً أَرسلهم لإِعلان البشرى للفقراء .

من السخاء إِلى الإِصغاء للفقراء

على الجماعات التي تستهلّ نشاطها بخدمة الفقراء أَن تكتشف، شيئاً فشيئاً، ما يستطيع الفقراء تقديمه . ولئن هي بدأت في السخاء، فعليها أَن تنمو في الإِصغاء . فالمهمّ ليس " فعــل شيء " من أَجل الفقراء والواقعين في شدّة، بل عقد علاقات معهم، ومــواكبتهم، ومســاعدتهم على الثقة في ذواتهم، وعلى اكتشاف مواهبهم الخاصّة . ليس المطلوب المجيء إِلــى قريــة أَكواخ الصفيح بالكثير من المال القادم من الخارج، من أَجل بناء مستوصف أو مدرسة، بــل المطلوب هو قضاء بعض الوقت مع نزلاء الأَكواخ، ومساعدتهم على اكتشــاف احتياجــاتهم وإِمكانيّاتهم، ثمّ الاشتراك معهم في إِشادة الأَبنية الضروريّة؛ وقد تكون هذه الأَبنية أَقلّ جمالاً، ولكنّها ستُستخدَم استخداماً أَفضل، وستكون محبوبةً أَكثر لأَنّها ستكون عمل الجميع، لا عمــل محسنٍ غريب . وقد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، غير أَنّ كلّ خدمة إِنسانيّة حقّة تستغرق وقتاً . لقد وعدنا يسوع بمساعدتنا على تبيّن أَنّ الفقراء هم مصدر حياة، أَكثر ممّا هم موضع إِحسان، فإِن نحن كنّا قريبين منهم، لتجدّدت نفوسنا في الحبّ والإِيمان .

ثمّة جماعات دائبة على تلبية احتياجات أَعضائها؛ وما تلبث أَن تحصر اهتمامها في الجانب المادّيّ مثل تحسين الأَبنية من أَجل المزيد من الرفاه – في حين أَنّ جماعات أُخرى تنمو في الإِصغاء إِلى صيحات الفقراء، وفي معظم الحالات، يدفعها ذلك إِلى أَن تظلّ هي نفسها فقيرة، لكي تبقى على مقربة من الفقراء، وعلى تواصلٍ معهم . غير أَنّ ذلك لا ينفي ضرورة السهر على أَعضاء الجماعة، الذين يتعيّن تزويدهم بالرفاه الضروريّ لكي يكونوا أَدوات صالحة في خدمة حبّ اللّه، ويتمكّنوا من الصمود .

علامات مرض وعلامات صحّة في الجماعة

عندما يشرع أَعضاء الجماعة يرفضون حضور الاجتماعات، وينعدم، فيما بينهم، الحوار، وعندما يخشون الإِفصاح عمّا يعتمل في خواطرهم، لأَنّ شخصيّة قويّة تسيطر وتحول دون حريّة التعبير؛ وعندما يتحوّلون من المساهمة في النشاطات الجماعيّة إِلى نشاطات خارجيّة، حينئذٍ تكون الجماعة في خطر، إِذ لا تعود " بيتاً "، بل مجرّد فندق ومطعم .

و عندما لا يسعد أَفراد الجماعة بوجودهم معاً، وبالعيش، والصلاة، والعمل معاً، بل يلتمسون، باستمرار، تعويضات، في الخارج؛ وعندما يدأبون على التحدُّث عن أَنفسهم وعن مشاكلهم، عوضاً عن التحدُّث عن مُثُل حياتهم، وعن طريقة تلبية صيحات الفقراء، فثمّة إِشارة موت .

عندما تكون الجماعة معافاة، تصبح عامل استقطاب، يلتزم فيها الشبّان، ويسعد الزوّار بالقدوم إِليها . ولكن عندما تشرع الجماعة تخشى استقبال الزائرين والقادمين الجُدد، وتضع العراقيل، وتفرض ضمانات بحيث لا يعود يوافيها أَحد؛ وعندما تشرع تنبذ من أَحضانها الأَشخاص الضعفاء، والذين يعانون مشاكل، والمسنّين، والمرضى، إِلخ ... فهذا دليل وبال؛ فهي ليست، بعدُ، جماعة، بل فريق عمل يسعى إِلى الجدوى .

و دليل مرضٍ أَيضاً أَن تنظّم الجماعة بُناها بحيث توفّر ضمانةً تامّة للمستقبل، وأَن تودع المال الوفير في المصارف، وأَن تزيل، شيئاً فشيئاً، كلّ عناصر المخاطرة، وتستغني عن عون اللّه، وتتنكّب عن الفقر .

إِنّ صحّة الجماعة تتجلّى من خلال أُسلوب استقبالها الزائر والفقير، ومن خلال الفرح والبساطة السائدين بين أَعضائها، ومن خلال ثقتهم، رغم الظروف العصيبة، ومن خلال

موقفهم الخلاّق من تلبية صيحات الفقراء . ولكنّها تتجلّى، على نحوٍ خاصّ، من خلال اندفاعها نحو أَهداف الجماعة الأَساسيّة، ووفائها لها : أي الحضور للّه وللفقراء .

و على الجماعة أَن تتساءل، بين حين وآخر، عن مدى صحّتها . وقد لا يكون تبيّن ذلك سهلاً، غير أَنّ هناك علامات حياة، وعلامات موت ينبغي استجلاؤها .

الوفاء

هناك جماعات تولد، وتزدهر، ثمّ إِنّها، غالباً، تعهد نوعاً من الانحطاط، وتموت. فموجات الاندفاع والحميّة والسخاء التي واكبت البدايات تتلاشى، وشيئاً فشيئاً " تستقرّ " الجماعات، وتتسلّل إِليها الضحالة، ويتفوّق النظام والقانون فيها على الروح . والجماعات الرديئة تفقد قدرتها على الاجتذاب، وتزول .

يبدو لي أَنّ ثمّة عاملَيْن جوهريَّيْن يسبّبان انحراف الجماعات عن سراطها القويم، هما أَوّلاً نشدان الأَمان، والملَل من اللاأَمان، وثانياً انعدام الوفاء للرؤية الأَصليّة التي ميّزت روح التأسيس .

فعندما تولد جماعةٌ ما، يتعيّن على مؤسّسيها أَن يناضلوا بُغيةَ البقاء، ومن أجل الإِعلان عن مُثُلهم العليا . وقد يجابهون، في سبيل ذلك، المعارضة، بل الاضطهاد أَحياناً، ممّا يدفع أَعضاء الجماعة إِلى المضيّ قُدماً في تأكيد ذواتهم، ويزيد دوافعهم تحفّزاً، ويحرّضهم على تجاوز ذواتهم وعلى الاستسلام التامّ بين يديْ العناية الإِلهيّة . وفي بعض الفترات لا يُنقذهم سوى تدخّل اللّه المباشر . فهم، من جرّاء تجرّدهم من كلّ ثروة، وكلّ أَمان، وكلّ سند بشريّ، يُضحون أَكثر اعتماداً على اللّه، وعلى الأَشخاص الذين، من حولهم، يقدّرون شهادة حياتهم . وهم، بالتالي، مضطرّون، نوعاً ما، إِلى أَن يظلّوا أَوفياء للصلاة ولإِشعاع الحبّ . إِنّها قضيّة حياة أو موت؛ وما تبعيّتهم التامّة سوى ضمان أَصالتهم، وإِنّما ضعفهم هو سرّ قوّتهم .

و لكن عندما يكون لدى الجماعة من الأَعضاء ما يؤهّلها للاضطلاع بجميع مهامّها، وعندما تمتلك ما تحتاج إِليه من وسائل مادّيّة وبُنىً متينة، ونوعاً من الأَمان، فهي، حينئذٍ تستسلم للتراخي؛ وهنا يتربّص بها الخطر .

قد يكون العيش في منأى عن الأَمان مرهقاً ومقلقاً، غير أَنّه هو الضمان الوحيد، لاستمرار الجماعة في الترسّخ، والتقدّم، والوفاء .

على كلّ جماعة أَن تتبصّر جيّداً ما يتعيّن عليها الوفاء له، ورؤيتها الأَساسيّة، فإِن هي حادت عنهما تقهقرت، وتناثر الجوهريّ فيها شظايا .

و دور كلّ عضو في الجماعة السهر على التوغّل في اللاأمان، وبالتالي، في الاعتماد على اللّه، وعلى الوفاء لأهداف الجماعة الخاصّة، ولجوهر روحها . ولا بدّ من التذكير بذلك باستمرار، وإلاّ هوت الجماعة إلى رتابة التقليد، والنظام، والعادات، وأُصيبت بالشلل . وفي ضوء هذا الواقع ينبغي أن تؤخذ جميع قرارات الجماعة الخطيرة .

في نشأة كلّ جماعة، ثمّة، دائماً عنصرٌ نبويّ، يولّد نمط حياة جديداً يتعارض مع الأنماط السائدة، ويستهدف ردم فراغ معيّن في المجتمع أو في الكنيسة . ومع كرّ الزمن، يتعرّض هذا العنصر النبويّ للتلاشي، وينزع الأعضاء إلى الإعراض عن التطلّع إلى الحاضر والمستقبل، مثبتين أنظارهم على الماضي، حفاظاً على التقليد . غير أنّ بقاء الجماعة حيّة مفعمة بالرجاء يقتضي بقاء الروح النبويّ .

هذا الروح، في جوهره، ليس نمط حياة، بل هو أكثر من ذلك : إنّه رجاء، وتجسيد للحبّ . ومع ذلك إنّه يضفي طابعاً واقعيّاً على مفاهيم السُّلطة، والمشاركة، والطاعة، والفقر، وطاقات الخلق لدى الجماعة والأفراد، ونشر الحياة . وهو يبرز تأكيد الجماعات الأُولى على جانب دون جانب آخر؛ فالروح النبويّ هو الذي يحدّد الجوهريّ في أُسلوب العيش، ويمثّل نوعاً من مقياسٍ للقِيَم . إنّه هبة اللّه للأُسرة، والكنز الفريد المودع لكي يبقى في صميم الجماعة .

على الجماعة أن تعيش اليوم مثلما كان من شأن مؤسّسها أن يعيش لو هو وُجد اليوم . لا يتعيّن عليها أن تعيش مثلما هو عاش، بل ينبغي أن يحدوها مثل ما حداه، في زمانه، من حبٍّ، وروح، وجرأة .

إنّ روح الجماعة وروحانيّتها يتجسّدان في تقاليد خاصّة، ومن الأهميّة بمكان احترام هذه التقاليد، على أن يُحاط الأعضاء الجُدد علماً بمغزاها وأصلها، لكي لا تنقلب عادات، بل تتجدّد باستمرار، وتظلّ حيّة . قد لا تكون هذه التقاليد وما ينجم عنها من أفعال، هامّة، في ذاتها، غير أنّها تجسّد واقع أنّنا، حقّاً، إخوة وأخوات، وأعضاء أُسرة واحدة، لنا قلب واحد، وروح واحد، ونفسٌ واحدة، وأنّنا نعيش اليوم بنتيجة جهد من سبقونا .

يجدر دائماً بالكائن البشريّ، والجماعات، والأمم، أن يذكروا أنّ الواقع الراهن هو ثمرة أفعال الحبّ أو البغض السالفة . وهذا يحمل على تذكّر أنّ جماعة الغد هي، الآن، في طور الولادة من خلال وفائنا للحاضر . فجميعنا حلقات صغيرة في سلسلة الأجيال المتمادية التي تكوّن الإنسانيّة . حياتنا قصيرة بالقياس إلى تاريخ البشريّة، وإلى الماضي والمستقبل . وهذا الواقع يساعدنا على تبيّن موقع جماعتنا الفعليّ من الآخرين ومن التاريخ، ومن مكان كلّ فرد فيها . وسنكتشف، حينئذٍ، أنّنا، في آنٍ واحد، ضئيلو الشأن، وهامّون، لأنّ كلاًّ من أفعالنا

يحضّر بشريّة الغد : إِنّه حجر صغير في بناء مدينةٍ أَوفر عدلاً وسعادة للأسرة البشريّة جمعاء .

نشر الحياة

لا يمكن أَن تظلّ جماعة جامدة، فهي ليست، في ذاتها، هدفاً، بل إِنّها تحاكي ناراً يتحتّم عليها أَن تمتدّ لكي تظلّ متّقدة . ويحين وقتٌ يتعذّر فيه على الجماعة أَن تنمو إِلاّ عبر الانفصال، والتضحية، والبذل . لا بل هي بقدر ما تصيب من الوحدة، عليها أَن تضحّي بها لكي تعطي من لا يزالون مفتقرين إِلى الوحدة، بإيفادها بعض أَعضائها في سبيل إِيجاد شبكات حبّ جديدة، وجماعات سلام أُخرى .

إِنّ ازدهار كلّ حياة يقتضي ظهور براعم وثمار، وفي هذه البراعم والثمار تكمن بذور حياة جديدة .

إِنّ الجماعة التي تتكمّش بأَعضائها، وتأبى المخاطرة في عمل الإِنجاب المدهش، تتعرَّض لما هو أَخطر من الانفصال، تتعرّض للجفاف . فإِن هي لم تتوجّه نحو مزيدٍ من العطاء، لاستقرّ أَعضاؤها في موقف صبيانيّ يداني التقهقر، ولأُصيبوا بالعقم، ولتوقّفت الحياة عن الانسياب من خلالهم، وباتوا مثل أَغصان يابسة .

و على الفروع النائية للجماعات أن تعيش حياتها الجماعيّة وروحها، في اندماجٍ تامّ بالمنطقة التي حلّت فيها . كثيرون من أَعضاء الجماعات الرسوليّة يعانون ضرباً من التناقض، فقد يتعرَّضون لأَن ينقلوا إِلى أَرض غريبة ثقافتهم، وتقاليدهم الخاصّة، التي قد لا تتماشى وعقليّة محيطهم الجديد .

فعلى هذه الجماعات النائية أَن تنسلخ عن بعض عناصر ثقافتها الأَصليّة لكي تعيش التطويبات، بمزيدٍ من العمق، في ثقافتها الجديدة، وعليها أَن تتسلّح بمزيدٍ من الثقة في الربّ الذي أَرسلها إِلى بلاد نائية لكي تعقد عهداً مع شعب جديد .

و على " الجماعة الأُمّ " أَن تساعد الجماعة الجديدة على الانطلاق، لكي تصبح، حيث هي، نبعاً يبعث الحياة . وإِن تحرّرت الجماعات النائية من قيود البُنى الصارمة، ولم تتهيّب المخاطرة والمصاعب، لأَصبحت معين حياة ورجاء للجماعة الأُمّ . وهذه، بدورها، يمكنها أَن تصبح الضمان الضروريّ الذي يتيح لفروع ذات هيكليّات خفيفة أَن تستقرّ بعيداً، في أَوضاع صعبة .

توسّع وتجذّر

على التوسّع أن يواكبه ترسّخ . فبقدر ما تنمو شجرة، يتعيّن على جذورها أن تـزداد منعة، وإلاّ اقتلعتها أوّل عاصفة . وأساس الجماعة المتين هو التجذّر في قلب اللّه . فاللّه هـو نبع الجماعة، وبمقدار ما ينساب النبع ويتدفّق، على الأعضاء أن يظلّوا على مقربة منه .

ثمّة نموٌّ خارجيّ يتجلّى من خلال التوسُّع؛ وثمّة نموّ داخليّ، كمين : كتجذّر أَبعد عمقاً في الصلاة، في يسوع، وفي مزيد من الحبّ والصفح بين إخوةٍ وأَخوات، ومزيد من التعاطف والاستضافة . ولئن كان هذا النموّ الداخليّ غير مرئيّ، إلاّ أَنّه يخلق جوّاً ملموساً يتجلّى مـن خلال فرحٍ أَشدّ إشراقاً، وصمتٍ أَبلغ عمقاً، وسلامٍ يمسّ القلوب ويقود إلى تجربة للّه حقّة .

من صميم الجرح

ثمّة علاقة سرّيّة بين الأَلم، والتقدمة، وبذل الحياة، أَي بين التضحية والتوسّع . لـديّ قناعة راسخة بأَنّ من عليه أَن يعمل ويُشعّ لا يستطيع شيئاً إِن لم يتّكئ على أَشخاص يتقبّلون آلامهم، وشلَلهم، ويقدّمونها لكي تصبح مصدر حياة . إِنّ الرجال والنسـاء الـذين يصـلّون، مختبئين، في أديرتهم ومناسكهم، ويعانون، أَحياناً، أوجاعاً مضنية، يحاكون مضـخّات خفيّـة تروي أَرضاً جافّة .

إِنّ إِنساناً مسنّاً أَو معتلاً يقدّم ذاته للّه، قد يصبح، في الجماعة، الشخص الأَثمن، فهـو جاذب النعمة، و" المضخّة السرّيّة " . ثمّة سرٌّ كامن في الجدوى الخفيّة المنبعثة مـن أولئـك الأَشخاص المحطّمي الأَجساد، الذين يمضون أَيّامهم وكأَنّهم لا يفعلون شيئاً، ولكنّهم مقيمون في حضور اللّه . إِنّ عجزهم عن الحركة يقسرهم على إِبقاء أَنظـارهم وقلـوبهم مثبتـة علـى الجوهريّ، وعلى نبع الحياة نفسه، بحيث تغدو آلامهم ونزاعاتهم خصبة، ويمسون، هم أَنفسهم، معين حياة .

إِنّني أَلتقي، أَحياناً، جماعات لم يعد فيها سوى حفنة من المسنّين . زمن ازدهار هـذه الجماعات يبدو منتهياً، ومن المرجّح أَنّ أَيّ شابّ لن ينتمي، بعدُ، إِليها . ومع ذلك يدهشني ما يسود فيها من بهجة وسلام . أَعضاؤها يعلمون أَنّ جماعتهم تحتضر، ولكنّ ذلك لا يقلقهم، فهم حريصون على أَن يعيشوا، حتّى اللحظة الأَخيرة، النعمة التـي وُهبوهـا . إِنّ بوسـع هـذا

الجماعات أَن تؤتي عالمنا الكثير : مثل تعلّم قبول الفشل، والموت في سلام . ثمّ أَليس تقبّلهم آلامهم الخاصّة، وتقدمتهم لتضحياتهم هي التي تولّد جماعات جديدة شابّة وديناميكيّة ؟

من الصليب تتفجّر الحياة، ويتحوّل الموت إِلى قيامة . إِنّه سرّ الحياة التي تولد من الموت .

دور العناية الإِلهيّة

قبل أَن ينتمي إِلى جماعة، يستشعر المرء في أَغوار قلبه دعوة ودافعاً إِلى حياةٍ موجّهة نحو اللّه، ونحو قِيَم الحبّ والعدل، التي تتعارض والرغبات الأَنانيّة، أو الرغبات، الأَكثر ظهوراً، في الرفاه، والجاه، والسُلطة . قد يكون هذا الدافع واهياً، بادئ الأَمر، ولكنّه، إِذا ما استُجيب له، سيكبر، شيئاً فشيئاً، وسيتجسّد في رغبةٍ حقيقيّة، وفي حاجة الكيان العميقة إِلى تكريس الذات للّه، ولإِخوة وأَخوات، وخاصّة للأَكثر فقراً . إِنّ هذه الدعوة في ذاتها، ضرب من اختبار اللّه .

و مع كرّ الزمن، ومن خلال لقاء إِخوة وأَخوات، والالتزام المتبادَل، تُكتَشَف العناية الإِلهيّة . فالربّ لم يدعُني وحدي، بل دعاني مع آخرين استمعوا إِلى النداء عينه واستجابوا له . إِنّه هو الذي جعلنا نلتقي ونتحابّ، وهو المقيم في قلب الجماعة .

و يترسّخ اختبار العناية الإِلهيّة هذا مع الزمن، ومع اكتشاف أَنّ اللّه، على نحوٍ واضح، قد سهر على الجماعة عندما كانت تجتاز مِحَناً كفيلة بدكّ بنيانها : بحيثُ حُلَّت توتّرات خطيرة، وقدِم شخص فاضل في وقت كانت الحاجة إِليه ملحّة، ووردت مساعدة مادّيّة أو ماليّة غير متوقّعة، أو استُضيف فقيرٌ ظفر، في الجماعة، بالحريّة الداخليّة والشفاء.

و مع كرّ الأَيّام يتأَكّد أَعضاء الجماعة أَنّ الربّ قريب منهم، ساهرٌ عليهم بحبّ وحنان. وليس ذلك اختباراً شخصيّاً للّه، بل إِنّه اختبار جماعيّ يولّد سلاماً، ويقيناً مشرقاً، يمكّن الجماعة من مواجهة الصعاب، والمِحَن، والاحتياجات، ومواطن الضعف بسكون نفس جديد، بل يهبها الجرأة الضروريّة على المُضيّ قُدُماً عبر الإِخفاقات والآلام اليوميّة، فالتجربة قد رسّخت لديها اليقين بأَنّ اللّه حاضر وسيستجيب لابتهالها . بيد أَنّ تبيّن عمل اللّه هذا في الحياة الجماعيّة يقتضي وفاءً كبيراً .

و هذا اليقين لا يقود إِلى التراخي، أو إِلى موقفٍ قائل : " لا تقلق، فالربّ سيهتمّ بالأَمر "، بل يقتضي من الجماعة أَن تظلّ متشبّثة بجوهر دعوتها، سواء كان الصلاة، أو استضافة الأَكثر فقراً، أو الجاهزيّة لنفحات الروح . إِنّ اللّه لا يسهر على جماعة إِلاّ بقدر ما هي تجهد، بجرأة، في سبيل الوفاء لنشدان غايتها ووحدتها . والربّ لا يلبّي الاحتياجات إِلاّ

بقدر ما يعمل الأَعضاء، بل يعملون، أَحياناً، بمشقّة، في سبيل إِيجاد الحلول الحقيقيّة . وهو يتريّث، أَحياناً، إِلى أَن يستنفدوا وسائلهم البشريّة، قبل أَن يستجيب لدعائهم .

و من الأَهميّة بمكان أَن يذكر أَعضاء الجماعة، معاً، ومع القادمين الجُدد، أَفضال العناية الإِلهيّة، وأَن يتغنّوا بشكرهم لما أَنعمت به عليهم . إِنّ تاريخ الجماعة هامّ، وينبغي أَن يُعلَن، ويكرّر إِعلانه، ويُدوَّن، إِذ سرعان ما يُنسى فضل اللّه ! ينبغي التذكّر، في كلّ وقت، أَنّ اللّه هو أَصل كلّ شيء، وأَنّه هو الذي يسهر بحبّ على الجماعة؛ وهكذا تستعيد القلوب الرجاء والجرأة الضروريّتين لمواجهة مخاطر جديدة، وتحمّل المصاعب والآلام بجرأة ومثابرة .

خطر الاغتناء

في بدء عهد الجماعة، ووقت تأسيسها، يكون عمل اللّه، غالباً، ملموساً، يتجلّى من خلال هبة بيت، أو مال غير متوقّع، أو مجيء شخص في الوقت المناسب، أو علامات خارجيّة أُخرى . وتكون الجماعة، من جرّاء فقرها، معتمدة اعتماداً كلّيّاً على اللّه، تبتهل إِليه فيستجيب، وفيّة للصلاة، تعيش في اللاأمان، وتستضيف من يقرع بابها؛ تقتسم مع الفقراء، وتتّخذ جميع قراراتها بنور اللّه . وفي هذه المرحلة الأولى غالباً ما لا يفهمها المجتمع، فتوصف بالتوهّم والجنون، وقد تضطَهَد .

ثمّ، مع الزمن، يتحوّل جنونها إِلى نجاح، في نظر العالم، الذي يكتشف قيمتها وإِشعاعها، وينقلب الاضطهاد إِعجاباً، وتكتسب شهرة وجاهاً، ويصبح لها أَصدقاء يوفّرون لها ما تحتاج إِليه، وشيئاً فشيئاً، تغتني، وتشرع تصدر أَحكاماً على الغير، ويتعاظم نفوذها .

حينئذٍ يتربّص بها الخطر . فالجماعة ليست، بعدُ، فقيرة ومتواضعة، بل هي أَمست راضية عن ذاتها، وما عادت تفزع إِلى اللّه كما كانت تفعل سابقاً، ولا عادت تستغيث . فما اكتسبته من خبرة جعلها عليمة بالدرب الذي يحسن سلوكه؛ وما عادت تأخذ قراراتها بنور اللّه، وباتت صلاتها فاترة؛ وجنحت إِلى الانغلاق دون الفقير ودون اللّه الحيّ . واستبدّت بها الكبرياء . فلا بدّ لها من هزّة، ومن اجتياز مِحَنٍ جدّيّة كي تستعيد موقفها الطفوليّ واعتمادها على الربّ .

الخطيئة الأُولى التي تتعرّض لها الجماعة، هي إِشاحة أَنظارها عن اللّه لكي تحدّق في ذاتها .

و الخطيئة الثانية هي أَن تستحسن ذاتها فتظنّ أَنّها، في ذاتها، نبع حياة، فتحيد عن اللّه وتشرع تعقد تسويات مع العالم والمجتمع؛ وتكتسب شهرة، ولكنّها شهرة قصيرة الأَمد، إِذ سرعان ما يتداركها الانحطاط . إِنّ رؤية الجماعات تبتعد عن حبّها الأَوّل مبعث على الأَسى .

الخطيئة الثالثة هي خطيئة القنوط، عندما تكتشف أَنّ نبع حياتها قــد غــاض، وأَنّهــا فقيرة، تفتقد الحيويّة والطاقة الخلاّقة، فتتكمش على الحزن، وعلى ظُلمات فقرها ومواتها.

و لكنّ الربّ ما انفكّ ينتظرها كما انتظر الأَب الابن الشاطر . فعلى الجماعات التــي تخلّت عن إِلهام الربّ لكي تتكفئ على قدرتها الذاتيّة أَن تتعلّم الرجوع إِلى اللّه واستغفاره .

الفصل الخامس : أَعطِنا خبزنا اليوميّ

النموّ يستلزم تغذية

الكائن البشريّ نسيج تناقضات، فجزء منه يتطلّع إِلى النور، وإِلى اللّه، وإِلى الخدمة، في حين ينزع جزء آخر إِلى المتعة، والامتلاك، والسيطرة، والنجاح، ويلتمس مواكبة أَصدقاء يساندونه، وإِلاّ تردّى إِلى الحزن، والانهيار والعدوانيّة .

إِنّ المرء على قدرٍ من التمزّق العميق الغور، بحيث إِن هو وُجد في محيط يدفعه نحو النور والاهتمام بالآخرين، لمضى في هذا الاتّجاه . ولكن إِن هو وُجد في محيط يُزري بهذه المفاهيم، ويشحذ رغبات السلطة والمتعة، فهو يعكس صورة هذا المحيط . وطالما لم تكن دوافعه العميقة محدّدة بوضوح، ولم يختر شعبه ومكان نموّه، لظلّ متقلّباً، واهياً، سريع التأثّر، لا قوام له .

إِنّ ثقافة المجتمعات الغنيّة تحرّض القوم على أُسلوب عيش قائم على الرفاه والمتعة؛ ولا ريب أَنّ قِيَم الثروة، والسّلطة، والمتعة، جذّابة . أَمّا قِيَم الإِنجيل، فتدعونا إِلى الحبّ، بل إِلى حبّ أَعدائنا، وإِلى الحضور للفقراء، وإِلى العيش في الفقر، وإِلى الثقة باللّه، وإِلى أَن نكون صانعي سلام في عالم حرب . ولكي نقوى على عيش هذه القِيَم، لا بدّ لنا من طاقة جديدة، ومن منعةٍ داخليّة . هذه الطاقة، وهذه المنعة تنبعان من الروح القدس . فإِن نحن انقطعنا عن هذه الطاقة، وإِن لم نتغذّ بحياة الروح فينا، لانسلخنا عن هذه القِيَم، ولهيمنت علينا قوى أُخرى تقودنا نحو الرفاه، والأَمان، والسُّلطة، والمتعة .

في الجماعة، على كلّ فرد أَن يتغذّى في الحبّ . وإِلاّ لوجد نفسه في تعارض مع حياة الجماعة، وما تقتضيه من حبٍّ وغفران، ولأَمسى عبئاً ميتاً يجرّ الجماعة إِلى الأَسفل، ولبات ينتقد القرارات الجماعيّة، ولأَمسى جرحاً في صميم الفرح .

كذلك على الجماعة بكلّيتّها، كجسم، أَن تتغذّى أَيضاً، في الحبّ . فالفتور والرداءة لا يهدّدان الأَفراد فحسب، بل الجماعة بمجملها، التي قد تصبح أَشبه بفندق حيث كلّ نزيل يوصد بالمزلاج باب غرفته، والتي قد تغمر كلّ أَفرادها بعالَم من الحزن والفتور .

في مسيرته نحو الوحدة والقداسة، يحتاج كلّ فرد، من جرّاء غناه وتعقيده، إِلى أَنماط متعدّدة من الغذاء، وإِلاّ ظلّ قطاعٌ من كيانه مشلولاً . فثمّة أَغذية تنشّط القلب وحياة العلاقات، وأُخرى تنشّط الحياة العقليّة والفكريّة، وأُخرى طاقات السخاء والعمل؛ وأُخرى تدفع نحو نشدان اللّه، واللانهائيّ . ويتّفق أَن ينشب جوع حادّ في أَجزاء من كيان البعض، في حين تبقى أَجزاء أُخرى منه فاترة الشعور، فينمو هؤلاء الأَشخاص على غير توازن ولا وحدة .

إنّ المسيرة صوب الوحدة تسلتزم تعميقاً للحياة الشخصيّة في لقاءات سلام مع اللّه ومع الآخرين، فضلاً عن عيش حياة الجماعة كاملة، وتحمّل مسؤوليّات حيال المجتمع، والكنيسة، والكون . إنّها مسيرة متمادية تتطلّب تغذية شخصيّة وتغذية جماعيّة، تغذية القلب، والذكاء والروح، تغذية تدعّم دوافعنا العميقة، وتجدّد فينا الرجاء .

إنّ الخطر الذي يهدّد كلاًّ منّا هو العيش عند أَطراف كياننا، وعلى سطحه؛ فحيال المؤثّرات المباشرة، والأُمور الملحّة التي يتعيّن علينا القيام بها، وردود فعلنا حيال الأَشخاص، نجنح إِلى دفن كنزنا الشخصيّ في مناطق خفيّة لن ترى النور . وعندما تطفو هذه المنطقة العميقة، لسببٍ ما، إِلى سطح الوعي، أو عندما يتغلغل حَدَث خارجيّ إِلى مياهنا العميقة الساكنة، نُصيب غذاءً . فالغذاء هو كلّ ما يوقظ هذا الجانب الجوهريّ من كياننا ويجعله حاضراً لنا . إِنّه كلّ قول، وكلّ مطالعة، وكلّ لقاء، وكلّ حَدَث، وكلّ شرخ، وكلّ أَلم يُبرز لنا ما هو جوهريّ، ويوقظ أَعماق قلبنا، ويُعيد إِلينا الرجاء . ومن شأن هذه كلّها أَن تهبنا رغبة كبرى في العيش في الفقر، واللاأَمان، وفي إِيلاء اللّه ثقتنا .

إِنّ الحياة الجماعيّة تقتضي تجاوزاً للذات في كلّ لحظة . فإِن نحن افتقرنا إِلى الغذاء الروحيّ الضروريّ، انكفأنا على ذاتنا، وعلى رفاهنا، وأَماننا، أو فزعنا إِلى العمل، هاربين، وأَقمنا جدراناً حول إِحساسنا . وقد نكون، حينئذٍ مهذّبين، خاضعين للقانون، ولكنّنا سنفتقر إِلى المحبّة . ومع فقدان المحبّة، نفقد الفرح والرجاء، وإِنّه لمريع أَن نرى أُناساً يعيشون، مكتئبين، في جماعة، بلا حبّ . إِنّ عيش المجّانيّة يستلزم دائماً دافعاً قويّاً .

إِنّه لمريع أَن نرى جماعات انقلبت فنادق طلاّبيّة، حيث القُدامى أوصدوا قلوبهم، وفقدوا الشعلة الأُولى، وراحوا يزرعون الشكّ والانتقاد .

الغذاء ضروريّ للنموّ، ولكن حذارِ من السموم، فبعض الأَغذية كفيلة بالقضاء على الحياة الروحيّة، وأَحد السموم هو التيليفزيون عندما يُشاهد بلا تمييز، أو لسدّ فراغ، وانعدام ما يشغل، سواه . التليفزيون يثير المشاعر الخالية من كلّ حياة علاقة . وحتّى من يشاهده بلا اهتمام، يتأَثّر به، فيتشوّه لديه كلّ ردّ فعل ملازم لعلاقة المودّة . إِنّ التليفزيون، عموماً، يحرّض الخيال، ولكنّه لا يغذّي القلب .

و جدير بالتنويه أَنّ الضحك غذاء هامّ، فعندما تُغرق جماعة بأَكملها في الضحك حتّى تسيل منها المآقي، فهذا الضحك شافٍ ومغذٍّ، شرط أَلاّ نضحك " على "، بل أَن نضحك "مع" .

المَنّ اليوميّ

إنّ الوفاء اليوميّ يستلزم مَنّ كلّ صباح، وهو غذاء عاديّ، تافه الطعم، إنّه مَنّ الوفاء للمعاهدة، وللمسؤوليّات، وللأشياء الصغيرة؛ مَنّ اللقاءات، والصداقة، والنظرات، والبسمات التي تقول : " أُحبّك "، وتدفئ القلب .

إنّه الوفاء للمبادرات الرقيقة اليوميّة، والجهد في سبيل محبّة العدوّ والصفح عنه، وتقبّل النُظُم الجماعيّة، أي إطاعة السلطة، والتعاون معها؛ إنّه وفاء للإنصات لفقراء الجماعة، وارتضاء حياة بسيطة، لا بطولة فيها؛ وفاء لتوجيه المشاريع الشخصيّة، باستمرار، نحو صالح الجماعة بأكملها، وصالح الأشدّ فقراً، والتخلّي عن المشاريع التي لا تستهدف سوى المجد الشخصيّ .

هذا الوفاء يستند على اليقين بأنّ يسوع هو الذي دعانا إلى عقد معاهدة مع الفقراء، ومع إخوةٍ لنا وأخوات . وإن هو اختارنا ودعانا فهو سيساعدنا في مهمّاتنا اليوميّة الصغيرة. وإن نحن تقبّلنا المسؤوليّات اليوميّة بقلب متواضع، واثق، لجاءنا بعونه .

إنّها لضرورة مطلقة، لكلّ فرد، أن يجد غذاءه في المهمّات اليوميّة؛ فإن أمست البُنى الجماعيّة والاجتماعات ترهقه، سادتها التوتّرات وروح السيطرة، فلا ريب أنّ ثمّة خَلَلاً في الجماعة أو لدى الفرد . فهيكليّات العمل، واللقاءات، والاجتماعات ينبغي أن تكون مصدر غذاء .

لن يغذّينا المَنّ اليوميّ إلاّ عندما نكتشف حكمة اللحظة الراهنة، وحضور اللّه في الأشياء الصغيرة، وعندما نقلع عن مصارعة الواقع، ونستسلم له، مكتشفين رسالة عطاء اللحظة الراهنة . حينئذٍ، نرى الجمال المحيق بنا، وتعترينا الدهشة . إنّ من يضطلع بأعمال التنظيف أو الطهو، على أنّها سخرة مفروضة، يصاب بالتعب والعُصاب . ولكن إن رأينا فيها مهمّة اللحظة الحاضرة المطلوبة منّا، والتي من خلال وضاعتها نعيش مع اللّه ومع إخوتنا، لهيمن السلام على قلوبنا، ولأقلعنا عن الهروب، وأعطينا ذواتنا فرصة للعيش بلا ضغط ولا استعجال، إذ إنّنا نكتشف في لحظات الاجتماعات، واللقاءات المختلفة، والمهامّ اليدويّة، والاستقبال، هبةً من اللّه، ونعمة .

أجل، فالنلتمسْ، كلّ يوم، الغذاء الضروريّ، لكي تظلّ قلوبنا متيقّظة على مشيئة الآب، وعلى محبّة إخوتنا وأخواتنا .

الكلام وسيلة منيعة لتفجير رجاء جديد، إنّه يحطّم الأغلال والعادات ويتيح لسواقي الماء الحيّ أن تتدفّق . إنّه غذاء يعيد القوّة والطاقة . ولكن ليس أيّ كلام يفعل ذلك، بل الكلام المقصود هو الذي يمسّ شغاف القلب، هو كلام لا يكون مجرّداً، ولا يأتي من الكتب، ولا يخاطب العقل، بل كلام يعلن إيمان المتكلّم، ورجاءه، وحبّه . وحينئذٍ يصبح الكلام جذوة تبثّ الدفء، أو ماءً يروي أرضاً قاحلة، ويتيح للحياة أن تزدهر . والمهمّ في أيّ قول، ليس منطقه، ولا إحكام حجّته، بل ما ينطوي عليه من إيمانٍ ومحبّة . إنّ نبرة الصوت هي التي توضح بغية المتكلّم : هل هو يبتغي أن يتألّق ويثبت معارفه، أو يتوخّى أن يوفّر غذاء، وأن يهب مجّاناً ما تلقّاه وعاشه مجّاناً، وأن يشهد له . الكلام المغذّي هو الذي يأتي ممّن يدع اللّه يتكلّم عبر شفتيه . وحينئذٍ يتفجّر الكلام من مناطق الكيان الخفيّة الصامتة حيث يعمل اللّه، من أجل تغذية الآخرين في المناطق الخفيّة والصامتة من كيانهم .

على الكلام أن يتفجّر من الصمت والسلام ويقود إلى الصمت والسلام؛ ويبعث الدعوة بعثاً جديداً، ويذكّر القلوب والأذهان بغايات الجماعة وجوهرها .

إنّ الكلمات والوقائع الأكثر إغراقاً في البساطة، والألفاظ المتّسمة بالتواضع، والصدق، والمحبّة، هي التي تؤثّر . أمّا المواعظ الحافلة بالأفكار المعقّدة، فلا تغذّي القلوب؛ إنّها تنبع من الدماغ، وتظلّ عقيمة .إنّ أعضاء الجماعة يحتاجون إلى شهود الإنجيل، الذين يتحدّثون عمّا يعيشون، ويقتسمون رجاءهم، مثلما يقتسمون أوهانهم ومصاعبهم .

و لا يتساوى سماع كلمة حيّة نابعة من قلب إنسان، ومطالعة نفس الموضوع في كتاب . فعندما نصغي إلى شخصٍ ينساب إلينا حياة وروح، ويستخدم الربّ هذا الكلام لمنح الحياة . فعلى من يكرزون أن يذكروا أنّهم ليسوا مدعوّين إلى إبراز خواطر جيّدة، بل إلى إبلاغ الحياة، وإعلان التواصل .

إنّ كلام اللّه، كلام الإنجيل، كلام يسوع خبز حياة ينبغي تناوله، وأكله، وتمثّله، لأنّه يقودنا إلى الجوهريّ .

و الجماعات، خاصّة، تحتاج إلى الكلمة الدافئة الملهمة التي تحيي الرجاء، وتضرم الرغبة في السير بعكس تيّار المجتمع، فعلى مسؤولي الجماعات ألاّ يكفّوا عن تذكير أعضائها برؤيتها الخاصّة ودعوتها الإلهيّة . وعلى المرشدين، بل على كلّ عضو أن يذكّر بذلك . على الجميع أن يذكّروا بعضهم بعضاً، صباحَ مساءَ، بكلماتٍ تتدفّق اندفاعاً ومحبّة، وإلاّ لنهجت الجماعات نهج العالم : أي التماس الأمان، والنأي عن روح التطويبات، ورفض مسامحة الأعداء . فمن جرّاء التطوّر الطارئ، وعوامل شتّى، تذهل الجماعات عن الجوهريّ، الذي

تحجبه آلاف النشاطات، بحيث ينسى الأَعضاء سبب وجودهم معاً، وما يبتغون الشهادة له، فيختصمون حول الجزئيّات ويتجاهلون ما يجمعهم .

الاسترخاء والراحة

كثيراً ما أَسمع عن أَشخاص اندفعوا في العمل الاجتماعيّ، وفي الحياة الجماعيّة، وسرعان ما " احترقوا " أو " استُنفدوا " . لقد أمعنوا في السخاء، واندفعوا إِلى نشاط مفرط أَفضى إِلى تدمير إِحساسهم العميق، لأَنّهم لم يحسنوا الاسترخاء وتجديد الطاقات .

كثيرون " يحترقون " على هذا النحو، ربّما لأَنّهم يرفضون، في لا وعيهم، الحاجة إِلى الاسترخاء، وإِلى تنظيم إِيقاع حياة متناغم . وما إِفراطهم في النشاط سوى هروب من أَمرٍ ما، أَحياناً بدافع شعور بالذنب عميق ولا واعٍ، أو لعدم رغبتهم في التجذّر في الجماعة والمكوث فيها طويلاً؛ أو بسبب تعلّقهم المفرط بوظيفتهم وتماهيهم بها، بحيث يحرصون على مراقبة كلّ شيء، وربّما يرغبون في الظهور بمظهر الكمال، أَو أَقلّه، بمظهر البطولة. إِنّهم لم يتعلّموا، بعد، أُسلوب العيش، ولم يظفروا، بعد، بالحرّيّة الداخليّة؛ ولم يكتشفوا حكمة اللحظة الراهنة، التي غالباً ما تدفع إِلى قول "لا "

إِنّهم يحتاجون إِلى مرشد روحيّ يساعدهم على النظر في أَعماقهم لتبيّن سبب افتقارهم إِلى حرّيّةٍ كافية كفيلة بحملهم على التوقّف، ولاستجلاء سرّ حاجتهم التي لا تقاوم إِلى فعل أَشياء . إِنّهم يحتاجون إِلى من يساعدهم على التراجع، والاسترخاء بالقدر الكافي بحيث يستجلون حقيقة دوافعهم، ويكونون أَشخاصاً يعيشون مع أَشخاصٍ آخرين، وأَولاداً يعيشون مع أَولاد آخرين .

يبدو لي، أَحياناً، أَنّ " المفرطي النشاط " يهربون من حاجتهم إِلى التواصل والمحبّة، ومن هشاشتهم، وربّما من قلقهم واضطرابهم، ومن حياتهم العاطفيّة والجنسيّة . فلا بدّ لهم من استقراء حاجاتهم العميقة، والعثور على الطفل فيهم الذي ينتحب، من جرّاء شعوره بالوحدة؛ ولا بدّ لهم من استرخاء الجسد، وبقدرٍ أَكبر، من استرخاء القلب، ومن العلاقات المطمئنّة الخالية من الأَخطار .

كثيرون يظلّون متوتّرين لأَنّهم لم يندمجوا في وجدان الجماعة المشترك، ولم يستسلموا، بعدُ، لعطيّة الجماعة ودعوتها، ولم يجتازوا، بعدُ، من "الجماعة من أَجلي" إِلى "أَنا من أَجل الجماعة"، ربّما لأَنّ هشاشتهم تدفعهم إِلى إِثبات شيءٍ ما لأَنفسهم وللآخرين، ولأَنّهم، في قرارة ذاتهم، إِنّما اتّخذوا الجماعة ملجأً . إِنّهم لن يعهدوا الاسترخاء حتّى يعثروا على

موهبتهم الخاصّة ويضعوها، بكاملها، في خدمة الجماعة، وحتّى يرتضوا، حقّاً، أَن ينسلخوا عن فرديّتهم، وينتموا إِلى الجماعة .

إِنّ الراحة هي أَحد أَهمّ مصادر تجدّد الطاقة، وعلى كلّ فردٍ أَن يجد وتيرة استرخائه وراحته الخاصّة . فالكثير من مظاهر العدوانيّة ومن الخصامات يعود لأَسبابٍ جسديّة . ولا بدّ لكل امرئ أَن يكون صبوراً مع جسده، وأَن يعرف كيف يجدّد طاقاته، ويوفّر له الراحة .

ليس من السهل إِيجاد التناغم بين الراحة والاسترخاء والطعام من جانب، ومن جانب آخر سخاء البذل والجاهزيّة . ووحده الروح القُدُس يستطيع أَن يعلّمنا أَن نحبّ أَنفسنا، بالقدر الكافي، بحيث نكون قادرين على بذل حياتنا بالكامل . فإِن لم نكن في أَفضل حال، فرحين، وإِن لم ننل الغذاء الكافي، لن نقوى على منح الآخرين الحياة، بل سنمنحهم الحزن والفراغ .

في مرحلة الشباب يحتاج المرء إِلى القيام بأَعمال جمّة، حتّى من أَجل يسوع وملكوت اللّه . فهو يتدفّق حياة وطاقات . وقد يتعرّض للاستغراق في العمل، ولادّعاء المسؤوليّة الجسيمة، والظهور بمظهر منقذ العالم . أَنا نفسي تعرَّضت دائماً لهذا الخطر . وفي عام 1976 اعترض جسدي، واعتلّ، ومكثت شهرين في مشفى . وكان هذا المرض منعطفاً في حياتي، أَعادني إِلى تربة جسدي، وعلّمني الحدّ من اندفاعي، والإِنصات، أَكثر من الكلام والعمل، وعلّمني الاسترخاء في التواصل أَكثر من السعي إِلى تحقيق مشاريع .

و بقدر ما تكون الحياة الجماعيّة كثيفة وشاقّة، وتتفاقم التوتّرات والصراعات، بالقدر نفسه تصبح فترات الاسترخاء لا غنى عنها . وكلّما شعر الفرد بالعُصاب، والتوتّر، وبالعجز عن الصلاة والإِنصات، ففي ذلك دليل على وجوب ابتعاده، أَقلّه بضعة أَيّام، للاسترخاء .

و لكنّ البعض لا يعرفون كيف يشغلون وقتهم الحرّ، فينفقون ساعات طويلة في المقهى أَو في نقاش لا طائل تحته . إِنّه لمدعاة أَسف أَلاّ يكون للمرء أَيّ اهتمام خارج الجماعة، وأَن يقلع عن المطالعة، وعن الاضطلاع بنشاطات بسيطة (كالنزهة، وسماع الموسيقى، إِلخ ..) . فلا بدّ لنا من التعاون على أَن تكون لنا اهتمامات شخصيّة تمكّننا من الاسترخاء .

إِنّه لمن السهل ممارسة السخاء طيلة أَشهر أَو بضع سنوات . ولكن لكي يكون المرء حاضراً للآخرين باستمرار، بل لكي يكون لهم غذاءً، ولكي يصمد في وفاءٍ يتجدّد كلّ صباح، لا بدّ من نظام يضبط الجسد والروح، ويضبط أَيضاً الغذاء الروحيّ، والصلاة، والتجدّد الفكريّ .

الصديق

عنصرٌ أَساسيّ من عناصر تجدّد الطاقات هو التقاء صديق حقيقيّ يمكننا أَن نبوح له بكلّ شيء، ونحن واثقون من أَنّه سيُصغي، ويشجّع، ويدعم، بفعل محبّة أَو بكلمة عطف. وعندما تكون الصداقة حثّاً على الوفاء، فهي أَجمل الوقائع، وكان أَرسطو قد قال أَنّها زهرة الفضيلة، ومجّانيّة الزهرة .

في الأَيّام القاتمة نحتاج إِلى صديقٍ نلتمس عنده العزاء، وفي ساعات الانهيار والإِحباط، من شأن رسالة من صديق بعيد أَن تعيد إِلى نفوسنا السلام والثقة . إِنّ الصديق ملجأ أَمان، والروح القدس يستخدم الأَشياء الصغيرة في سبيل توفير الراحة والدعم .

إِنّ بعض المساعدين في " السفينة "، عندما يستولي عليهم التعب يؤنسون حاجة إِلى التحدّث، والتحدّث، والتحدّث . يحتاجون إِلى أُذن صديق تُصغي وتتلقّى أَكواماً من البوح والآلام والهواجس؛ ولن يعهدوا الراحة حتّى يتحرّروا بعد أَن يكونوا قد أَلقوا بكلّ شيء بين يدي صديق .

إِنّ شعورنا بأَنّنا محبوبون ومقدّرون حقّ قدرنا، ومحاطون بالثقة والمودّة، يغذّينا في أَعماق قلبنا . والتغذّي بحبّ الآخرين دعوة إِلى أَن نصبح، نحن أَنفسنا، غذاءً لمن يتألّمون، ويعانون الوحدة والضيق . وهكذا نتعلّم أَن نصبح للغير طعاماً .

لا نخشينّ أَن نحبّ وأَن نقول للناس أَنّنا نحبّهم، ففي ذلك أَهمّ مصدر لتجديد الطاقات الشخصيّة .

نظرة الفقير

قد يكون أَعظم مصدر لتجديد الطاقات بادرة رقّة وتعاطف صغيرة من قبل إِنسان ضعيف . فغالباً ما تسهم نظرة الإِنسان الأَشدّ فقراً في بعث الطمأنينة في نفسنا، وتمسّ شغاف قلبنا، وتذكّرنا بالجوهريّ

ذات يوم رافقتُ أَخوات الأمّ تيريزا إِلى أَكواخ بنغالور لمساعدتهنّ على معالجة البُرْص، الذين كانت قروحهم المتفسّخة تبعث روائح كريهة، وكان كلّ شيءٍ فيهم، بشريّاً، منفّراً، غير أَنّ عيونهم كانت متأَلّقة بالنور . لم يكن بوسعي أَن أَفعل أَكثر من إِمساك الأَدوات التي كانت تستخدمها الأَخوات، ومع ذلك كنت أَحبّ أَن أَكون هناك، فأَنظار البرص وبسماتهم كانت تنفذ إِلى أَعماقي وتجدّدني . وعندما غادرت، كان قلبي يخفق بما وهبوني من فرح لا يوصف .

و ما زلت أذكر سهرة قضيتها في سجن كالجاري، بكندا، حيث أنفقت ثلاث ساعات مع رجالٍ محكومين بأكثر من إحدى وعشرين سنة، عن جرائم قتل . أولئك الرجال أثّروا فيّ أبلغ أثر، ولمّا غادرتهم كنت متجدّد الفكر، فقد غيّروا في داخلي شيئاً .

إنّ بسمة الثقة التي يواجهني بها أشخاص بالغو الوهَن والهشاشة، تحوّل قلبي، وتُسيل طاقات حياة جديدة في أغوار كياني، ولكأنّها تحطّم بعض الحواجز، وبالتالي توفّر حرّيّة جديدة . إنّها تحاكي نظرة الطفل أو بسمته، التي يعجز أقسى قلب عن مقاومتها . إنّ الاتّصال بالأشد وهناً، الذي يجأر بعطشه إلى التواصل هو من أغذية الحياة الأكثر جوهريّة . فإذا ما أتحنا لنعمة حضوره أن تتغلغل فينا، أودعت في قلبنا شيئاً ثميناً .

فإن نحن اقتصرنا على " عمل " شيء من أجل المحتاج، أبقينا حاجز التفوّق لدينا قائماً. ومن ثمّ علينا أن نفتح أيدينا لتقبّل عطيّة الفقير .

إنّ الفقير هو دائماً نبويّ، فهو يكشف لنا مرامي الربّ . وما مهمّة الأنبياء الحقيقيّين سوى إبراز دور الفقير النبويّ . ولذلك علينا أن نجهد في الإصغاء إلى الفقراء، وهذا يقتضي منّا أن نكون قريبين منهم، فهم يتكلّمون بصوت منخفض، ولا يتكلّمون إلاّ في مناسبات نادرة، لأنّهم يخشون التعبير عن ذاتهم، ويفتقرون إلى الثقة في أنفسهم بسبب ما طالما عانوا من ظلم وسحق . وإذا ما أصغينا إليهم، فهم يضعوننا حيال الجوهريّ . " إنّهم يجعلوننا نعي عجزنا وجهلنا الذاتيّين، فنُشرع نفسنا لنتقبّل، من خلال حياة الفقير، تثقيفاً عميقاً يهبنا إيّاه الربّ نفسه . أجل إنّ الربّ يتكلّم عبر تلك الوجوه القاسية، والحيوات المدمّرة؛ وإذا بوجهٍ جديد للمسيح يتجلّى من خلال الفقراء "

إنّ الجماعات التي تنغلق دون الفقراء، تنغلق دون اللّه ... على كلّ مسيحيّ أن يكون معنيّاً بفقراء العالم ومجروحيه، وأن يكون قريباً من الفقراء القريبين منه ... إنّ كلّ تلميذ ليسوع مدعوّ إلى التعاطف مع الفقراء والمجروحين وإلى السير معهم، والصلاة من أجلهم. فمن المتعذّر أن نأكل جسد المسيح المكسور في الإفخارستيّا، وشرب دمه الذي سُكب تحت العذاب، من غير أن نفتح قلبنا للأشخاص المحطّمين والمصلوبين، في عالمنا، اليوم .

و نحن، في "السفينة"، إن انقطعنا عن العيش مع الفقراء والمجروحين، وإن لم نحتفل معهم بالحياة، سنموت كجماعة، وسننقطع عن نبع الحياة المتدفّق من حضور يسوع فيهم . إنّهم، كلّ يوم، يغذّوننا ويشفون جراحنا، ويجتذبون لنا النور والحبّ . ولكن إن نحن انقطعنا عن جسد المسيح المكسور في الإفخارستيّا وفي الصلاة، فلن نرى فيهم معين حياة وحضور المسيح، وسنموت روحيّاً .

الصلاة الشخصيّة

إنّ العيش في جماعة حافلة بالمهامّ اليوميّة الشاقّة، يحتّم فترات ابتعاد وخلوة في سبيل الصلاة، والتقاء اللّه في الصمت والراحة . وإلاّ باتت " قاطرة " النشاط عاجزة عن التوقّف، وغدت مثل دجاجة مجنونة . لا بدّ من فترة عزلة، فترة وحدة مع الآب، ووحدة مع يسوع . إنّ الصلاة هي موقف ثقة في أبينا السماوي، ونشدان إرادته، والسعي لأن نكون للإخوة والأخوات وجه حبّ . وعلى كلّ منّا أن يحسن الراحة والاسترخاء في الصمت والتأمّل، وفي نجوى قلب لقلب مع الربّ .

قال كارلو كارّيتّو : " لا تظنّ أنّ خلوة مؤقّتة تضرّ بالجماعة، وأنّ تعاظم حبّك الشخصيّ للّه من شأنه إضعاف حبّك لجارك، بل، على نقيض ذلك، إنّه يضاعفه "

أحياناً، عندما أكون وحيداً، يولد نور في أعماق كياني، مثل جرح سلام يعيش فيه يسوع . في هذا الجرح، ومن خلاله، ألتقي الآخرين بلا حواجز، في منأى عن المخاوف والعدوانيّة التي تقطنني أحياناً، وفي معزل عن استحالة الحوار، وأمواج الأنانيّة، والحاجة إلى إثبات أمرٍ ما . وحينئذٍ أستطيع أن أُقيم في حضور يسوع، وفي حضور إخوتي وأخواتي غير المنظور . وفي كلّ يوم، أكتشف، أكثر فأكثر، ضرورة أوقات الوحدة هذه من أجل التقاء الآخرين لقاءً أوفر صدقاً، ولكي أستوعب، في نور اللّه، مواطن وهني وجهلي، وأنانيّتي ومخاوفي . إنّ الوحدة لا تعزلني عن الآخرين بل هي تساعدني على محبّتهم بمقدار أكبر من الرقّة، والواقعيّة، والإصغاء . وحينئذٍ أشرع أميّز بين الوحدة الزائفة التي هي هروب من الآخرين، للانفراد بالذات في نوعٍ من الأنانيّة والحزن، والمشاعر المجروحة، من جانب، والوحدة الحقّة التي هي تواصل مع اللّه ومع الآخرين، من جانب آخر .

و على كلٍّ منّا أن يعثر على وقع صلاته الخاصّ، الذي قد يكون ساعات طويلة للبعض، ولآخرين دقائق معدودة تتكرّر حيناً بعد حين، على أن تكون، للجميع، تيقّظاً لحضور اللّه، ولمرضاته، سحابة النهار . وقد يحتاج البعض إلى ما يحرّض قلبهم من كلام اللّه، وتلاوة " أبانا "، ويحتاج آخرون إلى ترداد اسم يسوع أو اسم مريم . إنّ الصلاة مثل بستان سرّيّ، قوامه الصمت، والحياة الداخليّة، والاسترخاء، ولكن لهذا البستان ألف باب، وعلى كلّ فرد أن يكتشف بابه الخاصّ .

إن لم نصلّ، ولم نُقيّم نشاطاتنا وحياتنا، وإن لم نجد الراحة في سرّ قلبنا حيث يقيم الربّ الأزليّ، لشقّت علينا حياة الجماعة، ولتعذّرت علينا الجاهزيّة تجاه الآخرين، ولعجزنا عن أن نكون صانعي سلام، ولاقتصرنا على مؤثّرات اللحظة الحاضرة، ولذهلنا عن أولويّاتنا، وإحساسنا بالجوهريّ .

الصلاة هي تسليم كلّ كياننا للربّ، وإيلاؤه دفّة وجودنا، وثقتنا .

إنّها لقاء يغذّي أعماق حياتنا العاطفيّة؛ إنّها حضور وتواصل . إنّ سرّ كياننا يكمن في قبلة اللّه هذه التي تبعث فينا شعوراً بمحبّته وغفرانه . في أغوار كياننا، وفي ما يتخطّى طاقاتنا على العمل والتفاهم، يقبع فينا قلبٌ معرَّض للعطب، ويرقد الطفل الذي يحبّ، ويخاف من الحبّ . والصلاة الصامتة تغذّي هذه المناطق العميقة، غذاءً جوهريّاً لكلّ من يعيش في جماعة، لأنّه الغذاء الأكثر سرّيّة وشخصيّة .

خطران يهدّدان الجماعة؛ فبعض الأعضاء، بغية توفير الحماية لأنفسهم، يشيدون من حولهم جدراناً (بحجّة اتّحادهم باللّه، أو بحجّة صحّتهم وحياتهم الخاصّة)، وآخرون يندفعون اندفاعاً جامحاً في لقاءات مع أشخاص آخرين، يسهبون في الإفصاح عن مشاعرهم بحجّة التبادل والمشاركة . وهكذا يجنح أفراد الفئة الأولى إلى العيش من أجل ذواتهم، في وحدة زائفة، في حين يصبح أفراد الفئة الأخرى شديدي التبعيّة للآخرين، ولا وجود لهم في ذواتهم . إنّ التوازن بين الوحدة والجماعة عسير التحقيق .

على من يبتغي عيش الجماعة عيشاً كاملاً أن يثبت، أوّلاً، وجوده، وأن يعرف الوقوف منتصباً، على قدميه، وأن يكون قادراً على الحبّ . فالجماعة ليست ملجأ بل منطلقاً. فكما أنّ من يتزوّج فقط لأنّه في حاجة إلى الزواج يتعرّض للمصاعب، بل عليه أن يتزوّج لأنّه يحبّ شخصاً آخر ويودّ أن يعيش معه، ويسير معه مدى الحياة، ويسعده، كذلك على من ينتسب إلى جماعة عليه أن يفعل ذلك استجابة لنداء اللّه، لكي يكون ما يجب أن يكون، ويعيش مع آخرين، ويشاركهم البناء . ولكنّ ذلك يقتضي أن تكون لكل فرد جذوره .

إنّ النموّ، إنسانيّاً، واكتساب المزيد من الحرّيّة الداخليّة، يحتاجان، معاً، إلى المشاركة والصلاة الجماعيّة، وأيضاً إلى وقت وحدة، وتفكير، وتعمّق داخليّ، وصلاة شخصيّة .

إنّ العزلة ضروريّة، جوهريّاً، للحياة الجماعيّة، إذ أنّنا، في فترات العزلة نستطيع أن نكون أشدّ قرباً بعضنا من بعض، فيكتشف أحدنا الآخر اكتشافاً جديداً، يتعذّر بلوغه، بل يستحيل مع الحضور المادّيّ، ونتبيّن أنّ فيما بيننا علاقات لا تعتمد على أقوالنا، وأفعالنا، بل هي أعمق وأمتن من العلاقات التي نستطيع خلقها بجهودنا الخاصّة .

إنّ الحياة الجماعيّة تستلزم التحلّي بموقف ولد يستسلم، مدركاً أنّه لا يتعدّى كونه جزءاً صغيراً من العالم، وأنّه، حيث هو، مدعوّ للعيش في العطاء والتضحية . وهذا يقتضي ثقة مطلقة باللّه، وبحثاً مستمرّاً عن مشيئته ومراميه . ومن فقد قلب الطفل الساعي إلى أن يكون أداة سلم ووحدة تلمّ شمل الجميع، ثبطت عزيمته وابتغى إثبات ذاته، وفي كلتا النزعتين دمار للجماعة .

ما السبيل إلى تغذية قلب الطفل هذا ؟ إنّ الحبّ لا يتغذّى إلاّ بالحبّ، ولا يسع المرء أن يتعلّم الحبّ إلاّ بالحبّ، حقّاً . فحالما يستقرّ سرطان الأَنانيّة سرعان ما ينتشر من ثنايا النشاطات اليوميّة . أَمّا عندما ينمو الحبّ، وهو تضحية وعطاء وتواصل، فهو يتغلغل إِلى اللسان، والأَفعال، والجسد .

إِنّ قلب الطفل يتغذّى بمقدار ما يظلّ وفيّاً لقلب اللّه؛ فما الصلاة سوى طفل يتكوّر بين ذراعيْ أَبيه، ويستكين، ويقول " نعم "

و هذا القلب يتغذّى بقدر ما يظلّ وفيّاً للأَشدّ فقراً، ويصغي إِليهم، ويتيح لحضورهم النبويّ إِزعاجه .

و هو يتغذّى بقدر ما يبقى وفيّاً لوجدان الجماعة، وبُناها، ولا يكفّ يكرّر قول "نعم"، صبوراً ومحبّاً، للجماعة .

أَحياناً، عندما أُصلّي، مستكيناً قرب يسوع، وفيه، يوافي إِلى قلبي أَخ أَو أُخت، ولكنّهما لا يشردان بقلبي عن يسوع، بل يمثلان فيه إِيقونة تكشف لي حبّه بجلاء، وتدخلني إِلى قلب الثالوث، وهناك نعيش معاً نشوة حبّ .

إِنّ آلامنا ومشاقّنا قد تصبح غذاءً سرّيّاً، وهي، على غرار فقرنا وعجزنا، قد تغدو سرّاً قدسيّاً، ومسكناً لله . فعندما ننجح، في كلّ مجال، ويُخيَّل إِلينا أَنّنا ارتقينا إِلى قمّة سلّم العالم، يسهل علينا العزوف عن اللّه، والانصراف عنه . أَمّا عندما نتأَلّم فإِنّنا نصرخ نحوه، فيجيبنا : " ها أَنذا " . إِنّ، في الأَلم، حضوراً للّه يغذّي أَعمق ما فينا .

كيف نصبح خبزاً

البعض لا يتبيّنون أَيّ غذاءٍ يسعهم تقديمه، ولا يدركون أَنّهم يستطيعون، هم أَنفسهم، أَن يمسوا للآخرين خبزاً؛ ولا يؤمنون بأَنّ أَقوالهم، وبسمتهم، وكيانهم، وصَلاتهم، كفيلة بتغذية الآخرين ومنحهم الثقة . إِنّ يسوع يدعونا إِلى بذل حياتنا في سبيل من نحبّ . ونحن بتناولنا الخبز الذي تحوّل إِلى جسده نصبح للآخرين خبزاً .

و يكتشف بعضنا قدرة عجيبة على منح الغذاء من سلّة فارغة، على نحو ما أَجرى يسوع معجزة تكثير الخبز . فأَنا أُدهش، دائماً، من قدرتي على إِعطاء كلمة مغذّية، مع ما يستحوذ عليّ من شعور بفراغي الداخليّ، ومن قدرتي على نشر السلام، مع ما يستولي عليّ من اضطراب . هذه العجائب هي من عمل اللّه وحده .

ثمّة من يناصبون جماعتهم العداء، ويُنحون باللائمة على رداءتها، مثل أَولاد يلومون آباءهم عن كلّ شيء؛ إِنّهم يفتقرون إِلى النضج، والحرّيّة الداخليّة، وخصوصاً إِلى الثقة بأَنفسهم، وبيسوع، وبإِخوتهم وأَخواتهم؛ ويمنعهم تخيّلهم للغذاء الروحيّ الذي يدّعون الاحتياج إِليه من تناول الطعام الذي يوفّره لهم الربّ يوميّاً عبر ما يقدّمه لهم الفقير، أَخاً كان أَم أُختاً، من خلال نظرة أَو صداقة أَو كلمة .

إِنّ من غابت عنه رؤية الجماعة الأَصيلة، ونأى عن الوفاء، لن يتغذّى مهما أَكل، وتناول أَطعمة روحيّة . فلا بدّ من التحوّل النفسيّ، ومن العودة إِلى روح الطفولة، وإِلى دعوة الجماعة الأَصيلة . عندما نشرع نرتاب في هذه الدعوة، تنتشر هذه الريبة انتشار سرطان كفيل بالتهام الجسد بأَكمله . فعلينا أَن نجد السبيل إِلى التغذّي بثقتنا في هذه الدعوة .

الصلاة الجماعيّة، والإِفخارستيّا

الصلاة الجماعيّة غذاء على جانبٍ كبير من الأَهمّيّة . فالجماعة التي يصلّي أَعضاؤها معاً، ويدخلون معاً محراب الصمت والعبادة تلتحم بفعل الروح القدس .

غالباً ما تكفّ الجماعة عن الابتهال إِلى اللّه، لأَنّها ما عادت تسمع صيحات الفقراء، ولأَنّها راضية عن ذاتها، بعد أَن عثرت على نمط عيش لا ينطوي على الكثير من اللاأَمان . فقط عندما نشهد ضيق قومنا وبؤسه، وانسحاقه وآلامه، وجوعه، وفي الآن عينه نلحظ عجزنا، نصرخ بلجاجة : " لا يسعك، يا ربّ، أَن تصمّ أُذنيك عن صيحة شعبك، فأَصغِ إِلى دعائنا " . عندما تعقد الجماعة معاهدة مع الفقراء، تصبح صيحاتهم صيحتها .

على الجماعة أَن تكون علامة قيامة . غير أَنّ جماعة منقسمة يمضي كلٌّ من أَعضائها في سبيله، معنيّاً فقط بما يرضيه ويحقّق مشروعه الخاصّ، غير شاعر بأَيّ عطف تجاه الآخر، هذه الجماعة تصبح شهادة مضادّة .

هناك غذاء آخر يجمع بين الغذاء الجماعيّ والغذاء الشخصيّ، لأَنّه كلاهما معاً، وهو الإِفخارستيّا . فالإِفخارستيّا هي احتفال، بل هي العيد الجماعيّ المميّز، لأَنّها تجعلنا نعيش مجدّداً سرّ يسوع الذي وهب حياته من أَجلنا، ولأَنّها فعل شكر الجماعة كلّها، ولذلك يقول الكاهن، إِثر التكريس : " بعد أَن نتغذّى بجسدك ودمك، ونمتلئ بالروح القدس، أَعطِنا أَن نكون جسداً واحداً، وروحاً واحداً في المسيح"، وبذلك ننفذ إِلى صميم سرّ الجماعة.

و الإفخارستيّا، أَيضاً، هي لحظة حميمة يتحوَّل فيها كلٌّ منّا بفعل لقائه الحميم بيسوع: "من يأكل جسدي ويشرب دمي يقيم فيّ وأُقيم أنا فيه"

فقط عندما نأكل جسد المسيح " المبذول من أَجلنا "، نستطيع أَن نبذل ذواتنا للآخرين . ووحده الربّ يستطيع أَن يبتكر واقعاً مثل هذا .

إِنّني، في" السفينة "، شديد الحساسيّة لواقع الجسد . فكثيرون من الذين استضفناهم لا يقوون على الكلام، ولكنّ جميعهم يعبّرون عن حبّهم وعن خوفهم من خلال أَجسادهم . إِنّ الجسد أَكثر جوهريّة من الكلام، وجسد المسيح أَكثر جوهريّة من كلامه . كثيرون من المعاقين لا يستطيعون إِدراك أَقواله، ولكنّهم يستطيعون ا طّعام جسده . ويبدو أَنّ لديهم فهماً عميقاً لما يعني التواصل؛ ولأَنّهم يعيشون من التواصل بين الأَشخاص، فهم على أَتمّ أُهبة للتواصل مع المسيح .

عندما تحتفل الجماعة بالإفخارستيّا، يجمع الأَعضاءَ تواصلٌ متبادل، فيقدّمون ذواتهم للآب مع ابنه يسوع، وبه، لكي تصبح الجماعة كلّها موئلاً لحضور الملكوت على الأَرض، ومعين حياة في حبّ الروح القدس .

إِنّ الاحتفال بجسد المسيح وبالإفخارستيّا رموزٌ وإِشارات مجدية لخلق التواصل .

بيد أَنّ الأَناجيل وكتابات القدّيسين عبر العصور تظهر بجلاء أَنّ للكنيسة قطبين : ***جسد المسيح*** و***الفقراء*** . لقد صار يسوع فقيراً وأَعلن أَنّه والفقراء واحد . إِنّ جسد المسيح المكسور، في الإفخارستيّا، لا يُعاش حقّاً إِلاّ في ترابط وثيق مع أَجساد الفقراء وقلوبهم الكسيرة؛ وأَجساد الفقراء وقلوبهم الكسيرة هذه تجد معناها في جسد المسيح الكسير . إِنّ بينهما من الترابط ما جعل القدّيس يوحنّا، في إِنجيله، ينصرف عن ذكر الإفخارستيّا، في أَثناء العشاء الأَخير، ويقتصر على ذكر غسل الأَرجل . إِنّ غسل أَرجل الفقير هو إِفخارستيّا حقّة .

الفصل السادس : موهبة السُّلطة

السُّلطة

لا يمكن فهم دور السُّلطة في الجماعة إلاّ إذا اعتُبرت هبةً ومهمّة، بين هبات ومهمّات كثيرة أُخرى ضروريّة لبناء الجماعة . لا ريب أنّ للسُّلطة أهميّة كبرى، فبطريقة ممارستها تتعلّق سلامة الجماعة ونموّها . ولكن لا بدّ من التنويه بأَنّ الرئيس في الجماعة لا يملك كلّ الأَنوار؛ بل إِنّ دوره يتمثّل في مساعدة كلّ عضو على أَن يكون ذاته، وفي أن يستغلّ مواهبه الخاصّة لصالح الجميع . ولا يسع الجماعة أَن تكون جسداً واحداً متناغماً ومتّحداً في حياة واحدة، " بقلب واحد، وروح واحد، وفكر واحد "، إلاّ إذا عاش كلّ فرد مليّاً .

على كلّ مسؤول، إِذن، أَن يمارس سُلطته بطريقة مسيحيّة وجماعيّة .

إِنّ السُّلطة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنموّ، وما أَبعد هذا المفهوم عمّا يراه الناس في من يتولّى السُّلطة، وكأنّه مجرّد حارس للشريعة، يعاقب ويمنع النموّ نحو الحرّيّة والازدهار ! فعلى من يتولّى السُّلطة أَن يشعر، حقّاً، بمسؤوليّته عن الآخرين وعن نموّهم، مدركاً أَنّ "الآخرين" ليسوا ملكه، وليسوا أَشياء، بل هم أَشخاص لهم قلب، ويسكن فيهم نور اللّه، وهم مدعوّون إِلى النموّ في حرّيّة الحقيقة والحبّ . إِنّ الخطر الأَكبر الذي قد يتعرّض له من يملك السُّلطة هو التحكّم بالناس واستخدامهم لأَغراضه الخاصَّة، ولتسلُّطه

لدى الكثيرين مفهوم غريب عن السلطة، فهم يخشونها، ويتوجّسون خوفاً من تولّيها، ولكأنّها منقطعة عن العطف وعن علاقات الودّ، أو لكأنّها دائماً سيئّة ومسيئة وتعسّفيّة . وربّما كان مردّ ذلك إِلى أَنّهم، في حداثتهم، قد تألّموا من أَب متسلّط لا عهد له بحنان أَو بثقة.

إِنّ السُّلطة الحقيقيّة هي التي تعمل من أَجل تحقيق العدل للجميع، ولا سيّما الفقراء، الذي لا قِبَل لهم على الدفاع عن أَنفسهم، والذين يؤلّفون أَقلّيّة مسحوقة . إِنّها سُلطة متأهّبة لبذل حياتها، ولا ترتضي أَيّة تسوية مع الشرّ، والكذب، وقوى الطغيان التي تسحق الأَشخاص ولا سيّما الصغار منهم . وإِذا ما تعلّق الأَمر بسُلطة عائليّة أو جماعيّة، فعليها، بالإِضافة إِلى التزام العدل والحقيقة، أَن تتّصف بشخصيّة قائمة على الرقّة، والإِصغاء، والثقة، والصفح، وبالطبع لا ينفي ذلك مواقف حازمة، أَحياناً .

و من جانب آخر كثيرون يخلطون بين السُّلطة وإِمكانيّة الجدوى، ولكأنّ دور المسؤول الأَوّل هو اتّخاذ القرارات، والعمل، والحكم بشكلٍ مجدٍ، في حين أَنّ السُّلطة هي، أَوّلاً، مرجع، وأَمان، وشخص يدعم، ويُساند، ويشجّع، ويرشد .

في مصطلح الكتاب المقدّس، السُّلطة تعني الصخرة، والمتانة، والسَنَد، إِنّها نبع مـاء يهب الحياة، ويطهّر، ويصفح ويغذّي . إِنّها الراعي الذي يقود بالطبع إِلى المراعي النضـرة والبستانيّ الذي يروي البذور لكي تؤتي ثمراً .

إِنّ الخصال التي يصف بها يسوع الراعي الصالح هي الخصال التي ينبغي أَن يتحلّى بها راعي الجماعة، لكي يقود القطيع ويرشده إِلى سواء السبيل . عليه أَن " يعرف كلاًّ باسمه" . والاسم، في المفهوم الكتابيّ، يعني موهبة الشخص، ودعوته، ورسالته . فعلى الراعـي أَن يقيم علاقة شخصيّة مع كلّ فرد، ويتبيّن مواهبه الخاصّة لكي يساعده علـى النمـوّ، ويتبـيّن جراحه لكي ينفحه القوّة، والعزاء، والتعاطف، ولا سيّما في فترات الأَلم . وعلى الراعـي أَن يرتبط بشعبه بوشائج حبّ، ويكون متأَهّباً لبذل حياته عنه، وللتضـحية، فـي سـبيل ذلـك، بمصالحه الخاصّة .

على المسؤول أَن ***ينظّم*** الجماعة، بحيث يتبوّأ كلّ عضو مكانه الصحيح، وتتدرج كـلّ الأُمور في دعة وهدوء، وعليه أَن ***يشيع فيها الحياة*** لكي تظلّ متدفّقة بالحيويّة، ولكي تبقـى عيون الجميع شاخصة إِلى الأَهداف الأَساسيّة . وعليه أَن ***يحبّ*** كلّ فرد، ويكون معنيّاً بنموّه . وسرعان ما يشعر أَعضاء الجماعة أَنّ المسؤولين يحبّونهم حقّاً، ويثقون بهم، ويساعدونهم على النموّ، أَو أَنّ اهتمامهم محصور في الإِدارة والتنظيم بغية إِثبات سُلطتهم، وفـرض القـانون، ونظرتهم الخاصّة، وتوخّي الإِرضاء .

إِنّ الإِدارة هي الحكم الصائب وفقاً للمواقف، واتّخاذ القرارات الحكيمة . والحكم يتمّ دائماً تبعاً لمعايير تمثّل هدف الجماعة وغاياتها، ولذلك على المسؤول أَنّ يُبقي، نصب عينيه، الهدف الجوهريّ، وأَن يعيشه ويحبّه .

فالمسؤول هو دائماً قدوة، وعليه أَن يعلّم بحياته أَكثر من تعليمه بأَقواله .

رسالة من اللّه

لا يمكن تحمّل مسؤوليّة حيال آخرين إِلاّ بدعوة من اللّه، وبعونٍ منه؛ وكـلّ سُـلطة مكلّفة برسالة إِلهيّة مدينة للّه، وعليها أَن تؤدّي له حساباً . في ذلك يكمـن صِـغَر السُّـلطة الإِنسانيّة وعظمتها .

إِنّ السُّلطة عمل محبّة؛ ومثلما يسهر الربّ على أَبنائه كي ينموا في الحبّ والحقيقـة، كذلك على المسؤول أَن يكون خادماً للّه وللأَشخاص لكي ينموا جميعهم في الحبّ والحقيقة .

إنّ تولّي السُّلطة مسؤوليّة جسيمة، ولكنّه، أَيضاً، مهمّة جميلة، لأَنّـه ينطـوي علـى ضمانٍ من اللّه بتلقّي النور، والقوّة، والمواهب الضروريّة للنهوض بتلك المهمّة . لذلك علـى المسؤول أَلاّ يقتصر على استيضاح من ولّوه السُّلطة عمّا يتعيّن عليه فعله، بل عليه، أَيضـاً، في سرّ سريرته، أَن ينشد مشورة اللّه، ويكتشف، في صميم قلبه، النور الإِلهيّ . إِنّني أومـن، إِيماناً راسخاً، بالنعمة المعطاة من أَجل تبليغ رسالة، أو أَداء وظيفة . إِنّ الربّ يمدّ، دائماً، يد العون لمن وُلّي السُّلطة، إِن هو كان متواضعاً، وساعياً إِلى أَن يكـون للحقيقـة خادمـاً . إِنّ إِدراك هذه الحقيقة يوفّر للمسؤول ارتياحاً . فلا يعود مضطرّاً إِلى حمل كلّ هموم العالم إِذ إِنّ اللّه إِلى جانبه . إِنّ الربّ هو من دعاه إِلى المسؤوليّة، وهو الذي سيهبه ما يفتقر إِليه من قوّة وحكمة . فليطمئنّ بالاً، ولينهض بمهامّه، بأَفضل ما يستطيع، ثمّ يودع كلّ شيء بين يدي اللّه، ويمضي ليرقد قرير العين .

لن يكون أَحدٌ سعيداً في الجماعة إِن كان المسؤولون، دائماً، مهمومين، قَلِقين، جادّين، منكفئيين على ذواتهم . لا ريب أَنّ المسؤوليّة صليب يتعيّن حمله كلّ يوم، ولكن ينبغي تعلّـم حمله بفرح .

سرّ المسؤول يكمن في بقائه شابّاً، منفتحاً، وجاهزاً، قادراً على الدهشـة، ووسـيلته المثلى لذلك هي أَن يبقى منفتحاً على الروح القدس .

لا ننسينّ أَنّ الربّ اختار، لتولّي المسؤوليّة، رجالاً محدودين جدّاً : موسى الذي اغتال مصريّاً، وبطرس الذي أَنكر المسيح، وبولس الذي شارك في قتل استيفانوس . فربّما من جرّاء محدوديّتهم، وافتقارهم إِلى القدر الكافي من الكفاءة، أَمسوا أَشدّ تواضعاً، وأَدواتٍ أَطوع بـين يدي الربّ .

و على المسؤول أَن يُعنى بما يفكّر به الآخرون، على أَلاّ يصبح سجين هذا التفكير . فعليه مسؤوليّة تجاه الربّ، لا تسمح له بأَيّة تنازلات، ولا بالكذب، ولا بأَن يكون وسيلة ظلم .

إِنّ من يمسك بزمام السُّلطة العليا في الجماعة يحمل في داخله شيئاً مـن الوحـدة . فحتّى عندما يستعين بمجلس إِدارة، يبقى وحيداً إِزاء القرارات النهائيّة . هـذه الوحـدة هـي صليبه، ولكنّها، أَيضاً، ضمان حضور اللّه، ونوره، وقوّته . ولذلك يحتـاج، أَكثـر مـن أَيّ شخص آخر في الجماعة، إِلى وقت يخلو فيه إِلى نفسه، وينعم بفسحة بُعد، ويمكث مع اللّـه . في لحظات الوحدة هذه يتولّد لديه الإِلهام، ويستبين الاتّجاه الذي يتعيّن عليه انتهاجه . وينبغي أَن يثق في ما يتولّد لديه، حينئذٍ، من حدْس، ولا سيّما إِن واكبه سلام عميق، ولكن عليـه أَن ينشد تأكيداً لحدْسه مستشيراً بشأنه أَشخاصاً يثق بهم حقّاً، وعارضاً، بعدئذٍ، الأَمر على مجلس الجماعة .

من المحقّق أنّه حيال القرارات الصعبة التي تُلزم المستقبل، عليه أَن يُعمل الفكر، ويستخدم أَوفى قدر من المعلومات . ولكن، نظراً لتعقّد المشاكل، واستحالة لحظ كلّ شيء مسبقاً، عليه، في نهاية المطاف، وبعد تمثّل واستيعاب كلّ المعطيات، أَن يتوكّأ على ما جاءته به الوحدة من حدْسٍ عميق . تلك هي الوسيلة الوحيدة التي تمكّن السّلطة من اكتساب الحريّة التي تساعد على المضيّ قُدُماً، وعلى اتّخاذ قرارات في منأى عن الخوف من الفشل .

المسؤول الخادم

رسالة المسؤول عن الجماعة مزدوجة : فعليه أَن يبقي عينيه وعيون الجماعة محدّقة في الجوهريّ، والغايات الأَساسيّة، وعليه أَن يوجّه دائماً لئلاّ يدع الجماعة تتيه في هنات، وقضايا ثانويّة وعرضيّة .

دور المسؤول هو تسهيل التواصل؛ فالجماعة، جوهريّاً هي موئل تواصل أَكثر منها مكان تعاون . عليه، إِذن، أَن يكون إِنسان تواصل، يسعى إِلى التواصل مع الآب ومع الأَشخاص، بحيث يخلق، في الجماعة، فسحة تواصل .

إِنّ يسوع هو، للمسيحيّين، نموذج للسُّلطة . فعشيّة موته، غسل أَرجل تلاميذه كما يفعل أَيّ عبد عاديّ، وقال لهم : " طوبى لكم إِن أَنتم فعلتم ما فعلت " . إِنّه أسلوب جديد في ممارسة السُّلطة، يتعارض مع حاجة الفرد إِلى التفوّق على الآخرين والسيطرة عليهم . إِنّ يسوع يمارس السُّلطة بالانحدار إِلى أَدنى من الآخرين . إِنّنا، حقّاً، في حاجة إِلى روح يسوع كي يعلّمنا أَن نكون خدّاماً متواضعين للجماعة .

الصفة الأَساسيّة لكلّ مسؤول هي أَن يكون خادماً قبل أَن يكون رئيساً . فمن تولّى المسؤوليّة بُغية إِثبات شيء، أو لأَنّه، بالفطرة، ينزع إِلى السيطرة والحكم، أو لأَنّه يحتاج إِلى البروز، أو ينشد امتيازاً وجاهاً، فهو سيكون، دائماً، مسؤولاً سيّئاً، لأَنّه لا يسعى إِلى أَن يكون، أَوّلاً، خادماً .

بعض الجماعات تختار مسؤولاً عنها بسبب قدراته الإِداريّة أَو بسبب سيطرته ونفوذه، في حين أَنّ عليها أَن تنتخب رئيساً من برهن، حتّئذٍ، على أَنّه يضع مصالح الجماعة فوق مصالحه الشخصيّة؛ عليها أَن تؤثر إِنساناً متواضعاً راغباً في خدمة الجماعة والأَفراد، ولا يتحرّج من استشارة من يملكون الخبرة، حتّى لو كان خجولاً ومفتقراً إِلى بعض الصفات،

وعليها أَن ترجّحه على من يعي كفاءاته، ولكنّه مغرور، متكبّر . هذا، ومن المحقّق أَنّ على المسؤول أَن يتحلّى بشيء من الكفاءة، والقدرات الطبيعيّة .

المسؤول الأَمثل هو من يتلقّى المسؤوليّة على أَنّها رسالة إِلهيّة، ومن يعتمد على قوّة اللّه، ومواهب الروح القدس . قد ينتابه الشعور بفقره وعجزه، ولكنّه سيعمل دائماً بتواضع لصالح الجميع . وسيثق به أَعضاء الجماعة لأَنّهم سيشعرون بثقته لا بذاته وبرؤيته الخاصّة، بل باللّه . سيتبيّنون أَنّه لا يسعى إِلى إِثبات شيء، ولا يلتمس مغنماً لنفسه، وأَنّ رؤيته لا تعكّرها مشاكله الخاصّة، وأَنّه يتطلّع إِلى المغادرة حالما تنتهي فترة تكليفه .

على المسؤول أَن يُعنى، دائماً، بالأَقلّيّات في الجماعة، وبمن لا صوت لهم، فيصغي، بلا هوادة، إِلى احتياجاتهم ويتحدّث باسمهم . إِنّه المدافع عن الأَشخاص، إِذ لا تسوغ التضحية بالشخص وبكيانه العميق في سبيل الجماعة . إِنّ المسؤول الخادم هو من يُعنى بالأَفراد أَكثر من اهتمامه بالمؤسَّسة .

مخاطر الكبرياء

سرعان ما ينزع المسؤول إِلى ممارسة السُّلطة ابتغاءً للمجد، والجاه، والإِعجاب . ففي داخل كلٍّ منّا طاغوت صغير يتطلّع إِلى السّلطة وما تؤتيه السُّلطة من امتياز، ويرغب في السيطرة، والرئاسة، والتحكّم؛ يخشى كلّ نقد، وكلّ رقابة، ويتفرّد بالصواب (باسم اللّه أَحياناً)، فيتدخّل في كلّ الميادين، مضطلعاً بكلّ شيء، آمراً في كلّ مكان، محافظاً، بكلّ حرص، على سلطته، جاعلاً من الآخرين مجرّد منفّذين عاجزين عن الحكم السليم، غير متيح أَيَّة فسحة من الحرّيّة إِلاّ بمقدار ما لا تزعج سُلطته، وشرط أَن يكون قادراً على المراقبة . يريد أَن تتحقّق أَفكاره في الحال، ويجعل من الجماعة " شيئه " و" مشروعه " .

ما أَسهل تسلّل هذه النزعات في ممارسة السُّلطة، بدرجات متفاوتة ! وليس أَرهب من الطغيان، تحت ستار الدين .

من الخطورة في مكان توضيح حدود سلطة كلّ فرد، خطّيّاً، إِذ سرعان ما يتجاوز الأَب سلطته على أَبنائه عندما يحرص على صوغهم وفقاً لمشروعه؛ وسرعان ما يُغفل حرّيتهم ورغبتهم . إِنّ مخاطر الكبرياء والرغبة في السيطرة من الجسامة بحيث يتعيّن وضع حواجز لكلّ رئيس تحدّد مدى سلطته، وأَنظمة الرقابة الكفيلة بإِبقائه موضوعيّاً، وعاملاً، حقّاً، في خدمة الجماعة .

و جدير بالتنويه أَنّه ليس من اليسير، في ممارسة السُّلطة، العثور على الحلّ الوسيط بين السيطرة والتسييب .

و من مخاطر المسؤوليّة التلكّؤ في اتّخاذ القرار، خشيةً من قرار خاطئ، أو من فقدان الشعبيّة، ومن الصدام مع الآخرين . إِنّ البعض يعانون صعوبة في التقرير، ويمعنون في تحليل الأَوضاع، وروز الإِيجابيّ والسلبيّ، ولكنّهم يعجزون عن توطين النفس وعن تغيير الواقع .

و قد يكون الامتناع عن التقرير قراراً، فالتأنّي من خصال المسؤول الهامّة؛ إِذ عليه ألاّ يعمل بدافع الغضب، وأن يُجيد الإِنصات، والاستعلام، والتروّي، ولكن عليه، في الآن عينه، بعد الصلاة والاستشارة، أن يقرّر، وألاّ يظلّ خاضعاً للوقت والأَحداث

إِنّ التنافس والحسد بين بعض أَعضاء الجماعة، في ما يتعلّق بالسُّلطة والإِشعاع، يمثّلان قوّة تدمير رهيبة . فالجماعة المتّحدة صخرة منيعة، أَمّا الجماعة التي يتصارع أَعضاؤها فتسير سريعاً نحو الدمار .

إِنّ التواضع تربةٌ للوحدة، وحماية من الانقسامات والبِدَع . فروح الشرّ عاجز حيال التواضع، إِذ إِنّه أَمير الكذب والوهم، وملهم التفرقة والمماحكات، والصراعات الداخليّة، والنميمة والكبرياء .

اقتسام المسؤوليّات

ينبغي ألاّ يملّ المسؤول، أبداً، من اقتسام العمل مع آخرين، حتّى ولو شعر أنّ هؤلاء لا يُجيدون إنجاز العمل مثله، أو ينجزونه على نحوٍ مغاير، ولو كان أيسر لـه الاضـطلاع بالعمل بنفسه من تعليم الآخرين الاضطلاع به . إنّ المسؤول الذي يقع في شرك الرغبة في إنجاز كلّ شيء بنفسه يتعرَّض للعزلة، والإفراط في النشاط، وفقدان رؤية أهداف الجماعة .

فإن تعاون أشخاص، حتّى ولو كانوا محدودين جدّاً وهشّين، مع سُلطة تتّسم بالطيبة، وتمتلك رؤية واضحة، وقلباً متعاطفاً وحازماً، لباتوا قادرين على تحقيق أُمور رائعة، ولاشتركوا في رؤية السُّلطة وأَفادوا من مواهبها . إنّ غنى الجماعة يكمن في اشتراك الجميع في خصال كلّ فرد وفي مواهبه .

بعض المسؤولين يأبون إطلاع رئيسهم الأعلى لكي يمتلكوا حرّيّة كبرى في فعل ما يشاؤون، وفي منأى عن الرقابة، وهم يتصرَّفون وكأنّهم أسياد مطلقون . وآخرون ينهجون نهجاً معاكساً : فثقتهم بأنفسهم من الوهن، وخوفهم من السلطة من الشدّة، بحيث لا يكفّون يرجعون إليها، في كلّ شاردة وواردة، ومن أجل أصغر التفاصيل، وسرعان ما ينقلبون مجرّد عبيدٍ منفّذين . ولا بدّ من بلوغ موقف يتوسّط هذين الأقصيَيْن، فيتحمّل المرء مسؤوليّته كاملة أمام اللّه، بالرجوع إليه، وأيضاً بالرجوع إلى الرئيس الأعلى، في الحقّ، وبجاهزيّة النفس . وهذا يقتضي قلباً صافياً لا يلتمس مصلحته الخاصّة، بأيّة وسيلة .

و السُّلطة العليا تخطئ، سواء إن هي تركت المكلّفين بسُلطة وسيطة يفعلون ما يشاؤون، من غير حوار، ولا أيّ حساب، أو بإرشادهم إلى كلّ ما عليهم فعله، وإلى الطريقة التي عليهم أن يفعلوا بها . إنّ سُلطة حقيقيّة تحاور، وتُدلي بتوجيهات وآراء، ثمّ تدع الآخرين يتحمّلون مسؤوليّاتهم، ويضطلعون بعملهم . ولكن من المؤكّد أنّ عليها التحاور، إثر الفراغ من العمل – سواء أُنجز على نحوٍ جيّد أو على نحوٍ سيّء – بُغية الدعم أو التصحيح إن اقتضت الضرورة .

بديهيّ أنّ بين المسؤولين ينبغي أن يقوم حوار، ووحدة ومحبّة . فإن انغلق أحدهم دون الآخر، وتبادلوا النقد، لأمست الجماعة في خطر . فإن لم يكن تواصل ومشاركة بين المسؤولين، أنّى لهم أن يكونوا خدّاماً للتواصل ؟ ألا يصبحون، بالأحرى، خدّام فرقة وموت؟

و التواصل لا يعني، بالطبع، انتفاء تباين الآراء؛ إذ يمكن للقوم أن يقدّر ويحبّ بعضهم بعضاً، وأن يكونوا عازمين على الكفاح في سبيل الغايات عينها، مع كون آرائهم متباينة .

لدى المؤسّسين، في مستهلّ مشروعهم، رؤية تلهم عملهم . وشيئاً فشيئاً يلتحق بهم آخرون وتتألّف جماعة . ويصبح جميع الأعضاء، معاً، ***جسداً*** دافقاً بالحيويّة، ولكنّه أيضاً حافلٌ بالتوتّرات . وحينئذٍ لا يعود بمكنة المؤسّسين أن يعملوا وكأنّهم ينفردون بالرؤية، بل عليهم الإصغاء إلى الجسد الذي هو الجماعة، واحترام حياته ورؤيته . ويتمثّل دور المسؤولين والمؤسّسين في تبيّن الحياة الموجودة في الجسد، وبعثها، وإنمائها . وأصعب ما في الأمر هو أن يرتضي المؤسّسون بأن يكون للآخرين حول الجماعة، في وضعها الراهن وفي أهدافها الأساسيّة، رؤية أوضح وأصحّ من رؤيتهم .

و من أهمّ واجبات متولّي السّلطة أن تكون لديهم أولويّات واضحة المعالم، وإلاّ لتاهوا في آلاف الجزئيّات، وفقدوا الرؤية . وفي الواقع، السّلطة المثلى هي التي تفعل قليلاً ولكنّها تدأب على تذكير الآخرين بجوهر وظيفتهم وحياتهم، وتدعوهم إلى تحمّل مسؤوليّاتهم، وتدعمهم، وتثبّتهم، وتراقبهم .

المسؤول الجيّد يعي مواطن قوّته ووهنه، ولا يخشى الاعتراف بضعفه؛ فهو يعلم أين يلقى السند، ولديه من التواضع ما يدفعه إلى التماسه . ولا يوجد أيّ مسؤول كامل يمتلك كلّ المواهب الضروريّة التي تؤهّله للاضطلاع بمسؤوليّته بمفرده .

هيكليّات الجماعة

من الأهميّة بمكان أن يكون للجماعة دستور يحدّد هيكليّاتها وأُسلوب الحكم فيها، والمسؤوليّات، وطريقة انتخاب المسؤولين أو تعيينهم، ومدّة تكليفهم؛ وطريقة اتّخاذ القرارات الخطيرة ومن يتّخذها؛ وحدود السلطة ومدى المسؤوليّة؛ والعلاقة بين المسؤول ومجلس الجماعة . فإن لم تكن الهيكليّات واضحة، ولا أحد يعلم من يقرّر، وماذا يقرّر، ومن المسؤول، وعمّا هو مسؤول، فذلك يسبّب حتماً ألماً والتباسات، وحينئذٍ ينزع المسؤول إلى اتّخاذ قرارات، في السرّ، وبالاتّفاق مع فئة من المقرّبين الذين اختارهم، إمّا خشية من الخلافات، أو رغبة في التصرّف على هواه . إنّ المسؤولين السيّئين ينزعون دائماً إلى إحاطة أنفسهم بموالين، وبأشخاص يقولون دائماً " نعم "

هذا الغموض في اتّخاذ القرارات من شأنه أن يثير مزيداً من التوتّرات، إلى أن يحدث الانفجار، وآنذاك إمّا تُحدّد هيكليّات ويجمع الكلّ على دستور، أو يهجر البعض الجماعة، ثائرين، ويستمرّ المسؤول في إدراته السيّئة .

قد يخشى المسؤولون الذين يتمتّعون بتأثير خاصّ من تحديد هيكليّات، ويتردّدون في وضعها موضع التنفيذ . ومع ذلك فالهيكليّات جوهريّة لنموّ الجماعة وأعضائها .

و قد تبدو هذه " الهيكليّات"، أَحياناً، ثقيلة الوطأة، ولكنّها ضروريّة لحياة جماعيّة سليمة . ولكن من الواضح أنّ على هذه الهيكليّات أن يُعاد تحديدها مع نموّ الجماعة ونضجها، وليس من السلامة في شيء أن يُحدّد الدستور، منذ البدء، على نحوٍ نهائيّ، مع استحالة تعديله عند الضرورة .

و بعد أَن تُحدَّد الهيكليّات، على المسؤول أَن يحترمها. وهو سيقترف خطأً فادحاً إِن اتّخذ بمفرده قرارات هي من شأن المجلس الجماعيّ . قد تقتضي قرارات المجلس وقتاً أطول، وقد يشقّ على المسؤول ألاّ يسير وفقاً لإِلهاماته الخاصَّة، ولكن تلك هي الطريقة التي تُفلح، بها، الجماعة في اتّخاذ قرارات حكيمة .

تعلّم الإِصغاء وممارسة السلطة

يجب أَن توفَّر لمن يُكلَّف بمسؤوليّة وسائل النهوض بها، وتجنّب الإِفراط في مواكبته إِذ قد يعني ذلك رفضاً لاقتسام المسؤوليّة . ينبغي إِعطاؤه حقّ ارتكاب الخطأ، والتعثّر، فإِذا ما اتُّخذت الإِجراءات لتجنيبه الفشل، حيل دون نجاحه .

و يحتاج المسؤول إِلى من يتحدّث إِليه، ويتفهّمه، ويثبّته في المسؤوليّة؛ يحتاج إِلى حضور كتوم لا يحاكم، ولديه خبرة في الشؤون البشريّة، يمكن الوثوق به، ومن شأنه إِشاعة الثقة . إِنّ صليب المسؤوليّة ثقيل، أَحياناً، ولا بدّ من صديق مفعم تفهّماً، أو من أَخٍ أَكبر أو أُخت كبرى، لكي يغدو الصليب أَخفّ وطأة .

و على من يتولّى مسؤوليّة إِنماء الآخرين أَن يكون، هو نفسه، سائراً على درب نضجٍ حقّ، وحرّيّة داخليّة حقّة، وألاّ يحبس نفسه في سجن الأوهام والأَنانيّات، وأَن يفسح مجال النموّ للآخرين، وأَن يكون، هو نفسه عازماً على النموّ .

لا يُحسن الأَمر من لا يعرف الطاعة . وليس مسؤولاً جيّداً من لا يعرف أَن يكون خادماً . وليس أَباً جيّداً أو أُمّاً جيّدة، من لم يعرف أَن يكون ابناً أو ابنة . إِنّ يسوع هو حَمَلٌ قبل أَن يكون راعياً، وهو يستمدّ سلطته من الآب، إِنّه ابن الآب المحبوب .

قد يعسر على المسؤول أَن يقرن الإِصغاء والرفق بالحزم، والموضوعيّة بالرجاء في قدرة الآخرين على النموّ . قد يمعن في الخجل والتساهل، ويدع الآخرين يسلكون على هواهم، خشية مصارحتهم، أو قد يمعن في الصرامة والتقيّد بالقانون .

أَكثر خصال المسؤولين أَهميّة هو حسن الإِصغاء إِلى الجميع، وليس فقط للأَصدقاء والمعجبين، وعقد علاقات صادقة، وإِن أَمكن، حارّة، معهم. إِنّ المسؤول السيّء يختبئ وراء الجاه، والسلطة، والأَقوال، والإِدارة، ولا يصغي إِلاّ إِلى أَصدقائه؛ إِنّه يسرف في الكلام، غير آبه بوقع كلامه على الآخرين، ولا يسعى إِلى تبيّن حاجاتهم العميقة، وتطلّعاتهم، ومصاعبهم، وآلامهم، ودعوة اللّه لهم .

إِنّ المسؤول الذي لا يحسن الإِصغاء إِلى المعارضين في سبيل تبيّن بذور الحقيقة في ثنايا أَعشاب الاستياء الضارّة، يعيش في منأى عن الأَمان .

والمسؤول السيّء لا يهتمّ إِلاّ بالقوانين، غير مكترث بموقف الأَشخاص منها . فمن السهل عليه تمويه عجزه عن الفهم والإِنصات، خلف فرض القانون . ففرض القانون ينبع من الخوف من الأَشخاص .

و قد يصبح مؤسّسو الجماعات عبئاً إِن هم ظلّوا مرجعاً للجماعة، بعد موتهم، في قضايا لا تتعلّق مباشرة بروح الجماعة الجوهريّ . وعلى المسؤولين الجُدد أَن يحاكوا المؤسّسين، ويكيّفوا الجماعة مع الأَوضاع الجديدة . وعلى كلّ مسؤول أَن يكون نبويّاً لكي يحسن قيادة الجماعة في الأَوضاع الراهنة .

و من الهامّ أَن يصغي المسؤول إِلى الشبّان الذين انتموا إِلى الجماعة حديثاً أو الراغبين في الانتماء إِليها . إِنّ دعوات هؤلاء الشبّان، وإِلهاماتهم، ورغباتهم، كفيلة بأَن تكشف له الكثير . وعلى المسؤول أَن يعرف الإِصغاء باهتمام ودهشة إِلى عمل اللّه فيهم، فمن شأن دعوتهم إِظهار ما ينبغي أَن تكون عليه الجماعة، ومواطن خَلَلها .

على المسؤول أَلاّ يتنكّر

الخطر الذي يتربّص بالمسؤول يكمن في أَن يقيم حاجزاً بينه وبين من هو مسؤول عنهم، وأَن يبدو بمظهر الانشغال، ويحاول التأثير من خلال ضخامة سيّارته أو مكتبه، وبإِشاعة الشعور بتفوّقه وجليل شأنه . مثل هذا المسؤول خائف ومخيف، ولا يعرف للأمان سبيلاً، ممّا يدفعه إِلى التباعد عن الآخرين، أَمّا المسؤول الحقّ فهو أَبداً جاهز، يسير على قدميه، ويفسح للناس فرصاً كثيرة للاقتراب منه، والتحدّث إِليه حديثهم إِلى أَخ أو أُخت . لا يتنكّر، ويظلّ مشرعاً على كلّ معارضة أو نقد صريح . وعلى المسؤول الحقّ أَن يظلّ على مقربة ممّن هو مسؤول عنهم، وأَن يتيح لهم لقاءات صريحة وبسيطة معه . فإِن هو أَقام على جفائه، لما استطاع معرفة قومه واحتياجاتهم .

و من الهامّ أَن يظهر المسؤول على حقيقته، ويُسفر عن مصاعبه ومواطن ضعفه. فإِن هو أَخفاها توهّم الناس أَنه مثال يتعذّر التمثّل به، ويأتي يوم يتبيّنون فيه معايبه، فيثورون. وبعد أَن يكونوا قد رفعوه إِلى القمّة، سيهوون به إِلى الحضيض . وخيرٌ له أَن يراه الناس معرَّضاً للخطأ وإِنسانيّاً، ولكن واثقاً، وجاهداً في سبيل التقدّم . وإِذ تعيّن على المسؤول أَن يكون خادماً حقّاً للتواصل، عليه أَن يكون، هو نفسه، على تواصل مع الاخرين، بصفته إِنساناً، لا بصفته مسؤولاً . وعليه أَن يضرب المثل في المشاركة .

مسؤولون كثيرون يحتاجون دائماً إِلى من يقف إِلى جانبهم، ويعرف كيف ينزلهم عن عروشهم، ويصارحهم . فغالباً ما يحاط المسؤولون بالمداهنة، وغالباً ما يصبحون عدوانيّين، وينكفئون داخل أَسوار دورهم، خائفين أو مدّعين أَنّهم إِله صغير . إِنّهم بحاجة إِلى أَشخاص لا يغالون في تعظيمهم، ويرون حقيقتهم وراء ستار وظيفتهم، وينحدورن بهم إِلى أَرض الواقع . وإِلاّ، سرعان ما يحلّقون، ويتنكّرون، ويفقدون أَيّ اتّصال بالواقع . ولا بدّ للمسؤولين أَن يثقوا بهؤلاء الأَشخاص، ويوقنوا بحبّهم لهم .

علاقة شخصيّة

بعض الجماعات تأبى أَن يكون لها رئيس مسؤول، وتؤثر تسوية كلّ الأمور "ديمقراطيّاً" باتّفاق الآراء، وبإِدارة جماعيّة . ولكنّني اعتماداً على خبرتي في "السفينة"، أومن أَنّ أَعضاء الجماعة يحتاجون إِلى شخص يرجعون إِليه، ويستطيعون أَن يقيموا معه علاقة شخصيّة .

صحيح أَنّ الإِدارة الجماعيّة هي أَكثر موضوعيّة، وتفضي إِلى رقابة مثلى، وأَنّنا "جميعنا، معاً، أَذكى من واحدٍ فينا "، وأَنّ الجماعة تضع قوانين أَوفر عدلاً ممّا يضعه شخص

واحد . ولكن، بالمقابل، يتعذّر، دائماً، على الجماعة، أَن ترتضي باستثناءات من بعض القوانين، وهي تفتقر إِلى الرؤية النبويّة التي تمكّن من التقدّم الحكيم نحو المستقبل، والتوفيق بين هيكليّات الجماعة والاحتياجات الجديدة . فضلاً عن أَنّه من المستحسن أَن يكون للجماعات التي تستهدف نموّ الأَشخاص الداخليّ سُلطة قادرة على الحوار ،و نسيج علاقات ثقة معهم .

لا يدخل في الجماعة من يظنّ أَنّه كامل، وموضوعيّ، وذكيّ، بل من يتوخّى الارتقاء في حبٍّ وحكمة أَكثر حقيقة . ولكي يتحقّق النموّ الإِنسانيّ، لا بدّ من وجود من يصغي إِصغاءً شخصيّاً، ويثبّت، ويساند، ويشيع الأَمان، ويؤازر الأَفراد على استعادة الثقة بأَنفسهم، لكي يستأنفوا مسيرتهم بمزيدٍ من الجرأة .

لا ريب أَنّ على المسؤول مساعدة الأَعضاء على تسوية القضايا الجماعيّة، وفقاً للرؤية الجماعيّة؛ غير أَنّ، ثمّة، دائماً استثناءات يفرضها الضعف البشريّ، أَو الروحيّ، أَو النفسيّ، تحتاج إِلى قلب بشريّ متعاطف، وطيّب، يسعها مكاشفته بثقة . والإِنسان لا يفتح قلبه لجماعة بل لشخص .

الجماعة تنزع إِلى العمل وفقاً لمبادئ العدل، واستناداً إِلى قانون معيّن، إِذ لا يسوغ أَن تأخذ قرارتها ساعة بساطة، وإِلاّ أَفسحت المجال لكلّ أَنماط المقارنات، والحسد، والمطالبات . ولكن، إِن كان لا مناص من قانون، فلا بدّ، أَيضاً، من إِمكانيّة الاستثناء . ومن شأن السُّلطة الشخصيّة أَن ترجّح دائماً مصلحة الفرد على الجماعة أَو القانون؛ وأَن تكون سُلطة رأفة وعطف حيال الضعيف والحالات الاستثنائيّة . وهذا يقتضي، بالطبع، أَن تكون سُلطةً حقّة، مُحِبّة، وفي خدمة الأَشخاص .

إِنّ الإِنسان لا يقبل بالقانون إِلاّ إِذا جسّده شخص قادرٌ على الصفح، والاستثناء، والتفهّم، والرأفة .

في الجماعة التي تفتقر إِلى مسؤول تنصّب عدوانيّة الأَعضاء على الأَضعف . وفي الجماعات التي لها مسؤول، على هذا أَن يدرك أَنّ دوره يتمثّل في استيعاب هذه العدوانيّة وتوجيهها في القناة الصحيحة .

مواقف متباينة من السُّلطة

يقول البعض أنّهم لا يستطيعون إِطاعة السُّلطة إِلاّ إِذا أَولوا المسؤول ثقةً تامّة . وأَنـا أَرى في ذلك موقفاً صبيانيّاً . فالولد يطيع أَباه وأُمّه لأَنّه يثق بهما ثقة مطلقة . ولكن هل يعني ذلك أَن ينهار كلّ شيء عندما يكتشف لهما عيوباً ؟

ليس المطلوب أَن نثق ثقة مطلقة في السُّلطة، بل أَن نثق في الدستور وفـي الإِخـوة والأَخوات الذين انتخبوا المسؤول، وفي أَنظمة الرقابة والحوار، وفي اللّه الذي يسـهر علـى الجماعة، والذي قد يستخدم شخصاً يبدو، ظاهريّاً، قليل الكفاءة، ويهبه نعمة تؤهّله للنهـوض بمهمّته خير نهوض، وبأَقلّ قدر من الأَخطاء .

السُّلطة، في الجماعة، ليست مطلقة، فثمّة رقابة وحدود يحدّدها الدستور . ومسـؤوليّة الرئيس ينبغي أَن تحدّد بوضوح . وفضلاً عن ذلك ينبغي أَن يملك الأَعضاء وسيلة للتعبيـر، في الشرعيّة، عن مخاوفهم ومآخذهم حيال المسؤول والتي قد تكون مبرَّرة . وإِلاّ أُشرع الباب للتذمّر والمماحكات .

انعدام الطاعة يعرّض الجماعة للانهيار، لأَنّ الطاعة ثقة؛ بيد أَنّ الطاعة ليست عبوديّة ولا هي موقف خارجيّ . بل انتماء داخليّ لسُلطة شرعيّة، ولنُظُم القرار، وللوجدان الجماعيّ، وهي التماسٌ للرؤية الجماعيّة، وتبنّي مبادئ الجماعة في العيش والعمل .

إِنّ من يرفض، داخليّاً، تبنّي هذا الوجدان الجماعيّ، ومن يـدّعي التفـرّد بـامتلاك الحقيقة، وينصّب نفسه معارضاً أَو منقذاً، ويرفض الأَنظمة الشرعيّة، ويحرص على إِثبـات صواب رأيه، يمسي عامل فرقة وفتنة .

قد يخطئ المسؤولون بأَشكال مختلفة . وحينئذٍ على الأَفراد أَن يناقشوهم ولكن عبـر حوار ودّيّ . كثيرون ينتقدون المسؤولين، في غيابهم، وقد يفعلون ذلك خشية التحدّث إِلـيهم مباشرة، بصدقٍ ومحبّة .

و قد يكون لأَخطاء الإِدارة عواقب مريعة، فقد تفضي إِلى هدم الطاقات والقضاء على روح الجماعة، وإِشاعة نزعات الاستسلام .

الموقف الأَوّل الذي يتعيّن، حيال أَخطاء المسؤول، يتمثّـل فـي الصـبر والصـلاة، والتحلّي بالحكمة، والسهر من أَجل مساعدته على اتّخاذ القرارات الصائبة، بالاتّصال المباشر، أَو من خلال الهيكليّات المناسبة . وقد يقتضي الأَمر إِطلاع سُلطة خارجيّة، أَو المشرفين على الجماعة الكفيلين بإِصلاح الوضع .

ينبغي تعلّم البقاء على تواصل مع المسؤول، حتّى ولو كان لديه عيوب، ومسـاندته، والصلاة من أَجله، ومساعدته على النموّ . للمسؤولين جراحهم وحدودهم، كما للجميع، وتنبغي محبّتهم وكأَنّهم إِخوة وأَخوات .

إنّ المرحلة الأَكثر صعوبة التي يتعيّن على الولد اجتيازها، في نموّه الإِنسانيّ، هي ربّما العبور من التبعيّة ومن العدائيّة حيال أَبويه إِلى صداقة وحوار معهما وإِلى اعتراف بما أوتيا من نعمة وموهبة . إنّ المرء يبلغ ملء إِنسانيّته عندما يكتسب حرّيّة داخليّة، وطاقة حقيقيّة على الحكم، وأَيضاً عندما يتقبّل، تقبّلاً كاملاً، موهبة الآخرين، ويدع نورهم يتسرّب إِليه . إِنّه عبور من التبعيّة إِلى الاعتماد المتبادل، وعلى من يمارس السُّلطة أَن يلعب دوراً هامّاً في مساعدة الأَشخاص على تحقيق هذا العبور، الذي يستلزم اجتياز أَزمات واضطرابات قبل الانبعاث نحو تحرّر داخليّ .

إِنّ التحاور مع السُّلطة والخضوع لها خصلتان خطيرتا الشأن في الحياة الجماعيّة وهما دليل نضج .

الصفح

إِنّ الصفح يحتلّ قلب الجماعة المسيحيّة، وعلى الرئيس أَن يكون دليلاً ونموذجاً للصفح . عليه أَن يحسن الصفح، سبع مرّات سبعين مرَّة، عمّا يواجَه به من عدائيّة ولامبالاة، وهذا ليس دائماً أَمراً سهلاً . وعليه أَن يتعلّم، كلّ يوم، النفاذ إِلى الأَشخاص كأَشخاص، وأَن يدعهم يصلون إِليه بصفته إِنساناً، مدركاً أَنّ عثور كلّ فرد على علاقة صادقة مع السُّلطة، درب طويل . عبر الصفح وبه، يتحمّل الرئيس ويتخطّى مخاوفه وأَجهزة دفاعه، التي تدفعه، عادة، إِلى أَن يكون، هو أَيضاً، عدوانيّاً، ومتهرّباً من الآخرين . فالصفح هو أَن تكون دائماً منتفحاً، ومتفهّماً، وصبوراً حيال من يناصبونك العداء .

و يصبح هذا الصفح ضروريّاً، على نحوٍ خاصّ، عندما يوجد معارضون، يحتجّون على سُلطة المسؤول وكفاءته، ممّا قد يؤلم هذا الأَخير إِيلاماً بليغاً، ويمثّل له تهديداً رهيباً . فعليه أَلاّ يتجنّب معارضيه، بل أَن يبقى على حوارٍ معهم، وأَلاّ يكفّ عن استقبالهم والصفح عنهم . وعليه أَن يجهد في تبيّن ما الذي جرحهم من مواقفه، لكي يتحاشى عنه، ويكون أَكثر انفتاحاً، وهو يحتاج، لأجل ذلك، إِلى نعمة من اللّه خاصّة .

و في نفس السياق عليه أَن يتحلّى بالصبر حيال بطء سير الجماعة ورداءتها . وعليه أَلاّ يدفع إِخوانه دفعاً ويستعجل في فرضه رؤيته، أو في إِشعارهم بالذنب، بل برقّته، وحنانه، وانفتاحه على كلٍّ منهم، وبصبره، وخاصّة بتواضعه، يتعيّن عليه خلق جوّ من الثقة، لكي

يتطوّر إِخوته وأَخواته، وفقاً لإِيقاعهم الخاصّ، ليس نحو رؤيته الخاصّة، بل نحو رؤية اللّه بشأن الجماعة، ولكي يمارسوا، في كلّ وقت، الإِنصات والصفح، واحترام إِيقاع كلّ فرد .

تمكين الجماعة من التطوّر

إِنّ رئيساً يقضّ مضجعه شعورهُ بالاأَمان، وشديد الحرص على سُلطته الخاصّة، لن يتيح للجماعة أَن تتطوّر، بل سيجمّدها. فعلى الرئيس أَن ينعم بقدرٍ كافٍ من الحرّيّة الداخليّة، وأَن تكون لديه ثقة كافية بالجماعة وبذاته لكي يمكّن الجماعة من التطوّر، ويتيح للأَفراد اتّخاذ مبادرات . ومن أَجل ذلك ينبغي أَلاّ يغرق في المشاغل اليوميّة، بل أَن يكون لديه البُعد الضروريّ الذي يجعل عينيه وقلبه مثبتة على ما هو جوهريّ للجماعة . وعلى هذا النحو سيتيح للجماعة أَن تمضي على دروب جديدة، وسيساعدها على ذلك .

و عليه، أَيضاً، أَن يفسح للأَفراد مجالاً يتحرّكون فيه ويحقّقون إِلهامات جديدة . فالرئيس ليس مجرّد حارس للقانون، ولو كان ذلك وجهاً من وجوه مهمّته؛ بل من واجبه ضمان حرّيّة الأَفراد وازدهارهم وفق إِلهامات الربّ . ثمّة إِلهامات حقيقيّة آتية من أَعضاء آخرين تسهم في بناء الجماعة وفقاً لأَهدافها الأَساسيّة، حتّى ولو تلكّأت الجماعة في الاعتراف بهم . وغالباً ما تضايق هذه الإِلهامات الجماعة والمسؤول عنها، لأَنّها تمثّل مساءلةً نبويّة . غير أَنّ هذه المساءلات، وهذا التذكير بالجوهريّ، ضروريّة . وعلى المسؤول أَن يعترف بصحّتها ويساعد الجماعة على الاعتراف بها، أَيضاً .

الفصل السابع : مواهب أُخرى

المرشد الروحيّ

المرشد الروحيّ يساعد أَعضاء الجماعة في سرّ قلوبهم، وفي إتّحادهم باللّه . وبقدر ما يكبرون وينضجون روحيّاً يصبح لهم، أَكثر فأَكثر، المشير، وشاهد النموّ، والرفيق الروحيّ .

و لا يُطلب من المرشد الروحيّ أَن يكون قدّيساً فحسب، أَي راغباً، حقّاً، في وضع حياته كلّها تحت نور الروح القدس، وفي النموّ في علاقته بالروح، بل يُطلب منه، أَيضاً، أَن يكون حكيماً ملمّاً بالأُمور الروحيّة، وبكلام اللّه، وبتعاليم القدّيسين والمعلّمين الروحيّين، وأَن يكون خبيراً بالبشريّة .

لقد اكتشفنا، في " السفينة " أَهمّيّة أَن يكون للمساعدين مرشد روحيّ، يؤازرهم في كفاحاتهم الروحيّة، وفي جهودهم نحو حبّ يسوع واتّباعه، ويساعدهم على التجذّر في قِيَم الإِنجيل والجماعة المغايرة لقِيَم العالم؛ ويساندهم في أَوقات المِحَن والريبة، أو عندما يتعيّن عليهم اتّخاذ قرار شاقّ، أو خيار دقيق، في أَحد منعطفات حياتهم .

هذا المرشد يساعدهم على معرفة ذواتهم، وفهم طريقة عمل يسوع فيهم ومن خلالهم، ويغدو لهم مرجعاً آمناً؛ ويحملهم في صلواته ليلَ نهار، وصيفَ شتاء، في اللحظات الحالكة، واللحظات المضيئة . إِنّه لمن الضروريّ لهم العثور على من يلمّ بأَسرار قلوبهم، ويدعوهم إِلى النموّ والوفاء، ويذكّرهم بدعوتهم الأُولى، ويظلّ على مقربة منهم عبر السنين .

من الشراك التي قد تتورّط فيها الجماعة اعتبار المسؤول، في آنٍ واحد، النبيّ والمرشد الروحيّ، بحيث يصبح راعياً كلّيّ القدرة؛ وفي ذلك خطرٌ جسيم . فقد يفتقر المسؤول إِلى الحرّيّة الداخليّة، وحينئذٍ قد ينزع إِلى استخدام الأَعضاء، لا شعوريّاً، وبفضل سلطته الروحيّة، من أَجل حسن سير الجماعة، عوضاً عن مساعدتهم على الوفاء للّه لكي ينموا في الحرّيّة الداخليّة، مؤثراً على ذلك أَن يعملوا في سبيل الجماعة . إِنّ لوضع خطير يُبقي الباب مشرعاً أَمام الكثير من التجاوزات وقد يستغلّ الأَعضاء ذلك الوضع لابتزاز المسؤول عاطفيّاً، ممّا يجعل نهوضه بمسؤوليّته أَمراً عسيراً . ولذلك على المسؤول، في بعض الحالات، أَلاّ يخشى من مصارحة الأَعضاء أَنّ مهمّته تنحصر في مساعدتهم على تبوُّء مكانهم الصحيح في الجماعة، وعلى القيام بواجبات وظيفتهم على خير وجه، وعلى العثور على المرشد الروحيّ الذي يناسبهم .

و من الأَخطار التي قد يتعرّض لها المرشد الروحيّ، نقده لمعايب الجماعة أَمام الشخص الذي يرشده؛ بل عليه أَن يساعده على قبول الجماعة التي أُعطيها وعلى النموّ، حتّى في أَوضاعها العصيبة؛ وعليه أَن يتحلّى بالحَذَر عندما يتحدّث عن الجماعة وعن مسؤولها .

المرشد الروحيّ هو من يساعدنا على اكتشاف مغزى ما يصيبنا من مِحَن، وعلى الإِفادة منها . فمن المؤسف أَلاّ نفيد من آلامنا، ومضايقنا، وفشلنا لكي ننمو روحيّاً . وإِلاّ سرعان ما نسجن أَنفسنا في إِحباطاتنا، وسورات غضبنا، وانهيارنا النفسيّ .

ليس من الضروريّ دائماً أَن يقدّم لنا المرشد الروحيّ نصائح، فنور الحقيقة ثاوٍ في قلبنا . وإِن نحن تحلّينا بقدرٍ كافٍ من النضج والسلام لاكتشفنا الأَجوبة في داخلنا . غير أَنّنا نحتاج، دائماً، إِلى من يطرح علينا الأَسئلة الجيّدة .

لكلّ فرد موهبة يشارك بها الجماعة

الجماعة تحاكي أوركسترا تعزف سمفونيّة؛ لكلّ آلة فيها نَغَم جميل، ولكن عندما يعزف الجميع معاً، ويدع كلّ عازف آخر يسبقه عندما يتعيّن ذلك، يكون الوقع أَجمل .

و تحاكي الجماعة حديقة حافلة بطائفة من الزهور، والشجيرات والأَشجار، يساعد كلّ منها الآخر على الحياة، وكلّها معاً، في تناسقها تشهد لجمال اللّه، الخالق والبستانيّ .

و في الجماعة، طباع وأَنماط متباينة، يدعوها اللّه إِلى التعايش من أَجل إِغناء الجماعة. وإِن لم يكن هذا التعايش، أَوّل الأَمر، يسيراً، ولكن، شيئاً فشيئاً، يكتَشف غنى تباين الأَشخاص وتنوّع المواهب، ويتّضح أَنّ التباين ليس تهديداً بل كنزاً، وأَنّ " التنوّع دليل حياة، والتماثل البارد نذير موت " .

عندما يمارس أَحد الأَعضاء موهبة، فمن الضروريّ أَن يُصلّي الآخرون لكي يكونوا أَكثر انفتاحاً على الوحي، وأَداةً أَوفر طواعيّة بين يديّ الربّ، وأَن تتقبّل الجماعة موهبته بحبّ وشكر؛ ومن الضروريّ الصلاة من أَجل السُّلطة، ولأَجل من يمارسون موهبة الكلام. وهكذا يشترك الجميع بعضهم في مواهب البعض، ويتعاونون على بناء الجماعة، التي تزداد جمالاً عندما يمارس كلٌّ من أَعضائها مواهبه ممارسةً كاملة .

قال القدّيس بولس: "إِحملوا بعضكم أَحمال بعض، وهكذا حقّقوا شريعة المسيح". ويعلّق ديتريش بونهوفّر على ذلك بقوله : " ما يمثّل، في المقام الأَوّل، عبئاً للمسيحيّ هو حرّيّة قريبه

.. أي ما يكوّن جوهر طبيعته، وخصاله، ومواهبه، ومواقفه الغريبة، وكذلك كلّ الاحتكاكات، والصدامات، والمعارضات التي تنشأ بيننا وبينه . ومن ثمّ يعني حمل عبء القريب تحمّل واقع فطرته، وتقبّله، وبذلك التمكّن من الابتهاج به ... إنّ مغفرة الخطايا هي خدمة يوميّة، تتحقّق في صمت وفي شفاعة متبادلة؛ والمؤمن المثابر عليها يستطيع أن يثق بأنّ إخوته، من جانبهم، يصلّون من أجله، في الاتّجاه عينه . ومن يحمل الآخرين يوقن بأنّ الآخرين، أيضاً يحملونه، وهذا يهبه القوّة على المضيّ قدُماً "

و من أبرز المواهب، في الجماعة :

الإنصات : وعلى من ينصت أن يبعث شعوراً بالأمان . فلا أحد يبوح إلاّ لمن يثق في كتمانه السرّ . " السرّيّة " وجه جوهريّ من وجوه الإنصات، وتتمثّل في احترام جراح الآخر وآلامه، والامتناع عن إفشائها .

التبصّر : يتحلّى البعض بموهبة التمييز فيتبيّنون ما هو جوهريّ، في ثنايا حديث مشوّش أو قصّة مختلطة المعطيات؛ وإن هم كانوا عمليّين، فهم يقترحون الخطوات الأولى التي ينبغي اتّخاذها على درب الشفاء . وقد تضمّ الجماعة شخصاً لا يحتلّ وظيفة خطيرة، ولكنّه يمتلك موهبة التبصّر الكفيلة بإنارة الجماعة، فيتيعيّن الإصغاء إليه باهتمام .

الوفاء : في حقبتنا جماعات جديدة كثيرة تضجّ بأناشيدها، وريّان شبابها، وتحفّزها وقد تنزع إلى إغفال الجماعات القديمة التي تحرث الأرض، وتعيش بهدوء في الصلاة، والصمت، والتسبيح، والعمل اليدويّ، والصفح، والتي تضرب جذور تقاليدها في تربة القرون . على هذه الجماعات الشابّة أن تتعلّم الكثير من حكمة الجماعات القديمة التي تعيش الوفاء بلا ضجيج .

و قد تقضي جماعات شابّة عديدة نحبها من جرّاء إسرافها في الاندفاع والانفعال، في حين تواصل أخرى، أكثر صمتاً وسكينة، مسيرتها عبر الأجيال .

فلنحذر، نحن الجماعات الفتيّة، من الاعتقاد بانفرادنا بامتلاك الجواب، ولنتتلمذ على يد الحكماء الذين خبروا الأمور البشريّة والإلهيّة، وساروا مع يسوع منذ سنوات طويلة، واكتسبوا موهبة الوفاء .

الدهشة : قد ينزع القدامى إلى إغفال أجمل ما في جماعتهم، ويفقدون شيئاً من نعمة الدهشة؛ وهم، من ثمّ، يحتاجون إلى التجدّد بالإنصات إلى دهشة الشبّان الذين يشعرون بدعوة إلى الالتزام في الجماعة .

و من المخزي أن يتّهم قديمٌ شابّاً بالسذاجة، ويدين اندفاعه وسخاءه، بل، عندما تقترن، على تناغم، حميّة الشباب واندفاعهم ودهشتهم، بوفاء القدامى وحكمتهم، وقدرتهم على الإنصات، تكتسب الجماعة جمالاً .

و إنّه لحسن، دائماً، أن تشهد الجماعة تدرّجاً كبيراً في الأعمار، من الأَكثر شباباً إلى الأَكثر تقدُّماً في السنّ، فيتحقّق فيها، كما يتحقّق في الأُسرة، تكامل يُشيع السلام . فعندما تكون للجميع سنّ واحدة، قد يكون الأَمر مثيراً، لوهلةٍ خاطفة، ولكنّه سرعان ما يبعث على السأم، إنّ ثمّة، حاجة إلى قرن ريّا الشباب بحكمة القدامى الساجية .

مواهب الرجال، ومواهب النساء

قد يهب اللّه الرجل السُّلطة ويحرمه التبصّر، ويهب المرأة التبصّر ويحرمها السُّلطة . فإذا ما أَحجما عن التعاون معاً قد تنقلب علاقتهما حرباً باردة تفضي إلى الفوضى . وبتعاونهما تولد الجماعة .

بديهيّ أَنّه لا يسوغ التعميم . فقد يكون الرجل منفتحاً على التلقّي، وقد تمتلك المرأة مواهب الإدارة والسُّلطة . وإنّما القدرة على الخلق تعتمد على نموّهما المتناغم .

إنّ نُضج الرجل يكمن في نضج علاقاته بالمرأة . فطاما ظلّ في مرحلة علاقة الولد بالأُمّ أو في مرحلة المرأة بما تمثّله من جاذب أو نفور، لعجز عن النموّ، حتّى روحيّاً .

و ممارسة السُّلطة تقتضي وحدة داخليّة، بالسعي الدائم إلى التوفيق بين الصفات الخاصّة بكلٍّ من الرجل والمرأة . سحابة سنوات طويلة مارستُ السُّلطة بالتعاون مع نساء، وتبيّنت كم التعاون المتبادل ممكن . فقد كنت أَمتلك مواهب ليست نامية بقدرٍ كافٍ لديهنّ، وكنّ يمتلكن مواهب ليست نامية بقدر كافٍ لديّ . وقد اتّضح لي أَنّه يحسن اشتراكهما في ممارسة السُّلطة .

قاتل المواهب

تنهض الجماعة على الثقة المتبادلة بين أَعضائها . غير أَنّ الثقة واقع هشّ، سريع العطب . ففي قلب كلّ فرد زاوية شديدة الهشاشة حيث يسكن، أو يمكن أَن يسكن الشكّ . ولدى الشخص الذي يزرع الفتنة ملكة استشمام موضع إِشعال نار الشكّ؛ وهو قاتل للموهبة .

ثمّة من لا يلبث أَن يكتشف الثغرات، وهو عاجز عن تبيّن مواطن الخير في الجماعة؛ فينتقد الأَفراد والجماعة ويدّعي القدرة على إِنقاذها . هؤلاء " المنقذون " ماهرون في استقراء معايب الجماعة، وبارعون في التحدّث، والإِغواء، وخطرون ... ومن يدخل الجماعة، يحدوه مثل هذا الروح يمسي كارثة على ذاته وعلى الجماعة . فعلى من ينضوي إِلى جماعة أَن يستكين إِليها، ويكون مستعدّاً لخدمتها، محترماً هيكليّاتها وتقاليدها، مستهدفاً النموّ في التعاون، لا إِثبات مقدراته .

موهبة التحريك والإِحياء

من المهمّ أَن يكون بين صفوف الجماعة من يتقنون ملكة الكلام، وإِحياء الاجتماعات والاحتفالات . وقد قال لي أَحدهم، يوماً، أَنّ الوسيلة المثلى للتأهّب للتحدُّث ولإِحياء الاجتماع، هي التخشّع والإِنصات، برهة، قبل الحدث، إِلى احتياجات الجمهور العتيد وإِلى موسيقاه الداخليّة؛ وتجنّب اصطحاب نصّ مُعدّ مسبقاً . وحتّى بعد بدء الحدث يجب الاستمرار في الإِنصات إِلى موسيقى الأَشخاص للتمكّن من الاستجابة لتوقّعاتهم السرّيّة الصامتة فالكلام والاحتفال ينبغي أَن يكونا دائماً حواراً بين من يتحدّث ويحرّك، ومن ينتظرون الكلام انتظار التربة للغيث . وهذا لا يعني وجوب ترك كلّ شيء للإِلهام الآنيّ، بل من الأَفضل استيضاح ما يحتاج إِليه القوم حقّاً، وما يسع المتحدّث أَن يعطيهم . ولكن، في الآن عينه، وحتّى في أَثناء اللقاء، على المتكلّم أَن يظلّ منفتحاً على التلقّي، ومستعدّاً لتعديل ما أَعدَّهُ، لكي يستجيب لما يتلقّاه من نداءات سرّيّة .

الجاهزيّة :

من أَروع مواهب بعض من يعيشون في جماعة، جاهزيّتهم للخدمة؛ هؤلاء يثقون بالأَشخاص وبالجماعة، وهم منفتحون على كلّ ما يُسنَد إِليهم من مسؤوليّات . وإِن لم يعرفوا السبيل إِلى الاضطلاع بها، التمسوا عون الروح القدس، وإِزر إِخوتهم وأَخواتهم .

يميل الناس، في أَيّامنا، إِلى التقليل من شأن الطاعة، ربّما لأَنّ ممارسة السُّلطة سابقاً، كانت جائرة، وكان الاهتمام ينصبّ على النهوض بالوظيفة أَكثر من انصبابه على نموّ الأَشخاص إِنسانيّاً وروحيّاً . ولا بدّ، أَيضاً، من الاعتراف بأَنّ، ثمّة، نمطاً من الطاعة التي تحاكي العبوديّة، والتي تتّسم بالكآبة .

و الجاهزيّة موهبة قد تنتقل من شخصٍ إِلى آخر، مثل نار الحبّ التي تبثّ الحياة في الجماعة .

موهبة الفقراء

إِنّ الأَشخاص الذين يمتكون، أَكثر من سواهم، حسّاً بما هو جوهريّ للجماعة، وبما يميّز روحها ويحافظ عليه، غالباً ما يتوارون خلف مهامّ يدويّة وضيعة جدّاً، غير مكترثين بالمسؤوليّات الجسام، والإِنجازات الهامّة . بل إِنّ فكرهم حرّ للتركيز على الجوهريّ . وغالباً ما يكون الأَكثر نبويّة هو الأَصغر، المعاق، أو الحريض أو المسنّ . هؤلاء ينبغي أَلاّ يتورّطوا في الشؤون التنظيميّة لئلاّ يتحوّلوا عن موهبتهم الجوهريّة، موهبة الحبّ والخدمة، وما هو أَكثر من ذلك، موهبة استنهاض الحبّ، وإِيقاظ قلوب الآخرين على العطف والخدمة . وعلى المسؤول أَن يكون قريباً منهم ويلمّ بما يجول بخاطرهم، فهم الأَكثر تحرّراً بحيث يستشفّون، بوضوحٍ أَكبر، احتياجات الجماعة، وجمالها وآلامها .

من أَجل معرفة مدى وفاء الجماعة لرؤيتها الأَصيلة، ينبغي استنطاق الفقراء، والمحتاجين . ففقير الجماعة وصغيرها هما اللّذان يتبيّنان هل السُّلطة تمارس على نحوٍ سليم، وهل الجماعة وفيّة أم لا، ولذلك ينبغي الإِصغاء إِليهما، فلديهما الإِجابة المثلى على تساؤلات الجماعة .

إِنّ أَثمن مواهب الجماعة تكمن في الأَشخاص الذين قد لا يتمكّنون من تولّي مسؤوليّات جسيمة، لأَنّهم لم يخلقوا لكي ينظّموا، ويديروا، ويخطّطوا ويحكموا . غير أَنّ لهم قلوباً مفعمة بالحبّ والرقّة، ويميّزون في الحال الشخص الذي يواجه صعوبة؛ وببسمة، أو نظرة، أو زهرة، أو كلمة، يشعرونه : " إِنّني قريب منك، وأُشاركك حمل الصليب . فلا تقلق." هؤلاء الأَشخاص يحتلّون قلب الجماعة، ويحملون في قلبهم أُولئك الذين تنتصب بينهم حواجز . ولهم عن الجماعة آراء شديدة التباين . إِنّ حبّ هؤلاء الأَشخاص المتخفّين هو الذي يبقي الأَشخاص المتنابذين " الأَعداء "، في الجماعة، متّحدين اتّحاداً حيويّاً؛ ولئن كان الرئيس يوحّد

في العدل، فهؤلاء الأَشخاص المحبّون، هم، بكيانهم، عوامل وحدة، وهم برقّتهم، صانعو سلام .

إِنّ الضعيف والفقير، من جرّاء حاجتهما إِلى الآخرين، يدعوانهم إِلى الحياة، وإِلى ممارسة مواهبهم . إِنّ من يشعر أَنّ لا فائدة له، المريض، والمحتضر والمعتلّ في عواطفه وروحه، يلج في سرّ التضحية . وبمذلّته، وتقدمة آلامه، يمسي للآخرين معين حياة .

و في جذور جميع منجزات الجماعة الجميلة، ثمّة، دائماً حَمَلٌ ضحيّة، متّحد بحمل اللّه .

كثيرون هم الذين يسهبون في الحديث عمّا يفعلون، ولكنّهم لا يفعلون سوى القليل ممّا يتحدّثون عنه . وآخرون يفعلون الكثير، ولكنّهم لا يتحدّثون عن أَفعالهم . هؤلاء هم الذين يُحيون الجماعة ويدعمونها .

ليس أَسوأ من المداهنة . إِنّها طريقة رهيبة لخنق نبتات الحبّ، تقتل كلّ من يبتغون حياة عطاء حقّ، وحضور محبّ . ولكنّ الاعتراف بمواهب الآخر ليس مداهنة، بل من الضروريّ الاعتراف بالمواهب وتثبيتها وتشجيعها .

بناة الجماعة هم من يحبّون، ويصفحون، وينصتون، المفعمون رقّة، من يخدمون الآخرين، ويغذّونهم، ويصلّون من أَجلهم ... وليست الجماعة جماعة حقّاً إِلاّ عندما يدرك كلٌّ من أَعضائها أَنّه في حاجةٍ حارقة إِلى مواهب الآخرين، ويسعى إِلى أَن يكون، هو نفسه، أَكثر صفاءً، وتبصّراً، ووفاء في ممارسة مواهبه الخاصّة . وهكذا يتهيّأ لكلّ فرد أَن يسهم في بناء الجماعة، من موقعه .

الفصل الثامن : الاستقبال

إفساح المجال

الاستقبال هو دليل نضج حقّ، إنسانيّاً ومسيحيّاً . إنّه ليس مجرّد فتح باب البيت لقادم، بل إفساح مجال له في القلب لكي يعيش وينمو، مجال يُقبَل فيه، كما هو، بجراحه ومواهبه. وهذا يفترض أن ينطوي قلبنا على حيِّزٍ صامت وساكن يجد فيه الآخرون مكاناً يرتاحون فيه. فالقلب الذي يفتقر إلى السكينة عاجز عن الاستقبال .

و يفترض الاستقبال أن يكون كياننا العميق وحرّيّتنا الداخليّة قد أصابا من المنعة ما لا نخشى، معه، اللاأمان من جرّاء جهلنا، على وجه التحديد، هويّتنا ورسالتنا .

الاستقبال هو إشعارُنا الغريبَ بأنّه في بيته، وينعم بالراحة . وهذا يعني ألاّ ندينه، وأن نتحرّر من الأحكام المسبقة . وبعد أن نكون قد جهدنا في استقباله، وارتضينا بما يسبّبه من إزعاج، نكتشف فيه صديقاً، ونعيش معه لحظة تواصل، وسلاماً جديداً، يسوده حضورٌ إلهيّ. غالباً ما يكون الغريب نبويّاً، يهدم حواجزنا وجدران مخاوفنا، أو يجعلنا نعي وجودها .

الاستقبال ينطوي دائماً على مخاطرة، ولا سيّما استقبال الغريب، وهو دائماً مصدر إزعاج . ولكن ألا يأتي يسوع نفسه لكي يزعج عاداتنا، ورفاهنا، وسأمنا ؟ إنّنا، دائماً، في حاجة إلى حافز لئلاّ ننزع إلى التماس الأمان والرفاه، ولكي نواصل السير من عبوديّة الخطيئة والأنانيّة إلى أرض التحرّر الموعودة .

الاستقبال هو من الدلائل الأساسيّة على أنّ الجماعة حيّة . والسماح لآخرين بالعيش في الجماعة يعني التحرّر من الخوف، وامتلاك كنز حقيقة وسلام معدّ للاقتسام . وعندما تشرع الجماعة في إيصاد أبوابها ففي ذلك الدليل على انغلاق القلوب .

و لكن لكي تقوى الجماعة على الاستقبال ينبغي أن يكون لها وجود راهن، وأن تمتلك حياة حقّة . وعادةً ما تكون الجماعة، في مستهلّ عهدها، أكثر انغلاقاً . ولا بدّ من أن ينقضي وقت قبل أن يتعرّف الأعضاء بعضهم بعضاً، وتنشأ بينهم وحدة، كما هي الحال في الزواج : فلو قضى العروسان وقتهما في استقبال أصدقائهما، لن يُفسح لهما مجال لصوغ وحدتهما

ثمّة وقت لتمتين الجماعة ووقت لفتح الأبواب . فإن اقتصرت الجماعة على الاستقبال لسرعان ما تشتّت، ولما عادت جماعة تستقبل، بل كتلةً من الناس يلتقون في محطّة . وإن هي انكفأت على ذاتها فقد تتعرّض للاختناق، إذ سرعان ما تنشأ الخلافات، ويولد الحَسَد، وتكفّ الحياة عن الجريان .

إن كانت الجماعة محبّة، فهي جذّابة، ولأنّها جذّابة فهي، بالضرورة، مشرعة على الاستقبال فالحياة تستدعي الحياة .

فقد أَفتح باب مكتبي، ويظلّ قلبي موصداً، في حين أنّ الاستقبال هو فتح القلب، وإِفساح حيّزٍ فيه للضيف، والإِصغاء إِليه باهتمام، وتبيّن مواهبه، ورمقه بنظرة حبّ .

إِنّ استقبال شخص يودّ العيش في الجماعة يعني الإِصغاء إِليه بإمعان، ثمّ استبيان الحقيقة معه، فنتساءل هل بوسع الجماعة أَن توفّر له مجال السلام والعناصر التي يحتاجها لكي يشعر بالراحة ويتمكّن من النموّ ؟ ومن جانب آخر، هل هو، حسب معرفتنا له، وبعد أن تحاورنا وصلّينا معاً، مؤهّل للاستفادة من الجماعة، كما هي، وللتكيّف معها، في الحدّ الأَدنى المطلوب، أَم هو يتوقّع من الجماعة ما لا قِبَل لها على إِعطائه ؟ وعلى الجماعة أَلاّ تشعر بالذنب، إِن هي، بعد تبصّر، قالت لقادم " لا " . غير أَنّ، ثمّة، طريقة لقول "لا" مشفوع بالعطف، وطريقة للتأنّي، والإِصغاء، وإِفهام الشخص المعنيّ سبب تعذّر بقائه، وإِرشاده إِلى مكان آخر أَكثر ملاءمة له . فالطرد مؤلم جدّاً .

لكلّ جماعة مواطن وهن وحدود، هي أَيضاً ثروتها . ومن الضروريّ الإِلمام بها، ومعرفة معايير الاستقبال فيها، ومن الذي تستطيع استقباله، ومن تستطيع مساعدته حقّاً .

إِنّ الانفتاح والاستقبال قد يمثّلان لنا تحدّياً بتخطّي مخاوفنا وأَحكامنا المسبقة، وبالتوغّل في أَعماق التعاطف والتفهّم . وفي الآن عينه ينبغي أَن نظلّ أَوفياء لنشداننا صميم الحقيقة .

على أَعضاء الجماعة أَن يلتمسوا، بواسطة الصلاة، موهبة الاستقبال، فالاستقبال موهبة، حقّاً، موهبة حبّ للشخص المختلف أو غير المنتظر . وهذا الحبّ ينبع من الآب، وعلينا أَن نطلبه منه . إِنّ الاستقبال الحقيقيّ طاقة سلام، يتلقّاها الآخر ويتذوّقها .

قد يكون الاستقبال سهلاً عندما يكون المرء متفرّغاً، ولكنّه يصبح شاقّاً عندما يكون نهاره حافلاً بالمشاغل، والاجتماعات، وعندما يحيط به الناس من كلّ صوب، أو عندما يشعر بالتعب . وحينئذٍ يمسي الاستقبال عمل الروح القدس . فعلينا أَن نقيم بكثافة في الروح لكي نقوى على الاستقبال في مثل هذه الظروف . وحينئذٍ نصبح أَدوات للّه حقيقيّة .

استقبال سليم واستقبال زائف

إِنّ استقبال الزائرين هو امتداد لاستقبال الأَشخاص الذين يعيشون في جماعة، بعضهم لبعض . فمن كان قلبه مشرعاً على إِخوته وأَخواته، كان قلبه مشرعاً، أَيضاً، على الزائرين . أَمّا من انكفأ على ذاته وانغلق دون الآخرين في الجماعة، فقد ينغلق دون الزائرين.

الجماعة المنقسمة ينبغي أَلاّ تستقبل، فقد تلحق بالقادمين ضرراً .

الاستقبال والعناية الإِلهيّة

كلّما امتدّ العيش في جماعة، ازداد وضوحاً الدور الجوهريّ الذي تلعبه العناية الإِلهيّة فيها، وفي كلّ يوم نكتشف مدى فقرنا أَمامها، واحتياجنا إِليها، إِنّ الجماعة لا تعيش ولا تستمرّ في العيش إِلاّ بفضل قدوم أَشخاص جُدُد والتزامها في صفوفها . وكيف يمكن تفسير أَنّ شخصاً ما يتأثّر بالجماعة، دون سواه . إِنّ ما يجتذبه قدرة وقوّة أَكبر من الجماعة ذاتها . إِنّه دعوة من اللّه وعطاء منه .

و كلّ قادم جديد يأتي الجماعة بخصاله، ومواهبه، وأَيضاً بعيوبه، التي، مع الزمن، ستُسْهم في تغيير مسيرة الجماعة نحو نموّها .

الأَشخاص الذين نستقبلهم اليوم، سيلتزمون غداً، وسيحملون الجماعة بعد غد . الاستقبال، إِذن، حيويّ للجماعة، بل هو قضيّة حياة أو موت؛ وغالباً ما يكون الموقف الأَوّل هو الأَهمّ . فكثيرون يهربون لأَنّ الاستقبال الأَوّل كان منفّراً . وآخرون يمكثون بسبب بسمة أو بادرة رقيقة قوبلوا بها . ينبغي، إِذن، أَن يشعر القادمون الجُدد أَنّهم ليسوا مصدر إِزعاج، بل أَنّ الجماعة سعيدة بمشاركتهم . ولذلك يحسن أَن يُردّ على رسالة أَو على نداء هاتفيّ برقّة، وبلمسة مجّانيّة شخصيّة .

و إِن نحن استقبلنا كلّ قادم جديد على أَنّه عطيّة من اللّه، ورسوله، لبتنا أَكثر محبّة وانفتاحاً .

استقبال الهامشيّين

كثيرون هم الذين ينوؤون بعبء الوحدة؛ وإِن هم انتموا إِلى جماعة حملوا معهم بعض اضطرابات عاطفيّة، هي، غالباً، ثمرة آلامٍ وإِهمال تعرّضوا لها في طفولتهم . فيحسن أَن ينضووا إِلى جماعة توفّر لهم سنداً، وموئل ازدهار ونموّ . ولكن من البديهيّ أَنّهم سيتألّمون فيها وسيسبّبون الآلام . ولذلك يحتاج هؤلاء الذين لهم احتياجات خاصَّة إِلى جماعات ذات هيكليّات خاصّة .

عندما تستقبل جماعةٌ هامشيّين، قد لا يكون الأَمر، في البدء، مغرقاً في السوء؛ ثمّ، لأَسبابٍ متعدّدة، تنتاب الهامشيّين نوبات قد تقودهم إِلى محاولة الانتحار . وقد تكون هذه النوبات شديدة القسوة على الأَعضاء، وترميهم في بحران من الاضطراب، إِذ تشعرهم بعجزهم . وإِذا ما وعى أَعضاء الجماعة، حينئذٍ، فقرهم، لغدت لهم هذه النوبات فترة نعمة، فالشخص الهامشيّ الصعب المراس ينطوي على عنصر نبويّ؛ إِنّه يدفع الجماعة نحو التغيير دفعاً، لأَنّه يقتضي الصدق، ولأَنّ جماعات كثيرة قائمة على الأَحلام، والأَقوال الجميلة، وتسهب في التشدّق بالحبّ، والحقيقة، والسلام ... وإِذا ما انتمى الهامشيّ إِلى مثل تلك الجماعات لكان شديد الاقتضاء، ولا سيّما اقتضاء الحقيقة، فهو، من خلال الكلام المنمّق يستشفّ الكذب، ويتبيّن التفاوت بين ما يُقال، وما يُعاش حقّاً . وإِن عمدت الجماعة إِلى طرده، ردّاً على متطلّباته، فقد يُحدث ذلك انفجاراً حقّاً . وقد تجنح الجماعة إِلى إِلصاق شتّى النُّعوت به فتصفه بأَنّه لا يُطاق، مريض، كسول، لا ينفع لشيء، وتمعن في تحقيره لأَنّه أَماط اللثام عمّا تنطوي عليه من سوء .

أَجل، ينبغي التبصّر، والتزوّد بالحكمة عند استقبال قادمين جُدُد؛ وإِنّه لمن الأَفضل رفض البعض، منذ البدء، لأَنّ الجماعة تعي حدودها . فذلك خيّرٌ من قبوله، بسذاجة، ثمّ دعوته، فيما بعد، إِلى المغادرة .

للشخص الهامشيّ، في الجماعة، احتياجات خاصّة . فهو كائن جريح، يفتقر، غالباً، إِلى الأَمل، وإِلى الثقة بنفسه . وقد تنهال عليه موجات اضطراب تدفعه إِلى أَفعال لا إِراديّة حيال الآخرين وحيال ذاته . كيانه الداخليّ مهلهل، يسوده تشويشٌ كثيف؛ وهو سريع الانتقال من وضع ترقد فيه كلّ رغباته إِلى وضع آخر تتأَجّج فيه فوضى من الرغبات . في داخله صراع رهيب بين الظلمات والنور، بين الموت والحياة . إِنّه كائن لا مرجع له في شخص أَو في قانون . ووعيه لعزلته وفقره هو الذي يهوي به إِلى القنوط .

و لكي يستعيد الهامشيّ الرجاء يحاج إِلى الشعور بأَنّه محبوب ومعترف به . ففقط من خلال نظرة عطف يلقيها عليه آخرون سيكتشف، شيئاً فشيئاً، أَنّه إِنسان له قيمة، وقادر على عمل إِيجابيّ؛ إِنه بحاجة إِلى من يصغي إِليه، إِلى جراحه واحتياجاته، ويتحسّس رغباته الواقعيّة . وهذا الإِصغاء يستلزم وقتاً وصبراً، لأَنّ الهامشيّ يخشى البوح، ولا يبوح بمكنونات نفسه لأَيٍّ كان . إِنّه بحاجة إِلى شخصٍ لا يكتفي بعدم إِدانته، بل يفهمه بعمق، شخصٍ يحدوه الاهتمام والإِصغاء، ويصبح شيئاً فشيئاً مرجعاً منيعاً يدعم، ويوفّر الأَمان، ويشجّع، ويساعد الهامشيّ على اكتشاف طاقاته وعلى تحمّل مسؤوليّاته، ويجمع الحزم إِلى الرقّة والطيبة .

فإِن لم يتوفّر لدى الجماعة مثل هذا الشخص المرجع، خيرٌ لها أَلاّ تستقبل هامشيّين وعليها أَيضاً أَن تكون متّحدة اتّحاداً وثيقاً ومحكمة التنظيم، وإِلاّ ضاعف الهامشيّ توتّراتها، وسرّع مسيرة انهيارها .

على الجماعة استقبال الهامشيّين على أَنّهم منّة من السماء . فهم يسبّبون جمّاً من الإِزعاج، ولكنّهم يساعدون سائر الأعضاء على أَن يظلّوا أَبداً متيقّظين لمزيد من الحبّ، والإِصغاء، وتبيّن المبادرات الصغيرة الكفيلة بإِضفاء السلام . وعلى الجماعة مساعدة الهامشيّين على التحرّر من الشعور بالذنب، وعدم الانطواء في المرض، أو الانكفاء على الذات، وتجنيبهم العزلة، لكي تجنّبهم الآلام، لاحقاً .

الفصل التاسع : الاجتماعات

لكي تُصاغ جماعة حقّاً، ينبغي أَن يلتقي أَعضاؤها بصفتهم أَشخاصاً، وبصفتهم إِخوة وأَخوات، وألاّ تقتصر اجتماعاتهم على شؤون العمل . عندما تكون الجماعة صغيرة يسهل على الجميع التلاقي والمشاركة، وتتمّ اللقاءات تلقائيّاً، في فترات مختلفة من النهار . غير أَنّ الجماعات تكبر، والعمل يزداد، ويكثر الزائرون، بحيث لا يلتقي الأَعضاء إِلاّ من أَجل التنظيم والتخطيط . وحينئذٍ لا بدّ من ساعة محدّدة، أو من يوم، أو من سهرة أُسبوعيّة، ينفرد فيها الأَعضاء، في منأى عن العمل والزائرين، ويغلب على لقائهم الطابع الشخصيّ .

إِنّ الحياة الجماعيّة تفترض التزاماً شخصيّاً يتحقّق عبر لقاءات بين أَشخاص . ولكن سرعان ما يتهرّب البعض من هذه اللقاءات، ويخشونها لأَنّها تُلزِم ... يهربون من اللقاء الشخصيّ مؤثرين إِنجاز أَعمال من أَجل الغير، في حين أَنّ محبّة الآخرين تقتضي التقاءهم .

ثمّة أَنماط مختلفة من الاجتماعات، ولكنّها، في جماعةٍ ما، تستهدف غايةً واحدة : التواصل، وبناء جسدٍ واحد، وخلق إِحساس بالانتماء، والاجتماع على المحبّة .

هناك اجتماعات تبتغي ***الإِطلاع والإِعلام***، والإِدلاء بمعلومات شفويّة تغذّي القلوب والعقول وتوثق عرى الوحدة .

و هناك اجتماعات تناقش فيها ***أَعمال*** الجماعة، تعمَّق فيها الرؤى، وتُتّخذ القرارات، بعد التمحيص؛

و اجتماعات ***لإِعلان*** الرؤية، بها تتأَثّر القلوب، وتتغذّى، وتتقوّى .

و اجتماعات ***للاسترخاء*** ببساطة، والتمتّع بالوجود معاً .

و اجتماعات ***للاحتفال*** وأُخرى ***للصلاة*** معاً

و لا بدّ من إِيضاح غاية كلّ اجتماع، إِذ إِنّ كلّ اجتماع يُعاش على نحوٍ خاصٍّ وفقاً لهدفه .

يلزم وقتٌ لاكتشاف طريقة إِسهام كلّ اجتماع في بناء الجماعة، وتغذية القلوب والعقول؛ ويلزم وقت لتبيّن طريقة إِعداد كلّ اجتماع وعيش المصاعب الملازمة لكلٍّ منها، ولتعلّم احتمال آلامها، وأَوقات النقاشات العصيبة، بل الصراعات أَحياناً، ولا غروَ في ذلك، فالمرء لا يتعلّم في يومٍ واحد التخلّي عن آرائه، ومشاريعه الخاصّة، من أَجل تبنّي آراء الجماعة ومشاريعها . ولا بدّ من وقت لكي يثق أَعضاء الجماعة بعضهم ببعض .

و عندما يجهد كلّ عضو في الإِصغاء إِلى رأي الآخر، ويجهد الجميع في اكتشاف الوسيلة المثلى لتنظيم أَمرٍ ما لصالح الجميع، غالباً ما يعمّ الفرح والسلام .

بعض جماعات " السفينة " تعقد اجتماعات تدعى " مكرّسة "، تتمّ في المُصلّى أو في مكان آخر، وهي تُستَهلّ بصلاة، وبوقفة صمت؛ ثمّ يتحدّث كلّ عضو حديثاً مسترسلاً، يُفصح به عمّا يعيش، وكيف يفهم الحياة الجماعيّة؛ لا نقاش، ولا بحث عن الحقيقة "الموضوعيّة "، بل اقتسام الحياة المعاشة مع الآخرين، وإتاحة الفرصة للقاء شخصيّ، وللاطّلاع على موقع الآخرين من الجماعة . والمطلوب هو إصغاء مفعم تفهّماً، بلا مهاجمة، ولا لوم، ولا دفاع عن النفس، بل الاكتفاء بالتصريح عمّا يُعاش، إذ إنّ الكثير من التعقيدات التي تنشأ في الجماعة تنجم عن الخوف من الإفصاح عن بعض الوقائع، والمشاعر، خشية الإدانة . إنّ التعبير عن بعض الأُمور يحرّر؛ وقد لا ينتهي ذلك إلى حلول، ولكن عندما يحيط كلّ فرد بما يعيشه الآخر، يشرع بمحاولة تغيير سلوكه . وإنّ مجرّد التصريح بالمصاعب والأفراح المعاشة قد يُقرّب الكثيرين، ويضاعف التفاهم المتبادل، وينسج وشائج . وبعد أن يُقال كلّ شيء، يشترك الجميع في الصلاة، ولا يناقَش أيّ شيء، بل يبقى ما قيل مخبأً في قلب اللّه .

ينبغي ألاّ يأتي أحد إلى اجتماع وهو يحمل، في داخله، آلاماً وإحباطات مترسّبة من اجتماع سابق أو من أحداثٍ أُخرى في الجماعة . فنجاح الاجتماع يعتمد على الطريقة التي يتأهّب بها له الناس، داخليّاً . فلو جاء الجميع بفسحة صمت داخليّ، وجاهزيّة، واندفاع لكان الاجتماع حيّاً ومغذّياً؛ أمّا إن جاؤوا غاضبين، عكري المزاج، فمن المؤكّد أنّ الاجتماع لن يؤتي أيّ غذاء .

لكي نحسن حضور اجتماع جماعيّ، ينبغي أن يواكبنا اليقين بأنّ يسوع حاضر فيه، وأنّه يقودنا في بحثنا عن الحقيقة، وأنّ لكلّ عضو موهبة يستطيع الإسهام بها . وحينئذٍ ستكون مشاركتنا تعبيراً عن العمل معاً للعثور على الحقيقة وعلى مشيئة الربّ .

إنّ طريقة إصغائنا، والرقّة التي نستمع بها إلى من يتلعثم أو يتفوّه بحماقات من جرّاء الخوف، تظهران مدى اشتراكنا في الاجتماع . إنّ الخجولين، الفاقدي الثقة، قد يتكلّمون بعدوانيّة أو بغباء، وإن ووجه حديثهم بازدراء توغّلوا، أكثر فأكثر، في خجلهم ومخاوفهم؛ في حين أنّ تقبّلاً صادقاً لأقوالهم قد يساعدهم على استعادة الثقة بأنفسهم، وعلى اكتشاف أنّ لديهم ما يستأهل الإدلاء به .

إدارة الجلسة

من الأَهمّــيّة بمكان استهلال الاجتماع وإنهاؤه، في الوقت المحدّد، وهــذا يفتــرض انتظاماً . ويحسن دائماً استهلال الاجتماع بفسحة صمت، أو بصلاة إن أَراد الجميــع ذلــك . وعندما يتعيّن اتّخاذ قرارات خطيرة، يجدر المثول في حضور اللّه، وتجاوز الآراء الخاصّة، والرغبات والأَهواء . وقد تساعد قراءة مقطع من الكتاب المقدّس على التركيز، وعلى الدخول في تواصل أعمق .

و ينبغي تحديد جدول الأَعمال، ووقف معظم الوقت على الأمور الأَساسيّة، وتجنّــب الفوضى في نقاشات مستفيضة حول جزئيّات قليلة الشأن . ويتعيّن الحزم للالتــزام بجــدول الأَعمال، وتجنّب الاستطرادات النافلة؛ ولكن لا بأس من شيء من المرونة، فقد تتفجّر أَفكــار جديدة، من خلال بعض الاستطرادات . ويحسن، أَيضاً، إتاحة فسحات استرخاء وضحك . إنّ إدارة الجلسة بحيث تغدو مغذّية وممتعة فنّ يُكتسب بالمران، ويقتضي قدرة خلاّقة، كما يقتضي الثقة والتواضع . يجب إفساح فرصة التحدّث لكلّ عضو، بحيث لا يحتكر الكلام، في جميــع الجلسات، الأَشخاص أَنفسهم، الذين تجدر دعوتهم إلى ضبط أَنفسهم وتعلّم الإصغاء . ويحسن التوقّف في إحدى مراحل الجلسة، واستيضاح كلٍّ من الحاضرين، بدوره، عن رأيه .

التعبير يمثّل تحرّراً، وعلى الجماعة أَن تتحلّى بقدرة كافية على الإصغاء بحيث يتمكّن كلّ فرد من الظفر بهذا التحرّر .

عندما تتعثّر الجلسات، من جرّاء توتّرات، ينبغي أَلاّ يفضي ذلك إلى إحباط . فلكلّ فرد الحقّ باجتياز فترات عصيبة، ولكلّ فرد نوبات كلَل وسأم، وريبة وتشوّش . وحينئــذٍ يتعــيّن البحث عمّا يلطّف الأَجواء، ويبعث على التلاقي في سكون وفرح .

و إذا ما أُحسنت إدارة الجلسات، واعترف الجميع بضــرورتها للحيــاة الجماعيّــة، وشاركوا فيها بانتظام لأَصبحت أَوقاتاً حيويّة، يعي فيها الجميع أَنّ الجماعــــة هـــي مكــان تواصل. فيلتقون ويعترف بعضهم ببعض، إخوة وأَخوات، ويصبح بعضهم للــبعض خبــزاً . وحينئذٍ يصبح الاجتماع احتفالاً يُقدّم فيه كلّ فرد نفسه للآخرين غذاءً، وتأكيداً بــأَنّ الجميــع أَعضاء جسد واحد .

ثمّة وسيلة بوسع مجموعة أَشخاص التذرّع بها لبلوغ قرار جماعيّ يكون كلٌّ منهم قد استوعبه وتبنّاه، ألا وهي التبصّر الجماعيّ، وهو يختلف عــن انقيــاد جماعــة، مــن غيــر اعتراض، لرأيٍ طرحه المسؤول فقُبل قبولاً سلبيّاً مذعناً؛ ويختلف، أَيضاً، عن قرار اتُّخذ بعد جدال ونقاش صاخبين . فالتبصّر الجماعيّ يقتضي أَن يُعمل كلّ فرد الفكر ويختــار اختيــاراً

شخصيّاً، بعد أَن يكون قد محّص جميع الآراء المطروحة؛ ويقتضي، أَيضاً، أَلاّ ينشد الجميع سوى الحقيقة ومشيئة اللّه، مترفّعين عن الأَهواء، والنزوع إِلى فرض الآراء ووجهات النظر الخاصّة . وليس هذا، دائماً، بالأَمر اليسير، وقد يعدّه البعض هدراً للوقت، ولكن، على حدّ قول " باولو فرير " : " كلّ هدر للوقت في سبيل الحوار، ما هو سوى هدرٍ ظاهريّ، ولكنّه، في الواقع، وقتٌ يُكتَسب لليقين، والثقة في الذات وفي الآخرين؛ وهذا ما يعجز رفض الحوار عن تقديمه . "

في أَيّ اجتماع، من الهامّ أَن يُمنح كلّ فرد وقتاً للتعبير عن آرائه . وإِذا ما تباينت الآراء، فلا بدّ من اكتشاف أَسباب هذا التباين العميقة . وفي سبيل ذلك ينبغي عدم التريُّث عند الأَسباب السطحيّة، والإِمعان في التحقّق، وتبيّن الإِيجابيّات والسلبيّات، إِلى أَن يتّضح الوضع، ويُتوصّل، إِن أَمكن، إِلى إِجماع .

و ينبغي دائماً الاهتمام بالأَقليَّة المعارضة التي لا ترتاح إِلى قرار اتُّخذ بأَغلبيّة الأَصوات. هذه الأَقليّة هي، أَحياناً، نبويّة، وتستشعر خلَلاً ما، وقد تسيء التعبير عن ذلك . وربّما تنبع معارضتها من أَسباب شخصيّة أَو من رفضها للنظام وللسُّلطة . ويحسن دفع هذه الأَسباب الخفيّة إِلى العلن، وحمل أَصحابها على التعبير عنها بأَكبر قدر من الوضوح والهدوء، في معزل عن الشعور بالذنب أَو بالخيانة تجاه الجماعة والمسؤول . ففي الجماعة من الهامّ أَن يشعر كلّ فرد بحرّيّة التعبير وفقاً لحقيقة ضميره . ومن المحزن أَن يُخنَق الضمير الشخصيّ أَو يُشَلّ، خوفاً من الاتّهام بالنكوث بالعهد، أَو، ما هو أَسوأ، بدافع طاعة رهبانيّة، إِنّ الجماعة لا تخنق الوجدان الشخصيّ، بل هي تصوغه؛ وعلى الجماعات أَن تتعلّم قبول الاختلافات، وإِحاطتها بالحبّ .

الفصل العاشر : المهمّات اليوميّة

عيش المهامّ اليوميّة

أَحد الدلائل على أَنّ جماعة تتمتّع بالحيويّة يُقرأ من خلال محيطها المادّيّ : كالنظافة، والترتيب، وطريقة تنسيق الزهور، ووجبات الطعام، ووقائع كثيرة أُخرى، تعكس حقيقة قلوب الأَشخاص . هذا العمل المادّيّ قد يبدو للبعض مملاًّ، فهم يؤثرون أن ينفقوا الوقت في التحدّث وعقد العلاقات، لأَنّهم لم يدركوا، بعد، أَنّ مئات المهمّات الصغيرة التي يتعيّن القيام بها كلّ يوم، والتي تندرج في دائرة التوسيخ والتنظيف، هي عطيّة اللّه، لكي تتيح للأَشخاص أَن يتواصلوا من خلال المادّة، بحيث يصبح إِعداد الطعام، وتنظيف الأَرضيّة، أُسلوباً لإِبداء الحبّ للآخرين . وعندما يُنظر إِلى أوضع عمل مادّيّ هذه النظرة، يصبح كلّ شيء نعمة، ووسيلة تواصل، ويغدو كلّ شيء عيداً، فالعيد هو القدرة على العطاء .

و من الضروريّ الاعتراف بعطاءات الآخرين المتواضعة والحسّيّة هذه، ومعرفة التعبير لهم عن شكرنا . فالاعتراف بعطاء الآخرين عمل أَساسيّ في الحياة الجماعيّة، ويتحقّق عبر بسمة أو لفظة " شكراً " .

العمل الذي يودَع فيه حبّ يمسي جميلاً، وثمرته جميلة . والجماعة التي تفتقر إِلى الترتيب والنظافة تفتقر إِلى الحبّ . بيد أَنّ الجمال الأَسنى هو جمالٌ متجرّد وبسيط، حيث كلّ شيء موجّه نحو لقاء الأَشخاص فيما بينهم ومع اللّه .

نحن، جميعنا، مدعوّون للقيام لا بأَعمال خارقة، بل بأَعمال عاديّة جدّاً، بحبٍّ خارق يتفجّر من قلب اللّه . إِنّ الحبّ تواصل مع اللّه ومع إِخوتنا وأَخواتنا . وليست الأَعمال البطوليّة هي التي تبني الجماعة، بل الحبّ الذي يُعبَّر عنه في أُمور الحياة اليوميّة الصغيرة . والجماعات التي تهرب دائماً نحو ما هو عظيم وبطوليّ، إِنّما هي تهرب من الجوهريّ .

إِنّ الجماعة حيث العمل متقن، ويتمّ في كتمان وصمت وتواضع حبّاً بالآخرين، كفيلة بأَن تصبح جماعة يُعاش فيها، بعمق، حضور اللّه . فيها يحتلّ كلّ فرد مكانه، مضطلعاً بمهامّ وضيعة يوميّة بحنان وكفاءة، سعيداً بأَداء خدمة، معتبراً الآخرين متفوّقين عليه، مشتركاً، بسلام، مع اللّه والآخرين والطبيعة، مقيماً في اللّه، واللّه فيه؛ وحينئذٍ ترتدي الجماعة بعداً تأَمُّليّاً .

يظنّ كثيرون أَنّ الحياة الجماعيّة هي نسيج مشاكل يتعيّن حلّها . والواقع أَنّه بقدر ما يتحقّق التقدّم في الحياة الجماعيّة يتّضح أَنّ المطلوب ليس حلّ المشاكل بقدر ما هو التعايش

معها بصبر، وفي الحقيقة، في معظم الأَحيان، المشاكل لا تُحلّ، ولكن مع كرّ الزمن، واكتساب التبصّر والوفاء للإِصغاء، تتضاءل المشاكل من حيثُ لم يُتوقَّع .

غالباً ما يتطلّع أَعضاء الجماعة إِلى " أَوقات هامّة "، وإِلى أَعياد تبعث النشوة، ويغفلون أَنّ غذاء الحياة الجماعيّة الأَمثل، الذي يجدّد القلوب ويفتحها، هو أَعمال صغيرة من وفاء، وحنان، وتواضع، وغفران، ورقّة، وقبول بالمهامّ اليوميّة . هذه الأَعمال تحتلّ صميم الحياة الجماعيّة، وتغوص بنا في واقع المحبّة، تؤثر في القلوب، وتكشف النقاب عن المواهب .

وتيرة الحياة اليوميّة

ثمّة جمالٌ فائق في العمل الدقيق والمتقن، ولكأنّه مشاركة في عمل اللّه الذي يصنع كلّ شيء بانتظام وحكمة، ويصنعُه جميلاً في أَدقّ تفاصيله .

إِنّ حقبتنا، حقبة الأَتمتة، تجنح إِلى نسيان عظمة العمل اليدويّ المتقن . إِنّ للعامل اليدويّ جانباً تأمّليّاً . فالنجّار الحقيقيّ الذي يحبّ الخشب، والخبير بأَدواته، لا يستعجل، ولا يفقد السيطرة على أَعصابه؛ بل يعرف ما يتوجّب عمله ويقوم بكلّ عمل بدقّة؛ وإِنتاجه جميل .

ثمّة عامل توحيد فاعل في الجماعات التي يعمل فيها كلّ فرد، من موقعه، بدأبٍ ودقّة؛ في حين أَنّ الجماعات التي تحفل بالرفاه، وأَوقات الفراغ المهدورة، والقليل من الدقّة، سرعان ما تصبح جماعات فاترة ينتشر فيها سرطان الأَنانيّة .

و ليست حياة الصِّغر، دائماً، سهلة الاحتمال . أَذكر أَنّني، في أَحد فصول الصيف، كنت مسؤولاً عن فريق من خمسة عشر شخصاً يقضون عطلة، في بيتٍ أَعارناه أَصدقاء على مقربة من دير رهبانٍ . وكان يروق لي الاستيقاظ باكراً والصلاة مع الرهبان، وكان الصمت والسلام السائدان يوسّعان آفاق قلبي . ثمّ، في حوالي الساعة الثامنة، كان عليّ أَن أَعود إِلى البيت، وقلبي مُثقَل بالحزن، إِذ كان عليّ أَن أوقظ أَشخاصاً وسّخوا أَسرّتهم، وأُنظّفهم، وأُلبسهم ثيابهم، ثمّ أُعدّ الإِفطار، واضطلع بشتّى المهامّ العاديّة، وأُواجه الخصامات التي تنشب كلّ يوم، في الحياة الجماعيّة . وما أَبعد كلّ ذلك عن سلام المنسك وسكونه !

هذا الأَلم أَجبرني على الاستغراق في أَعماق روحانيّة السفينة، وعلى استعادة وحدة كياني، وعلى أَلاّ أَكتفي بفترة حياة روحيّة كثيفة في مطلع النهار، يعقبها عمل طيلة النهار . كان عليّ العثور على وسيلة لإِدخال الحبّ والصلاة في جميع نشاطاتي وأَعمالي، في التنظيف وغسل الأَطباق، وكلّ المهامّ الصغيرة التي تقتضيها الحياة الجماعيّة .

إِنّه لرائع أَنّ يسوع عاش، ثلاثين عاماً، حياة خفيّة في الناصـرة، مـع أُمّـه مـريم ويوسف، ولم يكن أَحد يعرف أَنّه المسيح، ابن اللّه . فعاش التطويبات بتواضع، عاش حيـاة الأُسرة والجماعة، وعمل بالخشب، في حبّ أَبيه . وفقط بعد أَن عاش بشرى الحـبّ، هـبّ للتبشير بها . إِنّ حياة يسوع الخفيّة هي نموذج كلّ حياة جماعيّة .

قوانين المادّة

في كلّ جماعة قوانين مادّيّة جوهريّة، إِذ ينبغي احتـرام الاقتصـاد، وطريقـة إِدارة الشؤون الماليّة، والعثور على موارد للعيش، عن طريق العمل أو بوسائل أُخرى . إِنّ الجماعة في حاجة إِلى هيكليّات، وإِلى نظام يحدّد، أَقلّه، وقت الطعام الجماعيّ، ويُعيّن من يأمر، وماذا يأمر، وكيف يأمر ... غير أَنّ الإِدارة، والاقتصاد، والهيكليّات الجماعيّة، لا هدف لها سـوى تمكين روح الجماعة وأَهدافها من أَن تتحقّق، وتزدهر وتترسّخ .

ثمّة أَشخاص يرفضون الجانب المادّيّ من الجسد، وينزعون إِلى التحليق في الروحيّ؛ فيأبون الهيكليّات التي يخشونها، وينبذون كلّ قانون ونظـام وسـطلة . ويهـدرون الطعـام، والكهرباء، والمحروقات، ولا يعون قيمة المال، ولا يدركون ماهيّة الأَشياء المادّيّة، ويبتغـون جماعة روحيّة صرفاً قائمة على المحبّة، والعلاقات الدافئة، والعفويّة، ويغفلون أَنّ الجماعـة هي دائماً اتّحاد جسد وروح .

قال ستيفن فيرتي : " نحن أَكثر أَرضيّة، وأَكثر سماويّة ممّا نجرؤ على الاعتقاد". وهذا القول ينطبق على الجماعة . إِنّ الجسد هامّ، وجميل، وتنبغي العناية به، ولكنّه مصنوع مـن أَجل الحياة، والروح، والقلب، والرجاء، ونموّ من قامت الجماعة من أَجلهم.

حبّ وفقر

إِنّ مشكلة الفقر عسيرة الحلّ، إِذ سرعان ما تغتني الجماعة، ولها، في ذلـك، خيـر المسوّغات . فلا بدّ من برّاد يسمح بشراء اللحم بسعر أَدنى، وحفظ البقايا؛ وغالباً ما يقتضـي التوفير في الإِنفاق توظيفات مكلفة . فشراء سيّارة ضروريّ لإِشـعاع الجماعـة، ولابتيـاع الحاجيّات بأَسعار رخيصة . وهذا يؤدّي إِلى التخلّي عن الدرّاجة وعن السير على الأَقـدام . وثمّة آلات تسمح بإِنجاز الأُمور إِنجازاً أَسرع وأَجدى، ولكنّها تقضي على بعض النشـاطات

الجماعيّة . وسيحزنني جدّاً أَن يبتاع مركز "السفينة" في تروسلي، ذات يوم، آلة لغسل الأَطباق . فغسل الأَطباق يمثّل واحداً من أَفضل الأَوقات التي نقضيها معاً في الاسترخاء والضـحك . وبوسع جماعات أُخرى أَن تقول الشيء عينه في إِعداد الخضروات، الذي يمثّل وقت مشاركة .

ثمّ إِنّ بعض الآلات تدفع إِلى البطالة أَشخاصاً ضعفاء كانت توفّر لهم أَعمال المنـزل والمطبخ انشغالاً، ووسيلة لتقديم شيء للجماعة؛ ومن المؤسف إِلغاء هذه الأَعمال، إِذ سرعان ما تنتظم الحياة الجماعيّة وفقاً لنموذج مصنع، أو مشفى، أَو أَيّة مؤسّسة، بل حتّى وفقاً لنموذج المجتمع الحديث حيث يستطيع أَشخاص، بفضل الآلة، إِنجاز أُمور كثيرة بسرعة، ويصبحون نشيطين، رهيبين، منشغلين أَبداً، ويتحكّمون بالآخرين، الأَقلّ قدرة، والذين يحكمون عليهم بالبطالة والتسكّع حول التيليفزيون .

إِنّ جماعة تغتني، وتمتلك كلّ ما تحتاج إِليه، وتتمتّع بالاستقلاليّة، تنعزل، وتنغلق على نفسها، وعلى ثروتها، وتفقد إِشعاعها، وأَهليّتها للشهادة، وديناميكيّة الحبّ . فعندما يغتني المرء يقيم من حوله أَسواراً، بل يقيم أَحياناً كلباً شرساً لحماية ممتلكاته؛ أَمّا الفقراء فليس لديهم ما يدافعون عنه، وغالباً ما يقتسمون الزهيد الذي يملكونه .

في الجماعة الفقيرة، ثمّة الكثير من التعاون والدعم المادّيّ، فضلاً عن العون الخارجيّ . وحينئذٍ يصبح الفقر ملاط الوحدة . ويتجلّى ذلك بوضوح في" السفينة ": فعندما نقوم بحجٍّ معاً، يشترك الجميع بابتهاج في كلّ شيء، ويكتفون أَحياناً بالزهيد . أَمّا الأَغنياء فهم أَكثر تطلّباً، وتشدّداً، ويميل كلّ فرد منهم إِلى الوحدة والانعزال .

في قرى أَفريقيا الفقيرة ثمّة مشاركة، ودعم متبادل، واحتفالات؛ أَمّا في المدن الحديثة، فينحبس كلّ فرد في شقّته حيث يملك كلّ ما يحتاج إِليه، إِذ لا حاجة، ظاهريّاً، لأَحدهم إِلى الآخر، ولا اعتماد لأَحدهم على الآخر، بل كلٌّ مكتفٍ بذاته، والحبّ مفقود .

إِنّ جماعة تسرف في مشاهدة التيليفزيون سرعان ما تفقد معنى الإِبداع، والمشاركة والاحتفال؛ ينعدم فيها التلاقي، ويتركّز كلّ فرد على الشاشة .

في الواقع، من يتحابّون يكتفون بالزهيد . وعندما يسود قلوبهم الفرح والنور، لا يحتاجون إِلى ثروات خارجيّة . والجماعات الأَكثر تحابّاً هي، غالباً، الأَشدّ فقراً . ولايمكن أَن يكون قريباً من الفقير من يعيش في البذخ والتبذير، فحبّ إِنسانٍ ما يدفع إِلى التمثّل به، والاقتسام معه .

و الأَهمّ هو إِدراك الجماعات لما تبتغي الشهادة له، فالفقر ليس سوى وسيلة في خدمة شهادة حبّ، وأُسلوب حياة .

ينبغي أَن يكون الفقر في خدمة الحبّ والاستقبال . ويظلّ السؤال قائماً : هـل تريـد العيش من أَجل الشهادة للحبّ والاستقبال، أم إِنّك تودّ الاحتماء وراء الرفاه والأَمان ؟

بُعد الجماعة السياسيّ

لا يسوغُ أَن تقبع الجماعات المسيحيّة في منأى عن المجتمع . فهي ليسـت مطـارح للهروب، مثل مخدّر يقاوم الكآبة اليوميّة، وليست أَماكن لتهدئة الضمير، ويُهـرب فيـه مـن الحاضر إِلى حلم في ما وراء الطبيعة . بل هي أَماكن تجدُّدٍ للطاقات، من أَجل مساعدة كـلّ شخص على النموّ نحو التحرّر الداخليّ بحيث يحبّ جميع البشر على غرار حبّ يسوع لهم . إِنّ رسالة يسوع واضحة، فهو يندّد بالأَغنياء والمتكبّرين، ويُشـيد بالمتواضـعين . وعلـى الجماعات المسيحيّة أَن تقيم في قلب المجتمع، وأَن تظهر لعيون الجميع، فلا يجوز أن يخفـى القنديل تحت المكيال .

و على هذه الجماعات أَن تنهض دليلاً على أَنّه بالقليل من الموارد المادّيّة، وفي معزل عن المثيرات المصطنعة، يمكن للقلب أَن يطرب جذلاً، ويدهش لجمال الشخص القريب منّـا، ولجمال الكون الذي هو مسكننا، وعليها أَن تثبت، أَيضاً، أَنّ بوسعنا العمل معاً لكـي يكـون حيُّنا، وقريتنا، ومدينتنا موئلاً لمزيد من العدل، والسلام، والصداقة، والإِبداع، والنموّ الإِنسانيّ .

و حينئذٍ يغدو للجماعات المسيحيّة بعدٌ سياسيّ .

إِنّ السياسة تغشى على بصيرة بعض المسيحيّين، فمنهم أَعداءٌ للشيوعيّة، ومنهم أَعداء للرأسماليّة، بعضهم يطالبون بحماية الاقتصاد الليبراليّ، وبعضهم ينادون بتأميم كـلّ شـيء، والتخطيط لكلّ شيء .

أَلا يتعيّن، بالأَحرى، على المسيحيّين أَن يوظّفوا طاقاتهم في سبيل خلـق جماعـات مسيحيّة تعيش إِلى أَبعد مدى ممكن، ميثاق التطويبات ؟ مثل هذه الجماعات التي تعيش وفقـاً لقِيَم غير قِيَم التقدّم المادّيّ والنجاح، واكتساب الثروات، والصراع السياسيّ، بوسعها أَن تصبح خميراً في عجين المجتمع . وهي لن تسعى، أَوّلاً، إِلى تغيير البنى السياسيّة، بل إِلـى تغييـر قلوب الأَشخاص وأَفكارهم في المجتمع، بجعلهم يستشفّون بُعداً جديداً للكائن البشـريّ، بُعـد العمق الداخليّ، والحبّ، والتأمّل، والدهشة والمشاركة، حيث الضعيف والفقير لا يُستبعَدان، بل يحتلاّن قلب المجتمع .

رجائي هو أن تتغيّر البنى إذا ما انتشر حقّاً هذا الروح الجماعيّ، فالبنى هي مرآة للقلوب، إلاّ في حالة الأنظمة الاستبداديّة .

و هذا ينطبق أيضاً على من يناضلون في سبيل قضيايا كبرى . فبعضهم يناضلون من أجل السلام، وهم عدوانيّون جدّاً حتّى حيال حركات سلام " منافسة " . أفلا يتعيّن أن ينهل هؤلاء الملتزمون من حياةٍ جماعيّة حيثُ تُلقَّن المصالحة، والاحتفال وتقبّل الاختلافات والظُلمات الذاتيّة . أليس خَطِراً أن تكون لجماعات تُعنى بالقضايا الإنسانيّة الكبرى مواقف عدائيّة، وأن تعمد إلى تقسيم العالم إلى " صالحين " و" أشرار " ؟ إنّ هذا النمط من النخبويّة خَطِرا جدّاً، وقد يؤدّي إلى نمطٍ من التمييز والسحق حيال من لا يشاركون الجماعة آراءها .

هذه الجماعات التي تعيش في البساطة، والفقر، بلا تبذير، ومن غير حاجة إلى التيليفزيون طوال النهار تمكّن من اكتشاف نمط حياة جديد يقتضي قدراً أدنى من الموارد الماليّة، ولكنّه يستلزم قدراً أكبر من طاقات العلاقات والاحتفال . أوَ ليس ذلك وسيلة من أفضل الوسائل لردم الهوّة الماضية اتّساعاً كلّ يوم بين البلدان الغنيّة والبلدان الفقيرة؟ فالمطلوب ليس مجرّد مساعدة سخيّة للبلدان الفقيرة على النموّ، بل ينبغي أيضاً حمل البلدان الغنيّة على اكتشاف أنّ السعادة لا تكمن في السعي المحموم نحو الخيرات الماديّة، بل في علاقاتٍ بسيطة ومُحِبّة، تُعاش ويُحتَفل بها في حياةٍ جماعيّة مجرّدة من الغنى .

بقدر ما يستولي القلق على الإنسان يتشبّث بمنقذين جُدد، بمتعصّبين سواء في ميدان السياسة، أو التحليل النفسيّ، أو الدين، أو الصوفيّة؛ أو إنّه يجهد في الذهول عن كلّ شيء بالجري نحو المثيرات الآنيّة، والثروة، والجاه .

و على الجماعات أن تبرهن على أنّ العيش الإنسانيّ ممكن، وأنّه، حتّى في إطار هيكليّاتنا الراهنة، لا حاجة إلى أن نكون عبيداً لصيَغ العمل، والاقتصاد اللاإنسانيّ، والمُتعات المصطنعة أو المثيرة .

الجماعة هي، جوهريّاً، المكان الذي نتعلّم فيه العيش على وقع القلب البشريّ والطبيعة، ووفقاً لأبعادهما . فنحن في حاجة إلى حرارة الشمس، وإلى الماء والبحر، والهواء الذي نتنشّقه؛ إنّنا أبناء الطبيعة، وشرائعها هي جزء من جسدنا . ولا يعني ذلك أنّ الاكتشافات العلميّة نافلة، بيد أنّها ينبغي أن تكون في خدمة الحياة لكي تخلق بيئة ومكاناً يسع الإنسان فيهما أن ينمو حقّاً، بكلّ أبعاد كيانه ...

في عالم غالباً ما يتجاهل البشر فيه بعضهم بعضاً ويتناحرون، على الجماعات أن تنهض دليلاً على أنّ الحبّ ممكن، وأنّ الفرح لا يستلزم الكثير من المال، بل أنّ النقيض هو الصحيح .

ليس التمييز العنصريّ حكراً على أَفريقيا الجنوبيّة، بل هو موجود في كلّ بلد وفي كلّ قلب . ونحن جميعنا نجنح إِلى القَبَلِيَّة، وإِلى التواري خلف مخاوفنا، في نـوادي الأَصـدقاء، وبرفقة من يشاركوننا الرأي ويداهنوننا . أَوَ ليس من الأَهميّة بمكان، سياسيّاً، اليوم، أَن نشهد بقدرتنا على العيش معاً، وبأَنّ جدران البغض التي تفصلنا يمكـن الاسـتغناء عنهـا، وبـأَنّ أَشخاصاً ينتمون إِلى ثقافات وتقاليد دينيّة مختلفة، يمكنهم تبادل الحبّ والاحترام، وبأَنّ الحرب والاضطهاد ليسا حتميّين ؟ وأَليس هامّاً، في عالم يُزال فيه المعاقون قبـل ولادتهـم أو فـور ولادتهم، أَن تدأب جماعاتٌ على إِبراز جمالهم وقيمتهم ؟

إِنّني دائم الإِعجاب بأَخوات يسوع الصغيرات، وبأَخوات الأُمّ تيريـزا، وبجماعـات أُخرى يعشنَ وسط الشعب، ويقدّمن شهادة حياة .

في جماعتنا في كلكتّا التي تضمّ خمسة عشر شخصاً نتساءل أَحياناً عن جدوى عملنا . فنحن قطرة ماء في هذا المحيط الفسيح من الآلام والشقاء . وعلينا أَن نذكر أَبداً أَنّنـا لسـنا منقذي العالم، بل دليل، بين آلاف الأَدلّة، على أَنّ الحبّ ممكن، وعلى أَنّ العـالم لا تحكمـه الجدليّة بين المسحوقين والطغاة؛ وأَنّ صراع الطبقات والأَجناس ليس قَدَراً محتّماً، وأَنّ هناك رجاء . ذلك، لأَنّنا نؤمن أَنّ الآب يحبّنا، ويرسل لنا روحه لكي يحوّل قلوبنا، ويقودنا في هذا العبور من الأَنانيّة إِلى الحبّ، لكي نستطيع أَن نعيش جميعاً، في الحياة اليوميّة، إِخوة وأَخوات .

إِنّ سارتر مخطئ : فالآخر ليس جهنّماً، بل هو السماء، وهو لا يُصبح جحيماً إِلاّ إِن كنت أَنا هناك، أي إِن انكفأتُ على ظلماتي وأَنانيّاتي . ولكي يصبح هو سماءً، علـيّ أَنـا أَن أَعبر، بتؤدة، من الأَنانيّة إِلى الحبّ، وأَن يتحوّل قلبي وعيناي .

إِنّني أُعجب كلّما زرت أُسَراً لها ولد معاق إِعاقة سحيقة، حيث الوالدون يقضون معه كلّ أَيّامهم، والنهار كلّه، بقليل من العون، وقليل من الوقت للاستراحة؛ ولا يتلقّون عن عملهم لا إِعجاباً ولا تكريماً؛ لا بل قد يتعرَّضون، أَحياناً، للنقد لأَنّهم لم يقضوا على ابـنهم، أو لـم يضعوه في مؤسّسة، على هامش المجتمع . نحن، في"السفينة"، ننعم بأَيّام عطلة، ونتلقّى عوناً وتشجيعاً من مهنيّين ومن الكنيسة، لا بل نتلقّى راتباً، وغالباً ما يرانا الناس رائعين وأَسخياء . ولكن أَليست هذه الأُسَر هي التي تعيش، بعقٍ، الحبّ والتواضع والاستسلام للّه ؟ ليس الـذين اختاروا العيش في جماعات هم الأَعظم شأناً، بل الأَعظم شأناً هم ملايين البشر، عبر العـالم، الذين يعيشون الحبّ في الخفاء، ويعيشون الاستقبال والصفح . وجدير بالذين اختاروا العـيش في جماعة أَن يتعلّموا منهم الكثير .

الفصل الحادي عشر : الاحتفال

الصفح والاحتفال يحتلاّن قلب الجماعة، إنّهما وجهان لواقع واحد، هو واقع الحبّ .

و الاحتفال خبرة فرح جماعيّة، ونشيد شكر، به نحتفل بكوننا معاً، ونقدّم الشكر عمّا أوتينا من نعمة . إنّ الاحتفال يغذّي القلوب، ويعيد الرجاء، ويهب القدرة على عيش آلام الحياة اليوميّة ومصاعبها .

بقدر ما يزداد شعبٌ فقراً، يزداد حبّه للاحتفال . إنّني أُدهش لإقبال أفقر أهالي الهند وأفريقيا على الاحتفال بالأعياد، أحياناً لمدّة أيّام عديدة، منفقين كلّ مدّخراتهم لإقامة مآدب فخمة أو لصنع وشراء ألبسة جميلة . وغالباً ما ترتبط هذه الاحتفالات بمناسبات دينيّة وترتدي طابعاً قدسيّاً .

أمّا في البلدان الغنيّة فالقوم قد فقدوا فنّ الاحتفال، ومعنى العيد، لأنّهم فقدوا معنى التقاليد .

العيد هو صرخة فرح يطلقها جميع من ارتبطوا معاً بمعاهدة، لأنّهم اقتيدوا من العزلة إلى المعاهدة، ومن القنوط إلى الرجاء .

إنّنا نحتاج إلى جانب أيّام العمل اليوميّ المملّ، لأفراح العيد وليوم راحة . إنّ القلب البشريّ يصبو إلى ما يتخطّى تخوم إحباطات الرتابة اليوميّة، وهو متعطّش إلى سعادةٍ تبدو متعذّرة المنال على الأرض، ويتطلّع إلى اللانهائيّ، والشامل، والأبديّ، إلى ما يضفي معنىً على الحياة البشريّة، وعلى المهامّ اليوميّة المملّة . العيد رمز إلى ما تصبو إليه البشريّة: خبرة مجيدة لتواصل تامّ .

إنّ الاحتفال يجسّد، على نحوٍ ملموس، غاية الجماعة، وهو، بذلك، عنصر جوهريّ من عناصر الحياة الجماعيّة؛ بفضله تُزال التوتّرات الناجمة عن الرتابة اليوميّة، وتُنسى الخصومات الصغيرة . نشوته توحّد القلوب، وعبره يمرّ تيّار حياة . إنّه فترة دهشة يقترن فيها فرح الجسد والحواسّ، بفرح الروح . إنّه الفترة الأكثر إنسانيّة والأكثر إلهيّة في الحياة الجماعيّة .

و بقدر ما تكون المهامّ اليوميّة شاقّة ومملّة، تتفاقم حاجة القلوب إلى فترات احتفال ودهشة، حيث يلتمّ الشمل، ويشترك الجميع في الشكر، والنشيد، والرقص، وتقدّم وجبات خاصّة .

الاحتفال رمزٌ للقيامة التي تولينا القوّة على حمل صليب كلّ يوم . فثمّة علاقة وُثقى بين الاحتفال والصليب .

إنّ الصرخة العميقة التي تتفجّر من أعماق القلب البشريّ هي صرخة تلتمس الحياة، والحياة وحدة سلام . والفرح يتفجّر من الوحدة، والوحدة تولد من الحبّ الذي يتأكّد يوماً إثر يوم، ومن الاستقبال المتبادل والصفح . والاحتفال هو نشيد الفرح والشكران المنبعث من الشعور بالوحدة إلاّ أنّه، فضلاً عن ذلك يخلق الوحدة ويرسّخها .

غالباً ما نملك الفرح في معزلٍ عن اللّه، أو نملك اللّه في معزل عن الفرح، في حين أنّ العيد هو الفرح مع اللّه . لكلٍّ تقليده في الاحتفال . ونحن في " السفينة "، نستطيع أن نحتفل بالاستغراق في الضحك والفرح، ثمّ ندخل، في الحال، في الصمت والصلاة . أوَ لا يتعيّن أن ينتهي كلّ احتفال بالصلاة الصامتة، لأنّه احتفال بلقاء اللّه شخصيّاً؟

إنّ الاستغراق في الضحك هامّ في حياة الجماعة، فهو يطرد الكثير من الآلام .

الاحتفال شكرٌ للّه عن حَدَث تاريخيّ حيث أظهر قدرته المُحِبّة حيال البشريّة، والشعب، والجماعة؛ كما أنّه تذكير بأنّه ما انفكّ حاضراً، ساهراً على شعبه، وعلى الجماعة سهر أب يحبّ أبناءه . ومن ثمّ فالعيد ليس مجرّد احتفال بحدث غابر، بل هو احتفال بواقعٍ حاضر، وعيش هذا الحدَث اليوم .

فمن المحزن، مثلاً، أن ينسى الناس معنى عيد الميلاد، بحيث يقتصر على الأكل والشرب وتقديم هدايا غالية الثمن لأولاد أفسدهم الدلال . إنّ عيد الميلاد هو عيد الفقراء والأولاد، وعيد الأسرة؛ إنّه فترة سلام .

في العديد من مراكزنا، يوم الخميس العظيم، عقب الاحتفال بالإفخارستيّا وبيسوع الذي حوّل جسده إلى خبز، نتناول وجبة الفصح، وفي أثنائها نتذكّر جميع لحظات النعمة التي عشناها معاً خلال العام . ثمّ نغسل بعضنا أرجل بعض، ويصفح بعضنا عن البعض . ويتمّ كلّ ذلك في الحبّ والبساطة، بإحساس واقعيّ بالمقدّسات . بعدئذٍ نشخص إلى المصلّى ونقضي وقتاً مع يسوع الذي قال في بستان الزيتون : " ألم تستيطعوا أن تسهروا معي ساعة واحدة ؟ "

من الهامّ أن نذكر ونعيد قراءة تاريخنا الشخصيّ، وتاريخ الجماعة، بمناسبة أيّام الأعياد، وأن نقدّم الشكر للربّ الذي سهر علينا، ووقانا، وأنقذنا عبر السنين . ولا بدّ لنا من التذكّر بأنّه إن دعا الجماعة للوجود، وسهر عليها في الماضي، فهو ما انفكّ يسهر علينا اليوم، مع كلّ تساؤلاتنا، ومصاعبنا، وتوتّراتنا .

الأعياد مبثوثة على دروب الإنجيل . ومعجزة يسوع الأولى تمّت في عرس قانا، حيث حوّل الماء خمراً، لكي يزيد العيد جمالاً ... وغالباً ما كان، في مناسبات الأعياد، يظهر في الهيكل ليعلن بشرى تتعلّق بالعيد؛ وقد مات يوم عيد الفصح . فعلينا أن نتعلّم استخدام كلّ عيد، وكلّ احتفال، لكي نقدّم رسالة الحبّ والرجاء المناسِبة . فلكلّ يوم رسالة كفيلة بتغذية القلب، وتجديد الرؤية وتعميقها، وبمنح الحياة .

و في قلب العيد يثوي الفقير، فإذا ما أُقصي الصغار، لم يعُدْ، ثمّة، عيد . فلا بدّ من أن يكون العيد، دائماً، عيد الفقراء، والعيد مع الفقراء، لا العيد من أجل الفقراء .

يعجب الزائرون دائماً من الفرح السائد في " السفينة "، رغم كتلة الآلام التي يحملها بعض الرجال والنساء في جماعاتنا؛ ممّا يجعلني أتساءل ألا ينبع الفرح عن مكانٍ ما من الألم والتضحية ؟ هل بوسع الأغنياء الذين يعيشون في الرفاه والأمان، ويملكون كلّ ما يحتاجون إليه، ويأبون الاقتراب ممّن يتألّمون، أن يعرفوا الفرح الحقّ ؟ أليس فيهم وقرٌ من الشعور بالذنب اللاواعي الذي يغلقهم على ذواتهم ؟ إنّ الفرح ينبع من الانفتاح؛ وإنّني لعلى يقين بأنّ بوسع الفقراء أن ينعموا بالفرح، وهم، في مناسبة العيد يتفجّرون فرحاً، ولكأنّهم قد تجاوزوا جميع آلامهم وإحباطاتهم، وباتوا يعيشون لحظة تحرُّر، وتخفَّفوا من عبء المهامّ اليوميّة، وغدت قلوبهم تطفر فرحاً . وهذا ينطبق، أيضاً، على الذين يعيشون في جماعة، وقد تعلّموا تقبّل جراحهم، ومحدوديّتهم، وفقرهم، وظفروا بالصفح والحبّ، واكتشفوا التحرّر، فما عادوا يخافون من ذواتهم، ولا عادوا في حاجة إلى التواري، ونالوا حرّيّة الروح القدس .

يختلف الاحتفال عن العرض المسرحيّ حيث الممثّلون والموسيقيّون يسلّون المشاهدين ويوفّرون لهم الاسترخاء؛ أمّا في احتفال العيد فالجميع ممثّلون ومشاهدون، في آنٍ واحد . وعلى كلّ فرد أن يلعب دوراً، ويشارك، وإلاّ لما كان الاحتفال احتفالاً حقّاً .

وفي الاحتفال الأرضيّ ثمّة، دائماً، عنصر كآبة، إذ إنّ هناك أُناساً لا يحتفلون، يائسون، في محنة، ونزاع، وجوع، وحداد . ولذلك، إن كان كلّ احتفال هو هلليلويا كبيرة، ونشيد شكر، إلاّ أنّ عليه أن يُختَتَم بصلاة نحمل فيها إلى اللّه جميع الذين لا يحتفلون بعيد .

إنّني أتأثّر دائماً بالكلمات التي تُستخدم في القدّاس : فهي احتفال، وعيد، وحضور، وتواصل ومشاركة، ومأدبة وذبيحة، وغفران، وفعل شكر . هذه الكلمات توجز خير إيجاز الحياة الجماعيّة . إذ ينبغي أن نكون، حقّاً، حاضرين أحدنا للآخر، متواصلين أحدنا مع الآخرين، نتيجة تواصلنا مع يسوع، وحينئذٍ يتحقّق العيد ويتمّ الاحتفال . هذان التواصل والاحتفال هما فترة غذاء، إذ نصبح بعضنا لبعض خبزاً، بعد أن أصبح اللّه لنا خبزاً . إنّ التضحية تحتلّ صميم الحياة الجماعيّة، إذ يتعيّن على كلّ فرد أن يضحّي بمصالحه الخاصّة، من أجل مصالح الآخرين، مثلما ضحّى يسوع بحياته لكي نتلقّى الروح . والعيد يُستهَلّ بطلب الصفح، ويُختتم بالشكر .

ليست غاية الإفخارستيّا، فقط، تغذية تقوانا الشخصيّة، بل هي احتفال وفعل شكر تنهض بهما الجماعة كلّها، من أجل الكنيسة جمعاء، والبشريّة بأسرها . إنّ الاحتفال بالإفخارستيّا، هو من قمم الحياة الجماعيّة، حيث نكون على أوثق قدر من الاتّحاد معاً، وحيث

نقدّم كلّ شيء للآب عبر يسوع . والإفخارستيّا، للمسيحيّين، قمّة جميع الاحتفالات وقلبها، وتحتلّ مركز الجماعة .

في أيّامنا حيث العديد من البشر المنهارين، والذين يتوجّسون من المستقبل خشية، من الهامّ أن نعلن رجاءنا في اللّه، ونحتفل به . قد تكون، ثمّة، حروب وثورات، وأوبئة وكوارث طبيعيّة، غير أنّ اللّه يسهر على البشريّة بحبّ . والموت ليس نهاية كلّ شيء، فالحبّ قد انتصر على الحقد والموت . وليس محتّماً أن تكون الاحتفالات ضاجّة وصاخبة، بل بوسعها أن تكون هادئة، ومجرّد نشيد ثقتنا وحبّنا، والتعبير عن وحدة جسدنا السرّيّ، والإعلان عن شهادة البُشرى بأنّ اللّه قائم فيما بيننا، وفي قلوبنا، وبأنّ يسوع قام من القبر، وهو حيّ .

وجبات الطعام

وجبة الطعام هي الاحتفال اليوميّ الصغير حيث نلتئم جميعاً حول مائدةٍ واحدة لكي نتغذّى ونلتقي في المشاركة والفرح . إنّها توفّر متعة خاصّة للجسد وللإحساس؛ ومن ثمّ، ينبغي ألاّ نستعجل في الفراغ منها بذريعة مهامّ أُخرى أكثر أهمّيّة، وأكثر روحانيّة . إنّها حدث جماعيّ هامّ يجب أن يُحسن إعداده، وعيشه بالكامل . فوجبة الطعام هي الوقت الذي يقترن فيه فرح الأكل والشرب بفرح اللقاء . إنّها واقع إنسانيّ رائع .

و لهذا السبب ينبغي تجنّب النقاشات العدوانيّة، والمواقف الجادّة أو التربويّة على المائدة، كما ينبغي عدم تشجيع وجبات العمل . فوقت الطعام هو فسحة استرخاء للجسد والروح؛ والضحك يفيد عمليّة الهضم؛ في حين أنّ الأُمور الجادّة والنقاشات قد تفضي إلى التقرّحات والاضطرابات المعويّة .

في أثناء الطعام على كلّ فرد أن يلتقي جميع الآخرين، ولو من خلال مبادرة صغيرة، بحيث تصبح وجبة الطعام لحظة طبيعيّة للتواصل تُخرج بعض الأشخاص من عزلتهم.

الوجبات وكذلك النشاطات الجماعيّة والاحتفالات تسلتزم إعداداً دقيقاً، بحيث لا يُترك كلّ شيء للارتجال، بل في إطار إعدادٍ جيّد يمكن ترك فسحة للتلقائيّة، والتغيير، والتطوّر . وينبغي دائماً رصد وتمديد اللحظة، ربّما غير المتوقّعة، التي ستكون لحظة مميّزة للوحدة، والنعمة، والخشوع، لحظة دهشة حيث يعبر تيّار حياة من خلال الفرح .

في معزل عن الإعداد المحكم قد ينهار كلّ شيءٍ في السأم، وتنعدم الوحدة والاحتفال.

و عقب كلّ نشاط جماعيّ، يتحتّم إفساح وقت للتقييم، وللتساؤل هل أَصاب النشاط هدفه المبتغى، وينبغي الاعتراف بالثغرات، والأَخطاء، بغية تجنّبها، في النوبة التالية .

عندما يُعدّ جيّداً لوجبات الطعام والنشاطات الجماعيّة، فقد تصبح هذه فترات مدهشة زاخرة بالمشاركة والاحتفال، وتبادل معلومات جيّدة، مع ما يقتضيه ذلك من انفتاح ذهن . كثيرون يُقبلون على وجبات الطعام فقط بصفة مستهلكين، غير مدركين ما تستطيع هذه الوجبات لعبه من دور في بناء الجماعة . بل قد تكون مناسبة لأَلف مبادرة رقيقة .

أَدعوا البشريّة كلّها إِلى العيد ! فنحن لم نخلق لكي نكون حزانى، ونعمل طيلة الوقت، ونخضع، جادّين، للقانون، ونكافح . بل جميعنا مدعوّون إِلى مأدبة العرس . وعلى جماعاتنا أَن تكون دليل فرح واحتفال، وإِن هي كانت كذلك، لكان دائماً من يلتزمون بها . الجماعات الحزينة عقيمة، وهي أَماكن احتضار . من المحقّق أَنّنا لن نظفر، على الأَرض بفرح كامل، غير أَنّ أَعيادنا هي علامات صغيرة عن العيد الأَبديّ، وعن العرس الذي نحن جميعنا مدعوّون إِليه .

متفرّقـــــــــــــــــــــــــــــــــــــات

يسوع ابن اللّه وابن الإنسان

مريم، الحريّة الصافية، صفوة البشريّة، قالت "نَعَم" في ليل إيمانها، فحلّ ابن اللّه على الأَرض رادماً، نهائيّاً، الهوّة اللامتناهية بينه وبيننا، بين رغبته ورغبتنا، حياته وحياتنا، وبين الوجود والبشريّة .

هذا " النَعَم " الأَوّل، في التجرّد المطلق، يفتتح تاريخ " نَعَم " بشر لا يُحصون يتعيّن عليهم، من مواقعهم في الزمن والمكان، أَن يعلنوا عن " نَعَمهم " لكي يكبر يسوع ويصبح يسوع المسيح العظيم التامّ الذي يمثّل حلم الآب الأزليّ، ولكي يصبح البشر المكتملون، أخيراً، متحدّي القلوب، إخوة، ينبضون، أَبديّاً، على وقع الثالوث .

يسوع الناصريّ يعتلن لنا ليس فقط بصورة اللّه غير المرئيّ، بل أَيضاً في صورة الإِنسان المكتمل، هو شخصيّاً، "يسوع التاريخيّ"، ولكن، أَيضاً ، يسوع الكامل، أَي بالإشتراك معنا، نحن أَعضاء جسده السرّيّ، الممثّلين بعده الأفقيّ، نحو البشر .

ليس، إِذن، من إِنسان مكتمل تماماً سوى يسوع الناصريّ؛ وعندما هو يدعونا إِلى مثل كمال أَبيه السماويّ، وإِلى حبّ إخوتنا البشر، كما يحبّنا، فهذا ليس في متناولنا، فرديّاً، ولكن يسعنا بلوغ هذا الهدف معه وبه، ولكي يمكّننا منه جاء إِلينا .

فمن شاء معرفة اللّه والإِنسان عليه مخالطة يسوع الناصريّ؛ وبقدر ما نحاول التمثّل به نصبح أَكثر "على صورة اللّه"، ونصبح أَكثر فأكثر "على صورة ابنه".

قد يدعو اللّه كلاًّ منّا، في أماكن وظروف مختلفة من وجودنا، ولكن لا يغربنّ عن بالنا أَنّ الطريق الأَوّل والطبيعيّ للقاء اللّه هو يسوع الذي أَعلن : " أَنا السراط، والحقيقة، والحياة " و لأنّنا ننهج دروباً أُخرى نخطئ حقيقة الإِنسان واللّه .

يسوع، مثل كلّ إِنسان، مكوّن من جسد وقلب وروح، ولكنّ هذه العناصر متّحدة، متناغمة، مؤتلفة، وموجّهة لخدمة الآخرين، وخدمة أَبيه، والرسالة الموكلة إِليه .

جسديّاً هو منيع ومقاوم؛ حياته الرسوليّة مرهقة، ولئن هو خضع لمقتضيات جسده مثل كلّ إِنسان، وعرف الجوع والعطش والتعب، إِلاّ أَنّه ليس عبداً له . إنّه ينام، ولكنّه يفيق باكراً لكي يصلّي، ويسهر ليلاً لهذا الغرض، وعندما أَلحّ عليه تلاميذه، عند بئر السامريّة، لتناول الطعام قال : " لديّ ما أَطعمه، وهو طعام لا تعرفونه " .

و قد أَشار البعض إِلى ردّات يسوع العنيفة، وهم محقّون، فيسوع ليس ذلك " الوديع " الذي تخيّله البعض . غير أَنّ عنف أفعاله وأَقواله ليس أَبداً فيض حيويّة جسديّة أو حساسيّة

جامحة . بل هو " عنف حبّ "، موجّه نحو حواجز ينبغي تخطّيها (تجـارة فـي الهيكـل)، وأيضاً جدار ثروات، وكبرياء ...) وليس، أبداً، ردّ فعل انتقام، أو حقد، أو بغض .

و لم يكبت يسوع مشاعره، التي كانت مزدهرة، وقد عبّر عنها تعبيراً كـاملاً، فـي أقواله وأفعاله، بلا تحفّظ . يقابل الأطفال بحنان، ويقبّلهم؛ ولا يستبعد ملاطفة النساء (حتّـى الخاطئات) . يتأثّر أمام أسى الأرملة التي فقدت ابنها. ويبكي لدى سماع نبأ وفـاة صـديقه لعازر، وأمام قبره . يؤثر بعض من يقابلهم، حتّى بين تلاميذه كان تلميذ يؤثره بحبّه؛ غير أنّ مشاعره مضبوطة وموجّهة بإحكام : فهو قد اختار بطرس ولم يختر يوحنّا، مسؤولاً أوّل عن الكنيسة .

ويتمتّع يسوع بمزايا روحيّة خارقة : ذكاء ثاقب، وخيال، وفصاحة حديث، إلـخ ... والروحيّ المزدهر فيه قد اندمج كلّيّاً في شخصيّته الفذّة، مع كلّ قواه الحيويّة، بحيث يسـتطيع أن يضع كلّ ذاته في نظرة : " نظره وأحبّه "، أو في كلمة : " قل كلمة فقط فيشفى خادمي "، أو في لمسة : " لو استطعت لمس هدب ردائه "، أو في نداء : " تعالَ واتبعني . "

و في حجمه الأفقيّ، يسوع منفتح على الطبيعة؛ يتأمّلها، ويحبّها، ويحترمها، ولكنّـه يظهر أنّه قادر على السيطرة عليها من أجل خدمة إخوته، عوضاً عن أن يدعها تسيطر عليه . وهنا تكمن عجائبه التي تبيّن قدرته على الوجود : إنّه يأمر العاصفة، والآخرين، والأمراض، ولا يفعل ذلك بحركات فائقة الطبيعة، أو مثل بعض ممارس الأشـفية؛ ولا بإلغـاء قـوانين الخليقة، بل بتصحيح بعض مسارها الذي ضلّ طريقه، وبالارتقاء بها إلى مـلء ازدهارهـا الطبيعيّ بإشراعها على الفائق الطبيعة .

عجائب هي إشارات تدلّ على أنّ قدرة حبّ يسوع والإيمان في هذه القـدرة قـادران على تصحيح بل على قهر الشرّ المدوّن، على نحو سرّيّ، في قلب الوجود، والمقروء بوضوح في قلب كلّ إنسان .

عجائب تنبئ تدريجيّاً بالدرب الذي انتهجه يسوع نحو المعجزة الكبرى الفريدة، معجزة قيامته .

و في حجمه الأفقيّ نحو البشر، لم يقسر يسوع أحداً على اتّباعه، ولكنّه لم يستثنِ أحداً من مشاركته . بل استقبل الجميع وحملهم في قلبه . فهو قد أُرسل من أجل الجميع .

يسوع هو الإنسان المكتمل وفيه خُتم العهد الجديد . إنّه منفتح بالكامل على أبيه، وعلى جميع البشر، إنّه كلّ الإنسان، وكلّ اللّه، متّحدان في كائن واحـد، وبـه نحـن، مجتمعـون، موحّـــــــــدون، مســـــــــامَحون، ومخلَّصــــــــــون .

الحبّ الحقّ

ينبغي، أوّلاً، محاولة التحرّر من الفكرة الراسخة لدى الكثيرين أنّ حبّ إنسانٍ ما، هو الشعور، نحوه بالميل، والصداقة، والمودّة، بحيث يقاس الحبّ، والحالة هذه، بكثافة المشاعر، وشدّة الانجذاب، والإحساس .

و لو كان الحبّ كذلك لاستحال حبّ جميع البشر، ولا سيّما أعدائنا، على نحو ما طلب يسوع من تلاميذه، ولكان عسيراً، بل محالاً، في رأي البعض، الحبّ الدائم، وخاصّة بين الأزواج : " بما أنّه لم يعد يساورني أيّ شعور نحوك، وبما أنّني بتّ غير راغب فيك، إلخ ...، فهذا يعني أنّني لم أعد أحبّك . " وتستقرّ هذه القناعة بين الأزواج بقوّة، خاصّة عندما ينشأ "شعور" جديد، وانجذاب جديد ... ويفرضان ذاتيهما على أنّهما الحبّ الجديد الحقّ، في حين أنّ الحبّ القديم كان ... خطأ .

هذا المفهوم للحبّ خاطئ، وبقدر ما ينتشر، يؤدّي إلى عواقب وخيمة، وكالعثّ في الخشب، أو كالدود في الفاكهة، ينسف، من الداخل كلّ تلاقٍ بين البشر، ليس فقط في الأُسر، وبين الأَصدقاء والرفاق" ... بل، أيضاً، لدى جميع التجمّعات، وفي قلب النسيج البشريّ الحيّ بأكمله .

إنّ جذور الحبّ (و هذا لا يعني، بالطبع، "كلّ" الحبّ) هي، جوهريّاً **ابتغاء خير الآخر**، أي، عمليّاً، أن نريد له – وأن نسعى مباشرة أو غير مباشرة إلى أن نوفّر له – ما نبتغيه لأنفسنا من خير، أيّاً كان الآخر، وسواء كنّا لا نشعر نحوه بأيّ ميل، أو كنّا منجذبين نحوه، سواء كان مستحبّاً أو مستقبحاً، صديقاً أو ... عدوّاً .

و لنقل، أنّه، للمسيحيّين، هو ما يعبّر عنه يسوع في وصيّة الحبّ: "أَحبب قريبك كنفسك".

فإن أَنا أحببتُ الآخر، أي إن ابتغيتُ خيره، فلستُ أسعى إلى أن " آخذ لنفسي " الثروات التي تجتذبني وتفتنني فيه، في جميع مستويات كيانه، وإلاّ لأَحببت نفسي ولم أُحبّه هو، بل عليّ أن أقدّم له كلّ ما أستطيع لكي أُغنيه .

قياس عمق حبّي ليس، إذن، كثافة مشاعري نحو الآخر، بل وزن الحياة الذي أزوّده به . إن أحببت قليلاً، أعطيت قليلاً، وإن أحببت كثيراً، أعطيت كثيراً وإن أحببت "بكلّ قواي" لأعطيت كلّ حياتي . وهذا، أيضاً ، ما قاله يسوع : " ليس من شهادة حبّ أكبر من أن يبذل المرء حياته في سبيل من يحبّ ".

و ليس من حبّ، ما لم يكن بذل حياة للآخر؛ فالحبّ، هو، دائماً، منح الحياة .

و إن لم يكن حبّاً، أن يأخذ المرء لنفسه، فمن الحبّ، قدرة المرء على أن يتقبّل من الآخر ما يهبه بحرّيّة، على ألاّ يغفل أن الحبّ الحقّ هو دائماً مجّاني . أمّا القول : " أعطيك هذا، فماذا تعطيني، أنت في المقابل ؟ "، والمقارنة، والمحاسبة، فكلّ ذلك تجارة، وليس حبّاً .

من المحقّق أنّ إرادة التبادل والرغبة فيه هما أساس الصداقة، وخاصّة في أساس التزام شخصين يودّان تأسيس أُسرة .

و يبقى أنّ الحبّ هو دائماً المخاطرة بالحياة في سبيل آخر أو الآخرين ووحده الإنسلان قادر على ذلك .

و في الزواج الحبّ هو **المخاطرة بالحياة**

و لكن ما دور المشاعر في الحبّ ؟ وفي كلّ ما نشعر به حيال إنسان، وكلّ ما يجتذبنا نحوه، ويجعلنا نصرّح له : " أُحبّك ؟ "

هذا الإحساس، سواء كان مكتوماً أو صاخباً، إن تسلّل خلسة وبتؤدة، أو فرض نفسه بغتة، ليس "في ذاته" حبّاً، ولكنّه عونٌ ثمين، وأحياناً لا بدّ منه، للحبّ (كما هو الحال في علاقة ثنائيّة) . ومن ثمّ ينبغي ألاّ نزدريه أو نكبته، بل أن نتقبّله بفرح عندما يبرز . فهو يساعد على انتزاع المرء من أنانيّته، والخروج من ذاته، في سبيل المضيّ نحو الآخرين، ومنحهم قليلاً أو كثيراً من حياتنا .

ما الانجذاب، و"خفقان القلب" سوى رنّات هاتف تدعونا إِلى التحادث وقرعٍ على بابنا يدعونا إِلى فتحه، ويستدعينا إِلى الخروج .

و ما تلك الميول الطبيعيّة للمسيحيّ سوى إشارات إلهيّة تدعو إِلى بذل ذات يؤثر شخصاً أو مجموعة أشخاص .

و حينئذٍ، هنيئاً لمن لم يقطع هاتفه، ولم يغلّف بابه لكيلا يسمع النداآت، أي لمن لم يكتم أو يخنق شعوره، خشية أن يُزعَج، ويُدفع، ويعرّض اتزّانه للخطر .

و لكن حذار، فلئن هو كان مدفوعاً خارج ذاته، فليس لكي يأخذ ما هو راغب فيه، بل لكي يقدّم ما لديه، وإلاّ لأفشل دعوة الحبّ .

لا جَرَم أنّك تستطيع أن تقرّر بعقلك، بسخاءٍ وجدوى، توجيه حياتك نحو الآخرين . وبوسعك أن تتوقّع، وتخطّط للعمل أو المبادرة اللذين ستعبّر بهما، عمليّاً عن عطائك هذا، اليوم، وغداً، وفي هذه الحالة المحدَّدة أو تلك؛ غير أنّ الإحساس، عندما يلعب دوره، يجعلك تتخطّى قراراً بارداً صادراً عن فكرك وإرادتك، وعن تخطيط منهجيّ، إِلى **حاجة واقتضاءٍ نابعين من كلّ كيانك**، وتسمح للحبّ أن يأخذ حجم التزام **تامّ** . فبكلّ كياننا المتكامل ينبغي أن

نمضي نحو الآخرين . وهذا ما عبّر عنه يسوع عندما طالبنا بحبّ اللّه والقريب "بكلّ قلبنـــا، وكلّ نفسنا، وكلّ فكرنا"

الإحساس هو هوائيّ القلب الذي يلتقط أدنى نداآت الآخر والآخرين من حولنا، ويدفعنا إِلى الاستجابة لهم بحجم طلباتهم . وهو الذي، عندما يروي بمياهه كلّ كياننا –مـــن غيـــر أن يغرقه– يتيح لنا أن نقول بصدق، مع الأب بيير: الحبّ هو " أن أَتألّم عندما أنت تتألّم ". ففـــي الواقع معجزة الحبّ الكامل، حيال الكائن المتألّم، ليست الاقتصار على التأسّف لألمه والتأسّي له، بل اقتسامه اقتساماً قدْسيّاً، والمشاركة مع المحبوب .

و يدرك المسيحيّون أَنّ يسوع، الإنسان الكامل وحده، قد مضى في المشـــاركة حتّـــى نهاية الشوط؛ وبحبّه أصبح كلّ هوى البشريّة هواه .

و من المؤكّد أَنّ المرء الذي يحسن توجيه إحساسه فيتيح له ملء ازدهاره، يتعـــرّض للتألّم أكثر ممّن كبت إحساسه، ولكنّه يتأهّب، أَيضاً لاستقبال سعادات كبرى يجهلها الآخرون .

و نسمح لأنفسنا بإكمال عبارة الأب بيير فنقول: إن كان الحبّ هو أَن أتـــألّم عنـــدما تتـــــــألّم، فهـــــو أَيضـــــاً أن أســــعد عنـــــــدما تســــعد أنـــــت .

نزاع

قبل موته قال يسوع لأبيه : " إلهي، إلهي، لمَ تخلّيت عنّي ؟ "

الموت هو عبور يواكبه نزاعٌ شديد . ونزاع الموت هو نزاع وفراق .

و أحد الأسباب التي تحملنا عن نبذ الآخرين، هو رفضنا القبول بواقع الموت؛ فالموت يخيفنا، لأنّ الموت هو هذا الواقع الرهيب الذي يقول لنا: "ماذا ستفعل إزاء ذلك ؟ موجوداتك، ومالك، وسيّارتك، كلّ ذلك عدم، كلّ ذلك فقاعة ستتفجّر يوماً"

إن الموت هو من الوقائع التي تحشرنا بجدار، وتخيفنا؛ ولذلك نأبى رؤيـــة إخواننـــا الذين يتألّمون، فهم يذكّروننا بموتنا . "

الفقر بالروح

أحد أصدقائي تولّى إدارة قرية للبرص، في بلدٍ أسيويّ؛ وكانت تلك القرية على فقــر مدقع، قريةَ منبوذين؛ ورويداً رويداً، أدخل صديقي عليها مشاريع صناعيّة وبمؤازرة فريــق مؤهّل، وفي غضون عشر سنوات جعل منها مكاناً جديراً للعيش؛ وارتفع مستوى العيش فيها ارتفاعاً هامّاً . غير أَنّ البرص الذين تمكّنوا من العمل بنجاح نبذوا، شيئاً فشيئاً، أولئك الــذين فشلوا، وطردوا من القرية البرص المعاقين إعاقة شديدة .

و انتهى صديقي إلى الاعتراف : " لم أفعل أيّ شيءٍ جيّد، بل كلّ ما فعلتــه هــو أن حوّلت قوماً كانوا بائسين إلى متكبّرين، ينبذون سواهم . وعوضاً عن إقامة قريــة تعــاطف، أقمت قرية تحاكي عالمنا الحديث، قرية أَفراد مادّيّين وأنانيّين لا يكترثون لإخوتهم المتألّمين ".

إِنصات

علينا أن نتعلّم الإِنصات للآخرين،
و أن نُعجب حيال الطبيعة،
و أن نرتاح، برهة، في حضور يسوع،
و أن نتقبّل حبّ من يحيقون بنا، ونتغذّى بثقتهم،
و نجد فرحنا في أشياء الحياة اليوميّة، الصغيرة .
و ألاّ نعظّم ذواتنا، بل ان نرضى، بأَن نعود فنصبح مثل أطفال يعرفون كيف يضحكون، ويعبثون ويحتفلون .

السامريّة

المشاركة هي الاعتراف بالحاجة إِلى الآخر، على غرار يسوع المتعَب الذي التمس من السامريّة أن تسقيه . لم يطلب منها أن تغيّر سلوكها، بل قال لها ببساطة أَنّه في حاجة إِليها، التقى بها في أغوار ذاتها، واتّصل بها، ودخل في علاقة تنطوي على تلقٍّ وعطاء، يتوقّف فيها المرء وينصت . وإِنّه لأهون أن يعطي المرء من أن يتوقّف، ولا سيّما عندما يُعاني . لاريب أنّ الفقير يحتاج إِلى مال، ولكنّه، كالطفل، يحتاج خاصّة إِلى التقاء صديق يسعد بأن يكون معه .

مع يسوع أُشرعت أبواب الحياة الجديدة، وبات بوسع النبع أن يتدفّق إِلى الأَبد، مقدّماً مياهه المنعشة لجميع سامريّي التاريخ البشريّ وسامريّاته، كي يجعل منهم بشراً جُدداً في عالمٍ جديد .

غسل الأرجل

قبل أن يقدم على غسل أرجل تلاميذه خلع يسوع ثيابه، الثياب التـــي تضـــفي علـــى الإنسان كرامته، وتدلّ على مركزه الاجتاعيّ .

غسل الأرجل يعني الانحدار إِلى أَسفل درك الكائن البشريّ، حتّى الحضيض وقبـــول الاغتسال يعني الحاجة إلى الآخر، والتصاغر .

الزانية

عطف يسوع وغفرانه يهبان الحياة،

و قد عادت المرأة بعد أن حوّلها الحبّ،

و ما عادت سجينة، يكبّلها شعورها بالذنب،

بل متحرّرة، لكي تحبّ في الوفاء

.

ومضات

– الإنسان المعاصر شغِف بالحرّيّة، ثملٌ بها، وقد تكون الحرّيّة سبب موته

– عندما نخاف من إنسان نوحي إليه بالخوف من ذاته ومن الآخرين . ولكن عندما نعامله على أنّه " طبيعيّ " يصبح " طبيعيّاً " . إنّ نظرتنا إلى إنسانٍ ما كفيلة بتغييره .

– عندما يفقد شخص أو جماعة الديناميكيّة أو الرجاء في الحبّ، ولا سيّما في حبّ اللّه الشافي، تستعصي مشاكله .

– الثروة، كالرفاه، تخنق الطاقات .

– المال واقع مشبوه، ينبغي معرفة اكتسابه اكتساباً سليماً، وإنفاقه إنفاقاً حكيماً .

– للمعوقين، الحبّ هو قضيّة حياة أو موت، فهم أنبياء الحبّ، والتواصل، والحياة القائمة على علاقات مودّة . ليسوا معلّمي ذكاء ومهارة، بل هم معلّمو الحبّ .

– إنّ إنساناً متخلّفاً ذهنيّاً قد يعيش حياة عاطفيّة عميقة، حياة القلب التي تجعله يعقد علاقات حميمة مع آخرين يوفّرون له الحماية والنصح والتشجيع، على درب التقدّم الإنسانيّ والروحيّ .

على غرار الإنسان البدائيّ، المتخلّف عقليّاً هو، جوهريّاً، كائن قلب وإحساس عميق .

– في نواحٍ عديدة، وخلا بعض استثناءات، المعاقون عقليّاً لا يعيشون كثيراً مراهقتهم، ولا يبحثون عن مَثَل أسمى، بل يعبرون سريعاً من الطفولة إلى مرحلة البلوغ؛ وبعضهم، ولا سيّما المصابين بإعاقات سحيقة، يعبرون مباشرةً، إلى مرحلة الشيخوخة . ومن ثمّ يبدو أنّ لدى بعضهم نضوجاً أكبر من شبّان يبحثون عن هدف .

مراجع

- BILL DARKE S.J. " Un pari pour la joie : L'ARCHE de jean vanier " , 2e edition 1985 , BELLARMIN - FLERUS

- ODILE CEYRAC : ' Decouvrir Ton visage"
FAYARD,1988

- KATHRYN SPINK : " Jean Vanier et l'Arche "
BELLARMIN - FLEURUS, 1993

- FRANK JANIN S.J. : " Avec Jesus pouvre et humilie "
COLLECTION VIE CONSACREE, 1993

2 – مؤلّفات جان فانييه

- Ton Silence M'appele
FLEURUS, 1974

- Ma Faiblesse, C'est Ma Force
BELLARMIN, 1975

-Ouvre mes bras
FLEURUS , 1975

- Disciple de jesus
BELLARMIN, FLERUS, 1977

- Ne crains pas
BELLARMIN , FLEURUS, 1978

- Homme et femme , Il les fit
Pour une Vie d'Amour authentique
FLRURUS- BELLARMIN 1984

- La Communaute lieu du pardon et de la fete
FLEURUS - BELLARMIN 1989

- Tout personne est une histoire Acree
PLON 1994

- jesus , le don de l'Amour
FLERUS- BELLARMIN 1994

-Le Pauvre au coeur de l'Arche
LA FERME , 1994

-L'HISTOIR de l'arche
BAYARD / CENTURION 1995

- La Spiritualite de l'Arche
BAYARD / CENTURION 1995

- Aimer jusq'au bout
BAYARD / CENTURION 1996

- Le Corps Brise - Retour vers la communion
PAROLE ET SILENCE 1998

- La Depression
LE LIVRE OUVERT 1999